



جَارِمِيَّات

بحوث ومقالات الشاعر

والأديب اللغوي

علي الجارم

دار الشروق

جَارِمِيَّاتٌ

بحوث ومقالات الشاعر

والأديب اللغوي

على الجارم

نُفُوح

بسم الله الرحمن الرحيم

آن يا شِعْرُ أن تُغْنِي فَأُرْسِلُ من قَوَائِكَ ما يَهْزُ الوُجُودَا
أُنْكِيَتِ الصَّادِحَاتِ يَنْفُخْنَ في الدُّ فُوحٍ وَكُنْ في عِشَائِهَا تَغْرِيدَا
حَفِظْتُ رَتْنَةً وَقَدْ رَدَّدْتُهَا فَأَبْتَعْتُ اللَّحْنَ جَارِمًا جَدِيدَا
(على الجارم)

أيها القارئ الكريم

عندما كنت أجمع شعر الوالد المرحوم الشاعر الكبير على الجارم، لكى أعيد طبع ديوانه الذى قامت بطبعه «دار الشروق» فى طبعته الأولى عام ١٩٨٦، والثانية عام ١٩٩٠، وعندما كنت أعيد طبع قصصه النثرى الأدبى التاريخى وطبعته «دار الشروق» أيضًا فى كتاب «سلاسل الذهب» الذى صدر عام ١٩٨٩، وعندما قرأت كتاب «على الجارم باحثًا وأديبًا» للأستاذ المرحوم الشاعر الأديب اللغوى محمد الغزالى حرب، والذى قامت بطبعه ونشره دار الفكر العربى عام ١٩٨٨، أحسست بواجبى الملح فى أن أجمع تراثه البحثى اللغوى والأدبى والذى نشره فى المجلات الأدبية المختلفة فى ذلك العهد أو فى مجلة مجمع اللغة العربية، والذى كان عضوًا به منذ إنشائه عام ١٩٣٣، وحتى يكتمل نشر تراثه الأدبى كاملاً من شعر ونثر وبحوث لغوية وأدبية فى المكتبة العربية، وحتى يطلع الجيل الحالى على ما كتبه هذا العملاق الذى لا يتكرر، وينين عظمة العهد الأدبى الذى عاشه ومدى ازدهاره، ولكى يسهل على دارسى الأدب إعداد دراساتهم وبحوثهم الأدبية أو التاريخية. وطالما ترددت فى خاطرى وأنا أجمع هذه البحوث - أو هذه الكنوز - الأبيات التى رثى بها ثلاثة من أعضاء المجمع عام ١٩٣٩ م، وهم المرحومون: أحمد الإسكندرى وحسين والى والمستشرق نيليو الإيטالى، وأدركت مدى صدق ما قاله حيثئذ على ما كنت أجمعه من تراثه:

أَتَذَقْنَ فِي الْأَرْضِ الْكُنُوزَ وَفَوْقَهَا
وَيَمُضِي الْحَبَا مَا بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
يَضِيقُ فُضَاءُ الْأَرْضِ عَنْ هِمَّةِ الْفَتَى
وَيُجْمَعُ فِي تَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ صَبِيْقٍ
خَلَاءٌ إِلَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُلْقٍ؟
كَلِمَتِهِ طَرْفٍ أَوْ كَوْنُضَةٍ مُبْرِقٍ

وعندما أسترجم ما سجّله بعض معاصريه في كتاباتهم عن أدبه وعلمه ونبوغه، أشعر باللوم الذاتي الشديد لتقصيري في نشر هذا التراث حتى اليوم.

ففي كتاب «تيسير الكتابة العربية»^(١) الذي نشره مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦ م والذي يضم مقترحيّ المرحومين عبد العزيز فهمي باشا وعلى الجارم بك عضويّ المجمع في تيسير الكتابة العربية، جاء في صفحة ٩٢ على لسان عبد العزيز باشا فهمي قوله: إنه (أى على الجارم بك) أستاذى وأستاذ غبرى في النحو والصرف ورسم الكتابة غير منازع، والطاعة والتسليم واجبان له.

كما أشاد المرحوم الدكتور حافظ عفيفى باشا في كتابه «على هامش السياسة»^(٢) بكتاب النحو الواضح والبلاغة الواضحة، وحيّا المؤلفين الرائدین العظیمین لهذه الكتب (وهما المرحومان على الجارم بك ومصطفى أمين بك)، وهنأهما في غبطة وارتياح بطريقتيهما الفلذة المبتكرة في التأليف والبحث لأنها طريقة تربوية مشوقة عمادها الأول: «إيراد الأمثلة الحديثة التي يجدر بالتلميذ أن يستعملها في أحاديثه وشرح هذه الأمثلة ثم استخلاص القاعدة أو القواعد منها وهي طريقة بيداغوجية حديثة».

ويقول الأستاذ إبراهيم مصطفى مؤلف كتاب «إحياء النحو»^(٣): أراحت كتب النحو الواضح مئات من المعلمين ويّسّرت على ألوف من المتعلمين، وأزاحت عن هذا العلم - علم النحو - سُحْبًا من النفور والكراهية كانت تحيط به وتصد المتعلمين. ثم شاعت في البلاد العربية وصارت كالمناهج لتعليم النحو، وأحدث أسلوبها في الشرح والتأليف مدرسة أخذ المتعلمون يتبعونها يؤلفون على مثالها محاكين أو مقلدين.

وجاء في تقديم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد لديوان على الجارم^(٤) قوله: فهو أديب وافر المحصول من زاد الأدب أو زاد الرواية الأدبية من قديمها إلى حديثها ومن مبتكرها إلى منقوبها، وهو عالم باللغة وعالم مع اللغة بفنون التربية وفروعها، وهو الشاعر الذي زوّده الأدب والعلم بأسباب الإجابة والصحة فكان شعره زادا لطالب البيان في عصره ومثالا صالحا للثقافة التي أسهم فيها بأدبه وعلمه.

(١) يوجد هذا الكتاب في مكتبة مجمع اللغة العربية.

(٢) كتاب على الجارم باحثاً وأديباً للأستاذ محمد الغزالي حرب. نشر دار الفكر العربى عام ١٩٨٨ ص ١٩.

(٣) كتاب على الجارم باحثاً وأديباً للأستاذ محمد الغزالي حرب. نشر دار الفكر العربى عام ١٩٨٨ ص ١٨.

(٤) ديوان على الجارم. الطبعة الثالثة. الدار المصرية اللبنانية.

وجاء في كلمة الأستاذ المرحوم أحمد العوامري بك عضو مجمع اللغة العربية في رثائه للمرحوم الجارم قوله^(١): «كان عضواً ناشطاً في مؤتمر المجمع ومجلسه ولجانه، قويّ الحجة ساطع البرهان، تسعفه ذلاقة لسان، وقوة بديهة، وشدة عارضة، وتزينة تؤدّ في القول، ورزانة عند الجدل، وهذوء في النقاش، وكان - رحمه الله - من دعائم «لجنة الأصول» وهي اللجنة التي زوّدت المجمع - ولاسيما في عهده الأول - بالقواعد التي يقوم عليها التعريب والاشتقاق، والتضمين والنحت والقياس، إلى غير ذلك. وأعضاء هذه اللجنة يتوفرون على دراسة كتب الأئمة وأقوال المجتهدين في اللغة، ويستخلصون منها ما ييسر عمل اللجان الأخرى، كلجنة الطب ولجنة الطبيعة، ولجنة الكيمياء، إلخ. . . وكان ذلك يقتضي عناء، ويقتضي سهرًا ومراجعة دقيقة. وكما كان للجارم في هذه اللجنة، وحول تلك المباحث والأصول، في جلسات المجمع من أخذ ورد. وكما كان له فيها من محاورات ممتعة ومناقشات شائقة. فلم يكن من أصل إلا له فيه دراسة، ولا قاعدة إلا له فيها كلام. والمتتبع لمحاضر المجمع منذ إنشائه يعجب لما للجارم فيه من نشاط متصل وما له من جهد دائب في كل ما تناوله من بحوث وما انتهى إليه من قرارات.

وجاء في كلمة الأستاذ أحمد أمين بك عضو مجمع اللغة العربية في رثاء الشاعر على الجارم بك قوله^(٢): «وكان - رحمه الله - ذوّاقاً طروباً، يتذوق المعنى الجميل والفكرة البديعة والنكتة الرائعة، فيطرب لها أشد الطرب ويشيع طربه في كل من يجالسه. وله حكم صائب على ما يقرأ وما يسمع، يُقوّمه تقويّاً دقيقاً وينقده نقدًا صحيحاً. ثم هو لا يتعصّب لرأيه، فإذا سمع ما يخالفه أصغى إليه في أناة، وفكر فيه في سباحة، وإذا اقتنع بصوابه أعلن عدوله عنه في صراحة. له أثر كبير في كل هيئة يتنسب إليها، وفي كل عمل يتجه إليه. اتجه إلى تبسيط النحو والبلاغة فبسطها فيما ألف من كتب. وكان حركة دائمة في المجمع اللغوي؛ يشترك في وضع المعجم الوسيط، ويشرف على إخراج مجلّته، ويساهم مساهمة فعّالة في أكثر لجانه. وآخر ما فعل فيه إلقاؤه محاضرة قيّمة عن الموازنة بين الجملة في اللغة العربية وفي اللغة الأوروبية، والسبب في أنها أكثر ما تكون فعلية في الأولى واسميّة في الثانية، ثم مناداته القوية في إصلاح الإملاء. واشترك في لجنة مناهج اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية، فكان من أكثر الأعضاء عملاً ونقدًا واقتراحًا وإصلاحًا.

وقد جمعت مادة هذا الكتاب الذي يشتمل على المقالات والبحوث التي نشرها الشاعر والأديب والعالم اللغوي المرحوم على الجارم مرتبة ترتيباً تاريخياً. ولا يفوتني أن أشكر العالم الأديب الأستاذ محمد مهدي علام نائب رئيس مجمع اللغة العربية لشريفه هذا الكتاب بكتابة مقدمته.

(١) مجلة مجمع اللغة العربية المجلد السابع عام ١٩٥٣م.

(٢) مجلة الثقافة عدد فبراير ١٩٤٩م.

ولا يسعنى وأنا أختتم هذا التقديم سوى أن أستعير قوله^(١) في دار العلوم عام ١٩٢٧م، وهى الكلية التى ارتبط بها دارسنا ثم أستاذًا فعميدًا حتى أن وصل إلى المعاش لبلوغه سن الستين عام ١٩٤٢م:

فكأننى أرى الزمان وقد دا	ر وعاد الصبا نضير الإهاب
وأرى الجارم الفتي يقود الس	حشد في جحفل من الطلاب
وايها لاهيا لمويًا صحوكا	غير ما واجل ولا هياب
واثقا بالاله، ليس يرى الصغ	ب سوى أن تهاب خووض الصعاب
فهو كالطائر الطليق فحينما	في وهاد ومرة في هضاب
عابت بالفصون في ظل روض	حاك أنواقه ملث الرباب
يجمل الكتب في الصباح وللا	مال في صدره تبيح العباب
رأسه رأس ماله، وامتلأ الر	أيس خير من امتلاء الوطاب

أستاذ دكتور أحمد على الجارم

القاهرة مارس ١٩٩٠

(١) ديوان على الجارم الطبعة الثانية. دار الشروق عام ١٩٩٠ ص ١١٨.

مقدمة

للأستاذ الدكتور محمد مهدي كلاله
نائب رئيس مجمع اللغة العربية

على الجارم
صاحب هذا التراث

كنت فتي في السادسة عشرة، يملؤني الأمل، ويشجعني على الإقدام، توفيق من الله تعالى في سنوات دراستي الابتدائية والثانوية، حتى ذلك اليوم الذي تقدمت فيه لامتحان المسابقة في القبول بدار العلوم (نوفمبر ١٩١٦). وكان نظام القبول فيها امتحاناً تحريراً، في فروع اللغة العربية، والمواد الاجتماعية، ثم شفوياً في القرآن الكريم، وألفية ابن مالك حفظاً وشرحاً، والقراءة في كتاب من كتب التراث، واختبار في المعلومات العامة.

وعند ظهور نتيجة الامتحان التحريري، وفق الله تعالى فكنت أول الناجحين، وتوجهت إلى لجان الامتحان الشفوي على الترتيب السابق. وسعد الفتى العاشق لدار العلوم بحصوله على أعلى الدرجات في المادتين الأوليين، وانتقل متلهلاً إلى اللجنة الثالثة، وكان عضواها الأستاذان عثمان بك لبيب، وعلى الجارم. وجلست أمامهما أرد على أسئلتهما (أو بالأحرى أسئلة الأستاذ الجارم). ثم ناولني نسخة من كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي، فقرأت منه قدرًا يزيد على صفحة لم أخطئ في كلمة منها. فقال لي الأستاذ الجارم: هذا كاف، ثم اتجه إلى عثمان بك لبيب، قائلاً له بالإنجليزية: (Thirty seven)، فقلت له، في جرأة الشباب، والثقة بالنفس: ولماذا تنقصني ثلاث درجات وأنا لم أخطئ في أي شيء؟ (النهاية العظمى ٤٠) فقال: أنت تعرف الإنجليزية، يا ولدا قلت: نعم. فضحك قائلاً: اذهب فهذه درجة لم يحصل عليها أحد مني قط.

كان هذا أول لقاء لي مع الأستاذ الذى كان يملأ المجتمع المصرى يومئذٍ بشهرته الأدبية والشعرية .

وبعد أن عرفت أنه الجارم العظيم عدت إلى بيتى ، وأعدت قراءة قصيدته التى كانت منشورة فى عدد قديم من أعداد مجلة (الهلال) وهو طالب بعد ، وكانت ضمن مجموعة من المجلات التى كانت فى بيتنا إبان صباى . وكانت عن (الكوليرا) التى انتشرت فى أوائل هذا القرن . كنت أحفظها قبل أن ألتقى بقائلها . ولو كنت أعلم من هو يوم أن جلست أمامه ليمتحننى ، لأبلغته إعجابى (إعجاب فنى شاعر) بقوله فى تلك القصيدة ، مشيراً إلى تشبيه الأطباء لمكروب (الكوليرا) بحرف الواو :

لست كالواو، أنت كالمنجل الحصاد، إن أحسنوا لك التمثيلا

كم فناة طرقتها ليلة الثُرسِ، وقبل الحليل كنت الحليلا

يا أخا الاحتلال، آذيت بالنفس وبالمال، فالرحيل الرحيلا

وبقيت الفترة المتبقية على بدء الدراسة (كان نظام «دُئْلُوب» المستشار الإنجليزي يقضى أن يبدأ العام ، فى دار العلوم ، فى أول يناير، وأن يكون الامتحان النهائى فى ديسمبر) ، وأنا أنطلع إلى أن أنعم بأستاذية الرجل الذى علمت عنه بعد يوم الامتحان أنه لا يمنح الدرجة العظمى إلا نفسه ؛ ولكن كان قد نُقل مفتشاً بوزارة المعارف قبل يناير ١٩١٧ .

وفى الفترات التى كانت بين المحاضرات كنت أسمع الطلاب القدامى يتناشدون قصيدته التى كانت بعنوان «الحب والحرب» ، والتى مطلعها :

مالى فُتنتُ بلحظك الفتاك! وسلوْتُ كل مَليحةٍ إلّاكِ!

وكنا نتبادل النصوص والمذكرات التى ندرسها ، بطبعها على ما كان معروفاً ، فى ذلك الوقت ، باسم مطبعة الغراء (باللوطة) . ونسختى التى كانت من نصيبى من «الحب والحرب» لا تزال عندى بين أوراقى التى تسجل هذه المرحلة من حياتى .

وقبل أن أترك «مالى فُتنتُ بلحظك الفتاك» أذكر أننى بعد تخرجى وعودتى من إنجلترا، كنت أمتحن طلبة (البكالوريا) - شهادة إتمام الدراسة الثانوية - شفويًا ، فى القراءة والنصوص الأدبية (كان النظام يقتضى أن الذين ينجحون فى الامتحان التحريرى يمتحنون شفويًا قبل إعلان النتيجة النهائية) . وسألت أحد الطلاب عما يحفظ من الشعر، فانطلق مبتهجاً : . . . وقالت الأنسة أم كلثوم :

مالى فُتنتُ بلحظك الفتاك! وسلوْتُ كل مَليحةٍ إلّاكِ!

فقد كانت أم كلثوم قد غنت جزءاً كبيراً من هذه القصيدة ، وكان صوتها يسمع من الأسطوانات التى سُجلت عليها ، من نوافذ البيوت فى ليالى الصيف .

وقد لقيت الأستاذ الجارم، بعد امتحانه لى بنحو العام، فى حفل تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله، أول من عُيِّن كبيراً (عميداً) للغة العربية فى وزارة المعارف. كنت يوم هذا اللقاء طالباً فى دار العلوم، وفى يوم التأبين اختاروا أوائل الفرق الدراسية، فذهبت لحضور الحفل الذى أقيم فى القاعة الكبرى (بدرب الجماميز)، وهى القاعة التى نشأت فيها (دار العلوم)، يوم أسسها على مبارك باشا، باختيار عدد من نوابغ طلاب الأزهر، ليتلقوا العلوم العربية والشرعية والفنون الحديثة فى تلك القاعة. (ويحل محل المكان الآن المدرسة الخديوية بمبانيها التى فيما يسمى الآن شارع بورسعيد).

وفى ذلك الحفل برياسة عدلى يكن باشا، وزير المعارف يومئذ، وعِلية القوم من علماء وأدباء، سمعت الجارم حين صعد إلى منصة الخطابة، وبدأ يقول:

رَبِّ وَرَقَاءَ هَتَوِيْ فِي الضُّمَى ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ

ويعد هذه القطعة القصيرة من الشعر المأثور، أفاض بخطبته الفريدة، البارة النسيج. وظل السؤال الطبيعى معلقاً فى ذهنى نحو عشر سنوات: لماذا لم يقل الجارم يومئذ شعراً؟ حتى أتيح لى شرف الجلوس معه ومحدثته، فسألته عن سر اتجاهه إلى النثر، بدل الشعر، فى تلك الحفلة الخالدة، فقال لى: إنه كان يومئذ مفتشاً ناشئاً، لم يمض عليه فى وظيفته إلا بضعة أشهر. ويبدو أن القائمين على إعداد برنامج الحفل الذى كان فيه كبار الشعراء، وفى مقدمتهم حفنى بك ناصف ولم يذكروا (الأستاذ الجارم) إلا فى الليلة السابقة ليوم الحفل؛ ولذلك — كما قال لى: خشيت أن أتعجل بقصيدة لا تضارع قصائد الحفل، فلجأت إلى لغة الخطابة. وهى منشورة فى صفحات هذه المجموعة: رائعة من روائع الأدب العربى، تجمع بين جهازة اللفظ العباسى ورقة العصر الحديث.

وكان من حظى أن أدرس فى جامعة إنجليزية، كان قد سبقنى إليها بأربعة عشر عاماً. وكنت مولعاً بالشعر الإنجليزى، ألقية فى حفلات الاتحاد الجامعية، وندوات الأدب؛ ولا أنسى وساماً شفوياً أهدته لى الأستاذة «ووكز» التى كانت فى الجامعة منذ أيام دراسة الجارم، لقد فاجأتنى، على إثر اللقاء لإحدى قصائد الشاعر «وورذورث» بقولها: أنت تذكرنى بلقاء الجارم.

ويشرف هذه المقدمة أن أذكر فيها علاقتى بدراسته لعلم النفس، وهى مادة تخصصه الأولى، كما كانت لى كذلك مادة تخصصى الأولى (قبل أن تحتوينى اللغة والأدب، دون عقوق «للحبيب الأول»):

لقد درست علم النفس، طالباً فى دار العلوم، فى أحد كتبه التى اشترك فيها مع زميله، أستاذى العلامة مصطفى أمين. وهو أول تأليف بالعربية فى علم النفس — وما سبق ذلك كان فى علم التربية — وكانت فصول هذا الكتاب «علم النفس» بينهما، كل فصل بقلم أحدهما، بعد اشتراكهما فى تحديد

المعلومات التي يعالجها الفصل . وكنت أنا وزميلي ، الذى كان يشاركنى فى معظم نشاطى العلمى (المرحوم عبد الجواد معوض زيدان) ، نقارن أسلوبين فى فصول هذا الكتاب ، فكانت بعض فصوله تتدفق أدباً رفيعاً يعبر عن حقائق علم النفس كأنها خطرات شاعر؛ على حين كانت الفصول الأخرى تلتزم بدقة الأسلوب العلمى الذى يكاد يزن الحرف قبل الكلمات ، ويعطى الحقائق العلمية كأنها معادلات رياضية ، وكان صاحب الأسلوب الأول هو الشاعر الأديب ، الضليع فى علم النفس ، على الجارم ؛ وكان صاحب الأسلوب الثانى هو العالم الأستاذ فى مادته ، يعبر عنها فى أدق الصيغ ، لا يستهويه بيت شعر مثلاً يكون معبراً عن المعنى الذى يكتب عنه ، كما فعل زميله الجارم عندما كان يتكلم عن أثر الوحدة فى الشخصية فإذا ذاكرته تلى عليه قول الشاعر:

يَا لَيْتَنِي وَأَنْتِ ، يَا لَيْمِيسُ ،

فِي بَلَدٍ لَيْسَ بِهِ أَنْيْسُ ،

إِلَّا الْيَعَافِرُ وَإِلَّا الْعِيْسُ

كان المرحوم مصطفى أمين يرى أن لليعافير والعيس مادة أخرى ، يتكلم عنها فى موضعها . وقد عاش نموذجاً للدقة البالغة .

وظهرت إحدى طبعات كتاب علم النفس ، وقد كتب على رأس كل فصل من فصوله ، فى الفهرس ، اسم كاتبه . وعند اطلاعنا على ذلك وجدنا أن ما قدرناه كان صواباً .

ولها كتابان آخران ، هما : النحو الواضح ، والبلاغة الواضحة . وعندما أنظر فى هذين الكتابين ، أشعر بهذه الظاهرة متمثلة فى الشواهد والأمثلة التى توضح كل قاعدة نحوية أو بلاغية : فإذا هذه الأمثلة مزيج من حقائق الكون العلمية ، وروائع الأدب الباهرة . فيها تعانق العلم والأدب .

وكما أن أثر الأدب والشاعرية قد جعل العبارات العلمية فى أسلوب الجارم ، لاحظت أن تخصصه الأول ، وهو علم النفس ، لم ينزل عن طبيعته الأدبية حين يكتب فى موضوع علمى أدبى ، كما نرى فى أحد بحوثه المنشورة فى هذه المجموعة تحت عنوان «المعارضات الشعرية» ؛ فإنه يمهد لهذا البحث بدراسة سيكولوجية عن المنافسة التى هى منشأ الشعور بالرغبة فى المعارضات . يقول صاحب الفصل الذى كتب فى كتاب علم النفس عن «الغرائز» :

«غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيوانية ، وهى فى الإنسان أبين منها فى الحيوان وأظهر أثراً ، لأن الإدراك يزيدها قوة ، ويستحثها إلى البروز والظهور . وإذا كانت فى الحيوان غريزة عمية ، تصدر عن دافع آلى ولا تتجه إلى غاية ، ولا تعمل إلا عملاً تسوقها إليه الفطرة من غير قصد ، فإنها فى الإنسان غريزة مبصرة متعمدة ، تعرف ما تأتى وما تذر ، وترمى إلى هدف منصوب ، وتركض لتناول القصب فى ميدان سباق الحياة» .

«وتظهر المنافسة في أنواع الحيوان المنحط الإدراك في التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به . . . هذا شيء مشاهد في الحيوان لا مرية فيه ولا شك . . . أما غريزة المنافسة في الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظل . . .».

ويستمر عالم النفس الأديب إلى أن يصل إلى ربط غريزة المنافسة بغريزة المحاكاة، وبغريزة الإحساس بالنقص . . . حتى ينتقل إلى موضوعه الأدبي العلمي .

وليس هذا إلا مثالا واحداً مما نجده في بحوثه التي يتضمنها علم النفس .

لقد سألتني أحد النقاد، منذ سنوات عدة، عن السبب في أن خريجي دار العلوم الذين أتموا دراستهم في إنجلترا لم يظهر لهم نقد في أحضان الدراسات النفسية، وذكر أن أول ما صادفه في هذا الميدان بحوث وكتب لي . فأجبت بما هو في الحقيقة نتيجة ملاحظة لي : وهو أن الذين يتجه نقدهم إلى التحليل السيكولوجي - من هذا الرعيل الذي أشار إليه - هم الذين كانوا شعراء إلى جانب أنهم كانوا من علماء النفس، وذكرت له أنني أعرف منهم ثلاثة تحقق ذلك فيهم : أولهم على الجارم، وثانيهم محمد خليف الله أحمد، «ولا تزكوا أنفسكم» .

وبعد، فذكرياتي عن الأستاذ الراحل كثيرة، وهذه ليست إلا مقدمة قصيرة لهذه المجموعة من تراثه الذي جمعه ابنه البار، الدكتور أحمد على الجارم، الأستاذ بكلية الطب بجامعة القاهرة .

وأخيراً، فهناك عبارة كانت على لساني دائماً، كلما اجتمع رعيل الدرعميين، وهي تُلقح على في الظهور الآن . وأنا أذكرها - على استحياء - لأنني كنت شديد الملاحظة لعشرات الأساتذة الأفاضل الذين أتموا دراساتهم العليا في إنجلترا، حين ينطقون أو يتكلمون الإنجليزية ؛ وكنت أقول (ومعذرة لهم جميعاً) : لم أجد أحداً ما زالت لغته الإنجليزية أسلوباً، ونبراً، وتدفعاً، كأنه عاد من إنجلترا أمس، سوى اثنين : على الجارم، وعبد الحميد حسن . رحمهما الله، وأعز بذكرهما عشرات، بل مئات من تلاميذهم (*) .

المعادي ١٦ من شعبان ١٨٠٤ هـ

٢ من مارس ١٩٨٨ م

مهدي سلام

(*) من أراد سيرة وافية عن الأستاذ الجارم، فله سيرة في كتاب «المجتمعيون في خمسين عاماً» لكاتب هذه المقدمة .

تقديم الطبعة الثانية بقلم الدكتور أحمد علي الجارم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين ، وخاتم المرسلين . وبعد .

فقد خصني الله بفضل عميم لا أستطيع له ردًا ، وبخير كثير أعجز عن استيفائه حقه من الشكر والعرفان ؛ إذ مكنتني سبحانه وتعالى من إعادة طبع تراث الشاعر والأديب والعالم اللغوي المرحوم على الجارم من شعر في «ديوان الجارم» ومن قصص أدبي في كتاب «سلاسل الذهب» ومن مقالات وبحوث أدبية ولغوية في كتاب «جارميات» مُمَوَّنًا على جبهة الحق التي سيطرت على مقدرات الأدب في مصر خلال الثلاثين عامًا التي تلت وفاة الجارم عام ١٩٤٩ تديرها «مؤامرة الصمت» على شعره وأدبه ، تلك المؤامرة التي يشرحها الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه «الجارم شاعر العربية» ص ٩٦ قائلاً: أخشى أن تكون عروبة الجارم وإسلاميته وتصديه لأعداء العربية أهم أسباب هذا الهجوم الظلومي .

ولما آن لهذه الظلمة أن تنقشع ، ولهذا الظلم أن يتولى ويرتحل وتتخلص مصر من هذه الوصمة السوداء بنهاية عصر البطش والطغيان ، أخذت على عاتقي أن يأخذ تراث الجارم مكانه اللائق بأصالته ومكانته في المكتبة العربية ، وقد ساعدني على ذلك أناس فضلاء أخشى أن أذكر أسماءهم فتخوننني الذاكرة وأنسى اسم أحد منهم ، فلقد كانوا جميعًا شرفاء غاية الشرف وأمناء كل الأمانة

وصادقين كل الصدق، فقامت بإصدار الطبعة الثانية من بحوثه ومقالاته الأدبية بعد أن وصل عددها إلى ستين بحثاً في الطبعة الثانية، بعد أن كانت خمسة وثلاثين فقط في الطبعة الأولى - كلها منشورة ومدونة حسب تاريخ نشرها.

وعند قراءة هذا الكتاب في طبعته الجديدة - أيها القارئ الكريم - سوف تجد بحوث الجارم اللغوية التي قدمها إلى مجمع اللغة العربية شاهدة له بمقدرته وتفردته وتمكنه من علوم العربية جمعاء، ثم تقرأ دراساته ومقالاته الأدبية التي تصور المناخ الأدبي المزدهر لمصر في المرحلة التاريخية التي عاشها هو وأقرانه من الأدباء والشعراء والعلماء الذين وصفهم قائل عام ١٩٤٥ :

فَقَدُونَا عَنَادِلًا هَزَّتِ الدَّهْرَ	وَكَادَتْ تُلْهِمُهُ عَنَ حَدَثَانِهِ
وَصَحَا الشَّرْقُ نَاشِطًا يَجِبُهُ الدُّنْيَا	وَيَنْفِي النُّعَاسَ عَنَ أَجْفَانِهِ
وَكَتَبْنَا فِي رَوْعَةٍ وَبَيَانٍ	يُقَسِّمُ السَّحَرُ: إِنَّهُ مِنْ بَيَانِهِ
مِنْ إِمَامٍ وَشَاعِرٍ وَأَدِيبٍ	مُعْجَزَاتُ الْفُنُونِ طَوَّعُ بَيَانِهِ

دكتور أحمد على الجارم
المعادي - فبراير ٢٠٠٠

مرسوم (*)

بتعيين الأعضاء العاملين لمجمع اللغة العربية الملكى

نحن فؤاد الأول ملك مصر

بعد الاطلاع على المرسوم الصادر بتاريخ ١٤ شعبان سنة ١٣٥١ (١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢)
بإنشاء مجمع اللغة العربية الملكى؛

وبناء على ما عرضه علينا وزير المعارف العمومية، وموافقة رأى مجلس الوزراء؛

رسمنا بما هو آت:

مادة ١ - يُعين أعضاء عاملين بمجمع اللغة العربية الملكى كل من:

محمد توفيق رفعت باشا .

حاييم نحوم أفندى .

الشيخ حسين والى .

الدكتور فارس نمر .

الدكتور منصور فهمى . . . عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية .

الشيخ إبراهيم حمروش . . . شيخ كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر .

الشيخ محمد الخضر حسين . . . الأستاذ بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر .

(*) نقل بنصه .

أحمد العوامرى بك . . . المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية .
على الجارم أفندى . . . مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف العمومية .
الشيخ أحمد على الإسكندرى . . . أستاذ اللغة العربية بمدرسة دار العلوم .
الأستاذ هـ. أ. ر. جب . . . بمدرسة لندن للدراسات الشرقية .
الأستاذ الدكتور ا. فيشر . . . بجامعة ليبزج .
الأستاذ ا. نلينو . . . بجامعة روما .
الأستاذ م. ماسينيون . . . بجامعة فرنسا .
الأستاذ ا. ج. فنسك . . . بجامعة ليدن .
محمد كرد على بك .
الشيخ عبد القادر المغربى .
الأب أنستاس مارى الكرملى .
عيسى إسكندر المعلوف أفندى .
السيد حسن عبد الوهاب أفندى .

مادة ٢ - على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم .
صدر بسراى المنتزه فى ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٥٢ (٦ أكتوبر سنة ١٩٣٣) .

فؤاد

بأمر حضرة صاحب الجلالة

رئيس مجلس الوزراء

عبد الفتاح يحيى

وزير المعارف العمومية

محمد حلمى عيسى

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد حسن بن مبارك

محمد حسن بن مبارك رئيس جمهورية مصر العربية

إلى أسرة المرحوم الأستاذ علي الجارم ، ولله الشكر

والقصة في الله وبالله وبالله

فقد رثى القصة به المرحوم فقير إلى الله بغير الصفات وما قرره للرواية
تجديد في المرحوم قد رثى كرمه وسام العلم والفنون والبطانة الفاضلة

وإننا نأسف لفقد البهجة البهجة بنك .

فقد رثى المرحوم بالفاخرة في اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الأول
سنة ١٤١٠ هـ وأربعين سنة وإحدى عشر من الهجرة النبوية المصطفوية

رئيس جمهورية مصر العربية
محمد حسن بن مبارك

النشيطر العصرى (*)

قامت بيننا ناشئة الشعر الحديث لتشييد دعائم الشعر وتقويمه بعد الاعوجاج، وتطهيره مما لطمحه به دعاة الزور وأئمة الباطل الذين أتهتهم الإبل الشذمية عن الحديث في البخار والكهربائية. أغلقوا باب الشعر عليه وصفدوه بأصفاد الحجر واقتصروا على المعانى والمواضيع التى قالها الأول فيه، وليتهم أدخلوها من وصمة تكلف البديع الذى أضاع جوهر البلاغة وكان حجاباً كثيفاً بينها وبين الرقة والانسجام.

الشعر جديد بتجدد العصور، متقلب بتقلبها، وهو تاريخ الأمة ومظهر آدابها وعواثدها، فلما أضاع هؤلاء بين الأعراب فى البوادي يمتطى القلاص ويقاسى حر الحجاز، قامت هذه النشأة يقول قائلها:

آن يا شعر أن نك قيوذاً قيدتنا بها دعاة المحال

والحق يشهد أنهم فكوا قيوده وأطلقوا سراحه يمرح بين المتزهات والأندية كيف شاء، وقد أسمعنى أحد رجال هذه النشأة قصيدة عصرية لرب البلاغة سعادة إسماعيل باشا صبرى، ورأى أن تشطيرها إذا جرى مجراها واتبع طريقها كان له الواقع الحسن بين شعراء العصر، ثم حملنى على ذلك ليكون أول تشطير عصرى لشعر عصرى جديد، ففعلت ورجائى أن تفضلوا بنشره، وهو: (راجع القصيدة فى ديوان على الجارم، الطبعة الثانية بدار الشروق، الجزء الأول، ص ٢٢٩).

على الجارم

من طلبه الأزهر

(*) نشرت بالمجلة المصرية عدد ١٤ فى ١٥ فبراير ١٩٥٥ من ص ٥٨٩ إلى ص ٥٩٢.

العامة (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه .

«رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى» . «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم» .

أيها السادة ، إن المتصفح لكتب الأخلاق التى دونها العرب لا يجد فيها باباً خاصاً بالبحث فى العادة وتأثيرها ، ولكنه ربما عثر على شذرات نجىء هنا وهناك ، قد لا تبل غليل الطالب الحريص على اجتناء كل طارفة ترتبط بموضوع العادة وتتصل بسببه . يعجب المرء منا ويتساءل : كيف ساغ لهذه العصور الخالية التى كانت تموج بالفلسفة والعلم أن تمر من غير أن تترك وراءها حديثاً عن العادة التى هى أس الأخلاق وعماد العمران؟ كيف صبح أن يترك العرب موضوعاً مكانته فى الحياة هذه من غير أن تخط أقدامهم فيه شيئاً يكون نبراساً للمهتدين وسبيلاً واضحة للسالكين؟

هكذا يتساءل السائلون ، ولكنهم لو درسوا المسألة درس من يرجع بالشئ إلى مصدره الأول لظهر لهم سبب إغفال هذا الموضوع والسكوت عنه . لم يخص العرب باباً للعادة لأنهم لم يربطوا علم الأخلاق بعلم النفس ، وإنما كان همهم أن يكتبوا أبواباً حافلة فى تحييد الفضائل والدعوة إليها والتنفير من الرذائل والنهى عنها ، من غير أن يبينوا الصلة المثينة بين هذه الصفات وبين الخواطر العقلية والغرائز النفسية وقوة الإرادة والعادة أو يحصوا الوسائل والطرائق التى تنمو بها الفضيلة فى النفس . والنسب التى بها تنمو نار الرذيلة الموقدة ، فكانوا فيما يكتبون أشبه شئء برحالة يصف لسامعيه مدناً عدة وأها من غير أن يشرح لهم الطرق إليها ، والزاد والدخيرة التى تقوم بحاجة من يتغنى الضرب فى سبيلها .

فعل العرب كل ذلك لأن علم النفس لم يكن بالغاً أشده حينئذ ، ولم تكن نظرياته ميداناً لأقلام

(*) محاضرة ألقيت فى نادى موظفى الحكومة عام ١٩١٥ ونشرتها مطبعة البيان وتوجد بمكتبة جامعة القاهرة .

الباحثين، اللهم إلا بعض مباحث علم النفس ومظاهرها ترجعها العرب من فلسفة اليونان، وصدر بها بعضهم بعض كتب الأخلاق. لهذا أغفل العرب الكلام في العادة لأنها أشد التصاقاً بعلم النفس منها بعلم الأخلاق، ولذلك ترى أن الفرنج قد بَوَّبوها لها مرتين: مرة في كتب علم النفس، ومرة في كتب الأخلاق. أقول كل ذلك وإني أتوجس خيفة من أن يبيش في نفس واحد منكم أني أنقصت من فضل العرب أو نلت منهم، معاذ الله. إني عربى وأحب العرب، غير أن الحقيقة يجب أن يقال، والمؤاربة في العلم عقوق للعلم. على أنه لا تثريب على العربى إذا جهل حقيقة عرفناها نحن في القرن العشرين بعد جهاد طويل. ونحن لا نزال عيالاً على العرب في كثير من العلوم التى يهتر لها عطف ابن البادية عجباً حينما يذكر أن آباءه أول من ولجوا سبيلها وطرقوا أبوابها.

غير خاف عليكم، أيها السادة، أن الإنسان ينشطر إلى شطرين: جسم وروح، ولكل من هذين علم يبحث في تقويمه ورفاهه. فالعلم الذى يشفى الجسم من أدوائه وينقذه من آلامه هو علم الطب. والعلم الذى يغسل عن النفس أدراستها ويطهرها من الجراثيم القاتلة هو علم الأخلاق. ولكل من هذين العلمين علم يعتمد عليه ولا تقوم قائمته إلا به. فعلم الطب لا بد أن يُبنى على علم وظائف الأعضاء، وعلم الأخلاق يجب أن يؤسس على علم النفس ويجرى معه كتفاً لكثف، فدراسة أحدهما بدون الآخر ضرب من الهديان ومحاولة للمحال.

إن الخلقى الذى يميل علم النفس لا يصيب في الحكم على كثير من الأمراض النفسية، وكثيراً ما تخدعه الظواهر الباطلة. يرى ذلك الخلقى طفلاً رزيناً قليل الحركة والصباح، إذا جلس في موضع لم يغادره إلا بعد زمان طويل، فيحكم بأن ذلك الطفل مهذب الطبع دمث الأخلاق طاهر النفس، ولكنه لو علم شيئاً من علم النفس لجزم بأن ذلك الطفل مريض من الوجهة النفسية، لأن غريزة الحركة التى هى عماد هذه الحياة وغريزة الاستقلال بالرأى التى هى أساس كثير من الفضائل، خامدتان فيه يجب العناية بهما، ولصباح: أنجدوا الطفل فإنه مريض، وإنكم إن تركتموه رميمت البلاد برجل إمعة تَكِلَة، قليل العمل، ضعيف النكاية والرأى. هذا وإني أخشى أن أكون قد أطلت عليكم في هذه المقدمة، وهائئذا مبتدئ الموضوع الذى وعدتكم بساعه.

إن كل فرد منا عبارة عن مجموعة عادات عملية ووجدانية وعقلية، وهذه العادات منظمة بإحكام لسعادة الإنسان وشقاؤه، ودافعات لنا قسراً إلى ما كتب علينا أن نناله في الأزل.

والذى جعلنا خاضعين لقانون العادة هو مجرد أن لنا أجساماً. فإن رخاوة المنح هى السبب في أننا نفعل الشيء بجهاد وصعوبة أولاً، ثم يسهل فعله بالتدريج بعمله مراراً، حتى تنتهى بنا الحال إلى أن نفعله بدون أن نوجه إليه شيئاً من العناية والتفكير. ومثل ذلك مثل الأمطار تسقط أولاً فوق الجبل فيتخذ له الماء مسيلاً، ثم تسقط ثانية فينحت الماء في الأرض بعض الشيء، ويزيد عمق ذلك المسيل قليلاً، حتى إذا توالى تهطل الأمطار اتسع ذلك المجرى وصار نهراً عظيماً.

يقول الأستاذ كاربنتر (Carpenter) : إن مخ الطفل ينمو على الطريقة التي مرن عليها ، كما الثوب إذا طوى على شكل خاص مرارًا بقيت أطواؤه على مر السنين .

من هذا تبين لكم صدق ما تلوكه الألسنة «العادة طبيعة ثانية» أو هي كما قال ولينجتون (Wellington) فوق الطبع قوة وأثرًا . ولست تاركًا هذه المقالة لولينجتون من غير أن أناقشه الحساب فيها ، فإن أراد أن العادة في الأطفال تقهر الطبيعة ، فذلك ما لا سبيل لنا إلى تصديقه ؛ لأن ذلك الحيوان الصغير لا يزال على نضارته الأولى ، فلم تغير صبغة الله فيه عوامل العادة ولم يجد التكلف إلى نفسه سبيلًا ، فهو صورة ظاهرة من صورة الطبيعة الجميلة .

وإن أراد العادة في الرجال ، فذلك حق لا مرء فيه ، يشاهد عيانًا في كل يوم . إن الرجل وعاء لكثير من الطبائع والغرائز التي لو أطلق لها العنان لشابه في كثير من أطواره الحيوان الأعجم ، ولكنه بالعادة الاجتماعية والآداب العامة يقهر هذه الطبائع ويكبح جماح هذه الغرائز ، وما يفعله المجانين الذين تغلب فيهم العادة على الطبيعة يدل على ما استطاعة إخوانهم العقلاء أن يفعلوه لو أنهم أطاعوا الطبيعة ولم يقفوا في سبيلها .

ولا نكون راكبين متن الشطط والإغراق إذا قلنا إن أعمالنا العادية لا تنقص عن تسعة وتسعة وتسعين جزءًا من كل ما نقول ونفعل . إن معظم ما يصدر عن الرجل منكم من حين أن يهب من مرقده صبحًا إلى حين يدلف إليه ليلاً ، ليس إلا عادات محضة لا مجال للتفكير فيها . اللبس والخلع ، الأكل والشرب ، السلام والوداع ، تعرف الوجوه ، القيام والجلوس . كل هذه صارت بالعادة آلية محضة ، ولقد أعدت لنا العادة لكل سؤال جوابًا حاضرًا لا نحتاج فيه إلى إعمال الرأي .

فنحن كما ترون إبالات عادات ، وجعاب تقليد . وليس كل فرد منا إلا مقالة يكتبها الماضي وينشرها تباهاً . فوجب إذًا على المعلمين والمربين منكم أن يطبعوا في نفوس من عهد إليهم أمر تربيتهم ضروبًا من العادات التي تكون لهم حقًا عضدًا ومعينًا في مستقبل الأيام .

إن العادة في الصغر درع حصينة ترد غوائل المستقبل وتذلل صعابه . قرأت حديثًا في إحدى الجرائد الإنجليزية أن حلاقًا كف بصره واستمر يزاول عمله ، إلا أنه بعد البحث وجد أنه يميز حلق رؤوس حرفائه الذين اعتاد شكل رؤوسهم حين كان مبصرًا ويخطئ في قص شعر كل حريف جديد .

روى متن - أحد العلماء الفرنسيين - أن فتاة فرنسية كانت ولوعة بعمل صغير ، وكانت تحمل كل يوم شغفًا به . وهكذا كان العجل يتمو كل يوم فلا تشعر بزيادة في ثقله ، إلى أن انتهت بها الحال إلى أنها كانت تحمله وهو ثور كبير . فانظروا في معجزات العادة واتقوا الله فيمن تمولون .

ونحن الآن متكلمون في العادة العملية وفوائدها أعظم من أن يشرحها لسان ، فهي التي تمكنتنا من عمل الشيء بلا عناء مع السرعة والإتقان . نبتدئ الشيء فنعمله بعناية ونوجه فكرنا إلى كل جزء من أجزائه أثناء العمل ، حتى إذا صار عادة لم نُضِع فيه وقتًا طويلا ولم نعطه فكرًا وأخرجناه للناس متقنًا .

ولا تقتصر هذه السرعة وذلك الإتقان على عمل شيء خاص في حرفة مثلاً بل إن العادة تجعل نوع العمل سهلاً فالنقاش يمكنه بالعادة أن ينقش شكلاً لم ينقشه من قبل لأن يديه وعينه تعودت ومرت على النقش وإن لم تمر على خاصة هذا الشكل .

وهذا صحيح أيضاً في العادة العقلية فإننا إذا أعطينا مسألة في الرياضة ذهبنا بها إلى الخصيص بهذا الفن فحلها في طرفة عين .

وتأثير العادة العملية في الإنسان ظاهر لكم ترونه كل يوم في أنفسكم وفي غيركم وقد يؤدي ذلك التأثير إلى نتائج مضحكة . في أول إقامتي في إنجلترا كانت الكلمة الوحيدة التي نالت حظوة عند غي واتخذت منه مكاناً خاصاً كلمة (Thank you) (شكراً) كنت أقولها إذا أعطاني أحد شيئاً أو سأل عن صحتي أو أدلى إلى بنصيحة فرسخت عادة الجواب بهذه الكلمة في نفسي ، فبينما أنا في غرفة نومي ذات ليلة وقد أردت إطفاء المصباح الكهربائي ، فأدريت الزر فانطفأ ، فسمعت صوتاً صدر مني بدون فكر يقول للمصباح (Thank you) .

كان أحد عساكر البوليس يخاطب رجلاً في دار المديرية بواسطة التليفون فقال الرجل للعسكري : هل العمدة هنا ؟ فقال العسكري : من أنت ؟ فجاء الجواب أنا المدير فما كاد يصل الصوت حتى طرح العسكري الساعة وأخذ السلام العسكري لسعادة المدير .

وللعادة تأثير في الحيوان الأعجم لا يخفى على حضراتكم . كان من عادة الحرس الملكي لبعض ملوك إنجلترا أن يخرج كل ليلة على ظهور الخيل حينما تدق الساعة الثانية عشرة للطواف حول القصر فأخذت الحرس غفوة ذات ليلة فلما دقت الساعة إثني عشرة ، سارت الخيل بأنفسها وطافت حول القصر ، ثم رجعت إلى أعطانها .

وقد تدهشون لهذه العادة إذا علمتم أنها تؤثر في النبات والجماد أيضاً . إن النبات إذا عود السقي كل يوم ثم نقضت العادة وأهمل أياماً ذوى وذبل . وإن ريشة الضراب (ضارب المزهري) قد يكمن فيها شيء من العادة الراسخة فتصدر أصواتاً خاصة لا يمكن لريشة أخرى أن تصدرها .

هذه هي آثار العادة في العمل . ولو لم يكن لنا من حظ الحياة إلا هذه العادة العملية لما كنا بالمتخلق ذى الشأن في هذه الحياة . يقول بعض فلاسفة الإنجليز إذا لم تكن العادة إلا وسيلة لغرس قدرة على الأعمال الجسمية فإن حياتنا تصبح عبارة عن أعمال خالية من التفكير والرأى ويكون آخر ما نصل إليه في ذلك لا يزيد عن أول ما يعمل النحل والنمل أو بعبارة أخرى فإن حياتنا تكون خلواً من الروح العقلية والخلقية .

فيجب إذاً أن يضاف إلى الحياة العملية ضروب من العادات العقلية والخلقية التي تحلق بالرجل في جو كله طهارة وسلام وتبعث في نفسه الحكمة وسداد الرأى وطهارة الأعراق وهذا ما يختص به الإنسان دون الحيوان الأعجم وهو الفارق بين الغريزة العمياء ؛ غريزة النحل والنمل وبين العادة المبصرة التي ترمى إلى تكوين خلق عظيم .

يولد المولود - أيها السادة - وليس لديه من عوامل الطبيعة معين ولا نصير . يولد وليس له من الغرائز ما يساعده على حفظ كيانه ثم يقضى بعد ذلك زمناً طويلاً كله كد وعناء قبل أن يقف على رجله أو يعتمد على حائط . لماذا لم يشب الطفل بعد ولادته ويمرّ هنا وهناك في أنحاء المنزل باحثاً عن القوت الذى هو قوام حياته ؟ إن فرخ الدجاج لا تكاد تنفلق عنه قشرة البيضة حتى تراه يجرى وينبش الأرض بمنقاره باحثاً عما يقتات به . أليس الفرخ أسعد حالاً وأرعى بالاً من ذلك الطفل المسكين ؟ نعم قد تكون الحال كذلك لولا وجود عادات تنمو في نفس الطفل بالتدريج فتقوم أخلاقه وتهذب من آرائه . فمثل الفرخ مثل الرجل يقرأ قصيدة بسرعة مدهشة ولكنه لا يحيط قلامة ظفر بمعناها، ومثل الطفل كمثّل الرجل يقرأ نفس القصيدة ببطء وترو كلمة كلمة فلا يتركها إلا وقد فهم غوامضها واستخرج كنوزها .

إن الغرض من التربية - أيها السادة - هو غرس العادات الفاضلة في النفس ولا يكون ذلك إلا بعد أن تطيع في المخ آثاراً لكثير من خير الأعمال التي يصيرها المران عادات ثابتة وملكات راسخة . أرايتم أتعس وأشقى من ذلك الرجل الذى يحتاج إلى إعمال الفكرة في كل شيء ؛ في إيقاد سيجارته ، في الشرب من كوبه . في هبته من مرقدته ، في ذهابه إليه . وفي المشى وفي الكلام ؟ فإذا كان في حضراتكم من ينقصه عادة من العادات الضرورية في الحياة فليسرّع إلى تكوينها من الآن .

ولقد ذكر الأستاذ بين (Bain) عند الكلام في العادة الخلقية قاعدتين يجدر بى أن أطرف بهما سامعى الكرام .

﴿ القاعدة الأولى ﴾

يجب عند تكوين عادة صالحة والنزوع من عادة فاسدة أن ندرع أنفسنا بعزيمة ثابتة وإرادة لا تندك أمام وساوس الشهوات، فاجمعوا في نفوسكم كل عمل ممكن أن يمد جيش أغراضكم العالية . ضعوا أنفسكم في مواطن تكون واقعة إلى تشجيعكم وتعزيز ما عزمتم عليه . اجتنبوا مواطن الشبهات التي قد تنقض عقدة إرادتكم فإنكم إن ثبتتم مرة أمام داعى الشيطان فقد نجوتهم من صولته مرة ثانية . أعلنوا بين إخوانكم وعشيرتكم كل ما عقدتم العزيمة عليه فإن ذلك أقوى للإرادة وأدعى للشهات .

ذكر الأستاذ جيمس (James) أنه قرأ مرة إعلاناً في جريدة تصدر في أستراليا يقول فيه صاحبه : إني أعطى كل من وجدني في حانة جائزة مقدارها كيت وكيت ، وإني أفعل ذلك لأنى عاهدت زوجتى على ألا أشرب الخمر فمثل ذلك الرجل حقيق بأن يتخلص من عادة الإدمان وينجو من برائثها، ولقد عرف زياد بن أبيه من قبل ضرورة إعلان العزم ووضع الغرم على نقضه ، حين يقول في خطبته البترام « إن كذبة الأمير بقاء مشهورة، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي » .

فقد أباح لهم معصيته إن هو أخلف ما أوعدهم به وهى مخاطرة من زياد لا يجد له منها محيصاً إلا التمسك بعزمه .

﴿ القاعدة الثانية ﴾

لتكن عزيمةكم مطردة ، وإياكم وأن تدعوا استثناء يتسرب إليها ؛ فإن استثناء واحدًا يشبه الديناميت الذى ينقض فى لحظة واحدة الجبل الذى بنته الطبيعة فى قرون وأجيال .

إن العادة الخلقية فى مبدأ التكوين تستلزم وجود قوتين ؛ قوة الفضيلة وقوة الشهوات ، وكل قوة من هاتين تناوش الأخرى وتجادل ، لتكون ربة السلطان والقوة ، فكل انتصار لجيش الشهوات يوقع الرعب والفرع فى جيش الفضيلة ويقت فى ساعده . فيجب علينا أن نحفظ قوة الموازنة بين هاتين القوتين حتى يقوى جانب الفضيلة بالتكرار ، وتكون كفؤًا لأن تنقض على جيش الغرائز الشهوية وتكمل به تنكيلاً ، ويمكن أن نضيف قواعد أخرى منها :

﴿ القاعدة الثالثة ﴾

يجب أن تفتنمو الفرصة التى تمكّنكم من عمل الشيء الذى عزمتم عليه ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ؛ لأن العادة لا تأخذ مكانها فى المخ بمجرد النية وعقد العزيمة ، وإنما تثبت هناك بعد العمل والممار . إن الحكم والنصائح ووصايا المحنكين من الرجال لا تجديكم نفعًا ولا تغنيكم فتيلًا ، إذا لم تقبضوا على ناصية كل فرصة تدعو إلى العمل ، والإنجليز يقولون فى أمثالهم « جهنم مرصوفة بكثير من الأمانى الحسان . تلك الأمانى التى لا يغزها عمل ولا تأخذ بيدها إرادة » .

يقول الأستاذ مل (Mill) : الأخلاق ليست إلا إرادة مهذبة : ويريد بالإرادة هنا مجموع استعدادات نفسية تهب من مرقدها للعمل عند سنوح الفرصة . أقول هذا وإنى لم أر أقل مروءة ولا أضعف نكاية من ذلك الصنف من الرجال الذى ترويه وكله إحساس ؛ ينطق بالحكمة ويدعو إلى الخير ويقضى يومه وليله فى أحلام ويعيش فى جو من الخيال ، ثم يقضى حياته بين الشك والترديد ؛ لا يعمل عملاً ولا ينال أملاً فهو فى كل حين يقلب كفيه وينشد :

إلى الله أشكو أن فى النفس حاجة تمر بها الأيام وهى كما هيا

﴿ القاعدة الرابعة ﴾

وذلك يقودنا إلى قاعدة رابعة وهى إذا وكل إليكم أمر التربية فلا تخطبوا كثيرًا بين تلاميذكم بل اربضوا منتظرين الفرصة العملية ، فإذا سنحت فانقضوا عليها كما ينقض الأسد من عرينه ، وانسابوا نحوها كما ينساب السهم ودعوا تلاميذكم يفقهون الشيء ويشعرون به ثم يعملونه . إن الخطب والنصائح كثيرًا ما تكون مدعاة للسآمة ومدرجة للمخالفة والعصيان .

ولنئين لكم ضرورة العمل فى تكوين العادة بما كتبه داروين (Darwin) عن نفسه قال :

« كنت إلى الثلاثين من عمرى أحب الشعر بضرويه المختلفة وأعدته منبعًا لسعادتي ، وكنت أطرب ويهتز عطفى لشعر شكسبير ؛ خصوصًا ما يختص منه بالتاريخ . ولقد كان للموسيقى تأثير كبير فى

نفسى ، أما الآن فإننى لا أطيق الشعر ، حتى لقد حاولت من أيام قراءة شكسبير فرأيت مملأ ضاق به احتياى ، أما الموسيقى والصور فقد ذهب ما كان لها من الروعة والتأثير فى روحى ، وإننى أتهم فى ذلك طول مزاولتى للعقليات التى صيرت عقلى آلة تطحن قواعد منطقية ونظريات طبيعية ، غير أنى لا أفهم لماذا كان ذلك العمل العقل سبباً فى إماتة ذلك الجزء من المخ الذى هو موطن الذوق والشعور؟ ولئن عشت حياتى مرة ثانية لأفرضن على نفسى قراءة الشعر وسماع الموسيقى مرة فى الأسبوع على الأقل ، لأنه من المحتمل القريب أن ذلك الجزء من مخى إنما فقد وظيفته لعدم الاستعمال .

لنا جميعاً أيها السادة فى مستقبل العمر وأيام الشباب آمال كبار ، كلنا يسعى فى تحصيلها ليلبغ منزلة الرجولية الكاملة . كلنا يريد حينذاك أن يغذى شعوره بالشعر والفنون الجميلة ، ويخصب قوته العقلية بالفلسفة والرياضيات . ذلك ما تقصد إليه فى أيام الشباب ، ولكن كم شيخ منا حصل على تلك الأمنى وهاتيك الآمال ؟ إنهم - ويم الحق - قليلون ، وإن قواعد العادة كقيلة ببيان السبب فى ذلك .

ينبثق فى المرء ولوع بشيء من الأشياء فى زمن خاص غير أن ذلك الشيء إذا لم يبل العمل غلته ذوى وذبل بدل أن يتزعرع وينمو إلى عادة راسخة ؛ ولذلك ترانا نحول إلى « دارون » فى زمن غير بعيد بسبب الإهمال وعدم اغتنام الفرص فى أوقاتها . نشترى دواوين الشعراء وننوى قراءة كل بيت فيها ، ثم يقف بيننا وبينها ضعف العزيمة فتحول الأحوال ولا نقرأ منها سطرًا . ترانا ننسى ونسوف فلا نهض من غمرة التسويف إلا وقد ماتت منا المواهب الشعرية ، ووثدت قوة الخيال بعد أن كانت عشر دقائق أو دون ذلك مع شاعر فى كل يوم كافية لحفظ تلك القوة غضة يانعة .

إذا أردتم فعل أى شيء - أيها السادة - فافعلوا من الآن ، وإياكم وأن تدعوه إلى الأيام ، فإنها تبلى الحديد وتقصى الغريب ، وتذهب من كل شيء بشاشته ، وإنكم بالإهمال والتقاعد عن العمل إنما تحطون بأيديكم قبورًا لمواهبكم العالية ، وقواكم الغالية .

﴿ القاعدة الخامسة ﴾

يجب التعجيل بغرس العادة ؛ لأن المخ فى سن الطفولية يكون أكثر رخاوة وأقبل لصور الأفعال ، ولأننا يجب أن نسرع قبل أن تتمكن العادات السيئة فتقطع علينا الطريق وتحول دون تكوين العادات الصالحة .

أتانى هواها قبل أن أحرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكننا

ولكننا يجب ألا نبالغ فى التبكير لأن العادات تبنى دائمًا على الغرائز . وإن لكل غريزة وقتًا خاصًا تقوى فيه ميعتها ويكمل عتقوانها . فإذا حاولنا غرس أية عادة فى نفس الطفل قبل ظهور الغريزة التى هى أس تلك العادة فقد حاولنا شططًا وآلمنا الطفل وأتعبناه من غير جدوى . ولنضرب لكم مثلاً يبين لكم مجمل هذا القول ويزيده وضوحًا .

إن غريزة الميل والانعطاف تظهر في الطفل في أكمل مظاهرها في السنة الثالثة من عمره تقريباً، وهي قصيرة العمر قد تزول في السنة السادسة، وتحلها غريزة القسوة والتفاني في حب النفس .

الطفل في تلك السن يعتقد أن كل ما حوله من الجمادات والنباتات له شعور وإحساس، وأنه حلقة من سلسلة هذه الطبيعة الجميلة التي تبكي إذا بكى وتضحك إذا ضحك . للطفلة عروس تحملها طول يومها وتقبلها وتطعمها وتلزم من في الغرفة بالسكون والهدوء إذا أنامت في سريرها الصغير . وللولد عصا هي جواده الذي هو أرفق به من عنتره الذي يقول في مهره .

مازلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكي ولكن لو علم الكلام مكلمي

كان بإحدى المنازل التي نزلتها بإنجلترا وليدة لا تتجاوز الرابعة من عمرها، وكانت شغوفاً بقضاء شطر عظيم من النهار في حديقة المنزل، فتخاطب الأشجار وتناغي الأطيوار، فبصرت بها ذات يوم في الحديقة فسعيت نحوها، وبينما نحن واقفان إذ سقطت نحلة على زهرة الياسمين، فقالت لي الفتاة: أتدري ما تسره هذه النحلة إلى الياسمين؟ قلت لا. قالت: إنها تقول لها إن الوردة أنضر منك وجهاً وأطيب ريحاً ولكنى رغم كل ذلك أفضل هذه الزهرة الجميلة؛ لأنها لا تنهشني بأظفارها إذا حاولت اقتطافها كما تفعل الأخرى .

وكننت مرة في مدينة في وسط إنجلترا أثناء مساعمة عيد الميلاد، وكانت الأرض مغطاة بالثلج، فظهرت كصحيفة الأبرار، فرأيت أثناء تطوافي غلاماً أمام تمثال من الثلج على صورة إنسان، وهو يحاول أن يطعمه شيئاً من الخبز وخلقه كلبه يجاهد في التقام ما في يده فصاح بي الغلام مستنجداً قائلاً هل لك يا سيدي أن تمنع هذا الكلب؛ فإنه أخذ غذاءه اليوم، أما هذا الرجل المسكين - مشيراً إلى التمثال - فلم يأكل منذ يومين!

فإذا رأيت طفلك يخاطب كرسياً سقط بعبارات الرحمة والحنان؛ فاعلم أن غريزة الانعطاف في ميعتها وثب للفرصة فوجه هذه الغريزة إلى الانعطاف مع الإنسان والرفق بالحيوان، وكون منها عادة راسخة؛ فإنك إن قصرت ركدت ريح هذه الغريزة، وصعب عليك جداً غرس العادة بعد ذلك . هذا ومن حاول غرس عادة الرحمة قبل ظهور غريزة الانعطاف فقد حاول محالاً وهذا معنى قولنا: يجب التعجيل في تكوين العادة ولكنه يجب ألا يبالغ في التبكير .

﴿ القاعدة السادسة ﴾

التكرار وفترة الراحة ضروريان في تكوين العادات . التكرار واضح وقد سبق أن بينا ماله من التأثير أما فترة الراحة فتححتاج إلى شيء من البيان .

ثبت في علم وظائف الأعضاء أن في المخ استعداداً لتسجيل الأعمال، وأن ذلك التسجيل يستلزم

وقتًا يفصل بين مرات التكرار يستريح فيه العقل، ويسجل في أثنائه عمل العادة .

وكان الفطرة أوحى إلى أطفال الكتاتيب بهذه النظرية فهم يقرؤون ألواحهم (ويكسرونها) قبل النوم حتى إذا استيقظوا وقرؤوها مرة أو مرتين استظهروها بسرعة غريبة .

حاولت في سنة من السنين أن أتعلم ركوب الدراجة فلم أفجح بعد أن قضيت أسبوعًا كله جهاد مع معلم خاص . انتهت بي الحال إلى أن نفضت يدي من كل أمل في نيل تلك البغية ، وبعد سنة كاملة عاجلت دراجة صديق لي فركبتها وسرت بسهولة تامة كأنني اعتدت ركوبها من أعوام ولا يمكن تفسير ذلك إلا بأن غي أثناء تلك السنة التي توسطت بين الحادثتين كان يشغل بتسجيل العادة وتنقيحها .

ولنتقل الآن إلى الكلام في قوة العادة وخطرها :

العادة سلطان قهار يعطل قوتنا الفكرية ويملك علينا إرادتنا . ولقد أدرك ذلك الأعراب في باديتهم إذ يقول شاعرهم :

أراد انقباضاً لم تطعمه أنامله	تمود بسط الكف حتى لو أنه
لجاد بها فليتق الله سائله	ولو لم يكن في كفه غير روحه

ولقد حمل « روسو » ما للعادة من جبروت على أن يقول « العادة الفذة التي يباح للطفل التمسك بها هي ألا يتعود عادة ما » ولا يمكننا أن نأخذ هذه القولة على ظاهرها لأنه من المحال أن يحول مخلوق بين الطفل وبين التمسك بكثير من العادات كالمنضغ والمشى والكلام فإذا يقصد « روسو » بهذا الرأي الغريب؟ إنه يقصد أن ينصح إلى أولى الأمر ألا يجعلوا حياة الطفل عبارة عن مجموعة عادات وألا ينكسوا به في الخلق فيحولوه إلى آلة صماء تنقل كل ما طبع فيها بلا روية بعد أن خلق مفكرًا ومتعقلًا بالفطرة . وإن روسو في ذلك يتبع خطوات أفلاطون الذي كثيرًا ما صاح في كتابه « الجمهورية » The Republic بوجوب حفظ شخصية الطفل خالصة من شوائب التقليد .

علمتم وتعلمون أيها السادة أن الفعل إذا تكرر أصبح عادة راسخة ، فإن كانت هذه العادة مولية وجهها شطر الفضيلة وكان لها قائد من العقل والحزم فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

إن اعتياد الفضيلة يجعل صدورها سهلاً ، لا تكلف فيه فالذي يعتاد اللين تراه يجتنب قوارس الكلام بلا تعمل كما يجتنب أخطار الطريق بلباقة غريبة راكب الدراجة المدرب ، ومن اعتاد الكرم جاد بكل ما لديه وأثر غيره على نفسه وإن ضاقت ذات يده وكان جيبه أنقى من راحته .

ولكم في أخبار كرام العرب ما يغني عن التمثيل والبيان ، ولقد أخبرنا الخطيئة بما تفعله عادة الكرم ، في النفوس إذا أخذت منها مكانها وقوى فيها سلطانها حين يقول :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل
بيداء لم يعرف بها ساكن رسا
أخى جفوة فيه من الأنس وحشة
يرى البؤس فيها من شراسته نعمي
وأفرد في جحر عجوزاً لزاءها
ثلاثة أشباح تخالهمو بها
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة
ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما
رأى شبحاً وسط الظلام فراعته
فلما رأى ضيفاً تقصدهم واهتما
فقال هيا رباه ضيف ولا قري
بحقك لا تحرمه في الليلة اللحم
فقال ابنه لما رآه بحيرة
أيها أبتى اذبحنى ويسر لهم طعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذى طرا
يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
فروى قليلاً ثم أحجم برهمة
وإن هو لم يلدح فتاه فقدما
وبينا هما عنت على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مسجلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها
على أنه منها إلى دمها أظمى
وأهلها حتى تروت عطاشها
فأرسل فيها من كنائنه سهماً
فخرت نحوص ذات جحش سمينه
قد امتلأت لحماً وقد طبقت شحمأ
فيا بشره إذ جرهما نحو قومه
ويأبشرهم لما رأوا كلمها يدمى
وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم
وما غرموا غرمها وقد غنموا غنيا

وبسات أبوهم من بشاشته أبيا لضيفهم والأم من بشرها أما

أما من يتكلف الفضيلة فإن كل بادرة منه تنم عليه وتؤذن في أذنه بقول التهامي :

ثوب الرياء يشف عبا تحته فإذا التحفت به فإنك عاري

وهؤلاء الحلاقون كلهم يتفزز غيظاً من آدابهم العالية وأخلاقهم السامية وإذا لم يقدر العقل زمام العادة سلكت مسالك الشطط وأصبحت خطراً شديداً على الأخلاق وإليك مثلاً . قد تبدئ العادة سيرها في طريق الفضيلة ولا تزال ضاربة فيه مادامت ضعيفة حتى إذا اشتد ساعدها بالتكرار والمران حارت يمنة ويسرة وضلت سواء الصراط . يأخذ الرجل في إقتصاد شيء من ماله في كل شهر وهذا فضيلة من غير شك حتى إذا تكرر هذا العمل من غير حيطة العقل قوى سلطان العادة وتحول هذا الرجل من مقتصد إلى شحيح لحز ولقد قال الأستاذ ماکون (Macwun) في بيان خطر العادة : العادة سلاح ذو حدين لأنها وإن كانت أساس الفضيلة قد تميل إلى جانب الرذيلة فتصبح داء عضالاً ومرضاً قاتلاً . العادات المذمومة أقوى أنواع العادات لأن لها ناصرًا من الشهوات الطبيعية التي تصبح دائماً طالبة ما يطفئ غلها فالرجل الذي يسقط فريسة أى عادة سيئة تراه مغلوباً على أمره لا يعرف خطر أى فعل من أفعاله إلا بعد قطع مرحلة طويلة فيه .

ومن أخطار العادة إنها تورث المتمسكين بها جموداً وتفقدتهم ملكة العمل بها يناسب الزمان والمكان . الحياة أيها السادة حوّل قلبك ترتدى في كل يوم ثوباً وتتغير من حين إلى حين وقد يكون هذا التغير فجائياً فإذا لم يكن الرجل لبقاً « يكون الصبا ويكون الدبور » هزمته حوادث الأيام فليس بالشجاع من لا يقدر إلا على مكافحة نوع واحد من الأخطار حتى إذا عرض خطر جديد لم تصافح كفه سيفاً وفر يقول : « فرّ لعنه الله خير من مات رحمه الله » .

وكثيراً ما تفعل العادة من غرب قوة الشعور الذي هو منبع كثير من مكارم الأخلاق . ولكم في هؤلاء الذين يجهزون الأموات وينظرون في شئونهم (المغسلين والحنانوتية) ما يقنعكم بصدق ما نقول فإن العادة مسحت من نفوس هؤلاء كل ما يمكن أن يقال له شعور وإحساس . تنوح حولهم النوائح وتنفطر أمامهم قلوب الأطفال ، وهم جامدون لا تتحرك فيهم عاطفة ولا تدمع لهم عين .

ولقد يكون موت الشعور بواسطة العادة مفيداً ، كما هي الحال في الأطباء الجراحين ، فإنهم ليس في استطاعتهم أن يعملوا عملاً إلا إذا تغلب فيهم عمل الواجب على الشعور بالرحمة والحنان .

هذا ما أردنا بيانه في هذا الموضوع والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

مرثية

هــي رثاء الشيخ حمزة فتح الله (٥)

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت إلّفا ودهراً سالفاً فبكت حزنًا فهاجت حزنّي
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني
فبكائي ربما أرقها وبكاهها ربما أرقني
غير أنى بالجوى أهرها وهي أيضًا بالجوى تعرفني

أيها السادة إن في مواقف التأين سلوة للمحزونين ، وعلاوة للمفتودين وذكرى للذاكرين وإن النفوس الإنسانية إذا اخترمت من بينها نفس كبيرة أخذ الهلع بناصيتها وملك الوجد زمامها وطارت شعاعًا حتى إذا سكنت إلى قضاء الله وعلمت أن كل حي صائر للزوال وأنه :

أحسن بالواجد من وجده صبر يعيد النار في زنده
ومن أبى في الرزء إلا الأسى كان بكاه متهى جهده

إذا علمت كلّ ذلك أيها السادة رجعت إلى الحسنى وهمت بتوديع الراحل الكريم بها هو أهله وأرادت أن تعيش مرة ثانية بين تلكم الآثار والمفاخر وأن تحتل من جديد هذه المعالي والمآثر وحلاها أن ترجع إلى الماضي فتقف هنيهة أمام ذلك المجد الراسخ والفضل الواسع وأن تتنور بصيصًا من تلك الروح العالية التي اختارت لها من الرفيق الأعلى منزلًا، ومن ظلال الجنة مقيلاً :

قفا ودّعا نجدًا ومن حلّ بالحمى وقّل لنجد عندنا أن تودّعا
فلله هذى الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمترّعا
وليست عشيات الحمى يرواجع عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا
بكت عينيّ اليسرى فلما زجرتها على الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

(*) أُلقيت في حفل تأين الشيخ حمزة فتح الله كبير مفتشى اللغة العربية عام ١٩١٧ .

مات الشيخ حمزة فتح الله ، فترك العيون عبرى ، وغادر في مصر مكاناً لا تصل العين إلى أمده ولا تسافر الآمال إلى حدّه .

مات الأستاذ الكريم فلبست عليه العربية ثوباً من الحداد لا ينصل ، وشعاراً من الحزن لا يبلى ، تبكى حامى ذمارها وجامع آثارها ورواية أشعارها وحقيقة أخبارها .

تندب سليمة إسماعيل (اللغة العربية) فتأها السّمدع الذى تغنى بآياتها فملك الأسباع ونشر مفاخرها فبهر العيون وأعاد إليها عصر فتائها وميعة شبابها أيام كانت تعيش بين الظل والماء وتخطر في ثوبى الحسن والرواء .

أعادها الشيخ عليه الرضوان فتية مليحة بعد أن صارتها العجمة فصرتها وغالبتها الرطانة فغلبتها وبعد أن عفت ديارها وطمست آثارها وخبت نارها وشالت نعماتها وغطشت ليلتها وضل الحادى والهادى واستمعج الحاضر والبادى :

أين امرؤ القيس والعذارى	إذ مال من تحته الغيظ
استعجم العرب في الموامي	بمدك واستعرب النيبط

وجد الشيخ - لا أعطش الله تربته - مجالاً فسيحاً للنهوض بالعربية الشريفة في وزارة المعارف فشنّ فيها على العامة حرباً استعر لظاها ، واشتبتك ظباها فما فتّ يأس في عضده ولا زحزح قنوط بطلنا المغوار عن قصده ، حتى إذا ركد الغبار وسكت الإعصار ، ظهر الشيخ وهو يحمل راية النصر باليمين وقد قطع من عذوته الوتين .

نفذ من روحه الكبيرة إلى المدارس نور تطلع إليه الشباب ، فملا عيونهم شعاعه وهر نفوسهم لمعانه واستبانتم لهم الطريق ووضحت السبيل فأعملوا قلاص عزائمهم إلى ذات الضاد ليجتلوا محاسنها ولينهلوا من آدابها والشيخ حمزة أمامهم في هذا السفر الطويل يهدى الضالّ ويصل المنبتّ ويرعاهم بعنايته ويكلؤهم بحياطته فما فترت عزيمته إلا نفخ فيها من روحه فاشمعلت ولا وبركت قدم إلا هزّ من نفس صاحبها فأرقلت ولا طمست الصوى إلا جعل من نوره لهم نارا ومن هدايته منارا يقودهم الشيخ والأمد بعيد والشقة نازحة والظلام داس يضل فيه راعى الكواكب ويرتجف منه النابح والناعب :

في ليلة من جمادي ذات أنديّة	لا يبصر الكلب في ظلماتها الطنبا
في ليلة خالكة الجلباب	أغطش من خافية الغراب
كانها صحيفة المقتاب	أو حظ مجدود من الكتاب

أو غمرات الزاخر الخضمّ

فما لمع سيف الفجر حتى هلك السُّفَر وكبروا ، وقد أوصلهم الشيخ إلى إربتهم ، وأبلغهم غايتهم فحمدوا السُّرى واستقرت بهم النوى وتجلت لهم لغة القرآن الكريم ناصعة خلاصة فقطفوا أنهارها وتذوقوا أسرارها والشيخ الجليل ينظر إلى تلك النفوس الفتية المغتبطة فيتهلل وجهه بشراً ويفيض سروراً .

أينها العربية ، هلم بشيء من سَيِّك الفياض وانثري فوقى مطراً من لآلك العصماء وإبعثي في روحاً من أرواح رجالك السابقين فأنى أرى اليوم جُذَيْلك المحكك وعُدَيْكَ المَرْجَب .

أفى الحق أن يخوننى اللسان ويعقبنى البيان وأنا أرى مقوم الألسنة ومبدع الأساليب وحامل لواء العربية . حاشا لله ، فإن اللغة التى بعثها من مرقدها ستره بناتها وتسبح بحمده آياتها . لم يكن الشيخ لغوياً فحسب ولكنه كان كاتباً قديراً وشاعراً مجيداً ، ولقد ألبس شعره ديباجة بدوية أعادت إليه عريق مجده وأيام سعده . ديباجة لو طرقت آذان النيب فى البيداء لمالت هودايا واهتزت لحاديها وسابقت ظلالتها ونسيت كلالها .

تسرب الخطأ إلى الأساليب العربية وانبث سم العامية فى أوصالها فما كادت تسلم عبارة لكاتب منا الخروج عن حدود اللغة وقوانينها حتى نهض الشيخ نهضته المباركة فعلم الكتاب كيف يهتمون أنفسهم وكيف يأخذون حذرهم من التراكيب التى أخذت صبغة العربية وليست منها فى قديم ولا حديث فانتقلت الكتابة إلى عهد جديد وأخذت النابتة المتعلمة تتسابق إلى استخراج مكنونات اللغة بعد أن كانت دفينه فى خبايا الكتب سجيئة بين طيات الأسفار .

نهض الشيخ - رضى الله عنه - هذه النهضة المباركة واختار وزارة المعارف ميداناً لعمله الجليل فلم يترك كتاباً فى المدارس يصل إلى يد تلميذ أو تقع عليه عين طالب إلا بعد أن نقاه من أدران العامية وبعد أن نقده نقد الصيرفى الحذر وبعد أن قرأه لنفسه وقرأه لغيره وقرأه وقرأه . فعل كل ذلك ليجعل بين الطلاب والدخيل سداً ويحول بينهم وبين أفاعى العامية وسمومها .

لم يكتفِ الفقيد بهذا - وما كان شيء ليكفيه فى الإصلاح - فوجه آماله إلى أشياخ العربية بالمدارس ، لما علم أنهم مبلغو رسالته وحاملو أمانته وخلفاؤه على النشء المصرى الذى جعل تقويمه أول أمانيه وغاية مراميه . وجه الأستاذ الكريم آماله إلى هؤلاء الأشياخ وبعث فيهم حب العربية ودفعهم إلى الغوص على أسرارها وكان يذهب إليهم فى تفتيشه من شمال مصر إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها ناصحاً معلماً ومشجعاً مصلحاً ، فعل كل ذلك للنهوض بالعربية والوصول بها إلى ما قدر لها من الكمال .

كانت للشيخ حمزة عزيمة لا تعرف الخوف ومثابة على العمل لا يتسرب إليها الملل فقد كان كثيراً ما يقضى ليله فى القراءة والدرس حتى يعقد ضوء الصباح بنور المصباح بين بحث وتنقيب وتأليف

وتهذيب وهذه آثاره في وزارة المعارف بين ظهرانيكم تشهد بحسن بلائه ويُعد سبائه وعلو كعبه وجميم أدبه وما له من أولية وسابقة وتبريز .

وما كانت الشيخوخة وقد هزت السيدين وأناخت على المنكبين وأمالت الرأس وجنت على العين لتثنى الشيخ عن مواصلة عمله أو تقف بينه وبين غايته فما زاياله حتى آخر أيامه جَدَّ الشباب ولا عزيمة الفتيان وأصدقاؤه ينصحون له أن يُقي على نفسه وأن يحتفظ بالبقية الباقية من صحته وهو لا يلقي إليهم سمعاً ولا يطيع لهم أمراً . أحيا العلم روحه فوقف على خدمته جسمه . كان العلم أغلى شيء لديه فوهب له نور عينيه ، وهب له نور عينيه - أيها السادة - وبقي الشيخ الجليل في أخريات حياته يتمتع بنور الحق ويرى بعين القلب ، وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

كان الشيخ أجزل الله له عطاءه غيوراً على الدين شديد التمسك بأدابه يعيش عيشة الزاهدين بعيداً عن زخارف الدنيا وأباطيلها فما بدرت من أحد أمامه بادرة تتم عن شيء من التهاون بالدين إلا صال صيال الليث وزأر زئير الأسد المصور وأخذته في الدين عزة المجاهدين وغضب للحق غضبة المخلصين .

ولقد كان لورعه هذا أثر صالح في وزارة المعارف فما كان يختار إذ يختار من شيوخ التعليم إلا من أشربوا حب الفضيلة ونمت فيهم نازعة الخير وكان أفاض الله عليه ثوابه حرباً على من ضل منهم سواء الصراط أو ند عن سواء السبيل .

أيها السادة مات شيخ المعارف وكبير مفتشيها مات رجل اللغة العربية وعمدة الشعر والأدب ومستودع أسرار القرآن الكريم والسنة المحمدية الطاهرة .

ففى ذمة الرحمن ذلك الراحل الكريم الذى كان فى سواد عيوننا وسويداوات قلوبنا . وفى وديعة الله تلك الروح الكبيرة التى خلقت من النور ورجعت إلى النور .

وفى جوار الخلد تلك الروح الفياضة التى نفخت فى النفوس حياة وانبعثت فى القلوب آمالاً وصعدت إلى ربها راضية مرضية بعد أن رأت قطوفها دانية وآثار إصلاحها بادية .

عليه وواه من جنادك الخشن
على درة المجد الحقيقية بالخزن

فيا قبر آه من ترابك لينا
لأطبقت إطباق المحارة فاحتفظ

* * *

مقدمة كتاب البلاغة الواضحة (١٠) الفصاحة - البلاغة - الأسلوب

الفصاحة هي الظهور والبيان، تقول: أفصح الصبح، إذا ظهر. والكلام الفصيح ما كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيّد السبك. ولهذا وجب أن تكون كل كلمة فيه جارية على القياس الصّرفي^(١). بيّنة في معناها، مفهومة عذبة سليمة.

وإنما تكون الكلمة كذلك إذا كانت مأثومة الاستعمال بين النابيين من الكتاب والشعراء، لأنه لم تتداولها ألسنتهم، ولم تجربها أقلامهم، إلا لمكانها من الحُسن باستكمالها جميع ما تقدم من ثبوت الجودة وصفات الجمال.

والدوق السليم هو العُمدة في معرفة حُسن الكلمات بسلاستها، وتميز ما فيها من وجوه البشاعة ومظاهر الاستكراه؛ لأن الألفاظ أصوات، فالذي يطرب لصوت البُلبُل، وينفر من أصوات البوم والغربان يثبو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبة مُتَنَافِرَةً الحروف^(٢). ألا ترى أن كلمتي «الزّنة» و«الدّيمة» للسحابة الممطرة، كلتيهما سهلة عذبة يسكن إليها السمع، بخلاف كلمة «البُتّاق» التي في معناها؛ فإنها قبيحة تُصك الآذان. وأمثال ذلك كثير في مفردات اللغة تستطيع أن تدركه بدوّقك.

(*) نشرت في مقدمة كتاب البلاغة الواضحة عام ١٩٣٢م.

(١) ففى قول المتنبي:

فلا يُهيم الأمر الذى هو حال ولا يُحلل الأمر الذى هو يهيم

غير فصيح؛ لأنه اشتمل على كلمتين غير جارييتين على القياس الصرفي، وهما حال، ويحلل، فإن القياس حال ويحلل، بالإدغام.

(٢) تنافر الحروف: وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الدوق السليم المكتسب بالنظر في كلام البلغاء وممارسة أساليبهم.

ويُشترط في فصاحة التركيب فوق جريان كلماته على القياس الصحيح وسهولتها، أن يسلم من ضعف التأليف، وهو خروج الكلام عن قواعد اللغة المطردة، كرجوع الضمير على متأخر لفظاً ورتبةً في قول سيدنا حسان رضى الله عنه (١):

ولو أن مجداً اخلد الدهر واحداً من الناس أبقي مجده الدهر مطعماً (٢)

فإن الضمير في « مجده » راجع إلى « مطعماً » وهو متأخر في اللفظ كما ترى ، وفي الرتبة لأنه مفعول به ، فالبيت غير فصيح .

ويشترط أن يسلم التركيب من تنافر الكلمات ، فلا يكون اتصال بعضها ببعض مما يسبب ثقلها على السمع ، وصعوبة أدائها باللسان، كقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر (٣)

قيل إن هذا البيت لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات متواليات دون أن يتتبع (٤)، لأن اجتماع كلماته وقرب مخارج حروفها، يحدثان ثقلاً ظاهراً، مع أن كل كلمة منه لو أخذت وحدها كانت غير مستكرهة ولا ثقيلة .

ويجب أن يسلم التركيب من التعقيد اللفظي، وهو أن يكون الكلام خفى الدلالة على المعنى المراد بسبب تأخير الكلمات أو تقديمها عن مواطنها الأصلية أو بالفصل بين الكلمات التي يجب أن تتجاور ويتصل بعضها ببعض، فإذا قلت : « ما قرأ إلا واحداً محمد مع كتاباً أخيه » كان هذا الكلام غير فصيح لضعف تأليفه، إذ أصله « ما قرأ محمد مع أخيه إلا كتاباً واحداً »، فقدمت الصفة على الموصوف، وفصل بين المتلازمين، وهما أداة الاستثناء والمستثنى، والمضاف والمضاف إليه . ويشبه ذلك قول أبي الطيب المتنبي (٥):

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد؟ (٦).

(١) هو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أجمعت العرب على أنه أشعر أهل المدر. قيل إنه عاش ١٢٠ سنة، ٦٠ في الجاهلية و٦٠ في الإسلام، وتوفي سنة ٥٤ هـ.

(٢) هو مطعم بن عدي، أحد رؤساء المشركين، وكان يذب على النبي ﷺ . ومعنى البيت أنه لو كان مجد الإنسان أو شرفه سبباً لطول حياته وخلوده في هذه الدنيا، لكان مطعم بن عدي أولى الناس بالخلود، لأنه حاز من المجد والسود ما لم يحزه غيره .

(٣) البيت من الرجز، ولا يعرف قائله ، ولعله مصنوع .

(٤) تتعمق في الكلام : تردد فيه من حصر أو غير .

(٥) أبو الطيب المتنبي هو أحمد بن الحسين الشاعر الطائر الصيت ، كان من المطلعين على غريب اللغة، وشعره غاية في الجودة، يمتاز بالحكمة وضرب الأمثال وشرح أسرار النفوس ، ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة سنة ٣٠٣ هـ، وتوفي سنة ٣٥٤ هـ.

(٦) الثقلان : الإنس والجن، والبيت من قصيدة طويلة في مدح شجاع بن محمد الطائي .

والوضع الصحيح أن يقول : كيف يكون آدم أبا البرية ، وأبوك محمد ، وأنت الثقلان ؟ يعنى أنه قد جمع ما فى الخليقة من الفضل والكمال ، فقد فصل بين المبتدأ والخبر وهما « أبوك محمد » ، وقدم الخبر على المبتدأ تقديمًا قد يدعو إلى اللبس فى قوله « والثقلان أنت » على أنه بعد التعسف لم يسلم كلامه من سخف وهذر .

ويجب أن يسلم التركيب من التعقيد المعنوى ، وهو أن يعتمد المتكلم إلى التعبير عن معنى فيستعمل فيها كلمات فى غير معانيها الحقيقية ، فيسئ اختيار الكلمات للمعنى الذى يريده ، فيضطرب التعبير ويلتبس الأمر على السامع مثال ذلك أن كلمة « اللسان » تُطلق أحيانًا ويُراد بها « اللغة » ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ أى ناطقًا بلغة قومه ، وهذا استعمال صحيح فصيح ، فإذا استعمل إنسان هذه الكلمة فى الجاسوس ، وقال : « بتّ الحاكم ألسنته فى المدينة » كان مخطئًا ، وكان فى كلامه تعقيدٌ معنوى ، ومن ذلك قول امرئ القيس ^(١) فى وصف فرس :

وأركب فى الرّوع خيفةً كسا وجهها سَعفٌ منتشر ^(٢)

الخيفانة فى الأصل الجرادة ، ويريد بها هنا الفرس الخفيفة ، وهذا لا بأس به وإن كان تشبيه الفرس بالجرادة لا يخلو من ضعف ، أما وصف هذه الفرس بأن شعر ناصيتها طويل كسعف النخل يُغطى وجهها ، فغير مقبول ؛ لأن المعروف عند العرب أن شعر الناصية إذا غطى العينين لم تكن الفرس كريمة ولم تكن خفيفة . ومن التعقيد المعنوى قول أبى تمام ^(٣) .

جَدَّ بَتَّ نَدَاهُ غَدْوَةُ السَّبَبِ جَلْبَةً فَخَرَّ صَرِيحًا بَيْنَ أَيْدَى الْقَصَائِدِ ^(٤)

لأنه ما سكنت حتى جعل كرم ممدوحه يخرُ صريحًا . وهذا من أقبح الكلام .

* * *

أما البلاغة فهى تأدية المعنى الجليل واضحًا بعبارة صحيحة فصيحة ، لها فى النفس أثر خلاّب ، مع ملائمة كل كلام للموطن الذى يقال فيه ، والأشخاص الذين يُخاطَبون .

فليست البلاغة قبل كل شئ إلا فنًا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفطرى ودقة إدراك الجمال . وتبين القروق الخفية بين صنوف الأساليب . وللمرانة يدٌ لا تُجحد فى تكوين الذوق الفنى ، وتنشيط المواهب الفاترة ، ولابد للطالب إلى جانب ذلك من قراءة طرائف الأدب ، والتَّمَلُُّّ من تميزه

(١) هو رأس شعراء الجاهلية وقالدهم إلى الافتتان فى أبواب الشعر وضروبه ، ولد سنة ١٣٠ ق . هـ ، وآباه من أشراف كندة وملوكها ، وتوفى سنة ٨٠ ق . هـ ، وله المعلقة المشهورة .

(٢) الرّوع : الفزع ، والسعفة : جمع سعفة وهى غصن النخل .

(٣) أبو تمام : هو حبيب بن أوس الطائى الشاعر المشهور . كان واحد عصره فى الغوص وراء المعانى وفصاحة الشعر وكثرة المحفوظ ، وتوفى بالموصل سنة ٢٣١ هـ .

(٤) الندى : الجود . وخرُ صريحًا : سقط على الأرض .

الفياض، ونقد الآثار الأدبية والموازنة بينها، وأن يكون له من الثقة بنفسه ما يدفعه إلى الحكم بحسن ما يراه حسناً ويقيح ما يعدّه قبيحاً.

وليس هناك من فرق بين البليغ والرسام إلا أن هذا يتناول المسموع من الكلام، وذلك يُشاكل بين المرئي من الألوان والأشكال، أما في غير ذلك فهما سواء، فالرسام إذا همّ برسم صورة فكّر في الألوان الملائمة لها، ثم في تأليف هذه الألوان بحيث تحتلّب الأبصار وتثير الوجدان، والبليغ إذا أراد أن ينشئ قصيدة أو مقالة أو خطبة فكر في أجزائها، ثم دعا إليه من الألفاظ والأساليب أخفها على السمع، وأكثرها اتصالاً بموضوعه. ثم أقواها أثراً في نفوس سامعيه وأروعها جمالاً.

فعنصر البلاغة إذاً لفظٌ ومعنى وتأليف للألفاظ يَمْنَحُها قوة وتأثيراً وحُسناً. ثم دقّة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحال السامعين والتّزجّة النفسية التي تَمْلِكُهم وتُسيطرُ على نفوسهم، فَرَبَّ كلمة حُسْنٌ في موطن ثم كانت نايبة مُستَكْرَهة في غيره. وقد يكره الأدباء كلمة «أيضاً» وعدّها من ألفاظ العلماء، فلم تُجر بها أقلامهم في شعر أو نثر، حتى ظهر بينهم من قال:

رب ورقاء هتوف في الضحى	ذات شجوى صدحت في فنن ^(١)
ذكرت إلّفاً ودهراً سالفاً	فبكت حزناً فهاجت حَزَنِي ^(٢)
فبكائي ربّما أرتها	وبكاهها ربّما أرتني ^(٣)
ولقد تشكو فما أفهمها	ولقد أشكو فما تفهمني
غير أنى بالجوى أعرفها	وهي «أيضاً» بالجوى تعرفني ^(٤)

فوضع «أيضاً» في مكان لا يتطلب سواها ولا يتقبّل غيرها، وكان لها من الرّوعة والحسن في نفس الأديب ما يعجز عنها البيان.

وربّ كلام كان في نفسه حسناً خلافاً حتى إذا جاء في غير مكانه، وسقط في غير مسقطه، خرج عن حدّ البلاغة، وكان غرضاً لسهام الناقدين.

ومن أمثلة ذلك قول المتنبي لكافور الإخشيد^(٥) في أول قصيدة مدحه بها:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسبُ المنايا أن يكنّ أمانيا^(٦)

(١) الورقاء: الحمامة في لونها يباض إلى سواد. والمتوف: كثير الصياح. والشجوى: الهم والحزن. والصدح: رفع الصوت بالفناء، والفنن: الغصن.

(٢) الإلف: الأليف.

(٣) الأرق: السهر، وأرقها: أسهرها.

(٤) الجوى: الحرقرة وشدة الوجد.

(٥) كافور الإخشيد: هو الأمير المشهور صاحب المتنبي، وكان عبداً اشتراه الإخشيد ملك مصر سنة ٣١٢ هـ فنسب إليه وأعتقه، فترقى عتده، وما زالت همته تسمو به حتى ملك مصر سنة ٣٥٥ هـ، وكان مع شجاعته فطناً ذكياً حسن السياسة، وتوفى بمصر سنة ٣٥٧ هـ.

(٦) كفى بك: أي كفاك، فالباء زائدة، والمنايا جمع منية، وهي الموت. والأمانى: جمع أمنية، وهي الشيء الذي تتمناه؛ يخاطب بها أبو الطيب نفسه ويقول: كفاك داءً ورويتك الموت شافياً لك، وكفى المنية أن تكون شيئاً تتمناه..

وقوله في مدحه :

وما طربى لِمَا رَأَيْتُكَ بَدْعَةً لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطربُ

قال الواحدى^(١) : هذا البيت يشبه الاستهزاء ، فإنه يقول : طربُ عند رؤيتك كما يطربُ الإنسان لرؤية المضحكات . قال ابن جنى^(٢) : لما قرأت على أبى الطيب هذا البيت قلت له : ما زدت على أن جعلت الرجل قردًا . فضحك . ونرى أن المتنبي كان يغلى صدره حقدًا على كافور وعلى الأيام التى ألجأته إلى مدحه ؛ فكانت تفر من لسانه كلمات لا يستطيع احتباسها ، وقديماً زلَّ الشعراء لمعنى أو كلمة نفَّرت سامعيهم ، فأخرجت كلامهم عن حد البلاغة ، فقد حكوا أن أبا النجم^(٣) دخل على هشام ابن عبد الملك وأنشده :

صفراء قد كادت ولمَّا تفعل كأنها في الأفق عين الأحول^(٤)

وكان هشام أحول ، فأمر بحبسه .

ومدح جرير^(٥) عبد الملك بن مروان بقصيدة مطلعها :

«أَتَصْبُحُ أَمْ فَوَادُكَ غَيْرُ صَاحٍ» فاستنكر عبد الملك هذا الابتداء وقال له : بل فؤادك أنت .

ونعى علماء الأدب على البُحْتَرى^(٦) أن يبدأ قصيدة يُنشدها أمام ممدوحه بقوله :

«لَكَ الْوَيْلُ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَّرَ آخِرُهُ» .

وعابوا على المتنبي قوله في رثاء أم سيف الدولة^(٧) :

-
- (١) الواحدى : مفسر عالم بالأدب ، مولده ووفاته بنيسابور ، وكتبه البسيط والوسيط والوجيز في التفسير مخطوطة . وشرحه لديوان المتنبي مطبوع . تولى سنة ٤٦٨ هـ .
- (٢) ابن جنى : هو من أئمة النحو بالعربية ، ولد في الموصل وتوفى ببغداد سنة ٣٩٢ هـ . ومن مؤلفاته الخصائص في اللغة ، وكان المتنبي يقول : ابن جنى أعرف بشعرى منى .
- (٣) أبو النجم : هو الفضل بن قدامة ، وهو من رجال الإسلام ، والفحول المتقدمين في الطبقة الأولى منهم ، وله مع هشام ابن عبد الملك أخبار طويلة ، وكانت وفاته آخر دولة بنى أمية .
- (٤) قيل هذا البيت في وصف الشمس . والأحول : من بعينه حول ، وهو ظهور البياض في مؤخر العين ، ويكون السواد من قبل المآق .
- (٥) جرير : هو ابن عطية التميمي ، أحد الشعراء الثلاثة المتقدمين في دولة بنى أمية ، وهم الأخطل وجرير والفرزدق ، وقد فاق صاحبيه في بعض فنون الشعر ، وتوفى سنة ١١٠ هـ .
- (٦) البحتري : شاعر مطبوع من شعراء الدولة العباسية ، سئل أبو العلاء المعري : من أشعر الثلاثة ، أبو تمام أم البحتري أم المتنبي ؟ فقال أبو تمام والمتنبي حكيمان ، وإنما الشاعر البحتري . وكانت ولادته بمبنيج (وهي بلد قديمة بين حلب والفرات) ، وتوفى بها سنة ٢٨٤ هـ .
- (٧) سيف الدولة : هو أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان ، كان ملكًا على حلب ، وكان أدبيًا شاعرًا جيدًا لجيد الشعر شديد الاهتزاز له ؛ قيل لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء ، وقد انقطع المتنبي إليه وخصه بمدائح . وكانت ولادته سنة ٣٠٣ هـ وهي سنة ولادة المتنبي ، ووفاته سنة ٣٥٦ هـ بعد مقتل المتنبي بستين .

صلاة الله خالقنا خنوطاً على الوجه المكنن بالجمال^(١)

قال ابن ركيع^(٢): إن وصفه أم الملك بجمال الوجه غير مختار.

وفي الحق أن المتنبي كان جريئاً في مخاطبة الملوك، ولعل لعظم نفسه وعبقريته شأنًا في هذا الشذوذ. إذ لا بد للبليغ أولاً من التفكير في المعاني التي تحيش في نفسه، وهذه يجب أن تكون صادقة ذات قيمة وقوة يظهر فيها أثر الابتكار وسلامة النظر ودقة الذوق في تنسيق المعاني وحسن ترتيبها، فإذا تم له ذلك عمَد إلى الألفاظ الواضحة المؤثرة الملائمة، فألف بينها تأليفاً يكسبها جمالاً وقوة، فالبلاغة ليست في اللفظ وحده، وليست في المعنى وحده، ولكنها أثر لازم لسلامة تأليف هذين وحسن انسجامهما.

* * *

بعد هذا يحسن بك أن تعرف شيئاً عن الأسلوب الذي هو المعنى المصنوع في الألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لتكامل الغرض المقصود من الكلام وأفضل في نفوس سامعيه. وأنواع الأساليب ثلاثة:

(١) الأسلوب العلمي: وهو أهدأ الأساليب، وأكثرها احتياجاً إلى المنطق السليم والفكر المستقيم، وأبعدّها عن الخيال الشعري؛ لأنه يخاطب العقل، ويناجي الفكر، ويشرح الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموض وخفاء. وأظهر ميزات هذا الأسلوب الوضوح، ولا بد أن يبدو فيه أثر القوة والجمال، وقوته في سطوع بيانه ورصانة حججه، وجماله في سهولة عباراته وسلامة الذوق في اختيار كلماته، وحسن تقريره المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام.

فيجب أن يُعنى فيه باختيار الألفاظ الواضحة الصريحة في معناها الخالية من الاشتراك، وأن تؤلف هذه الألفاظ في سهولة وجلاء، حتى تكون ثوباً شفاً للمعنى المقصود، وحتى لا تصبح مثاراً للظنون، وجمالاً للتوجيه والتأويل.

ويحسن التنحّي عن المجاز ومحسنات البديع في هذا الأسلوب؛ إلا ما يجيء من ذلك عفواً من غير أن يمس أصلاً من أصوله أو ميزة من ميزاته. أما التشبيه الذي يُقصد به تقريب الحقائق إلى الأفهام وتوضيحها بذكر مماثلها، فهو في هذا الأسلوب حسن مقبول.

ولسنا في حاجة إلى أن نلقى عليك أمثلة لهذا النوع، فكتبُ الدراسة التي بين يديك تجرى جميعها على هذا النحو من الأساليب.

(٨) الصلاة: الرحمة. والخنوط: طيب يخلط للميت. يدعو لها بأن تكون رحمة الله لها بمنزلة الخنوط للميت.

(٩) ابن ركيع: شاعر مجيد، أصله من بغداد، ولد في تيس بمصر وتوفي بها سنة ٣٩٣ هـ وله ديوان شعر.

(٢) الأسلوب الأدبي: والجمال أبرز صفاته، وأظهر تميزاته، ومنشأً جماله ما فيه من خيال رائع، وتصوير دقيق، وتلمس لوجوه الشبه البعيدة بين الأشياء، واللباس المعنوي ثوب المحسوس، وإظهار المحسوس في صورة المعنوي.

فالمتنبى لا يرى الحمى الراجعة كما يراها الأطباء أثراً لجراثيم تدخل الجسم فترفع حرارته وتسبب له رغبة وقشعريرة. حتى إذا فرغت نوبتها تصبب الجسم عرقاً، ولكنه يصورها كما تراها في الآيات الآتية:

وَرَأَيْتُ كَأَنَّهَا حَيَاءٌ	فَلَيْسَ تَزُولُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ (١)
بَدَلْتُهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا	فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي (٢)
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ نَفْسِي وَعَنْهَا	فَتَوَسَّعَتْ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ (٣)
كَأَنَّ الصَّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي	مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةِ سَجَامِ
أَرَأَيْتَ وَقْتُهَا مِنْ غَيْرِ مُسَوِّقٍ	مُرَاقِبَةً الْمُسَوِّقِ الْمُسْتَهَامِ (٤)
وَيُضِدُّ وَغَدَهَا وَالصَّدْقُ شَرٌّ	إِذَا أَلْفَاكَ فِي الْكُحْبِ الْعِظَامِ (٥)
أَبْنَتُ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بَنَاتٍ	فَكَيْفَ وَصَلَتْ أَنْتِ مِنَ الرَّحَامِ؟ (٦)

والغنيوم لا يراها ابن الخياط (٧) كما يراها العالم بخاراً متراكماً يحول إلى ماء إذا صادف في الجو طبقة باردة، ولكنه يراها:

كَأَنَّ الْغَيْوَمَ جُيُوشٌ تَسُومُ	مِنَ الْعَذْلِ فِي كُلِّ أَرْضٍ صَلاَحًا (٨)
إِذَا قَاتَلَ الْمَحِلَّ فِيهَا الْغَيَامُ	

(١) الواو: وإو رب، أى رب زائرة لى، يريد بهذه الزائرة الحمى وكانت تأتيه ليلاً، يقول: كأنها فتاة ذات حياء، فهي تزورنى تحت سواد الليل.

(٢) المطارف: جمع مطرف كمكرم وهو رداء من خز، الحشايَا: جمع حشية وهى الفراش المشوى، وعافتها: أبتها. يقول:

هذه الزائرة، أى الحمى، لا تبيت فى الفراش، وإنما تبيت فى العظام.

(٣) يقول: جلدى يضيق عن أن يسع أنفاسى ويسعها، فهى تذيب جسمى وتوسع جلدى بما تصبى به من أنواع السقام.

(٤) يقول: إنه يراقب وقت زيارتها خوفاً لا شوقاً.

(٥) يريد بوعدها: وقت زيارتها، ويقول إنها صادقة الوعد لأنها لا تتخلف عن ميعادها، وذلك الصدق شر، لأنها تصدق فيما يضر.

(٦) يريد ببنات الدهر الحمى، وبنات الدهر شدائده، يقول للمحمى: عندى كل نوع من أنواع الشدائد، فكيف لم يمنعك ازدحامهن من الوصول إلّى؟

(٧) ابن الخياط: شاعر من أهل دمشق، طاف بالبلاد يمتدح الناس، وعظمت شهرته. وله ديوان شعر مشهور، توفى بدمشق سنة ٥١٧ هـ.

(٨) تسوم من العذل فى كل أرض صلاحاً، أى: تولى كل أرض صلاحاً بالخصب والنباه.

(٩) المحل: الجذب وهو انقطاع المطر ويس الأرض من الكلا، والصواب: نزول المطر، والرهام: جمع رهمة وهى المطر الضعيف الدائم، والكفاح: القتال والمدافعة.

يُقَرِّطُسُ بِالطَّلِّ فِيهِ السُّهَامُ وَيُشْرِعُ بِالْوَيْلِ فِيهِ الرِّمَاحَا (١)
وَسَلَّ عَلَيْهِ سُيُوفُ الْبُرُوقِ فَأُتْخَنَ بِالضَّرْبِ فِيهِ الْجِرَاحَا (٢)
تُرَى أَلْسُنُ النَّوْرِ تُثْنِي عَلَيْهِ فَتَعَجَّبُ مِنْهُنَّ خُرْسًا فَصَاحَا (٣)

وقد يتظاهر الأديب بإنكار أسباب حقائق العلم، ويتلَمَّس لها من خياله أسباباً تُثبت دعواه الأدبية وتُقَوِّي الغرض الذي ينشده، فكَلَّفَ البدر الذي يظهر في وجهه ليس ناشئاً عما فيه من جبال وقيعان جافة كما يقول العلماء، لأن المعرّي (٤) يرى لذلك سبباً آخر، فيقول في الرثاء:

وما كلفةُ البدرِ المنيرِ قَدِيمة ولكنّها في وجههِ أنْشُرُ اللَّطْمِ (٥)

ولا بد في هذا الأسلوب من الوضوح والقوة؛ فقول المتنبي:

قَفِي تَغْرَمُ الْأَوَّلَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِي بِثَانِيَةِ وَالْمُتْلِفِ الشَّيْءِ غَارِمُهُ (٦)

غير بليغ؛ لأنه يريد أنه نظر إليها نظرة أتلفت مهجته، فيقول لها قفّي لأنظر نظرة أخرى ترد إلى مهجتي وتُحييها، فإن فعلت كانت النظرة غرماً لما أتلفتته النظرة الأولى.

فانظر كيف عانينا طويلاً في شرح هذا الكلام الموجز الذي سبّب ما فيه من حذف وسوء تأليف شديدة خفاته وبُعده عن الأذهان، مع أن معناه جميل بديع، وفكرته مؤيَّدة بالدليل.

وإذا أردت أن تعرف كيف تظهر القوة في هذا الأسلوب، فاقرأ قول المتنبي في الرثاء:

مَا كُنْتُ أَمْلُ قَبْلَ نَفْسِكَ أَنْ أَرَى رَضَوَى عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ يَسِيرُ (٧)

ثم اقرأ قول ابن المعتز (٨):

(١) القرطاس: الغرض أو الهدف، ويقال: قرطس الرامي إذا أصاب القرطاس أي: الغرض، فهو يقول: إن الغمام يسد السهام إلى المحل فيقتضى عليه، ومعنى يشرع الرماح: يسدها، والويل: المطر الشديد الضخم القطر.

(٢) أُنْخَنَ بالضرب فيه الجراح: بالغ الجراحة فيه.

(٣) النّور: الزهر.

(٤) المعرّي: هو أبو العلاء المعري اللغوي الفيلسوف الشاعر المشهور، ولد بالمعرة وهي بلد صغير بالشام، وعنى من الجدرى وهو في الرابعة من عمره، وتوفي بالمعرة سنة ٤٤٩ هـ.

(٥) الكلفة: حمرة كدرة تعلق الوجه.

(٦) غرّم ما أنلفه: لزمه أداؤه. وتغرم: جواب قفّي، وفاعله: الأولى، ومن اللحظ: بيان للأولى، ومهجتي: مفعول تغرم.

(٧) رضوى: اسم جبل بالمدينة، شبه المرتضى به لعظمته وفخامة قدره.

(٨) ابن المعتز: هو عبد الله بن المعتز العباسي، أحد الأدباء العباسيين، منزلة في الشعر والنثر رفيعة. ويشتهر بتشبيهاته الرائعة، وهو أول من كتب في البديع، توفي سنة ٢٩٦ هـ.

قَدْ دَقَبَ النَّاسُ وَمَاتَ الْكِمَالُ وَصَاحَ صَرْفُ الدَّهْرِ أَيْنَ الرِّجَالِ؟
هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ فِي تَعْيِشِهِ قُومُوا أَنْظَرُوا كَيْفَ تَسِيرُ الْجِبَالُ

تجد أن الأسلوب الأول هادئ مطمئن، وأن الثاني شديد المِرَّة عظيم القوة، وربما كانت نهاية قوته في قوله: «وصاح صرفُ الدهر أين الرجال» ثم في قوله: «قوموا انظروا كيف تسير الجبال».

وجملة القول أن هذا الأسلوب يجب أن يكون جميلاً رائعاً بديع الخيال، ثم واضحاً قوياً. ويظن الناشئون في صناعة الأدب أنه كلما كثر المجاز وكثرت التشبيهات والأخيلة في هذا الأسلوب زاد حسنه، وهذا خطأ يئ، فإنه لا يذهب بجمال هذا الأسلوب أكثر من التكلف، ولا يفسده شرٌّ من تعمّد الصناعة، ونعتقد أنه لا يعجبك قول الشاعر:

فَأَمْطَرْتُ لَوْلَاكَ مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرَدًا وَعَصَبْتُ عَلَى الثَّنَابِ بِالْبَرْدِ (١)

هذا ومن السهل عليك أن تعرف أن الشعر والنثر الفني هما موطننا هذا الأسلوب، ففيهما يبلغ قنّة الفن والجمال.

(٣) الأسلوب الخطابي: وهنا تبرز قوة المعاني والألفاظ، وقوة الحجّة والبرهان، وقوة العقل الخصيب، وهنا يتحدث الخطيب إلى إرادة سامعيه لإثارة عزائمهم واستنهاض همهم. ولجمال هذا الأسلوب ووضوحه شأن كبير في تأثيره ووصوله إلى قرارة النفوس، وبما يزيد في تأثير هذا الأسلوب منزلة الخطيب في نفوس سامعيه وقوة عارضته، وسطوع حجته، وتبرّات صوته، وحسُن إلقائه، ومُحْكَم إشارته.

ومن أظهر مميزات هذا الأسلوب التكرار، واستعمال المترادفات، وضرب الأمثال، واختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين، ويحسن فيه أن تتعاقب ضروب التعبير من إخبار إلى استفهام إلى تعجب إلى استنكار، وأن تكون مواطن الوقف فيه قوية شافية للنفس. ومن خير الأمثلة لهذا الأسلوب خطبة على ابن أبي طالب (٢) - رضى الله عنه - لما أغار سُفْيَانُ بْنُ عَوْفٍ الْأَسَدِي (٣) على الأنبار (٤) وقتل عامله عليها:

«هَذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ بَلَغَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ وَقَتَلَ حَسَّانَ الْبَكْرِي (٥) وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ مِنْ مَسَاحِلِهَا (٦) وَقَتَلَ مِنْكُمْ رَجَالًا صَالِحِينَ».

(١) العناب: ثمر أحمر تشبه به الأنامل، والبرد: حبّ الغمام، وتشبه به الأسنان.

(٢) على ابن أبي طالب: هو رابع الخلفاء الراشدين، وأحد السابقين في الإسلام، وابن عم رسول الله ﷺ وصهره. وقد اشتهر ببلاغته وشجاعته، توفي سنة ٤٠ هـ.

(٣) سُفْيَانُ بْنُ عَوْفٍ الْأَسَدِي: هو أحد بني غامد، وهي قبيلة باليمن، وقد بعثه معاوية لشن الغارة على أطراف العراق.

(٤) الأنبار: بلدة على الشاطئ الشرقي للفرات.

(٥) حسان البكري: هو عامل على - رضى الله عنه - على الأنبار.

(٦) المسالح: جمع مسلحة، بالفتح، وهي الثغر حيث يخشى طرق العدو.

وقد بَلَّغْنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمَعَاهِدَةَ^(١)، فَيَتَنَبَّحُ حِجْلَهَا^(٢)، وَقُلُوبَهَا^(٣)، وَرِعَائَهَا^(٤)، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافْرِينَ^(٥) مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلِمًا^(٦)، وَلَا أَرِيقَ لَهُمْ دَمًّا، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ هَذَا أَسْفًا، مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا، بَلْ كَانَ جِنْدِي جَدِيدًا.

فَوَاعَجَبًا مِنْ جِدِّ هَؤُلَاءِ فِي بَاطِلِهِمْ، وَفَشَلِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ. فَقُبِّحًا لَكُمْ حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى^(٧)، يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيَّرُونَ، وَتُغَرَّوْنَ وَلَا تَغْرَوْنَ، وَيُعَصَى اللَّهُ وَتُرْضَوْنَ^(٨).

فانظر كيف تدرج ابن أبي طالب في إثارة شعور سامعيه حتى وصل إلى القمة فإنه أخبرهم بغزو الأنبار أولاً، ثم بقتل عامله، وأن ذلك لم يكف سُفْيَانُ بْنُ عَوْفٍ فَأَعْمَدَ سَيْوفَهُ فِي نَحْوِ كَثِيرٍ مِنْ رِجَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ.

ثم توجه في الفقرة الثانية إلى مكان الحمية فيهم، ومثار العزيمة والنخوة من نفس كل عربي كريم، ألا وهو المرأة، فإن العرب تبذل أرواحها رخيصة في الذود عنها، والدفاع عن خدرها. فقال:

وفي الفقرة الثالثة أظهر الدَّهْشَ والحيرة من تمسك أعدائه بالباطل ومناصرته، وفشل قومه عن الحق وخذلانه. ثم بلغ الغيظ منه مبلغه فَعَيَّرَهُمْ بِالْجُبْنِ وَالْحَقْوَرِ.

هذا مثال من أمثلة الأسلوب الخطابي نكتفى به في هذه المعجالة، ونرجو أن نكون قد وفَّقنا إلى بيان أسرار البلاغة في الكلام وأنواع أساليبه، حتى يكون الطالب خبيراً بأفانين القول، ومواطن استعمالها وشرائط تأديتها، والله الموفق.

(١) المعاهدة: الذمية.

(٢) الحجل: الخلخال.

(٣) القلب، بالضم: السوار.

(٤) الرعاث: جمع رعدة، القروط.

(٥) وافرين: تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم.

(٦) الكلم، بالفتح: الجرح.

(٧) الغرض: ما ينصب ليرى بالسهم ونحوها.

(٨) يشي بالعصيان إلى ما كان يفعله جيش معاوية من السلب والنهب والقتل في المسلمين والمعاهدين، أما رضا أهل العراق بهذا العصيان، فكناية عن قعودهم عن المداغة، إذ لو غضبوا لهموا إلى القتال.

رأى الأستاذ على الجارم فى الشعر والشعراء (*) بمناسبة وفاة الشاعرين شوقى وحافظ

لو أردت أن أصور لك تلك الجوانب الضافية، التى تتميز بها شخصية العالم الأديب، والأديب العالم، والشاعر الفحل الأستاذ «الجارم» لطال بى القول؛ وحسى أن أقول لك إنه عالم فذ فى فنون اللغة والبلاغة والأدب، وبخانة بعيد الغور فى تاريخ اللغة وما يتصل بها من: نحو وصرف، وبيان. وهو حين يزجى إليك رأياً من آرائه، إنما يحرص على أن يدفع إليك الرأى الرصين، والفكرة السديدة، والعقل الراجح، والمنطق المتزن، والقول الفاره، والكلام السهل الممتنع. ثم يحرص - إلى ذلك - على أن يكون رأيه مشفوعاً بالحجة والبرهان، مقتزناً بالمنطق والدليل. وقد يكون كل ما يؤخذ عليه أنه - وهو الشاعر الفحل، الرائع اللفظ، السرى المعنى، البعيد الخيال - مُقِل فى قول الشعر، فلا يقوله إلا فى أدق ساعاته، لا عن عجز، وإنما سموّاً به عن الابتذال، وترفعاً عن المهاترة.

فاجأته فى منزله بهذه الأسئلة، فأدهشنى منه أن يرتحل الإجابة عنها ارتجالاً، كأنها يقرأ من كتاب أمامه، أو يتلو قصيدة لما يتمها بعد، أو كأنها كنا على موعد سابق. وهانذا أقدم إليك ما علق بذهنى من هذا الحديث، الذى بدأه بقوله:

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً؟

إنه لمن العسف كل العسف أن ننكر أن ثمة فراغاً هائلاً قد حدث إثر موت هذين الشاعرين العظميين، الذين أعادوا من جديد سلطان الشعر إلى سابق عهده، وبسطا ظل زعامته فى الوادى بسطاً، على أن هذا الفراغ لا ينبغي أن يصرفنا بحال من الأحوال عن تلمس الشاعر المجهول الذى

(*) مجلة المعرفة الجزء التاسع - السنة الثانية - المجلد الرابع - العدد ٢١ أول يناير سنة ١٩٣٣ (رمضان ١٣٥١ هـ) ص ١٠٣٨ - ١٠٤٣. رئيس التحرير: عبد العزيز الإسلامبولى.

سيصبح أمير الشعر؛ وإذا كان هذا الشاعر المنتظر نسميه الآن بالمجهول ونعبر عنه بالحرف (س) كما يعبر الرياضيون، فإن المستقبل كفيل بالكشف عنه والإيحاء إليه.

وهذا الذى رأيناه من تمجيد الأمة للشعر: حكومة وشعباً، سيكون باعناً قوياً على خلق الروح الشعرية الحساسة، وبعث الشاعر الفنان الذى يؤدى رسالته فى عزم وقوة، وفى تجديد وتجويد، وفى روعة وافتنان؛ بل أستطيع أن أقول لك إن هذه الظاهرة — ظاهرة التقدير الأدبى للشعر والشعراء — ستحفز الشعراء إلى الإبداع فى القول، والافتنان فى الوصف، والتجويد فى البناء، والغوص وراء المعانى الرائعة، وتلمس المثل العالية، وكشف العواطف الإنسانية الدفينة، وتصوير الخوارج النفسية المصرية تصويراً دقيقاً.

وقد يكون من حقى أن أعتقد اعتقاداً تام اليقين، أن الشجرة — التى منينا بها الآن بعد موت الشاعرين — أقل اتساعاً وأصغر مدى من تلك التى أحدثها موت «البارودى» فى عصره، وأنت تعلم ذلك الأثر الهائل الذى أحدثه موت «البارودى» فى دولة الأدب وبنیان الشعر، وقد تعلم أن الناس وقتذاك قد ذهبوا يتلمسون السبل فى تعرف الشاعر المنتظر، بل راحوا يظنون الظنون ويتنبشون ويقدرّون، فتأبى الأقدار إلا أن تفاجئهم بـ «شوقى»، ليكون إعجازاً لإرهاص «البارودى» كما كان «البارودى» إعجازاً لإرهاص «الساعاتى».

أما كيف تسنم «شوقى» ذروة هذا المجد، فيعود إلى ما آتاه الله من المواهب الفطرية، والأخلاق الرضية، وبسطة العيش، والجاه، واتصال بالأمرء والعظماء، وسعة الثروة، والفراغ، وهذوء البال؛ فإن كل ذلك كان سبباً، وأى سبب، فى قبضه على صولجان الشعر حتى وفاته.

وقد كان «شوقى» مثقفاً بالغ الثقافة، متذوقاً كل التدوق لما يقرأ ويدرس من أدب العرب، ودواوين العرب، ولغة العرب، وأدب الفرنجة، ولغة الفرنجة، . أضيف إلى ذلك ما كان يحفظه من توارىخ الأمم، وحوادث العالم فى مختلف مراحلها. مما يجعل شعره مملوءاً بالأسانيد التاريخية، والحكم، وضرب المثل، والتفنن فى الوصف، والبراعة فى التخلص، وحسن المدخل، وجميل الوقع.

وقد فاتنى أن أقول لك: إن أبرز ميزة كانت فى أخلاق «شوقى»، إنها هى الاستسلام إلى الخالق تعالى، والرضا بحكمه، والاطمئنان إلى قضائه وقدره، اطمئناناً وفراً له هدوء النفس وطمأنينة القلب، وراحة الضمير.

وقد لمست هذا كله فى محادثاتى معه، ومن صداقتى له؛ فعرفت منه السر فى هذا الينبوع الفاضل، الذى أفاضه الله عليه؛ فإذا قدر لشاعر من شعرائنا المعاصرين هذا الذى ذكرت، فليس من شك فى أنه سيصبح أمير الشعر المنتظر.

مستقبل الشعر والشعراء

وتسألني رأيي في مستقبل الشعر، إذًا فاسمع :

لا شك في أن الشعر سينهض نهوضًا بارزًا، وقد تأثر الآن بعوامل المدنية، وأصبح في كثير من نواحيه صورة صادقة للعصر الذي نعيش فيه، وقد عاد أسلوبه إلى ما كان عليه من روعة في العصر العباسي الزاهر، وأصبح - مرة أخرى - فنًا له أصوله ومبادئه، وهو يقال الآن في مختلف الموضوعات، ومتعدد الأفانين. والشعراء يتوجهون إليه في غالب أحيانهم كما يتوجه رجل الفن إلى قطعة من الفن، يبرزها رغبة في إظهار مواهبه، وتنقيسًا عما يبيح في نفسه من صور، ويختلج في ذهنه من خيال؛ فهو يقول الشعر لأنه يحبه، ولأنه جزء من نفسه، ولأن الفطرة تدفعه إلى أن يقوله. ولا شك في أن ذلك كفيل بالإبداع والإحسان.

هل تأثر الشعر العربي بالثقافة الأجنبية؟

وتقول لي: إن الشعر العربي قد تأثر - إلى حد بعيد - بالثقافة الأجنبية، ولست أخالفك فيما تذهب إليه كل المخالفة، ولكني أقول:

إن الشعر العربي كان قليل التأثر بالثقافة الأجنبية؛ لأن شعراء العربية أرادوا أن يحافظوا على أسلوب شعرهم القديم ومناهجه، ولم يريدوا أن يدخلوا عليه عاصفة من التجديد تذهب بآثاره؛ لأنهم رأوا - وما رأوه حق - أن كل فن يجب أن يكون مطبوعًا بطابع الأمة، ملائمًا ذوقها العام، ومثل الشعر في ذلك الموسيقى. أرايت لو أدخل على النغمات الشرقية عنصر من النغمات الغربية، أكانت تطرب لها أذنك، أم تهش لها نفسك؟... فلكل أمة فنّها، ولكل أمة ذوقها؛ لذلك حافظ الشعراء - ما استطاعوا - على أوزان الشعر وأصاليه وأخيلته، ولم يغفلوا التجديد في المعاني والموضوعات، وقد اتسع صدر الشعر العربي لهذا التجديد، ولم تضيق به أوزانه ولا قوافيه؛ لأن اتساع اللغة وكثرة مفرداتها ومترادفاتها، أفسح الطريق لكل قائل، كيفما طال نفسه، وأبعد في مراميه.

أين الوحدة الموضوعية الفنية؟

وهنا قلت له: إن أغلب قصائد شعراء العرب والغصن الحاضر خال من الوحدة الموضوعية الفنية، فما رأيكم في هذا؟

فقال: نشأ الشعر في الجاهلية الأولى مظهرًا لخطرات النفس وأحاسيس الفؤاد، وبخاصة حينما كانوا يرتحلون الشعر، فكان الشاعر ينتقل من فكرة إلى أخرى، ومن مظهر من مظاهر الوجدان إلى آخر؛ لأن أصول الفن الشعري لم تكن وضعت، فكان الشعر يقال عفو الخاطر ورسالة البديهة، وتستطيع أن تمثل لذلك بمعلقة «طرفة»، فقد تنقل فيها من وصف الأطلال إلى وصف الناقة إلى وصف محبوبته إلى الشكوى، إلى وصف ملاحيه ومجونه... إلى غير ذلك.

واستمر الشعر في صدر الإسلام، وفي عهد بني أمية على هذا السنن، إلا ما يبرز أحياناً في قصائد الشاعر من وصف الحياة الجديدة التي ابتعثتها الفتوح الإسلامية، وإلا ما كان من رشاقة الألفاظ ورقتها، مما تأثر فيه المسلمون بأسلوب القرآن الكريم، أي أن الأسلوب الشعري الفني تهذب كثيراً واتسع مجال القول قليلاً بفنون جديدة؛ أما هيكل الشعر ومنهجه ومثله، فقد بقيت حافظة كيائها العربي الصميم، وربما كان من أسباب هذا قرب ذلك الجيل من عهود العرب الأولى، وشدة تعصب الأمويين للعرب والعربية؛ على أننا نرى في ذلك العصر طائفة احتفظت بوحدة الموضوع في قصائدها، وهم طائفة الشعراء الغزليين: كعمر بن أبي ربيعة، وجميل بثينة، وغيرهما ممن كان يبنى قصيدته على الغزل من أولها إلى آخرها، بحيث تكون مظهرًا لفكرة واحدة.

ولما جاءت الدولة العباسية - وقد قامت بمناصرة الفرس وجهادهم - كان للفرس والفارسية شأن يذكر، فانتقلت الحياة العربية الصميمة من البداوة إلى الحضارة، وامتزج العقل السامي بالعقل الآري، ونهض الخلفاء في صدر الدولة العباسية بمنصرة العلم والأدب، فترجموا كثيراً من آثار اليونان والرومان؛ وكان لهذه الآثار مدى بعيد الأفق في تثقيف العقول العربية، وإمدادها بألوان جديدة من الأفكار والأخيلة؛ وظهر هذا الأثر في الشعر العباسي من غير شك، وكثرت معانيه، وجددت أخیلته، وورقت عبارته، وكان مظهرًا صحيحًا للحياة العباسية، يمثلها من حيث قوتها واتساع سلطانها، وعظم ثروتها، ومجالات الأنس والسرور فيها.

وقد اتسع نطاق متن اللغة بدخول كثير من الألفاظ الأعجمية بعد أن صقلها العرب بصقلهم، فامتزجت بلغتهم غير مستوحشة ولا نائية، وأصبحت ثروة جديدة للغة العربية؛ وقد كان يكون التجديد أعظم بما شهدناه، لولا ميل فطري في نفوس الشعراء للتمسك بآثار آبائهم، والمحافظة على مباني الشعر وقواعده، ولولا أن كان هناك طائفة من النقاد على رأسهم الأصمعي، وحماد الراوية، وغيرهما - الذين كانوا يتعصبون للشعر العربي القديم، ويعدون كل خروج عليه خروجًا عن ذوق الشعر، وتقصيرًا عن بلوغ مداه - فكانوا لا يفضلون على الشعر الجاهلي شعرًا، وكان هؤلاء من النفوذ بين كبار رجالات الأدب وزعماء الدولة الشيء الكثير، فكان الشعراء يتعمدون ترسم آثار السابقين لينالوا الزلفى عند هؤلاء النقاد.

وأول من أطلق فكره من هذه الأغلال - على ما أعرف - ابن قتيبة الذي وضع كتابه «الشعر والشعراء» لنقد زيف الشعر وصحيحه، دون التأثير بالقديم أو الجديد.

وقد حاول «أبو نواس» الخروج على الشكل العربي في بعض قصائده، فأخذ يهزأ بمن سيكون على الأطلال، ويندبون الرسوم في طلائع قصائدهم، وهو الذي يقول:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل حديقك في ابنة الكرم

وله ما يشبه هذا المطلع في النعي على التمسك بالقديم ، ولكننا نراه في بقية شعره يحافظ على هذا السنن ، ويأخذ نفسه به أخذًا . على أن الشعر قد ظهر فيه تجديد في الأوزان في هذا العصر ؛ ولمسلم بن الوليد - وهو من وزن جديد - قوله :

يا أيها المعمود	قد شفقك الصدود
فأننت مستهام	حالفك السهود
تبيت ساهراً قد	ودعك الهجود
وفي الفؤاد نار	ليس لها خمود

ولغيره من شعراء العباسيين أمثال لهذا ، منتثرة في كتب الأدب .

وقد وجد شيء من التجديد في القافية أيضًا ، تراه واضحًا في ديوان ابن المعتز .

فالتجديد في هذا العصر حصل في الوزن والقافية كل على حدة ، ثم جاء ابتكار الموشح الأندلسي فجمع بينهما ، فهو تجديد في الوزن ، وتجديد في القافية معًا ، والموسيقى هي التي دفعت إلى ابتكار الموشح .

الشعر والموسيقى

ومن ثم سألنا الأستاذ أن يشرح لنا العلاقة بين الشعر والموسيقى ، وعما إذا كان في أشعار العرب ما يشبه ملاحم اليونان ، فقال :

كان الشعر لا يسلس قياده لنغمات الموسيقى ، فرأى الأندلسيون أن يضعوا النغمات أولاً ، ثم يقولوا الشعر على هواها ثانيًا ، وبذلك خضع الشعر للموسيقى ، بعد أن خضعت الموسيقى للشعر طويلاً .

أجل ، إن الشعراء في هذا العصر لم يتجاوزوا الموضوعات المعروفة إلا قليلًا ، فلم ينحوا نحو الشعر التمثيلي أو القصصي ، الطويل القصائد ، الكثير الملاحم ، البعيد النفس ؛ لأن الاهتمام - على ما يظهر لي - بترجمة العلوم كان فوق الاهتمام بترجمة الآداب ، ولأن اتجاه الشعراء - في أغلب مناحيه - كان للتكسب بالشعر ؛ على أن الشعراء في هذا العصر لم يتركوا حادثة ذات شأن من غير أن يسجلوها في أشعارهم ، وشعر المتنبي فياض بوصف وقائع سيف الدولة وملاحمه ، ويكفي أن تقرأ قصيدته التي استهلها بقوله :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

لتعرف أن العرب لم يقصروا في وصف الملاحم وتصوير الوقائع ، ثم اقرأ بعد ذلك قصيدة أبي تمام في وصف فتح «عمورية» التي استهلها بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حصد الحدين الجد واللعب
تجد وصفًا ممتعًا وتصويرًا دقيقًا للملحمة . نعم ، إن هذه القصائد ليست بالطوال ، ولكنها على
قصرها وافية بالغرض الذي سيقته له وقيلت فيه .
فنحن نستطيع الآن أن نقول : إن التجديد في الشعر العباسي كان جليًا ، ولكنه حافظ على
أسلوب الشعر العربي القديم وسننه ومناهجه .

تطور الشعر

ثم انتقل الشعر بعد الدولة العباسية انتقالًا آخر ، وكان لذلك تمهيد ؛ ابتداءً من « المعري » أو بعد
وفاته بقليل ، وكان زعيم هذا الانتقال القاضي الفاضل ، فهو مؤسس الطريقة الفاضلية في النثر ، وقد
سلك الشعراء طريقها في الشعر ، فأصبحت العناية بالألفاظ وزخرفتها وتزيينها متجه الشاعر وغايته ،
ولم يكن البحث عن المعاني ونضارة الأساليب العربية في هذا العصر بالذي يستثير اهتمامهم . وهو نوع
من التجديد أرادوا أن يسلكوا به طريقة جديدة في صياغة الشعر ، وقد بلغت هذه الصياغة حد كمالها
في الصدر الأول من عهد المالك ، وكان زعيم الشعراء فيها ابن نباتة في مصر ، والصفدي في الشام .

وتسألني رأيت في هذا الشعر فأقول لك : إننا لم نوفه حقه من الدرس والعناية ، وإننا بهرنا بجمال
الشعر العباسي فأنصرفنا إليه جملة ، ولم نأبه إلا قليلًا لقراءة الشعر فيها يليه من العصور .
إن شعر عصر المالك شعر مصري في روحه ونزعه وموضوعاته ، فمن العناية القومية أن نعني
بدرسه وتحليله والتفوذ منه إلى تاريخ هذا العصر ، قبل أن نعني بشعر بغداد وما وراء النهر .

ونستطيع أن نسمي هذا العصر عصر الزينة والجمال ، فقد كان الجمال متملكًا فيه كل نفس ، وقد
ظهر أثر ذلك في مساجد المالك ومواكبهم ، وما كانوا يتحلون به ويحلون به محافلهم من صنوف
الجمال . وقد كان الشعر صورة لهذا الجمال أيضًا ، فكله زخرف ، وكله حلية لفظية ، وكله جمال
مبرقش ، تتجلى فيه خفة الروح المصرية ، وتظهر فيه النكتة البلدية بديعة رائعة أخاذة ، تدفعك - على
الرغم منك - إلى المرح والابتهاج والإيناس .

مثال ذلك قول « ابن دانيال » الذي كان طبيب عيون بالقرب من « باب الفتوح » :

يا سائلي عن حرفتي في السورى
ما حال من درهم إنفاقه
واضيعتى فيهم وإفلاسى
يأخذه من أعين الناس ؟

وقول الجزار ، وقد كان قصابًا بالقاهرة :

كيف لا أمدح الجزارة ما عشت
وبها صارت الكلاب ترجيني
تطويلاً وأهجر الأديبا
وبالشعر كنت أرجو الكلابا ؟

ثم تقهقر الشعر بعد طائفة ابن نباتة، فأصبح خالياً من جمال الزينة، خالياً من المعاني، واستمر به الضعف حتى نهض نهضته الحديثة، وكانت أول صحوة له في شعر «الساعاتى» الذى ظهرت فيه لمحات من الشعر القديم والأسلوب القديم، وظهرت فيه مجانفة عن زخرف اللفظ الذى لم يشفع له شفيق من حسن الذوق أو خفة الروح، ثم جاء «البارودى» وغتر، فلم يشق له غبار، وكان فى الحق نادرة الفلك. والسبب فى نهوضه أنه عنى بدراسة شعر السابقين من الجاهليين والأمويين والعباسيين، ولم يرض أن يقتصر على دراسة عصره ومن سبقهم من الشعراء بأمد قريب، كما كان شأن غيره من الشعراء.

ظل ذلك شأن الشعر حتى أتاح الله للعربية «شوقى» شاعرها الفرد، وبلبلها الفرد، الذى أضحى علم زمانه، فأبدع فى فنون الشعر ومذاهبه ما شاء له الإبداع، وجدد كثيراً فى معانيه ومبانيه.



ومجمل القول أن الشعر العربى كان فيه باحة للتجديد قليلاً أو كثيراً فى عصوره المختلفة، وأن الشعراء حافظوا - جهد طاقتهم - على بقاء هذا كله مصوناً من أن يعبث بأركانه عابث، أو يمس بسوء بنيانه، فظل طويلاً شامخاً، وبقي أثرًا خالداً نتنسم منه أريج آبائنا السابقين وأجدادنا الأولين، ونراهم مفخرة لمجدنا العربى، وبنائنا الإسلامى، وروحنا الشرقى، ومزاجنا القومى.

وسيبقى الشعر - كما كان - تزخر بحوره بما كان للعرب من: أدب رائع، وخيال ساحر، وبيان أسر، وتصوير ماهر.

البوصيرى (❖)

هل لنا شعر مصرى نعتز به؟ وهل كان لنا شعراء مصريون جديرون بالتقدير؟ هذان سؤالان يدور حولهما في هذه الأيام نقاش وحوار محتدمان، فما هو وجه الصواب في الأمر؟ ذلك ما ندع الجواب عنه للأستاذ الجارم، الذى سيتولى نشر خلاصة دراساته الخاصة في هذا الموضوع الجليل، مبتدئاً بدراسة «البوصيرى» الشاعر المصرى المعروف.

المحرر: عبد العزيز الإسلامبولى

مولده:

ولد سنة سنة ٦٠٨ هـ في دلاص، وهى قرية من بنى سويف، وكان أحد أبويه من بوصير، والآخر من دلاص، فركبت له نسبة من البلدتين، فقليل الدلاصيرى، ثم اشتهر بالبوصيرى. ونحن نجهل كثيراً جداً من حياة البوصيرى، وكلما لجأنا إلى كتاب نراه يشكو من غموض سيرته، وقلة ما يمكن أن يقال حول حياته؛ فلسنا نعرف عن أبيه شيئاً، ولسنا نعرف عن نشأته الأولى شيئاً، ولكننا نستطيع أن ندعى أنه انتقل إلى القاهرة في أول شبابه لتلقى العلم، لأنها أقرب مراكز العلم إلى بلدته، فتلقى علوم العربية والأدب، ووصل فيهما إلى غاية محمود، حتى ليخبرنا ابن حجر الهيتمى الذى شرح الحمزية، أن من تلاميذه الإمام أبا حيان الذى ولد سنة ٦٥٤، ومات سنة ٧٤٥، وكان إماماً في النحو والتصريف والحديث. ومنهم الإمام اليعمرى فتح الدين بن سيد الناس، وكان من كبار المحدثين، ولد سنة ٦٦١ ومات سنة ٧٣٤.

وكان مولد البوصيرى في أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر، وهو الرابع من ملوك بنى أيوب.

(*) مجلة المعرفة: الجزء الأول، السنة الثالثة - المجلد الخامس مايو سنة ١٩٣٣. محرم سنة ١٣٥٢. ص ١١-١٥.

وكانت القاهرة - في الوقت الذي يظن أن البوصيري وفد عليها فيه - كثيرة المعاهد والمدارس ، تخرج بعلماء العربية والفقه والحديث والتفسير ورجال الشعر والأدب .

ولسنا نعرف متى بدأ البوصيري قول الشعر ، فإننا لا نجد في الديوان الذي بأيدينا شيئاً قاله في أيام الدولة الأيوبية ، وقد زالت وهو في سن الأربعين ، وعاصر من شعرائها عدداً غير قليل ، منهم ابن النبيه المتوفى سنة ٦٢١ ، وراجح بن اسماعيل الحلبي المتوفى سنة ٦٢٧ ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ ، وابن مطروح المتوفى سنة ٦٥٤ ، والبهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦ . ولعله قال شعراً قليلاً أو كثيراً في الدولة الأيوبية لم يحفل الناس بجمعه .

شعره:

ونستطيع أن نقسم شعر البوصيري أقساماً ثلاثة :

القسم الأول : ما قاله في مدح الوزراء والكبراء ، والثاني : ما قاله في شتونه الخاصة ، وفيه كثير من الشكاية المرة أحياناً ، والفكاهة العذبة أحياناً أخرى . والثالث : ما قاله في المدائح النبوية . وهذا القسم خير شعره وأجوده حقاً ، فإن البون شاسع والمدى بعيد والفارق كما بين القطبين ، بين شعره في مدح الرسول ﷺ وشعره في شتونه الأخرى ، فهناك اللفظ الجزل والمعنى الشريف والأسلوب البديع والزين الأخاذ والافتتان والسمو والإجادة . ولا نظفر بشيء من ذلك في شعره الدنيوي إلا كما يظفر الضارب في الصحراء القفر بموارد الماء ومنابت العشب بين حين وحين . والذي يقرأ مدائح البوصيري في الذات النبوية يشعر بقوة الإمام البوصيري وروحانيته وتأثره الشديد بجلال ممدوحه ومقامه المحمود ، ويحس أن الكلام ينبع من قلب الرجل ، ويخرج من نفس فنية في ممدوحها العظيم ، وحلقت في جو كله صفاء ونور . وسنفرد للكلام في مدائحه هذه فصلاً مسهباً .

القسم الأول:

يبدأ الإمام البوصيري القصيدة بأبيات سهلة ، يقدمها بين يدي غرضه ، قد يكون بها شيء من الغزل الصوفي أحياناً ، كقوله :

عرج برامة إنها لمرامي	وبجيرة فيها على كرام
نزلوا العقيق فأدعى شوقاً إلى	تلك الربي مثل العقيق دوام
ما للديار وللمحب كأنها	هزجت حمائم له بحام
عهدي بها وكان مُنهلاً الحيا	دمعى ومصفر البهار سقامى

ثم يسير على هذا الطراز حتى يتخلص إلى المديح تخلصاً سهلاً خالياً من المهارة الفنية . ويقول في مطلع قصيدة يمدح بها القاضي فخر الدين لقمان ، وكان من المتصلين به :

أريج الصبا هبت على زهر الربى
أم الراح أهدت للرياح خمورها
ألم ترني هز التصابي معاطفى
فمن خبرى ماذا السرور الذى سرى
فقالوا أعاد الله للناس فخرهم
فقلت أفخر الدين لقمان؟ قال لى:
فأصبح منهاكل قطر مطيّا؟
فأسكر مسراها الوجوه وطيبا
وراجمنى ما راق من رونق الصبا
فلا بد حتما أن يكون له نبا
وليّا إلى كل القلوب محييا
بلى قل له أهلاً وسهلاً ومرحباً

والمحاورة هنا جميلة فى قوله: «فمن خبرى ماذا السرور الذى سرى... إلخ». وهى إن دلت على شىء، فإنما تدل على سهولة فى التخيل. وقوة فى تصوير عاطفة طبيعية بعيدة عن التكلف. وكثيراً ما يستطرد البوصيرى وينتقل من المديح إلى ذم كتاب الدواوين فى أيامه وتنقصهم ورميهم بالظلم والعسف، ثم يعطف إلى إغراء الممدوح بهم، ودعوته إلى القضاء عليهم وكف شرهم عن الرعية البائسة. وهذه ظاهرة بارزة فى شعره، فلا تخلو له قصيدة من النيل من هؤلاء الكتاب فى لغة جارحة، وطعن مؤلم، تمتزج فيها مرارة الغيظ بشىء من الفكاهة القارصة.

استمع إلى قوله فى قصيدة يمدح بها أحد كبار المالك:

برئت من المستخدمى فخيرهم
فلا تدن منهم واحداً منك ساعة
وبرّد فؤادى بانتقامك منهمو
منعت بهم حظى شهوراً ولم أصل
لصاحبه أعدى وأنكى وأنكر
ولو فاح من برديه مسك وعنبر
فقد كاد قلبى منهمو يتفطر
إلى حظهم حتى مضت لى أشهر

ثم يقول:

أما فيهمو لا بارك الله فيهمو
ويظهر أن هؤلاء المستخدمين كانوا يباطلون ويسوفون فى إعطائه راتبه، ولعل ذلك من أسباب ضغنه عليهم، ألسنا نراه يقول فى قصيدة أخرى:

من لم يقم لى منهمو بوظيفتى
جبرسته بملامتى تجريسا

وله قصيدة نونية طويلة فى هذا الموضوع كلها هجاء مؤلم ونقد لاذع.

وقد يستطرد فى قصائده إلى ذم الشعراء فى عصره ذمّاً قبيحاً فى جرأة وتحد، كقوله:

ومها رآنى شاعر متأسد
أراقب من عاشرت منهم كأننى
كأنى إذا أهديهمو من ضلالهم
تذأب منى خيفة وتعلبى
أراقب كلباً أو أقارب عقربا
أبصر أعمى أو أقوم أحديبا

وكثيراً ما يكون البوصيرى ظريفاً جداً حينما يخرج من المدح إلى قص قصة أو سرد حكاية في صورة تدل على التبسط مع ممدوحه ، وذلك كقوله في غضون قصيدة :

عجيب لأمر آل بالشيخ خلص	إلى أن يعمرى كاللصوص ويضربا
بكيت له لما كشفت ثيابه	وأبصرت جسماً بالدماء مخضباً
وحلفته بالله ما كان ذنبه ؟	فأقسم لى بالله ما كان مذنباً
ولكن حبيب راح في مصدقاً	كلام عدو ما يزال مكذباً
فقلت : ومن كان الأمير حبيبه	فلا بد أن يرضى عليه ويفضبا
فصبراً جبالاً فالمقدر كائن	فقد كان أمراً لم تجهد منه مهرباً
فإبليس لما كان ضللاً لأدم	تحيل في عصيانه وتسبباً
وقد كانت العقبي لأدم دونه	فتاب عليه الله من بعد واجتبي
ومن قبل ذا قد كنت إن كنت ذا كراً	نهيتك أن تلقى الأمير مقطباً
دعاك إلى أمر مهم فجتته	كانك في عرس أنيت مشبياً
فلا تنس فينا للأمير قضية	فتفتح باباً للعتاب مجرباً
وإياك أن تبطل على براتبى	فيبقى عليك اللوم منه مرتباً

فانظر إلى سهولة البوصيرى في قص القصيدة وكيف حكى لنا ما أصاب خادم الممدوح الخاص من الضرب الشديد ، وأن الذى ضربه هو الممدوح نفسه بوشاية وإش كدوب ، ثم انظر إليه وهو يؤنب الخادم لأنه استغل حظوته عند الأمير ، فهو مرة يدخل عليه عابساً مقطباً ، ومرة في حال تدل على زوال الكلفة وقلة الاهتمام ، كأنه يقابل عروساً هو بها مغرم هائم ، ثم انظر إليه كيف يجعل هذه الحادثة سلماً لمطالبه عند الأمير ، حتى إنه ليدخل في روع الخادم أنه إذا أهمل تذكيره براتبه جرّ عليه ذلك سخط الأمير نفسه . والبوصيرى كثيراً ما يخوض في الشئون العامة ، وكثيراً ما يدعو إلى الإصلاح ، وكثيراً ما ينصب نفسه لنصرة المستضعفين . وقد سقنا إليك طرفاً من ذلك في مهاجمته المستخدمين وغيرهم ، فاستمع إليه الآن وهو يهجو الأعراب و يهزأ بهم ، وقد كانوا يغرون على البلاد ويعيثون فيها فساداً :

عصت إليه أناس لا خلاق لهم	الشؤم شيمتهم واللؤم والدبر
تلمعوا ثم قالوا إننا عرب	فقلت لا عرب أنتم ولا حضر
ولا عهود لكم ترعى ولا ذمم	ولا بيوتكمو شعر ولا وبر
وأى برية فيها بيوتكمو	وهل هى الشعر قولوا لى أو المدر
وليس ينجى امرأة راموا أذيته	منهم فرار فقل كلا ولا وزر

ثم يقول للممدوح :

لما علمت بأن الفرق أبطهرهم	والمفسدون إذا أكرمتهم بطروا
----------------------------	-----------------------------

وفي العقوبات للطاغين مزدجر
لا يتركون الأذى إلا إذا قهروا

أمعأؤهم فتمنوا أنهم نحرروا
فما يلفقهوا خيط ولا إبر
عن الجسوم فقلنا إنها أكر
تربط حبال بها يومًا ولا بكر
شدت جسومهم الألواح والدرس
وقالت الناس : خير من عمى عور
ومن وراء تلقيهم لها ستر

زجرهم بعقوبات متنوعة
كأنهم أقسموا بالله أنهمو

ثم يعدد لنا أنواع العقوبات في زمنه فيقول :

فمعشر ركبوا الأوتار فانقطعت
ومعشر قطعت أوصالهم قطعًا
ومعشر بالظبي طالت رؤوسهمو
ومعشر وسط مثل السدلاء ولم
ومعشر سمروا خلف الجياد وقد
وآخرون فدوا بالمال أنفسهم
موتات سوء تلقوها بما صنعوا

وترى البوصيرى بعد ذلك لا يترك الكلام في السياسة الخارجية للمملكة ، ولا يميل التنويه بها
يرفع شأن مصر ، ولا يغفل الإشادة بانتصارها في ميادين القتال . فهو يذكر - في إعجاب وزهو -
انتصار الجيوش المصرية بالشام وأخذهم المرقب ، في قصيدة يمدح بها أحد كبراء الدولة في عهد الملك
المنصور سيف الدين بن قلاوون الذي تولى حكم مصر سنة ٦٧٨ هـ .

عن العدو في أرض العدو جسور
من الترك جم لا يمدد غفير
ورجل لهم مثل الجرار تمود
بها منه برد السحاب يكور
ونبلا وكل بالعذاب مطير
أثاف لها تلك البروج قدور
لهم ذلك الحصن الحصين حصير
من الخيل سور والصورام سور
وإلا إلى ضرب الرقاب مصير
غدو إليهم بالردى وبكور
أمائًا وجلباب الحياة قصير
فذاك لأحقاد السيوف مثير
وزادت نحور مائة وصدور
عفو عن الذنب العظيم غفور
ملك يحب الرأى وهو خير
ويكرم منه الخلو وهو عصير

يظنون خيل المسلمين يصدها
أما زلزلت بالعاديات وجاءها
أتوا عطرات من الجرد إن سرت
فلم يرقبوا من صرح هامان مرقبًا
وصبوا عليه عارضًا من حجارة
وساموه خسفًا من ثقب كأنها
فباتوا به مرّ الحصار فأصبحوا
وماذا يرد السور عنهم وخلفه
وليس لهم إلا إلى الأسر ملجأ
فلما أحسوا بأس أغلب همه
دعوه وشمل النصر منهم ممزق
فلا تذكروا ما كان بالأس منهمو
ولو شاء مد النيل سيل دمائمهم
ولكنه من حلمه واقتداره
ولم يبقهم إلا خيرًا لمثلهم
يرى الرأى مثل الراح يروى عتيقه

فولوا وسوء الظن يلوى وجوههم
فتحسبها سورا وما هي سور
فلله سلطان البسيطة إنه
ملك يصير النصر حيث يسير

وهذه القطعة رائعة حقاً، وهي وصف واف يصور لك الموقعة تصويراً صادقاً، ولا بد من استيفاء الحديث في هذه القصيدة في عدد آخر، فإنها من قصائده الجامعة.

الترادف (*)

عنى علماء اللغة بالبحث في الترادف، وجالوا فيه جَولات، تدل على كثير من التقصى والاستيعاب، وأدلو فيه بآراء، هداهم إليها النظر والاستقراء، وتناولوه بالتأليف، فألف فيه مجد الدين الفيروزآبادى صاحب القاموس كتابًا، سماه «الروض المسلوف»، فيما له اسمان إلى ألوف» وأفرد له جماعة من الأئمة كتبًا، في أشياء مخصوصة، فألف ابن خالويه كتابًا في أسماء الأسد، وكتابًا في أسماء الحية.

وكان اهتمام علماء الأصول والمناطقة به عظيمًا، فأفاضوا فيه وأسهبوا، وأكثروا من التحقيق، الذى أثر عن علماء الأعاجم، ووسمت به مباحثهم؛ لأن الأصوليين، وغايتهم استنباط الأحكام واستخلاصها من النصوص، يرون من الختم أن يبحثوا في الألفاظ ومدلولاتها، ومنها المترادف، ويعينهم أن يبتوا رأيًا في المترادفين: أيدلان على معنى واحد، أم يدلان على معنيين متحدتين في الجملة، مع فرق يحول دون استعمال أحدهما في مكان الآخر.

والمناطقة، وصناعتهم تحديد المعانى، وكشف الحقائق، يرون البحث في الترادف من المسائل الحقيقية بالناية والنظر، حتى تظهر معانى الحدود والقضايا، محدودة خالية من الشوائب، التى تحول دون دقة الفكر، وسلامته من الزلل.

جاء في الصفحة ٢٣٨ من الجزء الأول من المزهرة للسيوطى في تعريف المترادف: «قال الإمام فخر الدين: هو الألفاظ المفردة، الدالة على شيء واحد، باعتبار واحد. قال: واحترزنا بالافراد عن الاسم والحد، فليس مترادفين، ويوحدة الاعتبار عن المتباينين، كالسيف والصارم؛ فإنهما دلا على شيء واحد لكن باعتبارين: أحدهما على الذات، والآخر على الصفة. والفرق بينه وبين التوكيد أن أحد المترادفين يفيد ما أفاده الآخر، كالإنسان والبشر، وفى التوكيد يفيد الثانى تقوية الأول؛ والفرق بينه وبين التابع أن التابع وحده لا يفيد شيئًا، كقولنا عطشان نطشان».

(*) ألقى هذا البحث في جلسة المجمع بتاريخ ٣٠ يناير ١٩٣٤ ونشر بمجلة المجمع في الجزء الأول ص ٣٠٣.

وقال ابن فارس: «ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة، نحو: السيف، والمهند، والحسام». ثم عقب على ذلك بكلام سنسوقه بعد.

وجاء في كشف مصطلحات العلوم للتهانوي:

«الترادف لغة: ركوب أحد تخلف آخر، وعند أهل العربية والأصول والميزان هو: توارد لفظين مفردين، أو ألفاظ كذلك في الدلالة على الانفراد، بحسب أصل الوضع، على معنى واحد، من جهة واحدة. وتلك الألفاظ تسمى مترادفة. فبقيد اللفظين خرج التأكيد اللفظي، لعدم كون المؤكد فيه والمؤكد لفظين مختلفين، وبقيد الانفراد التابع والمتبوع، نحو عطشان نطشان، وإن قال البعض بترادفهما، وبقيد أصل الوضع خرج الألفاظ الدالة على معنى واحد مجازاً، والتي يدل بعضها مجازاً وبعضها حقيقة، وبوحدة المعنى خرج التأكيد المعنوي والمؤكد، وبوحدة الجهة الحد والمحدود. قيل فلا حاجة إلى تقييد الألفاظ بالمفردة، احترازاً عن الحد والمحدود: (إذ الحد يدل على المفردات مفصلة بأوضاع متعددة، بخلاف المحدود، فإنه يدل عليها جملة بوضع واحد).

وقد يقال إن مثل قولنا: (الإنسان قاعد، والبشر جالس) قد تواردا في الدلالة على معنى واحد، من جهة واحدة، فإن سميا مترادفين فذلك، وإلا احتيج إلى قيد الإفراد، وهو ظاهر.

والذي يؤخذ على التهانوي أنه أخرج التوكيد المعنوي والمؤكد ب قيد وحدة المعنى، وكان الأولى أن يخرج بهذا القيد الألفاظ المتباينة، نحو رجل وكتاب، والأسماء وصفاتها، نحو السيف والحسام، أما التوكيد المعنوي والمؤكد فخارج بقيد الانفراد، لأن التوكيد المعنوي لا يقع منفرداً، ويؤخذ عليه أيضاً عده: (الإنسان قاعد، والبشر جالس) تركيبين مترادفين، مع أن هناك فرقاً مشهوراً بين القعود والجلوس، كما سيأتي بيانه.

وقد فهمنا من هذا التعريف أن الترادف بمعناه الدقيق، يوجب أن تكون الألفاظ الدالة على معنى واحد، قد وضع كل منهما وضعاً مستقلاً لهذا المعنى، فالشيء ووصفه ليسا مترادفين، والحقيقة والمجاز أو الكناية ليسا مترادفين. ولكن المطلع على كتب اللغة، وعلى ما عده علماءها من المترادف، يرى كثيراً من التساهل في هذه الناحية، فالتشابه في المعنى كاف عندهم للحكم بالترادف، من غير نظر إلى حقيقة أو مجاز أو وصف.

وقد افترق علماء اللغة في الترادف، فأجاز فريق وقوعه في اللغة، وأنكره فريق، قال السيوطي في المزهّر في الصفحة ٢٣٨ من الجزء الأول: «ومن الناس من أنكره، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات، فهو من المتباينات: إما لأن أحدهما اسم الذات والآخر اسم الصفة، أو صفة الصفة».

وقال ابن فارس بعد التمثيل بالسيف والمهند والحسام: «والذي نقوله في هذا إن الاسم واحد، وهو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها معناها غير معنى الأخرى، وقد خالف في ذلك قوم، فزعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها، فإنها ترجع إلى معنى واحد».

وقال آخرون : ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غير معنى الآخر، قالوا : وكذلك الأفعال، نحو مضى وذهب وانطلق ؛ وقعد وجلس ؛ ورقد ونام وجمع ؛ قالوا : ففى قعد معنى ليس فى جلس، وكذلك القول فىا سواء .

وبهذا نقول، وهو مذهب شيخنا أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب .

واحتج أصحاب المقالة الأولى بأنه لو كان بكل لفظة معنى غير معنى الأخرى، لما أمكن أن يُعبر عن الشيء بغير عبارته، وذلك أنا نقول فى (لا ريب فيه : لا شك فيه)، فلو كان الريب غير الشك، لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ، فلما عُبر عن هذا بهذا، عُلم أن المعنى واحد .

قالوا : وإنما يأتى الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد فى مكان واحد توكيداً ومبالغة كقوله : «وهند أتى من دونها النأى والبعد» .

قالوا : فالنأى : هو البعد .

ونحن نقول : إن فى «قعد» معنى ليس فى «جلس»، ألا ترى أنا نقول : قام ثم قعد، وأخذ المقيم المقعد، ونقول لناس من الخوارج قعد، ثم نقول كان مضطجعا، فجلس، فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هى دون الجلوس ؛ لأن الجلس : المرتفع، فالجلوس ارتفاع عما هو دونه، وعلى هذا يجرى الباب كله .

وأما قولهم إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يُعبر عن الشيء بالشيء، فإننا نقول : إنما عبر عنه من طريق المشاكلة، ولسنا نقول إن اللفظين مختلفان، فيلزمنا ما قالوه، وإنما نقول : إن فى كل واحدة معنى ليس فى الأخرى .

وجاء فى الصفحة ٢٣٦ من الجزء الأول من المزهر « قال أبو العباس عن ابن الأعرابى : «كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه، ريبا عرفناه فأخبرنا به، وريبا غمض علينا فلم يلزم العرب جهله، وقال : الأسماء كلها لعله ؛ من العلل ما نعلمه، ومنها مانجهله» .

وجاء فى الصفحة ٢٤٠ من الجزء الأول من المزهر :

«وقال العلامة عز الدين بن جماعة فى شرح جمع الجوامع : حكى الشيخ القاضى أبو بكر العربى، بسنده عن أبى على الفارسى، قال : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه : احفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسم أبو على وقال : ما أحفظ له إلا اسماً واحداً، وهو السيف ؛ قال ابن خالويه : فأين المهند، والصارم، وكذا، وكذا؟ قال أبو على : هذه صفات، وكان الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة» .

وجاء في كشاف مُصطلحات العلوم للتهانوي :

« زعم البعض أن المرادف ليس بواقع في اللغة، وما يظنّ منه فهو من باب اختلاف الذات والصفة، كالإنسان والناطق، أو اختلاف الصفات، كالماشى والكاتب، أو الصفة وصفة الصفة، كالمتكلم والفصيح، أو الذات وصفة الصفة كالإنسان والفصيح، وقال : لو وقع الترادف لعرى الوضع عن الفائدة، لأن الغرض من وضع الألفاظ ليس إفادة التفهيم في حق المتكلم، واستفادة التفهيم في حق السامع، فأحد اللفظين يكون غير مفيد؛ لأن الواحد كاف للإفهام، والمقصود حاصل من أحدهما، فلا فائدة في الآخر، فصار وضعه عبثاً، فلا يقع عن الواضع الحكيم ». هكذا في حواشي السلم .

ولم يُغفل البحث في الترادف علماء اللغات الأخرى، وما هو جدير بالنظر أن آراء بعضهم في هذا الموضوع توافق كثيراً من آراء علمائنا، وأن الدافع لهم إلى البحث هو الدافع نفسه، الذي حفز رجال لغتنا إلى الكلام في الترادف، والإضافة فيه .

قال الأستاذ ترنش في كتابه « دراسة الكلمات » :

(Study of Words - Lectures, by Richard Chenevix Trench.
D.D.Archbishop of Dublin.) ما محصله :

« قد يسأل سائل عن معنى الترادف حينما نوازن بين بعض الكلمات، ونجزم بأن بينها ترادفاً . إننا نقصد أنها مع شدة تشابه معانيها تتضمن فروقاً صغيرة جزئية، وهذه الفروق إما مصاحبة لها في أصل الوضع، وإما طارئة عليها بالاستعمال، وإما أنها جاءت إليها من تصرف البلغاء، وأساطين البيان . فالترادفات كلمات متشابهة في المعنى الأساسي، مع قليل من التباين في نواح أخرى، أو أنها تشترك في المعنى العام، ولكن كل واحدة منها تختص بنصيب، تنفرد به دون الأخرى . وفي هذا التعريف شيء من التساهل في شرح معنى الترادف، فمن المهيّن أن يرى كل من له إلمام بعلم اللغة أن إطلاق الترادف على الكلمات المتشابهة في معانيها الأساسية ليس غير، تسمية غير صحيحة، وإطلاق خال من الدقة والصواب، لأن المعنى الدقيق للترادف، يقتضى أن تتضمن الكلمات المترادفة معنى واحداً على التحديد، لا على التقريب، وأن يكون تشابه المعنى فيها كاملاً، وأنها، إن صح التشبيه، دوائر متحدة في المركز والمحيط .

ولكن المترادفات لا تستعمل في العادة مع النظر إلى ما بينها من فروق دقيقة، لأننا دون أن نجرؤ على إنكار أنه قد يجوز أن يكون هناك كلمات حقيقية الترادف، نرى أن مثل هذه الكلمات لا يستطيع البحث عما بينها من فروق، لعدم وجود هذه الفروق » .

فهو لا يستطيع إنكار الترادف بأدق معانيه، وإن أخذ من كلامه ما يدل على نُدرته، وهو لا يدعو إلى التمعّل في تلمس الفروق بين كل مترادفين، ثم هو يؤثر استعمال الترادف بمعناه الشائع عندهم،

الذى يسوّغ وجود فروق دقيقة بين الكلمات ، خلافاً لمن أنكره من علماء العربية فإنهم لا يعبرون عن ذلك بالترادف بتاتاً . ثم نراه ينتقل إلى بحث جديد في الترادف بين لغتين ، فيقول :

« وهناك طائفة تجزم بأن كلمات اللغة الواحدة ، لا يمكن أن تكون مرادفة تمام الترادف لكلمات أخرى ، وأنه عند مقابلة إحداها بقريبتها ، لابد أن يكون في أحد المعنيين زيادة أو نقص ، يحول دون الاتفاق التام ، وإنى أرى أن وجود كلمات من لغتين تتفق معانيها تمام الاتفاق نادر جداً ، فإن الكلمة ليست إلا سورا حول رقعة صغيرة أو كبيرة من فضاء الفكر أو الحقيقة ، وبهذا استطاع الإنسان أن يستعين بها في حياته ، ويختارها لمعونه ، فمن غير المحتمل أن كل أمة ترسم مستقلة منفصلة عن الأخرى خطوط هذه الأسوار ، في كل الأحوال أو أغلبها ، مطابقة تمام التطابق لخطوط الأخرى . إن المعقول ألا تتطابق الخطوط . وهذه الحقيقة تهيئ لنا موازنة جليلة الشأن بين اللغات ، وتكفى في أن تسوق المترجم البارع الدقيق ، إلى ما يقرب من اليأس والقنوط . »

ولاشك أن في هذا الرأي شيئاً من الغلو ، وربما كان قريباً من الحق في المعنويات والوجدانيات ، أما في المحسوسات المشتركة بين الناس ، فالترادف فيها جليّ بين ، فكلمات ، الشمس ، والقمر ، والكتاب ، والماء ، ذوات معانٍ متطابقة ، في جميع اللغات . ثم يعود إلى موضوع الترادف في اللغة الواحدة ، ويحدّد معناه في شيء من الوضوح والتكرار ، فيقول :

« فالترادفات إذاً ، كما يفهم من الاستعمال العام ، وعلى النحو الذى اختاره لاستعمالها هنا ، كلمات من لغة واحدة ، مع فروق ضئيلة صاحبها منذ وضعها ، أو طرأت عليها ، فهي ليست متشابهة المعنى تماماً ، وليست بعيدة التشابه ، لأن الفروق في الكلمات البعيدة التشابه في المعنى جلية ظاهرة ، تبدو على السطح ، ويرأها المرء أول وهلة ، وإذا حاول أن يوضح الفرق بينها ، كان في عبثه كمن يحاول أن يؤقّد شمعة ، ليجعل الشمس أكثر إضاءة وظهوراً ؛ فقد يتطلع المرء إلى تحديد الفرق بين الأرجواني والقرمزي : لأن هاتين الكلمتين قد تختلطان ، ولكن من ذلك الذى يفكر في البحث عن الفرق بين الأرجواني والأخضر ؟ فالترادفات إذاً : كلمات معرضة للاشتباه قليلاً أو كثيراً ؛ والواجب يدعو إلى إزالة هذا الاشتباه والاختلاط . وهى كلمات ورثت في أصل وضعها فروقاً ، أو أنها مع تطابقها في أصل الوضع تمام التطابق ، نمت بينها فروق ، واستقرت باستعمال فطاحل الكتاب ، ومصارع الخطباء . »

ومجمل حجة القائلين بمنع الترادف أنه إذا كان واضع اللغة واحداً ، كان وضع كلمتين أو أكثر لمعنى واحد لغواً وإضاءة وإسرافاً ، وأن الغرض الأول من اللغة التفاهم ، وأن يكون الوضع تابعاً للحاجة الملحة ، وأنه إذا وضع لفظ لمعنى كان علماً عليه ، وبسمة له ، فإذا تكرّر وضع اسم آخر ، ثم آخر لهذا المعنى ، من غير نقص فيه أو زيادة ، كان ذلك عملاً خالياً من الموجب ، عرياً من الدافع . وقد دفعهم هذا الرأي إلى البحث عن الفروق بين كل كلمتين يظهر ترادفهما ، فأوغلوا في ذلك إيغالاً ، ثم تعسفوا تعسفاً شديداً .

جاء في الصفحة ٢٣٩ من الجزء الأول من المزهر :

« وقال التاج السبكي في شرح المنهاج : ذهب بعض الناس إلى إنكار المترادف في اللغة العربية، وزعم أن كل ما يُظن من المترادفات، فهو من المتباينات، التي تتباين بالصفات، كما في الإنسان والبشر، فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان، أو باعتبار أنه يؤنس، والثاني باعتبار أنه بادی البشرية، وكذا الخندريس والعقار، فإن الأول باعتبار العتق، والثاني باعتبار عَقْر الدن لشدها، وتكلف لأكثر المترادفات بمثل هذا المقال العجيب ». ويرى من أجازوا الترادف أنه واقع في اللغة الواحدة ؛ ما من الاعتراف بذلك بُدْ، فإن الحنطة والبر والقمح لا فرق بينها في المعنى، وفي تصيد الفروق بينها فتحشم الصعاب، وركوب الطريق الوعرة، في غير حاجة إلى تلمس أوهام، لا توشك أن تتراءى حتى تزول .

جاء في كشف مصطلحات العلوم للتهانوي : « والحق وقوعه، بدليل الاستقراء، نحو: فعود وجلوس، وأسد وليث، ولا نسلم التعرّى عن الفائدة، بل فوائده كثيرة، كالتوسع في التعبير، وتيسير النظم والنشر، إذ يصلح أحدهما للقافية والروى دون الآخر، ومنها تيسر أنواع البديع، كالتجنيس والتقابل وغيرها . مثال السجع قولك : ما أبعد ما فات ؛ وما أقرب ما هو آت ؛ فإنه لو قيل بمرادف ما فات، وهو « ماضى » أو بمرادف « ما هو آت » وهو « ما هو جايء » أو غيرها، لفات السجع . ومثال المجانسة قولك : اشتر البُرّ، وأنفقه في البر، فإنه لو أتى بمرادف الأول، وهو « الحنطة »، أو بمرادف الثاني، وهو « الحنّير »، لفاتت المجانسة » .

وجاء في ص ٢٤١ من الجزء الأول من المزهر : « وله فوائد، منها أن تكثر الوسائل أى الطرق إلى الإخبار عما في النفس، فإنه ربما نسي أحد اللفظين، أو عَسُر عليه النطق به، وقد كان بعض الأذكياء في الزمن السالف ألثغ، فلم يحفظ عنه أنه نطق بحرف الراء، ولولا المترادفات تعينه على قصده لما قدر على ذلك، ومنها التوسع في سلوك طرق الفصاحة، وأساليب البلاغة، في النظم والنشر، وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجع، والقافية، والتجنيس، والترصيع، وغير ذلك من أصناف البديع، ولا يتأتى ذلك باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ » .

ثم جاء فيه بالصفحة ٢٣٨ :

« وقال قُطْرِب : إنما أوقعت العرب اللفظين على المعنى الواحد، ليدلوا على اتساعهم في كلامهم، كما زاحفوا في أجزاء الشعر، ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم » . وأبعد من هذا مدى في فائدة الترادف، أن فحول الشعراء والكتاب يُلبسون كل معنى من المعاني، ثوباً من الألفاظ يناسبه ويلائمه، ويبرز جماله الفني، ولكل غرض من أغراض الكلام ألفاظ خاصة، يختارونها دون غيرها، لتظهر هذا الغرض في أجمل صُورته، وأروع ألوانه : ففي الحماسة والفخر يعمدون إلى اللفظ الجزل، والكلم الفحل، فهنا يقال : الكلّكل والحيزوم، ولا يقال : الصدر، ويقال : الغضنفر ولا يقال : الأسد، ويقال : الشَّدَقِميات، ولا يقال : النوق، ويقال : الصَّمصام، ولا يقال : السيف، أما في الغزل والعتاب مثلاً . فيعمدون إلى الرقة والسهولة، فترى الألفاظ الدِّمَّة الشَّافَّة الهَيئة اللطيفة، التي

تكاد تمتزج بالهواء، وتسيل مع الماء ؛ ومن أين ما يشرح ذلك ويوضحه أشعار بشار وأبى نؤاس، كلاهما ينسج على حسب فخامة غرضه عنده، أو هوانه عليه، وعلى حسب منزلة سامعيه، فنراه مرة في مراتب الجاهليين : ضخامة وجزالة، وتراه أخرى وقد بلغ الغاية في السهولة والركة .

وقد يُبنى البيت الواحد أو الأبيات على اللفظ الفحل، والكلم الشديداً الأثر، حتى لو أنك وضعت مرادفاً رقيقاً للكلمة، لأفسدت الشعر، وأبطلت السحر، كما أن البيت قد يتألف كله من الألفاظ الناعمة اللينة، فإذا بدل بإحدى كلماته كلمة مرادفة ضخمة، فقد انسجامه، وحسن جرسه، وروعة تأثيره .

استمع لقول الشريف الرضى في وصف الشجاع :

ليس الشجاع الذى من دون رؤيته	سأب يلاحبك مصراعاً بمصراع
ولا الذى إن مضى أبقى لوارثه	سوائهم بين أصمّاح وأجـزاع
لكنه من إذا أودى فليس له	إلا عقائل أرمـاح وأدراع
يعتسه الذئب في الظلماء مرتفعاً	على رحائل ملقاة وأقطاع
يدوق العين طعم النوم مغمضة	إذا الجبان ملا عيناً بتهجـاع
أشيعت الرأس، لا يجرى الدهان به	وإن فلا فبماضى الغرب قطع

هل تحس أنك إذا أبدلت بكلمة من كلمات الشريف كلمة أخرى نلت من جمال الشعر وجلاله؟

ثم أنظر إلى قول البهاء زمير :

إن شكا القلب هجركم	مهّد الحُبّ حُدركم
لو رأيتم تحلّكم	من فؤادى لسركم
قَصّروا مدة الجفا	طول الله عمركم

فهل ترى إنك لو وضعت كلمة خشنة مكان إحدى كلمات هذا الشعر لأفسدته وقضيت عليه؟

من كل ما قدمناه تظهر فائدة الترادف في صناعة الكلام، فهو الذى فُسح المجال أمام البلغاء ليختاروا من كل طائفة من المترادفات كلمة تلائم غرضهم، وتتفق مع النسيج الذى أرادوه، فالكلمة المنبوذة اليوم محبوبة غداً، والى لا تصلح لهذا الضرب من الكلام تصلح لغيره .

بعد أن بسطنا آراء العلماء في الترادف، واختلافهم في وقوعه وعدم وقوعه، نرى أن نبين هنا أن كلا الفريقين تجاوز الحد، وركب مثنى الشطط : هؤلاء في البحث عن الفروق جاهدين مثابرين، وهؤلاء في تسمية كل متشابهين في المعنى مترادفين، غير ناظرين إلى ما بينها من فروق في المعنى، أو اختلاف في الوضع، حتى كأنهم كانوا يريدون أن يُزودوا مغالفيهم الحجة عليهم، فقد ذكر السيوطى في الصفحة ٢٤٢ من الجزء الأول من الزهر، سبعة وثمانين اسماً للعسل، نقل خمسة وثمانين منها عن صاحب القاموس، من كتابه الذى سماه : « تزيق الأسل » لتصفيق العسل، وعقب عليه بزيادة اسمين، هما الصرّخدى والسعابيب . ونقل عن ابن خالويه في شرح الدرديدية واحداً وأربعين اسماً للسيف .

ثم نقل أسماء كثيرة للصدر، والعمامة، والثوب الخلق، والأصل، وغير ذلك مما يمكن الرجوع إليه في الزهر. وفي فقه اللغة للثعالبي: «قد جمع حمزة بن الحسن الأصبهاني من أسماء الدواهي ما يزيد على أربعمائة، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي». ونقل السيوطي عن ابن فارس قال: أخبرني علي بن أحمد بن الصباح - قال حدثنا أبو بكر ابن دريد قال حدثنا ابن أخي الأصمعي، عن عمه: أن الرشيد سأله عن شعر غريب لابن حزام العُكلى، ففسره، فقال: يا أصمعي، إن الغريب عندك لغريب غريب! قال: يا أمير المؤمنين، ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً. وجاء في الصفحة ٢٤٤ من كتاب الزهر: «وفي الجمهرة قال أبو زيد: قلت لأعرابي: ما المجنطى؟ قال: المتكأى. قلت: ما المتكأى؟ قال: المتأزف. قلت: ما المتأزف؟ قال: أنت أحمق! من هذا يُرى إغراق بعض اللغويين في تصيّد الترادف، وسعيهم الحثيث في تكثير الأسماء لمسمى واحد، والتحليل من أكثر القيود للوصول إليه؛ وربما كان الدافع لهم ميلهم الشديد إلى التباهي بالعربية، والزهر بسعة مداها، والإشادة بشرويتها وغناها، حتى لقد ساقهم ذلك إلى حشر كثير من الكلمات لمسمى واحد، مع وجود الفروق المميزة، أو مع اتحادها في المادة اللغوية، أو مع اختلافها في الحقيقة والمجاز والكناية، والمثل الذي نختاره لذلك هو ما أورده السيوطي في الزهر للعسل من الأسماء، وسنعمد إلى شرح كل كلمة، ونعقب عليه بما نراه. وهاك الكلمات:

من هذا يُرى إغراق بعض اللغويين في تصيّد الترادف، وسعيهم الحثيث في تكثير الأسماء لمسمى واحد، والتحليل من أكثر القيود للوصول إليه؛ وربما كان الدافع لهم ميلهم الشديد إلى التباهي بالعربية، والزهر بسعة مداها، والإشادة بشرويتها وغناها، حتى لقد ساقهم ذلك إلى حشر كثير من الكلمات لمسمى واحد، مع وجود الفروق المميزة، أو مع اتحادها في المادة اللغوية، أو مع اختلافها في الحقيقة والمجاز والكناية، والمثل الذي نختاره لذلك هو ما أورده السيوطي في الزهر للعسل من الأسماء، وسنعمد إلى شرح كل كلمة، ونعقب عليه بما نراه. وهاك الكلمات:

الضرب: العسل الأبيض، واستضرب العسل: أبيض وغلظ، فالضرب: العسل مقيداً بصفة خاصة.

الضربة: واحدة الضرب وهي الشديد البياض منه.

الضرب: من معانيه: المثل، والرأس، والمؤكل بالقداح، أو الذي يضرب بها، والقدح الثالث، واللبن يُجلب من عدة لقاح في إناء. فليس من معانيه العسل، وأشبه الأشياء أن يكون بمعنى اللبن يجلب من عدة لقاح، وقد أطلق على العسل مجازاً، لعلاقة المشابهة، لأن العسل يجمع من عدة خلايا.

الشوب: ما شُبّه من ماء، والعسل، واشتباب وإنشاب: اختلط. والظاهر أن الشوب يطلق على العسل ممزوجاً.

الدوب: العسل أو ما في أبيات النحل، أو ما خلص من شمعته. والظاهر أن صفة الدوبان والسيل ملحوظة في التسمية.

الحميت: الحميت من كل شيء، المتين: حتى إنهم ليقولون: تمر حميت، وعسل حميت.

التحموت: كالحميت، عن السراي. فصفة المتانة أو الغلظ مفهومة منه.

الجلّس^(١): الغليظ من الأرض، ومن العسل؛ وبقيّة العسل في الإناء، فهو مقيد غير مطلق.

(١) والجلّيس أيضاً، كما في المخصص.

الْوَسْ : نبات كالسَّمْسِم ليس إلا باليمن ، فإطلاقه على العسل مجاز ، علاقته المشابهة في اللون .
 الْأَزَى : في المخصص الْأَزَى العسل . أبو حنيفة : أصل الأرى العمل أَرَت النحلة أَرِيًا وتأرت
 واثرت : عَمِلَت العسل ، فهي تسمية بالمصدر .
 الذَّوَاب : العسل ؛ وصفة الذَّوَاب ملحوظة .
 اللَّوْمَةُ : الشَّهْدَة . تلوم في الأمر تَمَكَّث وانتظر .
 اللَّثْم : الصلح والاتفاق ، والعسل ، من لَأَم فلانا : أصلحه . والصفة هنا ظاهرة .
 النَسِيل : ما يسقط من الصوف والريش عند النسل ، والعسل إذا ذاب وفارق الشمع .
 النَسِيلَة : واحدة النسل ، والولد ، والفتيلة ، والعسل إذا ذاب وفارق الشمع ، فصفة الدَّوَاب
 والسيل ملحوظة في هاتين الكلمتين .
 الطَّرْم ، الطَّرْم : الشَّهْد ، والزُّيد ، والعسل إذا امتلأت منه البيوت ، وقد طَرِمَت بيوت النحل تطَرَمَ
 طرما : امتلأت من الطرم ؛ والعسل طَرَمًا : سال من الخلية ، فصفاة التراكم والغزارة والطراوة
 ملحوظة .
 الطَّرَام ، الطَّرِيم (١) : العسل والسحاب الكثيف ، ويقال تَطَرَّيَم في الطين تَطَرَّيْمًا : تلوث ،
 فالتلويث منظور إليه هنا .
 الدَّسْتَقْشَار - الدَّسْتَقْشَار - العسل الذي لم تمسه النار ، وليست واحدة منها عريية ، لأن هذا البناء
 ليس في كلامهم .
 الشَّهْد ، الشَّهْد : العسل ومُومِه ، والشَّهْدَة أخص . فهو العسل في شمعته .
 المِحْرَان : العسل ، من حرنت الدابة كنصر ، وهي التي إذا اشتد جريها وقفت ، ولعله يراد به هنا
 العسل الذي صعب اختياره (٢) .
 العُقَافَة : من العسل مثل السلافة ، وهو أول ما يتسلل من الشهد إذا وضع في المعصرة ليجرى .
 العُنْفَوَان : رَبِّ العنب ، كالعقافة ، وصفة النقاء فيهما ظاهرة .
 المَاذِيّ : العسل أو الأبيض منه ، أو الصافي ، فهو مقيد بوصف .
 المَاذِيَة : الحمرة السهلة في الحلق ، وإطلاقها على العسل من قبيل المجاز .

(١) زاد في المخصص الطارم وهو العسل الطري ، وعن ابن دريد أنه الطريم .
 (٢) في المخصص المحران : الشهد تبعد فلا يسهل إخراجها ، كأنها لزمت مكانها .

الظان، الظن (١) .

البلة، البلة : السَّمُر، أو عسلة .

السَّنوت، السَّنوت : العسل .

السنة (٢) :

الشراب : اسم لكل ما يُشرب، فاستعماله في العسل من استعمال العام في الخاص .

الغربة (٣) :

الأس : العسل أو بقيته في الخلية .

الصَّيب : من معانيه العسل الجيد، فهو مقيد بصفة .

الزَّج، المزج : اللوز المر، والعسل، تسمية بالمصدر أو باسمه، قال أبو ذؤيب :

فجاء يمزج لم ير الناس مثله هو الضَّخك إلا أنه عمل النحل

والظاهر أن المراد بالمصدر والاسم هنا اسم المفعول أى الممزوج، فالصفة فيه ظاهرة .

لُعاب النحل : تعبير يقرب من الكناية .

الرَّضاب : الريق في الفم، ومن معانيه لُعاب العسل وُرغوته، وهو من إطلاق العام على الخاص فيما يظهر .

رُضاب النحل : جَنَى النحل، ريق النحل، قىء الزناير - هذه أشبه شىء بالكنايات .

الشُّور : شار العسل يشوره شُورًا آستخرجه من الوَقْبة، والشور : العسل المشور، فهو مصدر أريد به اسم المفعول .

السُّلوى : العسل (٤) .

جُجاج النحل : أشبه بالكناية .

الثَّواب : العسل، والنحل لأنها تثوب، فهو مصدر استعمل في اسم الفاعل أولاً، وهو النحل، ثم استعمل في العسل مجازاً .

الحافظ، الأمين : لا يدلان على العسل .

(١) أظنها محرفين عن الظيان والظى، جاء في المخصص : الظيان شىء من العسل، وجاء في الأشعار .

(٢) الظاهر أن هذه الكلمة محرفة في الأصل .

(٣) يظهر أنها محرفة عن العرابة، ففي المخصص - العرابة : عسل الخَزَم، لأنه يقال لثمره العرابة .

(٤) لأنه يسلى عن كل حلو : إذ هو فوقه .

الصَّحْل : الماء القليل ، والظاهر أنه محرف عن الضحك ، والضحك : الثغر ، ويطلق على العسل ليياضه ، على التشبيه .

الشفاء : ليس من معناه العسل ، ولعله أخذ من قوله تعالى : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ . ويقال : أشفاه الله عسلاً أى جعله شفاء له .

البيانية : نسبة إلى اليمن .

اللوّاص : القالوذ ، والعسل الصاق ، فهو مقيد .

السُّليق : ما تبنيه النحل من العسل في طول الخلية .

الكُرسُف : الكُرسُف : القطن . الكُرسُف : نوع من العسل ، كأنه سمي به ليياضه كالقطن .

العقيد : عسل يعقد بالتار ، وطعام يعقد بالعسل (١) .

السُّلوانة : خوزة للتأخير ، وليس من معانيها العسل .

السُّلوانة : السُّلوانة ، والعسل .

الرُّخيف : لعلها تصغير الرُّخف وهو الزبد الرقيق أو المسترخى ، والعجين الكثير الماء ، فإطلاقه على العسل إطلاق مجازى .

الجَنَى : كل ما يجنى ، والذهب ، والودع ، والرطب ، والعسل . فهو من إطلاق العام على الخاص .

السُّلاف ، السُّلالة : أول ما يعصر من الخمر ، وقيل هما من كل شيء خالصة ، فإطلاقها على العسل مجاز ، أو خاص بالخالص الصافي منه .

الشُّرو ، الشُّرو : العسل ، وهما مقلوباً الشور .

الصميم : من معانيها خالص الشيء ، وهو وصف .

الجَحْتُ : الشمع ، وقيل خِرْشاء العسل ، وهى الجلد الرقيقة ، تركب اللبن ونحوه ، أو كل قذى خالط العسل .

الصَّهباء : الخمر ، وقيل ما عصرت من عنب أبيض ، فاستعملها في العسل مجازى .

الحَتَم : العسل ، وأفواه خلايا النحل ، وختم النحل : جمع شيئاً من الشمع رقيقاً أرق من شمع القرص ، فطلاه به ، فهى تسمية بالمجاورة .

(١) وقد يكون إطلاقها على العسل ؛ لأنه يسلى عن غيره .

الحَقَّ : الجوع ، والوادی الواسع ، والعسل .

الصَّبِيح : العسل ، واللبن ، الرقيق الممزوج ؛ وضوحته : سقيته إياه ، واللبن مزجته بالماء ؛ فصفة المزج في الصبح ملموحة .

السَّدى : الندى ، أو ندى الليل ، والبلح الأخضر ، والشهد .

الرحيق ، الرُّحاق : الخمر أو أطيبها أو أفضلها أو الصافي منها ؛ لإطلاقها على العسل إطلاق مجازي .

الصُّمُوت : الشهادة الممتلئة ، حتى ليس فيها ثقبه فارغة ، ففي إطلاقه على العسل مجاز مرسل ، علاقته المحلية .

المُجَاج : الرقيق ترميه من فيك ، والعسل ؛ ففيه صفة ملحوظة .

المجلب : الذى فى كتب اللغة الجُلاب ، والجُلاب العسل ، أو السكر عقد بوزنه أو أكثر من ماء الورد ، فارسي . فهو عسل مصنوع .

الكُعبير : تصغير الكُعب : شوك له ورق كثير الشوك ، تخرج له شعب تظهر في رءوسها هناة ، وفيها وردة حمراء مشرق ، تجرسها (تلحسها) النحل ، فهو مجاز باعتبار ما كان .

النحل : ليست بمعنى العسل لغة ، واستعملها فيه مجاز .

الأصبهانية : نسبة إلى أصبهان .

الصَّرخِديّ : نسبة إلى صرخد : بلدة بالشام .

السعايب : ما يمتد شبه الخيوط من العسل والخطمي ، فتسمية العسل بها تسمية باللائم .

وجلّ مما قدمناه من الشرح أن قليلاً جدّاً من الأسماء السابقة للعسل ، أطلقت عليه إطلاقاً غير مقيد ، أو منظور فيه إلى ناحية خاصة ، أما جمهرة الأسماء فهي إما مقيدة بوصف أو نسبة ، وإما مجاز أو كناية .

ونستطيع مما سقناه من مرادفات العسل أن نقيس عليه غيره ، وأن نحكم بأن أكثر ما نسمع من المترادفات الكثيرة إنما جمعت على ضرب من التسامح . على أننا لا ننكر الترادف ، ونرى أنه واقع فعلاً ، وأن وجوده في اللغات من الخير لها ؛ ولكننا ندعو إلى التأمل والتدقيق ، وعدم الإغراق في التوسيع والتضييق .

وللترادف في اللغة أسباب ، ذكر منها السيوطي في المزهري في الصفحة ٢٤١ من الجزء الأول سببين : « أحدهما أن يكون من واضعين وهو الأكثر ، بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر ، للمسمى الواحد ، من غير أن تشعر إحداها بالأخرى ، ثم يشتهر الوضعان ، ويخفى

الواضعان، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الأخرى، وهذا مبنى على كون اللغات اصطلاحية. الثاني: أن يكون من واضع واحد، وهو الأقل.

وفي الحقيقة أن ما ذكره ثانياً ليس سبباً، لأن الواضع إذا كان واحداً، وجب أن يبين الداعى الذى حفزه إلى وضع كلمتين أو أكثر لمعنى واحد، أما السبب الأول فجلى واضح، وهو من أسباب كثرة الترادف فى العربية، لأن لغة قريش جمعت كثيراً من مفردات القبائل الأخرى، ولأن من جمعوا اللغة ودونوها كانوا يتلقفونها من الأعراب والرواة، ومن الآثار الشعرية، والمأثور من كلام العرب، من غير أن يضعوا كلمات كل قبيلة على حدة، والمعجمات التى بأيدينا امتزجت فيها كلمات القبائل ولهجاتها من غير تمييز، فالأصبع مثلاً فيها تسع لغات، وفيها الأصبوع أيضاً، ولا يصح فى رأى أن قبيلة واحدة تنطق بكلمة الإصبع إلا على صورة واحدة، غير أن الناس شغلوا عن تحقيق هذه اللهجات، أو اللغات، وعن نسبة كل لغة إلى قبيلتها، وهذا مبحث شريف تحقيق بعناية اللغويين.

ومن أمثلة اختلاف لغات القبائل، وأنه من أسباب الترادف أن الوثب فى الحميرية معناه القعود، وقد دخلت هذه الكلمة فى العربية المدونة. فأصبحت مرادفة له. جاء فى القاموس: وثب: طفر وقفز. وفلان: قعد؛ وهنا حكاية طريفة، جاء فى الصفحة ٢٣٤ من الجزء الأول من الزهر: «وقال الأزدى فى كتاب التريص: أخبرنا أبو بكر بن دريد، حدثنا عبد الرحمن عن عمه، قال: خرج رجل من بنى كلاب، أو من سائر بنى عامر بن صعصعة؛ إلى ذى جَدَن، فاطَّلع إلى سطح والملك عليه، فلما رآه الملك اختبره، فقال له: ثب: أى اقعد، فقال: ليعلم الملك أنى سامع مطيع، ثم وثب من السطح. فقال الملك: ما شأنه؟ فقالوا له: أبيت اللعن! إن الوثب فى كلام نزار الطمر^(١). فقال الملك: ليست عربيتنا كعربيته. من ظفَّرَ حَمْرٌ: أى من أراد أن يقيم بظفارٍ فليتكلم بالحميرية. ومن ذلك القَزْ، وهو الإباء، لغة يمانية، تقول: قزت نفسى عن الشيء قزا: أبت، فالإباء والقز أصبحا مترادفين، والزل بالكسر فى لغة حمير: المباح، فهما مترادفان.

ويحسن بنا هنا أن ننقل ما ذكره ابن جنى فى الصفحة ٣٧٦ من الخصائص، متصلاً بهذا البحث. قال فى باب [فى الفصيح يجمع فى كلامه لغتان فصاعداً]: «وأما ما اجتمعت فيه لغتان أو ثلاث، فأكثر من أن يحاط به، فإذا ورد شيء من ذلك كأن يجمع فى لغة رجل واحد لغتان فصاعداً، فينبغى أن تتأمل حال كلامه: فإن كانت اللفظتان فى كلامه متساويتين فى الاستعمال، كثرتبها واحدة، فإن أخلق الأمر به أن تكون قبيلته تواضعت فى ذلك المعنى على تينك اللفظتين، لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه فى أوزان أشعارها، وسعة تصرف أقوالها، وقد يجوز أن تكون لغته فى الأصل إحداها، ثم استعار الأخرى من قبيلة أخرى، وطال بها عهده، وكثر لها استعماله، فلهجت بطول المدّة واتصال استعمالها بلغته الأولى. وإن كانت إحدى اللفظتين أكثر فى كلامه من صاحبتها،

(١) الطمر: الوثوب إلى أسفل. أو فى السماء، والطفرة: الوثب فى ارتفاع.

فأخلق الحاليين به في ذلك أن تكون القليلة في الاستعمال هي المفادة، والكثيرة هي الأولى الأصلية . نعم، وقد يمكن في هذا أيضًا أن تكون القلّة منها إنما قلّت في استعماله، لضعفها في نفسه، وشذوذها عن قياسه، وإن كانتا جميعًا لغتين له ولقبيلته، وذلك أن من مذهبهم أن يستعملوا من اللغة ما غيره أقوى منه في القياس . . . وإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة، فسمعت في لغة إنسان واحد، فإن أخرى ذلك أن يكون قد استفاد أكثرها أو طرفًا منها، من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ في المعنى الواحد على ذلك كله . هذا غالب الأمر . وإن كان الآخر في وجه من القياس جائزًا، وذلك كما جاء عنهم في أسماء الأسد والسيف والخمر وغير ذلك » .

فابن جنى لا ينكر الترادف في لغة قبيلة واحدة، ولكنه يضع ميزانًا للحكم على المترادفات، والنظر في كونها من وضع قبيلة واحدة أو عدة قبائل، هذا الميزان هو مقدار شيوعها واستعمالها، ولكنه لم يترك لنا مدخلًا للانتفاع بهذا الميزان، فقد حَفَّه بالشك والتردد، ولم يجهر برأى حاسم : فالمرادف القليل الاستعمال يكون مرة من وضع قبيلة أخرى، ومرة يجوز أن يكون من وضع القبيلة نفسها، والمرادف الكثير الاستعمال خليق أن يكون من وضع القبيلة، ولكن هذا غير لازم، وغير حتم، فقد يكون، على شهرته وكثرة دورانه على ألسنة القبيلة، من وضع قبيلة أخرى، مما يدل على الحيرة، وعدم القدرة على الجزم . والحقيقة أن أحوال اللغة، وطرائق العرب في الاستعمال، لا تضبط بالقوانين المنطقية، فإن العربي، وهو أعلم بأسرار لغته، قد يؤثر أحيانًا كلمة لغير قبيلته، لأغراض مبهمة تجيش في نفسه، وللدوق دقيق اقتضته صناعة الكلام .

ويكاد يتفق الأستاذ ترنش (Trench) مع علماء العربية في هذه الناحية، إذ يقول ما جملته :

« إن مما لا شك فيه أن اللغات لو كان وضعها باتفاق منظم بين الواضعين، ما وجد فيها ترادف البتة، لأنه عند وضع كلمة كقيلة بتأدية المعنى المراد منها : من فكر أو وجد أو غيرها، لا يدعو داع لوضع سواها، ولكن اللغات لا توضع بمثل هذه الطريقة المنظمة، فهناك قبائل مختلفة، لكل قبيلة لهجتها، وهذه اللهجات على تقارب ما بينها متميزة مختلفة، فإذا اندمجت هذه القبائل في شعب من الشعوب، نفحت لغته بنصيب من لهجاتها، ومن أمثلة ذلك اللغة الفرنسية، فإنما تشتمل على مترادفات كثيرة، أتت إليها من لهجة الجنوب *Langue d'oc*، ولهجة الشمال *Langue d'oi* فإن كلا اللسانين منح الفرنسية كلمات كثيرة، لمعنى واحد، وقد تشارك القبائل المختلفة لشعب واحد في كلمة، مع اختلاف في صيغتها، يسوّج بقاء كل صيغة متميزة عن الأخرى .

وقد ينشأ الترادف من الغزو والفتح، فيتغلغل الغالبون في غمار المغلوبين، ويفرضون عليهم حكمهم، والسيطرة عليهم، ولكنهم قد يعجزون أن يفرضوا عليهم لغتهم، لقلة عددهم، فيضطرون إلى اتخاذ لغة المغلوبين، وقد يحصل بعد حين ما يسمى بالاندماج بين اللغتين، فتتغلب إحداها على الأخرى، وتكثر فيها الكلمات الدخيلة، الملتبجة إليها من اللغة المغلوبة .

استعمالها فيه، وتزاحم اسمه في الشهرة، حتى تصبح مرادفة له . والأمثلة كثيرة جدًا، تقتصر على القليل منها :

من ذلك كنى النمر، وهى : أبو الأبرد، وأبو الأسود، وأبو جهل، وأبو خطّاب، وأبو رقاش . ومن كنى الأسد : أبو الأبطال، وأبو . زو، وأبو الأخياس، وأبو التأمور، وأبو حفص، وأبو الحذر، وأبو الزعفران، وأبو شبل، وأبو ليث، وأبو لبد، وأبو محراب، وأبو محطّم، وأبو النحس، وأبو الوليد، وأبو الهيصم، وأبو العباس، وأبو الحارث .

وقد يكون النسب من أسباب الترادف، لأن الشيء قد ينسب إلى شخص أو مكان أو نحوهما في أول الأمر، ثم ينسى كل ذلك، ويستعمل المنسوب استعمالاً عاماً، فيدخل بين مترادفات، فالمشرفى : السيف، نسبة إلى مشارف الشام، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف، والسمهرى والردينى : الرمح، ينسبان إلى سمهروردينة : زوجان كانا مثقفين للرمح، ولكن الأدباء والشعراء يطلقون المشرفى على السيفين من غير نظر إلى قيد، والسمهرى والردينى على الرمح كذلك . والسابرى : الثوب الرقيق الجيد : نسبة إلى سابور، وهى كورة في بلاد فارس، على غير القياس، والعبرى فى الأصل نسبة إلى عبقر، وهو موضع كثير الجن، ثم أطلق على الكامل من كل شيء . وقد عدّ علماء اللغة، كما سبق لك، الأصبهانية والصّلاخدى من مرادفات العسل .

وقد ينشأ الترادف بعد عصر الاحتجاج بالعربية، بما يدخل على اللغة من الكلمات المولدة، ومن أمثلة ذلك : البرجاس : للغرض والهدف، والطنتر : للسخرية وقيل هو معرب، والطفيل : للواغل والوغل، والزبون : للغنى والحريف، والمخرقة : للكذب .

وهناك أسباب دعت إلى توهم الترادف، منها دخول كلمات فى العربية من لغات أخرى، بسبب امتزاج العرب بالفرس والروم وغيرهما من الأمم . نعم إن المتشدد لا يعدّ هذه الكلمات من المترادفات، لاختلاف اللغة، ولكن ما الحيلة وقد شاع استعمالها، وأصبحت ذات حق بمضى مدة طويلة عليها، تجري على أسلالت الأقلام، وتجيء فى أفصح الكلام، وقد عربها العرب، فجرت مع الألفاظ العربية فى عنان ؟ وقد عاش بعض هذه الكلمات، ورسخت قدمه، حتى تغلب على مرادفات العربية، وفلّج عليها . من ذلك الألفاظ الآتية :

العربي	الأعجمي	العربي	الأعجمي
الملك	الأنرج	الترجس	الغبر
الفرصاد	التوث	الرصاص	الصرافان
السمسق	الياسمين	الخيار	القثد
الدجر	اللوياء	الهاون	المنحاز
المترت	السكر	المعرب	المعرب
الشريطراط	الفالودج	المشموم	المشموم

...

ومن الألفاظ الأعجمية ما ضَعُفَ عن منافسة العربي ، فقل استعماله ، وذلك كالألفاظ الآتية :

العربي	الأعجمي	العربي	الأعجمي
المراة	السجنجل	الإبريق	التامورة
الحف	الموزج	السفينة	البوصي
الأمير	القومس	الرجيف	الجردقة
		الجماعة من الخيل	القيرزان

ويعد الوصف من أسباب توهم الترادف ؛ لأن العرب جرت في كثير من أحوال الكلام على حذف الموصوف ، والاكتفاء بالوصف ، سيرا على نهجها في الإيجاز ، واعتقادا على وضوح المراد ، فإذا تكرر استعمال الموصوف مستقلا ، تناسى الناس الموصوف تدريجيا ، وأخذ الوصف يقرب من الاسمية قليلا قليلا ، حتى يندمج في الأسماء المترادفة . وقد عرفنا من أقوال ابن فارس ، وهو ممن ينكر الترادف ، أن الشيء الذي يسمى بالأسماء المختلفة إنما له اسم واحد ، وما بعده من الألقاب صفات ، ويرى من عدوا الصفات المشهورة من المترادفات أن الصفة تُنوسيت ، حتى لو قلت : السيف الصمصام ، أو السيف الحسام ، أو الأسد الأغلب ، لكان ذلك غريبا عند قوم ، بعيدا عن السنن العام ، الذي استنته العرب لأساليبها ، فلما نصبت الصفة أو كادت ، لم يروا في أنفسهم حرجا أن يلحقوا الصفات بأسمائها ، ويجعلوها مرادفة لها ، فقد عدوا من مرادفات السيف كثيرا من صفاته ، كما يعلم بالاطلاع على كتب اللغة .

ومن أسباب توهم الترادف المجاز يشتهر بين الأدباء ، فيصبح حقيقة عرفية ، أو ما يقرب منها ، ويندس بين المترادفات كأنه واحد منها بالوضع ، من ذلك ما سبق من تسمية العسل بالماذية والثواب والصهباء والسلاف والنحل ، إلى غير ذلك ، فإن هذه كلها مجازات ، أطلقها البلغاء على العسل ، ودارت على ألسنتهم فزاحمت كلماته الموضوعية له ، ومن ذلك تسميتهم اللغة لسانا ، والزواج بناء ، والجاسوس عينا .

والمجاز المشهور كثير جدا في اللغة ، وقد امتلأت به المعجمات ، حتى إن كثيرا من اللغويين لا

يفرقون بين الحقيقة والمجاز، ومن هنا جلت منزلة كتاب أساس البلاغة لجار الله الزمخشري، لأنه غنى بالتمييز بينهما .

وقد يُتوهم الترادف، بسبب عدم التمييز بين المطلق والمقيد، فيوضع أحد اللفظين مكان الآخر، من غير تدقيق، على توهم الترادف . وقد عقد ابن فارس لذلك باباً جاء فيه : « ومن ذلك المائدة، لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام، لأن المائدة من مادني يميني : إذا أعطاني، وإلا فاسمها خِوان، وكذلك الكأس : لا تكون كأساً حتى يكون فيها شراب، وإلا فهي قَلَح أو كوب، وكذلك الحُلَّة، لا تكون إلا ثوبين : إزاراً ورداء من جنس واحد، فإن اختلفا لم تدع حُلَّة، ومن ذلك السَّجَل، لا يكون سَجَلًا إلا أن يكون دلوا فيه ماء . . .

ومن ذلك القلم لا يكون قلمًا إلا وقد بُرِيَ وأصلح، وإلا فهو أنبوبة، وسمعت أبي يقول : قيل لأعرابي : ما القلم؟ « فقال : لا أدري، فقل له : توهمه، فقال : هو عود قُلم من جانيبه، كتقليم الأظفور، فسمى قلمًا » .

وقد رأينا الفصحاء أحياناً لا يفرقون في المعنى بين الكأس والقدر، وهذا بديع الزمان الهمداني يقول في مطلع قصيدته المشهورة :

أذهب الكأس فعُرف الفجر قد كاد يلسو

وإذهاب الكأس : معناه لغة تمويهها بالذهب، ولكنه هنا يريد ملأها بالخمير، التي تصير لون زجاجها كلون الذهب، حتى كأنها قد موهت به، ولو أن البديع نظر إلى أن الكأس لا تسمى كأساً حتى يكون فيها شراب، ما قال هذا، ولكنه أطلق المقيد، وأراد المطلق، وهذا ما نبهنا عليه آنفاً : من أن الترادف ينشأ من عدم التمييز بين المطلق والمقيد . ومثال آخر : قال السيوطي في الصفحة ٢٦٧ من المزهري : « ولا يقال ثرى إلا إذا كان ندياً، وإلا فهو تراب »، فماذا نرى في قول أبي تمام :

ديمة سمحة القياد سَكوب مستغيث بها الثرى المكروب

وهل يستغيث الثرى بالديمة، ويتلطف إلى مائها وقد اشتد به الكرب، ونال منه الهم، إلا إذا كان جافاً يابساً، قد حركته الصبدي، وألهبه القيظ ؟، فأبو تمام يستعمل الثرى استعمالاً مطلقاً، لم ينظر فيه إلى قيد، وهو على هذا النحو مرادف للتراب، ولا نريد أن نطيل هنا ؛ فإن هذا الموضوع حقيق بأن يفرد بمبحث خاص به .

ومن أسباب توهم الترادف الكناية الدالة على ذات، فإنها إذا اشتهرت، وجرت بها أقلام الكتاب، توهمها الناس حقيقة، وأدخلوها في عداد المترادفات، فزاحمتها بالناسك، فسلب النار الذي ورد في شعر المعري :

سلب النار دق ورق حتى كأن أباه أورثه السُّلالا

مرادف للسيف في الاستعمال ، وبنت عدنان ، وهى كناية عن لغة العرب ، أصبحت كأنها مرادفة لها ، وموطن الأسرار في شعر أبى نؤاس :

ولما شربتناها ودب ديبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

المرادف للعقل ، وكثير الرماد يرادف في استعمال الأدياء الكريم . وقد عدّ بعض علماء اللغة ، كما سبق لك ، قىء الزناير ، ورُضاب النحل ، من مرادفات العسل ، وهما كنايةتان عنه . والذي يرجع إلى أساس البلاغة يرى من هذا جملة صالحة .

وجعل القول أن الترادف واقع في العربية ، وأن كثيراً من علماء اللغة والأدباء توسعوا فيه ، وتناسوا ما بين الكلمات من فروق ، أو اختلاف في الوضع ، أو اختلاف بين حقيقة وبجاز ، وأن الواجب يدعو إلى تمحيص هذه المفردات وتحديد ما بينها من فروق ، ويُجيب بعلماء اللغة أن يتجردوا إلى البحث حتى لا تكون اللغة خِصبة نامية في ناحية ، فقراً في ناحية أخرى ، وحتى تكون أدق تعبيراً وأوضح بياناً .

وإذا استمعنا للأستاذ ترنش (Trench) في هذه المسألة وجدناه يقول ما محصله :

إن الأمم كلما اتجهت إلى لغتها بالعناية والدرس ، وتدرجت من طور السذاجة إلى طور المدنية - وهى أكثر اشتباكاً وتعقيداً - وجدت أمامها كثيراً من الأشياء يتطلب التسمية ، وكثيراً من الأفكار يعوزها التعبير ، وكثيراً من الأسباب التى تدعو إلى تحديد الفروق بين الكلمات . حيثئذ تدرك أن من التبذير في ثروتها أن تستعمل كلمتين أو أكثر في معنى واحد ، على حين قد تطلعت إليها الدنيا ، وهى واسعة المدى ، كثيرة المطالب ، وقد أخذ كل شئ فيها يُلقح في طلب لفظ يحدد معناه ، وقد جاشت الأفكار وضروب الوجدان على اختلاف أنواعها ، متلهفة إلى تعبير يبرزها إلى الوجود . لاشك أن قصاص الإسراف في ناحية من نواحي اللغة ضيق وتقتير في نواح أخرى ، فكثيراً ما نرى فكراً أو وجداناً تعوزه التسمية لأن فكراً آخر أو وجداناً سواه ظفر بتسميتين

إن تحديد المعانى من أعظم أسباب الإجابة في صناعة الكلام ، فما أجل خطره حينما نستطيع أن نعرف في لمحّة الكلمة التى يتطلبها التعبير دون غيرها ، وأنتى تصور ما في النفس تصويراً صحيحاً ، لا أن نختار من طائفة الكلمات أية كلمة كيفما جاءت ، ظانين أن كل واحدة منها كفيلة بأداء المراد . إن أول مميزات الرجل الأنيق أن تكون ملابسه مناسبة لجسمه ، لا بالقصيرة الضيقة في ناحية ، ولا بالطويلة المُرّهلة في أخرى ، كذلك من أول مميزات الأسلوب الصحيح أن تطابق أثواب كلماته معناه على خير الوجوه ، فلا تطول هنا ، وترسل على الأرض ، كأنها أثواب طير مباح على جسم قزم ؛ ولا تقصر هناك حتى كأنها أثواب طفل اندس فيها رجل بصعوبة ويجهّد . والأسلوب الصحيح هو الذى لا تشعر حينما تقرؤه أن الكاتب يعنى فيه أكثر مما كتب ، ولا أنه كتب أكثر مما يعنى . وضعف الأسلوب عن الوصول إلى هذه المرتبة أت من الحاجة إلى المهارة في استعمال وسائل التعبير ، ومن عدم التدقيق في اختيار الكلمات المحددة للفكر تمام التحديد ، فكم من ثروة عظيمة من الكلمات في كل

لغة تراكمت مهمة لا تستعمل ، وكم من كنوز دفنت في بطون الكتب اللغوية النافعة ، فلا يكاد الطرف يلمح منها إلا أثرًا في صفحات المعجمات ، ونحن في وسط كل هذه الثروة الواسعة ملتصقون بفاقة عن إرادة واختيار ، مع ما يُطلب منا من الأعمال اللغوية الدقيقة الكثيرة المصاعب . وتشبه حالنا في إهمال التدقيق في الكلمات ، وعدم إلباس الأفكار ما يلائمها تمام الملاءمة من الكلمات ، حال عامل كلف عملاً يتطلب مهارة فنية ، وأعطى لذلك عددًا من الآلات المتنوعة ، على أن يستعمل كل واحدة في العمل الخاص بها ، فصمم في إهمال أن يكتفى بآلة واحدة ، فخرج عمله غير متقن ، وقد أهملت فيه أعمال كانت وسائلها في متناول يديه . ألسنا نجد في كثير من الأحاديث الشائعة بين الناس ، وفي كثير من الكتب ، عددًا محدودًا من الكلمات استعمل في أوانه ، وفي غير أوانه ، حتى نال منه الجهد ، على حين أن عددًا عظيمًا من الكلمات ينذر أن يستعان به في أغراض ، وهو في أداؤها أحسن تأتيا ، وأدق إحكامًا . وقد استمر إهمال هذه الكلمات ، وطال عليه العهد ، حتى ذهبت بها عوادي النسيان .

ومن المحتمل بعد أن تحس الأمة حاجتها إلى كلمات جديدة تسد مطالب الحياة ، أن تبعث برجالها للبحث عن كلمات جديدة ، في حين أن لغتها المهجورة تبيع بكثير من الكلمات التي يبحثون عنها . هذه مسألة جديدة بنظر العلماء . وإنى أرى في خاتمة مقال هذا أن خدمة العربية إنما تكون باستخراج كنوزها ، وتحديد معاني مفرداتها ، وإلباس كل جديد صورة من صورها الصحيحة . والله سبحانه الموفق ، وبه نستعين .

تاريخ الأدب العربي العصر التركي إلى بدء النهضة الحديثة (*) عصر المماليك

سقوط بغداد: كان سقوط بغداد في سنة ٦٥٦ هـ كارثة أصابت اللغة والأدب والمدنية العربية الزاهية ، وقضت على عهد مجيد كان فخر المسلمين ومرجع زهوهم .

وقصة سقوط بغداد مؤلمة جدًا ، وهي مفصلة في الجزء الأول من كتاب المنتخب فارجع إليه .

سقطت حاضرة الإسلام في سنة ٦٥٦ ، حتى إذا كانت سنة ٦٥٩ هـ قدم مصر أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسي ، وخرج السلطان بيبرس للقاءه ، ومعه القاضي والوزير والعلماء والأعيان والشهود ، ودخل من باب النصر ، وبعد أيام جلس السلطان والخليفة في حفل من القضاة والأمراء ، وأثبت القاضي نسب الخليفة فبايعه شيخ الإسلام ثم الخليفة ثم كبار الدولة ، ولقب بالمستنصر ، وكتبت بيعته إلى الآفاق .

وبعد أشهر طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه إلى بغداد ، وبينما هو في الطريق خرج عليه عسكر التتار فلا يدرى أقتل أم هرب ، وكان ممن حضر هذه الموقعة أبو العباس ابن الخليفة المسترشد بالله ، فقدم القاهرة فتلقاها السلطان وأظهر السرور به ، ثم أثبت نسبه وبايعه وبايعه الناس ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، ثم أسكنه السلطان عنده في القلعة ، وما زال بنو العباس يتوارثون الخلافة بمصر حتى فتحها العثمانيون سنة ٩٢٣ هـ .

التجاء الآداب العربية إلى مصر: تطلع العلماء في جميع أقطار العالم الإسلامي إلى مهرب

(*) الفصل الذي كتبه على الجارم من كتاب المفصل في تاريخ الأدب العربي المنشور عام ١٩٣٤ .

يلتجئون إليه، بعد أن تحكّم التتار في حاضرة الإسلام ودار السلام، وهدموا مدنيتهما، وعفّوا على آثار مجدها، وقضوا على مظاهر حضارتها، وأعملوا السيف في أهلها أيّاماً، وقذفوا في نهر دجلة بالكتب وهي خير ما أنتجته قرائح المسلمين. رأى العلماء ورجال الدين كل ذلك، ورأوا أن الديار نبت بهم، فالتمسوا مكاناً يطيّب لهم فيه المقام، وتزدهى فيه العربية وتحقق راية الإسلام. فإلى أين يذهبون بعد أن ملك التتار ما بين صحراء المغول إلى ما وراء البحر الأسود وسواحل بحر الروم؟ أيذهبون إلى بلاد العرب وهي وإن كانت مهد العربية تقلص ظلها عنها منذ حين ودالت فيها دولة العلم والأدب؟ أيذهبون إلى إفريقية على بعد شقتها وقرب مصر إليهم؟ أيذهبون إلى الأندلس وقد تغلب عليها الإسبانيون ولم يبق فيها إلا رقعة صغيرة حول غرناطة توشك أن تسقط في أيدي المسيحيين؟ إلى أين يذهبون؟

تطلّع العلماء شرقاً وغرباً فلم يجدوا غير مصر خصوصاً بعد أن أصبحت موطن الخلافة ومقرّ الإسلام، فرحلوا إليها من جميع الأقطار. فكنت ترى القاهرة ومراكز العلم الأخرى بالديار المصرية تخرج بهم موجاً، وكنت ترى بينهم العراقيّ والشاميّ والفارسيّ والأندلسيّ والإفريقيّ والحجازيّ، وقد وطّأ لهم السلاطين أكنافهم، وأنزلوهم منزلاً مباركاً، وأغدقوا عليهم الصلات والإحسان، وحاطوهم برعايتهم وعطفهم، فوجدوا حرماً آمناً، ومكاناً يُنبئ العز، فأخذوا يؤلفون وينظمون وينثرون.

القاهرة مركز الثقافة العربية: أصبحت القاهرة مركز العلم والثقافة لبلاد الإسلام جميعاً، وكانت في ذلك الحين كما وصفها القلقشندي في شيء من الزهو فقال: «لم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها، خصوصاً بعد خراب القسطنطين وانتقال أهله إليها، حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من القصور العلية، والدور الضخمة، والأسواق الممتدة، والمناظر النزهة، والجوامع البهجة، والمدارس الراققة، والخواصق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار، ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار».

ولو سلمت مصر في هذا العصر من نوبات الظلم وفداحة المكوس، والمجاعات والطواعين والاضطرابات، التي كانت تقع بين طوائف الممالك وبين العرب لكتب القلم للأدب تاريخاً غير هذا، وبلغت العلوم والآداب منزلة أعلى وأرفع.

على الرغم من هذا فإن مصر نهضت نهضة علمية مباركة في هذه الأيام، وأهم أسباب هذه النهضة خيرة العلماء وحرصهم على إعادة مجد الإسلام، الذي بعثرته أيدي التتار، ثم معاضدة الملوك والأمراء ورجال الدولة العلم وأهله.

عطف السلاطين على رجال العلم والدين: والحق أن سلاطين مصر كان لهم ميل إلى العلم والعلماء، وكان في أغلبهم تمسك بالدين وتعظيم لأهله، ألم يروا أنهم أصبحوا حُماة الخلافة الإسلامية وأن دولتهم صارت ملجأ الإسلام ومبأة أهله؟ ألم يروا ما أصاب الدول قبلهم بسبب

الانغماس في اللهو والصدوف عن أوامر الدين ؟ ثم إنهم من ناحية أخرى رأوا أن الدين والعمل به وتعظيم أهله مما يقربهم إلى قلوب الرعية ، ويغفر لهم ما تصادفه منهم أحياناً من أمواج الطغيان . فقد ذكر المؤرخون لكثير منهم أخباراً تدل على إجلالهم علماء الدين وخضوعهم لأحكامهم . قال في حسن المحاضرة : « وكان الظاهر بيبرس منقماً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى إنه قال لما مات الشيخ : « ما استقر ملكي إلا الآن » .

وحضر الظاهر في محاكمة في بئر بين يدي القاضي تاج الدين ابن بنت الأهر فقام الناس سوى القاضي ، فإنه أشار إليه ألا يقوم ، وقام هو وغريمه بين يدي القاضي وتداعيا .

وترجم الحافظ ابن حجر في معجمه للملك المؤيد شيخ وأثنى عليه وقال : « أين مثله ؟ بل أين أين مثله ؟ وكان معه إجازة بصحيح البخاري من شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ، فكانت لا تفارقه سفرًا ولا حضرًا » .

وكان السلاطين يشجعون العلماء على التأليف بما كانوا يبدلون من المال والمناصب ، فامتلات خزائن الكتب في عهدهم بثمرات العقول ونتائج الأفهام ، كما سنقصه عليك بعد حين . وكان من برّ السلاطين بالعربية أن رفعوا من شأن ديوان الإنشاء ، وحافظوا على العربية بجعلها اللغة الرسمية فعاشت في كنفهم آمنة هائلة .

وأيدى السلاطين على العلم والفقراء لا تزال ماثلة فيما بنوا من مدارس ومساجد وخوانق وبياراتستانات . وقد حبسوا على ذلك وغيره من وجوه البر الشيء الكثير .

وقد أنشأ الأيوبيون بالقاهرة قبل هذا العصر نحو خمس وعشرين مدرسة ، وبنى المماليك نحو خمس وأربعين ، ومن هذه المدارس ما كان مختصاً بالصوفية ، وكانت المدارس في هذا العهد تخرج بالطلاب يقدون إليها من جميع أقطار الإسلام للارتشاف من مناهل العلم ، وكانت تفاض عليهم الهبات وضروب الإحسان من الأوقاف المحبوسة على العلم وأهله ، ومما كان يجريه عليهم أمراء المصريين وأميراتهم من أنواع البر ، فكان يصرف لهم الطعام والكسأ وتبتيأ لهم المساكن ليعيشوا هانئين لا يشغلهم شاغل عن طلب العلم والتجرد له .

موازنة بين هجرتين : لذلك هاجر العلماء والطلاب إلى القاهرة من كل حذب وصوب ، كما تفر الطيور أزعجها الصيادون إلى حيث الأمن والسلامة ، وإلى حيث لا تسمع إلا خرير الأنهار وحفيف الأشجار . وكانت هجرة العلماء والطلاب من أقطار الإسلام المغلوبة إلى القاهرة تشبه من بعض الوجوه هجرة علماء اليونان من القسطنطينية إلى إيطاليا . فإن السلطان محمدًا الفاتح حينما فتح القسطنطينية في سنة ٨٥٧ هـ قرّ منها فلول من علماء اليونان إلى إيطاليا ، وهناك أحيوا دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، ونشروا ثقافة جديدة . ويعد المؤرخون هذه الهجرة مبدأً لنهضة إحياء العلوم بأوروبا ، ويجعلونها الحد الفاصل بين القرون الوسطى والعصر الحديث ، وقد كانت هذه الهجرة عظيمة

الأثر بلا ريب، فإنها دفعت العقول إلى التفكير بعد جمودها، والنفوس إلى الشعور بالعزة والكرامة بعد خمولها، وفتحت الأعين المغلقة إلى ما في الكون من عجائب مكنونة، كان يغطيها ظلام الجهل الدامس، وجعلت كل إنسان يحس أن له إرادة وفيه قدرة، وأن له الحق في الاستقلال بفكره، والاعتزاز برأيه، فنشأ انقلاب عظيم في العادات والأخلاق والأديان ونظام الدول والجماعات، وقد كان هذا الانقلاب أساساً للمدنية الحديثة التي تعيش أوروبا اليوم في ظلها.

أما هجرة العلماء والطلاب إلى مصر فلم تحدث أثراً في النظم الاجتماعية والسياسية، لأنها أخذت اتجاهاً علمياً محضاً، ولأن فكرة الإصلاح والتجديد لم تكن نبتت في الأذهان بعد، وربما كان حكم المماليك في ذلك الوقت يفضل حكم كثير من الممالك كحولهم، وربما كانت مصر من الرخاء والعزة بحيث تدفع النفوس إلى الرضا بالواقع والقناعة بالموجود، ولو كانت هناك نزعة إلى الإصلاح الاجتماعي لوجدت في آراء ابن خلدون في مقدمته مجالاً للعمل وحافزاً إلى النهوض، فإن فيها من وصف أدواء الأمم ووسائل علاجها وبيان أحوال الاجتماع وطرق النهوض بها ما فيه بلاغ وغناء، ولكننا لا نجد في هذا العصر أثراً لتعاليم ابن خلدون، التي بقيت دفينية في صفحاتها حتى أنشئت في أوائل عصر نهضتنا، فكانت ركناً شديداً من أركان الثقافة العصرية.

ولما هجر العلماء والطلاب أوطانهم وجدوا أبواب المعاهد والمدارس مفتحة للقائهم.

المدارس: وأشهر المدارس التي أسست في هذا العهد:

١ - المدرسة الظاهرية: شرع في بنائها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ وتمت سنة ٦٦٢ هـ وكان بها دروس للفقه الشافعي والحنفي والقراءات.

٢ - المدرسة المنصورية: أنشأها هي والبيارستان الملك المنصور قلاوون فلما تمّ دخل عليه الشرف البوصري ومدحه بقصيدة أولها:

أنشأت مدرسة وما رستاننا لتصحح الأديان والأبداننا

ورببت في هذه المدرسة دروس فقه على المذاهب الأربعة، ودروس تفسير، ودرس حديث، ودرس طب.

٣ - المدرسة الناصرية: ابتدأها العادل كُتُبُها، وأتمها الناصر سنة ٧٠٣ هـ ورتب بها دروساً للمذاهب الأربعة.

٤ - مدرسة السلطان حسن: شرع في بنائها سنة ٧٥٨ هـ قال المقرئ: «لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة في كبر قلوبها، وحسن هندامها، وضخامة شكلها: أقامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين لا تبطل يوماً واحداً. وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة».

٥ - المدرسة الظاهرية: تم بناؤها سنة ٧٨٨ هـ، وكانت تحمل أعمدتها الضخمة على عجلات. فقال أحد الشعراء:

الظاهر الملك السلطان هتمه
وبعض خدامه طوعا لخدمته
كادت لرفعتها تسمو على زحل
يدعو الجبال فتأتيه على عجل
عين السلطان بها علاء الدين السيرامي مدرسا لفقہ الحنفية وشيخا للصوفية ، وقد بالغ في تعظيمه
حتى فرش سجادته بيده ، وكان بها أيضا دروس في الفقه الشافعي والحنبلي والحديث والتفسير
والقراءات .

٦ - المدرسة المؤيدية : تمت عمارتها سنة ٨١٩ هـ وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار . وكان الناظر
على عمارتها بهاء الدين بن البرجي . واتفق بعد بنائها بسنة أن مالت المثذنة التي كانت على البرج
الشمالى لباب زويلة ، فقال تقي الدين بن حجة :

على البرج من بابى زويلة أنشئت
فأخنى بها البرج اللعين أمالها
منسارة بيت الله للعمل المنجى
ألا صرّحوا يا قوم باللعن للبرج
وقال الحافظ ابن حجر - وفيه تورية بهجاء قاضى القضاة بدر الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ :
لجامع مولانا المؤيد رونق
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا
منارته بالحسن تزهر وبالزین
فليس على جسمى أضر من العين
فقال العيني :

منارة كمروس الحسن إذ جلّيت
قالوا : أصيبت بعين . قلت : ذا غلط
وهدمها بقضاء الله والقدر
ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر
وقد أنشأ المالك بجانب هذه المدارس الكثيرة بيهارستانات عدة ، لعلاج المرضى ودراسة الطب .

خزائن الكتب : وكان بكثير من المدارس خزائن كتب حافلة بالكتب الثمينة النادرة النافعة في
شتى العلوم والفنون . فكان بالمدرسة الفاضلية في صدر هذه الدولة خزانة بها نحو مائة ألف مجلد ،
وكان بالمدرسة الصاحبية البهائية خزانة كتب جليلة ، وحوث المدرسة الظاهرية التي أسسها ييبرس
خزانة كتب كانت تشتمل على كثير من أمهات الكتب في سائر العلوم ، وعمل بالمدرسة المحمودية
التي أنشئت سنة ٧٩٧ هـ خزانة كتب ، قال المقرئى في شأنها : « ولا يعرف اليوم بديار مصر ولا
الشام مثلها ، وهى باقية إلى اليوم ، لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون في المدرسة ، وبهذه الخزانة
كتب الإسلام من كل فن » .

وكان بمدرسة الأمير جمال الدين التي أنشئت سنة ٨١٠ هـ ، خزانة حافلة بالمصاحف الثمينة ،
والكتب النفيسة .

لمحة عن تاريخ الأزهر منذ نشأته وأثره في اللغة والأدب

إنشأؤه: لما تمّ للفاطمين فتح مصر أسسوا القاهرة المعزية سنة ٣٥٨ هـ لتكون حاضرة ملكهم، وأنشئوا بها الجامع الأزهر ليكون مدرسة يدرس فيها مذهبهم الشيعي. وقد ابتدأ قائدهم جوهر في بناء هذا الجامع في يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٠ هـ، وأتم بناءه في سنتين تقريباً، وكان أول جمعة أقيمت به في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ.

تسميته: والسبب في تسميته بالأزهر على أرجح الأقوال أن الفاطمين سمّوه بهذا الاسم إشارة إلى لقب السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم التي بنيت دعوتهم على الانتساب إليها.

عمارته وإصلاحه: ثم إن الحاكم بأمر الله جدّده ووقف عليه وعلى سواه من معاهد الدين رباعاً في سنة ٤٠٠ هـ، وتناوله بالتعمير والتجديد في أيام الدولة الفاطمية أيضاً المستنصر والحافظ لدين الله.

وفي أيام الظاهر بيبرس جدده عز الدين أيّدمر الحليّ فتمت عمارته في سنة ٦٦٥ هـ.

وفي سنة ٧٠٢ هـ انهدم هذا الجامع بزلزال شديد حصل بمصر في تلك السنة، فتولى عمارته الأمير سلاّر أحد أمراء دولة المماليك، وفي سنة ٧٦١ هـ كان للأمير سعد الدين الجامدار أثر صالح في تجديد بنائه وإصلاحه والإغداق على طلاب العلم فيه.

وفي سنة ١١٦٧ هـ زاد في سعة هذا الجامع بمقدار النصف تقريباً الأمير عبد الرحمن كتخدا، ومازال الملوك يتولونه بالعمارة والإصلاح والتجديد إلى يومنا هذا.

وصفه: ويشتمل هذا الجامع على محل مسقوف للصلاة يسمى مقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً، ومقصورته تنقسم قسمين: المقصورة الأصلية الكبيرة التي هي من إنشاء القائد جوهر

وبها القبلة القديمة ، والمقصورة الجديدة التى أنشأها الأمير عبد الرحمن كنتخدا وأرضها مرتفعة عن أرض المقصورة القديمة بنحو نصف ذراع بحيث يصعد من القديمة إلى الحديثة بدرجتين .

وهذا الجامع لا يشتمل على شىء من الزخرف ، وإنما عظمته فى كبره واتساعه وما اتصل به من تاريخ مجيد .

عهود الدراسة به وأثره فى اللغة والأدب : وأول ما درس بالأزهر الفقه على مذهب الشيعة ، ويظهر من عناية الخلفاء الفاطميين بالعلوم الرياضية والفلكية والطبية والجغرافية أن تلك العلوم كانت تدرس فى الأزهر فى زمانهم ، وبقي مذهب الشيعة يدرس فى الأزهر ويقضى به فى مصر إلى أن انقضت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ وقامت بعدها الدولة الأيوبية فأبطلت مذهب الشيعة من ديار مصر ومنعت الدراسة وخطبة الجمعة من الجامع الأزهر ، وقصرت الخطبة على الجامع الحاكمى لأنه كان أوسع من الأزهر وقتئذ ، وعُطِّلَت الدراسة فى الأزهر نحو مائة سنة ولم تعد إليه إلا فى أيام السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ .

وازدھر الأزهر فى عصر المماليك ازدهاراً وحج إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها للانقطاع لطلب العلم والتمكن من اللغة والأدب والدين ، ولما كان يفاض عليهم من الخير الوفير والرعاية وصنوف الإحسان . فقد كان لكل طائفة رواق خاص ينزل به الطلبة طاعمين كاسين . فأمه التركى والمغربى والبيمانى والزنجى والهندي والأفغانى وتجردوا إلى الدرس وطاب لهم المقام ، حتى إذا أقاموا ما أقاموا ، انقلبوا إلى أهلهم متمكنين فى دينهم ، راسخين فى علوم العربية وآدابها ، فنشروا العلم بين أبناء بلادهم ، ورفعوا راية الدين فى أوطانهم ، ومجدّوا مصر واسم مصر التى كانت تعدّ بحق مصدر النور والعرفان فى هذه العصور .

ولما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ خبت نار العلم وطوى بساطه وذوى نبتة لما أصاب مصر حينئذ من ضروب الإرهاق والخسف ، ولم يبق فى هذا العصر المظلم إلا بصيص يشع من الأزهر ، ولولاه لانقطعت صلتنا بالعلم وأهله ، واللغة وآدابها ، ولذهبت البقية الباقية من هذا المجد المثل والتراث الكريم .

وقد كان الأزهر فى هذه العصور القائمة فوق رسالته التى يؤدّيها للدين واللغة والأدب ، ملجأ المظلومين ومثابة المنكوبين ، فطالما التجأ البائسون إلى علمائه يستجيرون بهم من ظلم الحكام ، وفداحة الأحكام ، فأخذوا بناصرهم ، وكشفوا الضر عنهم .

ذكر المؤرخون أن أتباع محمد بك الألفى من أمراء المماليك ظلموا أهل قرية بالشرقية فجاء أهلها صارخين مستغيثين بعلمااء الأزهر ، فقام هؤلاء وعلى رأسهم شيخ الأزهر وذهبوا إلى إبراهيم بك حاكم مصر وقتئذ ، وطلبوا منه رفع الظلم عن أهل هذه القرية ، فأسرع إلى إجابة طلبهم ، وكف أيدي الأمراء وأتباعهم عن أموال الناس ، وكتب القاضى حجة بذلك .

وحينما اعتزم المصلح الكبير محمد على باشا إنهاض مصر ورفع منزلتها بين الممالك، لم ير خيراً من أن يتخير من بين طلاب الأزهر من يدرسون العلوم الحديثة في مصر ثم في أوروبا، فعادوا وكانوا طلائع النهضة الحديثة في العلوم والآداب.

ومن هنا ترى أن الأزهر كان حلقة الاتصال بين القديم والحديث، وأن له الأثر الواضح في نهضتنا المباركة.

ولما أنشأ الخديو إسماعيل باشا مدرسة دار العلوم التي نهضت باللغة العربية نهضتها الحاضرة أمدها الأزهر بطلابه.

والحق أن عناية الأسرة العلوية بالأزهر بلغت الغاية فقد تنافس أمراء هذا البيت الكريم وأميراته في إسداء البر للعلم وأهله، فحبسوا عليه الأوقاف الواسعة، وكان موضع عنايتهم وإحسانهم. ولحضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول الفضل العميم في إنهاض الأزهر في العهد الحديث، بما أفاض عليه من جميل رعايته، وواسع بره، حتى أعاد إليه مجده القديم، وحتى أصبح قبلة لجميع طلاب الدين واللغة والآداب والعلوم في جميع بلاد الإسلام.

الشعر

سلك الشعر السبيل التي اختطها الشعراء لأنفسهم في آخريات العصر العباسي الثاني من الميل إلى الصناعة اللفظية، وربما أفرط شعراء هذا العصر إفراطاً في تحلية الشعر بأنواع البديع، والتلاعب بالألفاظ في مهارة ولباقة، حتى لقد نستطيع أن نسمى الشعر في هذا العصر شعر الألفاظ والزينة. ويظهر أن لتضروب القرائح في هذا العصر من الأفكار والمعاني والقدرة على التوليد وانصراف الأذهان عن تعلم الفلسفة وعلوم الكون شأنًا كبيراً في ضيق مدى الشعر وجديده وخلوه من الابتكار.

وإن بقاء الشعر في هذا العصر حافظاً روعته وجماله بعد أن ذهبت أسباب نهوضه أو كادت، مما يستوقف نظر طالب الأدب، فقد زال عنه تشجيع الملوك ولم يكن من السلاطين إلا القليل ممن يفهم الشعر، وهم آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد شيخ، الذي كان ينظم الشعر ويلحنه، ثم السلطان الغوري، وقليل منهم جداً من اقتص بشارع أو شعراء كما كانت الحال في العصر العباسي. ولم يكن هذا العهد عهد الفصائل ولا عهد الإغداق ولا عهد ملء الأفواه بالدرّ والجوهر. فلم يجد الشعراء في الشعر مرتزقا، فانصرفوا إلى وسائل الكسب الأخرى كالكتابة في الدواوين والصناعات، فكان منهم الجزار والحمامي والكحلّ والذهبان. ألم يهّم ابن نباتة وهو إمام الشعراء في عصره بين بلاد مصر والشام طالبا القوت ملتصقا الكفاف، فلم يجده إلا مجهّداً مكدوداً.

ثم إن أسباب اللهو وفراغ البال التي تدفع أحياناً بلابل الشعر إلى التفريد قد سكنت في هذا العصر، الذي كان في جملة عصر جدّ وصرامة واضطراب.

فإذا أجاد الشعراء فإنهم يجيدون لأنهم أحبوا الشعر ورأوا فيه فناً رفيعاً حنّت إليه نفوسهم، ومالت قلوبهم، فقال كثير منهم لا للمال ولا للكسب، ولكن لأن الفنّ تملكهم وأخذ بزمام نفوسهم، فلا بدّ لهم من القول، ولا بدّ لهم من الإجابة. وإنما تزدهى الفنون إذا صدرت عن نازعة صادقة مصدرها حب الفن، لا حب الشهرة ولا حب المال.

التنافس في الشعر بين مصر والشام: وقد يكون من الأسباب الدافعة إلى الإجابة في هذا العصر ما كان من التنافس الشديد بين شعراء مصر والشام. فما كان يتدع شاعر هنا شاردة أو يجيد قصيدة حتى يتناوها الشعراء هناك بالنقد أو المعارضة أو السرقة، حكوا أن ابن نباتة كان كلما اخترع معنى أخذ الصلاح الصفدى بلفظه أو بتغيير فيه قليل، وأن ابن نباتة لذلك ألف رسالة جمع فيها ما قاله فأخذه منه الصلاح، وسأها خبز الشعير لأنه مأكول مذموم، واستهل خطبة الرسالة بقوله ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولئن دخل بيتي مؤمناً ﴾.

وكانت هناك مداعبات ومراسلات لا تكاد تنقطع بين شعراء مصر والشام.

تغلب الصناعة اللفظية: أشرنا آنفاً إلى ولوع الشعراء في هذا العصر بأنواع البديع وافتنائهم في الصناعة اللفظية، فإنهم لم يتركوا نوعاً إلا أبرزوه في أشعارهم، غير أن هذه النزعة لم تفسد الشعر إفسادها الشر، لأن تقييد الشعر بالوزن والقافية حال دون تجاوز الحد في البديع وتفاقم خطره.

البديعيات: وقد نبتت البديعيات في هذا العصر، وهي قصائد من بحر البسيط في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، يشتمل كل بيت منها على نوع بديعي، وقد يشير الشاعر في البيت إلى اسم النوع. وأول بديعية كانت لصفى الدين الحلّي، وجاءت بعدها بديعيات لعز الدين الموصلي، وابن حجة الحموي، وعائشة الباعونية.

ومنشأ هذه البديعيات بردة البوصيري، فإن الشعراء بعده أرادوا معارضته وفوقه بإظهار قدرتهم في البديع، ولكنهم في الحق لم يوفقوا إلى الإجابة فجاءت هذه البديعيات صوراً مشوهة من التكلف الممقوت والنسج السخيف.

التورية: وقد شغف شعراء هذا العصر بالتورية وأبدعوا فيها إبداعاً حتى لقد كانت وحدها دليل نبوغ الشاعر وعبقريته، فتفاخروا بالإجابة فيها، وبأهواً باختصاص عصرهم بإحكامها، قال ابن حجة الحموي:

« لأن هذا النوع وهو التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب » ثم

قال في موطن آخر: «ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شمسها، ومزجوا بها الذوق السليم لما أداروا كثوسها».

ومن أشهر شعراء التورية بمصر في هذا العهد سراج الدين الوراق المتوفى سنة ٦٩٥ هـ وله فيمن اسمه عرفات:

أطنبوا في عرفات وغدوا
يتعاطون له حسن الصفات
ثم قالوا لي: هل وافقتنا؟
قلت: عندي وقفة في عرفات
ونصير الدين الحزامي المتوفى سنة ٧١٢ هـ قال:

جودوا لنسجع بالمديد
سج على علاكهم سرمدنا
فالطير أحسن ما تُفـ
رُد عند ما يقع الندى
وناصر الدين بن النقيب ومن قوله:

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة
دعوني فإني آكل العيش بالجبن
وجمال الدين بن نباتة وقد كتب إليه المؤيد صاحب حماء فردّ عليه ابن نباتة:
فديتك من ملك يكاتب عبده
بأحرفه اللاتى حكته الكواكب
ملكك بها رقى وأنحلتني الأسى
فهأنذا عبد رقيق مكاتب
والقيراطى، وكتب إلى صلاح الدين خليل الصفدى:

يا صلاح العلا صفاء ودادى
لا يرى عن أبى الصلاح بديلا
فدع العتب إننى لست ممن
لا يراعون فى الأنام خليلا
ومن أشهر شعراء التورية فى الشام مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨١ هـ. قال:

ونهر بحب الروض أصبح مغرمًا
يروح ويندو هائمًا بوصالها
إذا بعدت عنه شكّا بخبره
جفاها وأمسى قانعًا بخيالها
وبدر الدين الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ هـ قال:

وتنبهت ذات الجناح بسحرة
بالواديين فنبهت أشواقى
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن
يعقوب والأحسان عن إسحاق
قامت تطارحنى الغرام جهالة
من دون صحبى بالحمى ورفاقى
أنى تباربنى جوى وصباة
وكأبة وأسى وفيض مآقى
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى
وهى التى تملى من الأوراق
وصلاح الدين الصفدى قال:

لما زها زهر الربيع بروضه
وغدا له فضل ينير لديه
قام الحمام له خطيبًا بالهناء
وجرى الغدير فخر بين يديه

وابن الوردى قال :

ناعورة مذعورة ولهانة وحائرة
الماء فوق كتفها وهى عليه دائره

التضمين : وبما أغرم به شعراء هذا العصر التضمين ، وهو أن يمزج الشاعر بشعره شيئاً من شعر غيره ، وكانت لهم براعة فائقة في تغيير المراد من الشعر المأخوذ ، مع حسن السبك ، ودقة الصناعة ، وقد صارحنا بحير الدين بن تميم ، وهو من كبار الشعراء الممثلين لهذا العصر ، بشدة نزوعه إلى التضمين فقال :

أطالع كل ديوان أراه ولم أنجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيرى
وقد تجاوزوا الحد في ذلك حتى وصلوا إلى شيء من السخف ؛ فضمن جمال الدين ابن نباتة أعجاز ملحّة الإعراب ، وهى متن في النحو ، ومن ذلك قوله فيها في المديح :

إن قال قولاً بيتن الغرائب «وقام قس في عكاظ خاطباً»
وإن سخأ أتى على ذى العدد «والكيل والوزن ومذروع اليد»

وتبارى صلاح الدين الصفدى وجمال الدين بن نباتة في تضمين أعجاز معلقة امرئ القيس ، فكتب الصلاح إلى جمال الدين معاتباً :

أل كل يوم منك عتب يسوءنى «كجلمود صخر حطه السيل من عل»
وهكذا جرى فيها إلى شوط بعيد ، فأجابه جمال الدين متهمها بطويلة أولها :
فطمت ولائى ثم أقبلت عاتباً «أفأطم مهلاً بعض هذا التدلل»

كثرة المقطوعات : وقد كثر الميل إلى المقطوعات القصيرة في هذا العصر ، لأن أكثر ما كان يدعو الشعراء إلى القول إنما هو إبراز لطيفة بديعية ، أو نكتة مخترعة ، أو تورية رائعة ، ومثل هذا يكتفى فيه بقليل من الأبيات . وكان في الشعراء عادة التراسل بالشعر فكانوا يكتبون بإرسال قطع قصيرة تتناول أغراضهم ، والمطلع على ديوان ابن نباتة المصرى ، وهو خير من يمثل هذا العصر يرى فيه كثيراً من الثنائيات والثلاثيات والرباعيات وهلم جرا .

الفكاهة في الشعر المصرى : وأكبر مظهر في الشعر المصرى ظهور الروح المصرية الخفيفة ، وجمال النكتة ، وحسن التأتى لها ، كقول أبى الحسين الجزار يصف داره المهذمة :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم فتصنى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولهم كثير من هذا النوع الذى تظهر فيه حلاوة الفكاهة وخفة الروح .

الوصف فى الشعر الشامى : أما الشعر الشامى فقد استمر فى هذا العصر محافظاً على ما اختص به من جمال الوصف ، وبخاصة وصف الطبيعة ، لما لبلاد الشام من جمال المنظر ، وكثرة الجبال ، والحدائق والمنازة ، والثلوج والأمطار ، وقد سقنا إليك طرفاً منه .

ومن أجلى صفات الشعر فى هذا العصر الرقة تراها ماثلة فى شعر الشاب الطريف ، ثم فى شعر ابن نباتة ، ثم فى كثير من قصائد صفى الدين الحللى وغير هؤلاء ، وفى كتاب المنتخب أمثلة كثيرة لذلك .

أغراض الشعر : وقد قيل الشعر فى هذا العصر كثيراً فى الغزل والوصف والمجون ، ثم فى المديح والثناء والشكوى ، وقال الشعراء فى الطرد محاكاة للعصر العباسى ، وكثر نظم الألغاز والأسئلة الفقهية واللغوية ، كما كثر الشعر فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، ونظم العلوم والفنون .

كثرة المتعرضين لقرضه : ومن كوارث الشعر فى هذا العصر أن تصدَّى له كثير من غير أهله فقال الشعر وتبيح به كل من يستطيع إقامة وزنه من غير أن يرزق الفطرة الشعرية ، ومما يؤسف له أن التاريخ حفظ لنا كثيراً من هذا الشعر الغث فيما ألف من الكتب فى هذا العصر كتاريخ ابن إياس وغيره .

وربما كان هذا الشعر السقيم من الأسباب التى دفعت بعض الأدباء إلى الحكم بسقوط الشعر فى هذا العصر وتقهقره وإسفافه .

الأوزان المولدة : وقد شاعت الأوزان المولدة فى هذا العصر ، كالموشح والدوبيت والزجل ، الذى مالت إليه أذان آل قلاوون وآل برقوق ، وأجازوا عليه الزجالين وأحسنوا صلتهم . وأشهر الزجالين الشيخ خلف الغبارى ، وكان قيم الزجل بمصر ، وأحمد بن عثمان الأمشاطى المتوفى سنة ٧٢٥ هـ . وكان قيم الزجل بالشام . ونجد أمثلة كثيرة للأوزان المولدة بكتاب فوات الوفيات للكتبى وتاريخ ابن إياس .

ترجمة ابن نباتة المصري

طلب صلاح الدين الصفدي في مستهل شعبان سنة ٧٢٩ هـ من جمال الدين ابن نباتة أن يُجيزه برواية مصنّقاته وآثاره الأدبية، وهي عادة جرى عليها العلماء قديماً واشتد بها تمسكهم في هذا العصر، وقد نشأت في أول أمرها من العناية برواية الحديث الشريف، والاهتمام باتصال سنده، ثم جاوزت ذلك إلى ما سواه من صنوف العلوم والفنون.

وقد كتب ابن نباتة إلى الصلاح كتاباً مسجوعاً مطوّلاً على نمط ما كان يُكتب في ذلك العهد جاء فيه :

مولده ونسبه : «فأما مولدى فبمصر المحروسة في ربيع الأول سنة ست وثمانين وستائة بمزلقنا بزقاق القناديل».

ثم جاء فيها يختص بنسبه في نهاية الكتاب :

« قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبي الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب بن يحيى بن عبد الرحيم بن نباتة ».

وقد كان زقاق القناديل الذي ولد في أحد بيوت ابن نباتة مقام أشراف الناس وأعيانهم، كما يؤخذ من المقرئى، فهو إذا نشأ في بيت نعمة وشب في أسرة هائلة تتمتع بشيء من نعيم الحياة، ولقد عاش ابن نباتة ما عاش وهو لا ينسى الأيام الأولى من حياته التي قضاها في شباب وهو وفراغ، استمع لما يقول :

ما بين ذاك النعيم والمسرّح
كأننى صورة على قـدح

وأما لأيامى التى سلفت
لا يُنزل الدهر من يدى قـدحاً

وكان أبوه من أشياخ الحديث بدمشق، ترجم حياته صلاح الدين الصَّفْدِيّ في كتابه الوافي بالوَقَيَات قال ما ملخصه :

«شمس الدين بن نباتة والد الشاعر ابن نباتة، ساكنٌ خَيْرٌ قليل الكلام، يُنفق كل ما يحصل له على أحفاده أولاد ولده جمال الدين، ولد بمصر سنة ٦٦٦ هـ، وله سكن بالظاهرية بدمشق، أجازني بخطه في سنة ٧٣٠ هـ، وتولّى دارَ الحديث النبوية، وتُوفّي سنة ٧٥٠ هـ».

ويتصل نسب شاعرنا بابن نباتة عبد الرحيم الخطيب المتوفى سنة ٣٧٤ هـ، وقد كان مُقَدِّمًا في علوم الأدب، يقال إن خطبه لم يُعمل مثلها في موضوعها، وكان خطيب حَلَب، واجتمع بالمتنبى في خدمة سيف الدولة بن سُحَدان، وكان سيف الدولة كثير الغزوات فأكثر ابن نباتة من خطب الجهاد والحث عليه.

البيئة التي نشأ فيها: فأنت ترى أنه نشأ في بيت علم وأدب، وأن أسرته تتحلّى بالطارف والتليد منها، وأنه كان صادقاً حين قال :

ورثت اللفظ من سَلَفِي وأُكْرِمَ
فلا عجب لللفظي حين يملو
بآلِ نُبَاتَةِ القُرِّ السَّرَاةِ
فهذا القَطْرُ من ذاك النباتِ

وحين قال :

لى حينَ أنسبُ أسرةً عربيةً
كأدت تُعدُّ الشَّهْبَ من أحلافِ

وحين قال في ختام قصيدة يمدح بها علاء الدين بن فضل الله :

خذها مُنظَّمةً الأسلاكِ مُعْجَزةً
مصريةً من بيوتِ الفضلِ ما عُرِفَتْ
بالجوهر الفردِ فيها كل نَظَامِ
فيها بنسبةِ جزائرٍ وحَمَامِي

يريد أنه من بيت عريق، وأنه لم يكن مُخَدَّثًا في الأدب كأبى الحسين الجزار، ونصير الدين الحَمَامِي.

وللبينة العلمية أثرها في النشأة الأولى، ولاسيما إذا صَحِبَتْهَا الفطرةُ السليمة، وصادفت نفسًا قوية الاستعداد.

شَبَّ ابن نباتة ونما في هذا الجو العلمي الأدبي، ونشأ بين أترابه ولِدَاتِهِ غلامًا مُنْعَمًا، حتى إذا أتمَّ دراسته الأولى، سبَّح إلى الدراسة العالية، فدرس الحديث وعلوم الدين واللغة والأدب، وقد ذكر لنا في الإجازة التي كتبها للصَّفْدِيّ أسماء شيوخه في مصر وغيرها.

حال مصر في أيامه الأولى: ولد ابن نباتة في عهد الملك المنصور قلاوون، وكان في السابعة من عمره عند تولية السلطان الناصر محمد أول مرة، لأنه تولّى الحكم ثلاث مرات، ومات في عهد

السلطان الأشرف شعبان . والذي يَغْنِينَا الآن أن نبين أن طفولة ابن نباتة وشبابه كانا في عصر كثير الفتن والزَّعازع ، انقسم فيه الأمراء بعضهم على بعض ، وكان لكل أمير فريقٍ يناصره وينافح دونه ، وتَفَشَّت الدسائس بين كبار المماليك ، وكثُرَت مصادرةُ أموال رجال الحكم بعد اعتقالهم وقتلهم ، وقد كانت أخبار هذه الحوادث تنتشر بين الناس مُحَرَّفَةً مبالغاً فيها ، وكانت العامة تشب على الفريق المغلوب للنهب والسلب ، وربما اغتنمت الفرصة وجرتها الفوضى إلى الاندفاع في سبيلها فدهمت الأمنين في بيوتهم .

ولعل الفتى محمد بن نباتة في ذلك الحين كان يسمع أخبارَ هذه الأهوال فيرتعدُ قَرَقًا ، ولعله كان يُنْصَبُ إلى خادمه العجوز ، وهي تصف له أحوال المسجونين بخزانة شمائل ، وما يصيبهم من ألوان العذاب .

كان العصر كثيرَ الحوادث حقًا ، فاضطراب في داخل البلاد ، وخوف من هجوم التتار ، فمجاعة في مصر اضطُرَّ فيها الناس إلى أكل ما يؤتف من أكله من صنوف الحيوان ، ونحن نعلم أن ابن نباتة كان عصبي المزاج قوي الخيال .

أثر البيئة في نفسه : فليس بعجيب أن تُؤثِّر هذه الأحوال في نفسه تأثيرًا شديدًا ، وأن تقوى فيه غريزة الخوف وحب السلامة ، ويظهر أن هذه الأخلاق لازمت شاعرنا طول حياته ، فإننا لا نرى في شعره ما يدلُّ على قُوَّة نفس ، أو اعتزازٍ برأى ، أو نقدًا لعمل من الأعمال ، أو هجاءً لعظيم أو حقير . لا يظهر في شعر ابن نباتة شيء من هذا ، لأن في هذا غاطرة ، وفيه ما تصوِّره له نفسه العصبية من أوحش العواقب ، حتى إنه إذا عاتب كان عتابه هينًا يسيرًا لَيِّنَ الملمس ، إلى المديح الصرف أقرب منه إلى العتاب كقوله :

لَعَمْرُ المعالي عند غيرك أضيغ	لئن ضاع مثلي عند مثلك إننى
لسديك اعتناء غير أنك تسمع	متى تنجع الشكوى إذا أنا لم أجد
تردُّ بها عنى الخطوب وتردع	وما كان صعبًا لو مَنَنْتَ بلفظة
وللبّر فيه والصنعة موضع	وقلت امرؤ للشكر والأجر قابل
أساعده والله يعطي ويمنع	ومغتربٌ عن قومه ودياره

وإذا جرؤ قوى عزيمته وقال :

ولى خصومٍ ولسك الآن شاكيهم

لكنهم في غيد يذرون أين شكوا

يريد أنه سيسكوههم إلى الله تعالى يوم الحساب .

وقد وُصف نفسه في هذه الناحية فقال :

ما كان في العشرين يهفو منطلقى
شيم من السلف الركي ورتتها
أى ولا في الشيخوخة .

شعره لا يمثل الحياة في عصره: فالاستكانة والاستسلام ظاهران في شعر ابن نباتة، وربما غلب هذان الخلقان على شعراء عصره قليلاً أو كثيراً، وربما رأينا لابن الوردى والصفدى وإبراهيم المعمار أبياتاً غير قليلة تصوّر الحياة وتدوّن الحوادث، ولكننا لا نجد شيئاً من ذلك لابن نباتة، فهو لا يعطينا صورة للحياة في أيامه، لأنه شاعر مقلّد جرى على سنن الأقدمين في الغزل والمديح، وترك الدنيا حوله تصيح وتصخب، وعواصف الحوادث ثور وتزأر، من غير أن يجود عليها بكلمة، وكل ما كان يهتم به إنما هو نفسه وأسرته، فهو في هذه الحالة يمثل العطف والحنان في أرفع منازلها، والدنيا في نظره هي تلك الأسرة الصغيرة التي يعولها، فإذا مسّها الضر بكى واشتكى . وسنطيل البحث في هذا الموضوع عند الكلام على أخلاقه .

معاصروه: نشأ ابن نباتة في أزهى أيام الأدب في عهد المماليك، فقد عاصر كثيراً من رجال اللغة والأدب، مثل جمال الدين بن هشام المصرى المتوفى سنة ٧٦١ هـ، وابن منظور (٧١١ هـ)، وابن سيّد الناس (٧٣٤ هـ) . وغيرهم ؛ وعاصر من الشعراء كثيراً، منهم نصير الدين الحامى (٧١٢ هـ)، وشمس الدين محمد بن العفيف (٧١٥ هـ)، وعلاء الدين الوداعى (٧١٦ هـ)، وشهاب الدين ابن أبى حجلة المغربى (٧٧٦ هـ) . وزين الدين بن الوردى (٧٥٣ هـ) . وصالح الدين الصفدى (٧٦٤ هـ) . وابن اللبّانة (٧٥٢ هـ) . والقيراطى (٧٨١ هـ) . وابن داتّال المؤصّل (٧١٠ هـ) . وصفى الدين الحلّى (٧٥٠ هـ) .

وخالط كثيراً من كبار الكتاب مثل محبى الدين بن فضل الله العمرى (٧٤١ هـ)، وولده شهاب الدين (٧٥٥ هـ)، وأخيه علاء الدين، وشهاب الدين محمود الحلّى (٧٥٥ هـ) .

بيئته العلمية والأدبية: أما الفقهاء والمحدّثون في أول عهد ابن نباتة بالعلم والتعلم فكانوا كثيرين .

من كل ذلك نرى أن استعداده السليم في أول نشأته وجد غذاءً علمياً يسد حاجته، وأن الحياة الأدبية التى كانت تحيط به تركت في نفسه أثراً ظهرت ثمارها فيما بعد، وأنه استطاع في حداثته أن ينتهب قسطاً وافراً من الأدب والعلم، وأن يتّمسكاً من كل ما تقع عليه عينه أو تسمعه أذنه، وكأنى به وهو لا يزال طفلاً يتنقل بين حلقّات الأدب، ويُنسب إلى مطارحة الشعراء، فقد أخبرنا فيما كتب به إلى الصلاح الصفدى أنه سمع سراج الدين الوراق وهو ينشد لنفسه :

واخجلتني وصحافى مُسوّدة
وتوقّفى لمؤبّخ لى قائل
وصحائف الأبرار في إشراق
أكذا تكون صحائف الوراق ؟

وهذا غريب جداً؛ لأننا نعلم أن الوراق مات سنة ٦٩٥ هـ وأن ابن نباتة ولد سنة ٦٨٦ هـ، وإذا مات الوراق وابن نباتة في التاسعة، فمتى سمعه ياترى ينشد هذين البيتين؟ إذا انتهينا إلى آخر فرض ممكن، نقول إنه سمعه وهو ابن تسع سنين وإنه فهم البيتين ووعاهما وحفظهما، وأدرك ما فيها من تورية. وهذا يدل على شغفه بالأدب في عهد طفولته، وعلى ميله الفطري المطبوع على حب الشعر والتكذُّب به، وعلى مقدار ما أودعه الله من ذكاء ومواهب فنية قوية منذ نعومة أظفاره، ومن هذا نستطيع أن نقول إن ابن نباتة أخذ يخالط الأدباء ويساجلهم، وهو في نشأة العمر وغضارة الصبا، وإنه أفاد من ذلك كثيراً، ولعل شغفه باللغة والأدب والشعر لفته عن التوسع في العلوم الدينية وغيرها.

فأserie ابن نباتة وشيوع العلم والتعليم في طور شبابه ساعدا على أن يُنميا ما كان فيه من نبوغ وأن يُظهرا ما منحه الله من عبقرية.

صفاته وحياته

تطامن نفسه: عرفنا أن من أظهر صفاته الاستكانة والاستسلام، وأنه لم يخلق جريئا، وهذه النفس الضعيفة هي التي حرمت أن ينال نصيبه الذي يستحق في الدنيا، فلم نعرف أنه زاحم سواء بالمتكبر، مع ما فيه من مواهب كانت تُسوّج له البروز والرياسة، فقد كان ابن نباتة كما وصف نفسه:

قَلَّ عَوْنِي عَلَى الزَّمَانِ فَأَصْبَحَ
حَاسِبَ اللَّفْظِ وَالزَّيْجِ عَنِ النَّاسِ
سْتُ صَبُورًا عَلَى مُرَادِ الزَّمَانِ
بِزِي فَلَاحٍ يَدِي وَلَا مِنْ لِسَانِي

بؤسه وهجرته إلى الشام: ويظهر أنه في أول حياته كان في شيء من اليسر فأسرف ويذر، وأسأم سرح اللهو، ومشى مع المُجَّان فضيَّع ما في يديه، وأصبح في حاجة إلى الاستجداء بشعره.

ومن الغريب أن ابن نباتة الشاذلة العبقري تنبو به مصر، ويضيق به العيش فيها، وهي تُثبت الذهب، وتفيض بالخير، فتراه يهجرها في طلب الرزق سنة ٧١٥ هـ كثير العيال مضطرب الأحوال كما يقول:

مُقَلِّقًا يَدَ الْإِيَّامِ مُضْطَرِبًا
كَأَنَّمَا اسْتَقْسَمْتُ مِنْهُ بِأَزْلَامٍ

التحاقه بديوان الرسائل: فيلتحق مرة بالملك المؤيد صاحب حماة لإسماعيل بن علي (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) فينال عنده شيئاً من الخُطوة، ويُصبح شاعره الأثير عنده، وقد رتب لابن نباتة كل سنة ستائة درهم، يرسلها إليه بدمشق. ثم يتصل بابنه الأفضل، ثم بالنصير بن الأفضل، ثم يُعيَّنه شهاب الدين بن فضل الله بديوان الإنشاء بدمشق، كما يخبرنا بذلك ابن نباتة في قصيدة يمدح بها علاء الدين أخاه:

بَلَّغْتَنِي يَا بَنَ فَضْلَ اللَّهِ مُطْلَبًا
نَلْتُ الْعِلَا وَكَبْتُ الْحَاسِدِينَ عَلَى
وَقَدْ سَمَوْتُ لَدِيَّانَ الرِّسَائِلَ فِي
مَدَى أَخْوَكَ إِلَى مَرْقَاهُ أَوْصَلَنِي
لَمْ أَرْجُهُ مِنْ بَنَى الدُّنْيَا وَلَمْ أَخْلِ
يَدِي اعْتِنَاكَ لَا حَيْلِي وَلَا حَيْلِي
طَى اذْكَارِكَ لَا كُتْبِي وَلَا رُسُلِي
وَلَوْ تَرَقَّى إِلَيْهِ النَّسْرُ لَمْ يَصِلِ

زهوه بشعره : وكان ابن نباتة على تواضعه واستلامه حُسنًا جمال شعره به تَيَّاهَا ، فلا تكاد تخلو له قصيدة من الإعجاب بمواهبه الشعرية والإدلال بها ، خذ ما يقوله في آخر قصيدة :

مَنْ مُبْلَغُ الْعَرَبِ عَنْ شِعْرِي وَدَوْلَتِهِ
حَبْرَتَهَا فِيهِ زَهْرَاءُ الْمَعَاظِفِ مِنْ
إِذَا رَأَيْتَ قَوَافِيهَا وَطَلَعَتْهُ
كَانَ أَلْفَاظُهَا فِي سَمْعِ حُسْنِهَا
أَنْ ابْنَ عَبَّادٍ بَاقٍ وَابْنَ زَيْدُونَا
أَعْلَى وَأَنْفَسَ مَا يُهْدَى الْمُجِيدُونَا
فَقَدْ رَأَتْ مُقْلَتَاكَ الْبَحْرَ وَالنُّونَا
كَوَاكِبُ الرَّجْمِ تَحْرُقُنَ الشَّيَاطِينَا

وفي قوله « فقد رأت مقلتك البحر والنون » توريةً تمتزج بمراعاة النظير امتزاجًا رائعًا بديعًا .

فزهه من الشيب والهزم : ومن صفاته أنه كان كثير الشكوى من الكِبَرِ ، شديد التألم من الشيب ، فهو في أكثر شعره يندب شبابه ، ويبكى ماضى قوته ، ويُفزعُ مهولًا من الشيب والهزم . وهذا من آثار المزاج العصبي ، الذى تحكم فيه ، وملك عليه نفسه . وهو مرةً يعلل لاشتعال شيبه بكثرة الهموم فيقول :

مَنْ يَحَارِبُ حَوَادِثَ الدَّهْرِ يَحْقَى
مَنْ يَغْمُ فِي بَحَارِ هَمِّي يَظْهَرُ
أَيُّ فَرْعٍ جَبُونِ عَلَى عَنَتِ الْأَبِ
لَوْ هَمِّي مَاءٌ مِغْطَقِي مِنَ اللَّيْلِ
لَوْ قَسْوَدْتَنِي فِي غُبَارِ الْحُرُوبِ
زَيْدٌ فَوْقَ نَزْمِ الْغُرَيْبِ
سَامَ يَتَقَى وَأَيُّ غَصْنٍ رَطِيبِ
مَنْ لَأَقْتَتُهُ مُهْجَتِي بِلَهْيِ

وهو مرةً يذكر أن الشيب كان سببا في ارعائه وتحافيه عن اللهو فيقول :

فَقَدْتُ الْهَوَى لَمَّا فَقَدْتُ شَيْبَتِي
وَكُنْتُ يَصِيْدُ الظَّبْيِ فَاحِجٌ لِمَتِي
وَلَوْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْمَدَاجَاةِ فِي الْهَوَى
وَأَوْجَعُ مَفْقُودِ هَوَى وَشَبَابِ
وَأَغْرَبُ مَا صَادَ الظَّبَاءُ غَرَابِ
لَكَانَ بَدَمَعِي لِلْمَشِيبِ خِضَابِ

ثم هو مرةً ثالثة يؤاخرى بين الشيب وفقره فيقول :

مَشِيبٌ وَإِقْتَارٌ هُوَ السَّبَبُ ثَانِيًا
أَلَا هَكَذَا يَأْتِي الشَّقَاءُ الْمَكْرُرُ

ونراه في هزمه وبؤسه وتكاثر الهموم عليه يفزع إلى الزهد يتكلم فيه راحةً لنفسه يُطْفِئُهَا بها غليل صدره وَيَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ قِرَارًا مِنْ وِيَلَاتِ الدُّنْيَا وَأَوْجَاهًا . وقد يكون صريحًا أحيانا فيقول :

مَنْعَتْنِي الدُّنْيَا جَنَى فَتَزَهُدْ
وَوَهَتْ قَوْتِي فَأَعْرَضْتُ كُرْمَهَا
ثُ وَلَكِنْ تَزَهُدَ الْمَغْلُوبِ
عَنْ لِقَاءِ الْمَكْرُوهِ وَالْمَحْبُوبِ

وهو يتذكر في شيخوخته أيامَ لهُو السابقة فيشعر بالندم والتفريط فيصبح :

وإني لمن زاد في العَيِّ سعيُّه
وطني في حسن الرجا لي مذهبٌ
وطسوك حتى آن منه متابٌ
وقد آن للسراجي إليك ذهابٌ

شعره في الزهد: وله قصيدة يصفُ فيها ألّه من الحياة وما لاقاه من بؤس وهموم وتجاهل لقَدْره نحا فيها مَنْحَى المَعْرَى منها:

عَفْتُ الإقامة في الدنيا لو انشُرحت
حالي فكيف وما حظي سوى النكدِ

ومنها:

لا عارَ في أدبي إن لم ينل رَجَبَا
هذا كلامي وذا حظي فبا عَجَبَا
وإنما العارُ في دَهْرِي وفي بلدي
منى لثروة لفظ وافتقار يدِ

ومنها:

أما المموم فبحرٌ خُضْتُ زاخره
وعشتُ بين بني الأيَّام منفردا
أما تَرَى فوق رأسي فائضَ الزَّبدِ
ورُبَّ منفعَةٍ في عيشٍ منفردِ

ومنها:

أصبحتُ لا أجتَوِي عيشَ الخمول ولا
جسمي إلى جدثي مهواه من كُثبِ
إلى المراتب أرمى طَرَفَ مجتهدِ
فكيف يُعجبني مهوأي من صَعْدِ

والقصيدة مؤثرة جدًا، فهي شكاية رجل خابت آماله، ورأى نبوغه لا ينال قسطه من الإكبار، ومواهبه لا تُدِرُّ عليه غيرَ الاستجداء وإراقة ماء المُحَيَّا. وهو في هذا الباب كثير الشكوى موصول الأئين.

بؤسه وكثرة عياله: ويظهر أن ابن نباتة كان شديد البؤس كثير العيال ويظهر أن مرتبه كان ضئيلا، وأنه كثيرا ما كان يتأخر صرفه أشهرًا. فهو يقول:

لقد أصبحتُ ذا عمرٍ عجيبٍ
من الأولاد خمسَ حَولٍ أم
أَقْضَى فيه بالأنكادِ وقتي
فَوَاحِرياء من خمسٍ وسِتِ !

ويقول لعلاء الدين بن فضل الله:

على أن عندي كأسٌ شَكْوَى أُديرُها
يُكَسِّرُ حالي بالجفَاء وطالما
على السمع مزوجًا بِمَذْمُومِ العَمْرِ
وأنك عليهم نافذُ النهي والأمر
تَعَوَّدْتُ من نِعمائك عاطفةَ الجَنْرِ
ويدفعني عن قوتِ يومي معشرٌ

ثم نراه يستجدي من علاء الدين دارًا يسكنها:

بيت ويحتاج للعبارة
وقصده يستعيد دارة

لى قصة والسؤال سُكْنَى
سكنت داراً لصاحب لى

ونراه يقول أحياناً :

لأهل القدر والقدره
وحسبي من غنى كثره

تركك المال والجاة
فحسبي من جمى كثر

ويقول :

يرق مثلها الحجر
فلا عين ولا أثر

لقد أصبحت فى حال
مشيب وافتقار يد

وقد انتهت به الحال إلى أن يطلب خيراً من أحد الأمراء :

وفارقت ذلى إذ وصلت إلى العز
ولابد للجندى من طلب الخبز

جأت إلى باب الأمير وظلته
وأصبحت من جند المحامد والغنى

ويقول وقد صرف له ممدوحه معلوماً بعد أن تأخر :

إلى رُبعه والشهر للشهر رابع
فلا أنا عزيان ولا أنا جانع

وعجل معلومى وما كنت واصلاً
وأصلح منى ظاهراً ثم باطناً

ومن أظرف ما نختاره له هنا ما كتب به إلى أحد الأمراء :

قف واستمع عن سيرة البطال
ماذا زمان العشق والأغزال
أسمى لعمر أبك سعى ظلال
صحباً وجدتُ الصحب مثل الآل^(١)
أحمى بها وجهى من التسال
ظهري من المم انحناء الدال

ياسائلى بدمشق عن أحوالى
ودع استماع تغزلى وتعشقى
طول النهار لباب ذا من باب ذا
وإذا تغير مورد وقصدت لى
أنرى الزمان يُعيننى بولايه
زحل يقارن حاجتى وقد انحنى

ندبه حظ الأديب : وكثيراً ما ندب ابن نبأته حظ الأديب فى أيامه ، وأنه لا يؤبه له ، ولا يُقدَّر نبوغه ، ولا يُتاب على فنه ، وقد كان الأمر كذلك فى عهد المالك ، فإنهم وجهوا جلَّ عنايتهم إلى تشجيع العلم والتأليف ، ولم يتجهوا إلى الشعر إلا قليلاً ، لذلك كان الشعر وحده لا يقوم بحياة صاحبه . استمع لما يقوله ابن نبأته فى وصف تلك الحال :

فى زمانى هذا من الأدباء
صبيقة السيف فى يد شلاء

فكفى من وضوح حالى أنى
ضاع فيه لفظى الجهير وفضل

(١) الآل : السراب . وهنا تورية .

ولما يقوله في مكان آخر:

أسفى على الشعراء إنهم على
خاضوا بحور الشعر إلا أنها
حال تُثير شماتة الأعداء
مما تُريق وجوههم من ماء

ولما يقوله من قصيدة يمدح بها الملك الناصر محمد:

وقالوا فلانٌ رمَّ بالشعر عيشه
تَصَرَّم أَقْصَى العَمَرِ أَدْعُوكَ لِلْمُنَى
وأصبر والأبسامُ تقتلني أَسَى
أرى دون حظي مَسْلُكاً متوعراً
وبحمر دمي حين تصفرُّ وجنتي
ولا ذنب لي عند الزمان كما ترى
فيا ليت أني ميتٌ لستُ أشعر
وأرقبُ آفاق الرجاء وأنظر
فها أنا في الدنيا قتيلٌ مُصَبَّر
إذا ما جرث فيه المنى تتعثر
فألبسُ ثوبَ الهَمِّ وهو مُشَهَّر
سوى كَلِمٍ كالروضِ تَبْهَى وتبهر

حينه إلى مصر: وقد قاسى ابن نباتة في غربته شدائد وآلاماً. فكان لذلك دائم الحنين إلى مصر كثير الشوق إلى معاهدها، وقد كان يترك أحياناً أسرته بالشام أو بمصر ويعيش وحده، فيشتدُّ هيامه، ويزيد عَتَبُهُ على الأيام. وما أرقه وأوفاه حين يحنُّ إلى مصر فيقول:

بأبى الحدودِ العارياتِ من البكا
النابتاتِ بأرضِ مصرٍ أزهراً
أهلاً لمصرٍ وأرضِ مصرٍ وكيف لي
حيثُ الشبيبةُ والحبيبةُ والسوفا
والدهر سَلَمٌ كيفما حاولته
(اللباساتُ من الحرير جلابيا)
والزاهراتُ بأرضِ مصرٍ كواكبا
بديارِ مصرٍ مراتباً وملاعبا
في الأقربينِ مشارباً وأصاحبا
لا مثل دهرى في دِمَشقٍ محاربا

وحين يقول:

ياسارى البرق في آفاق مصرٍ لقد
حدَّثت عن البحر أو عيني ولا حَرَجَ
واندب على الهرمِ الغربى لي عُمرًا
وحيثُ يقول:

أمصرُ سقتك غوادي السرور
ذكرتُ زمانك حيثُ الوصالُ
وبيضُ الوجوه به تُجَنَّلَى
وجادك من أفقها صَيَّبُ
وحيثُ الصُّبَا طيبٌ طيبُ
وسود الشعور به تُسْحَبُ

وحينما سئم العيش بالشام، ولاقى ما لاقاه، رحل إلى مصر وأقدم بها وقال:

ورب سائمة عزمى ومرتحلى
قالت وراءك أطفال فقلت لها
إلى حمى مصر أشكو جفوة الشام
نعم ونعمى ابن فضل الله قدامى

العطف على أسرته: ومن أظهر صفات ابن نباتة العطف على أسرته وأهله ومن يتصل به، فهو
أبّ رحيم شفيق، وزوج مخلص كريم ماتت زوجته فرثاها بما يُثير الأشجان وخلط الرثاء بالغزل فقال:

ثَوْتُ فِي مَهَاوِي التُّرْبِ كَالْتُّبْرِ خَالِصًا فَحَقَّقْتُ أَنَّ التُّرْبَ بَعْضُ الْمَعَادِنِ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى لِحَسَنِ خِلَاطِي تَسِحُّ دِمَسْوَعي أَمْ خَلَقِي مُحَاسِنِ

ومنها:

وَكُنْتُ أَخَافُ الْبَيْنَ قَبْلَكَ وَالنَّوَى فَأَصْبَحْتُ لَا آسَى عَلَى إِثْرِ بَائِنِ
كَأَنَّكَ بَادَرْتَ الرَّحِيلَ تَحْوُفًا عَلَى مِنَ الْحَسَنِ الَّذِي هُوَ فَاتِنِ
فَدَيْتُكَ مَنْ لِي مِنْ سَنَّاكَ بِلَمْحَةٍ وَيَنْزِلُ بِي مِنْ بَعْدِهَا كُلُّ كَائِنِ
أَأَنَسَى قَوَامًا أَتَقَفَّ الْحَسَنُ رَحْمَةً فَمَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ يُعَدُّ لَطَاعِنِ
وَوَجْهًا حَكَمِي عَنْ حَسَنِهِ كُلِّ مُقَمِّرٍ وَلِحَظًا رَوَى عَنْ طَرْفِهِ كُلِّ شَادِنِ

وماتت له جارية فرثاها وخلط الحزن بالغزل أيضًا فقال:

أَقِيَا فَرَوْضَ الْحَزَنِ فَاَلْوَقْتُ وَقْتُهَا لَشَمْسٍ ضَبَحًا عِنْدَ الزَّوَالِ فَقَدْتُهَا
وَلَا تَبْخَلَا عَنِّي بِإِنْفَاقِي أَدَمَ مَلَوْنَةٍ أَكْوَى بِهَا إِنْ كُنَزْتُمَا
لِعَابِي عَنِّي وَفِي الْقَلْبِ شَخْصُهَا كَأَنِّي مِنْ عَيْنِي لِقَلْبِي نَقَلْتُهَا

ومات له ولد فرثاه بقصيدة طويلة تفتت القلوب وتذمى الأكباد، عارض فيها التهامي أولها:

اللَّهُ جَارُكَ إِنَّ دَمْعِي جَارِي يَأْمُوحِشُ الْأَوْطَانِ وَالْأَوْطَارِ
وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ مَحَبَّتِهِ لَبْنِيهِ أَنْ مَاتَ لَهُ وَلَدٌ عَقِيبَ وَلَادَتِهِ فَلَمْ يَبْخَلْ عَلَيْهِ بِرِثَاءٍ يَقُولُ فِيهِ:
وَمَا قَلْبِي إِذَا حَجَرٌ فَيَسْلُو هَلَالًا قَبْلَ مَا اكْتَمَلَ الطَّلُوعَا

وكان ابن نباتة مروج القلب دائما بموت أولاده. قال الصفدي: «إنه لم يعيش له ولد، فدفن فيها
أظن ستة عشر ولدًا، كلهم إذا ترعرع وبلغ خمسا أو ستًا أو سبعة يتوفاه الله».

عودته إلى مصر: ترك ابن نباتة الشام وأقام بمصر بعد أن شاخ وهرم وتجاوز السبعين، وذلك
حينما دعاه السلطان حسن إلى العمل بديوان الإنشاء بمصر حوالي سنة ٧٥٧ هـ، ومن سوء حظ ابن
نباتة أن مات السلطان حسن بعد سنة فأصبح مرتبه يُعطى بغير نظام.

واستمر بمصر حتى مات سنة ٧٦٨ هـ.

* * *

شعره

مواهبه الشعرية فطرية وكسبية: يرى كثير أن ابن نباتة أشعرُ شعراء عصره، وحاملُ لواء الفن الجديد بمصر والشام. والحق أنه بلغ الغاية في إجادة التورية حتى أصبح العَلَمُ المفرد فيها، وساعده على إتقان فنه الشعرى استعدادُ فطرى سليم، وذوقٌ مصرى دقيق، وقدرة على صياغة النكتة والترشيح لها، وانصبابٌ على قراءة أدب القاضى الفاضل حتى امتزج بنفسه، وتمثّل في معناه ولفظه، وقد عرفنا كيف نشأ في أكناف الأدب من طليعة صباه، وكيف أفاد من شعراء عصره حتى إذا حذق أدبهم ووعاه بدّهم جميعاً فيه، وجرى مغيراً إلى الغاية. ثم إنه لم يكتفِ بالفطرة الشعرية كما هو الشأن في كثير من شعراء عصره من أصحاب الصناعات كأبى الحسين الجزار، ونصير الدين الحنّامى، وابن دانيال الكحل وغيرهم. فإن القارئ لشعره يرى فيه شاعرًا مثقّفًا اطلع على دواوين الشعراء، وأحاط كثيرًا بكتب الأدب وأخبار العرب، وألمّ بجملة صالحة من العلوم. وربما كان لكثرة انتقال ابن نباتة في بلاد الشام أثرٌ في اتساع مدّى فكره الشعرى وربما كان لبؤسه وفقره شأنٌ في تزويد فنه معانى وأخيلة ميّزته عن سواه، وربما كان للوراثية يدٌ في نبوغه وعبقريته، فقد عرفت أن نسبه ينتهى إلى عبد الرحيم بن نباتة، وهو من أعظم أدباء عصره.

تبريزه في الصناعة اللفظية: وقد أجمع أهل الأدب في عصر الماليك على تقديم ابن نباتة وعدّه أمير الأدباء في الصناعة اللفظية والطريقة الفاضلية. قال ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٧٣٧ هـ في خزانة الأدب عند الكلام في التورية:

«فإنه (ابن نباتة) وإن تأخر في السبق عن فحول المتقدمين عصرًا، فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانًا وسحرًا، وتفقه في الطريقة الفاضلية لمذاهب سلوكها المتقدمون وهانحن نستجدي من حواصلها نظمًا ونثرًا، وكم سأله عالمٌ في سلوك هذه الطريقة فقال: لن تستطيع معي صبرًا، وكيف تصبر على مالم تُحط به تُحبرًا، وإن قيل إن الفاضل تمذهب بهذا المذهب، فمذهبي - وأنا أستغفر الله - أنه (ابن نباتة) وصل فيه إلى درجة الاجتهاد وهذا القول يقول به من رفع الخلاف وتأدّب، فإن هذه الطريقة ما أمّتها ناظم ولا نائر في الأيام الأموية، ولا ابتسمت ثغورها في الخلافة العباسية، ولما انتهت الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغربية وأظهر منها الزيادة المستفادة، واعتادها بلغاء المتأخرين بعد ما شهدوا بسبقه فأكرم بها عادة وشهادة: ولما اتصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهل غزبتها، وشرف بأصل شجرته النباتية نسبتها، وأسكن في أبياته من بديع النظم كلّ قرينة صالحة، وأمست سواجع إنشائها على فروع النباتية صادحة».

ومن لطائفه في التورية قوله، وفيه تضمين:

وضعْتُ سلاحَ الصبرِ عنه فما له	يقاتلُ بالألحاظ من لا يقاُتله !
وسالَ عِذارَ فوقِ خديهِ جائزٌ	على مهجتي فليثق الله سائله

والأمثلة من مبتدعاته في هذا الباب كثيرة جدًا .

الاستخدام: وما برع فيه ابن نباتة الاستخدام كقوله :

إذا لم تُفَضِّ عيني العقيقَ فلا رأْتُ منازلَه بالقربَ تَبْهَى وتَبْهَرُ
وإن لم تَواصِلْ عادةَ السَّفْحِ مَهْجَتِي فلا عادَها عِيشٌ بمَغْنَاهِ أخْضَرُ

فقد استعمل العقيق استعمالاً مجازياً قَصَدَ به الدمعَ ، ثم أعاد عليه الضمير بمعنى المكان المعروف ، واستعمل السَّفْحَ بمعنى الصَّبِّ والإسالة وأعاد عليه الضمير بمعنى المكان .

ولوعه بالتضمين : وكان ابن نباتة مولعاً بالتضمين ، لا تكاد تخلو قصيدة له منه ، وربما أخذ البيت أو البيتين فضمَّهما قصيدتهُ ، وأبدع ما يظهر من براعته أنه يحول المعنى الأصلي إلى معنى آخر ، وينقله من القصد الذي قيل فيه إلى غيره في دقة وسبك ، وربما نقل متناً في علم النحو إلى الغزل أو المديح . وقد استشهدنا لشيء من ذلك في مقالة الشعر .

وهذا النوع يدل على سعة اطلاع في الأدب ، واتساع في مَدَى الإلمام بالشعر ، وحسن الحيلة والتأني ، ولذلك برع فيه ابن نباتة وأكثر منه ، فمن تضميناته :

أناي على البائِيسِ منشداً فيألك من شعرٍ ثَقِيلٍ مطوَّلٍ
مِكْرٍ مَقْبَلٍ مدبرٍ معاً كجلمودِ صخرٍ حطه السيل من عَلٍ

ومنها :

يا تالِي القُولِ كُتِّباً في لسواظه «السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب»

ومنها :

وطابَتْ بك الأرضُ التي أنتَ جِلَّها (وكلُّ مكانٍ يُنِيتُ العِزَّ طيبُ)

ويظهر أنه كان شديد الشغف بقراءة ديوان المتنبي حتى إنه ليقبَس منه في كثير من شعره .

حسن التعليل : وما حلا فيه ذوقُ ابن نباتة حسنُ التعليل ؛ وأغلبه في بيان علل خيالية لتسمية الأشياء كقوله في المدح :

وما سُمِّي الغيثُ الهُتُونُ سحابةً سوى أنه من حَجَلَةٍ يَتَسَحَّبُ

وقوله :

وإذا الفتى قطعَ السنينَ حديدَةً شابَ الحياةَ فَظَلَّ يُدْخِي شائِباً

وقوله :

شكراً لأفلامك اللاتِي جرثُ لمْدَى في الفضلِ أبْقَى لباعِي شأوه التبعَا
حَلَّتْ وأطربتِ المُضغِي وحَزَّتْ بها فَضَّلَ السُّباقَ فسماها الوِزَى قَصْبا

وفي البيت الأخير مهارة حقًا، فهو يعلل تسمية الأقلام بالقصب لثلاثة أسباب، لأنها خلوة وقصب السكر حلو، ولأنها مطربة والقصب المثقّب مطرب، ولأنه يسبق بها أقرانه فهي قصب السبق.

ومن لطائفه في هذا الباب :

نحاسر عودُ اللهو يشبه صوتها فمَنْ أَجَلُ هذا أصبح العود يُضْرَبُ

مراعاة النظير : وبما شُغِفَ به ابن نباتة مراعاة النظير . ومن إحسانه فيه قوله :

وكنْتُ أَخَا سَعْدَى فأصْبَحْتُ عَمَهَا فتهيأت لي جَدُّ بتقيل خالها

وأكثر من استعمال هذا النوع في مصطلحات العلوم كالنحو والعروض والحديث ونحو ذلك كقوله :

بلِوَا حِظِّ يرفعن جَفْنًا كاسرًا فَيُكْرَنُ في الأحشاء هَمًا ناصبًا

وقوله :

وافرُّ المكرماتِ مُشْرِخُ اللَّفِّ ظِ طَوِيلُ الثنا مديدُ الثواب

وقوله :

وَيَزُورِي أَحاديثَ الثناء صحيحةً عطاءٌ لنا من راحَتِكَ وجابر

ومن لطائفه في هذا النوع قوله :

بِأَمْنِ عَيْشِي حَيْثُ شَخْصِي في دَمَشَقٍ وُلِّي تَفْلِيْسِي مَالِي ودمع العين في حَلَبٍ

تأكيد المدح بما يشبه الدم : وأكثر جدًّا من تأكيد المدح بما يشبه الدم حتى لتكاد تجد ذلك في كل قصيدة كقوله :

ليس فيه عيب سوى أن إحسا نَ يَسْدِيهِ يَسْتَعْبِدُ الأحرارا

لعبه بالحروف . وبما فُتِنَ به التعبير عن المعنى بحذف حرف من كلمة أو بتغييره كقوله :

أَوَ لَشَرِّخٍ شَبَابٍ كان لي ومَضَى وَاهْتَضْتُ شَرخًا ولكن ماله خاء

وقوله :

وَذِيرَ التقي هل أنت في العَشْرِ عاطفٌ على فاقتي بين الوري وخضوعي

وما العَشْرُ إلا العُسْرُ في كل حالةٍ ولكننسى نَقْطَتُهُ بدموعي

يريد بالعَشْرِ عاشرَ المحرم وهو يوم يوسع الناس فيه على عيالهم .

تصرفه في اسمه : وقد افْتَنَّ كثيرًا في التصرف في اسمه ، وأنه مأخوذ من النبات أو من السكر النباتي وذلك كقوله يخاطب ممدوحه :

وَحَسْبِي أَنْ أَذْهَى نَبَاتِي غَرْسِهِ فَلَاطِرْسٍ إِلَّا وَهُوَ بِالْحَمْدِ مُعْتَبِرُ

وقوله وقد أهدى إلى صديق سكرًا :

جَدْتُ وَأَفْحَمْتَنِي بِمَا قَدْ سَمِعْتُ مِنْ لَفْظِكَ الْوَاتِسِ
فَاقْبَلْهُ ذَا سَكْرٍ يَبَاضُ إِنْ عَجَزَ الشُّكْرُ النَّبَاتِي

ميله إلى الاكتفاء : ونراه في شعره يميل أحيانًا إلى الاكتفاء ، مرةً بحذف جملة ومرة بحذف حرف كقوله :

فَاقْطِفْ مِنْ أَوْرَاقِهِ الْأَدَبِ الَّذِي وَأَسْمِعْ مِنْ أَلْفَازِهِ اللَّغَةِ الَّتِي

وقوله :

عَدْتُ كُلَّ عَامٍ لِي إِلَيْهِ وَفَادَةٌ فَيَا حَبِذاً مِنْ أَجْلِ لِقَائِهِ كُلِّ عَامٍ (م)

تخلصاته : ولابن نباتة تخلصات حسنة أكثرها مؤسس على التشبيه كقوله :

لَا يَقْرُبُ الصَّبْرُ قَلْبِي أَوْ يَفَارِقُهُ كَأَنَّهُ الْمَالُ فِي كَفِّ ابْنِ أَيُّوبِ

وقوله :

جَادَتْ جَفْوُونِي بِمَحْمَرِ الدَّمُوعِ لَهُ جَوْدَ الْمُوَيْدِ لِلْعَافِينَ بِالْهَدَبِ

أسلوبه ومعانيه

اهتمامه بالألفاظ : اتجه ابن نباتة كما أسلفنا إلى الصناعة والزخرف ، وهي النزعة التي تحكمت في شعراء عصره ، فانصرف بجملته إلى الألفاظ يقلبها على وجوها عله يظفر منها بجناس أو بتورية أو بمقابلة أو بلمز أو بأية طريفة من الطرائف يسبق بها معاصريه ، أو يبرز بها سابقيه . وقد أسلفنا من الأمثلة والشواهد على ذلك ما فيه غناء ، والمطلع على ديوانه يدعش لتحكم هذا الشغف في نفسه ، حتى لقد أخذ من الألفاظ والحروف مادة للتشبيه كقوله :

لَأَمْ الْعَذَارُ أَطَالَتْ فِيكَ تَسْهِيدِي كَأَنهَا لَغَرَامِي لَأَمْ تَوَكِيدِ

وقوله في خجلة :

وَرَحْتُ أَخْطُرُ فِي أَلْفَافِهَا أَلْفَا وَكُنْتُ مِنْ دَخَلٍ فِي هَيْئَةِ النَّدَالِ

وأشبه أن يكون من هذا الباب قوله :

يُعْنَى بِذَا دُونَ هَذَا مَعَ تَمَائِلِهِ وَقَسَّ عَلَى مَا تَرَاهُ السِّينَ وَالشِّينَا

قلة ابتكار المعاني وتكرارها : لهذا لم يتجه ابن نباتة لابتكار المعاني ، أو ابتداع الأحيلة الرائعة ، واكتفى بمعاني من قبله وأخيلتهم ، فكان الابتكار أو ما يشبهه قليلا في ديوانه ، وكثيرا ما تراه يكرر

معانيه، وهذا إفلاس أدبيّ دفع إليه تعجّله في صوغ القصائد، وكثرة ما كلّف نفسه من القول للاستجداء وطلب العطاء كقوله :

عَدَّلُوهُ عَلَى النَّوَالِ فَأَغْرَوْنَا فَنَسَدَاهُ نَصَبٌ عَلَى الْإِغْرَاءِ

فإنه كرّر هذا المعنى مرات عدّة .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا يتسع المقام لاستقصائها .

التعبيرات السوقية : وقد يقع أحيانا في المعاني البلدية ، والتعبيرات السوقية كقوله :

وَكَابَدْتُ فِي الْمَثْنَى مِنَ الْعَرْبِ مُشْتَكِي كَمَا قِيلَ لَمْ تُلْبَسْ عَلَيْهِ ثِيَاب

وقوله :

وَكَمْ ذِي كِتَابٍ فِي السَّوْزَى وَكِتَبِي غَدَا دَاخِلًا مِنْ مَوْتِهِ تَحْتَ مَكْتُوبٍ

وقوله لمن طلق زوجته واسمها دنيا :

ظَلَمْتَ دُنْيَاكَ وَطَلَقْتَهَا فَرَحْتُ لَا دُنْيَا وَلَا آخِرَهُ

معانيه الجيدة : على أنك مع هذا تجد في تضاعيف ديوانه كثيرا من المعاني والأخيلة السريّة كقوله في

وصف طيف الخيال :

زَوَّرَ عَفِيفٌ عَلَى عَيْنِ الشَّحِيحِ مَشَى فَيَالَهُ صَالِحًا يَمْشَى عَلَى الْمَاءِ
ثُمَّ انْتَبَهَتْ وَذَاكَ الْخَالِ سَاكِنَةً لَمْ تَدْرِ سَهْلِي وَلَمْ تَشْعُرْ بِإِغْفَائِي

وقوله :

حَلَفْتُ إِنَّكَ أَذْكَى مَنْ حَوَى قَلْبًا يُنْشِئُ الْبَدِيعَ وَأُنْحَى مِنْ نَحَا أَدْبَا
أَلَيْتَ لَوْ أَنَّهَا الْفَجْرُ مَا نَسَبْتَ لَهُ الْبَرِيَّةَ فِي ذَيْلِ الدُّجَى كَذِبَا

ومن الجيد قوله :

فَهَبْتُ فِي الظَّلَامِ إِلَى مُدَامٍ كَانَ شُعَاعَهَا قَبَسٌ يَلُوحُ
وَحَيَّنَا بِصَافِيَةِ شَمُولٍ كَمَا يَتَرَقَّى الدَّمْعُ السَّفُوحُ
كَأَنَّا قَدْ سَلَبْنَا الدِّيكَ عَيْنًا فَقَامَ مِنَ الْكَرَى فَرْعًا يَصِيحُ

وكقوله :

وَحَيَّ الْعَوَاصِمَ رَأْيَهُ وَلَطَالَمَا قَعَمَ الْحُسَامُ وَقَامَتِ الْأَرْاءُ

تشبيهاته : ومن جيد تشبيهاته قوله :

أَجَاوَزُ مَنْ أَهْوَى وَلَا وَصَلَ بَيْنَنَا كَأَنِّي وَمَنْ أَهْوَاهُ نُفْرٌ مَقْلُجٌ

ومما يُسْتَحْسَنُ منه ما نظر فيه إلى أكذوبة أبي حَيَّةَ النَّمِيرِيّ ، الذى ادَّعى أنه رَمَى ظبيًا بِسَهْمٍ فما زال الظبيُّ يَحِيدُ والسهمُ يتبعه حتى أصابه ، وذلك فى قوله :

وبديعُ الجمال لم يَرِ طَرْفِي مثلُ أعطافه ولا طَرْفُ غَيْرِي
كلِّما حذت عن هواه أُناني سهمُ الحافظِ كسهمِ النَّمِيرِي

ولابن نباتة جملةٌ صالحةٌ من المعانى الجيدة لا يتسع المجال لاستقصائها .

عيوب شعره : ولعناية ابن نباتة بالنكتة والتورية والبديع عامة لم يبلغ أسلوبه فى جمهرة شعره منزلة الجودة ، لأن أنواع البديع تحتاج عادة إلى ترشيح وتمهيد ، وهذا التمهيد كان يُقرِّغه الشاعر فى أى قالب من الألفاظ قَبَّحَ أو حَسَنَ ، لأنه يريد الوصول إلى البديع بأى ثمن . انظر إلى قوله :

قسماً بسورة عارضيك فإمها كالنمل عند بصائر الشعراء

فإنه لأجل التلميح باسمى السورتين جاء بتعبير ضعيف جدًا هو (سورة عارضيك) . وهل للعارضين سورة ؟ وما هى ؟ ثم زلَّ زلةً أخرى فقال : عند بصائر الشعراء ، وهو يريد أبصار الشعراء إذ لا معنى للبصائر هنا .

هذا مثال واحد أردنا أن نبين به ما يجزئه السلوخ بالبديع من الجناية على الأسلوب والإسفاف المخزى ، مع أن ابن نباتة كان أكثر من غيره توفيقًا فى صناعة البديع ، ولكنه لم يسلم فى كثير من محاولاته من الزلل .

الإكثار من الانتفاع بالضرورات الشعرية : كقصر الممدود وتسهيل المهموز وصرف ما لا ينصرف فمن أمثلة قصر الممدود قوله :

ونلدى يُجْجِلُ السحائب يمشى من ورا جوده على استحياء
الحشو - ومن عيوبه الحشو وهو كثير فى شعره ويكون بالقسم كقوله :
أوحشه الغيث الذى قد نأى وجاءه والله فى وقتـه
أو بزيادة كلمة أو تركيب كقوله :

نبس على التحقيق قالت صفاته لنبيّاه ذا ما يخالط ذا ما
ففى الشطر الأول حشو (على التحقيق) ، والجناس فى الشطر الثانى سقيم .

المفوات اللغوية - ومن عيوب شعره التهاون فى تعدية الأفعال كقوله :

طرقث على تلك النفوس طوارق وطرث على تلك الجسوم طوارى

فإن «طرق» يتعدى بنفسه ، وطرث أصلها طرأت سهلت الهمزة وعمول الفعل معاملة المعتل بالألف ، وهذا ضعف أيضًا .

وقوله :

لقد أحيا نَدَى كفيك حالي
فَعَدَّى الفعل « يحى » باللام .

وقوله :

إليك مديّر الكأس عنى إننى
والفعل نَقَعَ متعدّ بنفسه .

ومن أخطائه اللغوية قوله :

الناصرُ اسمًا والقابًا وأفعِلَّة
يريد أفعالًا والشطر الثانى ركيك .

وقوله :

وشائئُ المسلكِ مشغولٌ بأربعة
من العَطَا والسُّطا والعلم والعمل

وقد أكثر هو والحليلُ من استعمال كلمة « السُّطا » هذه ولا نعرف لها وجهًا .

وقوله :

يأمنُ له تُعْرِبُ الأفاق عن سير
عظمى وتنطق أرضٌ وهى خرساءُ
فإن اسم التفضيل لا يطابق موصوفة فى التأنيث إلا إذا عُرِفَ بال أو أضيف إلى معرفة .

وقوله :

قاضى القضاة الملبى
تاج السَّراة الأليّة
وهو يقصد الألباء جمع لبيب .

وقوله :

هفى لجوهرة خَفَّتْ فكانمّا
واللغة العاليةُ أن يقول خَفِيَتْ . وقد أكثر من استعمال كلمة العائلة بمعنى الأسرة فمن ذلك قوله :
وما أبالى إذا استكثرتُ عائلَةً
فقد كَفَى همَّ إصباحى وإمسانى
ونرى أن هذه الكلمة استعملت فى هذا المعنى قبل ذلك بنحو قرنين .

فنون شعره

أكثر شعره في المديح والرثاء، لأنه شاعر مُستجِد، يعيش من سنّ قلمه. وأكثر مدائحه في النبي صلى الله عليه وسلم، ثم في الملك المؤيد صاحب حماة وأبنائه، وآل فضل الله والشهاب محمود وابن الأثير صاحب ديوان الإنشاء، ومدح الملك الناصر والسلطان حسنا، ثم طائفة كبيرة من القضاة والولاة والمحتسين، وليس له في الهجاء إلا أبيات قليلة هي إلى الذعابة أقرب منها إلى الهجاء، ولكنّ لسانه لم يَعَفّ عن هُجَر الكلام حتى في القصائد التي يمدح بها الكبراء، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تدهور الآداب العامة في ذلك العصر.

غزله: وابن نباتة كثير الغزل وغزله معظمه صناعي بَحَث يجعله طليعة لقصائده، ويستعمل في أكثره ضمير المذكر كما هي عادة شعراء عصره ومن قبلهم.

وأحسن ما قاله في الغزل قوله من قصيدة في مدح الرسول:

صَحَا القلبُ لولا نَسْمَةٌ تَخْطُرُ	ولَمَّةُ برقي بالقَصَا تَسْعُرُ
وذكرُ جينِ البابليةِ إذ بدَا	هلالُ الدجى والشيء بالشيء يذكر
سقا الله أكناف الغضا سائل الحيا	وإن كنتُ أسقى أذمما تتحدّرُ

خمرياته: وله كلام كثير في الخمريات وقد كان في هذا الباب مقلدا قليل الابتكار، وما أحسن فيه من ذلك قوله:

عَوَّض بكأسك ما أتلّفت من نَشَبٍ	فالكأس من فضة والراح من ذهبٍ
واخطبُ إلى الشُّربِ أم الدهر إن نُسِبَتْ	أختُ المسرة واللّهو ابنة العنب
عَرَاءَ حَالِيَةِ الأعطاف تَخْطُرُ في	ثوبٍ من النور أو عَقْدٍ من الحَبِّ

بقية فنون شعره: وله شعر كثير في الحنين إلى الصبا ووصف ويلات المهزم والشيب، كما كان يكثر من وصف القلم عندما يمدح الكتاب والأدباء، وفي ديوانه كثير من التهاني، وأشهرها تهنئة الأفضل بالملك التي جمع فيها بين التهنئة والتعزية، وقد سارت بها الركبان، وترددت أصدائها في كل مكان. وأولها:

هنا عَمَّا ذاك العَرَاءُ المُقَدِّمًا فما عَبَسَ المحزونُ حتى تَبَسَّمَا

وله قصيدة في الطرد سهاها « مصايد الشوارد » وهي من بحر الرجز، في مائة وسبعة وستين بيتًا، حاكي فيها شعراء العصر العباسي ممن طرّقوا هذا الفن، كابى نواس وابن المعتز. وقد وُفّق ابن نباتة في هذه القصيدة وأظهر فيها براعة في التشبيه محمودة، وما يُختار من هذه القصيدة قوله:

حتى نزلنا بمكان مُونقي	إخوانَ صديقٍ أخذوا بالمملقي
فياله في الحسن من محل	مرادُ جِدٍّ ومرادُ هَزَلٍ

للطير فى مياهه مواقع
حتى طوى الأفق رداء السؤيس

كأتمها من فوقه فواقع
والتقم المغرب قُـرُص الشمس

وله بجانب ذلك ألغاز، ومقطعات كثيرة، منها الثنائيات والثلاثيات والرابعيات والخاسيات، وأغلب هذه المقطعات كان يقولها لإبراز نوع بديعى أو يرسل بها إلى ممدوحه في طلب حاجة .

ولابن نباتة قليل من المؤشحات ومطلع أحدها :

هفى على غادة إذا سَفَرت
لها من السمر قامة حَطَرت

غارث وجوه الشموس واستترت
كم قتلت عاشقًا وكم أسرَّت

إذا دعت للنهوض مِلَّها عطفًا

كأن سحر الجفون حَمَلها ضعفًا

الموازنة بينه وبين شعراء عصره

سبق أن قلنا إن ابن نباتة يعد بحق زعيم شعراء مصر في عصره، وإن معاصريه سلكوا مسلكه، واتبعوا مذهبه، واتخذوه قائدًا وإمامًا، فكانوا يتخطفون ما يقوله ابن نباتة فيقولون على مثاله .

وأقرب من يشبه ابن نباتة من شعراء مصر برهان الدين القيراطى، ويتشبه به من شعراء الشام صلاح الدين الصفدى، وكان كثير الاغارة على شعره كما سبقت الإشارة إليه .

أما صفى الدين الحلى فكانت له نزعة في الشعر تخالف نزعة ابن نباتة، وكان أقل منه احتفالاً بالبديع، وكانت ديباجته أقرب إلى الديباجة العربية السليمة، وكانت بينه وبين ابن نباتة صلة ودية وثيقة تبادلها فيها القريض، وتقارضا المديح والثناء . وجملة القول أن شعر الحلى أميل إلى الجزالة، وشعر ابن نباتة أميل إلى الرقة والإبداع .

سرقاته: وقد أخبرنا ابن حجة الحموى أن ابن نباتة كان يُغَيِّرُ على بدائع علاء الدين الوداعى المتوفى سنة ٧١٦ هـ، وقد أورد في خزنة الأدب جملة من ذلك وذلك كقول الوداعى :

والنهر كالمبرد يجلو الصَّدا

يبرده عن قلب ظمآنه

الذى أخذه ابن نباتة فقال :

والنهر فيه كمبرد

فلأجل ذا يجلو الصدا

ويقول الوداعى :

ما كنت أول مفرد محروم

من باخل بادی النِّفار كريم

فيقول ابن نباتة :

مبخل يشبه ريم الفلا

يا طول شجوى من بخل كريم

ومن استعار ابن نباتة بدائعهم أبو الحسين الجزار، ومحيى الدين بن عبد الظاهر، وعبد العزيز الأنصارى الحموى، ومجير الدين بن تميم.

كتابه

كان كاتباً شاعراً، كما يصف نفسه مخاطباً ممدوحه:

يعظمُ مَنْ كانَ لكم شاعراً فكيف وهو الشاعرُ الكاتبُ ؟

وقد جرى في الكتابة على أسلوب عصره، ولكنه امتاز بالسهولة والتجانف عن التعقيد، وسلك سبيل البديع في رفق وهوادة، فجاء نثره حسن النسيج لا يخلو من جمال فني. ولنا نقبس هنا طرفاً من رسالته في المفاخرة بين السيف والقلم. قال على لسان القلم يرُدُّ على السيف:

« أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعتاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للجمارة وأنت للخراب، أعلى مثلي يَشُقُّ القول، ويرفع الصوت والصَّوْل، وأنا ذو اللفظ المكين، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مَبِينٍ﴾ فقد تعديت حدك، وطلبت ما لم تبلغ به جهتك، هيهات أنا القائم بمصالح الدول وأنت في الغمد طريق، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح، والساعي في تدبير حال القوم، والمغني لنفهمهم العمر إذا كان نفعتك يوماً أو بعض يوم، فاقطع عنك أسباب المفاخرة، واستر أنيابك عند المكاشرة، فيما تحسُّن بالصامت محاوره المُفصَّح، والله يعلم المفسد من المصلح.

أشهر آثاره

- (١) ديوان شعر كبير مرتَّب على حروف الهجاء، طبع بالقاهرة.
- (٢) مَطْلَعُ الفوائد وجمع الفرائد، وهو كتاب حافل في الأدب.
- (٣) سَرُحُ العيون في شرح رسالة ابن زيدون، وهو من أحسن مؤلفاته، يدل على سعة الاطلاع في اللغة والأدب وتاريخ العرب.

الشاب الظريف

هو محمد بن سليمان، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ ومات في عنفوان شبابه سنة ٦٨٨ هـ، فهو طرفة هذا العصر، وشعره يدل على نبوغ موروث، فقد كان أبوه عفيف الدين التلمساني شاعراً محسناً، والشاب الظريف شاعر مجيد رقيق خفيف الروح ناصع الديباجة، في شعره نفحات من العبقريّة المصرية، وكان مولعاً بالبديع كبقية شعراء عصره، ولكن البديع لم يفسد عليه شعره، وأكثر شعره في الغزل شأن أكثر شعراء هذا العصر، وصفه شهاب الدين بن فضل الله فقال:

« نسيم سرى، ونعيم جرى، وطيف لا بل أخف موقعا منه في الكرى. لم يأت إلا بها خفاً على القلوب، وبرئ من العيوب، رق شعره فكاد يشرب، ودق فلا غرو للقضب أن ترقص والحمام أن يطرب، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان، وولج القلوب، ولم يقرع باب الآذان، وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره وجمعه أهل دمشق فإنه بين غنائم حياضهم ربّا، وفي كرائم رياضهم حبّا، حتى تدفق نهره، وأينع زهره، وقد أدركت جماعة من خلطائه لا يرون عليه تفضيل شاعر. ولا يرون له شعراً إلا وهم يعظمونه كالشاعر، لا ينظرون له بيتاً إلا كالبيت، ولا يقدمون عليه سابقاً حتى ولو قلت ولا امرأ القيس ما باليت، ومرّت له ولهم بالحمى أوقات لم يبق من زمانها إلا تذكّره، ولا من إحسانها إلا تشكّره، وأكثر شعره لا بل كلّه رشيّق الألفاظ، سهل على الحفظ، لا يخلو من الألفاظ العلمية، وما تحلو به المذاهب الكلامية، فلهذا علق بكل خاطر، وولّع به كل ذاكر، وعاجله أجله فاختبرم، وحرّم أحباءه لذة الحياة وحرّم».

ومن شعره وفيه بديع منسجم:

مثل الغزالِ نظرةً ولَفَتَةً
أعذبَ خلقَ الله ثغراً وفماً
في ثغره وخذله وشكله

ومنه قوله:

عفا الله عن قوم عفا الصبرُ منهم
تَجَنَّبُوا كأن لا ودَ بيني وبينهم
وبالجنح أحباب إذا ما ذكرتهم
ألم وما فى الركبِ منا مُتِمِّم
وليس الهوى إلا التفاتة طامح
خليلى ما للقلب هاجث شجونه
أظن ديار الحى منا قريّة

من ذا رآه مقبلاً ولا افتتن ؟
إن لم يكن أحق بالحسن فمن ؟
الماء والخضرة والوجه الحسن

فلو رُمْتُ ذكرى غيرهم خائى الفم
قديمًا وحتى ما كأنهم هم
سُرِقْتُ بدمع فى أواخره دم
وعاد وما فى الركب إلا مُتِمِّم
يروق لعينيه الجمال المنعم
وعاوده داء من الشوق مؤلم
وإلا فمئها نفحة تتنسم

ابن الوردى

هو زين الدين عمر، ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ هـ، ومات بحلب سنة ٧٤٩ هـ، كان شاعراً أدبياً نحويًا فقيهاً مؤرخاً، وكان عفيفاً لا يستجدي بشعره، وله ديوان شعر مطبوع، وشعره متوسط في الجودة غاص بالبديع وبخاصة التورية، تظهر فيه النزعة الفقهية والعلمية أحياناً، ومن شعره:

دهرنا أمسى ضنيناً باللقا حتى ضنيناً
يالبلال الوصل عودى واجمعيناً واجمعيناً

ومن شعره:

أنتم أجبانى وقد فعلنتم فعل العدا
حتى تركتم خبرى فى العالمين مبتدا

ومن قوله فى رثاء ابن تيمية وقد مات مسجوناً بقلعة دمشق:

عنا فى عرضه قوم سلاط لهم من نثر جواهره التقاط
تقيى الدين أحمد خير جبر خيوط المعضلات به تحاط
توفى وهو محبوب فريد وليس له إلى الدنيا انبساط
قضى نحباً وليس له قرين ولا كظيره كف القمط

وله القصيدة المشهورة فى الحكيم منها:

احتزل ذكرك الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من مزل
ودع الذكر لأيام الصبا فلأيام الصبا نجم أفل
إن أنا عيشة قضيتها ذهب لذاتها والإثم حل
واهجر الخمرة إن كنت فتى كيف يسعى فى جنون من عقل
صدق الشرع ولا تركن إلى رجل يرصد بالليل زحل
حارث الأكار فى قدرة من قد هدانا سبنا عز وجل
كُتب الموت على الخلق فكم فكل من جمع وأفى من دول

صفى الحير الجلى

هو عبد العزيز بن سرايا بن على ، ولد بالحلة من مدن الفرات سنة ٦٧٧ هـ، ونشأ به وتأدب وأجاد الشعر، وخدم ملوك الدولة الأرتقية، وقد رحل إلى مصر في سنة ٧٢٦ هـ، ومدح السلطان الناصر بن قلاوون بقصيدة عارض فيها المتنبي في قصيدته التي مطلعها :

بابى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

فابتدأها بقوله :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فود الليل منها شائبا
بيض دماهن الغبى كواعبا ولو استبان الرشد قال كواكبا

وقد طرق معظم فنون الشعر، وقال من الأوزان المولدة، وفي التشطير والتخميس، وهو أول من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماة بالبديعيات، وكان شعره سهل اللفظ جيد الأسلوب، وقد يعدّه بعض الأدباء أشعر شعراء عصره، ومن شعره وهو في غاية الرقة :

إن غبت عن عياني يا غاية الأماني
فالفكر في ضميرى والذكر فى لساني
ما حال عنك عهدى ولا انثنى عنانى
شوقى إليك باقى والصبر عنك فانى

ومن شعره :

قد نشر الزنبقُ أصله لو لم أكن فى الحسن سلطائه
فقهقه الورد به ساخرًا وقال للسؤوسن ماذا الذى
فامتعض الزنبق من قوله يكون هذا الجيش بى محققًا
وقال كل الزهر فى خدمتى ما رُفقتُ من دونه رايتنى
وقال ما تحذر من سطوتى ؟ يقوله الأشيبُ فى حضرتى ؟
وقال للأزهار يا رفقتى ويضحك الورد على شيبتى

هذا شعر فى منتهى الرقة، ولكن صفى الدين قد يكون فى منتهى الجزالة والضخامة إذا قال فى الأغراض الشعرية التى تتطلب قوة وحماسة كقوله :

لمن الشوارب كالنعام الجفيل كسبت جلالاً من غبار القسطل
يبرزن فى حلل المعجاج عوابسا يحملن كل مدرع ومُسربل

شبهة العرائس تُجْتَلَى فكأنها
فعلت قوائمهن عند طرادها
فتظل ترقم في الصخور أهلة

في الخدر من ذيل العجاج المشتل
فعل الصوالج في كرات الجنل
يسنا حوافرها وإن لم تُنْعَل

ومن جيد شعره ورصينه القصيدة التونية المشهورة التي قالها في صباه، وكأنه كان يعارض بها نونية
ابن زيدون ومن هذه القصيدة :

سل الرماح العوالي عن معالينا
وسائل العرب والأترك ما فعلت
لما سعيناً فما رقت عزائمنا
يايوم وقعة زوراء العراق وقد
بضمير ما ربطناها مسومة
وفتية إن نقل أصغوا مسامعهم
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة

واستشهد البيضا هل خاب الرجا فينا
في أرض قبر عبيد الله أيدينا
عما نروم ولا خابت مساعينا
دنا الأعداى كما كانوا يدينونا
إلا لنغزو بها من بات يغزوننا
لقولنا أو دعوناهم أجابونا
يوماً وإن حكموا كانوا موازيننا

ومن جيد معانيه قوله :

يامن حكمت شمس النهار بحسنها
هلا عدلت كعدلها إذ صيرت

وبعد منزلها وبهجة نورها
للناس غيتها بقدر حضورها

توفي ببغداد سنة ٥٧٥٠هـ .

بحر الدخين الذهبى

كان من أرق شعراء الشام أسلوبًا وأطفهم طريقة ، ويمتاز شعره بكثرة الوصف وجمال الديباجة وروعة البديع .

وقد جاء فى المنتخب أمثلة صالحة من شعره ، وسقنا إليك فى مقالة الشعر شيئاً منه .

ومن قوله :

ورياض وقفت أشجارها	وتمشت نسمة الصبح إليها
طالعت أوراقها شمس الضحا	بعد أن وقعت الوزق عليها

وقوله :

عرج على الروض ياندىمى	وميل إلى ظله الظليل
فالزهر يلقياك بابتسام	والرياح تلقاك بالقبول

توفى سنة ٦٨٠ هـ .

صلاح الدين الصفدى

كاتب شاعر مؤرخ، ولد في صَفَد سنة ٦٩٦ هـ، وتلقى العلم بدمشق عن ابن نباتة المصري الشاعر، وتولى ديوان الإنشاء بصغد والقاهرة وحلب، وأشهر كتبه الوافي بالوفيات، وهو أكبر معجم للتراجم يقع في نحو خمسين مجلداً، ولا يوجد هذا الكتاب كاملاً في مكان واحد، فمنه أجزاء بمصر وحلب وتونس وغوطة وفينا ولندن وأكسفورد وباريس. ومن شعره :

بسهم أجفانه رمانى
فلذبت من هجره وبينه
إن مت مالى سواء خصم
لأنه قاتلى بعينه

وله قصيدة طويلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم يعارض بها لامية كعب بن زهير منها :

سلوا الدموع فإن الصب مشغول
ولا تملؤا ففى إملانها طول
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى
هل فى الغرام الذى تبديه تبديل
وهل لما ضمت الأحشاء بعدكم
من الجوى عندما تحويه تحويل
أحبتى لا وعيش مررتى بكم
وربع لوى باللدات مأهول
ما كان لى مد عرفك الوجد قط ولا
يكون فى غيركم قصد ولا سول

ومن قوله :

يا غائبين تمللنا لغيتكم
بطبيب هو ولا والله لم يطب
ذكرت والكأس فى كفى ليالكيم
فالكأس فى راحة والقلب فى تعب

وكتب إليه ابن نباتة وكان الصلاح مريضاً :

نثقل إذ نبغى بلفظك طنبنا
من الهم والجسم الشريف نحيل
فها أنت فىنا كالنسيم بلطفه
طبيب يداوى الناس وهو عليل
وحاشاك من شكوى اعتلال سينقضى
قريباً كما نخشاه ويروى

فكتب إليه الصلاح الصفدى :

يخماى ناراً جاءها منك جنة
غصون رباها بالبديع تميل
تهللت الأذنان منها فخطرى
له بين هاتيك الظلال مقيل
وأنت حبيب الشعر أصبحت سيداً
كما أننى مولى والاسم خليل

مات بدمشق فى ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤ هـ.

ديوان الإنشاء

منذ نشأته إلى نهائية هذا العصر

الكتابة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين: كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ثلثين وثلاثين كاتباً، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وزيد بن ثابت الأنصاري وغيرهم من جلة الصحابة، وكان المداوم له صلى الله عليه وسلم على الكتابة زيداً ومعاوية .

وكان عثمان بن عفان كاتباً لأبي بكر، وزيد بن ثابت كاتباً لعمر، ومروان بن الحكم كاتباً لعثمان، وكتب عبد الله بن أبي رافع لعلي بن أبي طالب .

الديوان في عهد بني أمية: ثم كانت دولة بني أمية فكان أمر الكتابة في زمن كل خليفة مفوضاً إلى كاتب يقيمه، وكان الخليفة يوقع في القصص بنفسه، والكاتب يكتب بما يشير به هذا التوقيع، وكان كاتب معاوية عبيد الله بن أوس العنساني، ثم اتخذ كل خليفة من خلفاء بني أمية بعده كاتباً أو أكثر إلى آخر عهد خلفائهم، وهو مروان بن محمد فكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى مولى بني عامر، وهو أول من وضع أصول فن الكتابة، وهو الذي قيل فيه بدأت الكتابة بعبد الحميد، وتُختمت بابن العميد.

ديوان الإنشاء في العهد العباسي: أما الكتابة في عهد بني العباس فكانت في ضمن الوزارة، والوزير هو المتصرف في الديوان، وتحت يده جماعة من الكتاب، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء، وصاحب ديوان الرسائل، ومن أشهر الكتاب في الدولة العباسية عبد الله بن المقفع، وكان كاتباً لأعمام المنصور ومترجماً له، والربيع بن يونس وكتب للمهدي، وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وكانا كاتبين للمأمون. وكتب للمتوكل أحمد بن المدبر وإبراهيم بن الصولي. وكتب للقادر إبراهيم بن هلال الصابي. وكتب للناصر يحيى بن سعيد الواسطي المشهور بابن زيادة صاحب

ديوان الإنشاء ببغداد، وإليه انتهت رئاسة الترسل. وكتب للمستعصم عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد مات سنة ٦٥٥ هـ، وقُتل الخليفة عَقِبَ موته، فهو آخر كتاب الإنشاء لخلفاء بغداد. قال السيوطي: ومن الاتفاق الغريب أن آخر خلفاء بني أمية كتب له عبد الحميد الكاتب؛ وآخر خلفاء بني العباس ببغداد كتب له من اسمه عبد الحميد.

الديوان في العصر الفاطمي: أما مصر فلم يكن بها ديوان للإنشاء من حين فتحت إلى أيام أحمد بن طولون، وحينما قوى أمرها في تلك الأيام أنشئ بها ديوان للإنشاء، واستمر إلى أن ملكتها الدولة الفاطمية، فعظم شأن ديوان الإنشاء بها. وأشهر كتاب الإنشاء بهذه الدولة أبو المنصور بن شوردين النصراني، وكان كاتباً للعزیز بن المعز والحاكم. وأبو القاسم المعروف بابن الصيرفي، وقد كتب للأمر والحافظ، ويوسف بن الخلال، وهو أستاذ القاضي الفاضل، وكتب للحافظ والعاقد، وكان يلقب صاحب الديوان في الدولة الفاطمية بكاتب الدشت الشريف.

ومن أشهر كتاب الإنشاء بالدولة الأيوبية القاضي الفاضل، ثم أضيفت إليه الوزارة، وكتب لصالح الدين وابنه العزيز. ثم بهاء الدين زهير الشاعر المشهور وكان كاتباً في عهد الملك الصالح.

الديوان في عصر المماليك: وأنبأ أصحاب الدواوين ذكراً في عهد المماليك محيى الدين بن عبد الظاهر. وأول من سُمي كاتب السر بالديار المصرية ابنه فتح الدين بن عبد الظاهر، وفي ديوان الإنشاء في عهد المنصور قلاوون. ومن كتاب السر المشهورين في هذا العهد تاج الدين بن الأثير وكتب للأشرف خليل. ومحبي الدين بن فضل الله الثمري، وشهاب الدين بن فضل الله، وشرف الدين بن فضل الله، والشهاب محمود الحلبي، وكتبوا للناصر. وشمس الدين محمد بن مزهر وكتب للمؤيد.

صفات صاحب الديوان وأعماله: وكان كاتب السر في عهد المماليك في أرفع محل وأشرف قدر. إليه تلقى أسرار المملكة، وبرأيه يستضاء في حل مشكلاتها، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعها في القصر أحياناً مقام توقيع السلطان.

وقد أطلأ صاحب صبح الأعشى فيما يجب أن يتحلى به صاحب الديوان من العلم والأخلاق وصفات الساسة، ثم شرح أعماله في إسهاب: وهي أن يتصفح هو أو نائبه جميع ما يكتبه كتاب ديوانه من الولايات والمنشورات والمكاتبات، وأن يتلقى المكاتبات الواردة ويقرأها على السلطان ويحجب عنها، وهو الذي ينظر في البريد، واختيار من يُرسل إلى الخارج في الشؤون السلطانية، وهو الذي يختار الجواسيس لإرسالهم حيث يريد إلى أى جهة من جهات العدو، وتشمل دائرة عمله المناور، فقد كان بين الفرات إلى قريب من بلبس أمكنة عالية يقيم بها مستخدمون من قبل السلطان، فإذا حدث حادث ببلاد التتار أوقدوا النار بالقمم المجاورة للفرات فينظرها من بعدهم فيوقدون النار، وهكذا

حتى ينتهى الوقود إلى المكان الذى يقرب بليس في يوم أو بعض يوم، ومن هناك تُرسل رسالة على أجنحة الحمام فيعلم السلطان بالحادث فيأخذ في التأهب.

ومن عمل صاحب الديوان فوق ذلك أنه ينظر في الأمور العامة بما يعود نفعه على السلطان والمملكة، وهو المشير الأول على السلطان وموضع ثقته.

وبديوان كاتب السر كتاب الدست، وهم الذين يجلسون معه في دار العدل ويقرون القصص على السلطان، ويوقعون عليها بأمر السلطان. وكتاب الدرج وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها، وربما شاركهم كتاب الدست في ذلك.

خصائص الديوان وفضله: وربما حُسن بنا هنا أن ننبه إلى ما ابتدعه الكتاب في دولة المماليك من وضع ألقاب للسلطان والملوك والوزراء وأمراء الدولة وكبار رجالها، بحيث تختص كل مرتبة بلقب لا تتجاوزها، كالمقام والمقر والجناب والمجلس ونحوها، مع إتباع كل منها بألفاظ خاصة للتبجيل والتفخيم. وقد ابتدعوا أيضاً إلحاق ياء النسب بالأوصاف، كالأميرى لأرباب السيوف، والصاحبى للوزراء، والقضائى لأرباب الأقاليم، وقد أسرف الكتاب كثيراً في هذا العصر في ألقاب التمجيد والتعظيم.

ولن يجحد جاحد ما كان لديوان الإنشاء من الأثر البين في إنهاض العربية وإنعاش الآداب بمصر والشام. ولقد تنافس كبار الكتاب والشعراء في الوصول إلى هذا الشرف الرفيع والتسلق إلى ذلك المنصب السامى، الذى كان يُشترط لنيله أن يكون صاحبه عُلماً في الأدب، بعيد الغاية في جمال الإنشاء وروعة الكتابة، ملماً بكثير من العلوم العقلية والنقلية، وقد أبرز ديوان الإنشاء في عهد المماليك بمصر والشام نوابغ من الكرام الكاتبين، والشعراء المجيدين، والعلماء الناهيين وقد مرت بك أسماء طائفة منهم.

وقد كان للغة العربية أيام قيام ديوان الإنشاء دولة قائمة دالت بعد دخول العثمانيين مصر وإبطلهم ديوان الإنشاء، فطوى بذلك للعربية والأدب العربى عهداً زاهراً مجيداً.

الكتابة

تأثر طريقة الفاضل: تأثر الكتاب في هذا العصر طريقة القاضى الفاضل التى جرت على غرار طريقة ابن العميد، وأرث عليها بالإغراق في التورية والطباق ومراعاة النظر وغير ذلك من أنواع البديع، لذلك كانت طويلة الأسجاع، لأن التعمل لإبراز هذه الأنواع كان يضطر الكاتب إلى التمهيد لها والاحتياال على إيرادها، وهذا يدعو إلى تطويل الكلام. وكانت مواهب القاضى الفاضل وسلامة فطرته وتمكنه من اللغة تُنفذ كتابته من السقوط في ذك السخف. وكثير مما كتبه بين أيدينا يشهد له

بحسن الذوق ودقة الصناعة والقدرة على اجتذاب القارئ كيفما كان رأيه فيما يجب أن تكون عليه الكتابة الفنية .

أولع كتاب الممالك بهذه الطريقة ، فأخذوا يحاكونها ويجهّدون جهدهم في بلوغ أوجها ، وربما جال في نفوسهم كثير منهم أن يسبّزوها بالإغراق في البديع والإكثار من الزخرف اللفظي ، فجنى عليهم اجتهداهم ، وكان عليهم أن يعرفوا أنّ

أبلغ ما يُدرِكُ النجاح به الطب - عند التعمق الزلل

فجاءت كتابة كثير منهم مملوءة بالبديع ، محمّلة بأنواع الصناعة ، فاختلفت المعاني تحت أزدية الديباج الموشى ، والاستبرق المرقش ، وناءت عقود الجواهر واللاّء بينات الأفكار فأخذت أنفاسها ، وأصبحت تقرأ عبارات هي أشبه بالالغاز منها بصريح الكلام ، وتعجب كيف أن عقلاً إنسانياً يصور له الجذّ العائر أن من أمارات النبوغ وإحكام الصناعة التدهور إلى هذا الخفيض . وطالب الأدب تملكه الحيرة إن أراد أن يعلل هذه النازلة التي أصابت الأدب فقضت على فن هو أكثر فنونه استعمالاً ، وهو أقل فنونه قيوداً ، وأحوّلها إلى السهولة والانسجام . وربما كان من أسباب ذلك تمكن غريزة التقليد من هؤلاء الكتاب وتمكّنها في نفوسهم ، حتى لكأنهم لا يعرفون من النثر إلا ما كان مسجوعاً متكلفاً ، وحتى لكأنهم لم يقرأوا تلك الكتابة الرائعة السهلة التي تأير بلاغتها النفس في جمال وإبداع وروصانة ، تلك كتابة الصدر الأول العباسي لأمثال ابن المقفع والجاحظ وعمرو بن مسعدة وسهل بن هارون والصولي وغيرهم .

قوة النقد وتأثيرهم - وقد يكون من سوء الطالع أن نشأت طائفة من النقاد في هذا العصر لا يروق لها إلا هذه الرطانة ، ولا يهتز أعطافها إلا هذا الإسفاف . والنقاد في كل عصر أصحاب القوة والصولة في دولة الأدب ، وهم المسيطرون على فنونه وأساليبه وطرقه ، وهم المتحكمون في رجاله . والأدب يسمو ويسقط بسمو هؤلاء في إدراك معنى الجمال أو سقوطهم ، والأدباء محكومون حتماً بهذه القوة الأدبية ، يتملقونها ويحارونها وينزلون على أحكامها . وقليل من الأدباء من يكون له من قوة نفسه والاعتداد بمواهبه ما يدفعه إلى الثورة على حكم هذه القوة الغشوم . ولا نعرف من هؤلاء في هذا العصر إلا ابن خلدون ، الذي نعى على كُتاب عصره شغفهم بالبديع ، وأخذ عليهم إبعادهم في التكلف .

الألفاظ قبل المعاني : وقد يكون من أسباب هذا الطغيان الصناعي قلة ما لديهم من الأفكار والمعاني ، لأن مدى اطلاعهم كان محدوداً ، ولأن دراسة العلوم الكونية كانت مقصورة على طائفة قليلة ، فأرادوا أن يغطوا هذا القصور بستار من الزخرف الممقوت ، وبهذا أصبحت الألفاظ عماد الكتابة ومظهر جمالها الفني ، أما المعاني فتأتى تالية في المرتبة ، فإذا أراد الكاتب أن يكتب رسالة كان اتجاهه إلى اختيار الألفاظ المزوّقة والأسجاع الرتانة ، وكان على المعاني أن تخضع أولاً لسيطرة الألفاظ ، ثم تكون بعد ذلك كما تكون . وفي هذا بلا شك مناهضة لأصل الفطرة ومعاودة لطبائع الأشياء .

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا

شاهد من كتابة ابن عبد الظاهر - ولا تترك من غير أن نسوق إليك شاهداً تستطيع أن تدرك به ما قدمنا لك من سالف البيان .

من ذلك ما كتبه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو من أعلام الكتاب في هذا العصر في رسالة قال :

«حَرَسَ اللهُ نِعْمَةَ مَوْلَايَ وَلَا زَالَ كَلِمُ السَّعْدِ مِنْ اسْمِهِ وَفَعَلَهُ وَحَرَفَ قَلَمَهُ بِاتِّلَافٍ، وَمَنَادَى جُودَهُ لَا يُرْتَحَمُ وَأَحْمَدُ عَيْشَهُ لَا يَنْصَرَفُ، وَلَا عَدَمُ مُسْتَوِصِلُ الرِّزْقِ مِنْ يَرَاعَتِهِ الَّتِي لَا تَقْفُ الْوَصْلَ، وَلَا عِدَمَتْ نُحَاةُ الْجُودِ مِنْ نَوَالِهِ كُلِّ مُوزُونٍ وَمَعْدُودٍ، وَمِنْ فَضْلِهِ وَظَلُّهُ كُلِّ مَقْصُورٍ وَمَعْدُودٍ، وَمَا خَاطَبْتَ الْيَوْمَ مَلْتَمِسَهُ إِلَّا بِلَامِ التَّوَكُّدِ، وَلَا عَدُوَّهُ إِلَّا بِلَامِ الْجُحُودِ» .

دخول الصناعة في لغة التأليف : على أن بعض الكتاب وقد ملكت عليه الصناعة زمام نفسه لم يقصر هذا النوع من الكتابة على الرسائل الفنية ، بل تعداه إلى التأليف ، فهذا ابن حجة الحموي في كتابه خزانة الأدب يُرينا في مواطن كثيرة كيف أفسدت عليه الصناعة تأليفه ، حتى إنك حين تقرأ عباراته لتؤثر أن تتركها إلى ما هو خير لك وأجدي عليك من التردّي في تورية أو التدهور في جناس . وهذا ابن عرب شاه ألف كتاباً كاملاً سَمَاهُ «عجائب المقدور في أخبار تيمور» كله سجع من النوع المرتبك المحشو بالبديع ، حتى لقد أصبح فهمه أمراً عسيراً . وقصارى القول أن هذا الضرب من النشر كان حبيساً إلى النفوس جميعاً ، فإنك تراه في رسائل الأدباء ، وفتاوى الفقهاء ، وإجازات الطلاب وأحكام القضاة ، وكلما أراد إنسان أن يتمسح بالأدب أو يتسبب إلى أهله . وإذا كان العصر كله عصر صناعة وتزويق فلم لا يكون النثر كذلك ؟ ولم ينفرد الشعر بهذه الزخارف دونه ؟ ولم لا يتسع فيه المجال للنفس المصرية التي فطرت على اللعب بالكلام ؟ ولكن لكل شيء حداً إذا تجاوزته فقد قوّته وسلبَ جماله .

على أن بعض النثر مع التزامهم البديع كانت لهم روحٌ خفيفة وفطرة سليمة تستر آثار التكلف ، وتُصلح ما أفسدته الصناعة .

مقدرة الكتاب اللغوية : ولم يكن ينقص الكتاب في هذا الأوان قوّة في اللغة وتمكن من مفرداتها إلا أن لهم هفوات في الاستعمال وصور بعض الأساليب ، وربما كان شيء من ذلك قليلاً في رسائلهم ، ولكنه كثير في مؤلفاتهم .

أشهر كُتّاب هذا العصر

محيي الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبدُ الله بن عبد الظاهر المصريُّ ولد سنة ٦٢٠ هـ وتوفي سنة ٦٩٢ هـ وكان من المتعصبين لطريقة القاضى الفاضل في التزام السجع واتباع المحسنات البديعية ، وبخاصة التورية ، وكان رئيسَ ديوان الإنشاء في زمن الملك الظاهر بيبرس ، فوضع كثيرا من اصطلاحات الإنشاء ونُظِم الديوان ، وبقيت نُظُمه واصطلاحاته معمولا بها في مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر ، وأصبحت مصرُ ولاية عثمانية . وله مؤلفات ورسائل سلطانية كثيرة ، فمن مؤلفاته في التاريخ «الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة» وقد استعان بها المقرئ في تأليف خططه ، ومن رسائله ما كتبه على لسان الملك المنصور قلاوون يرد على صاحب اليمن عندما عزّاه على موت ابنه ويظهر تجلده على فقده ، وهي طويلة منها :

«ولنا - والشكرُ لله - صبرٌ جميل لا نأسفُ معه على فائت ولا نأسى على مفقود ، وإذا عليم الله سبحانه حسن الاستنابة إلى قضائه والاستكانة إلى عطائه عوض كل يوم ما يقول المبشرُ به هذا مولى مولود ، وليست الإبل بأغلظَ أكبادًا ممن له قلب لا يبالي بالصددمات كثرت أو قلّت ، ولا بالتباريح حَقَرَتْ أو جَلَّتْ ، ولا بالأزمات إن هي توالَتْ أو تَوَلَّتْ» .

وله جملة كافية من النثر في كتاب المنتخب فارجع إليها .

شهاب الدين الحلبي

هو محمود بن سليمان ولد بدمشق سنة ٦٤٤ هـ . وتوفي بها سنة ٧١٩ هـ . وتلقى العلم على علماء الشام وتخرّج في علوم العربية على ابن مالك النحوي . وكان من نوابغ هذا العصر أدبا وكتابة وشعرًا ،

ورحل إلى مصر واتصل بسلاطين الممالك، وولى رئاسة ديوان الإنشاء في حكم الملك الناصر بن قلاوون. وله شعر كثير مشهور في كتب الأدب.

ومن نثره في وصف البلاغة: «البلاغة تسحر الأبواب حتى تُخَيِّلُ العَرَضَ جَوْهَرًا، وتُخَيِّلُ الهَوَاءَ المَذْرُوكَ بالسمع لانسجامه وعذوبته في الذوق نَهْرًا، لكنّه سحر لم يَجْنِ قَتْلَ المسلم المُتَحَرِّزِ قِيَّانًا وَلَ في جَلِّه، وإذا كان في الحديث ما هو عُقْلَةٌ للمُسْتَوْفِزِ فهذا أنشودة نشاطِ البليغ وحُلُّ عِقالِ عقله».

وقوله في وصف الكتابة: «حَطَّةُ شَرِكُ العقول، وفتنة تشغل المطمئن بملاحة المرقى المكتوب عن فصاحة المَقُول، ولو لم يكن البيان سحرًا لما تجسّدت منه في طرّسه هذه الدُرّ، ولو لم يكن بعض السحر حلالًا لما انجلى ظلام النّفس عما يُهْتَدَى به من الأوضح والغُرّ».

ابن فضل الله العمرى

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى، من سلالة عمر بن الخطاب، ولد بدمشق سنة ٧٠٠ هـ وتوفي ٧٤٨ هـ، وارتحل إلى بلاد كثيرة في طلب العلم فتلقاه بدمشق والإسكندرية والقاهرة والحجاز. وكان مشهورًا بالذكاء النادر، والحافظة القوية، وصار بعلمه فريد عصره، لا يساويه أحد في أدبه وترسله وتأليفه، وكان أعلم أهل القطرين بتاريخ الملوك والعلماء والأدباء وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية. وقد أودع ذلك كله كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار». وهو كتاب ضخيم في بضعة وعشرين مجلدًا، يبحث في الأدب والتاريخ وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعي وغيرها. ومن تأليفه «التعريف بالمصطلح الشريف» وهو مجموع رسائل في فن إنشاء الدواوين وعلى نور مشكاته وضع القلقشندي كتابه صبح الأعشى. ومن تأليفه كتاب فواضل السمر في فضائل آل عمر وله مؤلفات كثيرة في فنون مختلفة.

ومن رسائله ما كتبه على لسان سلطانه من آل قلاوون إلى نائب الشام مع طيور صيّد جوارح أرسلها إليه:

«صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح، وثناء يطير إليه وكيف لا تطير قادمة بجَنَاح؟ وتُعلِّمُه أن مكاتبتَه المتقدمة الورود تضمّنت التذكّارَ من الجوارح بما بقى من رسمه، وجرت عادة صداقتنا الشريفة أن تُحَسِّبَ في قَسْمِهِ، وقد جهّزنا له الآنّ منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مَطَّار، ولا يُوقد للقرى في غير حاليقها جذوة نار، ولا تؤم طيرًا إلا وترش الأرض بدمه فلا يَلْحَقُ لها بغبار، وهى طيور كم لها من فتك أخذ الطير من مأمنه، وسلب ما تحلّى به من ريش الريش ثم تزينا بأحسنه».

القلقشندي

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي المصري. ولد بقلقشنده (قرية بجوار قليوب) فنسب إليها. وتلقى العلم بالأزهر، واشتهر بين أقرانه بحدّة الذهن وسرعة الفهم، وقد أحاط بكثير من علوم الأدب في عصره، وبرز في الفقه والإنشاء وأيام العرب وأنسابها.

تولى ديوان الإنشاء بمصر في عهد المماليك سنة ٧٩١ هـ. وله مؤلفات كثيرة أشهرها «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» وهو كتاب ضخّم جَمُّ الفائدة، يستفيد منه كثيراً كل من يُعنى بدراسة تاريخ الأدب في هذا العصر. ومن مؤلفاته «نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب» وكتاب «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان» وقد ألّف هذا الكتاب لأبي المعالي محمد الجهنّي البارزّي صاحب دواوين الإنشاء لفضله عليه، وذكر فيه قبائل العرب التي كانت في عصره.

ومن إنشائه ما كتبه عن الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس في وصف موقعة وهو :

«وَحَرَكْنَا مِنَ الدِّيارِ المِصرِيّةِ فِي جِيوشٍ لَا يَأْخُذُهَا حَصْرٌ، وَلَا يَلْحَقُهَا هَضْرٌ، وَلَا يُظَنُّ بِهَا عَلَى كَثَرَةِ الْأَعْدَادِ كَسْرٌ. وَلَمْ نَزَلْ نَحْثُ السَّيْرَ، وَنُسْرِعُ الْحَرَكَةَ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ إِسْرَاعَ الطَّيْرِ، حَتَّى وَافَيْنَا دِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ فَتَزَلْنَا بِظَاهِرِهَا، مَسْتَمْطِرِينَ النَّصْرَ فِي أَوَائِلِ حَرَكَتِنَا وَآخِرِهَا، وَانْضَمَّ إِلَيْنَا مِنْ عَسَاكِرِ الشَّامِ وَغُرَبَائِهَا وَتُرُكْمَانِهَا الزَّائِدَةُ عَلَى الْعَدَا مَا لَا يَنْقُطِعُ لَهُ مَدَدٌ، وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ وَلَا عَدَدٍ».

ومن قوله في خطبة كتابه صبح الأعشى :

«وَكَانَتْ الدِّيارِ المِصرِيّةِ، وَالْمَمْلَكَةِ الْيُوسُفِيّةِ، أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى جِهَاها، وَضَاعَفَ عِلْمُها، قَدْ تَعَلَّقَتْ مِنَ الثَّرِيَا بِأَقْرَاطِها، وَرَجَحَتْ سَائِرَ الْأَقَالِيمِ بِقِرَاطِها، بَشَّرَ بِفَتْحِها الصَّادِقُ الْأَمِينُ فَكَانَتْ أَعْظَمَ بُشْرَى، وَأَخْبَرَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ أَنَّ أَهْلَها نَسَبًا وَصِهْرًا».

التأليف

كثرة المؤلفات

إذا كان لهذا العصر أن يزدهى بشيء من مظاهر الحياة الأدبية فإن التأليف أول ما يحق له أن يفخر به، فقد كثرت المؤلفات فيه كثرةً مذهشة، وانصبت العلماء فيه على التدوين انصباباً صرفهم عن مشاغل الحياة وشئونها، وتوجهت نفوسهم إلى سد كل حاجة دينية أو فنية أو كونية بمؤلف أو مؤلفات، وتنافسوا في الإجابة، وتسابقوا في كثرة الإنتاج، ووصل كثير منهم إلى مدى الاجتهاد أو كاد، وتناولوا كل شيء بأقلامهم حتى التافه الحقيق من الشئون، وابتكر بعضهم مباحث وعلموا لم يكن للناس عهد بها، ولا غرؤ فقد كانت مصر والشام في هذا العصر حافلتين بالمدارس ودور العلم، وكانت القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرها من البلاد المصرية، ثم دمشق وحلب وغيرها من البلاد الشامية، تخرج بالعلماء والطلاب موجاً.

أسباب نهضة التأليف

وأكبر الظن أن كثرة التأليف والإنتاج في هذا العصر ترجع إلى الأسباب الآتية :

١ - عندما سقطت بغداد وأحرق التتار كثيراً من الكتب، ودمروا كل شيء تدميرًا، تملك العلماء شعورًا ديني دفعهم إلى العمل على إعادة ذلك التراث الذي عيشت به كوارث الغزو، وتجديد ذلك المجد الإسلامي الذي بنى في دهور، فأخذوا يبذلون الجهد في التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسدته الأيام، وإنشاء كتب جديدة في اللغة والدين والأدب وغيرها.

٢ - كان لسلطين المماليك ميل إلى العلم والعلماء، وإغداق دفعهم إلى التأليف وحفزهم إلى الإحسان فيه، وكان للسلطين والأمراء والوزراء ولوج باقتناء الكتب النادرة، وإنشاء الخزانات الجامعة

لأنواع شتى من المؤلفات، حتى إن بعض الكتب كان يُؤلف خاصةً لهم؛ وقد كانوا يختارون لخزائنها خيراً ما أنتجه المؤلفون، فدفع ذلك المؤلفين إلى الإجادة والتنافس. ولقد أظهر لنا ابنُ نباتة هذا الشعور جلياً حينما أمر السلطانُ حسن بوضع ديوان شعره في خزائنه إذ يقول:

أمرت شعري يا خبير الملوك على أشعار قوم فلي أمر وديوان

٣- كان التنافس بين علماء مصر والشام بالغاً حدّه، وكان الاتصال بينهما على بعد الشقة مستمراً، وكان من العقائد الراسخة أن العالم أو الأديب الذي لا يُبرز أثراً لا يصح أن يُدعى عالماً أو أديباً.

الابتكار والتقليد فيه

ويرى كثير من كتب في هذا العصر أن التأليف فيه ليس به أثر للابتكار، وإنما هو جمع من أشتات الكتب، وتقليد لا أثر للاجتهاد فيه، وهذا قول صحيح سائغ في كثير من الكتب، غير أن هناك كتباً تمتاز على كثير مما أُلّف فيما سبق من العصور، وإلاّ فمن يستطيع أن يقول إن ابن خلدون في مقدمته كان مقلداً؟ ومن يجزئ أن يدعى أن المقرئ في خطه لم يكن إلاّ نسخاً؟ ومن يظن أن ابن خلكان في وفياته لم يكن محققاً بعيد المدى؟ وهل يشك إنسان في اجتهاد ابن مالك والشاطبي وابن هشام المصري في علوم اللغة؟ وهل لا يحق لهذا العصر أن يفخر بمثل ابن منظور صاحب لسان العرب؟ ولو أردنا أن نحصى الكتب الجليلة الشأن في هذا العصر لوجدنا عدداً غير قليل.

المتون والشروح والحواشي

هذا، وقد جرت عادة كثير من المؤلفين في هذا العصر، وبخاصة مؤلفو العلوم العربية والدينية، أن يضعوا موجزاً في العلم يسمونه متناً، ثم يفسرون مجملته في شيء من الإسهاب ويسمون هذا التفسير شرحاً، وأشهر هذه المتون في النحو الألفية لابن مالك، وفي القراءات الشاطبية للشاطبي، وفي الفقه الحنفي متن الكنز للنسفي، وقد جاء المتأخرون فوضعوا على هذه الشروح شروحا وتقييدات سميت بالحواشي. وهذه الزعة ربما كانت سبباً في خفاء مسائل العلم على المبتدئين فإن المتون كانت تُوضع على نمط من الإيجاز والإبعاد في الاختصار يصعب فهمه.

ولماذا لا يوضع العلم أول وهلة أمام الطالب في أسلوب واضح مفهوم سائغ؟ أما الحواشي فمتشعبة المباحث، كثيرة الاستطراد والانتقال من مسائل العلم إلى مسائل علوم أخرى.

وقد كتب ابن خلدون في هذا العصر فصلاً في التعليم كان أجدر بمعلمي الناشئين أن يتفهموها ويعملوا بها.

الكتب الجامعة

يمتاز هذا العصر بالكتب الجامعة. والذي مهّد لإبرازها شدة صبر العلماء وجَلَدِهِم في هذا العصر، وتعدّد نواحيهم العلمية. فكثيراً ما كنت تجد بينهم من جمع بين الفقه والحديث والرياضيات والأدب والشعر والتاريخ. ثم إن نازعة الجمع والاختصار في هذا الزمان كان لها شأن كبير في إظهار هذه الكتب، وقد يكون ظهورها أثراً للاعتداد بالنفس والثقة بها، وسبيلاً إلى التباهي بعلو الكتب والإحاطة بكثير من الفنون والعلوم، أو إجابةً لرغبة سلطان، بعد أن علمنا ما كان لسلطين هذه الدولة من الميل الشديد لنشر العلوم واقتناء الكتب.

أشهر مؤلفي الكتب الجامعة: وأشهر مؤلفي هذه الكتب شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمرى، وكتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» سبق التعريف به. وشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي. وكتابه «صبح الأعشى». وقد ذكرنا عنه كلمة آنفاً. ثم أبو العباس شهاب الدين أحمد النويري أحد رجال الملك الناصر بن قلاوون. واشتهر بكتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب». وهو كتاب ضخم يقع في أكثر من ثلاثين مجلداً، وبه مباحث واسعة في الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعي والطب والسياسة والتاريخ والأدب. ويدر الكتب الملكية نسخة كاملة من هذا الكتاب. توفي سنة ٧٣٣ هـ.

كتب الدين والعربية

وأكثر مؤلفات هذا العصر في الدين واللغة والعلوم العربية، ويمتاز التأليف في علوم العربية بقوة وسعة مداه، وبروز التفكير فيه.

وأشهر المؤلفين في علوم الدين.

(١) ابن تيمية

هو أحمد بن عبد الحليم، ولد بحران سنة ٦٦١ هـ وقدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير، وقد خرجوا من حران مهاجرين فرارا من التتار، فساروا بالليل يحملون كتبهم وأثاثهم على عجلة لعدم وجود الدواب، فقدموا دمشق في أثناء سنة ٦٦٧ هـ، ونشأ بها ابن تيمية نشأةً صالحة، في أسرة ذات تمسك بالدين، وكان أبوه عالماً فقيهاً جليلاً الصفات، فورث عنه كثيراً من المواهب الخلقية والنفسية، ثم تلقى العلم على عدد جَم من جُلّة العلماء، وبرع في علوم العربية والفقه الحنبلي، وأقبل على التفسير إقبالاً فحاز قصب السبق، وأحكم أصول الفقه وغيرها من علوم الشريعة وهو ابن بضعة عشرة سنة، فبهر علماء وقته بشدة ذكائه وحدة ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه.

نشأ في تصوف وعفاف وتزهد واقتصاد في الملبس والمأكل، مشغولاً بالعلم والدّرس، لا تكاد نفسه

تشبع من العلم، أو تزوى من الاطلاع، أو تكلل من البحث. وقُل أن يدخل في مبحث من المباحث إلا استوعبه استقصاء واستنبط منه ما غاب من حُذائق العلماء.

وقام بوظائف التدريس وعمره إحدى وعشرون سنة، فطار صيته في الآفاق، وانتهت إليه الإمامة في العلم والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم. كان شديدًا على المبتدعين، حريًا على جهل الأهواء، لا يخشى في الحق لومة لائم، ولا يهاب الموت في سبيله، حتى لقد سُمِّيَ محيي السنة وآخر المجتهدين وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره. وقد جرت عليه شدته عداوة كثير من معاصريه، وكان قوام مباحثه التوفيق بين المعقول والمنقول، وقد ألف في هذا الصدد كثيرًا من الكتب، وكان المعروف أن العالم لا يُبرز إلا في علم أو علمين، أما ابنُ تيمية فقد بلغ الغاية في كثير من العلوم. يقول بعض عارفيه: «كان إذا سئل في فن من الفنون ظنَّ السامع أنه لا يعرف غيرَ هذا الفن، ثم حكم أن أحدًا لا يعرفه مثله».

وقد أثار ما ناله من الشهرة كامن الحقد في نفوس حُسادِه، فأخذوا عليه كلامًا قاله في أحد دروسه عدوه ابتداءً في الدين، فجادلوه وجادلوه، واستعانوا عليه بالسلطان، وسَعَوْا في نقله إلى الديار المصرية، فنُقِل وأودع السجن ثم أفرج عنه. وما زال أعداؤه يكيّدون له حتى اعتُقِل مرات، وكان آخرُ اعتقاله بمرسوم جاء من قِبَل السلطان سنة ٧٢٦ هـ بجعله في قلعة دِمَشق، فأُخِلت له قاعة حسنة، وأقبل في هذه المرة على العبادة والتلاوة والتأليف، وكتب في المسائل التي حُجِس من أجلها مجلدات عدّة. فلما اشتهر ذلك مُنع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا له دواء ولا ورقًا ولا قلمًا، فكتب بعد ذلك بفحم على حيطان سجنه يقول: «إن إخراج الكتب من عندي من أعظم النقم» ولم يعيش بعد ذلك طويلاً، فمات في العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ. وقد ازدحم الناس في جنازته ازدحامًا شديدًا بين رجال ونساء، وبالعالم المؤرخون في عدد من شيعوه فأوصلوه إلى مائتي ألف، وأخذ الناس يتنافسون في التبرُّك بآثاره، ويظهرون ما خالط نفوسهم من الحزن على فقده. وبلغت مصنفاته ثلثمائة مجلد، أكثرها في التفسير والفقه والأصول والرد على الفلاسفة والمبتدعة، وأشهر هذه الكتب «مُنْتَقَى الأخبار» و«فتاوى ابن تيمية» و«الإيمان» و«الجمع بين العقل والنقل» و«الواسطة بين الحق والخلق».

(٢) القسطلاني

هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القاهري الشافعي، ويلقب بشهاب الدين، ويكنى بأبي العباس، من أشهر المحدثين والمؤرخين.

ولد في الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة ٨٥١ هـ بالقاهرة، وتعلّم بالأزهر، وحفظ كتبًا عدّة، منها الشاطبية، وتلقّى العلم على جماعة من كبار العلماء، منهم الشيخ خالد الأزهرى والحافظ

السخاوى وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، فبرع في العلوم الدينية ولا سيما الحديث والسيرة النبوية .
وَأَلَّفَ في الحديث كتابَ «إرشاد السارى إلى شرح البخارى» وهو المشهور بشرح القسطلانى في عشرة مجلدات . ومن مؤلفاته في التاريخ «المواهب اللدنية في المنح المحمدية» وهو كتاب جليل القدر ليس له نظير في بابهِ ، رتبه على عشرة مقاصد في نسب النبی وولادته ورضاعه ومغازيه ، وفيه فصول في أسمائه وأولاده وأزواجه وأعلامه وتقدمه ومعجزاته وخصائصه . وقد طُبِعَ في ثمانية أجزاء ، وتُرجم إلى اللغة التركية ، وله شرح على الشاطبية والبردة ، وصنّف «مسالك الخنفا في الصلاة على المصطفى» وكتاب «لطائف الإشارات في القراءات الأربع عشرة» .

وكان يصحب الشيخ إبراهيم المتبولى ، ويجلس للوعظ بالجامع العتيق . تُوفى يوم الخميس مُسْتَهْلَ المحرم سنة ٩٢٣ هـ ، وتعدّ الخروجُ به إلى الصحراء ذلك اليوم ، لأنه اليوم الذى دخل فيه السلطان سليم مصر . ودفن بمدرسة الإمام العيني بقرب الجامع الأزهر .

ومن أشهر المؤلفين في علوم العربية :

(١) ابن هشام

هو جمال الدين عبد الله بن هشام المصرى ، الإمام المشهور ، ولد سنة ٧٠٨ هـ كان من كبار العربية ، وتخرّج عليه خلق كثير ، واشتهر بالتحقيق وسعة الاطلاع ووضوح البيان ، والقدرة على تحليل الأحكام ، وكان أديباً عالماً بأسرار الكلام العربى ، ملأ صيته العالم الإسلامى . قال ابن خلدون في مقدمته :

«ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالمٌ بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيويه» .
وله تصانيفٌ في النحو أشهرها «مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» و «قطر الندى وبل الصدى» و «شدور الذهب» توفى سنة ٧٦١ هـ ، ودفن في خارج باب النصر ، ورثاه ابن نباتة بقوله :

سقى ابن هشام في الشرى نوة رحمة	يمر على مشواه ثوب ضمام
سأروى له في سيرة المدح مُسْتَسَدًّا	فما زلت أروى سيرة ابن هشام

(٢) ابن مالك

هو أبو عبد الله جمال الدين محمد ، كان إمام النحاة وحافظ اللغة في عصره ، ولد سنة ٦١٠ هـ ، ونشأ ببيّتان ، وهى بلدة بالأندلس ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق ، فأخذ عن جماعة من علمائها ، وتصدّر لتعليم العربية في حلب ، وبلغ الغاية في علوم العربية ، وألم بأشعار العرب ، وكان إماماً في القراءات ، واسع الاطلاع في الحديث ، وأقام بدمشق مدة يصنّف

ويدرس بالجامع والتربة العادلية، وقد حفظ التاريخ كتابا كتبه إلى الملك الظاهر بيبرس يطلب فيه بسطة كت يستعين بها على مطالب الحياة وهو :

«الفقيه إلى رحمة ربه محمد بن مالك يقبل الأرض، ويُنهي إلى السلطان آيد الله جنوده، وأبند سعوده، أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الأدب، وأمله أن يُعينه نفوذ من سيد السلاطين، ومبيد الشياطين، خلّد الله ملكه، وجعل المشارق والمغارب ملكه، على ما هو بصدده من إفادة المستفيدين، وهداية المسترشدين، بصدقة تكفيه هم عياله، وتُعينه على السبب في صلاح حاله، فقد كان في الدولة الناصرية عناية يتيسر بها الكفاية، مع أن هذه الدول من الدولة الظاهرية كجدول من البحر المحيط، والخلاصة من الوسيط والسيط، وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية خصوصًا وعمومًا، وكشف بها عن الناس أجمعين غمومًا، ولمَّا بها من شعث الدين ما لم يكن ملمومًا، فمن العجائب كون المملوك عن خيراتها غائبًا محرومًا، مع أنه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها، وأقوم المواليين بمراعاة ذمامها، لا برحت أنوارها زاهرة، وسيوف أنصارها قاهرة ظاهرة، وأيادها مبدولة موفورة، وأعادها غدولة مقهورة، بمحمد وآله» .

وله أكثر من ثلاثين مصنفًا في النحو والصرف والقراءات واللغة .

وأشهر مصنفاته «التسهيل» و «الكافية الشافية» و «الألفية»، وكان كريم الخلق حسن السنت كامل الوقار، توفي سنة ٦٧٢ هـ .

(٣) السيوطي

هو جلال الدين السيوطي من أعلام أخريات هذا العصر، الذين امتازوا بكثرة مناحيهم العلمية والأدبية، وبكثرة ما أبرزوه من المؤلفات . ولد بأسبوط سنة ٨٤٩ هـ، وينتهي نسبه من جهة أبيه إلى أصل فارسي، ويمتزج أصله بالدم التركي من قبل أمه . مات والده وسنه خمس سنين وسبعة أشهر، وكان قد وصل في حفظ القرآن إلى سورة التحريم، وأتم حفظه قبل أن يبلغ الشامنة، ثم أخذ في تلقي العلم على خير أعلامه بالقاهرة، وانكب على دراسة العلوم بأنواعها، حتى نبغ فيها، وأصبح مدرسًا تهرج إليه الطلاب، ثم عزل من التدريس قبل موته بأربع سنين . وأريت مؤلفاته على الخمسةائة، وأكثر هذه رسائل صغيرة الحجم محدودة الموضوعات، وخير مؤلفاته «الإتقان في علوم القرآن» و «المزهر» في اللغة، «الأنشبا والنظائر» في النحو «وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» في التاريخ . وقد كتب ترجمة لنفسه في هذا الكتاب تُدل على كثير من الاعتداد بالنفس والصراحة، جاء فيها :

«ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة، والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم سوى الفقه والنقو التي اطلعت عليها فيها، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من

أشياخى، فضلا عن هو دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطولُ باعاً.

ودون هذه السبعة في المعرفة أصولُ الفقه والجدلُ والتصريفُ، ودونها الإنشاء والتَّرسلُ والفرائضُ، ودونها القراءاتُ، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطبُّ، وأما علمُ الحساب فهو أعسرُ شيءٍ على، وأبعده عن ذهني، وإذا نظرت فيه مسألة تتعلق به، فكأنما أحاول جبلاً أحمله.

وقد كَمَلْتُ عندى الآن آلاَتُ الاجتهاد بحمد الله تعالى، أقول تحدثنا بنعمة الله تعالى لا لأفخر، وأى شيءٍ في الدنيا حتى يُطلبَ تحصيلُهُ بالفخر، وقد أَرَفَ الرحيل، وبدا المشيب، وذهب أطيّبُ العمر؟

ولو شئتُ أن أكتبَ في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها، وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدّرت على ذلك من فضل الله، لا بحولى ولا قوتى». توفي سنة ٩١١ هـ.

(٤) ابن منظور

هو جمال الدين بن مكرم الإفريقي، ولد سنة ٦٣٠ هـ، واشتغل باللغة وعلومها وتاريخها، وخدم بديوان الإنشاء بمصر، وألف مئات من المجلدات، أشهرها «لسان العرب» وهو معجم واسع، وموسوعة جامعة في اللغة والتفسير والحديث والأدب، جمع فيه بين تهذيب الأزهري، ومعجم ابن سيده، والصحاح، وجمهرة ابن دُرَيْد، ونهاية ابن الأثير، طبع في مصر سنة ١٣٠٠ هـ في عشرين مجلداً. وكان ابن مكرم مشغوفاً باختصار الكتب، فاختصر مفردات ابن البيطار، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ بغداد للسناني، وكان إلى نواحيه العلمية شاعراً مقلداً فمن قوله:

بِاللهِ إِنْ جُرِئْتُ بَوْلْدِي الْأَرْكَ
وَقَبَلْتُ أَغْصَانَهُ الْخُضْرُ فَانْكَ
أَبْعَثْ إِلَى الْمَمْلُوكِ مِنْ بَعْضِهِ
فَإِنْنِي وَاللهِ مَالِي سِوَاكَ

توفي سنة ٧١١ هـ.

(٥) الفيروزآبادي

هو محمد الدين محمد الفيروزآبادي، ولد بالقرب من شيزار سنة ٧٢٩ هـ، وكان قوى الحفظ متمكناً في اللغة والحديث والتفسير، وتبلغ مصنفاً نحو الأربعين أو تزيد، أشهرها «القاموس المحيط» وهو مختصر كتاب ألفه سواه «اللامع المُلَكَم العُجَاب الجامع بين المحكم والعُجَاب»، والقاموس على كثرة تداوله غاية في الإيجاز إلى الغموض أحياناً، لذا شرحه بعض علماء العربية كالقراي والزيدي ويمتاز القاموس بضبط الأعلام.

توفي سنة ٨١٧ هـ.

كتب التاريخ

كثرة كتب التاريخ والتراجم: ويمتاز هذا العصر بكثرة ما ألف فيه من كتب التاريخ، بين موجزة ومطولة، وربما كان الدافع إلى ذلك دينياً قومياً وفقدته كثير من كتب التاريخ عند سقوط بغداد، وتغلّب الفرنجة على بعض بلاد الأندلس، وربما كان لميل سلاطين المماليك إلى تدوين الوقائع وسير الرجال شأن في كثرة ما ظهر من كتب التاريخ.

وكثرت في هذا العهد المعجمات التاريخية، التي جمعت فيها التراجم من أشات الكتب، أو اعتُمد فيها على الرواية أو المعاصرة ورُتبت على حروف المعجم.

وظهر في هذا العصر أيضاً الاهتمام بكتابة سير السلاطين والأمراء والوزراء، كما شاع أن يكتب العلماء ترجمة حياتهم بأنفسهم، وأول من نعلم ممن كتبوا ترجمة حياتهم بأنفسهم في إسهاب وتفصيل وبيان للحوادث، أسامة ابن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ. قال السيوطي في حسن المحاضرة عندما شريح في كتابة ترجمة حياته:

«وإنما ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداءً بالمُحدثين فقل أن ألفَ واحدٌ منهم تاريخاً إلا ذكر ترجمته فيه، ومن وقع له ذلك الأمام عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور، وياقوت الحموي (توفي سنة ٦٢٦ هـ) في مُعجم الأدباء، ولسان الدين بن الخطيب (توفي سنة ٧٧٦ هـ) في تاريخ غرناطة، والحافظ تقي الدين الفارسي في تاريخ مكة، والحافظ ابن حجر (توفي سنة ٨٥٢ هـ) في قضاة مصر، وأبو شامة (توفي سنة ٦٦٥ هـ) في الروضتين».

وظهر في هذا العصر علمُ فلسفة التاريخ بظهور ابن خلدون، وستكلم في ذلك عند ذكر ترجمته. وجرى مؤرخو هذا العصر كما جرى سلفهم على مزج التاريخ بالأدب، وهذا وإن كان عيباً فنياً في التأليف، كان له فضل مذكور على مؤرخي الأدب في أيامنا هذه، فلولا هذه النزعة في المؤرخين لفقدنا كثيراً من الحقائق الأدبية في هذه العصور.

وقد عُني أكثر مؤرخي هذا العصر بالدقة جُهْد المستطاع وتحري الصواب، وما يؤخذ عليهم، وهذا عيب لم ينفردوا به، تحكيم الوجدان والمبالغة في المديح والإطراء أو التحقير والازدراء.

وقد ترى في بعض هذه الكتب أخباراً لا يقبلها العقل السليم، ينقلونها على علاتها من غير نقد أو تمحيص، وقد أخذ ابن خلدون على المؤرخين في مقدمته مأخذ من هذا النوع.

وأغفل أكثر المؤرخين تحليل الحوادث وبيان عللها وأسبابها، واستنباط ما نشأ عنها من النتائج، كما أهملوا جانباً عظيم الشأن في كتب تراجمهم، وهو نشأة العظماء الأولى، ووصف بيتهم التي درجوا منها، وما كان لها من الأثر في تكوين بطولتهم.

كما تركوا وصف الحياة الاجتماعية والمنزلية، ولم يتجردوا لتفصيل عادات الناس وأحوالهم المعيشية.

وأشهر المؤرخين في هذا العصر:

(١) ابن خلكان

هو شمس الدين أبو العباس أحمد بن خلكان، ولد سنة ٦٠٨ هـ. في إربل ونشأ من أسرة عريقة المجد تنتمي إلى البرامكة، وكان أبوه مدرساً بالمدرسة المظفرية بإربل، فأخذ عليه مبادئ العلم، ثم رحل في طلب العلم إلى حلب ودمشق، وفي سنة ٦٣٣ هـ. ولّاه الظاهر بيبرس قضاء الشام، ثم عزله عنها، فرحل ابن خلكان إلى القاهرة، وعُيّن هناك مدرساً بالمدرسة الفخرية، وفي أثناء إقامته بالقاهرة أتم القسم الأول من معجمه التاريخي، ثم عاد إلى منصبه بالشام بعد سبع سنين من خلعه، فوفد عليه الشعراء يهنئونه. ومن ذلك قول سعد الدين الفارقي :

أذقت الشام سبع سنين جدياً غداة هجرته هجرًا جميلًا
فلما زرت من أرض مصر مددت عليه من كفك نيلًا

ولم يُقِم ابن خلكان في منصبه هذا إلا فترة قليلة، لأنه أتم بمعاودة نائب دمشق على الخروج على السلطان فُتِل، وعاش بقية حياته مدرساً بالمدرسة الأمينية وكانت وفاته سنة ٦٨١ هـ.

واشتهر بكتابة « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » وهو معجم تاريخي لم يذكر فيه من تراجم الصحابة والتابعين إلا طائفة قليلة، ولم يترجم فيه للخلفاء، وإنما قصره على تراجم العلماء والملوك والأمراء والوزراء وكل من له شهرة بين الناس. وقد بذل عناية فائقة في تحقيق نسب كل واحد، وتحري سنة ولادته ووفاته وضبط الأعلام ضبطاً دقيقاً.

والكتاب مظهر من مظاهر العناية والتدقيق العلمي. وقد امتاز بتحري الصحة والاعتدال عن كثير من الخرافات والفحش، وليس بين كتب التاريخ في هذا العصر ما يضاهيه في شرف منزلته وعظم فائدته، وقد نال شهرة في الشرق والغرب، وهو سهل العبارة، جليّ الأسلوب، بلغ الغاية في الدقة والتمحيص، وبين تضاعفه مباحث جلية الشأن في التاريخ والأدب.

والاهتمام بكتابة التراجم وجد قبل هذا العصر بزمان طويل، فقد جمع الخطيب صاحب تاريخ بغداد، وابن عساكر صاحب تاريخ دمشق آلافاً من التراجم لمشهوري الرجال في كل ناحية من نواحي العلم والأدب والصناعة. وقد ترجم « وفيات الأعيان » إلى الفارسية سنة ٨٩٥ هـ، وترجمه دي سيلان إلى الإنجليزية، ونشر في لندن في أربعة مجلدات سنة ١٨٤٢ - سنة ١٨٧١ م، وأشهر ذيل له « قوآت الوفيات » لمحمد بن شاركر الكتيبي.

(٢) ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ويتصل نسبه بوائل من عرب اليمن، رحل خلدون جده التاسع إلى الأندلس في القرن الثالث الهجري، وسكن إشبيلية، ولما تغلب الأسبانيون عليها انتقل بأسرته إلى تونس، وبها ولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ، ونشأ في بيت اشتهر بالعلم والأدب

والمروءة، فتعلم وتآدب على أبيه وكبار رجال المغرب، وأتقن العلوم المعروفة في عصره حتى صار فريداً زمانه.

وقد رغب من صغره في خدمة الملوك، فولى الكتابة لبعض ملوك الدولة الحفصية بئونس، ثم الملوك بنى الأحمر بالأندلس، ثم ارتقى منصب الوزارة عند حاكم بجاية بالمغرب الأوسط، ولما ظهر نبوغه كثر حساده فسعوا به إلى الحاكم، فتخلّى عن خدمة السلاطين، وانقطع للتأليف أربعة أعوام أقام فيها بين قبائل العرب على حدود الصحراء. وألف في أثنائها تاريخه ومقدمته المشهورة، ثم وقد على مصر سنة ٧٨٤ هـ في زمن السلطان برقوق، ودرس بالأزهر، وولاه السلطان قضاء ولاية، فاستقدم أسرته من تونس ففرقوا جميعاً في أثناء الطريق، فحزن عليهم حزناً شديداً منعه من القيام بأعباء منصب القضاء، فاستعفى وسافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، ثم عاد إلى القاهرة، واعتزل في ضيعة له بالقاهرة، ثم عاد ثانية إلى القضاء ثم استعفى، وهكذا إلى أن تولى القضاء ست مرات. وقد أسرته تيمورلنك في بعض غزواته بالشام، فنال ابن خلدون منزلة عنده، ثم طلب إليه أن يسمح له بالذهاب إلى مصر ليحضر مؤلفه في التاريخ، فذهب إليها ولم يعد.

ويُعَدّ ابن خلدون أول من استنبط فلسفة التاريخ، وقد فصلها في مقدمة تاريخه، وأقام الأدلة على صحة استنباطه بالحوادث التاريخية الصحيحة، وتاريخه يسمى «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وهو في سبعة مجلدات اشتهر ابن خلدون بمجلد واحد منها، هو مقدمة هذا التاريخ، التي تعدّ مَفْخَرَةً في عالم التأليف العربي، لأنها أول بحث جامع في علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ، وقد بحث فيها في أحوال العمران وأسبابه، وفي منشأ الدول وأسباب رقيها وانحطاطها، ثم في آلات الكسب من تجارة وصناعة وزراعة، وما يعترها من تقدم أو تدهور، ثم في العلوم وأنواعها، والكتب ومعانيها، وطرائق التعليم وكيف تكون، كل ذلك في أسلوب سهل شائق دقيق، واستنباط منطقي صحيح.

ويمتاز تاريخ ابن خلدون عما تقدمه من كتب التاريخ بما تضمنته من المقدمات الفلسفية في صدر أكثر الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة، وهو أوسع تاريخ للبربر ودولهم ولعرب الجاهلية، ويدلنا هذا الكتاب على اتصاف ابن خلدون بالصراحة في القول، والسداد في الرأي، والإنصاف في الحكم.

وقد ساد في عصر ابن خلدون التزام السجع في الكتابة والمغالاة في المحسنات البديعية فخالف ذلك، ورجع بالإنشاء إلى عهده الأول، فرغب عن السجع وزهد في البديع، وجعل اللفظ خادماً للمعنى. وقد أشار إلى ذلك فقال :

« وكان أكثرها (الرسائل) يَصُدُّرُ عَنِّي بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن يتحلل الكتابة بالأسجاع، لضعف انتحالها وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس، بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ، وكان مستغنياً عند من هم أهل هذه الصناعة، ثم أخذت نفسى بالشعر، فاثالثت على منه بحور

توسط بين الإجادة والقصور .

فأنت ترى أنه ترك السجع ومال إلى الكتابة المرسلة جريا على الفطرة والسليقة ، وترى أنه حكم على شعره بأنه وسط بين الجودة والتقصير ، ومن شعره قوله :

أبى الطيف أن يعتاد إلا تَوْهُمَا فَمَنْ لِي بَأْنِ أَلْقَى الْخِيَالَ الْمُسْلِمَا
وإني ليدعوني السُّلُو تَعْلَلًا وتنهاني الأشجانُ أن أَتَقَدَّمَا
وذو الشوق يعتاد الربوع دوارِسا ويعرف آثار الديار تَوْهُمَا

توفي سنة ٨٠٨ هـ .

(٣) المقرئ

هو أبو العباس تقي الدين بن علاء الدين الحسيني ، أصله من بعلبك ، ونسب إلى حارة فيها تعرف بحارة المقارزة ، وكان جده من كبار المحدثين ببعلبك ، وانتقل أبوه إلى القاهرة فولد له فيها تقي الدين سنة ٧٦٦ هـ ، فنشأ في تلقى العلم ودراسة الحديث على جده لأمه شمس الدين بن الصائغ وغيره ، وسمع الحديث في مكة من كثيرين ، وكان حنفياً المذهب في أول أمره ، فلما بلغ العشرين تحول إلى مذهب الشافعي .

ولما ظهر فضله وعلمه وأدبه تقلد كثيراً من المناصب الدينية والسياسية ؛ كالخطابة بجامع عمرو والسلطان حسن ، والإمامة بجامع الحاكم ، وقراءة الحديث بالمؤيدية ، وتولى النيابة في الحكم وكتابة التوقيع والحسبة ، ورحل إلى مكة والشام ، وتقلد مناصب بدمشق ، واتصل بالظاهر بقوق ، وصحب يشبك الدويدار وأصاب منه ثروة وجاها ، ثم أقام بالقاهرة واشتغل بالتأليف في التاريخ . وله فيه مؤلفات جلية هي مرجع الباحثين عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية في ذلك العصر .

ومن أشهر مؤلفاته « المراعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهو كتاب جامع جُم الفائدة ، جعل فيه وصف الخطط والمباني والبلاد المصرية ذريعة إلى الإفاضة في تاريخها وتاريخ مؤسسيها وما تولى عليها من حوادث ، وله في أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدى ، وبالكاتب كثير من التراجم والمباحث التي لا توجد في سواه ، ولكثرة فوائده تُرجم إلى لغات عدّة ، ونسج على منواله على مبارك باشا في كتابه المعروف بالخطط التوفيقية .

ثم كتابه المسمى « السلوك لمعرفة دول الملوك » وهو يشتمل على تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ هـ إلى سنة ٨٤٤ هـ ، ومن مؤلفاته « الدرر المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية » يتتبع من مقتل عثمان رضي الله عنه ، وينتهي بالمستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، وكانت وفاة المقرئ سنة ٨٤٥ هـ .

كتب تقويم البلدان والرحلات

الدمشقي - أبو الفداء

وقد نأى في هذا العصر علم تقويم البلدان، وألف فيه العددُ الجُمُّ من العلماء، وهؤلاء منهم النظريون الذين نقلوا ما كتبوه من الكتب أو تَلَقَّوه من الرواة ونَقَلَهُ الأخبار، كالدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ، له كتاب يسمى «نخبة الدهر» في عجائب البر والبحر طبع بأوروبا. وكأبى الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ فإن له كتاباً جليل الشأن يدعى «تقويم البلدان» اهتم به الفرنجة كثيراً.

ابن ماجد النجدى - ومنهم المؤلفون عن مشاهدة وخبرة كابن ماجد النجدى، وهو ملاح عربى له منظومات موجزة في فن البحر وهداية الملاحين في المحيط الهندى، وقد كتب بجانب هذه المنظومات كتاباً في سنة ١٤٨٩ م يشتمل على مبادئ الملاحة بعضه منظوم وبعضه مثنو، ولم تظهر هذه المؤلفات في أوروبا إلا من عهد قريب. وكان ابن ماجد بارعاً في علمه وقد ورث هذه البراعة عن أبيه، ويقال إن ابن ماجد هذا هو الذى أرشد فاشكو دى جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى يصل به المسافر حول إفريقيا إلى شواطئ الهند.

ابن بطوطة

وأشهر مؤلفى الرحلات في هذا العصر أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة، ولد بطنجة، وخرج من بلده سنة ٧٢٥ هـ للحج، فبدأ بالرحمين فالشام فالعراق ففارس فما بين النهرين فأسيا الصغرى فجنوب روسيا والإستانة فأسيا الصغرى فبخارى فأفغانستان إلى دهلي، ثم رحل إلى سيلان والصين، وعاد إلى بلده سنة ٧٥٠ هـ. ورحل في السنة التالية إلى غرناطة ثم إلى السودان، وتوفى بمراكش سنة ٧٧٩ هـ. وقد دَوَّنَ كل هذه الأسفار في رحلة سماها «تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار» وقد طبعت بمصر وأوروبا.

وقد فاق ابن بطوطة كل رحالة قبله ولا يغض من شأن كتابه أنه اشتمل على بعض الأغلاط خصوصاً بعد أن نعلم أن مذكراته التى دَوَّنَهَا في أثناء الرحلة فقدت حينها دهم السفينة التى كان بها لصوُّ البحر في المحيط الهندى، وأنه اعتمد على ذاكرته في قصِّ رحلته، لذا يبقى كتابه مرجعاً صحيحاً لوُفِّ الحية الاجتماعية والسياسية والعقلية في البلاد التى زارها، وهفوتُه في الحقيقة هفواتُ أهل عصره، وأغلبها تنشئ من تأثير البيئة وسرعة الميل إلى التصديق لكل ما يقال ويشاع.

وبالكتاب ناحية أدبية أجيلة الشأن، فقد أضاف إليه ابن جُزَيَّ أبياتاً شعرية إثيرة استشهد بها في مواطن عدَّة، واقتباسات رائعة من ابن جُبَيْر وغيره، لإضافات من عند نفسه، ولكن الكتاب يبقى بعد هذا قصة سهلة مليئة بالحوادث والعجائب والفكاهات، من غير تكلف في الأسلوب، تُرسل على أخلاق أهل هذا العصر وعاداتهم.

كتب الأدب

ضعف التأليف في الأدب : كان التأليف في الأدب ضعيفاً خائراً، وجمعاً غير موفق من كتب الأولين، ومن اشتهر بالكتابة فيه في هذا العصر:

الوطواط : جمال الدين الوطواط المتوفى ٧١٨هـ، واشتهر برسائله وبكتابه « غرر الخصائص الواضحة و غرر النقائص الفاضحة ».

البهاء الدمشقي : وعلاء الدين البهاء الدمشقي وله كتاب يدعى « مطالع البدور في منازل السرور » وهو خزانة شعر وأدب، طبع بمصر.

الإبشيهي : والإبشيهي واشتهر بكتابه « المستطرف في كل فلن مستطرف ».

النواجي : وشمس الدين النواجي القاهري المتوفى سنة ٨٥٩هـ، وأشهر كتبه « حلبة الكميت ».

ابن حبيب الحلبي : وابن حبيب الحلبي وكان أدبياً مؤرخاً، أشهر كتبه في الأدب « نسيم الصبا » توفي سنة ٧٧٩هـ.

ابن حجة الحموي : وابن حجة الحموي، وكان رئيس أدباء عصره، مولعاً بالبديع، وخير كتبه كتاب « خزانة الأدب وأغاية الأرب » شرح فيه بديعته، وهو خير كتاب لطالب تاريخ الأدب في عصر الماليك، لأنه أكثر فيه من الاستشهاد بشعراء عصره وصور الحياة الأدبية تصويراً صادقاً. توفي سنة ٨٣٧هـ.

كتب العلوم العقلية

ابن النفيس : وكان التأليف في العلوم العقلية والرياضية قليلاً بالإضافة إلى غيرها، وأشهر المؤلفين في الطب علام الدين بن النفيس، شيخ الطب بالديار المصرية. توفي سنة ٦٨٧هـ. وله كتاب « المختار من الأغذية ».

ابن الشاطر : وابن الشاطر المتوفى سنة ٧٧٧هـ مملكات في الجغرافية والرياضيات بدار الكتب الملكية.

ابن الهائم : ولشهاب الدين بن الهائم القرضي المتوفى سنة ٨١٥هـ كتاب يدعى « مرشد الطالب في الحساب ».

الدميري : وأشهر المؤلفين في علم الحيوان كمال الدين الدميري المتوفى سنة ٨٠٨هـ، له معجم مرئي حروف الهجاء، للحياة الحيوان وطبائعه.

كتب القصص

ألف ليلة وليلة: وظهر في هذا العصر في صورة نهائية كاملة كتاب ألف ليلة وليلة، وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية، وقتن كثيرًا من القراء، واجتذب بقوة تأثيره وروعة خياله الأذن الأوربية، وربما كان هو الذى أوحى إلى بعض كتاب الأفاصيص في الغرب المشهورين بالإغراق في الخيال بكثير من الصور الخيالية الرائعة، وليس بعجيب أن يُعَرم أهل الغرب بهذا الكتاب لأنه يجرى في أفاصيصة على سنن شائق جذاب، وأكثر ما تظهر فيه المهارة في حَبْك القصة، وَخَلْقِ المواقف المُعَقَّدة التى تضيق وجوه الخيلة في حلها، ثم العمل على الخروج من هذه المآزق في لطف وحسن تصرف فنى، هذا إلى إبداع في الوصف وإبعاد في الخيال. وهو وإن وُضع في أول أمره للتسلية والترفيه عن النفس لا يخلو من حكمة تساق إليك، وموعظة تصل إلى قرارة نفسك، ودراسة عامة لأحوال الحياة.

والفرق بين حكايات ألف ليلة وليلة والروايات الأوربية أن الكاتب في الأولى كان كثير المبالغة والإغراق، وأنه اهتم بالأحوال الظاهرة وقَصَّر وصفه على المحسوس المشاهد. ولم يعمد إلى تحليل النفوس، ولم يتغلغل إلى أسرار الطباع، ولم يُعنَّ عنايةً مقصودة بدراسة الأخلاق، بخلاف الكاتب الأوربي فإن الدراسة النفسية أساس قصته وعيادها في أغلب الأحوال، وهو يسير في قصته على سنن واضح من الطبيعة من غير إسراف. ومصدر هذا الكتاب لا يزال محاطًا بالشكوك، والأقرب إلى الحق أنه من أصل فارسي قديم، وأن منشأه كتاب هَزَار أفسانه (ألف حكاية) وبه كثير من حكايات هذا الكتاب، وقد أضيف إلى الأصل الفارسي نواذر كانت منشورة في كتب الأدب، وحكايات جديدة كانت توضع على مر الأيام، فالكتاب إذا لم يوضع في عصر واحد، ولم يصنفه مؤلف واحد. أول من ترجم هذا الكتاب لأوربا جالتندا (١٧٠٤ - ١٧١٧ م).

قصص أخرى: ومن الأفاصيص التى انتشرت في هذا العصر، والتي يغلب على الظن أنها نبتت مع الحروب الصليبية، سيرة عنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن، ثم قصة الظاهر بيبرس، وهى تتضمن حروبه مع الصليبيين، وقصة أبى زيد الهلالي وغيرها.

وهذه الأفاصيص لا تزال تُقرأ في مشارب القهوة، وقد فقدت الآن ماله من روعة بسبب النهضة الفكرية العامة، وانصراف جمهرة الناس إلى قراءة القصص الحديثة واقتنائهم بها.

خيال الظل: وفي القرن السابع الهجرى ظهر خيال الظل وألف فيه ابن دُنَيْتال المتوفى سنة ٧١٠هـ كتاباً فريداً سماه «طيف الخيال» وصف فيه لُعبَةَ خيال الظل، وبالحزنة التيمورية نسخة منه، وهو كالرواية الهزلية يشتمل على مجون كثير.

وقد كان ظهور خيال الظل بدايةً صالحة للتدرج إلى القصص التمثيلية، ولكنه لم ينهض ولم يَدْرُج ولم يتقدم خطوة إلى الأمام، وبقيت العربية عاطلاً من الأدب التمثيلي حتى ظهر في العصر الحديث.

٣. العصر العثماني

هذا هو العصر المظلم حقاً الذي أطفأت فيه العواصف مصابيح العلم والأدب، وتركث مصر الزاهية الزاهرة في ظلام حالك، وليل من الأحداث دامس؛ تلفتت فيه مصر فوجدت يدها صفراً من كل شيء، بعد أن كانت حاضرة الإسلام، وملجأ الأمم المظلومة، ومبوءة العلماء والمتعلمين من أقطار الشرق والغرب، وبعد أن كانت مدارسها وجوامعها حتى بعد ما أصابها من الكوارث في أخريات عهد المماليك حافلة بحلقات العلم والأدب. وليس من شأننا أن نتعرض لحال مصر بعد الفتح إلا بقدر ما ينفع طالب الأدب في الدرس والاستنباط، فإن من بدائه العقول أن للعلوم والفنون اتصالاً وثيقاً بأحوال الأمم السياسية والاجتماعية، وأنها لا تنمو إلا حيث تبسط السكينة جناحها، وينشر السلام أعلامه.

الفتح العثماني

هُزِمَ السلطان الغوري أمام جيش العثمانيين في موقعه مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ، وأسلمه جُنْدُه فحاول الفرار، وهو شيخ فإن في الخامسة والسبعين، فسقط عن جواده وتحطفت سنابك الخيل، فلم يُعثر له على أثر، وحاول طومان باي بعده صد غارات العثمانيين، وكان بطلاً صادق العزم، فهُزِمَ في أربع وقائع، وبعد شدة وبأس التجأ بمديرية البحيرة إلى شخص كان يثق بنجدته، وعاهده على المصحف ألا يغير به، ولكنه لم يلتزم عنده طويلاً حتى وَشَى به إلى السلطان، فحُمِلَ مُصَفَّداً إلى القاهرة، وشُتق عند باب زويلة.

آثار الفتح

أما ما أصاب مصر من الفتح العثماني فإننا نتركه إلى مؤرخي ذلك العصر، وبخاصة من كتب عن مشاهدة وعيان، كابن إياس، فإن في تاريخه صورة واضحة لحال مصر في هذا الزمان، نصرف وجوهنا عن هذه الصورة، ونتجه إلى ما أصاب العلوم والفنون، فنرى أن العثمانيين نقلوا أكثر الكتب التي كانت بخزائن المدارس إلى القسطنطينية، فحُرِمَتْ مصر أغلى كنوزها، ثم نقلوا كثيراً من العلماء والأدباء والأمراء والمهندسين والوزّاقين وأرباب الصناعات إلى بلادهم، وقد ذكر ابن إياس أسماء كثير من هؤلاء، وقال إنهم قد يبلغون الثمانمائة والألف، وغرقت بعض السفن التي كانت تحملهم فمات كثير منهم، وكان من نتائج الفتح أيضاً أن انتقلت الخلافة من مصر إلى القسطنطينية بإرسال أمير المؤمنين المتوكل على الله وأولاد عمه إلى قاعدة العثمانيين، فأصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت حاضرة الشرق ومركز الثقافة الإسلامية.

وكان من نتائج الفتح أن قلَّت أموال الأوقاف التي كانت محبوسة على العلماء وطلبة العلم، ففتقر الطلاب وانقضت سوق العلم، ولم يبق منه إلا ذمامة بالأزهر الشريف.

ولم تلق العربية في ذلك العهد من يأخذ بيدها، لأن اللغة التركية حلَّت محلها، وأصبحت لغة الكتابة والدواوين، وغزتها بكثير من الكلمات التركية التي تفتشت في كتابة الأدباء في ذلك الحين نظرًا وتشتبها بمحاكاة الغالبين، وطوى بساط ديوان الإنشاء الذي كان له الفضل الأكبر في إحياء العربية وأدائها.

النثر

كنا نعيب النثر في عهد المماليك بإبعاده في التكلف، وإغراقه في التحلي بصنوف البديع، فماذا نقول اليوم وقد عجز الكتاب عن أن يصلوا إلى هذه المرتبة؟ فحاولوا تكلف البديع فلم يستطيعوا أن يأتوا بشيء له قيمة فنية، وتردوا في الخفيض، وأتوا بالغث السمج، الذي إن حسن فيه شيء كان سرقة واغتصاباً من بقايا آثار من سبقوهم من الكاتبيين. على أن الضعف في اللغة وأصولها تدلُّ إلى ذلك صار فيه كثير من الكتاب عاجزاً عن التحرُّز من اللحن، والنجاة من أرواء العجمة والعجى والجهل، وماذا يكتب الكاتب أو يُبدع الفنان والخوف يملأ جوانبه، والناس لاهون عن الاستماع إليه بما هم فيه من أمر مريب؟ وإن من حق العربية علينا أن نُطيل الوقوف هنا على أطلالها الدارسة، وآثارها الطامسة، وأن نذكر وهي تتمشى إلى قبرها في ضعف وهُزال ما كان لها من مجد كان جمال العصور، وزينة الممالك، وفخر الأجيال، وما كان لها في شبابها من حسن بهر الألباب، وسحر العقول.

وكان النثر مع هذا مُقفرًا من المعاني السريّة خاوياً من الأساليب الناصعة، وأصبحت موضوعاته لا تخرج عن الرسائل الإخوانية إلا قليلاً، وسنلقى عليك مثالا من أمثلة الكتابة في هذا العصر ثم نترك لك الحكم.

فما كتبه عبد الوهاب الحلبي إلى الشهاب الخفاجي قوله :

مثال من النثر : «لقد طفحت أفئدة العلماء بشرًا، وارتاحت أسرار الكاتبيين سرًا وجهراً، وأفعمت من المسرة صدور الصدور، وطارت الفضائل بأجنحة السرور، يئمن قدوم من اخضررت رياض التحقيق بأفئداه، وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه».

وعلى هذا النمط كان يُصاغ الكلام، وتنافس فيه الأقلام.

الشعر

أما الشعرُ فسكنتُ بلابله وضوّحتُ رياضُه ، وحال نظماً خالياً من روعة المعاني ، قفراً من بدائع الصناعة ، ولا عجب فإنّ الفنّون لا تزدهر إلا حيث تطمئن القلوب وتهدأ النفوس ، ويكثرُ الخير وتسهل أسباب الحياة . أرايتَ الطائرَ الغردَ يُغنّي بين حفيف السّهام ؟ أرايتَ الزهرَ يبتسّم وقد ألوث به العواصفُ ولقّحتَه السّمام ، وقد كان الأولون يقولون : إنَّ اللّهُ تَفَتَّحَ اللّهُا وقد قلَّ العطاءُ في ذلك العصر وانقطعت صلاتُ الشعراء .

وكان الشعر في هذا العصر محاكاةً للعصر السابق ، وأغلبه في الغزل الصناعي والإخوانيات . وأشهرُ شعراء هذا العصر :

(١) الشهاب الخفاجي

هو أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجي المصري ، ولد بسرياقوس وتلقّى دروسه بالقاهرة ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين ، ثم الإسفانة ، وتعيّن قاضياً على الروملى ثم في سلانيك ، وعينه السلطان مراد قاضياً للعسكر بمصر ، ثم استقال وسافر إلى دمشق فحلب فالإسفانة ، وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ . وكان أديب عصره عالماً باللغة وعلومها كاتباً شاعراً مؤلفاً . ومن أشهر مؤلفاته « ربحانة الألباء » وهو كتاب يشتمل على تراجم لبعض أديباء عصره ، ثم « شفاء الغليل بيا في لغة العرب من الدخيل » جمع فيه طائفة من الألفاظ الدخيلة والمعرّبة ، وضمّنه مباحث مفيدة .

ومن شعره قوله :

وحينى كما تـــــــرون حينى
زاد عن فكرتى ففاضت عيوني

إنّ وجليدى بمصر وجلدٌ مُقيمٌ
لم يزل في خيالى النيل حتى

وقوله :

وليس لغير السُّمْرِ في الحرب يفرش
من الدّلّ في روض المحاسن تنعّس
وصارث جميعاً أعيناً لك تحرّش

فدبتك يامن بالشجاعة يرتدى
وإن عَشِقَ الناس المَهْما وعبوثها
فليرثك قد ضَمَنَتْك ضمة عاشق

وقوله مُضمناً :

إياك فيها المشى فهو مُحَرَّمٌ
(ولأجل عين ألف عين تكـرم)

ياصاح إن وافيت روضة نرجس
حكاك عيون معذبى بدبوها

(٢) ابن منجك

قال شهاب الدين الخفاجي في ربحانة الألباء :

« الأمير محمد بن منجك الجركسي أصلاً ومختلاً، الشامي منشأً ومولداً، أديب أريب، ونجيب وابن نجيب، أورق عوده بالشام وأثمر، فإذا عُدَّت السجايا عرَضاً فسجاياه جوهر، نشأ بها والدهر أبيض أقر، ونادى العيش والعيش أخضر، وللبقاع تأثير في الطباع، والعِرْقُ كما قيل لَمَغْرِيس نَزَّاع، ومن كان جَارَ الرِّياض، لَيْسَ طَبْعُ بُرْدٍ نَسِيمِها الفَضْفَاض، كما لَيْسَ النهر الجارى، درع النسيم السارى

وقد نَسَجَتْ كَفَّ النسيم مُفَاضَةً عليه وما غيَّرَ الحَبَابُ لها حَلَقَ

وقد صَحِنِي بِحَلَقِ نَسِيمِهِ سَجَسَج، وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تُنْسَج، ولا زَمَنِي إِذْ رَأَى انعطافى عليه، وشبه الشيء منجذب إليه ».

وقد اختار له الخفاجي طائفة كبيرة من الشعر نكتفى منها بالصور الآتية التى تدل على علو كعبه فى الشعر وأنه كان فيه نادرة عصره من ذلك قوله :

سَقَى اللهُ يَوْمَ القصرِ إِذْ كان بيننا
بروض يحول الماء تحت ظلاله
يلوح به قانى الشقيق وقد حَكَى
ويهمى به قطر الندى فتَحَالَه
وربحانته الغض الشهى كأنه
حديث كمرقض الجمان المنضد
كأيم مروج أو حُسام مُجَرَّد
لواحظ خمور كحلن بإثمد
مبدد عقيد فى فراش زُمَرْد
مبادى عذار فوق خد مؤد

وقوله :

لا تنسِم بالسوء دهرَكَ إِنَّه
ماتَكَ الدنيا وفعلَكَ صورة
جبل مجيب صدك منه صداء
فيها فى الشنعاء والحسناء ؟

وقوله :

قصر الأمير بوادى النيرين سقى
كم مرلى فيك أيام هواجرها
حيث الشبيبة بكر فى غضارتها
حيث الرياض تغننى حمامها
حيث الخمائل أفسلاك بها طلعت
رُبَاكَ عني من الوُسْمي مدراء
أصائل ولياليهن أسحار
وللصباية أحلاف وأنصار
بالدف والجنك والمتشور لى جار
زهر من الزهر والنذمان أقمار

توفى سنة ١٠٨٠ هـ .

(٣) عبد الله الشبراوى

هو عبد الله بن شرف الدين الشبراوى القاهري، من أكابر مشيخة الأزهر، وهو شاعر رقيق جذاب، في شعره لين وسهولة، وأغلبه في المدائح النبوية ومدائح أهل البيت، توفي سنة ١١٧٢ هـ ومن شعره :

مستجيرًا بجهاكم لا يرُدُّ
ليس لي مذهب سواه وعقد
ككون من فيض فضلكم يستمدُّ
سي ومنكم نور النبوة يدو
ما لكم فيه آل ياسين نمدُّ
لك افتخارًا وأنت للفخر عقد
لشريف أو مثل جددك جدُّ

آل طه ومن يقل آل طه
حبكم مذهبى وعقد يقينى
منكم استمدُّ بل كل من فى الـ
يتكم مهبط الرسالة والوحد
ولكم فى الثلا مقام رفيع
يا ابن بنت الرسول من ذا يضاهيه
يا حسينا هل مثل أمك أم

وبما قاله مؤرخًا فى رثاء أحمد الدلنجاوى :

وقد سكن الدلنجاوى كحده ؟
وأصبح ساكنًا فى القبر عنده
فقد أرخت مات الشعر بعده

سألت الشعر هل لك من صديقي
فصاح وتخر مغشياً عليه
فقلت لمن أراد الشعر أقصر

سنة ١١٢٣ هـ

ومن قوله يعتذر إلى بعض مشايخه :

غير أنسى بحلمكم أستجير
واعترانى من الحياء تغير
ن ولكن جرى به المقدور
ثم إنسى أعيانى التأخير
تجلاً حين عمتى التقصير
فمسي أن يصح قلب كسير
ولسانى عن اعتذارى قصير
كان منى والحلم عنكم شهير
كل ذنب لديكم مغفور

إن ذنبى والله ذنب كبير
ضاق صدرى وأججل الذنب وجهى
وتأسفت حين كان الذى كما
وتأخرت عن لقاءكم حياء
وتركت الحضور بين يديكم
لكن العفو ليس يبعد عنكم
إن ظننى والله فيكم جميل
سعة الصدر قد دعتنى إلى ما
شيمة الأكرمين عفو وصفح

النسائفة

نزل النسائفة عن مرتبته كثرًا، واقتصر على أن يكون تطويلاً لموجز أو اختصاراً لمطوّل، إلا في القليل النادر.

الزبيدي

ومن أشهر المؤلفين في هذا العصر الشهاب الخفاجي وقد مرت ترجمته، ثم الزبيدي وهو محمد بن محمد الشهير بالمرتضى الحسيني الزبيدي، ولد سنة ١١٤٥ هـ، ونشأ باليمن، ورحل في طلب العلم فنزل مصر سنة ١١٦٧ هـ، واشتهر أمره وعلا ذكره بين العلماء والأمراء وألف رحلات لأسفاره، ثم تجرّد لشرح القاموس المحيط فأتمه في سنين عدّة، وسماه «تاج العروس» ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب مكتبته في جامعته، أوّز إليه أن يفتّح تاج العروس فاشتراه من مؤلفه بمائة ألف درهم، وكان السيد مرتضى يعرف التركية والفارسية والكردية، وقد عوّل في شرح القاموس على لسان العرب، واستدرك على صاحب القاموس بعد كل مادة ما غفل عن ذكره من المفردات اللغوية.

ومن مؤلفاته «إنحاف السادة المتقين» وهو شرح لإحياء العلوم للغزالي توفي سنة ١٢٠٥ هـ.

عبد القادر البغدادي

ومن كبار المؤلفين في هذا العصر عبد القادر بن عمر البغدادي، درس بدمشق، وتردد على القاهرة، ثم رحل إلى أدرنة واتصل برجال الدولة التركية، ثم عاد إلى القاهرة ومات فيها سنة ١٠٩٣ هـ.

وكان غزير المادة في اللغة والأدب، محباً لاقتناء الكتب، فكانت خزانة كتبه تشتمل على كثير من الكتب الثمينة النادرة، وأشهر مؤلفاته «خزانة الأدب ولُبُّ لسان العرب»، وقد شرح في هذا الكتاب شواهد شرح الكافية، وضمّن كثيراً من تراجم الشعراء والأدباء في الجاهلية وصدر الإسلام، والكتاب جليل القيمة جداً يدل على علم واسع ودقة وتحصيل.

على باشا مبارك (٥)

في حجرة واسعة تصان بها الكتب بدار العلوم، يرى الداخل في أول ملتقى بصره صورة زيتية لشيخ جليل. تحف به المهابة، وتغضى لرؤيته العيون. تلك صورة المرحوم على مبارك باشا العالم الرياضي المهندس المؤرخ الأديب.

ترونه في هذه الصورة، وقد تجاوز الستين، مظهرًا للقوة الجسمية، ومثالاً لحدة الذهن ونفوذه، سوى الخلق، قويم القامة، طويلًا طرمحا. وقديماً قالوا: «إن أعزاء الرجال طياها». عريض المنكبين، لم تقوئس الأيام قناته، ولم يصوح الدهر نباته، يمثل المصري الصريح في وجهه وجسمه وسمته؛ جبين واسع يكاد يشف عما تحته من علم زاخر، ورأى ثاقب، كأن غضونه سطور دونتها التجارب، وخطتها يمين الأيام، وحاجبان مقرونان غزر شعرهما، وقد وخطه الشيب، يظلال عينين لها نظرة تحار في تأويل معناها. وتبين مرماها: ففيها الجد، وفيها الإرادة الحكيمة المبصرة، وفيها الطموح والاستهانة بالقليل المبدول. وأنف قويم المارن يكاد يوصف بالضخامة لولا ملاءمته بقية مظاهر وجهه. وشارب أثيث الشعر، شمله الشيب، تحته فم أفوه، انفرجت شفته السفلى قليلاً كأنها كانت تحاول الابتسام فصدها الجد، ودهمتها صرامة الرجولة، فوقفت بين الإقدام والإحجام. ولحية كثة جثة، سطع فيها صبح المشيب، فتركها في نقاء صحف الأبرار، وبياض أيادي الكرام.

ذلكم هو على مبارك باشا الذي ستتحدث في حياته الليلة، وقد أغنى - رحمه الله - الباحثين بعده عن تنسم أخبار حياته، وتلقفها مبدلة عرفة من أفواه أهل عصره، فكتب ترجمة حياته بقلمه إلى قبيل وفاته بخمس سنين. وقد بسط فيها القول في أحوال صباه ونشأته الأولى، مما لم يظفر به التاريخ لغيره من عظماء الرجال. ولو أن كل عظيم سلك هذه السبيل لأسدى إلى الأدب والتاريخ إرثًا مجيدًا. وقد

(*) محاضرة أُلقيت في محطة الإذاعة ونشرت بصحيفة «دار العلوم» عدد يناير ١٩٣٥ م من ص ٢٧ إلى ص ٣٣.

كانت سنة بعض العلماء في الأعصار الماضية أن يدونوا حياتهم بأنفسهم، كما فعل أسامة بن منقذ وجلال الدين السيوطي. ولكن هذه السنة المحمودة لم يتنفس بها العُمُر، ولم تبق عليها الأيام.

ولد المرحوم على مبارك باشا بقرية برنبال الجديدة بمديرية الدقهلية، سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية، من أسرة اشتهرت بحفظ القرآن الكريم، والتفقه في الدين، فكانت فيها إمامة الصلاة والخطبة والقضاء بين الناس؛ لذلك كانت تسمى بأسرة المشايخ، وكان لها نصيب غير قليل من إجلال الحكام والمحكومين، ثم عصف الدهر بهذه الأسرة، واشتد بها العسر والضيق، فرحل أبو المترجم، الشيخ مبارك الروحي، بأسرته إلى الشرقية، ثم استقر في جوار عرب الساعنة يفقههم في دينهم، ويؤمهم في صلواتهم. ولما بلغ المترجم الخامسة أرسله أبوه إلى شيخ أعمى ليلقنه مبادئ القراءة، ثم بعث به إلى شيخ مقيم بالقرب من مساكن العرب. وكان أبوه يزوده ما يكفيه من طعام مدة أسبوع يقيمها في كنف أستاذه الجديد. فكان يزور أهله يوم الجمعة، ولا يعود إلى شيخه في ذلك اليوم - كما يقول - فارغ اليد خوف شره وأذاه.

بنفسى ذلك الطفل وقد حمل ما حمل من قليل المتاع، تاركاً أمه وما يلقيه في ظلها من رفق وحنان وعطف، هو كل ما يهفو إليه الطفل في السادسة والسابعة، إلى شيخ حطم لا يتكلم إلا بلغة العصا، ولا يعرف من وسائل التهذيب غير الإرهاب والتعذيب. ولقد كان ذلك المعلم عنيفاً أشد العنف، خيفاً أشد الإخافة، فما أقام على منقما تحت حكمه ستين، ختم فيهما القرآن الكريم وهو في الثامنة أو التاسعة، حتى كره العلم والتعلم، وعقد العزيمة صارمة على ألا يعود إليه. وأتمت ترون هذه العزيمة متجلية في كلماته القليلة حين يقول: «ثم لكثرة ضربه لي تركته وأبيت أن أذهب إليه بعد ذلك». وحينما أجبره أبوه على الذهاب نوى الهرب، فما زال به أهله حتى صارحهم بأنه لا يود أن يكون فقيها، ولكنه يريد أن يكون كاتباً. فأسلمه أبوه إلى كاتب زراعة ليعلمه الخط والحساب؛ فقام على عنده عتسا من شظف العيش والجوع والمهانة والخدمة، وقد حدث أن سأله الكاتب مرة ما جُذاء الواحد في الواحد؟ أى ما حاصل ضربهما؟ فأجاب على متلعثماً خائفاً: اثنان. وكان بيد الكاتب مقلاة فضربه بها فشج رأسه؛ فذهب على يشكو إلى أبيه فلم ينصفه، فقرّ وهو في نحو التاسعة من عمره تحت ستار الليل هائماً تتقاذفه الهموم، وتطوّح به الأوجال؛ وقد أصيب في طريقه بالهزيمة المعوية (الكوليرا)، فعطف عليه رجل وآواه مدة مرضه، حتى إذا أبلّ وعثر عليه أهله بعد البحث عنه عاد إليهم. وبعد سنة عمل مساعدًا لكاتب بمأمورية أبى كبير، وكان راتبه خمسة وعشرين قرشاً في الشهر، فأقام عنده ثلاثة أشهر في بؤس وضنك لا يأخذ من راتبه شيئاً، ولما أخذ حقه بيده من أموال حصّلها غضب الكاتب عليه، وأغرى به المأمور فألقى به في السجن، ولم ينقذه منه إلا خادماً عنبر افندى مأمور زراعة القطن بنواحي أبى كبير؛ فأقام كاتباً عند عنبر هذا براتب قدره خمسة وسبعون قرشاً في الشهر. وهو هنا يحدثنا عما كان يجول في نفسه فيقول: «إن الكتابة والمهنية كانت هى السبب

فى سجنى ووضف الحديف فى رقبتى؁ وقد وءفء هءا المأمور ءلصنى من ذلك؁ فلو فعل المأمور معى مثل ما فعل الكاءب فمن يءلصنى ؟ وكاءت همى فى الءلص من كل ذلك وأمئاله؁ وأوء أن أكون بءالة لا ذل فىها ولا ءءشى ءوائلها» .

وقء أءبره فراش المأمور أن سىءه إنما نال تلك المنزلة لأنه ءعلم بمءرسة قصر ابن العىنى الءى افءءءها عزىز مصر محمد على باشا؁ وأن الءكام إنما يؤءءون من المءارس ؛ فأىقف ذلك فى نفسه آمالا نىامًا . فءاءر عمله وهو فىه المءب المكرم وءلى ساقىه الءءلءن للرىء ءى بلء قرىة منىة العز فكاءت - كما ىقول - فالأء ءسنا . وءءل مءبها؁ وقد ءاول أبوه أن ىءرءه منه وىعوبه به إلى ءعلم الءىن أو الاءءغال بالءءابة فأبى علىءه وصىم ؛ فاهءبل أبوه فرصة ءروءه وقت الظهر واءطفه؁ وءهب به إلى بلءءه وءبسه فى الءار ءشرة أىام . وهو هنا ىقول : «كل ذلك ووالءءى ءبكى منى وعلى؁ وءسءطفنى فى الرءوع عما ىوجب فراقهم . وءءلفنى أن أءءع عن هءه النىة ؛ فوءءءها بالرءوع عن ذلك إرضاء لءاطرها . فاطلقونى وكاءت لنا ءنىاء صرء أرماعها؁ وأبعءونى عن ءرفة الءءابة» .

ولو أن علىًا سكن إلى هءه الءىة واستمرًا البءالة لءءىر وءه الءارىء؁ ولكان على مصر أن ءءء عن على مبارك آءر ىضع نظاما لءءافءها؁ وىرسم الطرىق لئهووضها العلمى .

ولكن القءر أبى إلا أن ىسمو بءلامنا الصءىر؁ لأن علىًا أبى أن ىكءفى من الءىة برعى ءنىاء ءءاف ؛ وكأنها كءشف له فى ذلك الوقت أنه سىكون راعىا للءقول؁ مهءبًا للنفوس؁ ىءنقل بها فى مروج العلم . وىورءها نمىر الءىة الصافى . فءسربل اللىل وءرء من ءاره ءائفًا ىءرب ءى بلء مءب منىة العز ءانىة ؛ وكان أنءب ءلامىءه؁ فاءءىر مع طافءة من الءءباء لمءرسة قصر ابن العىنى فى سنة إءءى وءسىن وماءىن وألف؁ وكان ءمره اءءى ءشرة سنة فأقام بهءه المءرسة سءىن لقى فىها الآما وشءاءء؁ ثم انءقل إلى مءرسة أبى زءبل؁ وىقى بها ءلاء سنواء . . ثم اءءىر لمءرسة الهندسة بىولاق؁ فمكء بها ءمس سنىن كان فىها ءائًا أول فرءه . وفى سنة سءىن وماءىن وألف ءزم المءفور له محمد على باشا على إرسال أنءاله إلى فرنسا لىءعلموا بها؁ وصدء أمره باءءخاب فرىق من ءءباء الطلبة لىسافر معهم؁ وكان على مبارك من هءا الفرىق؁ فسافر إلى فرنسا؁ وكان راءىه فى البءئة ءمسىن وماءىى قرش فى الشهر ءعل نصفها لأهله . وقد ءرس فى فرنسا الهندسة العسكرىة والمءنىة . وكان مفاءء العىنىن ءقىق الملاءظة؁ فأفاء مصر بمشاهءاءه شىئًا كءىرًا . وفى سنة سء وىسءىن وماءىن وألف ءاء إلى مصر وعىن مءرسًا بمءرسة طرا ؛ وفى هءا الءىن ءزم على زىارة أهله؁ وئحن نءركه ىقص علىكم نبأ هءه الزىارة إءىقول :

«ءهبء إلى بلءءنا برىبال؁ وكان أهلى قد رءعوا إليها قبل ذلك بمءة؁ فوءءء أن أبى قد سافر إلى مصر لزىارءى؁ ولم أءء فى المنزل إلا والءى وبعض لإءوى؁ وكان ءءولى علىهم لىلا؁ فطرء الباب

فقيل: من أنت؟ فقلت: ابنكم على مبارك. وكانت مدة مفارقتي لأُمِّي أربع عشرة سنة لم ترني فيها ولم تسمع صوتي، فقامت مدهوشة إلى الباب وجعلت تنظر وتحد النظر، وكنت بقيافة العسكرية الفرنسية لابسا سيفا وكسوة تشریف؛ وكررت السؤال حتى عرفت صوتي، ففتحت الباب وعانقتني ووقعت مغشياً عليها، ثم أفادت وجعلت تبكي وتضحك وتزغرت، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران وامتلأ المنزل ناسا، وبقينا كذلك إلى الصباح والناس بين ذاهب وآيب».

وبعد هذه الزيارة اتصل بمعية المغفور له عباس باشا الأول، وقام بأعمال هندسية كثيرة. ووضع نظاما للمدارس الملكية تبلغ نفقاته ألف كيس. فاختره عباس الأول ناظرًا للمدارس الملكية، فقام بأعباء العمل على خير الوجوه مشرفا ومعلما ومرشدًا ومؤلفًا وطابع كتب. وكان ما أصابه في نشأته الأولى من ويلات التعليم وسوء النظام وقسوة المعلمين كان حافزًا له على الإصلاح. ولما تولى المغفور له سعيد باشا عزله من نظارة المدارس، وأمره أن يرافق الجيش إلى تركيا لمحاربة الروسيا، فأقام هناك نحو سنتين، قاسى فيها شدائد وأهوالا، وعند عودته إلى مصر فصل من الخدمة، فسكن بيتًا صغيرًا، وعاد إلى ما كان عليه أولا من الفقر والضيق، وذهب عنه - كما يقول - ما رأى من الأموال والمناصب. ثم عاد إلى العمل، وتنقل في مناصب كان منها أن عين معلما للضباط يلقنهم مبادئ القراءة والكتابة، فكان يخط لهم الحروف أحيانا على الأرض وأحيانا بالفحم على البلاط، ثم فصل، وقد كثرت نفقاته في ذلك الوقت وأهبطه الدين، فاشتغل بالتجارة. فكان يشتري بالمزاد ما تبيعه الحكومة من عقار وأدوات وكتب ويبيعه للتجار فربح وغنم. ولما تولى المغفور له إسماعيل باشا وصله بمعيته وعينه ناظرًا للقناطر الخيرية، ثم أضاف إليه إدارة السكك الحديدية، وإدارة المدارس، وإدارة ديوان الأشغال، ثم نظارة عموم الأوقاف. تلك خمسة مناصب كاملة قام فيها جميعًا بضروب شتى من الإصلاح وبخاصة التعليم. فقد وضع نظامًا لإصلاح المكاتب الأهلية في المدن والقرى، وأوجد للمدارس مطبعة حروف ومطبعة حجر لطبع كتبها، وأنشأ دار العلوم، وأسس بإشارة الخديوى إسماعيل باشا دار الكتب العامة، جمع فيها نواذر الكتب ونفائسها التي كانت مفرقة في المساجد والخزائن الخاصة، وخصص بها معرضًا لآلات العلوم الطبيعية والهندسية، وضبط الأوقاف في أنحاء القطر، وبذل جهدًا مشكورًا في إحيائها وصيانتها، واستصدر أمرًا خديويًا بتنظيم الشوارع ورصفها، وتحلية المدينة بالمتنزهات والميادين. وأنشئت في أيامه ترعة الإبراهيمية والإسماعيلية.

وما زال يتنقل في المناصب، ويفصل عنها، حتى قلد نظارة المعارف، سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية، واستمر عاملا بها ثلاث سنوات. وفي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وافته المنية. فكان الحزن عليه عاما شاملا.

والوقت لا يتسع لدراسة أخلاقه الكريمة بإسهاب وتفصيل، ولكننا نستنبط، موجزين، أنه كان بعيد الآمال، قوى الإرادة، شديد الثقة بنفسه ومواهبه، راسخ الإيمان بالله، رضى النفس مطمئنا،

وثابا إلى الإصلاح ، لا تفتر همته ولا تنى عزمته ، قوى الملاحظة واسع الفكر ، خصيب الإنتاج مشغوقاً بالتجديد ، وكان شعاره الدقة وحسن النظام ، مجتداً مشمراً فهو حركة دائمة ، وقوة دائبة ، وكان بصيراً بأقدار الرجال ، باراً بأهله ، شقيقاً بالضعفاء والفقراء . وكانت داره ندوة علم وأدب للمعلمين والطلاب ، يطارحهم العلم ، ويوضح لهم السبيل .

ومن أشهر مؤلفاته الخطط التوفيقية ، وعلم الدين ، وآثار الإسلام في المدنية والعمران ، ثم كثير من الكتب المدرسية والهندسية .
رحمه الله رحمة واسعة .

الشاعر أبو الطيب (*)

طلب إلى أن أكتب في إحدى نواحي أبي الطيب المتنبي، وأعلم أن الناس في القديم والحديث كتبوا عنه كثيرا، وأن شعره نال من عناية الأدباء وبحوثهم وجدلهم ما لم ينله شعر قبله ولا بعده وأن كتبنا ضخاما ألقت في كل ناحية من نواحي الرجل والشاعر، حتى لقد يسبق إلى الوهم أن كل قول فيه يكون معادًا، وأن كل نظرة فيه تقع على نظرات سبقتها إليه من قرون، ولكن المتنبي الضخم يعز على من رامه ويطول، فهو الجبل الأشم أينما قلبت فيه النظر رأيت عجبًا، وكيفما ملت برأسك إلى ناحية من نواحيه رأيت جديدًا، وهو البحر الخضم تقف عند ساحله فيبهرك ما ترى من عظم، ويفتلك ما تشاهد من ألوان، ثم أنت لا تزال ترسل النظرة في أثر النظرة فلا تعود كل واحدة منها إلا بمعنى جديد، وفن في الحسن بديع، ولأمر ما كان المتنبي يقول في ثقة ويقين:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراحها ويختصم

فكيف كتب الكاتبون في المتنبي لا تزال فيه مجالات للقول، ولا يزال يطل عليك من مشارف أبياته معنى سرى في ثوب من البيان قشيب يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا، والمتنبي وبيننا وبينه ألف سنة أو تزيد يطغى على الزمن قوة، ويزهو على الأيام جدة وما يزال نقرؤه سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بعد الألف فنهتز له كما اهتز سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، ولا يزال يهمس في الأذن بالحكمة النادرة والقولة الحكيمة وقد مشت فوق رؤوس الحقب، وخاضت إلينا مفاوز القرون، وكانت لدة الدهر في شببيته، ثم جاءت إلينا من ذلك المكان البعيد الذي نسميه الماضي وقد زادها القدم جدة، وخلع عليها تعاقب الأعوام بردين من جلال ويقين:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر

(*) نشرت بمجلة «الهلal» بالمجلد رقم ٤٣ ص ١١٤٤ عام ١٩٣٥ م.

ولا تحسن المجد زقنا وقينة
وتركك في الدنيا دويًا كأنها
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
تداول سمع المرء أنمله العشر

نقرأ المتنبي فنحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها، ويكشف لكل سريرة مطوى أخبارها، وكثيراً ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها، ونسمع في النفس ديبها ولكننا كنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها، وهي منا على طرف الثام، ومن أخبر بهمسات النفوس من أبي الطيب؟ ومن هو أقدر منه على كشف جولات الخواطر:

يرتنى السرى برى المدى فرددنى
وأبصر من زرقاء جـو لأننى
أخف على المركوب من نفسى جرمى
متى نظرت عيناى ساواهما علمى

ألف سنة تمر تطوى فيها أمم وتنشر أمم، وينقل فيها العقل الإنسانى فى أطوار شتى يححو بعضها بعضاً، وتتبدل العادات غير العادات والأفكار غير الأفكار، والمتنبى لا يزال يقرأ ويقرأ ويجد فيه كل عصر طلبته من غذاء روحى تطمئن به النفس وترتاح إليه الضمائر.

مضى سيف الدولة ومضت آثاره، وذهب كافور وانطوت أيامه. وأين على الحاجب هذا الذى أجاز المتنبي على قصيدة من روائع شعره بدينار واحد؟ ذهب هؤلاء جميعاً وبقي ذكر المتنبي كالصخرة العبوس ينفرج أمامها زحام الأيام، وتنكص دونها صروف السنين:

وعندى لك الشرد السائرا
قواف إذا سرن عن مقولى
ت لا يختصن من الأرض دارا
وثبن الجبال وخضن البحارا
ولى فيك ما لم يقل قائل
وما لم يسر قمر حيث سارا

فالمتنبى عظيم وأريد فى هذا المقال أن أكشف عن قليل من سر هذه العظمة، وأن أبين بقدر ما فى قلمى شيئاً من ضخامة هذا الشاعر وقوته التى عصفت بشعراء عصره، وحجبتهم بفبارها، وما كانوا خاملين ولا كانوا مقصرين، وفيهم السرى الرفاء وكشاجم والنامى والدمشقى والسعدى وأمثالهم من كبار الشعراء ولكنهم السهم الغائر، والجد العائر، أن تعيش فى عصر ينجم فيه نابغ يملأ الدنيا صخباً ولبجاً، وينثر درر بدائعه يميناً وشمالاً فيصغى إليه الدهر وتشخص له الأبصار وتبقى أنت مغموراً فى الزحام لا تعدم وكزة من مغامر أو ركلة من مزاحم فى ذلك الخضم الزاخر الرجاف، والدنيا أم إذا برزت مواهب أحد أبنائها انصرفت إليه بتدليلها، وطوقته بحنانها نابذة أبناءها الآخرين الذين قصر بهم المدى وقعد بهم الجدد العثور.

وكان المتنبي شاعراً بتلك العظمة وذلك النبوغ النادر فتحدى شعراء عصره فى صلف لا يطاق وجبرية لا تحتمل:

إذا شاء أن يلهو بلحجة أحق
ولا تبال بشعر بعد شاعره
أراه غبارى ثم قال له الحق
قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وأظهر ما يمتاز به شعر أبي الطيب القوة والروعة والابتكار والتزوع إلى غاية لم يصل إليها الشعراء من قبل، والقدرة على إرسال المثل، ودقة الوصف والتصرف في المعنى القديم حتى يعود غصًا جديدًا. وقد تجدد لكل شاعر في كل قصيدة قالها بيتًا أو أبياتًا قليلة تعد من عيون الشعر وبدايعه، أما المتنبي فلا تجدد له في كل قصيدة إلا بيتًا أو أبياتًا قليلة لم تصل إلى شأوه البعيد، والباقي الكثير من القصيدة غرر ودرر، فهو إذا مدح يقول:

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنت الدنيا بأنك خالد

فالناس يمدحون الملوك بالشجاعة والإقدام وكثرة الغزوات وأن النصر معقود بلوائهم، ولكن المتنبي يترك كل هذا ليتناول به صغار الفنانين ويصعد في المدح بهذه المعاني إلى أفق أعلى تظهر فيه خصائصه وتتميز مواهبه فيجعل قتل الأعداء نهبًا لأعمارهم واغتصابًا لها، ثم يدفعه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة اتصل بعضها ببعض فكونت عمرًا طويلًا غير محدود ثم يرتقى إلى أوج أسمى فيفرض أن سيف الدولة وهب هذه الأعمار غير المتناهية التي انتزعها من أعدائه ولا يكتفى بأن هذا - إن تم - يصل به إلى الخلود بل يدعى أن الدنيا بمن فيها وما فيها تنهأ بهذا الخلود. ثم ما أجل تصوير النصر المحقق في قوله بعد هذا البيت:

فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد
ثم انظر إليه حين يقول في سيف الدولة:

أتحسب بيض الهند أصلك أصلها وأنت منها ساء ما تتوهم
إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه في أغمادها تبسم

وقد اتخذ المتنبي من اسم سيف الدولة سبلا شتى للافتنان في مديحه والمائلة بينه وبين السيوف فأجاد في كثير من ذلك وحلق، ومثل هذه الفرص تعرض لكثير من الشعراء، وبجال القول فيها حين إذا لم يتجاوز الشاعر اللعب باللفظ على نحو رخيص من التخيل، أما المتنبي فليس من هذا الصنف ولا من ذلك الطابع. استمع له وهو يتهمك بسيوف الهند حين تظن كذبًا وغرورًا وتلمسًا لشرف الاتصال بسيف الدولة أنها هي وسيف الدولة من أصل واحد فكلاهما قاطع بتار، وكأنني أسمع تهاته في سخرية واستهزاء حين يقول: «ساء ما تتوهم» وهنا موطن قوته وصرامته الشعرية، فأكثر ما تظهر في هذه الجمل القصيرة المفصلة التي لها وقع السهام، ثم يصعد إلى أفق لا تسافر إليه الظنون فيقول إن هذه السيوف تكتفى من الشرف بأن اسمك وافق اسمها فإذا سميناك خلناها بتبسم في أغمادها تيهًا وعجبًا.

ثم خذ مثالًا آخر في مدح كافور:

إذا طلبوا جدواك أعطوا وحكموا وإن طلبوا الفضل الذي فيك خيوا
ولو جاز أن يحووا علاك وهبتها ولكن من الأشياء ما ليس يوهب

أستطيع شاعر أن يصور الصفح والتجاوز وعظم النفس هذا التصوير؟ إن حسادك وأعداءك إذا سألوك العطاء أعطيت وأغدقت وسألتهم أن يتحكموا فيما يطلبون، ولكنهم لو طلبوا أن ينالوا ما فيك من كريم الشيم وعلى الهمم ردوا خائبين لا ضنا منك ولا بخلا، فلو كان في استطاعتك أن تمنحهم إياها لفعلت «ولكن من الأشياء ما ليس يوهب» .

وفي هذه الجملة القصيرة أيضًا تظهر قوة الشاعر وشدة أسره .

ومن أبدع ما قاله في المديح :

مأثما من نواله الشرق والغرب ب ومن خوفه قلوب الرجال
قابضاً كفه اليمين على الدنـ سيا ولو شاء حازها بالشمال

نتقل بك إلى الوصف ولنبدأ بهذه الأبيات :

وذى لجب لا ذو الجناح أمامه بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهي ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا صوّها لاقى من الطير فرجة تَدَوَّر فوق البيض مثل الدراهم
ويخفى عليك الرعد والبرق فوقه من اللمع في حافاتِه والهامهم

برع المتنبي في وصف الجيوش والوقائع ، ما في ذلك شك ، فقد كان يحمل بين جنبيه نفساً نزاعة إلى القتال تدفعها الآمال الكبار، وكانت وقائع سيف الدولة مع الروم حافزة لهذه النفس مؤججة لتلك الجذوة، ولو حاولنا أن نختار له خير ما قاله في هذه الناحية لطال المقال، ولكننا نكتفى بالأبيات التي قدمنا فيها قوة وفيها جمال شعري وفيها وصف دقيق . ما أروع أسلوبه في البيت الأول ! وما أجمل ما فيه من تقسيم وتنسيق، فالجيش كثير العدد كثير اللجب تنهاوى قذائفه، أثار الوحوش من مكانها والطيور من أوكارها، فلا ذو الجناح بناج من سهامه المترامية ولا الوحش بسالمة من عديده الخضم، ثار فيه الغبار فسد الأفق وعلا في السماء فكسف الشمس، فهي تمر عليه ضعيفة ضئيلة الضوء، فإذا أطلت عليه فإنها تطل من بين ريش النسور التي حلقت فوقه لوثوقها بنصره وشدة طمعها في جثث أعدائه، وقد شرح هذا المعنى في قصيدة أخرى وجلاه فقال :

يطمع الطير فيهم طول أكلهم حتى تكاد على أحيائهم تقع
وهذه الشمس إذا وفقت إلى فرجة بين أجنحة النسور سقطت أضواؤها على الخوذات مدورة كالدرهم، وهذا تشبيه يدل على دقة الملاحظة وأن المشاهدة الدقيقة لمظاهر الأشياء كان لها أثر بعيد في تكوين المتنبي، وقد أعاد هذا المعنى في قصيدة شعب يوان فقال :

والتقى الشرق منها في ثيابي دنسانيرًا تنفر من البنان

ثم إن هذا الجيش كثرت فيه هممة الأبطال، وهى الصوت يتردد فى الصدر فإذا رعدت السماء لم تسمع، وازداد فيه بريق السيوف فإذا لمع البرق لم يبصر، وإذا كانت المهمة وهى الصوت الخافت تخفى الرعد فأجدر بأن يكون الجيش بالغاً الغاية فى العظم.

وللمنتبى منحى فى الرثاء عجيب، فهو لا يلطم الخدود، ولا يشق الجيوب كما يفعل صغار الشعراء، ولكنه يطلق العنان لفلسفته فى الموت والحياة فهو يقول فى رثاء أخت سيف الدولة الصغرى:

خطبة للحمام ليس لها رد	ولكنها المساة ثكلاً
وإذا لم نجد من الناس كفئاً	ذات خدر أرادت الموت بعلاً
وليد الحياة أنفس فى النفـ	س وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مل	حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب	فإذا وليا عن المرء ولى

وقد سلك فى رثاء الأخت الكبرى طريقاً جديداً هو برثاء القواد والملوك أشبه منه برثاء النساء:

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر	فزعت فيه بأمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا	شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى
كان فعلة لم تملأ مواكبها	ديار بكر ولم تمنح ولم تمب

والبيت الأول تصوير غريب لحال من فوجىء بخبر محزن، فهو يتشبث بالأوهام، ويفزع لتكذيبه إلى أوهى الأسباب.

ومن خير مراثيه وأقواها مرثيته فى جدته، ولكنه شغل أكثرها كعادته بالحديث عن نفسه.

وللمنتبى فى الهجاء القول الممض والكلام المر. ولم يكن كثير الهجاء ولكن بيتاً واحداً من هجائه يقوم مقام القصيدة الطويلة فى الإيلام وشدة الإيجاج وإصابة المحز، فهو يقول لابن كروس جليس ابن عمار:

فلو كنت امرأة تهجى هجوناً	ولكن ضاق فتر عن مسير
---------------------------	----------------------

هذا منتهى ما يصل إليه الاحتقار فهو ليس برجل يؤبه له لأن قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء، فهو كالفتر أقل من أن ينفسح لمسير.

أما هجاؤه لكافور فقد قذفه فيه بالصيلم:

إنى نزلت بكذا بين ضيفهم	عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى وجودهم	من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ولو أن إنساناً حاول أن يهجو ألام مخلوق ما استطاع أن يقول فيه أنكى من هذا وأقذع.

وإذا شكّا الزمان ونقد الاجتماع أو تعرض لأخلاق الناس، فهناك الانهيار في الحكمة وضرب الأمثال وفلسفة الحياة. ولا نريد هنا أن نكثر من التمثيل فحكم أبي الطيب كثيرة جدًا وقد تناولها الأدباء بالجمع والتمحيص والنقد، وأكثر قصائده حكمًا: «لا افتخار إلا لمن لا يضام»، «فؤاد ما تسليه المدام»، «هوى النفوس سريرة لا تعلم»، «صحب الناس قبلنا ذا الزمانا».

وأوابد أبي الطيب التي بز بها الشعراء ووصل بها إلى قمة الفن الشعري أكثر من أن تجمع في مثل هذا المقال. وتكفيها هنا هذه الكلمات الموجزة في إذاعة شيء من سر عبقريته.

مصطلحات الشئون العامة (*)

الإراض

اللسان: «والإراض الإسط لأنه يلى الأرض، الأصمى: الإراض إسط ضخم من وِبر أو صوف، وأرض الرجل أقام على الإراض». ويفهم منه أن الإراض قد يطلق إطلاقاً عاماً على الإسط كيفما كان صغيراً أو كبيراً، وقد يخصص بالإسط الكبير. وقد رأى المجمع تخصيصه بذلك ليدل على الأبسط العظيمة الرقة التى تفرش بها الأبهاء والحجن الكبيرة.

الإسط

اللسان: «والإسط ما يُسط». **الفتاح:** «والإسط بالكسر ما يُسط، وفي الصحاح ما يُسَط، وفي البصائر اسم لكل مبسوط، وأنشد الصاغاني للمتخّل الهذلي يصف حاله مع أضيافه: سَابِدُوهُمْ بِمِشْمَعَةٍ وَأُثْنِي بجهدى من طعام أو بساط والمِشْمَعَة: المزاح والضحك، وأثنى أى أتبع. جمعه بُسَط ككتاب وكُتِب. وإذا كان المعنى اللغوي للإسط كل ما يسط أيا كان نوعه فقد حصّه العرف بنسيج خاص من الصوف ينسج بخيوط الخيش أو نحوها، وهذا هو المعنى الذى أراده المجمع.

(*) نشر هذا البحث بمجلة مجمع اللغة العربية الجزء ٣ ص ١٨٠ عام ١٩٣٦ م.

النَّفَاطَةُ

اللسان: «التهذيب: والنفاطات ضرب من السُّج يُسْتَصْبَح بها». فهي إذاً مصباح يُمَدُّ بالنْفَط، وقد أراد المجمع أن تستعمل هذه الكلمة في هذا «المعنى لأنها صريحة فيه ولأنها تحمل مكان كلمة «لمبة الجاز» في كلام العامة.

التحذيف

اللسان: «حذف الشيء يحذفه حذفاً قطعاً من طرفه والحجاء يحذف الشعر من ذلك... الأزهري: تحذيف الشعر تطريه وتُسْوِيته، وإذا أخذت من نواحيه ما تُسْوِيه به فقد حذفته وقال امرؤ القيس: لها جَبْهَةٌ كَسَرَاةٍ المِجْنُ (م) حَذَفَهُ الصَّانِعُ المَقْتَدِر. وقال النضر: التحذيف في الطَّرْوة أن تجعل سُكْنِيَّةً كما تفعل النصارى». ويؤخذ من هذا النص أن تحذيف الشعر تطريه وتُسْوِيته وقص أطرافه، ويُفْهَم منه أن هذا خاص بالمرأة.

وقد اختار المجمع هذه الكلمة لُتْستعمل خاصة في تصفيف شعر المرأة وقص أطرافه.

الرَّمْث

اللسان: «والرَّمْث بفتح الراء والميم خشب يُشَدَّ بعضُه إلى بعض كالطُّوف ثم يركب عليه في البحر، قال أبو صخر الهذلي:

تَمْنِيْتُ مَنْ حُبِّي عَلَيَّةَ أَنَسَا عَلَى رَمْثٍ فِي الشَّرْمِ لَيْسَ لَنَا وَفَر

وفي الحديث أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنا نركب أرماتنا في البحر... .

قال الأصمعي الأرمات جمع رَمْث بفتح الميم والراء خشب يُضَمُّ بعضُه إلى بعض ويُشَدُّ ثم يُرْكَب في البحر، والرَّمْث الطُّوف وهو هذا الخشب، فَعَلَ بمعنى مَفْعُول من رَمَث الشيء إذا كَمَثته وأصلحته».

وقد أطلق المجمع هذه الكلمة على ما يُعرَف «بالرومس» وعلى ما يُسمَّى «بالصَّنْدَل» وعلى كل ما يشبهها مما يجري في الماء أو يُجَرَّ فيه.

المزفة

اللسان : « . . . والمزفة المحفة وقيل المحفة التي تُزَف فيها العروس » .

وقد أقر المجمع صحة استعمالها لعزبة العروس من أى نوع كانت .

المملقة، المسلفة، الزخافة

(١) اللسان : « . . . والمائق الخشبة العريضة التي تُشد بالحبال إلى الثورين فيقوم عليها الرجل ويبرها الثوران فيتعق آثار اللؤمة والسن ، وقد ملقوا أرضهم يملقونها تمليقا إذا فعلوا ذلك بها ، قال الأزهري ملقوا وملسوا واحد ، وهي تملس الأرض فكانه جعل المائق عربيا ، وقيل المائق الذي يقبض عليه الحارث ، وقال أبو حنيفة المملقة خشبة عريضة يبرها الثيران » .

اللؤمة والسن يقصد بهما سكة المحراث وحديدته .

(٢) وسلف الأرض يسلفها سلقا وأسلفها حولا للزرع وسواها ، والمسلفة ما سواها به من حجارة ونحوها .

(٣) « زحف يزحف زحفا وزخوفا وزخفانا مشى . . . وأصل الزحف للصبي وهو أن يزحف قبل أن يقوم » .

والزخافة فعالة للمبالغة من الزحف لكثرة ما تزحف .

والأصل في الزحف أن يكون من الأحياء ، وقد يطلق مجازا على غير الحي كما هنا ، فقد شاع اسم الزخافة بمصر على المسلفة ، وهو استعمال يراه المجمع صحيحا لا يخالف مقاييس اللغة .

لهذا رأى المجمع أن تطلق الكلمات الثلاث : المملقة ، والمسلفة ، والزخافة على تلك الآلة التي يسوى بها الزارع أرضه بعد حرثها .

المردس، والمرداس

اللسان : « ردس الشيء يردسه ويردسه ردسا دك به شيء صلب ، والمرداس ما ردس به . . . والردس دك أرضا أو حائطا أو مدرا به شيء صلب عريض يسمى مردسا » .

وفهم من هذا النص أن المرداس والمردس أسما آلة على مفعال ومفعول من الردس وهو الدك ، وقد رأى المجمع إطلاق هاتين الكلمتين على الآلة البخارية التي تدك بها الحجارة وهي المسماة في عرف العامة بـ «وابور الزلط» .

المِيطْدَة

اللسان : وَطَدَ الأرضَ رَدَمَهَا لِتَصْلُبَ . والمِيطْدَة خَشْبَة يُوطَدُ بها المكان من أساس بناء أو غيره لِیَصْلُبَ . وقد أطلقها المجمع على كل آلة يوطد بها أساس بناء سواء أحرکت باليد أم بالبِخار (مندالة) .

المنوار

استعمل بعض قدماء اللغويين هذه الكلمة في القناديل تسرج أمام أبواب الملوك ، ولم نعر عليها في المعجمات التي بين أيدينا ، وكل ما يمكن أن يقال في تخريجها أنها مفعول للمبالغة من نار يَنُور بمعنى أضواء ، وكثيرا ما تأتي صيغ المبالغة من اللازم ، وقد يقال إنها مفعول للآلة لأنها أداة النور ، ولا تتصف الآلة بالعلاج دائما كالمحبرة والميثرة .

وقد أطلق المجمع هذه الكلمة على المصابيح الكبيرة التي تضاء بها الميادين والشوارع العظيمة والتي تعرف «بالجلوبات» .

المِعْرَض

اللسان : «والمِعْرَض الثوب تُعْرَض فيه الجارية وتُجَلَّى فيه» .

المصباح : «والمِعْرَض وزان مَقْوَد ثوب تُجَلَّى فيه الجوارى ليلة العُرُس وهو أفخر الملابس عندهم أو من أفخرها» .

التاج : (و) المِعْرَض (كمنبر) ثوب تجلى فيه الجارية وتُعْرَض على المشتري .

ومقتضى نص صاحب اللسان والمصباح تخصيص المِعْرَض بثوب العُرُس تُجَلَّى فيه ليلة العُرُس ، والمراد بالجارية في عبارتهما وفي عبارة صاحب القاموس الفَتَيَّة من النساء لا الأئمة ، ويظهر أن صاحب التاج صرف لفظ الجارية في عبارة المتن إلى الأئمة فَعَقَّبَ عليها بقوله وتُعْرَض على المشتري ، وهو تخصيص غير صحيح بعد أن تضافرت النصوص على التعبير بالجللاء وهو عُرَض العُرُس على الزوج ، وخلاصة القول أن المعجمات تفيد تخصيص المِعْرَض بثوب الجللاء ، ويرى المجمع أن يخرج به عن هذه الدائرة الصَّيِّغَة ، وأن يُطْلَق على الثوب الذي تلبسه المرأة في زيتها وهو أفخر أثوابها . أو من أفخرها .

واشتقاق اللفظ يعين على هذا التوسع ، لأن المِعْرَض من أسماء الآلة ، فهو يدل على ما يكون وسيلة وأداة لعَرْض زينة المرأة في خير أحوالها ، على أن إطلاق الخاص من بعض قيوده كثير شائع في لغة العرب .

النطاق والمنطق

اللسان: «المنطق والمنطقة والنطاق كل ما شذ به وسطه»^(١).

غيره: والمنطقة معروفة اسم لها خاصة، تقول منه نطق الرجل تنطقا فتتطق أى شذها في وسطه، ومنه قولهم جبل أشم منطق لأن السحاب لا يبلغ أعلاه وقد انتطق بالنطاق والمنطقة وتتطق وتنتطق، الأخيرة عن اللحياني.

والنطاق شبه إزار فيه ثكة كانت المرأة تنطق به، وفي حديث أم إسماعيل: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً هو النطاق وجمعه مناطق، وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشيء وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لثلا تعثر في ذيلها.

وفي المحكم: النطاق شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة، فالأسفل ينجر على الأرض وليس لها حجرة^(٢) ولا نيق^(٣) ولا ساقان والجمع نطق.

المصباح: «والنطاق جمعه نطق مثل كتاب وكُتِبَ، وهو مثل إزار فيه ثكة تلبسه المرأة، وقيل هو حبل تشد به وسطها للمهنة وعليه بيت الحماسة:

«كُرَّهَا وَحَبْلُ نِطَاقِهَا لَمْ يُحْلَلْ».

والمنطق بالكسر ما شددت به وسطك، فعلى هذا النطاق والمنطق واحد، وقيل لأساء بنت أبي بكر ذات النطاقين، قيل لأنها كانت تطارق نطاقاً على نطاق، وقيل كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتحمل في الآخر الزاد للنبي صلى الله عليه وسلم حين كان في الغار، قال الأزهري وهذا أصح القولين».

الأساس: «وانتطق بنطاق ومنطق وهو إزار له حجرة، قال ذو الرمة:

حَبْرٌ بَجَّةٌ خَوْذُ كَانَ نِطَاقُهَا عَلَى رَمْلَةٍ بَيْنَ الْمُقَيْدِ وَالْحَضَرِ

تدور هذه المشتقات جميعاً وهي المنطق والنطاق والمنطقة حول أصل واحد هو الناطقة وهي الخاصرة.

ويظهر أن المنطقة الحزام بلا خلاف، ففي عبارة القاموس:

«وكمكنسة: ما يُنطق به، وكمبر وكتاب: شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها إلخ» ففرق بين

(١) لعلها الوسط.

(٢) الحجرة معقد الإزار، ومن السراويل موضع الثكة «القاموس».

(٣) نيق السراويل الموضع المتسع منه «القاموس».

تفسير المِنْطَقَة والمِنْطَق والنَّطَاق ويقول صاحب المصباح في شرح المِنْطَقَة: «والمِنْطَقَة اسم لما يسميه الناس الحياصة».

أما المِنْطَق والنَّطَاق فاختلف اللغويون في معناهما: فهما في بعض الأقوال الحبل يشد به الوسط، وهما في قول آخر إزار أو شبه إزار فيه تَكَّة تلبسه المرأة، وأن أسماء بنت أبي بكر إنما سميت ذات النطّاقين لأنها كان لها نطّاقان تلبس أحدهما وتجعل في الآخر الزاد، ويقول الأزهرى إن هذا أصبح القولين في تعليل التسمية.

بقى أن صاحب المحكم يصف النطّاق بأنه لا حُجْزَة له ويراها ثوبا عاديا يُشدُّ حبل في وسطه. أما صاحب الأساس فيشترط أن يكون به حجرة، ويفسره غيره من اللغويين بأنه إزار أو شبه إزار فيه تكة.

والمجمع أخذ برأى من يرى أن النطّاق والمِنْطَق ثوب وأن له حُجْزَة، ثم إنه مع ما يرى من الترادف بينهما اختار أن يخصّص النطّاق بالثوب الظاهري، يشد بوسط المرأة ويرسل إلى قرب القدمين، وهو ما يسمى بالإنجليزية Skirt وبالعامة «الجنلة الخارجية»، وأن يخصّص المِنْطَق بالثوب الداخلى تشده المرأة إلى وسطها ويسمى بالإنجليزية Petticoat.

الميدعة

القاموس: «الميدَع والميدَعَة والميداع بالكسر الثوب المتبدل ج مَوَادِع».

اللسان: «والميدَع كل ثوب جعلته ميدَعًا لثوب جديد تودّعه أى تصونه به.....»

قال الأزهرى: «والتوديع أن تودّع ثوبا في صِوان لا يصل إليه غبار ولا ريح وودّعت الثوب بالثوب فأنا أدعه خفف».

وقال أبو زيد: الميدَع كل ثوب جعلته ميدَعًا لثوب جديد تودّعه به أى تصونه به.

وقال الأصمعى: الميدَع الثوب الذى تبدّله وتودّع به ثياب الحقوق ليوم الحَقْل وإنما يُتخذ الميدَع ليودّع به المَصُون».

أقول: وأصل ذلك كله من الدَّعَة وما أتصل بها من التوديع والإيداع وهما بمعنى الصيانة.

والميدَع والميدَعَة على مِفْعَل ومِفْعَلَة قلبت فيها الواو ياء لسكونها بعد كسر، وهى من أوزان الآلات، فالميدَعَة وسيلة الصيانة، وفُسر اللغويون هذه الوسيلة على وجهين: فمنهم من فسرها بالثوب يتبدل في الخدمة أو نحوها لصيانة ثوب آخر يحفظ في صِوان ونحوه لأيام الحَقْل (انظر رأى الأصمعى)، ومنهم من فسرها بالصِوان أو نحوه تُحفظ فيه الملابس وتودّع (انظر رأى الأزهرى).

ويمكن أن يفهم من عبارة أبى زيد السابقة وجه ثالث ، وهو أن تكون الوسيلة لحفظ الثوب أن يُلبَس فوقه ثوبٌ يُعرَض للابتذال ليودَع ويصان به ثوب آخر تحته .
على هذا يمكن أن يراد بالميدعة ما تلبسه الفتاة أو المرأة في أوقات عملها لصيانة ما تحته من الثياب .

البذلة

القاموس: « وكمكنسة (مِبْدَلَةٌ) ما لا يصان من الثياب كالِبِدْلَةِ بالكسر » .
وقد أطلقها المجمع على الثوب يلبسه العامل أو نحوه وقت العمل .

الفتشير

التاج: « . . . وفي الحديث : إذا دخل أحدكم الحَمَّام فعليه بالفتشير ولا ينخسف (الفتشير) كأمير: (المُنْزَر) سُمِّيَ به لأنه يُنْشَرُ لِيُؤْتَرَ به » .

التاج: « (الْفُوطُ كَصُرْدٍ) أهمله الجوهري ، وقال الليث : (ثياب تجلب من السند) وهي غلاظ قصار تكون مَازِرَ (أو) هي (مَازِرُ مخططة) يشتريها الحمالون والأعراب والخدم وسفل الناس بالكوفة ، فَيَتَزَرُونَ بها (الواحدة فُوطَة بالضم) قاله الأزهرى : قال : ولم أسمعها في شيء من كلام العرب ، ولا أدري أعرابية هي أم هي من كلام العجم .

قال ابن دريد : فأما الفوط التي تلبس فليست بعربية (أو هي لغة سندية) معربة بوته بضممة غير مشبعة ، قاله الصاغاني .

اللسان: « (الْفُوطَة ثوبٌ غليظ يكون مِثْرًا يُجَلَّب من السند ، وقيل الفوطَة ثوب من صوف فلم يحل بأكثر وجمعها الفوط .

قال أبو منصور: لم أسمع في شيء من كلام العرب الفوط ، قال ورأيت بالكوفة أُرْزًا مخططة يشتريها الحمالون والخدم فيتزرون بها الواحدة فوطَة ، قال : فلا أدري أعرابي أم لا .

المُنْزَر

اللسان : « . . . والإزْر والمُنْزَر والمِثْرَة الإزار الأخيرة عن اللحياني . . . » .

التاج : ((والإزار) بالكسر معروف وهو (الملحفة) وفسره بعض أهل الغريب بما يستر أسفل البدن ، والرداء ما يستر أعلاه ، وكلاهما غير مخيط .

وتفسير اللغويين لا يفرّق بين النَّشِيرِ والمُنْشَرِّ، ولكن المجمع رأى أن مادة النشير تساعد على إطلاقه على ما يُعْطَى الجسم كله لأنه من النشر وهو البسط والامتداد، فأطلقه على الثوب من نسيج المآزر له كُمان وبه غطاء للرأس يلبس بعد الاستحمام، ويلبسه المصطافون فوق الإتب قبل نزول البحر وبعده.

الكمة، (الطاقية)

اللسان: «والْكُمَّةُ الْقَلَنْسُوءَةُ.

الصحاح : الْكُمَّةُ الْقَلَنْسُوءَةُ الْمُدَوَّرَةُ لِأَنَّهَا تُغَطِّي الرَّاسَ .

ويروى عن عمر رضى الله عنه أنه رأى جارية متكمة، فسأل عنها فقالوا أمة آل فلان، فضرها بالذِّرَّة، وقال : يا كعما أنتنَّبهين بالحرائر؟

أرادوا مُتَكَمِّمَةً فضاغفوا، وأصله من الْكُمَّةِ وهى الْقَلَنْسُوءَةُ فَشُبِّهَ قناعها بها .

وفى الحديث كانت كيام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطيحا، وفى رواية أكمة .

وقد خصص المجمع هذه الكلمة بالقلنسوة المنبطحة التى تلبسها البنات والنساء .

الشبكة

أصل الشَّبَكِ إدخال بعض الأشياء فى بعض، ومنه تشبيك الأصابع وشَبَكَةُ الصياد، وقد أطلقت الشَّبَكَةُ هنا على ذلك النسيج الذى يُشَبِّه شَبَكَةَ الصياد تتخذها المرأة صيانة لشعرها أن يذهب نظامه .

القرطف

اللسان: «الْقَرُطْفَةُ الْقَطِيفَةُ الْمُخَمَّلَةُ قال الشاعر:

«بأن كذب القراطف والقروف»

الأزهري فى ترجمة قطف : القراطف قُرْمُشٌ مُخَمَّلَةٌ، وفى حديث النخعيّ فى قوله «يأبها المدثر» أنه كان متدثرًا فى قَرُطَفٍ هو القطيفة التى لها تجل .

التاج : «الْقَرُطَفُ كجعفر القطيفة» نقله الجوهري، ومنه قول الكميت :

عليه المنامة ذات الفضول من السوهن والقَرطف المُخَمَّل

وفى حديث النخعيّ فى قوله تعالى : «يأبها المدثر» أنه كان متدثرًا فى قَرُطَفٍ وهو القطيفة التى لها

كَمَلْ والجَمْع قَراطِف، قال الأَزهري: هِيَ قُرْشٌ مُجَمَّلَةٌ، قال معمر البارقِي:
وَذِيانِيَّةٌ أَوْصَتْ بِنِيهَا بَأَن كَذَبَ القِراطِف والقِروف
أَيَ عَلَيكُم فَاغْنِمُوهَا.

وَفِي فَهْمِ اللُّغَةِ لِلشَّعَالِيِّ: المَنَامَةُ والقِرطَف والقَطِيفَةُ: ما يَتَدَثَّرُ بِهِ مِن ثِيَابِ النُّومِ.
أَقُولُ وَمِن النُّصُوصِ السَّابِقَةِ يَظْهَرُ أَنَّ القَرطَفَ نَسِيجَ غَلِيظٍ بِهِ كَمَلٌ يُتَدَثَّرُ بِهِ، وَهَذَا ما يَسمَى
(بِالبَطَانِيَّةِ) وَقَدْ أَطْلَقَهُ المَجْمَعُ عَلَيهَا.

الزَّرْبِيَّةُ، الزَّرَابِيُّ الطَّنْفِيسَةُ، الطَّنَافِسُ، السَّجَادَةُ

اللسان: «وَالزَّرَابِيُّ البُسْطُ، وَقِيلَ كُلُّ ما يُبْسَطُ وَتَكُونُ عَلَيْهِ، وَقِيلَ هِيَ الطَّنَافِسُ.
وَفِي الصَّحَاحِ: النَّارِقُ وَالوَاحِدُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ زَرِّيَّةٌ

وَقَالَ الفَرَّاءُ: هِيَ الطَّنَافِسُ لَهَا كَمَلٌ رَقِيقٌ، وَرَوَى عَنِ المَوْجِجِ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَزَرَابِيُّ مَبِثُوثَةٌ﴾
قَالَ: زَرَابِيُّ النَّبْتِ إِذَا اصْفَرَّ وَاحْمَرَّ وَفِيهِ خُضْرَةٌ وَقَدْ ازْرَبَّ، فَلَمَّا رَأَوْا الْأَلْوَانَ فِي البُسْطِ والقُرْشِ سَبَّهَوْهَا
بِزَرَابِيِّ النَّبْتِ وَتَكَسَّرَ زَايُهَا وَتَفْتَحُ وَتَضُمُّ

الطَّنْفِيسَةُ: فِي اللِّسَانِ: الطَّنْفِيسَةُ وَالطَّنْفِيسَةُ بِضَمِّ الفَاءِ الْأَخِيرَةِ. عَنِ كُرَاعِ النَّمِرْقَةِ فَوْقَ الرِّخْلِ
وَجَمْعُهَا طَنَافِسُ، وَقِيلَ هِيَ البَسَاطَةُ الَّتِي لَهَا كَمَلٌ رَقِيقٌ.

السَّجَادَةُ: فِي التَّاجِ: «الْحُمْرَةُ الْمَسْجُودُ عَلَيْهَا وَسَمِعَ ضَمَّ السَّيْنِ كَمَا فِي الْأَسَاسِ».

أَقُولُ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي مَعْنَاهَا، ثُمَّ أَطْلَقْتُ عَلَى ما يَفْرَشُ مِنَ الطَّنَافِسِ لِلْمَسْجُودِ أَوْ غَيْرِهِ.
وَيَرَى المَجْمَعُ أَنَّ تَخْصِصَ الزَّرَابِيِّ بِهَا لَهُ كَمَلٌ رَقِيقٌ، وَأَنَّ تَطْلُقَ الطَّنَافِسِ وَالسَّجَادَاتِ إِطْلَاقًا عَامًّا.

طريق تكميل المواد اللغوية (*)

وضع المجمع في دورته الثانية قرارًا خطير الشأن، كبير الأثر، هو:
قرار تكملة مادة لغوية
ورد بعضها في المعجمات ونحوها ولم ترد بقيتها

إذا لم تذكر من مادة لغوية في المعجمات ونحوها إلا بعض ألفاظها كالمصدر أو الفعل أو أحد المشتقات الأخرى، فلذلك حالان:

الأولى: أن تكون المادة غير ثلاثية الحروف، وحيث يجوز لنا أن نصوغ منها ما لم يذكر على حسب قياس كل باب من أبواب مزيد الثلاثي وباب الرباعي وملحقه ومزيده.

الثانية: أن تكون المادة ثلاثية والمذكور حيث إما فعل، وإما مصدر، وإما مشتق غير الفعل.

(أ) فإن كان المذكور فعلاً، فهو إما متعدّ وإما لازم. فالمتعدّي نصوغ له مصدرًا على وزن (فَعَلَ) بفتح فسكون، ما لم يدل على حرقة.

واللازم له أربع حالات:

١- إما أن يكون على وزن (فَعَلَ) مكسور العين، فنصوغ له مصدرًا على (فَعَّلَ) مفتوح العين، ما لم يدل على لون، فيصاغ مصدره حيث على وزن (فَعَّلَهُ) بضم فسكون.

٢- وإما أن يكون على وزن (فَعَّلَ) مضموم العين، فنصوغ له مصدرًا على (فَعَّالَةً) أو (فُعُولَةً) بالضم.

(*) ألقى هذا البحث في جلسة المجمع بتاريخ ١٦ يناير ١٩٣٦ ونشر بمجلة المجمع بالجزء الثالث ص ٢١١.

٣- وإما أن يكون على وزن (فَعَلَّ) بفتح العين، فنصوغ له مصدرًا على (فُعُول) بالضم، ما لم يدل على حرفة، أو اضطراب، أو صوت، أو مرض، فنصوغ مصدر كل منها على الوزن الذي قرّر المجمع قياسيته في دورته الأولى، وما لم يدل أيضًا على سير أو امتناع، فإننا نصوغ للأول مصدرًا على (فعليل)، وللثاني مصدرًا على (فِعال) بالكسر، وما لم يكن معتل العين فيكون قياسه (الفعل) بفتح فسكون.

٤- وإما أن يكون مجهول الباب، فنرجعه بحسب ما يدل عليه من المعنى أو التعدية أو اللزوم، إلى باب من الأبواب المتقدمة، ونصوغ له مصدرًا مناسبًا لهذا الباب.

(ب) وإذا كان المذكور في المعجمات ونحوها مصدرًا:

١- فإذا أُلّا يدل على سجية، أو حزن، أو فرح، أو لون، أو عيب، أو حلية، أو خلوّ، أو امتلاء، أو خوف، أو مرض على وزن (فَعَلَّ)، فيصاغ له فعل من باب نصر أو ضرب، ما لم تكن عينه أو لامه حرف حلق، فإن بابه (فَعَلَّ يَفْعِلْ).

٢- وإما أن يدل المصدر على معنى من المعاني السابقة.

فإن دل على سجية كان فعله على (فَعَلَّ يَفْعِلْ)، وإلا كان الفعل من باب (فَعَلَّ يَفْعَلْ).

(ج) وإذا كان المذكور في المعجمات ونحوها مشتقًا غير فعل استدللنا على مصدره أو فعله بمعرفة ما يدل عليه هذا المشتق من المعاني والتعدية واللزوم.

وكل ما تقدم جائز، ما لم ينص على أن الفعل ممت أو محذور، وما لم يسمع عن العرب ما يخالفه. فإن سمع عملنا بالمسموع فقط، أو عملنا بالمسموع أو القياس.

* * *

ولما كان العمل بهذا القرار يتطلب دقة في النظر، وذوقًا حساسًا في العربية، وإلمامًا وبصيرًا بعلم الصرف، وحيلة وأناة في العمل، أردت أن أعرض أمثلة تبين طريق العمل بهذا القرار. راجيا أن يكون بها ما ينير السبيل في هذا البحث.

وقد درست ثمانيا وخمسين مادة ناقصة في جميع المعجمات التي ظفرت بها يدي، وانتهيت في كلّ منها إلى حكم بعد البحث وطول النظر. ولعلّي أكون قد وفقت إلى الوصول إلى ما أردت.

وإنّي ذاكر الآن ما جاء من النصوص اللغوية في كل مادة، ومعقّب عليها بما هداني إليه نظري. فأقول:

جبس

جاء في المعجمات من هذه المادة:

الجَبَس: الجبان القدم، الضعيف اللثيم، أو الثقيل السدى لا يجيب إلى خير، أو الرديء الدنى.

والأجبس: الجبان الضعيف.

والتجبس: التبخر، وتجبس تبخر.

والمجبوس: المتهم في عرضه.

ونرى أنّ المادة اشتملت على صفتين مشبهتين هما **الجَبَس** و**الأجبس**، ونعرف أنّ أفعلّ فيها دلّ على عيب في الصفة المشبهة، يكون مؤنثه فعلاء وأنه يختصّ بباب فرح.

وإذاً يكون الفعل **جَبَسَ** الرجل **يُجَبَسُ جَبَسًا**، جبن أو ضعف ولؤم أو ثقل ونرى في هذه المادة أيضًا اسم مفعول من الثلاثيّ، وهو إنما يصاغ من المتعدي مجردًا من الظرف والجائر والمجرور والمصدر، وهذا يوحى بوجود الفعل **جَبَسَ** متعديًا.

ولما كان المضارع مجهولًا، ساغ لنا أن نصوغه من باب نصر^(١)، وأن نقول **جَبَسَهُ** **يُجَبَسُهُ جَبَسًا**، اتهمه في عرضه وعابه.

ومن مصدر هذا الفعل يأتي اسم الفاعل وبقية المشتقات القياسية.

وفي رأينا أنّ **تَجَبَّسَ** المزيد الذي جاء بمعنى تبخر مأخوذ من هذا الفعل، لأن التبخر في الغالب لا يدلّ على الرجولة الكاملة.

جدس

جاء في المعجمات التي في متناولنا من هذه المادة:

الجداس من كل شيء ما اشتد وبيس كالجاسد.

وأرض جادسة لم تعمر ولم تحرث.

والذي نراه أن الجادس مقلوب الجاسد، وقد ذُكر للجاسد مصدر وفعل.

(١) في المخصص ١٤ - ١٢٣ قال بعض النحويين: إذا علم أن الماضي على فعل (بفتح الفاء والعين) ولم يعلم المستقبل على أى بناء هو، فالوجه أن يجعل على يفعل (بكسر العين) لما قدمت من أن الكسرة أخف من الضمة وقيل هما يستعملان فيما لا يعرف اهـ. وقد رجحنا باب نصر لكثرة أفعاله.

قال في اللسان:

والجسد مصدر قولك جسد به الدم يجسد إذا لصق به فهو جاسد وجسد . والذي يرجع عندنا أن الجادس مقلوب الجاسد تساويهما في المعنى بدليل تفسيرهم الجادس بالجاسد .

فنحن الآن أمام مادتين متحدتين في الأحرف لا في ترتيبها ، ولابن جني في ذلك رأى فاصل ، جاء في شرح القاموس في مادة «جبد» واختلاف علماء اللغة في أنه مقلوب جذب أو ليس مقلوبه .

قال ابن جني : ليس أحدهما مقلوباً عن صاحبه ، وذلك أنها يتصرفان جميعاً تصرفاً واحداً ، تقول جذب يجذب جذباً فهو جاذب ، وجذب يجذب جذباً فهو جابذ ، فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلاً لصاحبه فسد ذلك ؛ لأنك لو فعلته لم يكن أحدهما أسعد بهذه الحال من الآخر ، فإذا وقفت الحال بهما ، ولم تؤثر بالزمية أحدهما ، وجب أن يتوازيا فيتساويا ، فإن قصر أحدهما عن تصرف صاحبه فلم يساوه فيه كان أوسعهما تصرفاً أصلاً لصاحبه .

وإذا اعتمدنا هذا الأصل وارتضيناه ، وهو ما نميل إليه ، رأينا أن مادة جسد أكثر تصرفاً من جدس فتكون الأولى هي الأصل ، ويقتصر في الثانية على ما ورد منها .

أما أرض جادسة فيظهر أن الكلمة مشتقة من اسم ذات وهو جديس (حتى انقرض من عاد) وقد قالوا جدس الأرض يجدس^(١) إذا درّس (كما درّست قبيلة جديس) ، ومن ذلك أرض جادسة أى خربة لم تُعمّر ولم تُحرث فهي قفر كما أقفرت الأرض من جديس وعلى هذا تكون هذه المادة (جدس) جمعت أصليين : أحدهما اليئس والشدة ، والثاني الخراب والإقفار ، ولا يكون للأصل الأول تصريف ، أما الثاني فمتصرف .

جدن

جاء في المعجمات:

أجدن الرجل استغنى بعد فقر ، والجَدَن حسن الصوت .

والجَدَن هنا مصدر كما يظهر على وزن فَعَلَ فيكون فعله لازماً من باب فَرِح .

جدن يجدن بمعنى حسن صوته .

أما أجدن فالظاهر أنها مشتقة من الجامد ، وهو ذو جَدَنٍ قَيْلٍ من أقيال حمير والمناسبة ظاهرة^(٢) .

(١) لم نعر إلا على الماضي في كتب اللغة ، أما المضارع فقد استظهرناه ويكون مصدره الجدوس لأن ماضيه على فعل لازم .

(٢) ويمكن تحريكها على أنها مبذلة من أجدم ففي شرح القاموس أجدمت النخلة حملت شبيهاً ، واستعمال أجدن الرجل بمعنى استغنى بعد فقر على هذا التخريج مجاز علاقته المشابهة .

جَتَّ

جاء في المعجمات:

الَجْتُ الْجَسَّ لِلْكَبْشِ لَتَنْتَظِرَ أَسْمِينَ أَمْ لَا .

وظاهر أن الجَتَّ مصدر الفعل المتعدي المضعف (جَتَّ)، وبابه غالباً نصر، تقول جَتَّ الكَبْشَ يَجْتُهُ جَسَّهُ، وليس ما يمنع من أن يراد به الجَسَّ مطلقاً لكَبْشٍ أو غيره^(١).

جَرَّه

جاء في المعجمات:

يقال سمعت جَرَاهِيَّةَ القوم: كلامهم وجَلَبَتَهُم وعلا نيتهم دون سِرهم، وجَرَّهْتَ الأمرَ تَجْرِهًا إذا أعلتته .

والظاهر أن الجَرَاهِيَّةَ مصدر كالكرَاهِيَّة والطَّاعِيَّة والعَلَانِيَّة، وأن ما قد يظن له من فعل ثلاثي هو جَرَّهَ مَقْلُوبَ جَهَّرَ، فإذا رجعنا إلى رأى ابن جنى رأينا أن مادة جهر أكثر تصرفاً فتكون هي الأصل، ويقتصر على ما سمع من مادة جره .

غير أننا نجد في اللسان في مادة شده، قال أبو منصور: لم يجعل شُدَّةَ من الدَّهَشِ كما يَظُنُّ بعضُ الناس أنه مقلوب منه واللغة العالية دِهَشَ على فِعْلٍ، وأما الشُدَّةُ فالدال ساكنة .

وفهم من هذا النص أنه إذا اختلفت أوزان التصارييف في المادتين اللتين يُظَنَّ أنَّ إحداها مقلوبة الأخرى اعتبرت كل مادة أصلاً من غير نظر إلى تساويها في التصرف أو عدم تساويها، ونحن إذا نظرنا في مصادر جهر لا نجد بينها مصدرًا على وزن الفعالية، فهي على حسب ما نقله صاحب اللسان أصل قائم بذاته فإذا صرفناها قلنا: جَرَّهَ الشيء وبالشَّيء جَرَّهًا من باب فتح لأنه حلقى السلام بمعنى أعلته وأظهره، فهو متعد بنفسه وبالباء، ويشق منه بقية المشتقات .

جَدَّه

جاء في المعجمات:

رجل مجْدوه: مَشْدوه قَزَع .

(١) قد تكون التاء مبذلة من السير، وقد ذكر في المخصص لذلك أمثلة . وإذا كان الأمر كذلك وجب الوقوف عند ماورد من مادة جت .

ونرجح أن يكون الفعل من باب فرح لدلالته على الخوف والفرح والدهش^(١)، فيقال جَدِهَ فلان يَجِدُه جَدَّهًا، وجُدِهَ به فهو مجدوه^(٢).

جشن

جاء في المعجمات:

الجَشْنُ الغليظ والمجشونة المرأة الكثيرة العمل النشيطة.
ويظهر لنا أن الجَشْنَ صفة مشبهة على وزن فَعْل كضخم وفخم فيكون فعله جَشَنَ يَجْشَنُ جُشُونَةً غَلُظَ.
أما المجشونة فهي على وزن مفعول فيكون فعلها متعديا، كأن يقال جَشَنَهُ يَجْشَنُهُ جَشْنًا شَغْلًا.

جزن

جاء في المعجمات:

حَطَبَ جَزَنَ وجَزَلَ وجمعه أَجْزَن وهو الخُشْبُ الغِلاظ.
والظاهر أن النون مبدلة من اللام في هذه المادة فإنها تتعاقبان كثيرا، يقال فرس رِفْنٌ ورِفْلٌ، طويل الذنب، كما يقال جَبْرَيْنَ وجَبْرِيلَ.
لهذا نرى مادة جزل أصلاً، ونرى أن تقتصر على ما سمع من مادة جزن، ولا نزيد عليه.

جلد

جاء في المعجمات:

قالوا: إِنَّهُ لَيُجْلَدُ بِكُلِّ خَيْرٍ أَى يظن به.
والأَجْلِيَاذُ والأَجْلِيَاذُ المضاء والسرعة في السير، قال سيبويه لا يستعمل إلا مزيدًا. اهـ من اللسان.
من هذا يُرَى أنه لا يصح أن يُؤْتَى بمجْرَدٍ «أَجْلَوْدٌ» كما قال سيبويه، ومن رأى أنه إذا سمع المزيد وكان كافيا في تأدية معنى الفعل المجرد اكتفى به ويمشتقاته، وأنه لا يسوغ حينئذ فرض فعل مجرد.

(١) في المخصص: أجروا الذعر والخوف مجرى الداء لأنه بلاء اهـ ونص قبل ذلك على أن الداء من باب فرح ١٤٠-١٤١.
(٢) أى: مجدوه به؛ ففى الكلام حذف وإيصال.

أما يُجَلَّدُ التي جىء بها دون بقية المشتقات والمصادر فهي نظير يُجَلَّدُ بالمهملة لفظاً ومعنى، ومعناه يظن أو يتهم، ففي حديث الشافعي: كان مجالد يُجَلَّدُ أى كان يُتَّهَمُ ويُرْمَى بالكذب، فكأنه وضع الظن موضع التَّهْمَةِ. ثم إننا لا نجد فيما بين أيدينا من المعجمات أيضاً تصريحاً للفعل يُجَلَّدُ بالدال بمعنى يُظَنُّ، لذلك نرى أن يقتصر على تصريف أسهل الفعلين وأن يقال جَلَّدَهُ يَجْلُدُهُ جَلْدًا ظَنَّهُ أو اتَّهَمَهُ أو رماه بالكذب.

جنص

في اللسان: أبو مالك والليثاني وابن الأعرابي: جَنَصَ الرجل إذا مات. أبو عمرو: والجَنِيصُ الميت، وجَنَصَ رُحْبًا شديدًا أو هَرَبَ من الفَرْع، وجَنَصَ بصره حَدَدَهُ، وجَنَصَ فتح عينيه فَرَعًا. ويغنيها عن الفعل المجرد هنا مزيدة، إلا في جَنَصَ بمعنى مات؛ لسرود الجنيص منه بمعنى الميت، والجَنِيصُ فيما يغلب على ظننا صفةً مشبهة، فهي تحتاج إلى فعل مجرد، وهو فيما يغلب على ظننا من باب فَرِحَ^(١)، لأن المادة في جملتها تدل على الفَرْع والوَهْل، فيقال جَنَصَ الرجلُ يَجْنِصُ جَنَصًا مات، وجَنَصَ المزيد بمعنى المجرد.

جهف

هذه المادة ليست في اللسان، وفي التاج «أَجْهَفَ الشيءَ أَخَذَهُ أَخْذًا شديدًا، هكذا نقله عن الصاغاني في العُباب، قلت: ولعله لغة في اجْتَأَفَهُ بالهمزة، أو جَحَفَهُ بالخاء». وجَأَفَ من باب فَتَحَ والمصدر الجَأَفُ من معانيه الأخذ بالشدة؛ يُقَالُ: جَأَفَ الشجرة إذا قلعتها من أصلها. وجَحَفَ من باب فَتَحَ أيضًا، ومن معانيه القشر والجَرْفُ والجمع والرُّفْس. وهناك فعل ثالث هو جَعَفَ من باب فَتَحَ أيضًا، بمعنى الصَّرَعُ والقَلْع. وأرى أن الهاء في الفعل جَهَفَ مبدلة من الهمزة أو الخاء أو العين، ولما كانت الأفعال: جَأَفَ وجَحَفَ وجَعَفَ أكثر تصريفًا وجَبَّ أن تكون هي الأصل وأن يُقْتَصَرَ على ماورد في اللغة في مادة جهف للاستغناء عنها بأصولها.

(١) جاء في المخصص عند الكلام في باب فَرِحَ «وقد يجرى الاسم فعيلا، ومثل له بمريض وسقيم وعسير وحزين».

حشِب

في اللسان: احْتَشَب القوم احتشابا إذا اجتمعوا، وفي التاج: ويقال أخشبه إذا أغضبته كأخشمه نقله الصاغاني، وفيه الحشيب من الثياب والحشيب والغليظ؛ وفي اللسان: والحشمة والحشمة أن يجلس إليك الرجل فتؤذيه وتُسِمعه ما يكره، حشمه يحشمه ويحشمه حشما.

والظاهر أن الباء مبدلة من الميم، وأن تَصَرَّفَ الأفعال في ذى الباء قليل فيقتصر على ما ماورد منها، وليس من العسير أن نجد صلة وارتباطا بين معنى الاحتشاب وهو اجتماع القوم ومعنى الغضب لأن الاجتماع قد يكون سببه الغضب.

أما الحشيب بمعنى الغليظ فيقرب في لفظه ويتحد في المعنى هو والحشيب. وقد نُصَّ في اللغة على فعل للحشيب من بابى نصر وكرم، جاء في اللسان: وحشِب الشيء يُحشِب غَلْظًا، وجاء فيه وحشِبَ جَشَابَةً.

وعلى هذا نكتفى في هذا المعنى أيضًا بإداة حشِب، لكثرة تصرفها، ونقتصر على ما سمع من مادة حشِب.

حَقَز

في التاج الحاقزة أهمله الجوهري وصاحب اللسان، وقال الصاغاني هي التي تحقز برجلها أى ترمح بها كأنها مقلوب القاحزة.

ونرى أن الصاغاني صرح بفعله بقوله هي التي تحقز برجلها، ولم يذكره غيره ولعله أخذه من لفظ اسم الفاعل.

وجاء في مادة حقز: فعز كجعل يَحَقَز قَحْزًا وَتَبَّ وَقَلِقَ واضطرب.

ثم قال: وقَحَز الكلبُ ببوله يَحَقَز بالفتح قَحْزًا وقَحْوًا وقَحْزًا محركة رمى به كقَحْز، وهو مقلوب منه كما قال الزمخشري وابن القطاع. وجاء في المستدرک: قَحَز الرجل عن ظهر البعير يقَحَز قَحْوًا سقط، وقَحَز الرجل قَحْزًا وقَحْوًا وقَحْزًا أهلكه.

ونحن نرى تقاربًا في المعنى بين حقز وقَحَز وقَحَز ففى كل منها معنى الطرح والرمى ونوافق الزمخشري على أن أصل كل ذلك قَحَز، لذلك نرى الاكتفاء بها ورد من مادة حقز.

حلد

قال في التاج: «إيل محاليد) أهمله الجوهري والجماعة أي (ولت ألبانها)، قلت: وقد تقدم له هذا المعنى بعينه إيل مجاليد، فإن لم يكن تصحيحاً من بعض الرواة فلا أدري».

وجاء في التاج في مادة جلد: (و) الجِلاد (من الإبل الغزيرات اللبن)، والجِلاد أَدَسَمَ الإبل لبناً، وعن ثعلب ناقة جلدة مدرار (كالمجاليد) جمع مجلاد، أو الجِلاد من الإبل (ما لا لبن لها ولا نتاج).

ونرى أنه لا محل لشك صاحب التاج في صحة الكلمة؛ لأن صاحب القاموس كان علياً بالغريب مشغوفاً به، غير أننا نقول: إن ذات الحاء لغة في ذات الجيم^(١) ولما كانت مادة جلد تامة التصريف فقد جاء في اللغة جلدت الناقة تجلدة جلادة جف لبنها فهي مجلاد - وجب الاختصار على ماورد من مادة حلد اكتفاءً بذات الجيم.

حمر

اللسان: الحمرة من الألوان المتوسطة معروفة - لون الأحمر يكون في الحيوان والنبات وغير ذلك - وقد حمر الشيء واحمّار بمعنى.

فذكر لهذه المادة في هذا المعنى المصدر والصفة المشبهة وفعلين مزيدين، ولم يذكر المجرد، وقد نص بعض أعلام اللغة على أن الحمرة لا يأتي منها فعل مجرد، ففى اللسان: قال الفراء: العرب لا تقول حمر ولا بيض ولا صفر، ونحن نوجب العمل بهذا النص، وندعو إلى صيانة اللغة من أن يدس فيها ما ليس منها.

ولا بأس أن نورد هنا مصادر بعض الألوان وأفعالها التي عثرنا عليها في أثناء مراجعاتنا وهي:

المُصْبِية: وفعلها من باب فريح.

والشُّهبة: وتأتى من بابى كرم وفريح.

والزُّرقة: وبابها فريح.

والأدمة: وهي من باب فريح^(٢).

والشُّمرة: وهي من بابى كرم وفريح.

والسواد: من باب فريح، وفعله سود وساد.

(١) لا ننظر أن هنا إيدالاً؛ لأننا لم نعثر فيما وقفنا عليه أن الجيم تبدل حاء.

(٢) ومن باب كرم في لغة - المخصص.

والقُتْمَة: وهى من بابى ضرب وفريح .

والخُطْبَة: وبابها فريح .

والقُهْبَة: وفعلها من باب فريح (١) .

والكُهْبَة: وهى من بابى فريح وكرم .

والكُمْدَة: وبابها نصر .

والعُفْرَة: وبابها فريح .

والذُكْنَة: وبابها فريح .

والخُوَّة: وبابها فريح .

والعُبْسَة: شدة الظلمة ، وبابها فريح .

والغُبْسَة: لون الرماد ، وبابها ضرب .

والكُتْمَة: حمرة يخالطها سواد ، وبابها كرم .

والوُرْدَة: الحمرة تضرب إلى الصفرة ، وبابها كرم .

والشُّقْرَة: بياض فى حمرة ، من بابى فريح وكرم .

أما السُّخْمَة ، والصُّحْمَة ، والدُّبْسَة والعَيْسَة والبرَّثَة ، فلم تذكر لها فى المعجمات أفعال مجردة ، وليس ما يمنع من وضع أفعال لها من باب فريح ، وهو الباب الشائع فى الألوان ، وستتناول بعض هذه بالكلام فى هذا المقال .

حمج

فى اللسان : التحميج فتح العين وتحديد النظر كأنه مبهور ، قال أبو العيال الهذلي :

وَحَمَّجَ لِلجَبَانِ المَوِ تَ حَتَّى قَلْبُهُ يَسْجِبُ

أراد حَمَّجَ الجبَّانُ للموت فَقَلَّبَ (٢) ، وقيل تحميج العينين غُشورهما ، وقيل تصغيرهما ليتمكن النظر . . .

وقوله : «وقد يقود الخيل لم تُحَمَّجِ» فقليل تحميجها هزالها .

والتحميج التنير فى الوجه من الغضب ونحوه .

(١) ومن باب كرم فى لغة - المخصص .

(٢) يستقم المعنى على مجاز بدیع من غير قلب .

وفى التاج «والْحَمُوجُ كَصَبُورِ الصَّغِيرِ مِنْ وَلَدِ الظُّبَى»، وهذا المشتق يدل على وجود الثلاثى، وقد يكون من أسباب إطلاق الْحَمُوجِ عَلَى الصَّغِيرِ مِنْ وَلَدِ الظُّبَى هِزَالُهُ أَوْ صَغُرَ عَيْنُهُ.

ونرى أن يصاغ فعله من باب ضرب لازماً^(١) حَمَجَ يَحْمِجُ حُمُوجًا بمعنى فتح عينيه فى دَهَشٍ أَوْ ضَبَقَ لِحَدِيدِ النَّظَرِ، وبمعنى هَزَلَ وَتَغَيَّرَ، ويكون فَعَلٌ منه للمبالغة أحياناً وللتعدية أحياناً.

خَدَنَ

الخَدَنُ والخَدِينُ الصَّدِيقُ، والمُخَادَنَةُ المُنَاصَبَةُ، والأَخْدَنُ: ذُو الأَخْدَانِ، وَرَجُلٌ خُدَنَةٌ: يُخَادِنُ النَّاسَ كَثِيرًا، ونرى أن الخَدَنَ والخَدِينِ والأَخْدَنَ صفاتٌ مشبهة، وأنها تنبئ بوجود الفعل الثلاثى، غير أن الفعل المزيد «خادن» يؤدَّى معنى المجرد فلا داعى لوضعه.

خَذَرَ

فى اللسان: الخَازِرُ المستتر من سلطان أو غريم، ولم يُذَكَّرْ لهذه المادة فعل أو مشتقات أخرى فى المعجمات، ولكن يظهر أن الدال فيها لغة فى ذات الدال (خذر) لذلك يقتصر فيها على ما جاء منها.

خَسَنَ

فى اللسان: أهمله الجوهري، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أحسن الرجل إذا دَلَّ بعد عِزٍّ، وهى أقرب فى المعنى إلى خَشَّنَ العِيشَ خُشُونَةً ضِدَّ لَانَ، وإذا كانت السين مبدلة من الشين كما هو ظاهر^(٢) وجب الوقوف عند المسموع من مادة خشن.

خَفَلَ

فى اللسان: ابن الأعرابي الخَافِلُ الهَارِبُ، وكذلك المَافِلُ والمَالِخُ، وقد أعاد ذلك فى مخل، ولم يذكر له فعلاً أو مصدرًا، أما مَلَخَ فإنه من باب فتح وبصدره المَلَخُ، ولما كان المعنى واحدًا فى هذه المشتقات الثلاثة وهى الخَافِلُ والمَالِخُ والمَافِلُ، وكان أحدها من باب فتح رجح أن يكون فعل الخَافِلِ من باب فتح أيضًا، أما المَافِلُ فلا نرى وضع فعل له لأنه مقلوب المَالِخِ.

(١) إنها اختزنّا باب ضرب هنا استئناساً بكلمة صبور الذى وزن بها صاحب التاج الحموج.

(٢) عدّ صاحب المخصص من هذا النوع من الإبدال أمثلة كثيرة ١٣ - ٢٧٨.

خلم

في اللسان: الخلم بالكسر الصديق الخالص . . . والجمع أخلام وخلاء، قال ابن سيده:

وعندي أن خلاء على توهم خليم، والمخالمة المصادقة والمغازلة . . . والخلم مريض الظبية أو كُنَّاسُهَا لِإِلْفِهَا إِيَّاهُ وهو الأصل في ذلك تتخذه مألفا وتأوى إليه، ويسمى الصديق خليا لألفته . . . والخلم أيضا العظيم، وزاد في القاموس الخالم المستوي الذي لا يفوت بعضه بعضا، وإيل خِلْمَةٌ بالكسر رِثَاع، واختلمه وخَلَّمَه تخليا اختاره، وخالمه صادقه.

ومن ذلك يفهم أن الأصل في هذه المادة «الخلم» المرِيضُ الظبية، وهو اسم ذات وأن العرب نقلته إلى المصادقة والمصاحبة بجامع الإلف، ثم أخذت منه مصادر اشتقت منها خالمه وخَلَّمَه واختلمه، ثم اشتقت اسم الفاعل وهو الخالم من مصدر الثلاثي بمعنى آخر يتصل بالمعنى الأصلي وهو مريض الظبية بسبب الاستواء فيها، أما الخلم: بمعنى العظيم فيبعد عن هذا الأصل بعض البعد.

ونحن نكتفى بالأفعال المزيدة التي وردت بمعنى المصاحبة والمصادقة، لأنها تغني عن المجرد، ونرى أن يوضع فعل من باب نصر مصدره الخَلَمَ للدلالة على استواء المكان^(١) وأن يوضع فعل من باب كَرَّم للدلالة على العظم^(٢).

خمت

في اللسان: الخَمِيت السمين جَمِيرِيَّة، وفي القاموس الخميت السمين وبوزنه، وفي زنة صاحب القاموس للخميت بالسمين ما يشبه الإشارة إلى أن فعله كسمين، فيكون كَحِثْ يَحْمِتْ، وقياس مصدر فعل لازم الفعل، ويكون الخميت صفة مشبهة.

خنر

في اللسان: أبو العباس: الخانر الصديق المصافي وجمعه خُنُر، يقال فلان ليس من خُنُرِي أي ليس من أصفياي، وعقب صاحب التاج على القاموس في قوله جمعه خُنُر بضميتين بأن الصواب خُنُر ك: رَكِع، ولعل سبب ذلك أن فاعلا لا يجمع على فُعل، ويمكن أخذ الفعل والمصدر من المشتق خَنَرَه يَخْنُرُه خُنُرًا بمعنى صادقه وصافاه.

(١) وذلك لورود اسم الفاعل خالم.

(٢) تأتي الصفة المشبهة على وزن فعل بكسر فسكون من باب كرم كملح.

خَوْش

في اللسان: الخَوْش صغر البطن، وكذلك التخويش والتخَوُّش والتخَاوِش الضامر البطن، وتَخَوَّش بَدَنُ فلان هُزَلَ بعد سَمَن، وخَوْشُه حَقَّه نَقَصَه.

ومن السهل أخذ الفعل من المصدر هنا وهو الخَوْش بأن نقول: خاش البطن يَخْوش خَوْشًا صغر، وخاش المال يَخْوشه نَقَصَه.

دَبَسَ

والدُّبْسَةُ لون في ذوات الشعر أحمر مشرب، والأدْبَس من الطير والخيل الذي لونه بين السواد والحمرة، وقد أدْبَس أدْبَاسًا، وقد ادْبَاسَ وهو أدْبَس، والدُّبْس الأسود من كل شيء... أبو حنيفة: أدبست الأرض رُئِيَ أَوَّلُ سواد نبتها فهي مُدْبِسة... ودَبَس الشيء وإراه.

ذكر من هذه المادة المصدر وصفتان مشبهتان وأفعال مزيدة، ولما كانت هذه المادة تدل على لون، وكان مصدرها على فُعْلَةٍ كان فعلها من باب فرح، تقول: دَبَس الشيء يَدْبِس دُبْسَةً كان لونه بين السواد والحمرة، أما أدْبَسَت الأرض فالزيد فيها يغنى عن المجرد، وتقول: دَبَس الشيء يَدْبِس بمعنى توازى واختفى، ودَبَسَتْه أخفيته، ولا يغنى هنا أدْبَسَ وادْبَاسَ عن المجرد لأنها يفيدان معنى جديدًا بالزيادة وهو التدرُّج^(١).

ذَهَفَ

في تاج العروس: (إبل ذاهفة) أهمله الجوهري وصاحب اللسان، وقال ابن عباد: (معيبة) من طول السير (لغة في الدال)، وصَوَّب الصاغانى في التكملة أنها ياهمال الدال لا غير. والذاهفة بالدال بابها منع، ونرى ما دامت ذات الدال لغة في ذات الدال أن يقتصر عليها ولا يُصَرَّف منها.

رَبَشَ وَبَرَشَ وَرَمَشَ

في اللسان: الأربش المختلف الألوان نقطة حمراء وأخرى سوداء أو غبراء أو نحو ذلك، وفرس أربش ذو برش مختلف اللون، وخص اللحياني به البرذون وأربش الشجر أورك، وقيل أربش أخرج

(١) في المخصص: وقد يستغنى بإفعال عن فعل وفعل ولكننا نميل إلى رأى المتأخرين وهو أن المزيد هنا أدَّى معنى بالزيادة لم يكن في المجرد فلا يستغنى عن المجرد.

ثمره . . . ابن الأعرابي : أرمش الشجر وأربش وأنقد إذا أورق وتغطر ، وأرض ربشاء وبرشاء كثيرة العشب يختلف ألوانها ، وجاء في مادة رمش : أرض رَمْشاء رِبْشاء أو جَذبة كأنه ضد ، ورجل أرمش أربش يختلف اللون ، وأرمش الشجر أوزق .

والذى يفهم بعد قراءة هذه المواد في معجمات اللغة أن مادة برش هي الأصل وقد ذُكر لها في المعجمات فعل ثلاثى من باب فريح ، وذُكر لها من المصادر البرش والبرشة فيجب الاقتصار على ما ورد في المادتين رِبش ورمش ، لأن الأولى بها قلب مكانى ولأن الثانية أبدلت فيها الميم من الباء^(١) .

رتل

في اللسان : الرَّتَل حسن تناسق الشيء ، وثغر رَتَل ورَتَل حسن التنضيد مستوى النبات ، وقيل مفلّج . . . والرَّتَل بياض الأسنان . . . ، وربما قالوا رجل رَتَل الأسنان مثل تَعِب يَتَن الرَّتَل ، وكلام رَتَل ورَتَل أى مُرَتَّل حَسَن على تَوَدَّة ، ورَتَل الكلام أحسن تأليفه وأبانه وتَهَل فيه . . . والرَّتَل ، والرَّتَل : الطَّيْب من كل شيء ، وماء رَتَل يَتَن الرَّتَل بارد .

وزاد في القاموس ، والرائلة القصير .

وظاهر أن الفعل المجرد من باب فريح ، وأن مصدره الرَّتَل ، وأن رَتَلًا ورَتَلًا صفتان مشبهتان^(٢) ، وأن التضعيف في رَتَل للتعدية ، وتكون معانى الفعل هكذا :

رَتَل الشيء تناسق أو طاب ، والثَغَر استوث أسنانه أو فُلَّجَت أو ابْيَضَّت ، والكلام حَسَن والقى في تَوَدَّة وإبانة ، والماء بَرَد ، أما الرائلة بمعنى القصير فاسم فاعل فيه التاء للمبالغة ويحسن أن يكون فعله من باب نصر^(٣) .

رَتَن

في اللسان : الرَّتَان قطار المطر يَفْصِل بينها سُكون . . . وأرض مُرَتَّنة ترْتِنًا ومُرْتمة ومُرْتدة أصابها مطرٌ ضعيف ، وفي نوادر الأعرابي : أرض مَرْتُونَة أى مَرَكُونَة وأصابها رَتَان ورَتَام ، وقد رَتِنَت الأرض ترْتِنًا عن كُرَاع ، قال ابن سيده : والقياس رَتِنَتْ كَطَلَّت وبُغِشَّت وطُشَّت وما أشبه ذلك ، الأزهرى : قال بعض من لا اعتمد عليه : تَرَتَّنَت المرأة إذا طَلَّت وجهها بِغَمْرَة اهـ .

(١) عد صاحب المخصص من هذا الإبدال أمثلة كثيرة ١٣ - ٢٨٤ .

(٢) الظاهر أن رتلا بالتحريك من المصادر التي استعملت استعمال الصفات .

(٣) يصح أن يبقى الفعل من باب فريح هنا أيضًا لأن الصفة تأتى من هذا الباب على فاعل أحيانًا .

وأقول: لعل النون مبدلة من الميم في ترثنت المرأة، وهو ما يحدث كثيرا في لغة العرب، ففي مادة رثم في اللسان ورثمت المرأة أنفها بالطين لطخته وطلته، وهو على التشبيه اهـ.

وإنما كان على التشبيه لأن الرثم في الأصل كسر الأنف أو الفم حتى يقطر منه الدم.

ويؤخذ مما ورد في مادة رثن أنه ورد منها اسم مفعول للثلاثي وهو مرثونة. وأن ابن سيده استنبط أن قياس فعلها رثن، وبذلك يستطيع أن يقدر هذا الفعل من باب نصر متعديا؛ ويقال رثن المطر الأرض يرثنها رثنا أصابها، وأما ترثنت المرأة فالظاهر أنه مقلوب ترثمت فيقتصر فيه على الوارد.

خوذ

اللسان: المَخَاوِذَةُ المخالفة إلى الشيء، خَاوَذَهُ خِوَاذًا وَمَخَاوَذَةً خالفه.

الأموي: خَاوَذْتَهُ مَخَاوَذَةً فعلت مثل فعله، وأنكر شَمَّرَ خَاوَذْتُ بهذا المعنى، وذكر أن المخاوذة والخواوذ الفراق... وخَاوَذْتُهُ الحُمَى أخذته ثم انقطعت عنه ثم عَاوَذْتَهُ... وفي النوادر أمر خائذ لافذ، وأمر مَخَاوِذٍ مَلَاوِذٍ إذا كان مُعَوِّزًا، وخَاوَذَ عنه إذا تنحى.

جاء من هذه المادة مصدر المفاعلة وفعله، ثم جاء اسم فاعل الثلاثي، ولما كان هذا الفعل أجوف واويا كان من باب نصر على الغالب، فهو خَاذٍ يَخُوذُ خَوْذًا، تقول: خَاذَنِي الأمرُ أَعُوَزَنِي، ولكن لما كان الفعل المزيد وهو خَاوَذَ يؤدي معنى الفعل المجرد نرى أن لا حاجة إلى وضع مجرد له.

دخى

في اللسان: الدَّخَى الظلمة، وليلة دخياء مظلمة، وليل داخ مظلم، قال ابن سيده: فإما أن يكون على النسب، وإما أن يكون على فعل لم نسمعه.

ونرى أن الدَّخَى مصدر لمعناه صلة بالألوان لذلك يكون فعله من باب فرح؛ كأن نقول: دَخَى الليل يَدَخِي أَظْلَمَ فهو أَدَخَى والليلة دَخِيَاء، ويكون لفظ داخ صفة مشبهة على وزن اسم الفاعل كسالم من سَلِمَ يَسْلَمُ.

درك

في اللسان: الدَّرَكُ اللحاق وقد أدركه ورجل دَرَكٌ مُدْرِكٌ كثير الإدراك، وقلما يجيء فَعَالٌ من أَفْعَلٍ يُفْعَلُ إلا أنهم قالوا: حساس دَرَكٌ لغة أو ازدواج، ولم يجيء فَعَالٌ من أَفْعَلٍ إلا: دَرَكٌ، وجَبَّارٌ من أَجْبَرَهُ على الحُكْمِ أكرهه، وسار من أَسَارَ في الكأس: إذا أبقى فيها سؤرا. وتدارك القوم: تلاحقوا... وفي الحديث: «أعوذ بك من دَرَكِ الشقاء».

قال ابن برى: جاء دَرَاكٌ ودَرَاكٌ ، وفَعَالٌ وفَعَالٌ إنما هو من فعل ثلاثى ، ولم يستعمل منه فعل ثلاثى ، وإن كان قد استعمل منه الدرك .

ونرى أن نتابع نص ابن برى فى أن العرب لم تستعمل الثلاثى لهذه المادة ، ونكف عن استنباط فعل ثلاثى منها .

ثم إن فى عبارة اللسان : « ولم يبحى فَعَالٌ من أفعال إلا دَرَاكٌ وجبارٌ وسَنَارٌ نظرًا من وجوه : الأول أن المصدر أصل الاشتقاق فى رأى البصريين وهو الرأى الراجح ودَرَاكٌ مشتق من مصدر الثلاثى وهو الدَرَاكُ ، على أن وجود الدَرَاكِ يستلزم وجود فعل ثلاثى أميت اشتق منه دَرَاكٌ على مذهب الكوفيين ، الثانى : جاء فى لسان العرب فى مادة جبر : وجَبَرَ الرجل على الأمر يَجْبِرُهُ جَبْرًا وجُبُورًا ، وأَجْبَرَهُ : أكرهه والأخيرة أعلى ، فأثبت وجود الفعل الثلاثى وهو جَبَرَ فى لغة ؛ فجَبَرَ من هذه اللغة لا من غيرها . الثالث أنه جاء فى مادة سَأَرَ فى اللسان : يقال سَأَرَ وأسَأَرَ إذا أفضَلَ فليس إذن سَأَرَ من مصدر أسَأَرَ .

دفعه

فى اللسان : الأزهرى أمهله الليث ، وروى ثعلب عن ابن الأعرابى قال : الداهية الغريب ، قال الأزهرى : كأنه بمعنى الداهيف والهاديف ، وجاء فى دَهَفٍ «الداهية» قال الأزهرى كأنه بمعنى الداهيف والهاديف .

والداهيف المعنى من طول السير ، والغريب قد يكون كذلك ، وباب الداهيف مَنَعَ . وجاء فى هِذِف فى اللسان ويقال : هل تَهْدِفُ إليكم هادِفٌ أو تَهَيِّسُ هادِفٌ هل حدث ببلده أحد سوى من كان به . فالكلمات الداهية والداهيف والهاديف كلها بمعنى الغريب ، وبينها قلب مكانى فى الأحرف ، وإحداها وهى الداهيف يمكن اعتبارها أصلاً لهذه المواد ، فيجب أن يقتصر فى مادة دَهَفٍ على ماورد منها .

دكب

أمهله الجوهري وصاحب اللسان ، وفى القاموس المدكوبة المعضوضه من القتال . ونقول : إن اسم المفعول يُشعر بوجود فعل يمكن صوغه من باب نصر متعددا ، فنقول دَكَبَ الكلبُ الهرة يَدْكُبُها دَكْبًا عَضَّها فى القتال .

دلّس

فى اللسان : الدَّلَسُ بالتحريك الظلمة ، وفلان لا يُدَالِسُ ولا يُوالِسُ أى لا يُجَادِعُ . . . ودلّس فى

البيع وفي كل شيء إذا لم يُبين عيه وهو من الظلمة . . . والدَّلْسَةُ الظلمة . . . مالى فيه وَلَسَ ولا دَلْسَ أى مالى فيه خيانة ولا خديعة . . . واندلس الشيء خفى . . . إلخ .

والظاهر أن المذكور في المادة ثلاثة مصادر هى الدَّلْسُ والدَّلْسُ والدَّلْسَةُ والأخير مصدر الألوان، وأفعالها من باب فريح، وعلى هذا يكون الفعل دَلَسَ الليل يدَلْسَ دَلْسًا ودَلْسًا ودَلْسَةً أظلم، وجميع الأفعال المزيدة التى جاءت في هذه المادة لَتَدُلَّ على الخفاء أو الخديعة من باب المجاز وتوجيه الزيادة فيها ظاهر .

ذغى

أهمله الجوهري وصاحب اللسان، وفي القاموس : الذاغية المضاعفة الرغناء وجاء في التاج لابن سيده : والغازية من الصبى الرغناء ما دامت رطبة، فإذا صَلَبَتْ وارت عظمًا فهى يَأْفُوح .

وإتيان صاحب التاج بالغازية في مادة ذغى يشير إلى أن الذاغية مقلوب الغاذية ويظهر أنها أطلقت على الرغناء على المجاز والجامع الرخاوة وعدم تمام التكوين، ولما كانت مادة غذى أكثر تصرفًا من ذغى وجب الاختصار على ماورد من الثانية .

ذقو

في التاج : (وفرس أذقى) أهمله الجوهري والجماعة (وهو الرخو الأذن الرخو الأنف وهى ذقواء) ونص التكملة : فرس أذقى وَرَمَكَة ذَقَوَاء وهى الرخو الرائف الأذن فتأمل هذه مع سياق المصنف اهـ .

وعبارة اللسان : رجل أذقى رِخُو الأنف والأنثى ذَقَوَاء ، والجمع الذَقَوُ وهى الرخو أنف الأذن .

ونرى في عبارة اللغويين هنا شيئًا من الإبهام والاضطراب، وذلك أن قولهم : الرخو الأنف المقصود به أنف الأذن، وأنف كل شيء طرفه، ويقصد به . رخاوة الأذن نفسها، أما عبارة صاحب التكملة وهى الرخو الرائف الأذن فلعل صوابها رِخُو رائف الأذن، ورائف الأذن ورانفتها غُضروفها .

ولنرجع الآن إلى استخراج الفعل بعد أن ظهر لنا أنّ الوصف منه على أفعال فعلاء، وهذا خاص باب فريح، فيكون الفعل الثلاثى ذَقَى الفرس يَذْقَى ذَقًا اسْتَرَحَّتْ أذناه، أصل الفعل ذَقَوَ وقعت الواو متطرفة بعد كسر فقلبت ياء .

ذكب

قال في التاج : (المذكوبة) بالذال المعجمة أهمله الجوهري وصاحب اللسان، وقال الصاغاني هـ (المرأة الصالحة) .

وجاء في لسان العرب في مادة كذب: المكذوبة من النساء الضعيفة، والمذكوبة المرأة الصالحة، وكذلك فعل صاحب التاج في مادة كذب.

ولأمر ما يذكر صاحب اللسان المذكوبة بجانب المكذوبة، وظاهر ذلك أنه يرى بينهما قلباً، والمذكوبة بمعنى الضعيفة اسم مفعول من كذبتها النفس أو الأيام فمتمتتها بالصحة والقوة ولم تصدق فهي مكذوبة، وكذلك المذكوبة مقلوبتها بمعنى المرأة الصالحة اسم مفعول من كذبتها النفس أو الأيام فمتمتتها الأمانى الكاذبة فعرفت قيمتها فانتعظت وأصبحت صالحة بصيرة بأحوال الدهر وصروفه، فإطلاق المذكوبة على الصالحة من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم، وإذا ثبت لنا أن المذكوبة مقلوب المكذوبة، وكانت تصارييف الثانية أكثر من تصارييف الأولى وجب الاختصار على ماورد من الأولى.

رخد

في القاموس والتاج: الرُّخُودَةُ اللين والنُّعومة والخضب والسَّعة، وهم في رُخُودَةٍ من العيش، ويقال هو رِخُودٌ كِرَازَبٌ قال أبو الهيثم: الرُّخُود: الرُّخُو؛ زِيدَتْ فِيهِ دَالٌ وَشَدَّدَتْ مَكْسُوعًا بِهَا وَهِيَ بِهَاءِ رِخُودَةٍ، ويقال رجل رِخُودٌ الشَّباب نَاعِمُهُ، وقيل رجل رِخُودٌ لَيْسَ الْعَظْمُ سَمِينٌ كَثِيرُ اللَّحْمِ رِخُو، وجمع رِخُودَةٍ رِخَاوِيد.

ويظهر لي أن الرُّخُودَةَ مصدر من المصادر السماعية النادرة، وأن معنى هذه المادة كمعنى رَغْد، ولكنها ليست مقلوبتها لأننا لا نجد مصدراً من رَغْد على وزن فَعُولَةٍ. ولما كانت قريبة المعنى من مادة رَغْد وكان الفعل رَغْدٌ من بابي فَرِحَ وَكُرُمَ جاز أن يقتصر هنا على باب واحد هو باب فَرِحَ ونقول: رَخِدَ العيش يَرُخِدُ رِخُودَةً لَأَنَّ وَطَابَ وَأَتَّسَعَ.

وأما الرُّخُودُ فهو على رأى أبى الهيثم من مادة أخرى هي رُخُو، وعلى غير رأيه يكون وزنًا غريبًا للصفة المشبهة.

رزع

في التاج: (هو أرزع منه) بالزاي بعد الراء أهمله الجوهري وصاحب اللسان وقال الصاغاني في العُباب (أى أَجْبَنُ)، وأهمله في التكملة، ولا إخاله إلا تصحيف أروع بالواو فأنظره، أو هو بالغين المعجمة فتأمل.

وأقول إن إبدال العين من الغين معهود في لغة العرب؛ ذكر منه السيوطي في المزهرة جملة صالحة منها: العَلَكُ شدة القتال واللزوم له والغَلث، وَلَعَنَ لُغَةً فِي لَعَلٍّ وَلَعَنَ، وسمعتُ وعاهم ووغاهم، وَبَعَثَ متاعه وَبَعَثَ، وشغفها حبا وشغفها.

وجاء في اللسان في مادة رزغ فيه إرزاغا وأغمز فيه إغمازا استضعفه واحتقره .

وإننا نجد كثيرا من الاتصال في المعنى بين رَزَعَ ورَزَعَ ورَزَعَ ورَزَعَ وجاء في اللسان ورَدَعَتْ السماء مثل رَزَعَتْ، وفي التاج وأخذ فلانا فَرَدَعَ به الأرض إذا ضربه بها (يريد ضربها به) ، وفيه في رَدَعَ ويقال رُدَعَ بفلان أى صُرِعَ ، وأخذ فلانا فَرَدَعَ به الأرض أى ضَرَبَ به الأرض اهـ .

وهذه المواد في جملتها كما قال الصاغاني تدل على استرخاء واضطراب ، ومن كل هذا استنبط أولا أن صاحب اللسان أتى بالماضى المجرد لَرَدَعَ ورَزَعَ ولكنه لم يذكر بابها ، وكذلك لم يذكره أحد من اللغويين فيما نعرف .

ثانيا أن الذى يفهم من نصوص اللغة ومن قواعد الصرف أن تصاغ مادة رَزَعَ على النحو الآتى :

رَزَعَتِ السماء تَرَزَعُ رُزُوعًا من باب فَتَحَ بَلَّتِ الأرض أو بَالَعَتْ في بَلَّها ، ومثله أَرَزَعَتْ ، ورَزَعَ الرجل ارتَطَمَ في السَّوْحِلِ أو في العُيُوبِ أو جَبَّيْنٍ مجاز ، وأَرَزَعَهُ لَطَخَهُ بالعيب ، وأَرَزَغَ فيه استضعفه واحتقره وعابه ، وأَرَزَغَ الرجل احتقر حتى بَلَغَ الطَّيْنَ الرُّطْبَ ، ويقال في مادة رَدَعَ رَدَعَتْ السماء تَرُدُّعُ رُدُوعًا بَلَّتِ الأرض أو بِالْعَثِّ في بَلَّها ، ورَدَعَ بفلان الأرض يَرُدُّعُها به رُدُعا ضربه بها به ، ورَدَّعَ به صَرَعَهُ .

رضن

في اللسان : المرَضُون شبه المنضُود من الحجارة ونحوها يضم بعضها إلى بعض في بناء أو غيره ، وفي نوادر الأعرابي رَضِنَ على قبره وَضِمِدَ وَنَضِدَ وَرُئِدَ كُلُّهُ واحد .

ولكنه في مادة صَمَدَ لم يذكر من معانيها معنى نَضَدَ ، ثم إن الفعل نَضَدَ من باب ضرب ، ورُئِدَ من باب نصر ، فيمكن أخذ باب منها للفعل رَضِنَ لتشابهها في المعنى وليكن باب نصر لأنه أكثر ، فنقول رَضِنَ البَنَاءُ الحجارة يَرَضُنُها رَضْنًا ضُمَّ بالبَنَاءِ بَعْضُها إلى بعض .

رفخ

في التاج : (وعيش رافخ رافخ) الغين يدل عن الخاء^(١) ، وفي اللسان في مادة رَفَخَ : والرَّفْعُ والرَّفَاةُ سعة العيش والخصب ، وعيش أرفغ ورافغ ورافغ واسع طيب ، ورَفَعُ عَيْشُهُ بالضم رَفَاةً اتسع ، ولما كانت الخاء في رافخ مبدلة من الغين وجب ألا يُتَّسَعَ في تصریفها .

(١) ذكر صاحب المخصص مثالا لهذا النوع من الإبدال ١٣ - ٢٧٥ .

رفن

التاج: (الرفن: التنبض) كذا في النسخ والصواب التنبض كما هو نص ابن الأعرابي (و) الرفن (كجذب الطويل الذنب من الخيل) قال الأزهري: والأصل رِفْلٌ (والرافنة المتبختر في بطر).

ونقول: إن الظاهر أن الرفن بمعنى التنبض مصدر، ونرى أن يكون فعله من باب ضرب لازماً^(١) فيقال: رَفَنَ العرق يَرْفِنُ رفونا ضرب وتحرك وتنبض، ومنه الرافنة المتبختر في بطر لدلالة الفعل على معنى الحركة.

أما الرفن فنرى أن النون فيه مبدلة من اللام، وقد عد السيوطي في الزهر جملة من هذا النوع منها فرس رِفْلٌ ورِفْنٌ، ولهذا نرى الاختصار على ما سُمع منه.

رقح

اللسان: الترقيح والترقيح: إصلاح المعيشة . . . وترقح لعياله: كسب وطلب واحتال . . . والاسم الرقاحة، والرقاحة الكسب والتجارة، ومنه قولهم في تلبية أهل الجاهلية: جئناك للنصاحه ولم نأت للرقاحة.

ونفهم من هذا أن الرقاحة مصدر الفعل الثلاثي الذي لم يذكر في المادة، وهو مصدر غير مقيس في مفتوح العين كالرجاجة والقطانة، وإقرانه في تلبية أهل الجاهلية بالنصاحه التي هي مصدر نصح يُشعر بهذا، وإذا كان الفعل حلقى اللام نرى أن يكون من باب فتح هكذا: رَقَحَ العيش يَرْقَحُ رِقَاحَةً صَلَحَ، والمال نما، ورتقه أصلحه ونياه، ورتق الرجل لعياله كسب كترقح. وبعد كتابة هذا رأينا أن البيهقي في كتابه تاج المصادر قد عد الرقاحة مصدراً من باب فَعَلَ يَفْعَلُ.

رفح

في اللسان: الأرفح هو الذي يذهب قوته قبل أذنيه في تباعد ما بينهما . .

ابن الأثير: في الحديث: «كان إذا رفح إنساناً»؛ أراد رفحاً أى: دعا له بالرفاء فأبدل الهمزة حاء، وبعضهم يقول: رفح بالقاف، وفي حديث عمر رضى الله عنه لما تزوج أم كلثوم قال: رَفَحُونِي؛ أى: قولوا لى ما يقال للمتزوج.

وظاهر أن هذه المادة تشتمل على أصليين، وقد ذكر فيها من الأصل الأول الصفة المشبهة لمصدر

(١) إنها أثرتا باب (ضرب) لمشابهته في المعنى لتنبض.

يدلُّ على الخِلقة الظاهرة، وهى على وزن أفعل الذى مؤنثه فعلاء، ولا تأتى هذه إلا من باب فريح كما فى أرْسَحَ ورَسَّحَا وأَخْنَفَ وخَنْفَاء، لهذا نقترح أن يكون مجرد هذه هكذا:

رَفَّحَ الثورَ يَرْفَحُ رَفْحًا: ذهب قرناه قَبْلَ أذنيه.

أما الأصل الثانى فهو رَفَّأَ؛ لأن الحاء فى رَفَّحَ مبدلة من الهمزة وهنا يجب الاقتصار على المسموع بالحاء لأنه مقلوب المهموز.

رصح

فى اللسان: الرَّصَحَ لغة فى الرَّسَحِ، رجل أَرْصَحَ وأمرأة رَصَّحَاء. . . ويقال الرَّصَعُ قرب ما بين الوريكين، وكذلك الرَّصَحُ والرَّسَحُ والزَّكَلُ. . . وربما كانت الصاد بدلًا من السين.

أقول: وإبدال الصاد من السين معهود. (راجع ص ٢٧٧ وما يليها من المزهج ج ١).

فإذا عددنا الرَّسَحَ أصلاً لكثرة مشتقاته وجب أن تقتصر على ما سُمِعَ من مادة رَصَّحَ.

ركى

فى اللسان: «الرَّكِيَّ: الضعيف، وقيل ياقوه بدل من كاف الركيك، قال فإن كان ذلك فليس من هذا الباب، وهذا الأمر أَرَكِيَّ من هذا أى أهون منه وأضعف».

والعرب تبدل ثالث الأمثال فى المضعَّف ياء، فتقول فى التَّمَطُّطِ التَّمَطُّي، وفى التَّقَصُّصِ التَّقَصُّي، وفى التَّنْظِنِ التَّنْظِي، وقالت فى لَبِيَّتْ فى المكان لَبِيَّتْ، وفى قَصَصْتُ الشعرَ قَصِيَّتْ، وقال تعالى: ﴿وقد خاب من دسَّاسها﴾ أصله: دَسَّسَهَا، فإذا جرينا على أن الياء الثانية فى الرَّكِيَّ مبدلة من كاف فلا بد أن يكون ذلك الإبدال حدث أولًا فى مصدر اللهاى وهو الرَّكُّ فأصبح الرَّكِيَّ، ثم سَرى هذا الإبدال إلى مصدر الثلاثى وهو الرَّكَاكَة أو الرَّكَّة، فصار المصدر على هذا التوهيم الرَّكَايَة أو الرَّكِيَّة، فاشتقت منه الصفة المشبهة وهى: الرَّكِيَّ بمعنى الضعيف، واسم التفضيل وهو: أَرَكِيَّ.

وإنى أرى فى هذا تَكَلُّفا ظاهراً، وأوثر الاقتصار على أن الياء فى الرَّكِيَّ مبدلة من كاف الرَّكِيك، وفى أَرَكِيَّ مبدلة من كاف أَرَكَّ لسبب لا نعرفه، وأن الفعل رَكَّ هو فعلهما فيقال: رَكَّ الشيء فهو رَكِيك ورَكِيَّ، وهذا الشيء أَرَكَّ وأَرَكِيَّ من ذاك.

رهم

فى اللسان: الرَّهْمَةُ بالكسر المطر الضعيف الدَّائِم . . . وأرْهَمَتِ السماء إزهاما أمطرت، وروضة مَرْهُومَةٌ ولم يقولوا: مَرْهَمَةٌ . . . ونزلنا يَفْلانٍ فكنّا فى أرْهَمِ جانبيه أى أخصبهما.

دُكر من هذه المادة المصدر والفعل المزيد بالهمزة، واسم المفعول من الثلاثي واسم التفضيل، ويمكن أن تصوغ فعلا ثلاثيا له مادام قد سُمع اسم المفعول واسم التفضيل والمصدر.

ولما كانت عين المصدر حرف حلق يحسن أن يكون من باب فتح هكذا: رَحِمَتِ السماءَ تَرَحَّم رِهْمَةً: أنزلت المطر ضعيفا، ورَحِمَتِ الأرضَ أَرَحَمَتْ، ورَحِمَتِ السماءَ الأرضَ سَقَتها فالأرضَ مَرهُومَةً.

سَخِمَ

في اللسان: السَخِمَ مصدر السَخِيمة، والسَخِيمة: الحِقْد والضَّغينة... ورجلٌ مُسَخِّمٌ: ذو سَخِيمة، وقد سَخِمَ بصدره، والسُّخْمَةُ: الغضب، وقد تَسَخَّمَ عليه...، والسُّخْمَةُ السَّوَادُ، والأَسَخِمُ الأسود، وقد سَخِمَتْ بصدر فلان إذا أغضبته... والسُّخَامُ بالضم: سواد القدر، وقد سَخِمَ وجهه أى سَوَّده،... ابن الأعرابي: سَخِمَتِ الماءُ وأوغرته إذا سَخِنَتْه.

ونرى أن هذه المادة تشتمل على أصليْن: الأول: السَخِمَ وهو السَّوَادُ، وقد تكون الحاء فيها مبدلة من الحاء، أو الحاء مبدلة من الحاء، وهذا كثير، وقد عدَّ السيوطي من ذلك في المزهرة جملة صالحة (انظر ص ٣١٧ و ٣١٨ ج ١) وتفرع من هذا الأصل على المجاز السَخِيمةُ بمعنى الحِقْد، والسُّخْمَةُ بمعنى الغَضَب. الأصل الثاني: وهو التسخيم بمعنى التسخين، وظاهر جدًا أن الميم فيه بدل من النون، وهذا الإبدال كثير معهود. (انظر ص ٢٧٦ من الجزء الأول من المزهرة).

لهذا نرى أن نكمل المادة على الأصل الأول هكذا: سَخِمَ الشيءُ يَسَخِمُ سَخْمَةً وَسَخِمًا سَوْدٌ فهو أَسَخِمٌ وهى سخاء، وَسَخِمَ وجهه سَوَّده ومن المجاز سَخِمَ صدره حَقْدًا، وَسَخِمَهُ دفعه إلى الحِقْد، وَسَخِمَ الرجلُ سَخْمَةً غَضِبَ، وَسَخِمَتْ بصدره أغضبته فَتَسَخَّمَ.

أما على الأصل الثاني: فنرى الاختصار على المسموع وهو سَخِمَتِ الماءُ لأن إبدال الميم من النون فيه ظاهر.

صَحِمَ

جاء في كتب اللغة من هذه المادة الأصْحَمُ والصُّخْمَةُ وهى سواد إلى الصُّفْرَةِ، وقيل هى لون من الغبرة إلى سواد قليل، وجاء فيها الصُّخْماءُ، وأصْحَامُ النَّبْتِ: اشتدت خضرته، وأصْحَامَتِ الأرضُ: تَغَيَّرَ نَبَتُهَا.

ونرى أن ماذكر في هذه المادة من المصدر والصفة المشبهة يهديننا إلى أن الفعل الثلاثي من باب فَرَحَ حَتْمًا، وماذكر فيها من الفعل المزيد لا يغنى عن المجرد؛ لأن الزيادة فيه معنى زائد وهو التدرج،

والفعل المقترَح هو : صَحِمَ الشَّيْءُ يَصْحَمُ صُحْمَةً سَوَدَ إِلَى صُفْرَةٍ ، أَوْ اغْبَرَّ إِلَى سَوَادٍ .

سخذ وصخذ

في اللسان في مادة سخذ : وأصبح فلان مُسْخَذًا إذا أصبح وهو مُصْفَرٌّ مُورِّمٌ . . . ، والسُخْدُ الرِّكْلُ والصُّفْرَةُ في الوجه ، والصاد لغة على المضارعة اهـ .

ثم أعاد العبارة السابقة في مادة صَخَدَ فاتحاً سين السُخْدَ قائلًا : إن الصاد فيه لغة ، ومقتضى عبارة التاج ضُمَّها .

وجاء في صفحة ٢٧٧ من المزهج ١ عن البطلاني : كل سين وقعت بعدها عين أو غين أو خاء أو قاف أو طاء جاز قلبها صادًا .

ونرى أن الأصل في مادة سَخَدَ السُّخْدُ وهو الماء الأصفر الثَّخِين يخرج مع الولد ، وكل ماجاء فيها من المعاني يحوم حول هذا الأصل ، وأن الأصل في مادة صَخَدَ الحرارة وقوة حر الشمس فهي متصلة بمادة صَهَدَ ، ولابد أن يكون بين الخاء والهاء تبادل ، فالمادتان سَخَدَ وصَخَدَ مختلفتان في الأصل ، والمعاني المتصلة بسَخَدَ تحتم أن تكون السين أصلاً وأن الصاد مبدلة منها ، لذلك نرى أن نضع فعلاً لهذه المادة ، وأن تقتصر على ما ورد من مادة صَخَدَ .

ولما كان الفعل حلقى العين نرى أن يكون من باب فتح هكذا : سَخَدَ الرجل يَسْخَدُ سُخْدًا اشْتَرَحَى لحمه واصْفَرَّ .

سسدخ

في اللسان : ضربه حتى انسدخ أى انبسط ، ونقل التاج عبارة اللسان ثم قال : وقد تقدم في الجيم فراجع ، وجاء في التاج في مادة سدج « وأنسَدَجَ مقلوب أنْسَجَدَ وأنْدَسَجَ إذا انكَبَّ على وجهه كحالة الساجد اهـ » .

ويرافق هذه الطائفة من الأفعال سَدَحَ ومعناه صَدَعَ . قال الأزهري : والسَّدَحُ والسَّطْحُ واحد أبدلت الطاء فيه دالا كما في مَطَّ وَمَدَّ وما أشبهه ، ومن هذا نرى أن الانكباب على الأرض له ستة أفعال : هى سَجَدَ وسَدَجَ ودَسَجَ وسَطَحَ وسَدَحَ وسَدَخَ .

ونرى أن ادعاء صاحب التاج بأن انسدج مقلوب انسجد فيه نظر ؛ لأننا لم نجد في كتب اللغة نصاً يدل على صحة انسجد ، ونعرف أن المطاوعة لا تفعل إنما هى مطاوعة الفعل المتعدي ككسره فانكسر ، وليس سجد فعلاً متعدياً بحال . إذاً انسدج فعل قائم بنفسه لا اتصال له بسجد ، وهو مطاوع لفعل

متعدٍ هو سَدَج ، ولا فرق في الحقيقة بينه وبين اندسج لأن كليهما فعل قليل التصرف ، ولكننا نستطيع أن نَعُدَّ سَدَج أصلا ونصوغ منه فعلا من باب نصر هكذا : سَدَجَه على الأرض يَسُدُّجُه سَدَجًا كَبَّه وطرَّحه عليها ، ويكون اندسج إذا مقلوب اندسج ، أما سَدَح وسَدَخ فأصلهما سَطَح أبدلت الطاء في الأول دالا فصارت سَدَح ، ثم أبدلت الحاء في هذه خاء فصارت سدخ^(١) ، ولما كانت تصرفات الفعل سَطَح أكثر وأوسع نرى أن يكون هو الأصل وأن يقتصر على المسموع من مادنى سَدَح وسَدَخ .

سَطَل

في اللسان : وقال بعضهم الطاسِل والساطِل من الغبار المرتفع ، ومن اسم الفاعل يستطاع الإتيان الفعل من باب نصر : هكذا سطل الغبار يَسْطُلُ سَطُولًا : ارتفع .

سَطَن

في اللسان : الساطِن الخبيث ، وقد ظننت أن السين هنا مبدلة من الشين فرأيت في اللسان الشاطِن الخبيث ، والشیطان فَيَعَالُ من شَطَنَ إذا بُعِدَ فيمن جعل النون أصلا ، قال في المصباح : وفي الشَّيْطَان قولان : أحدهما أنه من شَطَنَ إذا بُعِدَ عن الحقِّ أو عن رحمة الله فتكون النون أصلية ووزنه فَيَعَال . . . والقول الثاني أن الياء أصلية والنون زائدة عكس الأول ، وهو من شاطَ يَشِيطُ إذا بَطَلَ أو اخْتَرَقَ فوزَّنه فَعَلَان .

وأقول : إن صوغ الشاطِن بمعنى الخبيث من شَطَنَ لا شاطَ ، ولما كانت كلمة الساطِن مبدلة من الشاطِن^(٢) وكانت مادة الشاطِن أعظم وأوسع وجب الاعتماد عليها .

زَبَعَ

في اللسان : الزَّبَعَ أصل بناء التَزْبُع ، والتزْبُعُ : سوء الخلق ، والمتزبِع الذي يؤذى الناس ويُشَارُهُم ، والتَزْبُعُ التَّعْيِظُ كالتَزْعُب ، وتَزْبُعُ الرجل تَغْيَرٌ ، والزَّبِيعُ المُدْمِمْ في غَضَبٍ وهو المتزْبِع .

أقول : ذكر في هذه المادة مصدر الثلاثي وصفة منه على فَعِيل بمعنى فاعِل هي الزَّبِيع ، وأشار إلى قرب هذه المادة من زَعَب بقوله : والتَزْبُعُ التَّعْيِظُ كالتَزْعُب وإن كنا نرى أنها مأخوذة من الزُّوبَعَة وهي الشيطان أو الريح المعروفة ، ويُستطاع أن يؤتى بالفعل المجرد من هذه المادة من باب فتح لأنه حلقى اللام فيقال : زَبَعَ الرجل يزْبِعُ زَبِعا : اغتاظ أو ساء خلقه كَتَزْبِع .

(١) عدَّ صاحب المخصص أمثلة كثيرة لهذا النوع من الإبدال ١٣ - ٢٧٦ .

(٢) في المخصص جملة كافية من هذا النوع من الإبدال ١٣ - ٢٧٨ .

زَرَز

في التاج: الزَّرِيز كَأَمِير: الخفيف النظيف، وقال أبو عمرو: هو العاقل المُخَكِّم الرَّأْي، ونَصَّ النوادر: والشديد الرَّأْي، هكذا نقله الصاغاني وأهمله الجوهري وصاحب اللسان.

أقول لم يذكر في هذه المادة إلا الصفة المشبهة، وقوله: الزَّرِيز كَأَمِير يدفعنا إلى الاستئناس بأن فعلها مثل فعل أمير، وأمير يكون من باب فريح ومن باب كَرَّمَ^(١)، ولكننا نقصره على الباب الثاني ونقترح أن يكون زَرَزَ يَزُوزُ زَرَاةً خَفَّتْ رُوحُهُ وَنُظْفَتْ أَوْ حَصُفَ رَأْيُهُ.

صَقَح

في اللسان: الصَّقْحَةُ الصَّلَعة، ورجل أَصْقَحَ أَصْلَحَ؛ بيانة، وفي القاموس وشرحه: الصَّقَحَ حركة: الصَّلَحَ، والنعت أَصْقَحَ وهي صَفْحَاء، والاسم: الصَّقْحَةُ محركة، والصَّقْحَةُ بالضم لغة يمانية.

وإذا كان المصدر الصَّقَحَ والوصف منه على أفعال فعلاء تعين أن يكون الفعل من باب فريح، وكان الفعل حاصلًا في الكَفَّ على حَدِّ تعبير ابن جني.

سَغَى

أهمله صاحب اللسان: وفي التاج: السَّاعِيَّة، أهمله الجوهري، وقال الصاغاني عن ابن الأعرابي: هي الشربة اللذيذة، وكأنه من سَغَى الشراب في الحلق مقلوب ساغ إذا سَهَّلَ، ثم يُتَيَّ منه السَّاعِيَّة وهي كَعِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فتأمل.

نقول: إن القلب هنا واضح، ولا نوافق صاحب التاج في أن في السَّاعِيَّة مجازًا عقليًا استعمل فيه اسم الفاعل مكان اسم المفعول لأن الفعل ساغ يكون لازماً ومتعدياً، ولزومه أكثر وأشهر، فالسَّاعِيَّة مقلوب السَّاعِيَّة من الفعل اللازم ومعناها العذبة اللذيذة السهلة في الحلق. ولما كان القلب هنا ظاهرًا وجب أن يقتصر على كلمة السَّاعِيَّة من غير زيادة.

* * *

وبما يُصِل بهذا الموضوع ما عقد له صاحب المخصص بابًا أسماه: باب أسماء المصادر التي لا تشتق منها أفعال (الصفحة ٢٢٢ من الجزء ١٤) وقد تناولنا هذا الباب ببحث فياض سنشره في الجزء

(١) في المخصص: وقالوا: أمر علينا كَتَبه. مفتوحان والفتح أجود وأصح. وهذا يجعله من باب نصر أيضًا.

التالى من المجلة إن شاء الله تعالى^(١). ولكننا نتعجل هنا نشر خلاصة هذا البحث. فنقول :

عد ابن سيده من هذه المصادر ستة وخمسين مصدرًا، نقل واحدًا وأربعين منها عن أبى عبيد، ولكن أبا عبيد نفسه ذكر أفعالاً خمسة مصادر منها، وعقب ابن سيده على مصدرين، فذكر لكليهما فعلاً. وهذا البحث إلى العثور على أفعالٍ لثمانية وعشرين منها. أما بقية المصادر التى جاءت فى هذا الباب، فمنها ثمانية عن ابن دريد، وأربعة عن ابن السكيت، وثلاثة عن ثعلب، وقد وجدنا لهذه لها أفعالاً، وانتهى بنا البحث إلى أن الستة والخمسين مصدرًا التى زعم أنه لا أفعال لها لم يصحّ منها إلا ستة مصادر.

(١) انظر صفحة ٢١٧ فى هذا الكتاب .

طموح المتنبي (٥)

في نحو السنة الخامسة عشرة بعد الثلاثمائة، نرى عند أبواب دمشق شيخاً رقيق الحال، تقتحمه العين، أخذ منه جهد السفر وجهد الحياة، ودل عبوس وجهه ووراثته زيه أنه لا ينال عيشه إلا بعرق القرية، ونضح الجبين، وقد أخذ بضبع غلام في الثانية عشرة، سعفته الشمس فزادت وجهه المليح سمرة على سمرة، وقد شعت عيناه الواسعتان السوداوان بذكاء نادر وعبقريّة لا يخطئها من له علم بالفراسة، وتقدير مواهب بنى الإنسان. وكان هذا الصبي قلق النفس كثير التلفت، كلما رأى مشهداً من مشاهد العظمة في المدينة، أو مر به سرى من سراتها في خدمته واتباعه حدق فيه، ومد عينيه في هفّة ظمأى ساغبة امتزج فيها الحسد بالغبطة، واليأس بالأمل، ثم أطرق لإطراقه الحزين، وهمهم بها يشبه الأنين.

ذاتكم هما الحسين بن الحسن، وابنه أحمد الذي عرفناه بعد ذلك بالمتنبي، قدم به أبوه دمشق، ليتلقى فنون الأدب واللغة على جهاذتها وأعلامها، بعد أن نطقت مخايله بما أعد له الزمان: من مجد رفيع، وشأن بعيد.

كان الطموح وتطلب معالي الأمور من أبرز صفات هذا الصبي وأظهرها، والخلق كيفما كان (كريماً أو ذمياً) إذا تملك نفساً أخضعها لسلطانه، وأنزلها عند حكمه، وتحكم فيها تحكم الصبي على أهله فألقت إليه بعنانها ومكتته من ناصيتها وسأقت إليه جميع ما فيها من صفات، لتكون وسائل غايته، وحشرت في طاعته كل ما تستطيع بذله لإطفاء غلته.

فالناس عبيد نفوسهم وما يسيطر عليهم من نزعات قوية إلى الخير أو إلى الشر، وعلماء الأخلاق في

(*) ألقى هذا البحث في الاحتفال بالذكرى الألفية للمتنبى، الذي أقيم بدار الأوبرا في ٢١ من فبراير سنة ١٩٣٦م ونشر

كل أفق وزمان يحشدون حشدهم ، ويمجدون جهدهم لتقوية نزعات الخير والسمو الروحي إلى أرفع أوج ، ومخارية نزعات الشر والتدلى بالنفس الإنسانية إلى الخفض .

وأساس هذا الخلق ودعامته أن يكبر المرء نفسه أولاً ، ويثق بمواهبه ، ويسخر من شذائد الدهر وأزمائه ، ويبدل الوسائل جميعها التي تصل به إلى الغاية ، وأن يقدم إذا كان الإقدام عزمًا ، ويحجم إذا كان الإحجام حزمًا ، وأن يطأطي لئيب ، ويدمن القرق ليلج ، وألا ينهنه بأس ، ولا يقل من عزيمته ملل ، وأن يصانع ويداهن إذا خطت به المصانعة إلى طلبته ، ويهدد ويتوعد إذا طار به التهديد إلى أربته ، وأن يجعل عزمه مطية أمله ، وأمله فوق نفسه ، ونفسه فوق متناول الآمال ، وقد كان المتنبي كذلك في جميع أطوار حياته فهو يقول في صباه :

إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعُجِبْ عَجِيبٌ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدٍ
أَنَا تَرْبُ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي وَسَاءَ الْعَدَى وَغَيْظُ الْخُسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَذَارِكُهَا اللَّهُ غَرِيبٌ ، كَصَالِحٍ فِي تَمُودِ

ويقول في كهولته :

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْنِهِ وَمَرْكُوبُهُ رَجُلًا وَالنُّوَابِ جِلْدُهُ
وَلَكِنَّ قُلُوبًا بَيْنَ جَنْبَيَّ مَالَهُ مَدَى يَنْتَهِي بِي فِي مُرَادٍ أَحَدُهُ

ويقول في أواخر أيامه :

ذَرَيْتُ أَتْلَ مَا لَا يَنْتَالُ مِنَ الْعَالَا فَصَنَبُ الْعُلَا فِي الصَّنَبِ وَالسَّهْلُ فِي السَّهْلِ
تُرِيدِينَ لَقِيَانِ الْمُتَالِي رَجِيصَةً وَلَا بَدَّ دُونَ الشَّهِيدِ مِنْ إِبْرِ التَّخْلِ

* * *

إن بوادي الطموح ، ذلك الخلق العنيف الوثاب ظهرت في شاعرنا منذ نشأته الأولى ، وملك عليه جوانب نفسه ، فأحس عظم همته وسمو مطالبه في فتائه وصباه ، حين يقول في كبر وصلف :

وَحُضْرَةُ نَوْبِ الْعُنَيْشِ فِي الْخُضْرَةِ الَّتِي أَرْتِكَ إِهْرَارَ الْكُوتِ فِي مَسْدَرَجِ النَّمْلِ
أَمِطْ عَنْكَ تَنْسِيهِ بِ (مَا ، وَكَأَنَّهُ) فَمَا أَحَدٌ فِئُوقِي ، وَلَا أَحَدٌ مِنْغِي

وقد وصل (في صباه) إحساسه عظم نفسه وكبر همته إلى حد الجنون ، حين يقول :

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ؟ أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقِي ؟
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ
مُحْتَقِرٌ فِي هِمَّتِي كَشْفَرَةٌ فِي مَفْرِقِي

وقد رأى المتنبي — منذ غضارة عوده وميعه صباه — أن آمال نفسه الكبيرة لا تنال إلا بحد السيف وشبابة السنان ؛ لأنه نشأ في عصر يشبه عصر الفتوة بأوروبا ، وقد رأى بعينه — بعد أن أصبحت الدولة العباسية نهبا مقسما — أن القوة كانت تؤسس ملكا في يوم وليلة ، لذلك نراه في جميع أوجه حياته ، يرى أن الحق للقوة وأن المجد لا ينال إلا تحت ظلال السيوف ؛ استمعوا له حين يقول في صباه :

وَلَا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكْرَمًا تَمُتْ وَتُقَاسِ الدُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ
فَتُبْ وَاثَقًا بِاللَّهِ وَثَبَةً مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النُّخْلِ فِي الْقَمِّ

وقد يتغلب اليأس على هذا الفتى المسكين ، ويحس بُعد آماله ، وقصر ذات يده ، فيقول :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرَبِي وَلَا الْقَنَاعَةُ بِالْإِفْلَاقِ مِنْ شَيْمِي
وَلَا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتَرَجَّيْنِي حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرُقَهَا هِمَمِي
لِمِ اللَّيَالِي الَّتِي أَخْنَثَ عَلَى جِلْدَتِي بِرِقَّةِ الْحَالِ ، وَاعْدِرْنِي وَلَا تَلَمِّ
أَرَى أَنَا سَا ، وَتَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ ؛ وَذِكْرَ جُودِي ، وَتَحْصُولِي عَلَى الْكَلِمِ

حتى إذا ضاقت نفس شاعرنا الناشئ ، وأنف أن يطوف به طائف من الضعف ، قال :

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَأْتُ مَضْطَبَّرَ فَلَا أَلَنْ أَقْحَمُ حَتَّى لَأْتُ مُقْتَحَمَ
لَا تُرَكِّنْ وَجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقِي عَلَى قَلَمِ

على رسلك أيها الفتى ! أين هذه الخيل ؟ ومن أين تأتي بالشيعة والأنصار ، وقد أراد القدر أن تكون من أسرة حيث وضعها القدر ؟ ولكن النفس الطموح تتسلى بالآمال ، وتتشبث بأذيال الخيال .

ما هذه الهمة الشماء يا أبا الطيب ؟ وإلى أي شيء تتجه ؟ لقد كشف المتنبي الحدث عن ذات نفسه ، وباح بما يحيك في صدره من ذلك المطلب السامي البعيد ، الذي بذل لنيله فيها بعد ماء وجهه وماء حياته ، فقال :

أَيْمَلِكُ الْمَلِكَ — وَالْأَمِيَّاتُ ظَامِيَةٌ وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ — لَحْمٌ عَلَى وَصَمِ

مرحى مرحى !! لقد عرفنا ما كان يريده أبو الطيب؛ إنه كان يريد الملك، نعم لقد كان يريده، ولقد كان من أجل ذلك شديد الحقد على ملوك عصره، حتى في أيامه الأولى، ولقد حاول في سن العشرين أن يدعو إلى نفسه، فبايعه طائفة من عرب السبوة، ولكن المحاولة لم تنجح كما كان مقدراً لها، فأخذ أبو الطيب وأودع السجن، وأظهر في السجن ذلة واستخاء لا يليقان بالفارس المغوار، صاحب الآمال الكبار، حين يناجى في سجنه صاحب حصص :

أَمَالِكَ رَمَى، وَمَنْ سَأَلَهُ
دَعَاؤُكَ جُنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَا
وَدَعَاؤُكَ لَمَّا بَرَزَ إِلَى الْبَلَاءِ
وَقَدْ كَانَ مَشِيئُهُمَا فِي النَّعَالِ
هَبَاتُ اللَّجَيْنِ، وَعَشَقُ الْعَبِيدِ
وَالْمَوْتُ مِنِّي كَحَبْلِ الْوَرِيدِ
وَأَوْهَنَ رَجُلٌ يُقَالُ الْخَدِيدِ
فَقَدْ صَارَ مَشِيئُهُمَا فِي الْقَيْدِ

وخرج المتنبي من السجن، فنفض عنه ما اعتراه فيه من ضعف، وعاد إلى سالف عزمته، وأنف طموحه، ولكنه رأى ضرورة تغيير خططه، وابتكار وسائل جديدة لغايته، فسبق إلى نفسه أن الاستجداء بالشعر، وجمع الأموال من هذه الطريق، قد يُعده إلى مطلبه الأسمى :

فَلَا تَجِدْ فِي الدُّنْيَا كَيْنَ قَلَّ مَالُهُ
وَلَا مَالٌ فِي الدُّنْيَا كَيْنَ قَلَّ حُجْدُهُ

فهام على وجهه في الآفاق، يمدح من عز وهان، ولكن نفسه كانت تطالعه باليأس من هذه الوسيلة، وتناجيه فتقول :

إِلَى كَيْفِ دَا التَّخَلُّفُ وَالْثَوَانِي
وَتُغْلُ النَّفْسُ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي
وَكَيْفَ هَذَا التَّأْدِي فِي التَّأْدِي؟
يَبِيعُ الشُّعْرَ فِي سُوقِ الْكَوَادِ

لا يا صاحبي، إن مطلبك البعيد لا ينال بالخضوع وذل السؤال، فكن كما قلت :

مَنْ أَطَاعَ الْيَمَاسَ شَيْءٌ إِلَّا بَا
وَأَغْنَصَابًا، لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤْلًا

وكانى أرى المتنبي، بعد لآى، مطرق الرأس، كاسف البال، بين شعور بالضعف، وأمل في القوة، ينشد :

فَسِرْتُ نَحْوَكَ لَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ
أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلَوَى شَرَفَتْ بِهَا
وَأَنْشَقَّتْ رَاحِلَتِي، الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا
لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَّى - مَا عَاشَ - وَانْتَحَبَا
وَأَنْشَقَّتْ رَاحِلَتِي، الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا
لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَّى - مَا عَاشَ - وَانْتَحَبَا

ولكنه يسأم مديح الناس، وتضييق نفسه بالوهدة التى وضع فيها نفسه، فيثور ثورة الحائق المهديد :

لِلّهِ حَالٌ أَرْجِيْهَا، وَتُخْلِفُنِيْ
مَدَحْتُ قَوْمًا؛ وَلَئِنْ عَشِنَا نَظَّمْتُ هُمُ
وَأَقْضِي كَوْنَنَا دَهْرِي، وَيَمْطُلُنِي
قَصَائِدًا مِنْ إِنَاتِ الْخَيْلِ وَالْحُصْنِ

لماذا كل هذا؟ لأن الناس لا يعرفون قدره، ولأن الأقدار لم تضعه في موضعه :

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِي إِذَا مَا زُوِجِمَتْ
وَإِذَا خَفِيَتْ عَلَى الْغَيْبِ فَعَاذِرُ
وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنْنِي الْجُوزَاءُ
أَلَّا تَرَانِي مُقْلَةً عَمِيَاءُ

ومادام الناس لم يرفعوه فوق الرءوس، وماداموا لاهين عما تستحقه عظمتهم ومواهبه، فليسحقهم تحت قدميه سحقاً، وليقل :

وَمَنْ عَرِكَ الْإِيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ
وَبِالنَّاسِ، رَوَى رُفْعَةُ خَيْرٍ رَاحِمٍ
وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمْ بَأْسٌ

إن له مطلباً أسمى من قرض الشعر ومن بلوغ الغاية فيه، وقد وسوست إليه نفسه أن هذا المطلب من حقه، وأنه لم يسع إليه متطفلاً، ولم يجبس عليه آماله دعياً، استمعوا له حين يقول :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايِخِ
ثِقَالٍ إِذَا لَأَقُوا، خِفَافٍ إِذَا دُعُوا
كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمُّوا مُرْدُ
كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا، قَلِيلٍ إِذَا عُودُوا

سأطلب حقي !! ما هذا الحق الذي يطلبه المتنبي؟ يكشف عن هذا الحق في كثير من الغموض والإيهام فيقول مرة :

إِذَا عَامَرْتُ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ
فَطَعَمَ الْمَوْتُ فِي أَمْرِ حَقِيرٍ
فَلَا تَقْنَعُ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
كَطَعَمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ

ويقول ثانية :

ذَرِ النَّفْسَ تَاخُذُ وَنُسَعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
وَلَا تُحْسِبَنَّ الْمَجْدَ زَقَاً وَقَيْنَةً
فَمُفْتَرِّقٌ جَارَانِ دَارِئِمَا الْعُمُرُ
فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْيَحْرُ
وَتَرَكُّكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا
تَدَاوَلَّ سَمْعُ الْمَرْءِ أُنْمُلُهُ الْعَشْرُ

ويقول ثالثة :

أَرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يَبْلُغَنِي
وَيَقُولَ أَخِيرًا فِي تَهْوِيلٍ مَرْهَبٍ خَفِيفٍ
مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

تَقَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ
وَلَا سَالِكًا إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ
يَقُولُونَ : مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدٍ ؟
وَلَا قَائِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا
وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِحُرْمَةِ طَعْمًا
وَمَا تَبْتَغِي ؟ مَا ابْتَغَى جَلُّ أَنْ يُسَمَّى

ما هذا الذي جل أن يسمى يا أخا العرب ؟ لقد عرفناه من قبل ، ولقد كشف عنه المتنبي مرة أخرى في بيت دسه في آخر قصيدة لكافور ، حين يقول :

فَإِزْمِ يَمَى مَا أَرَدْتَ مِنِّْي فَإِنِّي
وَفُؤَادِي مِنَ الْمَلُوكِ ، وَإِنْ كَا
أَسَدُ الْقَلْبِ ، أَدْمَى الرُّؤَا
نَ لِسَانِي يُسْرَى مِنَ الشُّعْرَا

ولكن ماذا يصنع المتنبي للوصول إلى هذه الأمنية الشاسعة ، وقد يقف تطامن نسبه عقبه في سبيل مطلبه العزيز ؟ لا ، لا ، إن شيئا من ذلك لن يقف في سبيل غاياته ؛ إن المتنبي يفرع مجده ، الذي بناه لنفسه ، مجد الباحثين عن أصله ، ومجد آبائهم ، وإن الإنسان إنما يلجأ إلى الفخر بالأنساب بعد أن تنقذ وسائل الفخر الأخرى :

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الْ
وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ
فَخَرًّا لِعَظْمِ أَرْوَحٍ مُسْتَمَلَّةِ
وَلِيُفَخِّرَ الْفَخْرُ إِذْ غَلَدَتْ بِهِ
أَنَا الْإِلْدَى بَيْنَ الْإِلَهِ بِهِ الْ
بَاحِثُ ، وَالنَّجَلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ
مَنْ نَقَرُوهُ وَأَنْقَدُوا حَيْلَهُ
وَسَمَهُرِي أَرْوَحُ مُسْتَمَلَّةِ
مُرْتَدِيَا خَيْرُهُ وَمُسْتَمَلَّةِ
أَقْدَارَ ، وَالْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهُ

ثم يرحل أبو الطيب إلى سيف الدولة ، وإذا قرأنا شعره في هذا الأمير العظيم ، وقد لزم بساطه نحو تسع سنين ، نرى أن هذه المنازعة العنيفة إلى مطلبه الأسمى قد هدأت كثيرا ، وأن فخره كاد يقتصر على التمدح بمواهبه الشعرية البارة ، وعلى تحدى شعراء العصر جميعا ، وكانوا شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، كما يقول الثعالبي .

والسبب فيما أرى أنه لم يجد مجالا ، ولم ير فائدة من كشف مراميه البعيدة في حضرة أمير عربي قوى ، نهض بملكه الصغير إلى أسمى المراتب في السياسة والعلم والأدب ، فلم يستطع المتنبي أن ينس بكلمة عن آماله ، ولا عن قومه ونصرائه ، الذين كان يتخيلهم في كل قصيدة قبل ذلك ، لهذا ضاق به المكان على اتساعه ، وقلق به المضجع على وثارته ، لأنه رأى أنه إن أقام بكنف سيف الدولة فإنه سيعيش شاعرا ويموت شاعرا ، وهذا ما تأباه نفسه الطماحة ، فماذا يفعل ؟ يتيه ويدل ويهدد ، ويضمن على سيف الدولة بالمديح ، ويخاطبه مخاطبة الند ، ويقرعه أحيانا ، ويصبح كلاً لا يطاق ولا يجتمل ، ويخاطب سيف الدولة في مجلس حافل فيقول :

أَعِيذُهَا نَظَرَاتِ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّخْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمَ
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَظَرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ؟
سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِنْ صَمِّ مَجْلِسُنَا بَأَنِّي خَيْرٌ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمًا

وبعد كل هذا يرضى عنه سيف الدولة، ويقره، ويخلع عليه، ولكن نفس المتنبي السجينة، تريد أن تنطلق، وتريد أن تطير إلى جو تجدد فيه إربتها، وتصل فيه إلى غايتها، فيذهب المتنبي إلى مصر، وفيها كافور يقوم بالملك عن ابن سيده، فيظن المتنبي أن الزمن واتاه، وأن أمنيته التي غالبته عليها الأيام أصبحت منه على طرف الثمام كافور يقصده أعظم شعراء المشرق ولا يجد عليه بولاية؟ هذا مستحيل، كان هذا الظن الكاذب أكبر غلطة غلطها المتنبي في حياته، قطع عليها أصابعه حسرة وندما.

أخذ يتذلل للأسود ويتضع، ويصغر ويهون، ونسى الشمم، ونسى الشهامة، ونسى صلفه على سيد الدولة، وهو يرى أن الغاية تبرر الوسيلة، حتى لقد جعل خاتمة أكثر قصائده في كافور، طلباً ذليلاً، يريد منه صاحبه النظر بعين الرأفة والإنصاف . . . اسمعوا طلباً من هذه :

وَلَوْ كُنْتُ أَذْرِي كَمَ حَيَاتِي، قَسَمْتُهَا وَصَبَرْتُ ثُلُثِيهَا انْتِظَارَكَ؛ فَاغْلَمْ
وَلَكِنَّ مَا يَمْضِي مِنَ الْعُمُرِ قَائِتٌ فَجُدْ لِي بِحِظِّ الْبَادِرِ الْمُتَعَنِّمِ
رَضِيتُ بِمَا تَرْضَى بِهِ لِي، حَبَّةً وَقَسَدْتُ إِلَيْكَ النَّفْسَ قَوْدَ الْمُسْلِمِ
وَمِنْ ثَلَاثٍ مَنْ كَانَ الْوَسِيطُ قُوَادُهُ فَكَلِّمْهُ عَنِّي، وَلَمْ أَكَلِّمْ

ولم يعبأ المتنبي بصلات كافور، ولا بما أغدق عليه من أموال؛ لأنه يقول :

وَمَا رَغْبَتِي فِي عَسَجِدٍ أَسْتَقِيدُهُ وَلَكِنَّهَا فِي مَقْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ

وكان الأسود وعده بولاية، لا ليفى وعده، بل ليمد له حبل الأمل، وليطيل إقامته بمصر، فكان المتنبي يطالبه بوعده ويستبطئه، ويتحكم أحياناً بالحال التي وصل إليها كقوله :

أَبَا الْمَسْكِ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَتَاكَ فَإِنِّي أَغْنَى مُنْذُ حِينَ وَتَشَرَّبْتُ؟
وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفَى زَمَانِنَا وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفَيْكَ تَطَلَّبْتُ
إِذَا لَمْ تَنْطَبِ بِى ضَبَّةً أَوْ وَلا كِبَةً فَجُودُكَ بِكُشُوتِي، وَشَغْلُكَ يَسْلُبُ

وما زال بين إلحاح ودهان، وبأس عابِس، وأمل ضاحك، حتى ظهر له أنه كان موضع خديعة هائلة، وسخرية مخزية، وأنه لا ولاية ولا ملك، وأن ماء وجهه الذي أراقه، وشممه الذي دسه في التراب، لم يحصل منهما على شيء إلا الهزيمة والعار، فهو يقول في حزن وأنين :

وَلَا أُسِي لَاهِلِ الْبُخْلِ صَيْفًا
وَكَا صَارَ وَدَّ النَّاسِ خِبَا
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ
وَلَيْسَ قِرَى سِوَى مَخِ النَّعَامِ
جَزَيْتُ عَلَى ائْتِسَامِ بِائِتْسَامِ
لِعَلِمَى أَنَّهُ بَغْضُ الْاِتْسَامِ

ثم يفر من مصر تحت ستار الليل . وتتفجر نفسه بهجاء كافور، انفجارا قد يكون الوحيد من نوعه في تاريخ الأدب، وهنا يعرف المتنبي أن كل وسائله الأدبية لا تجدى، وأن القلم وحده لا يصل به إلى شاسع آماله، فيقول قول النادم الحزين :

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي :
أَكْتُبُ بِنَا أَبَدًا، بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ
الْمَجْدُ لِلْسَيْفِ، لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ
فَأَنْسَا نَحْنُ لِالْأَنْسَاءِ كَأَنْفَدَمِ

ولكنه ينظر فيرى أن الشيخوخة أدركته، وأنه بعد كل ما بذله من جهد لم يعمل عملاً، ولم يبلغ أملاً، فيتعزى بأنه جاء إلى الدنيا بعد أن طارت منها فرص المجد، وعاش في أُمم لا تقدر الرجال، فيقول :

وَقَدْ يَضِيحُ، وَحُمْرُ لَيْتَ مُدَّتْهُ
أَتَى الزَّمَانُ بَسُوهُ فِي شَيْبَتِهِ
فِي غَيْرِ أَمْتِهِ مِنْ سَالِفِ الْأُمَمِ
فَسَرَّهُمْ، وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ

ويزيد به الألم، وتلذذه لوعة اليأس وضيق الأمل، فيصيح :

أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَرِيمٌ
أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَكَانٌ
تَسْرُوْهُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ الْهُمُومُ؟
يُسَرُّ بِأَهْلِهِ الْجَارُ الْمُقِيمُ؟

ولا يزال في أسف وبكاء على تلك الأمانى الغالية، التى طارت أمام عينيه في الهواء، وذهبت مع الهباء، إلى أن يقول - في آخر قصيدة قالها - قول اليائس المتهدم :

فَرَزْلُ يَأْتِيُنْدُ عَنْ أَيْدِي رِكَابِ
وَأَنْتَى شِفَتْ يَاطْرُقِي فَكُونِي :
لَهَا وَقَعُ الْأَسِنَّةِ فِي حَشَاكَ
أَذَاةً، أَوْ نَجَاةً، أَوْ هَلَكََا...!

الفاروق: الأديب الفالف (١)

« . . امتزج تقدير عمر للشعر وإحساسه بروعته وجماله ، بقوة نزعته الدينية وبإرساخ في نفسه من الإيمان المكين ، وكان يميل إلى الصدق في المديح وإلى الحكمة العالية وإلى الجدل في القول . وكان يستنكر الهجاء ويحاول تأويله نزوعاً إلى دره الحدود بالشبهات . »

يستطيع الباحثون أن يجدوا مجالا فسيحا للقول إذا حاولوا الحديث عن عدل الفاروق وحكمته ودينه وسياسته . ويستطيع المؤرخون أن يظفروا في حياة الخليفة العظيم بنبع فياض ينقع الغلة ويشفي العلة . ويستطيع المؤرخون أيضاً أن يبتدوا عند النظر في سيرته الشريفة ببارق يؤسسونه في ضوءه ماشاءوا من نظريات لنظام الحكم العادل وصفات الحاكم الحكيم .

ولكن الأديب إذا نظر في حياة عمر رضى الله عنه - وقد كانت حياة جد وصرامة وجهاد وعزم - لا يجد إلا لمحات هنا وهناك انتشرت في كتب الأدب يعثر عليها بين الحين والحين .

وقلة ما بين أيدينا من لفتات الفاروق في الأدب ونقده للشعر، إنما كانت لأن الكاتين الأولين حينما كتبوا تاريخه العظيم ترجعوا إلى أبرز صفاته وأظهر عميزاته فيهمهم لألاوها، وملك عليهم زمام القول جلالها، ورأوا أن الوقت أضيق من أن يتسع لاستقصائها، فأسرعوا يدونون منها ما يستطيعون، ويتلقفون من كريم أخبارها ما يتلقفون .

أرأيت البحر الخضم المائج وقد وقفت على طرف من سيفه، أكنت مستطياً أن تحيط بمداه، أو تقف طرفك عند متناه؟

(*) : نشر بصحيفة «دار العلوم» بالعدد الأول يوليو ١٩٣٦ م . من ص ٦٧ - ٧٦ .

أرأيت السماء الصافية في الليلة الصاحية وقد طرزت النجوم رقعتها ، ولعلت الزهر على شطآن مجرتها؟

أتري وقد أرسلت طرفك إلى هذا الفضاء الفسيح أنك قادر على عد هذه الكواكب المشتبكة المتناثرة؟

كان الفاروق أديبا ، وكان له ذوق عربي صميم في نقد الشعر ، ونظرة البصير في الحكم على جيده ورديته . ولو أن المؤرخين عنوا بهذه الناحية من حياة عمر لوصل إلينا منها الجمل الكثير.

كانت النزعة الأدبية فيه شديدة الإحساس . وهذه النزعة هي التي دفعته إلى الدخول في الإسلام فهو لم يسلم خوفاً من أحد ، ولم يسلم رغبة في جاه أو عتاد ، ولكنه أسلم لأنه قرأ القرآن الكريم وتأثر به فملك شعوره وأخذ عليه نواحي نفسه .

وقد امتزج تقدير عمر للشعر وإحساسه بروعته وجماله ، بقوة نزعته الدينية وبما رسخ في نفسه من الإيمان المكين ، فكان يميل إلى الصدق في المديح وإلى الحكمة العالية وإلى الجد في القول ، وكان يستنكر الهجاء ويحاول تأويله نزوعاً إلى درء الحدود بالشبهات . وكان شديد الميل إلى شعر زهير بن أبي سلمى ، لمزيد عنايته بصقل شعره ، وتهذيبه ، ولكثرة ما كان يأتي في تضاعيف كلامه من الحكم ، ولأنه كان لا يمدح إلا مستحقاً ولأنه كان شاعر سلم لا شاعر حرب ، وقف مواهبه الشعرية على الإصلاح بين القبائل وحقق دماها . فقد كان عمر يقول : أشعر الشعراء من يقول من ومن ومن ، يقصد زهيراً ويشير إلى ما جاء من صنوف الحكمة في آخر معلقته .

دخل مرة على عمر بن الخطاب ، ابن هرم بن سنان (بمدوح زهير) فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ابن هرم بن سنان . قال : صاحب زهير؟ قال : نعم . قال : أما إنه كان يقول فيكم فيحسن . قال : كذلك كنا نعطيه فنجزل . قال : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

قال ابن عباس : قال لي عمر بن الخطاب : أنشدني من قول زهير ، فأنشدته قوله في هرم بن سنان ابن حارثة حيث يقول :

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأفلاذ من ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
جن إذا فرغوا إنس إذا أمنوا	مرزؤون بها ليل إذا احتشدوا
عُشدون على ما كان من نعم	لاينزع الله منهم ماله حُسدوا

فقال عمر : ما كان أحب إلي لو كان هذا الشعر في أهل بيت رسول الله !

فعمر هنا بعربيته الذواقه يدرك جلال الشعر وجماله وقوته ، وبإسلامه الراسخ لا يريد إلا أن يكون الشعر صورة للحق الأبلج لا تختل فيه ولا خداع ، فهو لذلك يود لو كانت أبيات زهير مديحاً في بيت النبوة ليلم له المثل الأعلى الذى يريده للشعر ، وهو أن يصل إلى قمة البلاغة مع الصدق الذى لا يعيب به رياء .

وقال عمر مرة - فيما روى الرواة - لابن عباس : أنشدنى لأشعر الناس الذى لا يعاظم بين القوافي ولا يتبع حوشى الكلام . قال : من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : زهير بن أبى سلمى . فلم يزل ينشده حتى أصبح .

وكان عمر يطرب لقول زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفاذ أو جلاء

ويل زهيراً فى المنزلة عنده نابغة بنى ذبيان للسبب الذى ذكرناه آنفاً ، وهو جزالة شعر النابغة ، وميله إلى الحكمة وضرب المثل ، ولأنه فى كثير من اعتذاراته للنعمان كان يصور الحقائق كما هى من غير مواربة أو مخاتلة .

دخل على الفاروق مرة وفد من غطفان فقال لهم من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك رية وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : نابغة بنى ذبيان . قال لهم : من الذى يقول :

أتيتك عارياً خلقاً ثيابى على وجل تظن بى الظنون
فألقيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا هو النابغة ، قال : هو أشعر شعرائكم . والبيت الثانى من بيتى النابغة يشبه لغة الإسلام ولعل ذلك كان سبباً فى إعجاب عمر بهذا الشعر ، فقد رسخ الدين الكريم فى نفسه رسوخاً حبيب إليه كل شىء من الشعر فيه أخلاق الإسلام وآدابه .

حج مرة فلما كان بضجنان قال : لا إله إلا الله العلى العظيم المعطى من يشاء ما شاء ، كنت بهذا الوادى فى مدرعة صوف أرمى إبل الخطاب ، وكان فظاً يتعبنى إذا عملت ويضربنى إذا قصرت ، وقد أمسيت الليلة وليس بينى وبين الله أحد ثم تمثل :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته لا يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمرز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له والجن والإنس فيما بينهما ترد
أين الملوكة التى كانت نوافلها من كل أوب إليها وافد
حوض هنالك مورود بلا كذب لأبد من ورده يوماً كما وردوا

وأشهد أن هذا الشعر لم يعظم عند عمر إلا لأنه يفيض بآداب الدين وينطق بلغة الإسلام .
وكثيراً ما كانت القبائل أو عظماء العرب تفزع إلى - عمر رضى الله عنه - يستعدونه على الشعراء
الذين همجهم ، فكان عمر رفقا بالشعراء وإبعاداً للشر عنهم يتكلف التأويل لهذه الأهاجى ، ويبالغ
فى تهوين أمرها ، وهو أعلم بها انطوت عليه من سم زعاف . وحكايته مع الزبرقان بن بدر والخطيئة
مشهورة .

ولما هجا النجاشى رهط تميم بن مقبل استعدوا عليه عمر وقالوا يا أمير المؤمنين إنه هجانا ، قال :
وما قال فيكم ؟ قالوا قال :

إذا الله عادى أهل لؤم ودقة فعادى بنى عجلان رهط ابن مقبل
قال عمر : هذا رجل دعا ، فإن كان مظلوماً استجيب له ، وإن لم يكن مظلوماً لم يستجب له .
قالوا : فإنه قد قال :

قبيلته لا يخفرون بدمية ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يريدون الماء إلا عشيبة إذا صدر السوراد عن كل منهل

قال عمر : ليت آل الخطاب مثل هؤلاء فإن ذلك أجّم وأمكن ، قالوا فإنه يقول :

وما سمي العجلان إلا لقوله خد القعب واحلب أيها العبد واعجل

قال : سيد القوم خادهم فما أرى بهذا بأساً .

والخلاف فيما أعتقد بين رهط تميم وعمر أنهم يفهمون الشعر بروح الجاهلية ، وعمر رضى الله عنه
يفهمه بروح الإسلام .

كان عمر مع هذا يبغض صريح الهجاء ويستكره ، وقد حبس فيه الخطيئة لما لم يجد مناصاً من
عقوبته ، ولكنه كان يتأثر بالشعر إذا استعطف به . وقد كان الخطيئة حين استعطفه ليطلق سراحه
أعلم الناس بأخلاق الفاروق ، فجاءه أولاً من ناحية بنيه الصغار وما يلاقون من جوع وشظف بعد
حبس أبيهم ، ثم لما همّ بمدحه لم يجاوز الحد ولم يقل إلا حقاً :

ماذا تقول لأفراخ بلدى مرخ زغب الخواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألفت إليك مقاليد النهى البشر
ما آثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم قد كانت الأثر

لذلك أمر عمر بإطلاقه وأخذ عليه ألا يهجو مسلماً .

وكان عمر رضى الله عنه شاعراً مقلداً . قال سعيد بن المسيب كان أبو بكر شاعراً وعمر شاعراً وعلى أشعر الثلاثة .

وقد كان شعره صورة من نفسه المؤمنة ، حتى إنه حينما أراد أن يرتجز لحدااء ناقته كان يقول :
إليك يندو قلقا وضينها مخالفنا دين النصارى دينها

أى دين صاحبها . ومن قوله يوم فتح مكة :

ألم تر أن الله أظهر دينه	على كل دين قبل ذلك حائد
غداة أجال الخيل فى عرصاتها	مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره	وأمسى عداه من قتيل وشارد

هذا موجز فى الناحية الأدبية الشعرية من حياة الفاروق أرجو أن يكون فيه غنية للمتأدبين .

اختيار في مراتب وضع الألفاظ

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - لسنا الآن في صدد الكلام على اختيار كلمات للمعجم الكبير الذي سنضعه إن شاء الله ؛ فإن هذا المعجم سيشتمل على كل شيء من حديث الكلام الصحيح وقديمه ، مشهوره وغريبه ، ذائعة ونادره ، وإنما البحث الآن محدود باختيار كلمات صحيحة لأدوات حديثة ، أو آلات جديدة ، أو أى شأن من شئون الحياة العامة ، وبعبارة أخرى : نحن في صدد اختيار كلمات صحيحة بدل الكلمات التي يستعملها الناس محرفة أو أعجمية أو عامية ولا مسوغ لها ، وأرى أن هذا الاختيار يتطلب وضع نظام محدد حتى لا تعمى علينا الطرق ، وحتى لا نحتاج إلى الإقاضة في المناقشة واقترح مبدأ جديد عند النظر في كل كلمة يراد اختيارها .

ومجالات الاختيار معروفة محصورة وهي :

(أولا) الكلمات العربية الفصيحة .

(ثانيا) الكلمات العامية الصحيحة ، أو المحرفة وفي الاستطاعة تصحيح ألفاظها .

(ثالثا) الاشتقاق .

(رابعا) المجاز .

(خامسا) التعريب .

وأرى أن يكون النظام المتبع عند اختيار كلمة لمعنى من معانى الشئون العاملة أن ننظر :

(١) فإن وجدنا للمعنى الجديد في المعجمات لفظا يطابقه ، وكان هذا اللفظ جامعا ما اشترطناه من الخفة وموافقة الذوق - أخذناه .

(٢) ويجب أن نتجه بعد ذلك إلى متعارف الكلام عند الناس : فإن رأينا اللفظ الذي وضعوه لهذا

المعنى يمكن تصحيحه وتحريجه ؛ اختيار اللفظ المتعارف ؛ ليكون بجانب اللفظ المعجمى رديفاً ، وأبيح للناس اختيار اللفظ الذى يرونه .

أما إذا كان اللفظ العامى بحيث لا يهتدى إلى أصله العربى ، لكثرة ما اعتوره من عواصف التحريف فى أدوار التاريخ ، أو كان منحولاً من لفظة أعجمية - فإنه يجب نبذه .

أما إذا لم يوجد للمعنى الجديد لفظ يطابقه فى المعجمات ، ووجد فى متعارف الكلام لفظ يستطيع تصحيحه - فإنه يكتفى باختيار اللفظ المتعارف . فإذا أظهر البحث فى مستقبل الأيام لفظاً معجمياً يطابق المعنى وضع هذا اللفظ بجانب اللفظ الأول .

(٣) فإذا لم نجد هذا ولا ذاك عمدنا أولاً إلى الاشتقاق .

(٤) فإن لم يسعدنا الاشتقاق عمدنا إلى المجاز ، وذلك إننا يكون باختيار كلمة من مهجور اللغة للمعنى الحديث ، لمناسبة بين المعنيين كما نسمى الـ Direction بالكوئيل .

(٥) فإن لم نجد فى ذلك طلبتنا عمدنا إلى التعريب ، وذلك آخر سهم فى الكنانة .

حضرة العضو المحترم الدكتور فارس نمر - نريد من حضرة الأستاذ على الجارم أن يذكر لنا أمثلة .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - إذا كان عندنا معنى جديد لآلة أو أداة مثل (حنفية الماء) فإن أول ما نعمله هو أن ننظر إلى ناحيتين مختلفتين . وهما ناحيتا المعاجم ، واللغة العامية ، فإن رأينا فى المعاجم كلمة تطابق هذا المعنى ، ورأينا فى العامية كلمة يمكن أن تكون صحيحة أخذنا الكلمتين فقلنا (الصنبور والحنفية) وتركنا الناس أحراراً فى استعمال أية كلمة منهما .

وإذا وجدنا أداة لم نجد لها اسماً مطابقاً فى العربية الفصحى ، مثل (عقرب الساعة) وهى كلمة لم يستعملها العرب فى هذا المعنى ، ولكنها عربية صحيحة ، نقول : عقرب الساعة ولا نقول : (المشير) ؛ فإن هذه الكلمة موضوعة بالاشتقاق ، ونحن لا نلجأ إليه متى وجد العامى الصحيح .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى - هل هناك مشابهة بين العقرب وعقرب الساعة ؟

حضرة العضو المحترم الأستاذ الشيخ أحمد الإسكندرى - القدماء سموه عقرباً لمشابهة بينه وبين العقرب .

حضرة العضو المحترم الدكتور فارس نمر - كلمة (عقرب الساعة) عامية ، وجدت إما للمشابهة بينها وبين العقرب ، وإما لسبب آخر ، فليست العلاقة هى المشابهة دائماً .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - ذبوع الكلمة طول هذه السنين يشفع لها ، وأنا أعتقد أن لابد من صلة وإن خفيت .

حضرة العضو المحترم الدكتور فارس نمر - كانت المشابهة في زمن من الأزمان، ثم تنوسيت بانقضاء هذا الزمان، فليس من الضروري إذن أن نبحث عن العلاقة سواء أكانت المشابهة أم غير المشابهة مادام اللفظ عربيا صحيحا، وهو شائع في معناه.

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين وإلى - أما كلمة (الحنفية) العامية - فلها مناسبة أو وجه صحيح في العربية، لأنها كما قيل نسبة إلى الحنفية المنتسبين إلى الإمام أبي حنيفة، فهذه نقبلها. وأما المثال الثاني وهو (عقرب الساعة) الذي قلتم إننا نقبله - فهل هناك مناسبة بين العقرب وعقرب الساعة؟

حضرة صاحب المعالي رئيس المجمع - هناك قاعدة ومثال : أفى المثال تطعن أم في القاعدة؟

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين وإلى - أطعن في القاعدة .

حضرة العضو المحترم الأستاذ الجارم - القاعدة أننا إذا لم نجد في المعجمات كلمة للمعنى الجديد نفضل الكلمة العامية الصحيحة المتعارفة .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين وإلى - كلامي في القاعدة، أما المثال فلو بحثنا فيه وضع ما قاله الأستاذ الإسكندري من أن لعقرب الساعة نوعا من الشبه بالعقرب، فالمثال صحيح ، والقاعدة غير مسلم بها ؛ فإن قاعدة الأستاذ الجارم أن تأتي بالكلمة العامية ولو لم يكن بينها وبين المعنى صلة .
حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - أقول تأتي بالكلمة العامية إذا لم يكن لها رديف في العربية .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين وإلى - هذه القاعدة خارجة عن القواعد العربية، وقد تدخل في اللغة ألفاظا كثيرة غير صحيحة .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - الكلمة التي اختيرت عربية صحيحة، فماذا يضيرنا لو أضفنا إلى معجمنا كلمة عربية صحيحة جرت على ألسنة العامة؟

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين وإلى - إذا جرت الكلمة العامية على أقيسه العرب قبلناها، وإلا فلا نقبلها .

حضرة العضو المحترم أحمد العوامري بك - الكلمة صحيحة عربية مستعملة في معنى شائع .

حضرة العضو المحترم الشيخ إبراهيم حمروش - إن اقتراح الأستاذ الجارم لا يخرج في الجملة عن المادة الثانية من لائحة المجمع .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - هناك فرق بين ما أقوله وبين اللائحة : فأنا أريد أن أبين المراتب التي يتتبعها الواضعون للألفاظ ، فهل توافقون على الترتيب الذي أقترحه؟

حضرة العضو المحترم الشيخ أحمد الإسكندري - أرى أن نتبع اللائحة ؛ فإن اللائحة هي العقد الذي اتفقنا عليه ، وهي دستورنا .

حضرة العضو المحترم الأستاذ جب - إذا اتفق حضرات الأعضاء على أن تطبق اللجان هذه القواعد كانت بمثابة توضيح لما في اللائحة .

حضرة العضو الأستاذ نلينو - أوافق حضرة الأستاذ على الجارم ، غير أنني أخشى أن نقيّد أنفسنا ونحن في بدء أعمالنا بقيود ثقيلة ، وقد يخيل إلينا أن الأمر هين ، ولكننا لا نعرف ما يطرأ في المستقبل . ثم إن اقتراح الأستاذ الجارم خلو من (التعريب) ولابد من التعريب أحيانا . على أنه لم يذكر مع المعاجم المراجع العلمية التي تحوى المصطلحات مثل كتب الطب والعلوم .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - لقد ذكرت التعريب في اقتراحى ، ولا مانع عندي أن أقول (المراجع) بدلا من المعجمات ؛ لتدخل كتب العلوم التي تحوى المصطلحات .

حضرة صاحب المعالي رئيس المجمع - أتوافقون على اقتراح الأستاذ على الجارم أم تكتفون بما ورد في المادة الثانية من اللائحة ؟

فقرر المجمع الاكتفاء بالتزام اللائحة .

حضرة صاحب المعالي الرئيس - لننتقل إذن إلى البحث في الكلمات العامة .

كما جاء في محضر جلسة المجمع في دورته الثانية بالجلسة رقم ١٢ في مارس ١٩٣٥ ونشر في مجلة المجمع ص ١٢١ .

مقدمة

ديوان علي الجارم (*)

الحمد لله ، والصلاة على جميع رسله وأنبيائه ، وبعد فإني لا أريد أن أسهب في الكلام على معنى الشعر وخصائصه . ومبعث الروحانية فيه ، ذلك لأن هذا المبحث طرقة الباحثون كثيراً فأخفقوا . وأطالوا فيه فكانت إطالتهم أول دليل على العنى والحصر ، ومن العنى إطالة الكلام ، وتكرار تاء التمتام . أرادوا أن يحدوا روحانيته بالألفاظ . فعجزت الألف ، وضلت الباء . وكيف يحيط المحدود بغير المحدود؟ وكيف تكشف ظلمة المادة توهج النور؟

إن شرح آثار الإحساس الجسمي من أبعد الأمور تأتياً وأدخلها في باب الاستحالة . أرايت لو أنك ذقت سكرًا أو ملحًا ، ثم سألك سائل متعنت أن تشرح له طعم السكر أو الملح ، أكنت مستطيعًا؟ أرايت لو شممت وردًا أو نرجسًا ، ثم بدهك إنسان يفقد حاسة الشم أن تبين له في وضوح ودقة ذلك الأثر الذي شعرت به . أكنت قادرًا على أن تجده له اللفظ إن وجدت المعنى؟

فإذا كان هذا الشأن . وتلك الحال في إحساس الأجسام ، فكيف في إحساس العقول؟ وإذا كانت الألفاظ عاجزة عن وصف أثر المادة الجامدة في الأجسام ، فكيف تكون إذا همت بوصف أثر الروح النورانية في النفوس والأرواح؟

حاول عبد القاهر الجرجاني في كتابيه «أسرار البلاغة» ، «دلائل الإعجاز» ، أن يشرح ما بهر نفسه من ضروب البلاغة في بعض ما ساق من الشواهد فأخفق وأخفق ، وطالما نظرت مبتسماً إليه وهو يكذب ويكذب ، ويعلو ويسفل ، ويحاول الوصول إلى مواطن السحر فلا يستطيع ، ويتلمس اللفظ لشرح ما

(*) نشر بمجلة الهلال بالعدد نوفمبر ١٩٣٧ ص ٢٤ .

يجول بنفسه فلا يوفق، والغيط ينفخ أوداجه، والألم تسمعه في نبرات لفظه، يرسل الصبيحة إثر الصبيحة، كأنها يدعو إلى اصطياذ ظبي نافر، أو إلى التوثب إلى أجنحة طائر، ثم هو بعد طول الصباح وشدة الإلحاح لم يعمل شيئاً، ولم يترك في كف القارئ شيئاً!

إنك تهتز للبحتری، وتطرب له، ولكنك لا تستطيع أن تنفض خاتم سحره، ولا أن تنقل إلى نفس غيرك صدى جرسه في نفسك حين يقول في الفتح بن خاقان:

وَلَمَّا حَضَرْنَا سَاحَةَ الإِذْنِ أَخْرَجْتَ	رَجَالاً عَنِ الْبَابِ الذِي أَنَا دَاخِلُهُ
فَأَفْضَيْتُ مِنْ قُرْبٍ إِلَى ذِي مَهَابَةٍ	أَقَابِلُ بِذُرِّ الثَّمِّ حِينَ أَقَابِلُهُ
فَسَلَّمْتُ فَاغْتَاثَتْ جَنَانِي هَيْبَةً	تُنَارِعُنِي الْقَوْلُ الذِي أَنَا فَائِلُهُ

السحر في اختيار النظم، وفي إبداع التصوير، وفي وضع الكلمة في موضعها، وفي الجرس والنغم، ولكن أين السبيل إلى إبانة ذلك؟

قف أمام صورة بديعة لمصور ماهر، وكن ممن يفهمون سر الفن، ومعنى الألوان وامتزاجها وتشاكلها، ثم اشرح لصديق آيات النبوغ فيها، فإن فعلت - ولن تفعل - فتجزأ على إفشاء سر البيان، وتصوير الخيال.

والناس يلهجون قديماً بقول عروة بن أذينة:

إِنَّ الَّتِي رَحِمْتَ فَوَادَكَ مَلَّهَا	خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَىٰهَا
يَبْضَاءُ بَاكِرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا	يَبَاكِيَةٌ قَادَتْهَا وَأَجَلَّهَا
مَنْعَتْ نَجِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي	مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَهَا
فَدَنَا وَقَالَ لَعَلَّهَا مَغْدُورَةٌ	فِي بَعْضٍ رَفِيَّتَهَا فَقُلْتُ لَعَلَّهَا

ويقولون: إن أبا السائب المخزومي نزل بعروة بن عبيد الله فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، أبيات لعروة بن أذينة، يلغني أنك سمعته ينشدها، فأنشده الأبيات، فلما بلغ قوله:

فَدَنَا وَقَالَ لَعَلَّهَا مَغْدُورَةٌ	فِي بَعْضٍ رَفِيَّتَهَا فَقُلْتُ لَعَلَّهَا
--	---

طرب وقال: هذا والله الدائم الصبابة، الصادق العهد، لا الذي يقول:

إِنْ كَانَ أَهْلُكَ يَمْنَعُونَكَ رَغْبَةً	عَنِّي، فَأَهْلِي بِي أَصْنُو وَأَرْغَبُ
--	--

لقد عدا هذا الأعرابي طوره! وإنني لأرجو أن يُغَفَّرَ لصاحب هذه الأبيات لحسن الظن بها. وطلب العذر لها، ثم عرض عروة الطعام فقال: لا والله، ما كنت لأخلط بهذه الأبيات طعماً حتى الليل!

إن الأديب وحده هو الذى يفهم الشعور الذى ملك على المخزومى نواحى نفسه، واللذة الفنية التى لم تُرد أن يفسدها بطعام طول يومه .

ثم انظر إلى قول سعد بن ناشب وكان من مرده العرب، وشياطين الإنس، تجده فخامة وجزالة وبطولة لا يصورها إلا الشعر، ولا يدركها إلا ذوق الشاعر:

إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَرْمَةً وَكَتَبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَائِئًا
وَلَمْ يَسْتَشِيرْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبًا

ومن التصوير الرائع الذى يملك الجنان، ويعقل اللسان قول أبى نواس:

رُكِبَ تَسَاقَوْا عَلَى الْأَكْوَارِ بَيْنَهُمْ كَأَنَّ أَرْوَاحَهُمْ وَالنَّوْمُ وَاضِعُهَا
سَارُوا فَلَمْ يَقْطَعُوا عَقْدًا لِرَاحِلَةٍ مِنْ كُلِّ جَائِلَةِ الطَّرْفَيْنِ نَاجِيَةٍ
كَأَنَّ الْكَرَى فَانْتَشَى الْمُسْقَى وَالسَّاقِي عَلَى الْمَنَابِجِ لَمْ تُخْلَقْ بِأَغْنَاكِ
حَتَّى أَنَاخُوا إِلَيْكُمْ بَعْدَ أَشْوَاقٍ مُشْتَاقَةٍ حَمَلَتْ أَوْصَالَ مُشْتَاقٍ

قالوا: إن محمد بن زياد الأعرابي كان يطعن على أبى نواس، ويعيب شعره. ويضعفه ويستلينه، فجمعه مع رواة شعر أبى نواس مجلس، فأنشده أحدهم الأبيات السابقة، فقال: لمن هذه الأبيات؟ وكتبها، فقال: للذى تذمه وتعيب شعره أبى على الحكمى، قال: اكتب على، فوالله لا أعود لذلك أبداً.

وإذا أردت هو أبى نواس وعبه الذى يبعث فى النفس إعجاباً يروغ من التصوير، ونشوة تفر من الوصف والتعبير، فاستمع إليه حين يقول:

عَنَّا بِالطُّلُولِ كَيْفَ بَلَيْنَا وَأَسَقَيْنَا تُغَطِّكَ الشَّمَاءُ الثَّمِينَا
مِنْ سَلَاطٍ كَأَنهَا كُلُّ شَيْءٍ يَتَمَنَّى نُحَيِّرُ أَنْ يَكُونَنَا
فَإِذَا مَا اجْتَلَيْنَاهَا فَهَبَاءٌ يَمْنَعُ الْكَفَّ مَا يُبِيحُ الْعُيُونَا
ثُمَّ شَجَّثْنَا فَاسْتَظْهَكْنَا مِنْ لَالٍ لَوْ تَجَمَّعْنَ فِي يَدٍ لَأَقْتَنِينَا
فِي كَوُوسٍ كَأَنَّهُنَّ نَجُومٌ دَائِرَاتٌ، بُرُوجُهَا أَيْدِينَا
طَالِمَاتٌ مَعَ السَّقَاةِ عَلَيْنَا فَإِذَا مَا عَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِيْنَا

هذا فن يدركه الذوق، ولا يشرح تشريح الجثث.

ومن الأبيات التى يروعك جمالها: ويهتز وجدانك لتأثيرها، ويهر نفسك تصويرها، قول الشريف الرضى:

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى دِيَارِهِمْ
فَتَلَقَّيْتُ عَيْنِي فَمَنْذُ خَفِيتُ
وَطَلُّوْهَا يَسِدِ الْبَلَى تَهْبُ
عَنِّي الطُّلُوسُ تَلَفَّتِ الْقُلُوبُ

ولو أردنا أن نقول في لطف جمال الشعر وروحانيته، وعجز الألفاظ عن الإحاطة بسره، وإمالة اللثام عن مكثون سحره، لطال جبل الكلام، وحاد القلم عن الجادة، ولكننا نستطيع أن نقول في جملة قصيرة إن جمال الشعر في نظمه وجرسه وزينه، وفي انتقاء ألفاظه وتجانسها. وفي ترتيب هذه الألفاظ ترتيباً يبرز المعنى في أروع صورة وأبدعها، وفي اختيار الأسلوب الذي يليق بالمعنى ويلبّي به؛ فمرة يكون إخباراً، ومرة يكون استفهاماً، ومرة يكون استنكاراً، ومرة يكون نفيًا، ومرة يكون تعجباً؛ كل ذلك يكون مع المحافظة على الأسلوب العربي الصميم.

ثم في المعاني وابتكارها أو توليدها من القديم في صورة جديدة رائعة، ثم في الخيال وحسن تصويره والتزام الذوق العربي فيه، ثم في إحكام القافية والتمهيد إليها، ثم في انتقاء البحر الذي يلائم موضوع القصيد، ثم في التنقل في القصيدة في فنون شتى من القول مع المحافظة على الوحدة الشعرية، ثم في روح الشاعر وخفة ظله، وانسياقه مع الطبع. وتعمده لمس مواطن الشعور.

ولا يكون جمال الشعر دائماً بالمجاز والتشبيه وضروب التزيين اللفظي؛ وإنما جماله في استعداده للنفاذ إلى النفس والوصول إلى القلب على أي صورة كان، وفي أي ثوب يكون، ولأمر ما كان لبعض الشعر الجاهلي منزلة التي لا تسامى، ومحل الذي لا ينازع، ولأمر ما هوى الشعر صريعاً يلهث حينها أثقله المتأخرون بنفائس الحلّى وأنواع الحلل.

وقد يخلط من لا بصر له بالشعر بين تأثير الحال التي قيل فيها الشعر وتأثير الشعر نفسه، وكثيراً ما نال الشاعر تصفيق الجماهير واستحسانهم لأنه يتجه إلى عاطفة فيهم سريعة الالتهاب سهلة الإثارة، وكثيراً ما يلجأ بعض الشعراء في موضوع بعيد عن عاطفة العامة إلى الاستطراد إلى ذكر ما يثير نفوسهم استجداءً لصيحات الاستحسان وطلب الإعادة.

هذا دجل أدبي نعوذ بالله منه، وهذا إفساد للفن ممن يريدون الالتصاق بالفن. شأن هؤلاء شأن صغار المصورين الذين يعمدون إلى دربيات العامة بالإكثار من الألوان الزاهية البراقة، وإن ضاع الانسجام، وقُتل الفن الرفيع قتلاً.

وربما كان الشعر أعصى الفنون على التعلم، وأبعدها من أن ينال بالدرس والتدريب، إنها هو شعاع يضعه الله في قلب من يشاء، وهبة يمنحها لمن يشاء، وحاسة معنوية يزيد بها في خلق نفر من عباده يحسون بها مالا يحسه كثير من الناس، فيترجمونه بياناً ساحراً، وقولاً مبيتاً.

والشعر طريق معتبة بين عالم الأجسام وعالم الأرواح، ينقل إلى المادة الفانية نفحات الروح

الخالدة، ويرسل إلى ظلمات الحياة نوراً قدسياً، يبدد غيوم الغموم، ويكشف السبيل للأمل الحائر.

فليس الشعر الوزن وحده، ولا القافية وحدها، ولا الكلمات التي تملأ فراغ التفاعيل، وإن عذبت ولطفت، وإنما الشعر ما وراء كل بيت من ضوء روحاني وجد له بين ألفاظه متقدماً، ومن سحر سماويّ زحزح البيتُ دونه طرف الستار.

وشأن الشعر شأن الفنون كلها، إما أن يكون فناً، وإما ألا يكون، وإما أن يكون شعراً، وإما ألا يكون، فليس فيه كبقية منتجات العقول جيد ومتوسط وريء. فهو إما أن يكون جيّداً، وإما ألا يكون شعراً، نعم إن الجودة متفاوتة، ولكنها إذا نزلت إلى حد المتوسط فقد الشعر مميزات، وسلب مقوماته، وأصبح كالأما، كما يُجرّد القائد المذنب من ربه وألقابه فيصبح جندياً.

والكلام في الشعر يطول، وبحور الشعر فتاحة النواحي، بعيدة الغور، ولكني أريد هنا أن أقدم للأدباء وجمهور المثقفين مجموعة أشعارى، بعد أن أرجأت طويلاً نشرها، وأهملت كثيراً في جمعها، وبعد أن ألح على كثير من أصدقائي في إبرازها لتتال حظها في سوق الأدب.

فإذا استطاعت هذه الأشعار أن تزيد في بناء العربية صفّاً، أو أن تضيف إلى آياتها البيّنات حرفاً. أو أن تديع من مسكّى معانيها شذّاً طيباً وعرفاً، فقد بلغت المنى، وحمدت السرى، ونلت التوفيق كله، وسكنت نفسى أن قدمت بين يديّ عملاً أشعر أن فيه أداء لحق لغتى وأمتى، وأن فيه غذاء صالحاً للناشئة المصرية الكريمة التي بذلت حياتى وأبدل ما بقى منها في تثقيفها وإنهاضها إلى الأوج الذى تريد وأريد.

(*) نشرت في مقدمة ديوان على الجارم الجزء الأول عام ١٩٣٧ م.

المصادر والنوع لا أفعال لها (*)

أسلفنا الكلام^(١) في الجزء السابق من المجلة في تطبيق ما أقره المجمع من تكميل المواد اللغوية الناقصة، ولما كان هذا الأصل الخطير الشأن يشترط في هذا التكميل ألا ينص علماء اللغة أو يثيروا إلى أن المادة لم يسمع لها فعل، أو أن فعلها أميت، وجب على الباحثين أن يلموا بنصوص اللغويين في هذا الصدد حتى لا يصاغ فعل لم يميزوا صوغه بالإجماع. وقد اعتاد بعض العلماء أن يعقبوا على بعض الأسماء أو المصادر بأنها لا فعل لها، ولكن الباحث إذا واصل البحث واستقصى كثيراً من المراجع وجد من اللغويين من يذكر لها أفعالا، ورأى أنهم في المادة الواحدة قد ينقلون رأيين أحدهما بجواز صوغ الفعل، والآخر بمنعه من غير تعقيب، كأنها كان عملهم محصوراً في نقل آراء اللغويين ورصف بعضها بجانب بعض.

ولا شك أن هذا البحث من المسائل الأولى التي يجب على واضعي المعجم الوسيط تحصيلها، حتى يخرج للناس تائماً كاملاً، وقد جمعت مواد كل ما كان ضرورياً للتعبير من أسماء وأفعال.

ويدخل في هذا الموضوع ما عقد له ابن سيده باباً في الصفحة ٢٢٣ من الجزء الرابع عشر سماه باب أسماء المصادر التي لا يشتق منها أفعال، فقد أورد من هذه المصادر تسعة وخمسين مصدراً، نقل منها ثلاثة وأربعين عن أبي عبيد، وأربعة عن ابن السكيت، وثلاثة عن سيبويه، وثمانية عن ابن دريد، وواحداً عن ثعلب، ورد على أبي عبيد في خمسة منها فأثبت لها أفعالا، فبقي أربعة وخمسون مصدراً لا تزال فيما نقله لا يصبح أن يشتق منها أفعال.

(*) نشر هذا البحث بمجلة المجمع بالجزء الرابع ص ٢٢٥ عام ١٩٣٧، وهو ما وصل إليه قرار مجمع اللغة العربية الآن كما جاء في تعليق الأستاذ الدكتور مهدي علام نائب رئيس المجمع في عام ١٩٨٨.
(١) انظر ص ١٦٤.

وقد تناولت هذا البحث بإفاضة واستيعاب وتنقيب في المعجمات فظهر أن جميعها أفعالاً عدا سبعة منه .

وسأذكر في هذا المقال نص صاحب المخصص أولاً، ثم أعقب عليه، والله الهادى إلى أقوم سبيل .

(١)

المخصص : « هو رجلٌ يَتَنُّ الرَّجُلَةَ وراجل بين الرجل (ضبطت بكسر الراء) .

وفي اللسان : « والرَّجْلَةُ بالضم مصدر الرَّجُلِّ والراجل والأرجل، يقال رجل جيد الرَّجْلَةَ ورجل يَتَنُّ الرجولة والرَّجْلَةَ والرَّجْلِيَّةَ والرجولية، (والأخير عن ابن الأعرابي) وهى من المصادر التى لا أفعال لها، وهذا أَرْجَلُ الرجلين أى أشدهما، أى فيه رَجْلِيَّةٌ ليست فى الآخر. قال ابن سيده : وأراه من باب أحنك الشاتين أى إنه لا فعل له . وإنما جاء فعل التعجب (يقصد اسم التفضيل . وسوخ ذلك أنهما سواء فى الحكم) من غير فعل .

وحكى الفارسي : إمراة مُرْجَلٌ تلد الرجال، وإنما المشهور مُذَكَّرٌ ويظهر أن المصدر أخذ من الاسم الجامد وهو الرجل، وكذلك اسم التفضيل فاستغنوا بذلك عن الفعل . أما فى إمراة مُرْجَلٍ، فإنى أميل إلى أن اسم الفاعل هذا مأخوذ من الفعل أرجلت المرأة ولدت رجالاً .

(٢)

المخصص : « وحرَّ بين الحرِّية والحرُّورية » .

وفي اللسان : « والحرُّ بالضم نقيض العبد . . . ويقال حرَّ العبد يحرُّ حرارة بالفتح أى صار حراً وإنه لحرٌّ بين الحرِّية والحرُّرة والحرُّورية والحرارة والحرار بفتح الحاء » .

فإذا كان صاحب المخصص يريد أن الفعل لا يشتق من الحرية والحرورية فذاك مسلم له ، لأنهما مصدران صناعيان (الأول أخذ من الوصف وهو الحر، والثانى أخذ من المصدر وهو الحرورة) والمصدران الصناعيان ليسا بأصل للاشتقاق، وإن أراد أن الفعل لا يوجد ألبتة فغير مسلم بعد أن نص صاحب اللسان على الفعل الثلاثى ومصدره .

(٣)

المخصص : « ورجل غَزَّ وامرأة غَرَّة بينة الغَرَاة من قوم أغرار » .

وفي اللسان : « والغِرَّ والغَرِير الشاب الذي لا تجربة له . . . وقد غَرَّرت غَرارة . . . وقد غَرَّيغِرُ بالكسر غَرارة . . . ويقال من الإنسان الغِرَّ غَرَزَتْ يارجل تَغِرَّ غَرارة، وفي المصباح : وغَرَّ الشخص يَغِرُّ من باب ضرب غَرارة بالفتح فهو غَارَ وغِرَّ بالكسر، أى جاهل بالأمر غافل عنها .
ومن ذلك ترى أن الغَرارة يأتى منها فعل ، وأنه يكون على بابين فِرِح وضرب .

(٤)

المخصص : « ورجل ظهير يَتَن الظَّهارة وهو القوى » .

وفي اللسان : « ورجل ظهير ومُظْهَر قوى الظهير، ورجل مُصَدِّر شديد الصدر، ومصدر يشتكى صدره، وقيل : هو الصلب الشديد من غير أن يُعَيَّن منه ظهر ولا غيره، وقد ظَهَرَ ظَهارة » .
فالمصدر هنا يشتق منه فعل أيضا .

(٥)

المخصص : « حافر وَقَّاح يَتَن الوقاحة والوَقَّح والقِحة والقَّحة » .

وفي اللسان : « حافر وَقَّاح صلب باق على الحجارة، والنعت وَقَّاح، الذكر والأنثى فيه سواء وجمعه وَقَّح وَوَقَّح . وقد وَقَّح يَوَقَّح وقاحة وَوَقَّوْحة وقِحة وقَّحة » .
فقد ذكر له صاحب اللسان فعلا .

(٦)

المخصص : « ورجل عِنَيْن بين العنينة وقد عُنِّن » .

وفي اللسان : ما يفيد إمكان أخذه من عَن يَعَن أو يَعُن بمعنى عَرَض، وذكر لذلك تعليلا . . .

(٧)

المخصص : « وصريح يَتَن الصراحة والصُّروحة » .

وفي اللسان : « وقال ابن سيده . الصريح الرجل الخالص النسب، والجمع الصُّرحاء، وقد صُرح بالضم صراحة وصُّروحة » . . . ومن العجيب أن ينقل ابن سيده في المخصص أن الصُّراحة والصُّروحة لا يؤخذ منهما فعل، ثم ينقض هذا النقل في المحكم .

(٨)

المخصص : « وفرس ذُلُول بين الذُلِّ ، وذليل بين الذُلِّ والذُّلَّة » .

وفي القاموس : « ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وَذُلَّالَةً وَذَلَّةً وَمَذَلَّةً وَذَلَالَةً هَانَ فَهُوَ ذَلِيلٌ . وفيه : « والذُّلُّ بالضم ويكسر ضد الصعوبة . ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا فَهُوَ ذُلُولٌ » . فذكر للذُلِّ والذُّلَّة فعلًا .

(٩)

المخصص : « ومعتوه بين العَتَّة والعَتَّة أَيضًا » .

القاموس : « عَتِه كُغِنَى عَتَّهَا وَعَتَّهَا وَغَتَّهَا بِضَمِّهَا فَهُوَ مَعْتُوهُ نَقَصَ عَقْلُهُ أَوْ فُقِدَ » .

وفي اللسان : « ورجل معتوه بين العَتَّة والعَتَّة : لا عقل له . ذكره أبو عبيد في المصادر التي لا يشتق منها أفعال » .

ومن العجيب أنه لم يعقَّب عليه ، مع أنه ذكر له في صدر المادة فعلًا ، وكذلك عبارة الصحاح ، وقد أساء صاحب التاج النقل ، ففيه : « (و) في الصحاح التَعَتَّة : (التَّجَنُّنُ والرَّعُونَةُ) . ذكره أبو عبيد في المصادر التي لا يشتق منها أفعال » فنقل صاحب التاج التَعَتَّة وهو مصدر قياسى بدل العَتَّة .

وفي المصباح : « عَتِه عَتَّهَا مِنْ بَابِ تَعَبَ ، وَغَتَّهَا بِالْفَتْحِ نَقَصَ عَقْلُهُ » . فجعل العَتَّة مصدرًا للفعْل .

فكيف يقال بعد ذلك : إن العَتَّة والعَتَّة لا فعل لهما؟

(١٠) و (١١)

المخصص : « وجارية بينة الجَرَّاء والجَرَّاء ، وَجَرَّى بَيْنَ الْجَرَّاءِ وَهُوَ الْوَكِيلُ » .

وفي اللسان : « والجَرَّى الْوَكِيلُ . . . ويقال جَرَّى بَيْنَ الْجَرَّاءِ وَالْجَرَّاءِ وَجَرَّى جَرَّيًّا وَكَلَّهُ . . . وسمى الوكيل جَرَّيًّا لِأَنَّهُ يَجْرِي مَوْكَلَهُ . . . والجارية الْفَتْيَةُ مِنَ النِّسَاءِ بَيْنَةَ الْجَرَّاءِ وَالْجَرَّاءِ وَالْجَرَّاءِ وَالْجَرَّاءِ . (الأخيرة عن ابن الأعرابي) » .

وفي المصباح : « والجارية السفينة سميت بذلك لجرها في البحر ، ومنه قيل للأمة جارية على التشبيه لجرها مستمرة في أشغال مواليتها ، والأصل فيها الشابة لخفتها ، ثم توسعوا حتى سمو كل أمة

جارية ، وإن كانت عجوزا لا تقدر على السعى ؛ تسمية بها كانت عليه .
ومن هذا وما قبله يظهر أن الجَرِيَّ والجارية فعلُهما جرى ، وأن هذه المصادر التي ذكرت إنما هي مصادر لهذا الفعل .

(١٢)

المخصص : « وفلان طريف في النسب وطُرف بين الطرافة » .
وفي الصحاح : « والطريف في النسب الكثير الأبناء إلى الجد الأكبر ، وهو خلاف القُعد ، وقد طُرف بالضم طرافة » .
فذكر فعله ، ولا شك أن فعلا وفِعلا يأتيان من باب كرم .

(١٣)

المخصص : « الأُعد بين القُعد والقُعد » .
وفي اللسان : « القُعد القُرْبَى . . . والإقْعاد قلة الأبناء والأجداد . . . يقال : هو أقعدهم أى أقربهم إلى الجد الأكبر . . . ابن الأعرابي : ورث فلان بالإقْعاد ولا يقال ورثه بالقعود » .
ومن ذلك يفهم أن اسم التفضيل وهو أقعد ، وكذلك المصدر وهو القعد فعلهما رباعى ، وليس لهما فعل ثلاثى من مادتهما ، وكثيرا ما يستعمل القعد وصفاً وهو الأقرب إلى الأب الأكبر .

(١٤)

المخصص : « وعقيمة بينة العقم والعقم » .
وفي المصباح : « . . . وعَقِمَت الرَّجِم عَقْمًا من باب تعب » .
فأثبت له فعلا .

(١٥)

المخصص : « رجل وضيع بين الضعة والضعة » .
وفي اللسان : « ورجل وضيع . وَضِعَ يَوْضِع وضاعة وَضْعَةً وَضِعَةً صار وضيعا » ؛ فأثبت له فعلا .

(١٦)

المخصص : « ابن السكيت : وَطِئَ يَبْنِي الوَطَاءَ والطَّئَةَ والطَّاءَ » .

وفي اللسان : « والوطيء السهل من الناس والدواب والأماكن ، وقد وَطِئَ الموضع بالضم يُوْطِئُ وطاءه وُوْطوءة وطئته صار وَطِئًا » .
فأثبت له فعلا .

(١٧) ، (١٨) ، (١٩)

المخصص : « أبو عبيد : رفيع يَبْنِي الرفعة وقد وَضِعَ وَرَفِعَ . قال أبو علي : ليس من هذا الباب على عقده ، إنما هو من هذا الباب على ما حدّه سيبويه ، وذلك أن سيبويه قال : ولم يقولوا : وَضِعَ ولا رَفِعَ ، كما لو يقولوا : شَدَدَتْ ولا فَقَّرَتْ » .

وقد نقلنا عن صاحب اللسان ورود الفعل وَضِعَ ، أما رَفِعَ ففي اللسان : « والرثعة خلاف الضعة ، رَفِعَ يَرَفِعُ رَفَاعَه فهو رَفِيع إذا شَرَفَ » ؛ ثم نقل رأى سيبويه .

وفي المصباح : « رَفِعَ الرجل في حسبه ونسبه فهو رَفِيع

وأما شَدَّ فلم يحمي فعله من باب كرم ، وإنما جاء من باب ضرب ، والوصف منه شديد » (انظر المصباح) .

وفي اللسان : « وقد شَدَّ يَشْدُ بالكسر لا غير إذا كان قويا » .

وأما فَقَّرَ ففي المصباح : « الفقير فعيل بمعنى فاعل ، يقال فَقَّرَ يَفْقَرُ من باب تعب إذا قَلَّ ماله » .

قال ابن السراج : « ولم يقولوا : فَقَّرَ - أي بالضم - استغنوا عنه بافتقر » .

ولا أجد معنى لهذا الكلام ؛ لأن الوصف فعلا لا يختص بباب كرم ، كما أن الفقر يدل على الخلق وهو ألزم بباب فرح .

وفي اللسان : « وقال سيبويه ، وقالوا : افتقر ، كما قالوا : اشتد ، ولم يقولوا : فَقَّرَ ، كما لم يقولوا : شَدَّدَ ، ولا يستعمل بغير زيادة » .

وفي الصحاح : « وقولهم : فلان ما أفقره وما أغناه شاذ ؛ لأنه يقال في فعليهما : افتقر واستغنى ، فلا يصح التعجب منهما » .

ومن العجيب أن صاحب الصحاح نفسه يقول في مادة (غ ن ي) والغنى مقصورا اليسار، تقول منه غَنَى فهو غَنِيٌّ، فأنكر الفعل في مكان وأثبتته في آخر.

(٢٠)

المخصص : « والسرُّ من كل شيء الخالص بين السرارة ».
 اللسان : « والسرُّ من كل شيء الخالص بين السرارة ولا فعل له » .

(٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٢١)

المخصص : « الشمس جَوْنَةٌ يَبْنُو الجُونة، ويعبر هِجان بين الهجانة، ورجل هجين بين الهُجْنة، وخصي محبوب بين الجِباب، وعربى بين العُروبيَّة، ابن دريد : والعُروبيَّة والعَرَابَة ».
 ليس للتجون وهو الأسود أو الأبيض فعل مجرد، وإن كان مصدره يتطلب أن يكون فعله من باب فرح، وقد ورد له فعل مزيد.
 ففى اللسان :

« التَّجَوَّنُ تَبْيِضُ باب العروس، والتَّجَوَّنُ تَسْوِيدُ باب الميت ».
 وتفسير التجون بالتبييض والتسويد فيه نظر، والأولى أن يقال: التجوين .
 أما المهجان ففى القاموس « وكـ(كتاب): الخيسار، ومن الإبل البيض والبيضاء، والرجل الحسيب، و... وفعل الكل يهجن ويهجن ».
 فأثبت له فعلا.

وأما المهجين. فقد أثبت له صاحب القاموس فعلا أيضا. قال : « والهجين اللثيم وقد هجن ككرم هجنة بالضم وهجانة وهُجونة » .

أما المجبوب ففعله فى اللسان جَبَّه يَجْبُه جَبًا وجبابا .

وأما عربى بين العُروبة، ففى اللسان : « وعربى بين العُروبة والعُروبيَّة وهما من المصادر التى لا أفعال لها » ثم قال فى مكان آخر : « وعرب الرجل يعرب عُرْبًا وعُروبا. عن ثعلب : وعُروبة وعُرابَة وعُروبيَّة كَفُصِّح (أى لفظا ومعنى) وعُرب إذا فَصِّح بعد كُتِّه فى لسانه » .
 فجاء بفعل من العُروبة والعَرَابَة .

(٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣)

المخصص : « أبو عبيد : عَبْدُ يَنْ الْعُبُودِيَّةِ وَالْعُبُودَةِ ؛ أمة بينة الأموة ، وأُمُ بينة الأمومة ، وأَبُ بين الأبوَّة ، وأخت بينة الأخوة مثل الأخ ، وبنْت بينة البُتوة مثل الابن ، وعَمَّ بين العُمومة وكذلك الخُوْلة ، أما العَبْد والعُبُودِيَّة والعُبُودَةُ ، ففي اللسان : والاسم من ذلك العُبُودَةُ والعُبُودِيَّة ولا فعل له عند أبي عبيد ، وحكى اللحياني عَبْدُ عُبُودَةٍ وَعُبُودِيَّة . فأثبت اللحياني فعلا للمصدرين .

وأما الأَمة والأموة ، ففي اللسان : « وأَمَت المرأة وَأَمِيَتْ وَأُمُوَتْ (الأخيرة عن اللحياني) أُمُوَةٌ صارت أمة ، وقال مرة : ما كانت أمة ولقد أُمُوَتْ أُمُوَةٌ ، وما كُنْتَ أمة ولقد تَأَمَّيْتُ وَأَمِيَتْ أُمُوَةٌ » .

وأما الأم والأمومة ، ففي اللسان : « وَأَمْتُ تَزُومُ أُمُومَةً صارت أُمًا ، وقال ابن الأعرابي في امرأة ذكرها : كانت لها عمة تَزُومُها أى تكون لها كالأم » .

وأما الأب والأبوَّة ، ففي اللسان : « وَأَبُوت وَأَبِيْتُ صرت أبا ، وَأَبُوْتُه صرت له أبا . قال بَخْدَج :

اطلب أبا نَحْلَةٍ من يَأْتُوْكَما فقد سألنا هنك من يعزوكا

إلى أب فكلهم يَنْفِيكَما

التهديب . ابن السكيت : أبوت الرجل أَلَبُوهُ إذا كُنْتُ له أبا ، ويقال : ماله أب يَأْتُوْهُ أى يغذوه ويربيه » .

وأما الأخت أو الأخ والأخوة ففي اللسان : « قال ابن سيده : ولقد تَأَخَّيْتُ وَأَخَيْتُ وَأَخَوْتُ تَأَخُو » . فذكر ابن سيده نفسه للمصدر وهو الأخوة فعلا .

وأما البنْت أو الابن والبنوة ، فلم نجد لها فعلا ثلاثيا .

وأما العم والعمومة ، ففي اللسان : « وما كُنْتُ عَمًا ولقد عَمَمْتُ عُمُومَةً » . فأثبت للمصدر فعلا .

وأما الخال والخوْلة ، ففي اللسان : « والمصدر الخُوْلة ، ولا فعل له » .

ولم نجد له فعلا ثلاثيا فيما بين أيدينا من المعجمات الأخرى .

(من ٣٤ إلى ٣٧)

المخصص : « يقال : أسد يَنْ الأسد ، وليث يَنْ اللبائبة ، ووَصِيفُ يَنْ الوَصَافَةِ » .

ثعلب : ووَصِيفَةُ بَيْتَةِ الإِبْصَافِ ، ووَلِيدَةُ بَيْتَةِ الوَلَادَةِ والوَلِيدِيَّةِ » .

يقول في اللسان : « وأسديت الأسد نادر وأسدي الرجل : استأسد، صار كالأسد في جرائته وأخلاقه وفي حديث لقمان بن عاد : خذ مني أخى ذا الأسد، الأسد مصدر أسد يأسد، أى ذو القوة الأسدية» .

هذا النص يدل على أن الأسد مصدر معناه القوة الأسدية وأن فعله أسد يأسد فله إذا فعل مجرد .
وفي اللسان : « الليث الشدة والقوة والليث الأسد وإنه لين اللياسة، والليث الشجاع بين الليوثة، قال ابن سيده : وأراه على التشبيه ، وفي حديث ابن الزبير أنه كان يواصل ثلاثاً ثم يصبح وهو أليث أصحابه ؛ أى : أشدهم وأجلدهم» .

والذى نفهمه أن الليث القوة، وأن الليث وهو الأسد تسمية بالمصدر، وربما أخذ ذلك من قول صاحب اللسان (وبه سمى الأسد ليثاً) . وإذا جاز ذلك كانت اللياسة بمعنى الأسدية، وهى لذلك لا فعل لها، كالحقولة التى هى مصدر مصبوغ من كلمة الخال .

وأما وصيف بين الوصافة ، ففى اللسان : « وفي حديث أم أيمن أنها كانت وصيفة لعبد المطلب أى أمة ، وقد أوصف ووصف وصافة» .

فذكر للوصيف فعلا .

أما وليدة بين الولادة والوليدية ، ففى فتح الواو فى الولادة نظر .

والذى فى اللسان : « والوليدة الأمة والصبيّة بينة الولادة (بكسر الواو) والوليدية» .

وظاهر أن الوليدة فعيلة بمعنى مفعولة، وفعلها ولد يلد، والمصدر ولادة وإلادة على البديل . والأصل فى معنى الوليدة الصغيرة، قال فى اللسان : « وقد تطلق الوليدة على الجارية والأمة وإن كانت كبيرة» .

من هذا يظهر أن للمصدر وهو الولادة فعلا وهو ولد يلد، أما الوليدية فمصدر صناعى وهو لا فعل له دائما .

(من ٣٨ إلى ٤٠)

المخصص : « ورجل جُنُب بين الجنابة والجنبة وهو الأجنبي والجانب مثله .

ابن السكيت : رجل جَلِيدٌ وجَلْدٌ بين الجلادة والجلد، ولحم طرى بين الطراوة والطراة» .

فى اللسان : « وَجَنُب فلان فى بنى فلان يَجُنُبُ جنابة ويجنب ، إذ نزل فيهم غريبا، فهو جانب والجمع جُنَابٌ، ومن ثم قيل : رجل جانب أى غريب ورجل جُنُب بمعنى غريب والجمع أجانب» .

فذكر له فعلا .

في اللسان : « والجَلَد الصلابة تقول منه : جَلَد الرجل بالضم فهو جَلْد وجَلِيد » فذكر له فعلا .
في اللسان : « ابن سيده (نفسه) طَرَّو الشيء يطَرُّو وطَرَّو طَرِيَّ طراوة وطَرَاء وطراءة وطراءة مثل
حصاة فهو طَرِيَّ » فجاء له ابن سيده بفعل .

(من ٤١ إلى ٤٥)

المخصص : « ابن دريد : رجل جَلَف أى جاف غليظ ، والمصدر الجَلَاف ، والعدالة مصدرُ
عَدَل حَسَن العَدَالَة ، وقال : سَيِّد بَيْنَ السُّودِّ ، وهم من أهل بيت النُّبُوَّة والنَّبَاة ، وضارٍ بَيْنَ الضَّرَاة
والضَّرَاة » .

في القاموس : « والجَلَف بالكسر الرجل الجافي كالجليف ، وقد جَلَف كفرح جَلَفًا وجَلَافَة » .
ونقول : المشهور أن العدل في الأصل مصدر لعدل يعدل من باب ضرب ، ثم استعمل في
الوصف ف قيل شاهد عدل ، ودليل ذلك أنه يطلق على الواحد وغيره بلفظ واحد ، أما العدالة كما في
المصباح فمصدر عَدَل ، قال : « وعَدَل هو (الشاهد) بالضم عدالة وعَدُولَة فهو عَدَل أى مُرَضٍ
يُقْنَع به » .

ويظهر من سياق صاحب المصباح أن عَدَلًا هنا صفة مشبهة ، وقد يشايح هذا الرأى أنه يجمع
فيقال : رجال عُدُول ، وأنه قد يطابق في التأنيث فيقال : امرأة عَدْلَة . وسواء أكانت كلمة عَدَل مصدرًا
في الأصل أم صفة مشبهة فإن للعدالة فعلا هو عَدَل .

في اللسان : « السُّودُّ الشرف معروف ، وقد يهمز وتضم الدال طائفة ، الأزهرى : السُّودُّ بضم
الدال الأولى لغة طَيِّئ ، وقد سادهم سُودًا وسُودًا وسيادة وسَيَدُودَة ، وعبارة المصباح وساد يسود
سيادة والاسم السُّودُّ » .

ولا أرى معنى للفرقة بين السيادة والسودد ؛ فكلاهما يدل على معنى المصدر .
والنبي إما من النبأ وهو الخبر ، وفي اللسان : « واشتقاقه من نَبَأً وأنبأ أى أخبر . . فعيل بمعنى
فاعل للمبالغة ، وفيه : « ونبأت الرجل ونبأتى : أنبأته وأنبأتى » .
وقد انفرد صاحب اللسان فيما أعلم بالإتيان بنبا بمعنى أنبا وأخبر ، وفي القاموس : نبا بمعنى
ارتفع وطلع وخرج من أرض إلى أرض .
وإذا كان النبي من نبا بمعنى أخبر كان مصدره القياسى النبء بسكون الباء ولكن المسموع

فتحتها ، أما إذا كان النبي من نبا بمعنى ارتفع فمصدره النَّبُو والنَّبْوة والنَّبَاوة .
في اللسان : « وإن أخذت النبي من النبوة والنبَاوة وهى الارتفاع من الأرض لارتفاع قدره ولأنه شُرِّف على سائر البشر ، فأصله غير الهمز وهو فعيل بمعنى مفعول .
وفي القاموس : « والنَّبَاوة ما ارتفع من الأرض كالنَّبْوة والنَّبِي وموضع بالطائف وبالكسر : النبوة . فهو يحتم كسر التون في النباوة بمعنى النبوة .
ومن ذلك نرى أن كلمة النبي إما مهموزة وإما غير مهموزة ، وأن لها مصدرا وفعلا في كلتا الحالتين .
في التاج : « وكلب ضارٍ بالصيد أى متعود به ، وقد ضرى يضرى ضراوة كما في الصحاح ، وهو قول الأصمعي ، وضرى بالقصر وضراء بالكسر والفتح » .
وذكر في صدر المادة الضراء من مصادر ضرى .

(من ٤٦ إلى ٥٤)

المخصص : « ثعلب : شَيْخ بَيْنَ الشَّيْخُوخَةِ والشَّيْخِ ، وأَيْم بَيْنَ الأَيْمَةِ والأَيْمِ . أبو عبيد : فعلت ذلك به خُصُوصِيَّةً ، وهو لَصُّ بَيْنَ اللَّصُوصِيَّةِ ، قال ابن السكيت : ولا تقالان إلا بالفتح . ثعلب : الضم فيه لغة . أبو عبيد : حُرُورِيٌّ بَيْنَ الْحُرُورِيَّةِ . ابن السكيت : لا يقال إلا بالفتح ثعلب : الضم فيه لغة . ابن السكيت : فَارِسٌ عَلَى الْخَيْلِ بَيْنَ الْفَرُوسَةِ وَالْفَرُوسَةِ . ابن دريد : صَارِمٌ بَيْنَ الصَّرَامَةِ وَقَالُوا الصَّرُومَةُ ، وليس بثبت . وحازم بَيْنَ الْحَزَامَةِ ، وقالوا الْحَزُومَةُ ، وليس بثبت . وهو حجر صَلْدٌ بَيْنَ الصَّلَادَةِ والصِّلُودَةِ » .

وفي اللسان : « وقد شاخ يشيخ شَيْخًا بالتحريك وشَيْوُخَةً وشَيْوُخِيَّةً عن اللحياني : وشَيْوُخَةً وشَيْوُخِيَّةً فهو شَيْخ » .
فذكر له فعلا .

أما التشيخ والتشيخ اللذان ذكرهما فمن البديهي أن فعل الأول تشيخ ، والثاني شَيْخ ، وهما مصدران قياسيان .

في اللسان : « وقد آمت المرأة من زوجها تَيْمِمٌ أَيْمًا وأَيْمَةً وإِيْمَةً » - فذكر له فعلا .
في المصباح : « وخصصته بكذا أخصه خصوصا من باب قعد وخصوصية بالفتح ، والضم لغة ، إذا جعلته له دون غيره » . فذكر له فعلا .

في المصباح : « ولصّ الرجل الشيء لَصّاً من باب قتل : سرقه » .
وفي القاموس : « والمصدر اللّصّ واللّصاص واللّصوصية واللّصوصية » .
فله فعل .

اللسان : « حر وراء موضع بظاهر الكوفة تنسب إليها الحرورية من الخواارج ويقال :
حرورىّ بين الحرورية » .

وظاهر أن الحرورية في الأصل لا تدل على معنى المصدر، وإنما هي طائفة تنسب إلى مكان،
ويظهر أيضا أنها نقلت في بعض الاستعمالات لمعنى يقرب من معنى المصدر بتضمينها معنى
الانتساب إلى هذه الطائفة، فحين قالوا : حرورىّ بين الحرورية أرادوا بين الانتساب إلى هذه الطائفة،
ولعل هذا التضمين هو الذى سوغ لبعضهم ضم الحاء في لغة قليلة تشبيها لها بالمصادر، ولا أرى فحّ
ميلا إلى عدها من المصادر.

اللسان : « والمصدر الفراسة والفروسية ولا فعل له، وحكى اللحياني وحده : فرّس وفرّس إذا
صار فارسا . وهذا شاذ .

وفي المصباح : « وفي التهذيب : فارس على الدابة بين الفروسية » .

وفي القاموس : « الفراسة الخلق بركوب الخيل وأمرها، كالفروسة والفروسية - وقد فرّس
ككرم » .

وفي التاج : « وقال ابن القطاع وفرّس الخيل فروسة وفروسية أحكم ركوبها وفرّس أيضا كذلك،
فاقتصار المصنف على ذكر باب واحد قصور لا يخفى » .
ومن ذلك يظهر أن للفروسية والفروسة فعلا .

في المصباح : « وصرّم الرجل صرامة وزان صخّم ضخامة شجّع، وصرم السيف احتد، وسيف
صارم قاطع » .
فذكر للمصدر فعلا .

اللسان : « حَزُم بالضم يحزُم حَزْماً وحزامة وحزومة وليست الحزومة بثبت » فأثبت فعلا
للمصادر .

اللسان : « وقد صَلَد المكان وأصلد وأرض صَلَد » .

ومن المجاز صَلَد الرجل بخل صلادة .

هذا ما تيسر لنا القول فيه في هذا الموضوع، وللسيوطى في الزهر والجمع جولة في هذا الباب
ستناولها إن شاء الله بالبحث في مقال آخر .

صومه رمضان في اللغة (*)

تحتفى الأمم الإسلامية وتبتهج في أقطار الأرض عامة بهذا الشهر الجليل المنزلة، الرفيع المكانة، الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وكما يتبع الجلد الناس فيرتفع بعضهم فوق بعض درجات، وتقبل السعادة على بعض بنى الإنسان فينالون منها حظاً موفوراً وشأننا مذكوراً، كذلك يسعد بعض الأيام. دون الأيام ويرز بعض الشهور علماً بين إخوته من أبناء العام :

هو الجلد حتى تحسد العين أختها وحتى يصير اليوم لليوم سيداً

وإنما يسعد اليوم أو الشهر لما تضمنه من حوادث جسام كان يكون لها شأن في إنهاض أمة أو إعلاء كلمة دينها، وحينما أراد أبو تمام أن يشيد بفتح عمورية وأن يعلى من قدره وأن يجعل يومه يوماً من أيام فتوح الإسلام في قصيدته المشهورة التي يمدح بها المعتصم جعل يقول :

إن كان بين حروف الدهر من رحم
فبين أيامك اللاتي نصرت بها
موصولة أو ذمام غير منقضب
وبين أيام بدر أقرب النسب

فرمضان يظهر على الشهور جميعاً بأنه الشهر الذي فيه الهدى ونور الحق، وأنزل فيه القرآن الذي كشف عن النفس حجابها، وقاد بنى الإنسان إلى خير طريق وأقوم سبيل.

فهتاء بنى الإسلام بالإسلام، وهتاء بشهر رمضان شهر الرحمة والإحسان، ونحب أيها السادة في محاضرتنا هذه أن نقدم إليكم بحثاً لغوياً في الصوم ومدلولاته وما كان له من شأن عند أهل الجاهليات، ثم نذهب بالحديث إلى البحث في الشهور العربية وما كان لها من أسماء في القديم وبحديث مع بيان علل هذه الأسماء وتمحيصها واختيار أسد الآراء فيها.

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ١٠/١١/١٩٣٨، ونشر بجريدة الأهرام.

الصوم مصدر صام يصوم، ومن مصادره الصيام، وتقول رجل صائم وصَّومان (بفتح أوله وضمة) وصَّوم على الوصف بالمصدر، وهو مما يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، وجمع الصائم صُوماء وصَّيَّام وصَّوم وصَّيم وصَّيَّام وصَّيَّام، ولعل الأخيرة هذه من الوصف بالمصدر أيضا.

والأصل في هذه المادة أنها بمعنى الإمساك والامتناع فإن جميع المعاني النوعية تدور حول هذا الأصل، ففي قولنا صام الرجل امتناع، وفي قوله تعالى على لسان مريم ﴿إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا﴾ امتناع؛ لأن المراد بالصوم في الآية الكريمة الصمت، وهو امتناع من الكلام. وفي قولهم صامت الريح وصام النهار، إذا قامت شمسها عند انتصافه ولم تبرز مكانها، وصامت الناقة إذا أمسكت عن الدَّر.

فلما جاء الإسلام خصص هذا الصوم بالامتناع من أشياء في وقت محدود، ويرى بعض الباحثين أن الصوم بمعناه الاصطلاحي كان معروفا عند أهل الجاهلية فقد ذكر صاحب حجة الله البالغة أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء، واحتج على ذلك بأحاديث مأثورة. والصوم - على أى حال - رياضة نفسية وجدت حيث وجد الزهد ومحاربة الشهوات وكان بالجاهلية كثير من الزهاد الموحدين كخالد بن سنان العبسي وحنظلة بن صفوان وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم وغيرهم.

واختلف اللغويون في علة اشتقاق كلمة « رمضان ». وأصل هذه الكلمة وهو الرَّمَض يدل على الحرّ أو شدته فقال بعضهم: إنه مأخوذ من رمض الصائم يرمض إذا حرّ جوفه من شدة العطش، وقال صاحب القاموس وقد انفرد بهذا التعليل: إنما سمي رمضان لأنه يحرق الذنوب. ويرى أكثر اللغويين أنه سمي رمضان لأن العرب حينما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة وهي لغة العرب العاربة عاد وثمود وغيرهما سموا الشهور بحال الأزمنة التي وقعت فيها عند هذه التسمية فاتفق أنهم حينما أرادوا تغيير اسم شهر « ناتيّق » كان الحر والرمض في أشده فسموه رمضان.

والعلتان الأولى والثانية يستلزم قبولهما التسليم بأن العرب في جاهليتها كانت تصوم رمضان أو بعضها منه وإلا فكيف تستقيم العلة الأولى وهي أنه من رمض الصائم إذا حرّ جوفه من شدة العطش؟ وكيف تستقيم الثانية وهو أنه يحرق الذنوب؟ والذي يرجع إلى أقوال اللغويين في مادة (نق) يرى أنهم يقولون: وأنتق الرجل صام ناتيقا وهو شهر رمضان؛ فإذا كان هذا اشتقاقا جاهليا « وهو بعيد » كان دليلا على أن العرب قبل الإسلام كانوا يصومونه وإذا كان اشتقاقا إسلاميا « وهو ما أرجحه » لم يتوجه به دليل على ذلك وفي هذا مبحث دقيق يغري المحققين بالبحث والإفاضة فيه حتى يصلوا إلى حكم صحيح. على أنى أميل من الآن إلى أن صوم رمضان لم يكن إلا في الإسلام واعتقد أن اللغويين حينما حاولوا التعليل لاشتقاق رمضان تأثروا بالزمن الذي هم فيه وبالبينة الإسلامية التي تحيط بهم، فعملوه تعليلا إسلاميا وذهلوا عن أن الكلمة من وضع أهل الجاهلية؛ لهذا يجب دائما تمحيص علل اللغويين والتريث في قبولها.

ويحتم الفراء، وهو من كبار اللغويين، ذكر الشهر قبل رمضان والربيعين بأن يقال: هذا شهر رمضان وهما شهرا ربيع، ويوجب ألا يذكر «الشهر» قبل غيرها من الشهور وزاد بعضهم رجاء؛ فتحتم ذكر الشهر قبله، واستخلص اللغويون من ذلك قاعدة هي أن كل شهر يتبدى بالراء يجب أن يسبق بلفظ شهر والرأى الصحيح أنه يجوز في كل الشهور أن تضاف إلى كلمة شهر وألا تضاف على حسب ما يراه المتكلم أكفل بما يريد من تأدية المعاني وبما رد به اللغويون على الفراء قول أبي ذؤيب:

جارية في رمضان الماضي تقطع الحديث بالإياض

فلم يذكر لفظ الشهر قبل رمضان. وجاء في الصحيحين من رواية أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كء رمضان أغلقت النيران وصقّدت الشياطين» وهذا صريح في جواز تعريته عن الإضافة.

ويجمع رمضان على رمضانات ورماضين وأرمضاء وأرمضة وبما هو جدير بالنظر أن العرب سؤخوا جمع كل اسم من أسماء الشهور جمعاً مؤنثاً سالماً فقالوا: المحرمات وصفرات وربيعات إلى آخر الشهور. وهذا فيما يظهر لنا على تضمين كل شهر معنى مؤنثاً فإن الشهر يدل على فترة من الزمن أو مدة وربما كان تسويغهم هذا يعاضد الرأى الذى نقله صاحب المصباح المنير عن ابن الأنبارى قال: واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس؛ تقول فيه: منزل ومنزلات ومصلى ومصليات.

وقبل أن نتقل من الحديث في الشهور العربية يجب أن ننبه هنا إلى خطأ مشهور هو قول بعضهم: ربيع الأول وربيع الثانى وجمادى الأولى وجمادى الثانية، وهذا غلط، والصواب أن يقال ربيع الآخر وجمادى الآخرة؛ لأن التعبير بربيع الثانى وجمادى الثانية يستدعى في ذوق لغة العرب أن يكون هناك ربيع ثالث وجمادى ثالثة. ولذا ذكر قبل أن نختتم هذه المحاضرة أسماء الشهور عند العرب العاربة قبل أن يغيرها من جاء بعدهم من أبناء إسماعيل، وتخطى المعجمات هنا وتسميتها شهور الجاهلية كأن الجاهلية ما كانت تعرف شهور الإسلام فكانت العرب العاربة تسمى المحرم المؤتمر، وصفرًا ناجراً، وربيعاً الأول خوّاناً، وربيعاً الآخر ويّصان، وجمادى الأولى حنيناً، والآخرة رُبى، ورجباً الأصم، وشعبان عاذلاً (وأخطأ صاحب صبح الأعشى فسماه عادلاً بالبدال) وتسمى رمضان ناتقاً كما سبق، وشوّلاً وعِلاً، وذا القعدة وَزّة، وذا الحجة بَرَك. وللغويين تعليل لكل اسم من هذه بنى على الظن وعلى كثير من التكلف.

هذه، أيها السادة، محاضرة لغوية رمضانية أردنا فيها أن يكون للغة نصيب من الحفاوة برمضان والإشادة به؛ نسأل الله لكم صوما مقبولا، وحياة سعيدة صالحة. والسلام عليكم ورحمة الله.

إصلاح الخلط الشائعة في اللغة العربية (١) (٥)

لقد نهضت لغة القرآن الكريم - ولله الحمد والمنة - نهوضاً مباركا في جميع آفاق العربية، وأحسن أبنائها نزعاً نفسية تدفعهم إلى ربط طريف مجدهم بتليده، وحديث تاريخهم بقديمه، فاتجهوا إلى العربية في أزهى عصورها وأنضر عهودها، يتخيرون أرق ألفاظها وأقوى أساليبها وأروع أخیلتها، فامتلات كتاباتهم بالطريف النادر، وأشعارهم بالرقيق الساحر، وخطبهم بالجزل الرصين. ومن وازن بين حالى اللغة الشريفة في عصر نهضتنا هذه وفي العصر السابق عليه عصر السبات والظلام؛ رأى الفرق جسيما والبون عظيما، ودهش كيف أن ابنة عدنان استطاعت في هذه الفترة القصيرة من أعمار الأمم وأدهار التاريخ أن تخطو هذه الخطوات الواسعة وتصل إلى تلك الغاية المباركة. ولكنى أعتقد أن حيوية هذه اللغة أقوى من كل حيوية في سواها، وأنها تبقى كامنة خادرة حتى إذا وجدت السبيل أمامها مدللة، والطريق معبدة؛ وثبت وثبة تطوى لها الأرض، وتطأ لها الجبال. وإن نظرة في تاريخ الفصحى تدل على أنها تنقبض في صدفها ولا تموت، وتنصل في ألواحها ولا تمحى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾. فلقد أصابت العربية أحداث، ومستها قروح كان أقلها كافيا لهدم أقوى اللغات ركنا وأمنعها حصناً من غارات للأعجمية ذهبت بالرطب واليابس، وجولات للشعرية

كادت تقضى على الشرف الخالد والمجد التالد :

وكاد بنيانها ينهار من صعب	لقد رمتها الليالى في فرائدها
على ابنة البيد في جيش من الرهب	وعاشت المعجمة الحمقاء نائرة
مضمخ بدماء العرب مختضب	يقوده كل ولاغ أخى لاحن
مسامع الكون من نساء ومقرب	كان عدنان لم تملأ بدائعهم

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ١٨١ في ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨ ص ٨ ولقد تعرض المرحوم على الجارم لهذا الموضوع الهام وقدم فيه سلسلة من الأحاديث الإذاعية

ومع هذا أيها السادة بقيت اللغة العربية تنظر إلى الأحداث شزرا، وتسخر من الخطوب؛ فقام رجال في هذا العصر في كل بلاد العربية بنصرتها وشد أزرها والإشادة بمجدها.

لهذا أيها السادة تروننا لا نألو جهدا في تطهيرها من أدران اللحن، وتنقيتها من فاسد الأساليب؛ لأن الشعور بالنقص أول مراتب الكمال، ولأن أبا الطيب يقول:

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

ولو أن كل أديب نبه إلى خطأ فأصلحه، أو فساد في التعبير فتجنبه، لظهرت اللغة من شوائب النقص في زمن قصير. وإلى الشباب ندائي، وإلى أبناء العربية رجائي أن يكون لهذه المحاضرات أثرها النافع إن شاء الله تعالى؛

ولنبدا بالكلام في الموضوع فنقول:

يخطئ كثير من الشادين في الكتابة فيستعملون فعلا لا وجود له في العربية وهو «تضامن» فيقولون مثلا يجب أن تضامن في هذا الأمر وهذا المشروع يحتاج إلى التضامن؛ يريدون أنه يحتاج إلى بذل الجهد المشترك مع ثقة كل شخص بأخيه، ومن العجيب أن هذا الفعل المصنوع الزائف انتشر على ألسنة المثقفين انتشارا عظيما، وخير فعل يحل مكانه ويؤدي معناه الفعل «توافق» ومصدره التوافق؛ قال كعب ابن زهير:

ليوفوا بها كانوا عليه توافقوا بخيف منى والله راء وسامع

أى: ليوفوا بالأمر الذى تعاهدوا عليه واتفقوا على بذل الجهد فيه متحدين متوائمين. ويشبه خطأهم في استعمال هذا الفعل الذى لا أصل له في اللغة استعمالهم الفعل تكاتف؛ فيقولون مثلا: يجب أن نتكاتف في هذا الأمر؛ بمعنى نتعاون، ونجاح هذا المشروع موقوف على التكاتف؛ وهذا الفعل تكاتف لم يرد في كتب اللغة المعتمدة، والكلمات الصحيحة في هذا المعنى كثيرة فلسنا في حاجة إلى ابتكار فعل جديد نشقه من الكتف؛ ففى الاستطاعة أن نقول: نتعاون ونتعاضد ونتساند ونتأزر، ولا بد من المعاونة والتعاضد والتساند والمؤازرة.

ومن الغلط أنهم يجمعون الأبله على بلهاء. وهذا من أعجب العجيب؛ لأن أفعل الذى مؤنثه فعلاء؛ كأبله وبلهاء لا يجمع جمع تكسير إلا على: فُعِّلَ، أما بلهاء فإذا صح فلأنه يوجب أن يكون في اللغة: بليه أو باله، وليس لها وجود فيها؛ فالصواب أن يجمع الأبله على بله، كما يجمع الأحق على الحمق، والأعرج على العرج.

ومن الغلط الفاشى قولهم: تحسنت الصناعة عن ذى قبل وزيادة قبل الكلمة «قبل» غلط لأنه لا معنى له ولأن العرب لم تستعمل هذا التركيب، ولم تحيء كلمة قبل في لغتها مسبوقه بلى، وإنما تقول

في التركيب السابق : تحسنت الصناعة عما كانت عليه من قبل . أما ذى فإنها لا تدخل على قبل ، وإنما تدخلها العرب على قبل — بفتحيتين — لمعنى غير هذا فتقول : أفعل ذلك من ذى قُبَل ؛ أى : فيما استقبل من الزمان ، ولاشك أن الغرضين مختلفان ، وأن قُبَل غير قَبَل .

ويغلطون فيقولون : تقضى آداب اللياقة بكذا ؛ كأنهم يجعلون اللياقة مصدراً للفعل ؛ لأن يليق وهو ليس له بمصدر ؛ لأنه لم يسمع بين مصادره ولأنه لا يدل على حرفة حتى يتقاس ، وإنما مصدره الصحيح : الليق والليقان ؛ فالواجب أن نقول : تقضى آداب الليق والليقان بكذا ، ولو أننا أبدلنا بياء اللياقة باء فقلنا : اللياقة — بالياء — لأصبنا شاكلة الصواب ؛ فإن العرب تقول : هذا الأمر يليق بك ولا يليق بك أى لا يحسن فمن السائغ لنا أن نقول : تقضى آداب اللياقة بكذا .

ومن الأغلاط الفاشية قوهم : حادث مريع ، فيصوغون اسم الفاعل وهو مريع من الفعل أراع ، ولا أثر لهذا الفعل في اللغة وإنما يقال : راعى الأمر وروعى ؛ بمعنى : أخافنى وأفزعنى ولا تقل أراعنى ، فالصواب أن يقال : حادث مروع ، ويصح أن تقول : حادث رائع ؛ بمعنى : مفرع أيضاً ولكن الرائع يأتي لمعنى آخر ؛ فقد يكون لما يعجب الناس بحسنه وجهارة منظره أو شجاعته ؛ تقول : جمال رائع ، والأصل في ذلك كله هو الروح ؛ وهو القلب أو موضع التأثير منه . وزللهم هذا يشبه زللهم في قوهم : هذا فعل مشين — بضم الميم — وما هذه الأفعال المشينة ؟ وهذا غلط صارخ ؛ لأنه ليس بين أفعال اللغة (أشان) وإنما الفعل شأنه يشينه شيئاً بمعنى : عابه فالصحيح أن يقال : عمل شائن ، أو : عمل مشين — بفتح الميم — على أنه اسم مفعول أى أنه عمل يعيبه الناس ويشينوه .

ومن الغلط قوهم : زرتك والساعة تسع ، مثلاً ، ووجه الغلط فيه أن الساعة هنا مبتدأ ، ومن القواعد الأولى في العربية وجوب مطابقة الخبر المبتدأ ، فإذا كان المبتدأ مفرداً وجب أن يكون الخبر مفرداً ، والساعة هنا مفرد يدل على شيء واحد ما في ذلك ريب ، وتسع تدل بوضعها على أكثر من شيء واحد ، أى أنها تدل على تسعة معدودات ، فانتفت المطابقة واضطرب الكلام ، وهيك قلت : التفاحة تسع ، أو : الدواة تسع ، أنظن هذا قولاً تسيغه نفسك أو يستسيغه سامعوك ؛ ولكن الألسن جرت على هذا اللحن ولم تضجر له الأذان ؛ لأنه شاع في العامة فلما نقل إلى العربية المعربة كان له في النفس مكان مأهول ، والصواب — إن أريد التشبث بهذا التركيب — أن تقول : زرتك والساعات تسع ، أو أن تقول كما يقول الناس : زرتك في الساعة التاسعة .

ويقولون : هذا الشيء يجلب الشهية للطعام ، أو : يذهب بالشهية . وكلمة الشهية بهذا المعنى غلط هنا لا ندري من أين جاءت ، وإنما الشهية : مؤنث الشهى ، والشهى : الشيء المشتهى واللذيد ، ولاشك أن الكلام لا يستقيم البتة على هذا حين نقول : هذا الشيء يجلب الشهية للطعام ؛ إذ يكون معناه هذا الشيء يجلب اللذيذة للطعام وهذا هراء ، فالصواب أن يقال : هذا الشيء شه للطعام أو يشهى الطعام أى يحمل على اشتهاه .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٢) (*)

أعود إلى الكلام في تصحيح الأغلاط الشائعة في العربية ، وأنا أزداد في كل يوم ثقة بأن الدعوة إلى هذه الناحية من الإصلاح أخذت تدنو من أفئدة الشبان والمتعلمين في مصر وبقية الأقطار العربية ، وأزعم أنه بعد أن كانت الأذن تنفر في أوقات فراغها من البحوث العلمية وأقاويل الجد ، شرعت تصغى إلى من بعيد عليها تتدرك خطأ فتصلحه ، أو غلطا فتجنبه ؛ لأنني أدعو إلى إصلاح يجب أن يحله كل عربي المحل الأول ، وينزله من ثقافته في المكانة العليا . ودعوني من الشبان المستهترين والكتاب الإباحين ؛ فلست هؤلاء أعنى ولا إليهم أسوق الحديث ، ولعلنا نتقابل بعد قليل حينما ينتعشون من كبوتهم ، ويفيقون من غفوتهم ، ولقد وصلت إلى رسائل ليست بالقليلة ، وعلمت في أثناء رحلتي إلى لبنان وسورية والعراق أن صوتي لم يذهب في الهواء ، وأن صرختي لم تكن صرخة في واد ، وأن حميتي للعربية وأهلها عرفت سبيلها إلى القلوب .

وقد أخذت على نفسي ألا أحكم بخطأ كلمة لها في العربية وجه مقبول ، وألا أتجاوز عن غلط يأباه ذوق العربية وتنبذه نصوصها وتتجافى عنه أصولها ؛ لأنني بان لا هدام ، ومصلح لا متمزمت ، ومترخص فيما اتسعت له الرخصة ، وحارس بستان إذا ذدت الغريان عن ثماره فلن أذود المصادحات عن أفئاته .

والتعرض للحكم بأن كلمة غير صحيحة وأن أخرى صحيحة ليس بالأمر السهل ، ولا هو على طرف الثام ، وإنما يجب أن يصدر عن نضج في اللغة والأدب ، وتمكن من طرائق العرب في تصريف الأبنية ومناحي استعمال الكلام ، ورب كلمة لا تجد لها نصاً في معجمات اللغة ولكنها جاءت في أشعار المتقدمين ، وعبارات كبار الكاتين الذين يحتج بهم لمكانتهم في اللغة ؛ فللجاحظ مثلاً كلمات لم نظفر

(*) نشرت بمجلة الراديو المصري بالعدد ٨٤ في ٢٤ سبتمبر ١٩٣٨ ص ٥ .

بها في المعجمات وللإمام الشافعي في مؤلفاته ألفاظ لم تقع بأيدي اللغويين ، وهو الذي يقول فيه الأزهرى صاحب الحكم : (وقول الشافعي نفسه حجة ؛ لأنه عربى فصيح اللهجة ، وقد اعترض عليه بعض المتحذلقين فخطأه ، وقد عجل ولم يثبت فيما قال ؛ ولا يجوز لحضري أن يعجل إلى إنكار ما لا يعرفه من لغات العرب) .

وقد كنت مرة أقرأ للمتنبى قصيدته البائية في مدح سيف الدولة التى أولها :

فدينك من ربيع وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

فتلاقيت بهذا البيت :

وينحشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا

ورأيت أن الشراح جميعاً فسروا عب بمعنى زخرف وارتفع ماؤه ، فأحببت أن أرجع إلى المعجمات لدراسة هذا الفعل دراسة كاملة ، فلم أجد فيها نصاً بهذا المعنى ، ففيها : عب فلان الماء يعبه : شربه مرة واحدة ، وعب النبت : طال ، وعب الرجل : إذا حسن وجهه بعد أن أصابه تغير . ولم أجد بين صفحاتها فعلاً مثل عب البحر إذا زخرف وارتفع ماؤه .

ولكنى أجد فيها كلمة العباب وأرى أنهم قالوا في تفسيرها : عباب الماء : أوله ومعظمه وارتفاعه . وهنا ينقلنى وينقل المتنبى علم الصرف ؛ فيقول : إن الماء إذا تدفق وارتفع سمع له صوت ونشيج ، وإن الغالب في الأفعال الدالة على صوت - من غير بابى فرح وكرم - أن يكون مصدرها على فعيل أو فعال ؛ كصهيل وصراخ ، وإذا فعباب هذا إنما هو مصدر لـ «عب» بمعنى زخرف ، وإذاً يكون اللغويون قد ذكروا المصدر وأغفلوا الفعل ثم يقول علم الصرف ثانية : أن مضارع عب الماء يجمل أن يكون يعب بكسر العين ؛ لأنه فعل مضعّف لازم والغالب في هذا أن يكون من باب ضرب .

ورب كلمة لهج بها المتعلمون بأنها خطأ ، وجرت عليها أقلام المعلمين الحمر قاسية غاضبة ؛ لأنهم لم يروها في كتب اللغة ماثلة بنصها وحروفها واشتقاقها .

وذلك ككلمة : عائلة ؛ لماذا ؟ لأنها ليست في المعجمات . ياسادتى أن هذه الكلمة ليست مستحدثة في هذا القرن ولا في القرن الذى قبل ، إنها وجدت في شعر لشعراء الدولة الأيوبية ، وقد يكون لها ذكر قبل ذلك ولكنى لم أعثر عليه ، والدولة الأيوبية نشرتها في سنة سبع وستين وخمسة ، إذن مر على هذه الكلمة المسكينة تسعون وسبعائة عام وهى تدور على الألسنة وتكتب في الشعر ، ثم نجىء نحن اليوم ونقول لها اخرجى من وركك أيتها الدعية اللزيقة السيدة فلست منا ولا من لغتنا لأنك لست في معجمتنا ! ياسادتى المعجمات لا تذكر المشتقات ولو استوفت المشتقات جميعاً لعادت حجماً كبيراً وعبئاً ثقيلاً .

تعالوا نبحت في هذه الكلمة من الوجهتين اللغوية والصرفية ، وتمهلوا فإن الحكم على كلمة بالإعدام يشبه قتل النفس البريئة بغير حق .

العائلة على وزن فاعلة ، وهى مشتقة من عال ما فى ذلك ريب ، فلننظر إذن معانى الفعل : عال ؛ فنرى علماء اللغة يقولون : عال الرجل يعول ويعيل إذا افتقر . يكفيننا هذا فاعلة بمعنى مفتقرة ، ولاشك أن زوج الرجل وصغاره مفتقرون إلى من يقوم عليهم ويمونهم ؛ فاعلة الرجل المفتقرة إليه هى زوجه وأولاده ، وهذا هو المعنى الحقيقي الذى يقصده الناس عند التعبير بكلمة العائلة .

ثم نعود إلى المعجمات ثانية ، فنرى عال الرجل أهله يعولهم : كفاهم ومأنهم وأنفق عليهم ، والعائلة على هذا المعنى فاعلة بمعنى مفعولة ؛ أى : معولة . واستعمال اسم الفاعل فى معنى اسم المفعول شائع فصيح . قال الله تعالى : ﴿فهو فى عيشة راضية﴾ أى : مرضى عنها ، ثم إن هنا معنى بليغا ؛ لأن العائلة وإن كان كاسبها يموئها هى التى فى الحقيقة تمونه ؛ لأنها هى التى تدفعه إلى الكد والعمل وطلب الرزق .

قال تعالى : ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ فقد رزق الأولاد على رزق آبائهم ؛ لأن الآباء بأبنائهم يرزقون .

جملة القول أن كلمة العائلة صحيحة من ناحية الاشتقاق اللغوى على كلا المعنيين لـ «عال» .

ومما يجرى هذا المجرى كلمة فنان . نبت بين المتأدبين من يقول : لا تستعملوا كلمة فنان فى صاحب الفن كالشاعر والمصور والمغنى والممثل ؛ لأن الفنان فى اللغة الحمار الوحشى ، فرجع الكتاب والمتعلمون إلى معجماتهم فوجدوا فيها :

والفنان فى شعر الأعشى حمار الوحش ؛ لأن له فتوناً فى العدو . فأمنوا وصدقوا وسخروا من كل من يسمى المصور فناناً . ولو تأمل هؤلاء فى عبارة اللغويين لرأوا أمرين حقيقين بالنظر ؛ أولا أنهم قالوا : «الفنان فى شعر الأعشى» أى أن الأعشى استعمل هذه الكلمة ليدل بها على الحمار الوحشى ، فالفنان إذن ليس اسماً موضوعاً للحمار الوحشى يعرفه به كل العرب ، على أن هذه الكلمة فى الحقيقة فى شعر الأعشى وصف لموصوف محذوف ، وهذا كثير فى لغة العرب فهو يقول :

وإن يك غريب من الشد غالها

بميمة فنان الأجارى مجلد

أى بميمة حمار فنان الأجارى .

وثانياً أن اللغويين قالوا : (لأن له فتوناً فى العدو) وهذا صريح فى أن هذا الوصف إنما أطلق على حمار الوحش لأن له أنواعاً مختلفة من العدو وما علمنا أن الوصف يختص بشيء بعينه ، ولا أننا إذا وصفنا فرساً بأنه سباق لا يسوغ لنا أن نصف عالماً بأنه سباق فى علمه وفضله .

على أن صيغة فنان من صيغ النسب الجارية على فعال ك: لبّان، وزجاج ؛ أى : ذى لبن، وذى
زجاج . فمعناها : ذو الفنون ، فهى تطلق على كل صاحب فن فى العدو أو التصوير أو غيرها .
هذه أمثلة قليلة عندنا منها كثير، تدل على أن كتب اللغة يجب أن تقرأ بفهم وبصيرة ويمكن فى
علوم الاشتقاق .
وهذه إشارات خاطفة للذين يتعجلون فيكتبون فى الصحف والمجلات بأن هذه الكلمة خطأ وأن
هذه الكلمة صحيحة من غير إلمام وتريث وتدقيق .
والله ولى التوفيق .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٣) (٥)

نعود الليلة إلى موضوع الكلام في الأغلاط الشائعة في اللغة العربية ، وقد وقفنا الكلام في المحاضرة السابقة إلى تصحيح بعض كلمات حكم عليها ظلماً بأنها غير صحيحة ، وبقيت عهداً طويلاً طريفة منبوذة تأبأها أقلام الكاتبيين ، وتنفر منها أسماع المعلمين . حتى ردونا إليها اعتبارها كما يقولون ورجعناها إلى أخواتها وأهلها بعد طول الغيبة واشتداد النفرة ، وعندى من هذا النوع كلمات كثيرة لا يزال المتحذلقون الواقفون عند عبارة المعجمات وألفاظها يعتقدون أنها خطأ وهى صحيحة فصيحة صريحة النسب . وأريد أن أخصص بهذا الشأن عدة محاضرات أتجه فيها إلى مقاومة هذا الخطر الداهم مادامت الجرائد والمجلات قد فسحت صدورها لطائفة من المبتدئين الذين يرون أن أول مدارج الشهرة أن يخطئوا الناس فيما يقولون ويكتبون ، ولو جاءوا في ذلك بالغث السقيم سافرغ لهذا الموضوع في ليالٍ نحىء ، ولكنى سأطرقكم الليلة بكلمتين اثنتين من هذا النوع لمحض التسلية والترويح ، فإن النفس تميل إلى التنقل من حديث إلى حديث وهى ملول ستوم لا تصبر على طعام واحد .

الكلمة الأولى أياها السادة هى كلمة (كسول) .

نشأت تلميذاً فطالباً فمعلماً ثم مفتشاً والعلماء في كل هذه الأطوار وفي جميع هذه الأحوال ينجفونى من استعمال كلمة كسول ، فيقولون : إياك أن تستعمل هذه الكلمة وصفاً للرجل ، وإياك أن تقول : هذا رجل كسول ؛ إنما يجب أن تقول : رجل كسلان وكسيل ، فإذا كنت تعطف على هذه الكلمة بعض العطف ، وأردت أن تعيد إليها أنفاس الحياة ، فاجعلها وصفاً للمؤث وقل : امرأة كسول . هذا ما استقر في أنفس الأدباء وهذا ما يتحذلق به حذاق اللغويين منهم ، والويل ثم الويل لطالب وصف في مقاله أو كتابته رجلاً بأنه كسول . هنا تقوم محاضرة لغوية طويلة الذبول موضوعها

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ٢٧ / ٤ / ١٩٣٨ .

كسول وكسلان وكسِل، وأن الأول منها يكون خاص بالنساء ولا يجوز له أن يخطر بين الفحول.

والسبب في هذا أنهم بحثوا عن هذه المادة في المعجمات فرأوا أن صاحب القاموس يقول :

«كسل كفرح، فهو كَسِل وكسلان، جمعه كسالى مثلثة الكاف، وكسالى بكسر اللام، وكَسَلَى وهى كِسلة وكسلانة وكسولٌ ومكسال».

رأوا هذا النص فقالوا : إن صاحب القاموس خصص كلمتى كسل وكسلان بوصف الرجل وخصص كلمة كسول بوصف الأنثى، وإذاً يجب ألا نقول : رجل كسول، ثم أرادوا أن يزيّدوا وثوقاً وإيماناً فوق إيمانهم، فأسرعوا إلى أكبر مرجع من مراجع اللغة وهو لسان العرب لابن منظور فرأوا فيه : كَسِل عنه بالكسر فهو: كسِيل وكسلان، والجمع: كَسَالَى وكَسَلَى وكَسَلَى.

قال الجوهري : وإن شئت كسرت اللام كما قلنا في الصحارى، والأنثى كسلة وكسلى وكسلانة وكسول ومكسال.

رأوا هذا أيضاً أيها السادة فزادوا يقيناً - كيف لا وصاحب اللسان يقول : «والأنثى كسلة وكسلى وكسول! هذا معناه في رأيهم أن هذه الصفات الأربع جميعاً خاصة بالمؤنث لا يتصف بها سواء، ولكن أين علم الصرف! أيها السادة؟ وأين فقه اللغة؟ وأين فنّ قراءة كتب اللغويين؟ لا لا. لا يعينهم من هذا شيء، هكذا قال صاحب القاموس وكفى، وهكذا قال ابن منظور وهو حسبهم.

ليس الأمر كما تظنون أيها المتعجلون. إن علينا أن نفهم عبارة اللغويين وأن نستعين في فهمها بقبس من علم تصريف الكلام.

يقول علماء الصرف إن الوصف إذا كان على وزن فعول وكان بمعنى فاعل لا تلحقه تاء التأنيث للفرق بين المذكر والمؤنث وذلك نحو شكور وصبور بمعنى شاكر وصابر فيقال للمذكر رجل شكور وللمؤنث امرأة شكور بغير تاء.

لم يقل علم الصرف أيها السادة إن الوصف الذى على وزن فعول بمعنى فاعل لا يوصف به المذكر، وإنما قال : إن المذكر والمؤنث يوصفان به على السواء من غير حاجة إلى تاء التأنيث عند وصف المؤنث. إذاً علم الصرف يميز لنا أن نقول : رجل كسول وامرأة كسول كما أجاز لنا أن نقول : رجل صبور وامرأة صبور. تعالوا بعد ذلك نفهم عبارة اللغويين على هذا الضوء وفي هداية هذا القبس. ماذا قال اللغويون؟ قالوا : يقال للرجل كَسِل وكسلان؛ هذا صحيح لا غبار عليه لأن هذين الوصفين خاصان بالمذكر، ولأنه لما كان الوصف كسول مشتركاً بين المذكر والمؤنث لم يضعوه بين أوصاف المذكر، لأن البداهة تقضى بصحة أن يكون وصفاً للمذكر لخلوه من تاء التأنيث، فلم يجدوا حاجة إلى ذكره فلما جاءوا لذكر أوصاف المؤنث قالوا: كِسلة وكسلانة وكسول؛ لينصوا على صلاحية أن تكون كلمة

كسول وصفا للمؤنث مع خلوها من الشاء . ومن هذا نرى أن اللغويين جروا على سنن تتسق مع العقل ، فلم ينصوا على البدئي ونصوا على غير المألوف أو ما يصح أن يكون موضعا لشك ، والذي يدل على هذا أن كلمة كسول جاءت في شعر عربي وصفا للمذكر ، وقد نقل هذا الشعر صاحب اللسان في معجمه ، فالكلمة إذا لم تفتحه ولم يخف عليه مكانها ولو كان يعرف أنه أهملها في موضعها لعاد إليه وذكرها فيه ، ولكنه كما رأينا رأى ألا يضع الكلمة مع أوصاف المذكر ؛ لأن صلاحيتها له من بدائه العقول . اسمعوا ما جاء في لسان العرب في مادة (زمل) : والزميل الضعيف الجبان . قال أحيحة :

ولا وأبيك ما يغني غنائي من الفتيان زميل كسول

والكسول هنا أيها السادة من الفتيان لا من الفتيات !

الكلمة الثانية كلمة (وحيدة) :

ظهر بين المستعلمين واللغويين من يمنع وصف الأنثى بكلمة وحيدة ، فلا يميز أن يقال : فتاة وحيدة في الظرف ، ولا : هذه هي المرة الوحيدة التي زرتك فيها . ماذا نقول يا سادتي ؟ إذا يقولون : قل وحيدة يا فتى . فجريت أن أقول : هذه فتاة وحيدة في الظرف ، وهذه هي المرة الوحيدة التي زرتك فيها ؛ فلم أجد ذلك سائغا في حلقي ولا في ذوقي ! من أين جتتم بهذا ؟ جئنا به من كتب اللغة ! فارجع إليها إن شئت . فرجعت إلى القاموس فرأيت صاحبه يقول : رجل وَحَدَ وَأَحَدَ وَوَحَدَ ووحيد ومتوحد : منفرد ، وهي وحيدة ، فقالوا : ألم نقل لك إنه قصر وصف المؤنث على وحيدة ولم يقل وحيدة ؟ قلت : نعم هذا صحيح ، ولكني أعرف من ناحية أخرى أن وحيدا بمعنى فاعل ؛ أي : متوحد وأن كل فعل إذا كان بمعنى فاعل لحقته تاء التأنيث قياسا ، فأقول : كريم وكريمة ، وعفيف وعفيفة ، ولا أحتاج إلى المعجمات . ثم إنني أعرف من ناحية ثانية أن أصحاب المعجمات لا ينصون على ما كان قياسيا ، وإلا صحبوا كل وصف للمذكر بمؤنثه ؛ ثم أعرف من ناحية ثالثة أن اللغويين إذا رأوا أن العرب خالفوا القياس في كلمة سارعوا إلى التنبيه عليها فقالوا مثلا (ولا تقل وحيدة) ولكن صاحب القاموس لم يفعل هذا وهو لم يذكر وحيدة لأن تأنيثها قياسا لا غبار عليه .

على أنني حين أنتم قراءة هذه المادة في القاموس نفسه أجده يقول بعد قليل : « والوحيدة من أعراض المدينة بينها وبين مكة » إذا فالعرب قد نطقوا بكلمة الوحيدة وسموها بها مكانا بين مكة والمدينة ، وهو علم منقول من الصفة ولو كانت كلمة الوحيدة مخالفة للغتهم ما استطاعوا أن ينطقوا بها ، وإذا يكون هؤلاء الذين يدعون على المعجمات إنها يتعجلون في الحكم ويتسابقون إلى الهدم من غير فقه أو تمحيص . هذا ما أردت التحدث فيه في هذه الليلة ، أيها السادة ، وسنستمر في تناول هذا الموضوع في محاضرات أخرى إن شاء الله وهو الموفق سبحانه .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٤) (*)

والآن أيها السادة نلتقى في رحاب العربية الشريفة التي تهوى إليها قلوب أبنائها على اختلاف الديار وبُعد الأفاق، والتي نعدّها بحق الرمز الصادق لتاريخنا المجيد، والنبع الفياض لثقافتنا الحديثة، والعروة الوثقى لآمالنا المتفرقة وعواطفنا المتزاحمة. وقد ألقينا قبل ذلك من هذا المكان الذي يشرف على ديار العروبة جميعاً أحاديث وأحاديث في تنقية العربية مما أصابها من درن، وتطهيرها من وضر اللحن ومن كل ما أجلبت به عليها العجمة من دخيل في اللفظ والتواء في الأسلوب. وأهنا بالشبان الأجداد أن يصغوا إلى أحاديثنا، وأن يقتطعوا من أوقات لهوهم جزءاً للتفقه في اللغة والإلمام بصحيح أوضاعها، وأنهم إن فعلوا وتفضل الله علينا بأن نستمر في أحاديثنا قضوا على كل ما نتعثر به الألسن من خطأ شائع، وتتظرف به أقلام بعض الكاتبين من عربية مدخولة ولكننا بعد أن مضينا شوطاً في إصلاح الخطأ في الكلمات والأساليب لمحنا أن هناك داهية أدهى، وأن وراء الأكمة خطراً أعظم، ذلك هو تشبث بعض المعلمين بالحكم على كلمات صحيحة فصيحة بأنها خطأ، وقيام نابتة من المبتدئين تتعالم على الناس وترمى بالخطأ كل تركيب أو لفظ صحيح.

مسكينة أنت أيتها العربية. ماذا تصنعين بين مجازف باللحن لا يبالي ما يصنع، وجرىء اللسان والقلم لا يريد أن يترك لك أديبا صحيحاً؟ وماذا يكون حالنا أيها السادة وقد أردنا أن نرأب صدعا في البناء فإذا بنا نرى في الجانب الآخر معاول تهدم القوى المتناسك من هذا البناء. ألقينا بكل شيء كان في أيدينا وتركنا الحديث في الأغلاط الشائعة إلى حين، وأسرعنا إلى هذه المعاول نحطمها وإلى تلك الأيدي العادية على العربية نغلها.

رحمك اللهم. أردنا أن نعالج في العربية داء قديماً فإذا نحن من هؤلاء الهدامين أمام داء جديد.

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ١٠/٦/١٩٣٨.

وقد ذكرنا في حديث سابق أن الحكم بخطأ الصحيح من الألفاظ يرجع إلى أسباب منها : الجمود عند عبارة المعجمات من غير ذوق لغوي وملكة سليمة تدرك ما وراء هذه العبارات ، ومنها : الجهل بعلم الاشتقاق وقواعد التصريف ، ومنها : الاختصار أحيانا على معجم من غير استقصاء غيره من كتب اللغة والأدب . ونحن الليلة متناولون أربع كلمات نفاها بعض المتحذلقين من حظيرة العربية وأهابوا بالأدباء والكتاب أن يجتنبوها ، منها كلمتا الفطور والغداء ، وأظن أن إنسانا لا يستغنى عن استعمال هاتين الكلمتين في كل يوم من أيام حياته ، قالوا لنا : إنها خطأ لا يصح أن تتداوله الألسنة بحال ، فلا يصح أن تستعمل كلمة الفطور إلا لطعام الصائم عندما تغرب الشمس ، أما في غير رمضان فطعام الصباح لا يسمى فطورا . ولكننا أيها السادة اللغويون نحتاج إلى هذا الاسم أشد الحاجة وكيف تكون لنا لغة تصح أن تسمى لغة إذا لم يكن بها اسم لطعام الصباح ! قالوا : سمه غداء . سم الفطور غداء ؛ لأن القاموس يقول «والغداء طعام الغدوة» والغدوة أول النهار أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس قلت : إن الناس لا يقبلون أن تسموا لهم الفطور غداء ، قالوا : وما لنا وللناس إننا نأخذ اللغة من نصوصها ، قلت : وبم تسمون طعام ما بعد الظهر الذي يسميه الناس جميعا غداء ؟ قالوا سمها الكرزمة . فلم أسغ الكلمة وعلمت أن شيئا من هذا الخلط لن يكون صحيحا ، فرجعت إلى المعجمات فماذا رأيت . رأيتها تقول :

الفطر الشق ؛ تقول : فطر فلان الحائط يفطره شقه ، والفطر البدء بالشيء ؛ تقول : فطر الله السموات ؛ أى : بدأ خلقها – فالفطر للصائم بفتح الفاء وهو المصدر وبكسرهما وهو الاسم – مأخوذ من هذين المعنيين فالصائم بفطره يشق الصوم ؛ أى يصدعه : أو يبتدئ الأكل بعد أن كان محظورا ، والطعام الذي يبتدئ به يسمى فطورا ؛ لأنه يكسر الصوم أو يجيء أول الطعام . وإذا جاء الفطر والفطور في حديث أهل اللغة عن الصوم والصائم . ألا يسوغ لنا أن نقلعه إلى غير الصائم ما دام الأصل اللغوي يعاضدنا والحاجة إلى الكلمة تستحثنا ؟ نعم يسوغ ؛ إما على ضرب من المجاز بالاستعارة وإما بإطلاق الخاص بتوسيع معناه وإما بالرجوع إلى الأصل اللغوي المحض ؛ لأن طعام الصباح وهو الفطور أول طعام يبتدأ به فهو من الفطر بمعنى الابتداء ، أو لأنه يشق ما كان عليه الأكل طول الليل فيكون من الفطر بمعنى الشق والصدع ، وتوافق اللغات هنا عجيب جدا بين العربية والإنجليزية فإن الفطور يسمى بالإنجليزية "breakFast" أى صدع الصيام .

انتهينا إلى أن نسمى طعام الصباح فطورا كما يسميه جميع الناس . بقى الغداء وما قالوه من أنه طعام الصباح ، وكانت عبارة صاحب القاموس تشهد لهم ؛ لأنه يقول : والغداء طعام الغدوة وهى ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ولكننا حين ذكرناهم بقوله تعالى في شأن موسى عليه السلام ﴿ فلما جاوزا قال لفتهاء آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ وقلنا : كيف يلقيان نصبا من السير والسفر وقت الغدوة في بكرة النهار؟ قالوا : لعله كان يسير ليلا . فذهبنا إلى المعجمات فرأينا صاحب المصباح

يقول: غدا غدوا ذهب غدوة؛ هذا أصله ثم كثر حتى استعمل في الذهاب في أى وقت. وإذا يجوز أن تقول: غدا فلان إلى الإسكندرية في قطار العصر؛ بمعنى: ذهب. ثم رأينا صاحب الصحاح يقول: والغداء الطعام بعينه وهو خلاف العشاء، فهو لم يقيد به بأن يكون أول النهار، فطعام الظهر عنده غداء من غير شك. وهناك دليل آخر على ذلك لطيف، وهو ما قاله شارح القاموس، قال: ويسمى السحور غداء؛ لأنه للصائم بمنزلة للمفطر. وفي هذا معنيان دقيقان؛ فهو أولا: يبيح لنا أن نسمى طعام الصباح فطورا؛ لأن العرب تجوزوا وسموا سحور الصائم غداء. وإذا تجوزوا في الصائم فلم لا نتجوز في المفطر؟ وهو ثانيا: يفيد أن طعام الغداء هو طعام ما بعد الظهر، أو الذى يلي الفطور؛ لأنهم استعملوه للصائم فيما يلي الفطور وفي طعام نصف الليل. «أما الكرزمة» هذه وهى أكل نصف النهار؛ فهى على غرابتها وثقلها ونبوها لم نرها في كتب الأدب ولا في شعر الشعراء، على أن ابن الأعرابي ينكرها ويقول: لم أسمع له غير الليث.

ومن هذه الكلمات التى لا تزال محكوما عليها بالخطأ من جميع المعلمين والمتأدين «كلمة يدعوه كذا». و«تعود على كذا» فلا يجوزون مطلقا أن يكتب كاتب مثلا إن التغاضى عود فلانا على الكسل. أو أن يقول: إن فلانا تعود على الإهمال؛ لأنهم رجعوا إلى معجمات اللغة فأروها مجمعة على تعدية الفعل بنفسه لذلك يحنون أن يقال: إن التغاضى عود فلانا الإهمال فتعوده. ولكننا نريد أن نفهم نصوص اللغة معهم في هدوء وثؤدة ففيها: وعاد فلان على الشيء وإلى الشيء رجع إليه وفيها وعاد فلان الشيء صار عادة له. وفيها: وعود كلبه الصيد فتعوده: جعله يعتاده، فالفعل عاد في كل هذه التعاريف معناه الرجوع إلى الشيء أو العمل فإذا تكرر هذا الرجوع صار عادة، وإذا جاز أن نقول: عاد فلان على الشيء بمعنى رجع. ألا يجوز حينما نريد أن نعدى هذا الفعل إلى المفعول بالتضعيف أن نقول: عود فلان فلانا على الشيء؛ أى: أعادة إليه مرة بعد أخرى. هذا بدهى كما نقول: سار فلان على نهج قويم، وسيرته على نهج قويم. وحينما قالوا: عاد فلان الشيء، وأرادوا تعديته إلى مفعولين قالوا: عودته الشيء، ولكن اللغويين أهملوا ذكر الفعل الأول مُضَعَّفًا؛ وهو عوده على كذا وأتوا بالفعل التالى وهو عوده كذا. وإهمالهم هذا لا يدل على منع عوده على كذا مادام التضعيف مسموعا ومادامت العرب استعملت الفعل المجرد معدى بعل فقالوا: عاد فلان على الشيء فإذا لم يؤمن المتأدبون بعد كل هذا، فأظنهم يمثلون إيماننا عندما يسمعون قول زهير في مدح هرم بن سنان:

وعود قومَه هَرَمٌ عليه ومن عاداته الخلق الكريم

عودهم عليه أى: جعلهم يعودون إليه لطلب المعروف مرة بعد أخرى. وكذلك إذا قلت: عودت فلانا على الكرم. كان المعنى: جعله يعود إليه مرات فتعود عليه.

ومن الكلمات التى أنكرها على بعض الأدباء كلمة «نسائم» جاءت في بيت قلته هو:

يُقَدِّيه غُصْن الدوح رِيَّانَ نَاضِرًا إذا اهتز في كف النسائم مائله

قالوا: إن النسيم لا يجمع على نسائم وإنما جمعه أنسام ، ولم نجد أن كتابا في اللغة جمعه على نسائم . والحق أن هذا الكلام عجيب جدا كأن الجموع القياسية يجب أن تؤخذ أيضا من كتب اللغة مع أنها لا تذكر الجمع القياسي إلا في القليل النادر .

جمع نسيم على نسائم جمع قياسي ؛ لأن فعائل جمعا تطرد في كل رباعي مؤنث ثالثه مدة زائدة ، فاجمع سلافة على سلائف ، وحبيبة على حبايب ، وحلوبة على حلائب . ولا تبحث عنها في كتب اللغة ، والمؤنث إما أن يكون بالتاء كما سبق ، وإما أن تكون العرب عدته مؤنثا مثل شمال وشمال ويمين ويماين وعجوز وعجائز.

والنسيم مؤنثة لأن الريح مؤنثة وكل أسماؤها مؤنثة كذلك .

وإذا كانت النسيم مؤنثة فهي رباعية ثالثها مدّة زائدة هي الياء ، فهي تجمع على نسائم في قياس مطرد لا يتخلف ، ولذا يقول الحسين الواساني من أكثر من تسعمائة سنة :

ولما نضاً وجه الربيع نقابه وفاضت بأطراف الرياض النسائم

وفي هذا القدر ما يكفى هذه الليلة والسلام عليكم ورحمة الله .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٥) (*)

نعود الليلة إلى ما بدأنا به من الحديث في العربية الشريفة لغة الدين والقرآن وجامعة أشتات الأمم العربية على اختلاف آفاقها وتباين لهجاتها . فهي لغتها القائمة وصلتها الدائمة فكم نزلنا بلاداً عربية النبعة والتاريخ والأدب والعادات والدين فعجزنا فيها عن مشافهة كثير من عوامها وقلّت حيلتنا في تفهم لهجاتهم لما اعتورها من التحريف والتغيير والمسخ ولما تفشّاهما من مولّد ودخيل ، كما هو الشأن في عاميتنا المصرية فلم ينقلنا بينهم إلا غطابتهم بالعربية السهلة الصحيحة وحلهم على محادثتنا بها . هنالك اجتمع المتناثيان وتعانق الأخوان ورأيا أنها وإن تباعدت بينهما الديار وشط المزار من أرومة واحدة تجمعهم أو أصر تاريخ مجيد وتلتقى فروعهما عند أصل واحد كريم هو العربية والعرب بكل ما في الكلمتين من معنى سام وذكريات غالية .

فالعربية هي رباط القلوب ونسب الأرواح وهي أخوة في الدم والتاريخ دائمة وأصرة في المجد والنسب قائمة . أليس من الواجب علينا بعد هذا أن نعمل على هدم العامية في كل قطر عربي وأن نحیی فيه العربية الصحيحة حتى تزيد هذه الصلة قوة وهذه الأصرة متانة وإحكاماً ؟

والقضاء على العامية لا يكون أولاً إلا باستنكارها والاشمئزاز منها ، وأنها تجر في أذيالها بقايا من عصور الظلم والإظلام ، وأنه لا يحسن بمتعلم أو بشبه متعلم أن ينطق بها أو يلقتها أطفاله الصغار . ثم بانتشار التعليم الأولى وعمومه ، ثم بحرص الجرائد والمجلات كيفما كانت نواحيها على العربية الصميمة ، وألا ينفذ إليها أسلوب عامي أو كلمة سقيمة . ثم بهجر التمثيل العامي هزلياً كان أو غير هزلي ، ثم بعناية كل خطيب أو مدرس أن يكون سليم التعبير صحيح الأسلوب . والمعلمون المعلمون

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ٨ / ٧ / ١٩٣٨ .

هم موطن الأمل ومحط الرجاء وهم الملح المصلح وما يصلح الملح إذا الملح فسد؟ فإذا التزموا العربية السهلة السائغة نفذت إلى نفوس تلاميذهم ورسخت أساليبها في حوافظهم فانطلقوا يتحدثون في يسر بعبارة صحيحة ونسق مستقيم .

لذلك أيها السادة وقفنا هذا الموقف وستقفه ما تنفس بنا العمر نرفع الصوت لنصرة العربية وسنجد بحول الله من غير إخواننا وأبنائنا ما يشد أزرنا ويقوى زنادنا .

وقد كنا نتحدث في محاضراتنا السابقة في كلمات وأساليب ادعى بعض المتعجلين خطأها وأذاعوا ذلك في الجرائد ونشروه بين الناس وبين الناشئة المتعلمة ، فكان ضرر ذلك جسيماً وشراً مستطيراً ، فإن فيه تضيقاً للعربية وهي فسيحة الصدر فياحة الرحاب ، وقد وصل هؤلاء إذا حاولوا الكتابة إلى شبه شلل أدبي ، فتشككوا في كل كلمة ورجعوا إلى حروف المعجمات إذا هموا بأي تعبير .

وسنواصل البحث الليلة في تصحيح كلمات أخرى أبعدوها عن حظيرة العربية ، وحكموا عليها بالخطأ . ومحامها المعلمون بالقلم الأحمر من كراسات التلاميذ .

من هذه الكلمات كلمة : عديدة ؛ بمعنى كثيرة ، فإذا قال قائل : زرتك مرات عديدة ، أو : عندي كتب عديدة خطتوها ؛ لأن المعجمات لم تذكر ، في رأيهم ، عديدة بهذا المعنى ، وإذا وردت في المعجمات فيجب في مذهبهم أن ترد ظاهرة جليلة لا تحتاج إلى إعمال فكر ، ولا إلى تخريج على قواعد الاشتقاق .

فقد رأوا في المعجمات مما يدور حول هذه الكلمة أن العديد : العدد ، والكثرة ، والنظير ، وزنين القوس ، وأن العديدة : النصيب ؛ تقول : خذ عديدتك أي حصّتك ونصيبك . رأوا هذا ، ولم يروا فيها أن العديدة تأتي بمعنى الكثيرة ، فجهروا بأن استعمالها في هذا المعنى خطأ ، وراحوا يتعاملون بذلك منذ أكثر من ثلاثين سنة ، والفلك يدور والليل يعقبه النهار ، وكلمة عديدة بمعنى كثيرة على الرغم من ذلك ثملاً الصحف والكتب ، وتطرّد في عبارات الأدباء المبرزين ، ويظهر أن ثبات الكلمة طوال هذا الزمن على كثرة ما كان يصيبها من الزجر والطرّد دليل على حقها في البقاء ودليل على أن العربية تضمن بيناتها أن تزال . تعالوا نفهم معاً أيها السادة :

استعملت اللغة العديد بمعنى الكثرة باتفاق منا ومنكم ، ونزيد هنا - إذا أذنتم - أنها استعملت العديد بمعنى الكثير . قال الراغب في مفرداته : ويقال : جيش عديد أي كثير ، فالعديد إذاً تستعمله العرب بمعنى الكثير . قالت الخنساء تراثي أخاها صخرًا :

فأقسم لو بقيت لكنت فينا عديداً لا يكاثر بالعديد

أي لا يغالب بالكثير من الرجال .

وإذا كان العديد صفة بمعنى الكثير فهو إذا مشتق من عد الشيء بعده ، وإذا كان مشتقاً فهو بلا

شك صيغة مبالغة كـ: رحيم وسميع ؛ لأن فعله متعد فالعديد الكثير العدد، كما أن الرحيم كثير الرحمة، والسميع : شديد السمع ، ولا شك أن صيغة المبالغة تؤنث بالتاء ، فقل إذاً : كتب عديدة ومبرات عديدة . كما تقول : امرأة رحيمة وسميعة . ومن هذا يظهر أن كلمة عديدة بمعنى كثيرة صحيحة في اللغة والقياس ؛ لا يصيبها رشاش من شك . ثم إننا نستطيع من ناحية أخرى أن نستخرجها بالنص من عبارة اللغويين . قالوا العديدة النصيب . أتدرون لم سموا النصيب في الميراث عديدة؟ لأنه سهام وأجزاء من التركة معدودة فعديدة الوارث ما أصابه من المال المعدود . وإذا استعملت العرب العديدة بمعنى المعدودة فلم لا نستعملها نحن؟ ولا يقال هنا : إن كلمة معدودة تفيد القلة ؛ لأن الزجّاج يقول : كل عدد قلّ أو كثر فهو معدود .

ومن الكلمات التي خطئوا فيها الناس كلمة (استغرب) فلا تقل : استغربت هذا الأمر؛ أي : عددته غريباً ؛ لأنهم يرون أن هذا الفعل (استغرب) لم يأت في المعجمات إلا لازماً بمعنى المبالغة في الضحك . قال في اللسان : واستغرب عليه الضحك : اشتد ضحكك ولجّ فيه . ونحن لا ننكر عليهم ذلك ولكننا نستغرب ما يقولون ؛ لأن هذا الفعل استعمل كثيراً في القديم والحديث وأقيسة اللغة لا تأباه .

وأصله من غَرِب الشيء يغرب أو غَرِب يغرب غرابية ؛ بمعنى بعد ، فهو غريب أي : بعيد عن المعروف المألوف . فإذا أدخلنا عليه السين والتاء للاعتداد والإصابة قلنا : استغربت الشيء ؛ أي : عددته غريباً ، كما نقول : استحسنت الشيء ؛ أي : أصبته حسناً ، واستقبحت ؛ أي : وجدته قبيحاً ، والسين والتاء للطلب أو الإصابة قياسية .

قال سيبويه : والباب في استفعل أن يكون للطلب أو الإصابة ، وإذا قالوا : الباب ؛ فهذا معناه القياس . وقال ابن يعيش : والغالب في هذا البناء (استفعل) الطلب والإصابة ، وما عدا ذلك فإنه يحفظ حفظاً ولا يقاس عليه .

وما زعموا أن الفعل صارح لا يكون إلا لازماً ، وأن الكتاب يخطئون حين يقولون : صارحت فلانا برأى ودليلهم على ذلك أن المعجمات التي يعول عليها لم تأت بهذا الفعل إلا لازماً ، ولكن أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طأوعوا أمر العدو المزائل

فاستعمل صارح متعدياً . وهذا دليل يساق إلى أدلة كثيرة ذكرتها على أن المعجمات لم تنحصر كل كلام العرب ، وأنه يجب التريث والبحث قبل البت بنفى كلمة من ساحة اللغة الصحيحة .

هدانا الله إلى طريق السداد ووفقنا لخدمة دينه ولغة كتابه الكريم والسلام عليكم ورحمة الله .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٦) (*)

تحدثنا في أربع محاضرات سابقة في تصحيح كلمات وأساليب جرت طائفة من حذاق العربية على الحكم بأنها خطأ، فأعدناها إلى فناء العربية بعد طول التشريد، واشتداد الجفاء، ورجعناها إلى أخواتها من بنات الضاد، فلقيت من البشاشة والرحابة ما هي خليقة به وقد كنا نريد أن نكون أبعد شوطاً وأوسع مدى في هذا البحث، ولكننا رأينا أن نتقل بالسامعين إلى فن آخر من القول قد يكون أهون عليهم وأحب إلى نفوسهم وأبعد إلى خشونة الاصطلاح وجفوة التعقيد. فقد أسهينا فيما عرضناه على السامعين أنفاً في نقل النصوص اللغوية وتمحيصها وبيان الطريق إلى فهمها حق الفهم، وقد كنا في هذا نقصد إلى إرشاد طلاب اللغة والأدب إلى طريق قراءة كتب اللغة وفهم ما وراء ألفاظها من معان، وإلى ما في أساليب تأليفها من عيوب قد تؤدي إلى خطأ في الفهم وفساد في الحكم؛ لأنها قد تهمل ما تحكم البداهة بعربيته، وقد تنقص في مواضع فتكملها الآثار العربية الصحيحة من شعر ونثر وتشمر لمعونتها علوم التصريف وقواعد الاشتقاق.

وقد وضعنا ذلك بأمثلة كثيرة تناولت مسائل شتى مما نذ عن الناشئين فهمه، وغرب علمه، ولعلنا نكون قد رسمنا بها فصلناه نهجا قويا للباحثين، ومهيئا واضحا لمن أراد البحث والتمحيص.

والآن نتحدث في أغلاط تنتشر في عبارات الكتاب، وبعض هذه قد جاء الغلط فيها من ناحية الأسلوب. لأن الترجمة في هذا العهد الحديث طغت على كل شيء وتصدر لها في كثير من الأحيان من لا يعرف من معنى الترجمة إلا أنها وضع كلمة عربية مكان كلمة أعجمية، وأنها نقل الأسلوب الأعجمي إلى العربية كما هو، بتغيير كلماته من غير تصرف سليم أو ذوق عربي دقيق. وليت الحال في

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ٣/ ٩/ ١٩٣٨.

سقم الأسلوب والتواتر وأعجميته، كانت تقف عند الكتب المترجمة فقد تجاوزت ذلك بعيدا وسرت عدوى الترجمة إلى التأليف.

ورأى بعض الكتاب أنه من التطرف والتجديد أن ينحو في كتابته منحى الأسلوب الفرنجى فأصبحنا نقرأ أحيانا لبعض الكتاب كتابة عربية في غير روائها العربى الصميم فظهرت مضطربة مختلفة الألوان . هى أشبه بأعرابى انتزعت من البادية وأقيت له خُفْيَة وشَمْلته، ثم أضفت إلى كل ذلك ما يحلو لك من ملابس فرنجية فبدأ فى زى عجيب تقتحمه العيون . لا هو بزى العرب ولا بزى الأعاجم . وإذا عرض لكم شك أيا السادة فى بعض ما أقول فإن أيسر ما يذهب بهذا الشك أن تعرضوا إلى قطعة مما يكتب هذا الصنف من الكتاب، وأن تجربوا بأنفسكم بوضع كلمة أجنبية مكان كل كلمة عربية فإن استقام لكم ذلك من غير كلفة ورأيتم أنكم خرجتم بعد هذا العمل اليسير بقطعة فرنسية أو إنجليزية صادقة التعبير صحيحة المعانى، فاعلموا أنى صدقتكم الحديث وأنى لم أكن مبالغا ولا مغرقا . وفى الحق إنى لم أرشدكم إلى هذه التجربة إلا بعد أن سبرت الأمر بنفسى، ورأيت أن ذلك خير ميزان لتمييز الأسلوب العربى السليم من الأسلوب الأجنبى الدخيل. إن لكل لغة أسلوبها وخواص تعبيرها، وإنه من الخلط والخلل الأدبى أن يسطو أسلوب لغة على أخرى، وإن من ضعف القومية وخور النفوس أن تنسى الأمة مقومات لغتها لتفى فى سبيل لغة أخرى. تخيلوا أيا السادة أننا ترجمنا إلى أية لغة غربية العبارات الآتية ترجمة حرفية وهى : أكل عليها الدهر وشرب، ركب فلان رأسه، قطعت المسافة فى يوم. إننا لو فعلنا لأتينا بالسخيف المضحك. فما بالتا نرى هذا ولا نعدل عن تشويه لغتنا بخلطها بأساليب لغات تخالفها فى النمط البيانى والتفكير وطرائق التعبير.

طلب إلى عظيم مرة أن أذكر له الفرق بين ترجمة فلان وترجمة فلان، وكانت لها شهرة فى الترجمة وتمكن فى الإنجليزية وإلمام بالعربية فقلت له على الفور: إن فلانا يترجم الألفاظ وفلانا يترجم المعانى فسر لهذا الإيجاز الذى يتضمن المعنى الصحيح للترجمة ويبرز أكبر عيوبها، نحن لا نريد ترجمة الألفاظ ولكننا نريد ترجمة المعانى. من يظن أن كتاب كليله وذمته مترجم؟ نريد ترجمة على هذا النمط، ومن هذا الطراز. نريد من المترجم أن يقرأ الصفحة فى الأصل الأجنبى ويفهمها حق الفهم ويدرك مراميها، أو كما يقول السادة الأزهريون منطوقها ومفهومها، ثم يلقي بالكتاب من يده ويكتب ما وعاه من عند نفسه بلسان عربى مبين، وإذا كان بالأصل مجاز أو خيال أو كناية بحث فى لغته الفسيحة الواسعة المدى عما كان يقوله العرب فى أمثال هذه التراكيب.

وليعلم أن لكل لغة خصائصها وبيئتها وأسباب سعتها وضيقتها، فقد تجد كلمة فى اللغة الأجنبية لا تؤدى إلا بجملتها فى العربية وقد تجد عكس ذلك، وقد تجد كثيرا من المترادفات الأجنبية فى ناحية خاصة فى حين أنك لا تظفر بكلمة عربية فى هذه الناحية إلا بعد عرق الغربة، وقد تجد عكس ذلك وقد تجد فى كل لغة دقة فى التعبير فى بعض نواحيها وتحللاً شائناً فى نواح أخرى.

أقول هذا لأنى كثيرا ما سمعت من بعض الشبان أن هذا التعبير مثلا أو هذه الكلمة الإنجليزية أو الفرنسية ليس لها مثيل في العربية . وهذا خطأ لأن العربية الشريفة لا تضيق بكلمة أو أسلوب كيفما كانت وكيفما كان ، ولكن التعبير قد يكون موجزا في اللغة الأجنبية ويأبى ذوق العربية إلا أن يترجمه مسهبا ، وقد تكون الكلمة في الأجنبية مؤدية لمعان مركبة لا تؤديها العربية إلا بكلمتين أو ثلاث .

طلب إلى مرة أن أراجع كتابا كبير الحجم ترجم من الإنجليزية لإصلاحه وتهذيبه فرأيت أن المترجم كان آمينا إلى أقصى حدود الأمانة وأنه ترجم كل كلمة وكل حرف ، فعادت كتابته وهى عجيبة العجائب لا شرقية ولا غربية ، فحرت في أمرى وسقط في يدي ورأيت أن إصلاحه من المعجزات وأنه خير لى وأهون أن أكتبه من جديد .

هذه نبذة قصيرة في الترجمة وخصائص اللغات لو أردنا أن نبسط القول فيها لطال حبل الكلام ، ويكفى أن نحفز شبابنا المثقفين إلى الحرص على لغتهم ، والتمسك بأساليبها ، وتطهير أعلامهم من لوثات العجمة والدخيل .

ولنذكر أمثلة من الأساليب التى تسربت إلى العربية من سوء الترجمة ولم ينتزه عنها كثير من كتابنا . من التراكيب المترجمة التى لا يستسيغها الذوق العربى ، وليست العربية فى حاجة إليها وليست الدقة فى التعبير تتطلبها ألبة : قولهم مثلا : قال فلان كذا وأنا بدورى أقول كذا ، وكلمة : بدورى هذه لم تتسلل إلى حمى العربية إلا من عهد قريب جدا ، وهى ترجمة حرفية دسها بعض الكتاب فى اللغة وحاكاه فيها بعض الشدة فى الكتابة ومن لا يدققون فى اختيار الأساليب ، وهو تركيب مقحم لا معنى له ، وهو لا يؤخر ولا يقدم والكلام بدونه سائح مستقيم ؛ فلو قلت : قال فلان كذا وأنا أقول كذا- ما طالبك إنسان أن تنص على هذا القول كان بدورك أو بدور غيرك .

ومن التعبيرات المترجمة قول بعضهم مثلا : إن هذا المشروع يفيد سكان الصعيد وبالتالي جميع سكان القطر ، وكلمة بالتالى هنا عجيبة وغريبة لم نرها فى فصيح الكلام قديمه وحديثه ، وكلمة ثم العاطفة تغنى عنها تمام الغناء فالتركيب العربى الصحيح أن تقول : إن هذا المشروع يفيد سكان الصعيد ثم جميع سكان القطر .

ومن التراكيب المترجمة مثل قولهم : عظمت ثروة مصر عن طريق الزراعة ، أو : نهضت مصر عن طريق العلم وهذا التركيب (عن طريق) محدث فى العربية تغنى عنه باء الجر فى إيجاز ورشاقة ؛ فإن العرب تقول : عظمت ثروة مصر بالزراعة ونهضت بالعلم .

ومن التراكيب المترجمة السقيمة قولهم مثلا : نصف شفاف ، وأنصاف المتعلمين ، وهذا بدع لا يسيغه الذوق . وكانت العرب تقول فى هذا : شبه الشفاف ، وأشباه المتعلمين . ومن كلام على كرم الله وجهه فى خطبته المشهورة : « يا أشباه الرجال ولا رجال » .

وعندى من هذا النوع أمثلة كثيرة موعدنا بها المحاضرات المقبلة إن شاء الله والسلام عليكم .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٧) (*)

تناولنا في حديثنا السابق طرفاً من تأثير لغة الترجمة في لغة التأليف والكتابة، وذكرنا فيما ذكرنا أن إهمال العناية بالترجمة في أول عهد نهضتنا الحاضرة جر على العربية ويلات تحاول اليوم التخلص منها فلا تكاد تستطيع . وأن شبح الترجمة وظلها يبدو اليوم ماثلاً في كل ما نقول ونكتب ، حتى أصبح كبار لغويينا وعظماء أدبائنا المحافظون على تراث الآباء الحريصون على إبقاء العربية صميماً خالصة يخشون أن تهفوا أقلامهم بأسلوب دخيل ، أو يشبه عليهم تعبير في العربية سنيذ .

ويجب أن نسارع هنا إلى أن نمحو من أذهان السامعين ما يمكن أن يخطر بها من أننا ندعو إلى الجمود ، أو ننادى بالوقوف باللغة دون النمو ومساابقة الحياة الحاضرة التي سبق فيها كل شيء وبلغ الغاية أو كاد .

لا يا سادتي إنني أعتقد أن لغتنا الشريفة بموادها الواسعة وصدرها الرحيب وأساليبها اللينة المرنّة ، جديرة بأن تعبر عن كل دقيق وأن تشرح أساليبها كل معنى مستحدث جديد ، وأن تخلع على مدنية هذا القرن الملىء بالعجائب ما شاء من حلول سابغات ، دون أن يمس شيء من أسلوبها العربي السمع ، أو يقوض جداراً من بنائها الراسخ الرصين .

إن لغة العرب ليست لغة أثرية وضعت لتسد حاجات عصر موغل في القدم ، حتى إذا انقضى ذلك العصر زالت بزواله وقامت على أساسها لغات جديدة لعصور جديدة . كلا ؛ إن العربية لغة كل زمان . إن لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي الرائع لا تضيق بحاجات أي قوم ولا أي زمان .

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ٧/١٠/١٩٣٨ .

وقد يخيّل إلى بعض المشتغلين بالأدب أو المعانين للترجمة أن اللغة لا تستجيب لهم في بعض الأحيان إذا دعوا، وأنها تتخذهم كثيراً في مواطن الحاجة، وأنهم إذا أهابوا بها للتعبير عن معنى جديد قصرت يدها عن أن تناله، فتراهم وقد عادوا بصفقة المغبون يملثون الجو صياحاً ويرمون اللغة بالقصور والتقصير. وليست اللغة قاصرة ولا مقصرة ولكنهم هم القاصرون المقصرون. عجزوا عن استخراج كنوز اللغة من دفائناتها، وقعدوا عن دراسة أسرارها وعجائبها، فإذا عاقبتهم بالحجر والصد وأسدتل النقاب دون سحر جمالها، وأوصدت الباب في وجوههم، راحوا يقولون: إنها كثة الكفين وإن جمالها - إن كان لها جمال - صحرأوى لا يجتذب القلوب في هذا الزمان.

وفي الحق إن إهمالنا اللغة ليس من عيوب اللغة، وإن نومنا طويلاً عن الانتفاع بذخائرها في حياتنا الجديدة لا يكون إلا حجة على عجزنا أو تقصيرنا.

وإننى في هذا المعنى أقول :

والسهر يسرع والأيام معجلة	ونحن لم ندر غير الوحد والخب
والمحدثات تسد الشمس كثرتها	ولم تفز بخيال اسم ولا لقب
والترجمات تشن الحرب لأقحـة	على الفصيح فيا للويل والحرب
نظير للفظ نستجديه من بلد	نساء وأمثاله منا على كذب
كمهرق الماء في الصحراء حين بدا	لعينه بارق من عارض كذب
أزرى بنت قريش ثم حاربها	من لا يفرق بين النبع والغرب
وراح في حملة رعناء طائشة	يصول بالخائين : الجهل والشغب
أنترك المريبى السمع منطقـه	إلى دخیل من الألفاظ مغترب
وفي المعاجم كنز لا نفاد له	لمن يميز بين الصدر والسخب
كم لفظة أجهدت مما نكررها	حتى لقد لهت من شدة التعب
ولفظة سجت في جوف مظلمة	لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
كانها قد تولى القارطان بها	فلم يؤوبا إلى الدنيا ولم تؤب

يقول بعض الناس إن كل شيء في هذه الدنيا يصيبه التطور والتحول واللغة شيء من الأشياء، فلماذا لا يعثرها التطور؟ ولماذا نلزم أن نعبر بلغة البادية في زمان هو أبعد الأزمنة عن البادية. مرحى أيها السادة! إن اللغة يصيبها التطور. وقد أصابها هذا في عصور التاريخ جميعها وهو عارض طبعى لا مناص منه ولا محيص ولكن التطور الذى نريده تطور إحياء لا تطور إماتة. ظهرت اللغة في صدر الإسلام بمظهر جديد، وأصابتها فيض من التجديد أيام الدولة العباسية، فانتسعت للعلوم واتسعت للفنون واتسعت لشئون الحياة. وكانت حياة مائجة صاخبة ولكن بناءها لم يمس وأسلوبها لم ينتقض وجمالها البدوى لم تشنه تطرية الحضارة. ولناخذ الآن في تصحيح بعض الأساليب التى تسربت إلى

العربية من الترجمة في عصرنا الحديث . فمن ذلك قولهم مثلاً : بناء على اعتراف فلان حكم عليه بكذا ، وهذه العبارة تكثر جداً في الدواوين وتمتلئ بها الصحائف ، وهى ترجمة حرفية من اللغات الأجنبية وليست من العربية في قديم ولا حديث ، والعرب تقول في أسهل تعبير وأسلسه : حكم على فلان لاعترافه .

ومن ذلك قولهم أيضاً : حضر فلان في الساعة العاشرة ، وجاء أخوه في نفس الوقت . وكلمة في نفس الوقت ترجمة غير سائغة ، لأن كلمة «نفس» من ألفاظ التوكيد المعنوى وليس من ذوق العربية أن يقدم المؤكد على المؤكد ، لأن الإنسان لا يؤكد شيئاً غير موجود والتعبير العربى الصحيح أن تقول : حضر فلان في الساعة العاشرة وحضر أخوه في الوقت نفسه .

ومن الأساليب التى انتشرت انتشار الوباء قولهم : أنا كطبيب أقول كذا ، وهو كهندس يقول كذا ، وهو تعبير منقول بالحرف من لغات الفرنجة ، وهو إذا حاولت رجعه إلى العربية حاولت عسيراً لأن ذوق العربية يقضى أن كاف التشبيه تدخل على غير المشبه ، وهذا أيضاً مما تقضى به بدائه العقول ، فإذا قلت الشعر كالليل كان الشعر غير الليل ، وإذا قلت : أنا كطبيب ، حكمت العربية بأنك غير الطبيب مع أن مقصود القائل أن يقول إنه طبيب . أترون هذا الخلط وهذه العجمة وذلك التبليل ! هو يقول إنه طبيب وتعبره يقول إنه ليس بطبيب . والأسلوب الصحيح في هذا التعبير أن تستعمل الحال النحوية وما أسهلها وما أظرفها ، وذلك بأن تقول : أنا طبيباً أقول كذا وهو مهندساً يقول كذا . وقد أراد بعض الخذاق أن يصلح الأسلوب السابق فقال : أنا بوصف أنى طبيب أقول كذا وفى هذا تشويه وتكلف .

ومن أغلاط الترجمة التى جاءت من بعض الأقطاب قولهم إن قيمة هذا الكتاب بالكاد ثلاثون قرشاً ، وأحياناً يستعملون (بالكاد) هذه في الحصول على الشيء بمشقة ، فيقولون : استمر فلان يمشى طول النهار وبالكاد وصل إلى المدينة عند الغروب . وكلا هذين التعبيرين لم يستعمله العرب ولا المولدون إلا منذ عهد الترجمة الحديث على أنه والحمد لله ثقل على الألسنة فأخذ يتوارى من مصر بعد أن ملأ الروايات المترجمة ردحا . والكاد هذه مصدر من مصادر كاد التى للمقاربة ولم تستعمل العرب هذه المصادر في هذا المعنى وإنما استعملوا الفعل فقالوا في التعبير الأول : يكاد ثمن هذا الكتاب يبلغ ثلاثين قرشاً ، وفي التعبير الثانى : استمر فلان يمشى طول النهار ولم يكد يصل إلى المدينة إلا عند الغروب .

وفى هذا القدر ما يكفى وسنبحث في محاضرة ثالثة إن شاء الله في عيوب الترجمة من نواح أخرى مع الاستشهاد والتمثيل والله الموفق والسلام عليكم ورحمة الله .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٨) (*)

نعود الليلة فنحدثكم في إصلاح بعض الأغلاط الشائعة ولا نزال نأمل أن يكون من وراء هذه النبذة الموجزة ما يدفع بنا إلى انتهاج سبيل السداد في القول والكتابة حتى تخلص العربية الشريفة مما علق بها من تشويه وتحريف فنقول :

١- إن من الغلط : أن يقال مثلا هذه التذكرة تحوّل لصاحبها حق الدخول بدون أجرٍ ، وإن لفلان من الحقوق ما يجوز له المطالبة بها . والفعل (خوّل) بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين ، فمن الغلط دخول اللام على مفعوله الأول من غير مسوِّغ ، فيجب أن يقال : هذه التذكرة تحوّل صاحبها الدخول بدون أجر وإن لفلان من الحقوق ما يجوز له المطالبة بها .

٢- ومثل هذا غلطهم في استعمال الفعل أعطى فيقولون مثلا أعطيت له كتابًا وأعطى المحسن للفقير ما يكفيه . والفعل أعطى يتعدى إلى مفعولين بنفسه فلا تدخل اللام على أحد مفعوليه مع تأخره عن الفعل ، فالصواب أن يقال : أعطيته كتابا . وقد دخلت اللام على أحد المفعولين مع تأخرها في بيت من قصيدة لليلى الأخيلية تمدح الحجاج :

أحجاج لا يقلل سلاحك إنما	النيايا بكف الله حيث عراها
إذ هبط الحجاج أرضا مريضة	تبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء المضال الذي بها	غلام إذا هزّ القنساء سقاها
سقاها دماء المارقين وعلها	إذا جمحت يوما وخيف أذاها
إذا سمع الحجاج صوت كتيبة	أعدّ لها قبل النزول قراها

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ١٣ / ١٠ / ١٩٣٨ .

أعد لها مصقولة فارسية
أحجاج لا تعطى العصاة مناهم
بأيدي رجال يحسنون غذاها
ولا الله يعطى للعصاة مناهم

وشاهدنا في قولها: « ولا الله يعطى للعصاة مناهم » فعدت للمفعول الأول باللام وهو متأخر عن الفعل وهذا شاذ لا يجري عليه قياس .

٣ - ويقع مثل هذا الغلط في الفعل منح فيقولون مثلا: تمنح جوائز للفائزين ، ويقولون: يطعم الخادم ويكسى فوق ما يمنح له من أجر . والفعل (منح) كالفعل (أعطى) يتعدى إلى مفعولين بنفسه فمن الخطأ دخول اللام على أحد مفعوليه بلا مسوّغ ، فالصواب أن يقال: يمنح الفائزون جوائز ويطعم الخادم ويكسى فوق ما يمنحه من أجر .

٤ - ويقولون: تكبد فلان المشاق ؛ بمعنى أنه قاسى من الأمور ما فيه من شدة وعنت . والأولى أن يقال: كابد فلان المشاق ، ففي اللغة يقال: كابدت الأمر أى قاسيت شدته ، ويقال أيضا: أكبدهم الأمر أى شق عليهم وأرهقهم وفي الحديث «أكبدهم البرد» أى شق عليهم والفعلان كابد وأكبد مأخوذان من الكَبَد وهو المشقة ، أما الفعل (تكبد) فلم تستعمله العرب في مقاساة المشقة وإنما جاء مأخوذاً من الكبد وهو جزء معروف من أجزاء جسم الحيوان ، ويطلق الكبد أيضا على وسط الشيء . قالت العرب: تكبدت الشمس السماء أى صارت فى كبدها ، وتكبد اللبن أى غلظ حتى صار كالكبد ، وتكبدت الفلاة قصدت وسطها ، فإذا قصد قاصد من تكبد المشاق أنه تغلغل في وسطها وأنه تجاوز أطرافها ودخل في غمرتها - جاز له ذلك على ضرب من التجوّر .

٥ - ومن الغلط قولهم: فلان التحق بمدرسة كذا وشروط الالتحاق بها كذا ، لأن الفعل (التحق) لم نعر عليه في المعجمات المعتمدة التى بين أيدينا ، وليس التحق في اللغة مطاوعاً للفعل ألحق ، وإنما المطاوع له لحق وألحق تقول: ألحقت محمداً بعلّ أى أتبعته إياه فلحق هو وألحق أيضا ، والمناسب من معانى ألحق هنا أن تكون بمعنى نسب أو بمعنى وصل فالصواب أن يقال: ألحقته بمدرسة كذا فلحق وشروط اللحاق كذا .

٦ - ويغلطون فيقولون: فلان يتجول في البلاد لأنه بائع متجول كثير التجول والفعل تجول لم نعر عليه في اللغة ، وإنما يقال: جال فلان جولانا وجول تجوالا واجتال اجتيالا وانجال انجيالا ، وكل هذه الأفعال بمعنى طوّف ، فالصواب أن يختار أحد هذه الأفعال الأربعة ، ففيها كفاية وفيها غناء وأن يقال: فلان يجول في البلاد أو يجول أو يجتال أو ينجال ، لأنه بائع مجول أو مجول أو مجتال أو منجال .

٧ - ومن هذا النوع استعمال الفعل تنازل فيقولون مرة: تنازل فلان عن حقه ، ويقولون أخرى: تنازل فلان بالحضور إلى الحفلة وكان حسنا منه هذا التنازل . والفعل (تنازل) لا يكون في نزال المتقاتلين في الحرب . يقال تنازل الفارسان إذا نزل كل منهما في مقابلة صاحبه لقتاله ، فالأولى أن يقال: نزل

فلان عن حقه، وأن يقال تفضل فلان بالحضور. على أن التنازل عن البيع والحق جاء في عبارات الفقهاء فلا أرى بأساً في استعماله .

٨ - ومن الغلط قولهم : كان الصوت (يَدْوِي) في الفضاء وكانت لفلان صيحة داوية، ولم يأت من هذه المادة فعل من باب ضرب وإنما جاء منها : دَوَى الرجل يَدْوِي بمعنى مَرَضَ، ودَوَى صدره أى ضغن والذي يقال في الصوت : دَوَى بالتضعيف دويًا فالصواب أن يقال : كان الصوت يدْوِي في الفضاء وكانت لفلان صيحة مدْوِيّة .

٩ - ويقولون : خرج فلان ليرّوح عن نفسه عناء التعب فيأتون بعد الفعل رَوّحَ بمفعول به هو عناء التعب ظانين أن الفعل ينقصه المفعول به، مع أن الفعل في الحقيقة أخذ مفعولاً أو ما في معناه؛ لأن معنى يروّح عن نفسه يريح نفسه، فلو جئنا بمفعول آخر لكان تأليف الكلام هكذا : خرج فلان ليريح نفسه عناء التعب. وهو تركيب ظاهر الفساد لأن الفعل رَوّحَ وأراح لا يحتاجان إلا إلى مفعول واحد، ومثل هذا التركيب في المعنى والاستعمال رَفَّه عن نفسه ورَفَّه نفسه أى أراحها، فالصواب أن يقال خرج فلان ليروح عن نفسه دون أن يزداد على ذلك شيء، فإذا أريد ذكر ما يحصل به الترويح قيل خرج ليروح عن نفسه بمشاهدة التمثيل أو بالسير في الحدائق، وإذا كان من الحتم ذكر ما يراد لإراحة النفس منه قيل يروح عن نفسه من التعب. أو قيل : خرج ليسرّى عن نفسه التعب أو ألهم أى ليلقيه بعيداً .

١٠ - ومن الأغلط الشائعة قولهم : إن الواجب يلزمنى بمساعدة المعوزين وإن فلانا حكم عليه بكذا مع إلزامه بالمصاريف. والفعل (ألزم) لا يتعدى بالباء وإنما يتعدى بنفسه تقول : ألزمته العمل وألزمته المال. أى أوجبه عليه قال جل شأنه : ﴿أَتْلُزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود/٢٨) فالصواب أن يقال إن الواجب يلزمنى بمساعدة المعوزين، وإن فلانا حكم عليه بكذا مع إلزامه النفقات أو المصروفات. والأولى أن يهجر استعمال كلمة المصاريف لأن جمع مفعول على مفاعيل غير مقبس والقياس أن يجمع جمعاً سالماً.

١١ - من هذا الباب قولهم فلان مريض وتلزم له إجازة، والتلميذ يلزم له كثير من الكتب والأدوات، والفعل لزم هنا بمعنى المصاحبة والتعلق. تقول : لزم الدائن المدين ولزم فلان البيت، أى صاحبه فلم يفارقه، وهذا الفعل كيفما كان معناه يتعدى بنفسه ولا يحتاج في تعديته إلى اللام، فالصواب أن يقال فلان تلزمه إجازة وخير من هذا أن يقال : فلان يحتاج إلى إجازة والتلميذ يحتاج إلى كثير من الكتب والأدوات فإن هذا التعبير أوضح في معناه وأبين .

١٢ - ومن الغلط قولهم : (دعّم) فلان البناء بالتضعيف، وكانت دعوى فلان (مدعّم) بالدليل. والفعل المجرد دعم متعد بنفسيه ليس في حاجة إلى وسيلة أخرى، ولم نجد الفعل دعم في المعجمات

التي نرجع إليها فالصواب أن يقال : دعم فلان البناء ودعوى مدعومة بالدليل .

١٣ - يستعملون الفعل عَقَمَ مكان الفعل (عَقَمَ) وأعقم فيقولون مثلاً : عَقَمَ الطبيب الموضع ، وقطن معقَم . والأولى أن يقال : عَقَمَ الطبيب الموضع أو أعقمه ، وقطن معقوم أو مُعَقَم فقد جاء في لسان العرب : قال ابن بري : الفصيح عَقَمَ الله المرأة وعَقِمَتْ ، أو عَقِمَتْ قال : أعقمها الله وعقمها مثل أحزنته وحزنته . ومعنى هذا الكلام أن طائفة من العرب تبنى الفعل عَقَمَ من باب ضرب دائماً وتجعله متعدياً بنفسه وهذا هو الفصيح ومن العرب من يصوغه من باب كرم ، ومنهم من يجعله لازماً من باب فرج فإذا أرادوا تعديته عدوه بالهمز فقالوا أعقم أو جاءوا به من باب ضرب فقالوا عَقَمَ ومن ذلك يؤخذ أن العرب لم تقل عَقَمَ .

١٤ - وقد وقع لى في أثناء قراءتى أن قرأت حديثاً لأحد الكتاب قوله : يستأدينا الواجب أن ننصح للناس . يريد يقضينا الواجب أى يطلب منا الواجب قضاء دين هو النصح للناس والفعل (يستأدى) لا يأتى لهذا المعنى وإنما يقال : استأدى عليه بمعنى استعدى عليه . ويقال : استأدى فلان فلاناً أى صادره وفى حديث هجرة الحبشة قال : «والله لاستأديته عليكم» أى لأستعديته عليكم ، فأبدلت الهمزة من العين لأنهما من مخرج واحد يريد : لأشكون إليهم فعلكم ليُعديني عليكم وينصفني منكم .

١٥ - ومن الغلط قولهم : هذا المشروع يحتاج كثيراً من المال . فيعدون الفعل (احتاج) بنفسه وهذا غير صحيح والواجب أن يتعدى هذا الفعل بإلى فيقال : هذا المشروع يحتاج إلى كثير من المال .

١٦ - ويقولون : اعمل هذا على ضيانتى ، أو : أقرضته المال بضمانة فلان ، و(الضمانة) بالتاء لا تأتى مصدرًا للفعل ضَمِنَ بمعنى كفّل والتزم ، وإنما هذا مصدره الضمان بدون تاء أما الضمانة فهي مصدر الفعل ضَمِنَ بمعنى مرضى ؛ تقول : ضَمِنَ فلان - أى مرضى - ضمانة وضماناً وضَمَنَّا وضُمنه .

إصلاح الأغلط الشائعة في اللغة العربية (٩) (*)

ذكرنا في حديثنا السابق جملة صالحة من الكلمات والتراكيب التي يقع فيها غلط الناشئين، وبيّنا وجوه الصواب فيها. وسنأخذ اليوم في ذكر طائفة من هذا النوع راجين أن يكون لعملنا هذا أثر في تسديد الألسنة، وتنقية العربية الفصحى مما علق بها من غلط أو تحريف فنقول:

١- من الغلطات الشائعة الإتيان بالواو بعد بل كقول أحد الكتاب كان الأرقاء في الزمن القديم يُضربون ويعذبون بل ويقتلون: والصواب حذف الواو هذه لأن «بل» وحدها كافية في العطف ولأننا لم نعر على مثل هذا التركيب في الفصحى، ولا يقال إن «بل» هنا سابقة لمعطوف محذوف ويكون التأويل مثلاً: بل يصلبون ويقتلون؛ لأن في ذلك تعسفا والتأويل والتمحل إنما يكون بعد السماع أما إذا كان التركيب لم يسمع فمن الخير أن ينبذ أول وهلة.

٢- ويغلط بعض الناس فيقول: فلان ظهرت عليه (مخائل) النجاسة، ويقولون: (مصادد) الأسماك فيعلّون الياء في مخايل ومصايد بقلبها همزة ظانين أنها على مثال صحائف وقلائل، والصواب تصحيح الياء وأن يقال، مخايل ومصايد، كما يقال: مكاييد ومعاش ومعائب وذلك لأن الياء في مخايل وأشباهاها أصلية لأن مفردا مخيلة فعلها خال، والياء الأصلية لا تقلب همزة في هذه الصيغة، أما الياء الزائدة كما في صحيفة وقليلة فتقلب همزة، وبما شدّ في هذا الباب مصائب؛ لأنها من صاب يصوب فكان القياس أن يقال: مصاوب.

٣- ومن الأغلط التي سرت إلى الكتاب من الترجمة مثل قولهم: ولا نعلم إذا كان الدواء يشفى المريض أو يزيده سقماً، ولا ندرى إذا كان الطالب يميل إلى الطب أو الهندسة، فيجعلون «إذا» الشرطية من أدوات التعليق وهذا التركيب غير معهود في كلام العرب، والتعبير الصحيح أن نقول: لا

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ٢٨ / ١٠ / ١٩٣٨.

نعلم أيشفى الدواء المريض أم يزيده سقما، ولا ندرى إلى الطب يميل الطالب أم إلى الهندسة وقد جاء هذا الأسلوب في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وإننا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا﴾ [الجن: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما تعودون﴾ [الأنبياء: ١٠٩] ويقول الشاعر العريبي:

وما أدري ولست إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

ويقول الآخر:

لعمرك ما أدري وإن كنت داريا بسبع رمتين الجمر أم بشان

أي أبسيع رمين الجمر.

٤ - ومن الأغلاط الشائعة مثل قولهم: يجب أن يكون كذا وكذا وإلا للزم اجتماع الضدين ومعلوم أن «إلا» هنا إنما هي أداة الشرط «إن» مدغمة في «لا» وفعل الشرط محذوف يدل عليه ما قبله وتقدير الكلام وإلا يجب للزم اجتماع الضدين ووقوع اللام في جواب إن الشرطية غلط والصواب حذف هذه اللام وأن نقول: وإلا لزم كذا، وإلا كان كذا. وقد حاول أبو البقاء في كلياته أن يصحح هذا التركيب فقال: إن «إن» تستعمل استعمال «لو» ولكنه لم يأت لذلك بشاهد عربي.

٥ - وقريب من هذا ما يغلط فيه بعض المبتدئين فيقولون: إذا حصل كذا لحصل كذا فيأتون باللام في جواب إذا والصواب حذفها.

٦ - ومن الأغلاط مثل قولهم: ما رأيك فيما إذا سافرنا اليوم؟ وقولهم: مثلا وسننظر فيما إذا كان الأمر يحتاج إلى إعادة البحث. وغلط هذا التركيب يظهر بقليل من التأمل فإن «ما» فيه إما أن تكون زائدة فيكون حرف الجر «في» داخلا في الحقيقة على «إذا» وهذا غير سائغ في العربية: وإما أن تكون «ما» موصولة وفي هذه الحالة تكون الصلة خالية من العائد والصواب العدول عن هذا التركيب وأن تقول إذا سافرنا اليوم فما رأيك؟ وأن تقول: وسننظر أيجب الأمر إلى إعادة البحث أم لا.

٧ - وما يغلطون فيه كثيرا قولهم مثلا: خرجت رغم فلان. والصواب أن يقال: على رغم فلان، كما قال زهير:

فرد علينا العير من دون إلفه على رغمه يدمى نساء وفائلة

أو أن يقال: على الرغم من فلان كما يقول ابن سناء الملك نسوق قوله للتمثيل لا للاستشهاد وهو:

وإنك عبدى يا زمان وإننى على الرغم منى أن أرى لك سيدا

أو أن تقول: خرجت برغم فلان، لأن الرغم معناه الكثرة أو القسر أو الذل، فإذا قلت: خرجت

رغم فلان لا يستقيم لك المعنى إلا إذا قدّرت خافضاً هو «على» أو «الباء» والنصب على نزع الخافض سماعي وليس بقياسي، ولم نر فيما بحثنا فيه من كتب اللغة كلمة الرغم مستعملة في هذا التركيب بغير خافض.

٨- وما يقع فيه التحريف كلمة (مأزق). كثير من المتعلمين ينطق بها بفتح الزاي والصواب مأزق بكسرها لم يسمع إلا هذا والفعل أَرَقَ يَأْزِقُ يَأْزِقُ. يقال: أَرَقَ صدره أى ضاق، وقد نص علماء اللغة على ضبط المأزق بالكسر كأن العرب حتموا أن يكون اسم المكان هذا من مصدر الفعل الذي باباه ضرب لا من مصدر ما باباه فرح فإذا صغت اسم المكان من باب فرح جريت على القياس وخالفت السماع والسماع مقدم على القياس وعبرة أساس البلاغة: ثبتوا في المأزق المتضايق، وهم ثبت في المضايق. ومثل المأزق المأزل لفظاً ومعنى.

٩- وما يغلطون في ضبطه الشريان يضمنون فيه الشين والصواب فتحها أو كسرها وهذا غلط شائع.

١٠- ومثله في الذبوع قولهم النشا بكسر النون والصواب: النشا بالفتح ليس غير، وهو فارسي معرب أصله نشاشنج، فحذف بعض الكلمة تخفيفاً فبقى مقصوراً كما قالوا للمنازل منّا.

١١- ويحرفون فيقولون: النقرس والصواب: النقرس بكسر النون والراء، وهو ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين.

١٢- ومن التحريف الفاشي كثيراً بين الناشئين قولهم تجربة وتجارب بضم الراء فيها ولا تجد بينهم إلا قليلاً من يكسر الراء فيها، وهو الصواب، أما ضم الراء فغلط.

١٣- ومثل ذلك في التحريف قولهم: صدرت نُشرة إلى المصالح بكذا، فيضمنون النون والنشرة بضم النون إنما هي رقية يعالج بها المجنون والمريض، والصواب في المعنى الذي يقصدون: النشرة بفتح النون وهي مصدر نشر الخبر ينشره أذاعه دخلت عليه التاء للوحدة.

١٤- ومن الغلط التعبير بالفعل «جندل» كأن يقال: ضربه فجندله والصواب: ضربه فجذله أو جذّله أى صرعه على الجدالة والجدالة الأرض. أما الفعل «جندل» فلم يرد في كتب اللغة المعتمدة وإن وضع في المعجمات المستحدثة كأنهم اشتقوه من الجندل وهو الصخر. وقد رأيت في بعض الكتب في رثاء البرامكة:

ولما رأيت السيف جندل جعفرًا ونادى منادٍ للخليفة في يمي

وهو تحريف والصواب جذّل جعفرًا

١٥- وما يقع فيه الغلط قولهم: تقضى حقوق الزمالة بكذا والفعل هنا زَمَلَ فلان فلانًا يزِمُه زَمَلًا أردفه على البعير أو عادله.

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (١٠) (*)

بينّا في حديثنا الماضي وجه الصواب في طائفة من الأغلاط الشائعة في الكلام والكتابة، وسنأخذ في هذه الليلة ذكر طائفة أخرى آمليّن أن يكون لكلماتنا هذه أثرها المرجّي فنقول :

يغلط كثيرون فيقولون : إني أعضد فلانا أى أعينه وأنصره، وهذا المشروع في حاجة إلى التعضيد . ولم يرد الفعل (عَضَدَ) بهذا المعنى ، وإنما المستعمل في هذا عَضَدَ فلان فلانا يعضّده عضداً وعاضده معاضدة ، فالصواب والأسهل أن يقال : إني أعضد فلانا وهذا المشروع في حاجة إلى المعاضدة .

وقد كثر بين كتاب عصرنا استعمال الفعل تكاتف فيقولون مثلاً : يجب أن نتكاتف في عمل الخير بمعنى نتعاون ، ونجاح هذا المشروع موقوف على التكاتف . وهذا الفعل لم يرد في اللغة والكلمات الصحيحة في هذا المعنى كثيرة فلسنا في حاجة إلى ابتكار فعل جديد نشقه من الكتف ، ففي الاستطاعة أن نقول : نتعاون ونتعاضد ونتساند ونتأزر ونتكاتف .

وبما يقع فيه الغلط الفعل (يتفرج) فيقولون مثلاً : خرج فلان ليتفرج على الزينة ، أو على اللاعبين . يقصدون أنه خرج لمشاهدة الزينة أو لمشاهدة اللاعبين ، والفعل تفرّج يأتي في اللغة على معنيين . تقول : تفرّج الشيء الغم عن فلان بمعنى كشفه وأذهب تفرّج الغم وتفرّج فلان الشيء فتحة أو وسعه فتفرّج الشيء أى انفتح أو اتسع ، وعلى هذا المعنى يصح مجازاً أن تقول خرج فلان ليتفرج أى لتتسع نفسه بعد ضيقها وانقباضها ، أما تعدية تفرّج بـ «على» وتخصيصه بالمشاهدة فغير صحيح ، وإنما يسوغ لك أن تقول : خرجت لأتفرج بمشاهدة اللاعبين ، أو : لأتفرج باستنشاق النسيم . ويصح أن تقول : خرجت للفرجة ، لأن الفرجة . مثلثة الفاء معناها التخلص من الهم .

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ٢٤ / ١١ / ١٩٣٨ .

ومن الغلط قولهم: تأكدت من إخلاص فلان. ويقولون أحيانا: تأكدت إخلاصه واستعمال هذا الفعل تأكد على هذا النحو غلط شنيع؛ لأن الفعل تأكد مطاوع الفعل أكد؛ يقال: أكدت الشيء فتأكد أى قوته فتقوى، فالذى يتأكد إنما هو الشيء لا أنت، وهو فعل لازم لأنه مطاوع المتعدى لواحد، والصواب فى هذا التركيب أن تقول: وثقت من إخلاص فلان.

ومن الأغلاط الفاشية أنهم يستعملون الفعل يجب فى حالة النفى استعمالا غير صحيح فيقولون مثلاً: لا يجب أن تهمل حقوق الأصدقاء، ولا يجب أن تنهون فى واجبك. ونفى الوجوب يقتضى الجواز فكأن معنى ما يقولون: ويجوز أن تهمل حقوق الأصدقاء، ويجوز أن تنهون فى واجبك. وهو عكس المعنى الذى يقصدونه والصحيح أن يدخل النفى فى هذا التركيب على الفعل الواقع بعد أن يقال: يجب ألا تهمل حقوق الأصدقاء.

ويقولون: أمرنى فلان فصدعت بالأمر يقصدون فامتثلت الأمر، وهذا غلط فى فهم معنى الفعل صدع فإن معنى (صدع بالأمر) جهر به وصرح مفرقا بين الحق والباطل وهو معنى مجازى من الصدع وهو الشق والتفريق كما فى قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين﴾ [الحجر/ ٩٤] أى اجهر بالدعوة إلى الدين الحق فالصواب أن يقال هنا: أمرنى فامتثلت أو أطعت.

ومن الغلط قول بعض الناشئين: أعلن التاجر عن بضائعه وقولهم وهذا الشيء أعلن عنه فى الجرائد والفعل (أعلن) بمعنى أظهر لا يكون إلا متعديا بنفسه أو بالباء فالصواب أن يقال: أعلن التاجر بضائعه أو ببضائعه.

ويغلطون فيقولون: سيكون جناز فلان يوم كذا يقصدون حفلة الصلاة. وكلمة (جناز) ليست فى اللغة والمعروف الجنازة بالتاء ليس غير، وهى بكسر الجيم على الفصيح: السرير فيه الميت فالواجب أن يقال ستكون حفلة الصلاة يوم كذا.

ويقولون: هيئة المهندسين، أو هيئة المدرسين، وهذا الشيء مفيد للهيئة الاجتماعية. واستعمال الهيئة فى هذا المعنى لم يعهد فى كلام العرب؛ لأن الهيئة فى اللغة الحالة الظاهرة للشيء والشارة. تقول: فلان حسن الهيئة ولا ارتباط بين هذا المعنى وما يريدون، والأشبه بلغة العرب أن يقال: طائفة المهندسين، أو جماعة المهندسين، وهذا الشيء مفيد للجماعة أو المجتمع.

ويغلطون فيقولون: أبلى فلان ولكنه لا يزال فى طور النقاهة. وكلمة النقاهة غير صحيحة والصواب النَقَّة والنَّقْو. يقال: نقه فلان من مرضه ينقَّه نقَّها فهو نقَّه فلان ينقَّه نقوهاً فهو ناقه. أما النقاهة فلا تسوغ إلا إذا وجد لها فعل من باب كرم وهو غير موجود.

ومن الغلط الشائع قولهم كتب فلان رسالة شيقة وكان أسلوبه فيها شيقا واستعمال الوصف (شيق) على هذا النحو غير صحيح لأن الشيق كما فى معجمات اللغة المشتاق والرسالة لا تكون مشتقة

والأسلوب لا يكون مشتاقاً وإنما المشتاق قارئها تقول شأقتنى الرسالة تشوقنى بمعنى حلتنى على الشوق إليها فالرسالة شائعة وأنا مشوق أو أنا شيق .

قال المتنبي من قصيدة مشهورة :

أرق على أرق ومثلى يــــأرق	وجوى يزيد وعبرة تترق
جهد الصبابة أن تكون كما أرى	عين مسهدة وقلب يخفق
ما لاح برق أو تترنم طائر	إلا انثيت ولى فــــؤاد شيق

ففؤاد المتنبي شيق أى مشتاق .

ويقولون واجهة البيت يريدون جانبه الذى به الباب والعرب لم تستعمل هذين اللفظين فى هذا المعنى وإنما كانت تقول وجه البيت لأن من معانى الوجه مستقبل كل شىء وفى الحديث كانت وجوه بيوت أصحابه شائعة فى المسجد وفى لسان العرب وجه البيت الذى يكون فيه بابه .

ومن الغلط قولهم فلان يسكن فى الطابق الأول من البيت أو الثانى منه فيستعملون الطابق استعمالاً غير صحيح لأن الطابق فى اللغة الأجر الكبير أو نصف الشاة أو ظرف يطبخ فيه فليس لمعناه اتصال بأجزاء البيت والصواب أن يقال فلان يسكن فى الطبقة الأولى . وقد فسر الزمخشري السموات الطابق بأنها طبقة فوق طبقة ومن المجاز قول العرب الناس طبقات أى منازل بعضها أرفع من بعض .

ويغلطون فى الألفاظ الخاصة بالبيت أيضاً فيقولون شقة يقصدون جزءاً من الطبقة والأشبه بالصواب أن يسمى هذا الجزء شقاً بكسر الشين لأن الشق من معانيه نصف الشىء والغالب أو الأصل أن تقسم الطبقة شقين .

وما يستحق النظر قولهم بالغ فى مدحه بعض الشىء ، ومثائل المريض بعض الشىء ، وتحسنت حاله بعض الشىء ، وإضافة بعض إلى الشىء فى هذه المثل وأمثالها غريبة ، لأن المضاف هنا وهو بعض يدل على بعضية المصدر لا على شىء آخر ، فيجب أن يقال : بالغ فى مدحه بعض المبالغة ، ومثائل المريض بعض التماثل ، وتحسنت حاله بعض التحسن ولذلك كانت كلمة بعض هنا نائبة عن المصدر وكانت منصوبة ووجب أن تضاف إلى مصدر من نوع الفعل العامل ، أما إذا قلت أعطاني بعض الشىء ويكفينى بعض الشىء ، أو بعض الشىء قد يجزئ . فهذا مجال آخر لا شية للمصدر فيه ، ولا أثر وإنما هو اسم واقع على الذات ؛ فهو مرة مفعول به ومرة فاعل ومرة مبتدأ .

نهضة الشعر في العصر الحديث (٥)

«الأدب أحد العناصر القوية التي تكوّن الأمم، وليست الأمم إلا مجموعة من عقول وأخلاق وعزائم وآداب وفنون، وكل أمة في أول نشأتها تعمل على تكوين هذه العناصر فإذا تمت لها جميعاً جاءت السيطرة وجاءت الثروة وظهرت فيها الرؤوس المفكرة والعقول المبتدعة وأطل على كل هؤلاء جيش من الكتاب والخطباء والشعراء يشجعون العامل وينبهون الغافل، وهذه العناصر تكاد تكون متشابكة متداخلة كلما ضعف منها عنصر ذبلت له العناصر الأخرى وفقدت قوتها وربما مضت على الأمة قرون قبل أن يحس ما بها من ضعفاً؛ لأن هذه العناصر لا تموت في يوم وليلة، ولا نريد أن نطيل في ضرب أمثلة من التاريخ الأوربي والإسلامي وحسبنا الآن أن نقول إن عناصر القوة ضعفت في مصر في حكم المماليك فلم تتجه العقول إلى الابتكار، وانحلت الأخلاق والعزائم لذلك كان الإنتاج الفعلي في هذه الأمة تكراراً وكان الشعر هزياً في معانيه وروحه.

ولما أصبحت مصر ولاية عثمانية ضاع القليل الباقي من كل شيء ومسح الشعر إلى أبعد حدود المسح، ولما تولى مصر مصلحها الكبير «محمد علي باشا» ونهض بتأسيس دولة فيها أخذت العناصر التي تكون قوة الأمة تعمل عملها، فتنبهت العقول واستيقظت الأخلاق والعزائم وسارت في أثر هذه وتلك الآداب والفنون، ولكن عصر محمد علي كان عصر إنهاض وتغذية. أما عصر إسماعيل فكان عصر نهوض وهضم وتمثيل، كثرت فيه المطابع وتزاحمت البعث إلى أوروبا وأنشئت المدارس وتعددت الصحف ونهض المترجمون والمؤلفون.

(*) نشرت بمجلة الراديو المصري بالعدد ٣٦٨ في ٤ إبريل ١٩٤٢م ص ٤ عن حديث للمرحوم علي الجارم قدمه في الإذاعة المصرية.

في هذا العصر نشأ صفوت الساعاتي والشيخ على الليثي والشيخ على أبو النصر ومحمود سامي البارودي وصبري وشوقي، وكانت نهضة الشعر الحقبة بظهور هؤلاء الأساطين الثلاثة . كان البارودي حامل لواء النهضة فتبعه صبري وشوقي وحافظ .

انتقل الشعر بهؤلاء فبعد أن كان ضعيفاً خائراً لا يتعدى موضوعات المدح والتهنئة والهجاء أصبح قوياً في أسلوبه ناصعاً في ديباجته بعيداً في خياله ومعانيه ، لا يكاد يتميز من الشعر العباسي في أزهى عصوره إلا بما فيه من تجديد في الأفكار والأغراض ، واتسعت موضوعاته فجال في الوصف والحجاسة والحكم والأخلاق والاجتماع والتغنى بمجد مصر القديم ودعوتها إلى السبق والنهوض .

وبجمل القول أن نهضة الشعر الحديث قامت على إحياء القديم في أسلوبه وخياله ، ثم على تطعيمه بكثير من عناصر الثقافة وآثار المدنية وجعله قلب الأمة النابضة بالأمها وآمالها .

وهو يفصل هذا في حديثه فلا يفوتك الاستماع إليه ، والجارم بك إذا تكلم عن الشعر وهو الشاعر الفحل فإنها يتناول موضوعاً هو حجة فيه يعرفه حق المعرفة .

هنا ذكرى المغفور له حفنى بك ناصف (١)

يود كثير من نابتة هذا الجيل أن يعرفوا الشيء الكثير عن رجالهم الذين طواهم عباب الماضى .
والنفس الإنسانية من الطمع بحيث تحب أن تعيش فى عصرها وفى عصور غيرها من الأولين ،
وهذا مظهر من مظاهر غريزة البقاء التى هى أم الغرائز الحيوانية وجذم فروعها وأفنانها ؛ لأن المرء يريد
أن تطول به الحياة فإذا لم يستطع أن يزيد فيها من أيامه هو عمد إلى أن يزيد فيها من أيام ماضيه البعيد
فاتجه إلى التاريخ يقلب صفحاته وينشر طياته ويتعرف وجوه رجاله ويستقصى حوادث أزماته ، فما
هى إلا لحظة حتى يجد نفسه فى جو جديد بين خلق جديد له وجود جديد . وقد عرف حملة الأقلام فى
القديم والحديث هذه التزعة النهمة فى الإنسان فخلقوا له من أخيلتهم دنيا غير دنياه صوروها فى
قصص وروايات يفر إليها القارئ إذا سئم تكرار حياته وضيقها وآلام حقائقها ، فيجد عالما أوسع
وجالاً أفيح وقوماً غير قومه وعصراً غير العصر الذى يعيش فيه . وكثيراً ما نسمع بشخص من عظماء
رجائنا يجرى اسمه على أفواه الأبناء ، أو يمر له ذكر خاطف فى صفحات الجرائد فنصبوا إلى معرفة
الشيء الكثير عنه ، نريد أن نراه فلا نستطيع لأن الصور الشمسية لا تروى غليلاً ولا تشفى عليلاً ، ثم
نريد أن نستمع إليه فلا نجد إلى ذلك من سبيل ، فليس إذاً إلا أن ندرس حياته وإلا أن تتسرب
نفوسنا فى نفسه وإلا أن نستمع إلى قصته استماع المنصت المتفهم .

وحفنى بك ناصف الذى نشيد الليلة بذكره رجل عظيم من أكبر علماء مصر وأشهر قادة الأدب
فيها ، وقصته قصة ممتعة حقا فيها أدب وفيها علم وفيها تسلية وفكاهة وفيها متطلع للمتأدبين ومثل

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٥ / ٤ / ١٩٤٢ .

عال للناشئين . قصة كثيرة الألوان متعددة المناظر تضطرم فيها الحوادث وتتقلب الأيام ، يظهر بطلها حفى حينا ويختفى أحيانا ثم يظهر فى الفصل الأخير وقد صقلته التجارب وملك زمام المعرفة وأصبح بذكائه ونبوغه وجده العلم الفرد والفارس المعلم .

قصة حفى بك قصة النهضة الأدبية الحديثه فى ضحاها وفى إبان استكمالها واشتداد مرتها ، وعندما أخذت البذور التى غرسها المغفور له محمد على باشا تؤتى أكلها وتجدو بشاها ، وعندما مرّ وقت كاف على ذلك الطعام الأدبى العلمى الذى غذيت به النفوس والعقول فى مبدأ النهضة فهضمته ومثلته ثم صورته فى ألوان شتى فيها تقليد وفيها توليد وفيها ترسم وفيها ابتكار .

نشأ غلام هذه القصة فى قرية صغيرة هى « بركة الحج » من قرى قلوب . عاش يتيم بين أسرة تعيش كغيرها من أسر الريف معتمدة على الكد والدأب وما تنتجه الأرض من خير قليل أو كثير وما كان أحوج هذا الغلام فى هذا الحين إلى من يقرأ مخايله ويتفرس مواهبه ويرى فيه نبوغ الجاحظ وشاعرية النواسى وأدب البديع وعلم الخليل . ويحى لذلك الغلام اليتيم الأسمر اللون المكثم الوجه وهو يسير فى أنحاء قرينته وحيدا ذاهلا وقد تملكته عاطفة شعرية لا يعرف لها كنها وطافت بنفسه طيوف من الخيال ملكت عليه نفسه واستبدت بعقله .

فالنجوم فى السماء حبات من اللؤلؤ انتشرت والبدر ينظر إليها بأسما فى استخفاف وسخرية ، والأشجار وقد هزها النسيم عذارى سكرت من ماء الشباب ورنحها الإعجاب والإمدال ، والحقول الخضراء والمياه المتدفقة والسواقي الدائرة كل أولئك له ترجحات وله أشباح وله صور أخرى يصورها له خياله الفياض الخصيب .

لم يجد الطفل حفى من يقرأ مخايله فقرأ مخايله بنفسه ووجه استعدادده إلى مايريده منه ، وإلى ما أعده إليه . ولقد كان يكون فلاحا ، ولقد كان يكون تاجرا ولقد كان يكون أى شىء كأمثاله من أبناء القرية ونابتها ولكن نفسه عزفت به عن كل هذا ، وكان هامسا فى أذنه كان يقول له إنك يا بنى لم تخلق لهذا ؛ إن أمامك يا بنى دنيا غير هذه الدنيا ، وناسا غير هؤلاء الناس الذين تعيش بينهم ، ومدى معنويا أفسح من هذه الحقول الفيح التى يتقطع دونها مدى البصر ، وأنت عقل يا بنى ولست بجسم ؛ أنت روحانية مشرقة ولم تكن مادة قائمة مظلمة . يسمع حفى هذا أو ما يشبهه وهو مفترش الأرض مستند إلى جدار داره فتأخذ الحيرة ويغم عليه الأمر ، ويرى أنه لا يفهم ما يجول فى نفسه ولا يدرك معنى ما تريده منه . وبينما هو إذ يمر أمامه أطفال يحملون ألواحا وهم يتنافسون فى إجادة حفظ بعض السور القصيرة من القرآن الكريم ، فيقوم الغلام حفى ويلحق بهم وينقل النظرة من هذا الغلام إلى ذاك فى دهش وإعجاب لما يسمع من حفظ واستحضار وتحد وتفاسيح . يساير حفى هؤلاء الأطفال فيصلون إلى الكتاب فيدخل معهم ويندمج فى جمعهم .

غاب حنفى عن الدار فأخذت أمه فى تلهف واضطراب تسأل عنه كل من ترى : أين حنفى؟ أين حنفى؟ حتى إذا ارتفع النهار جاء غلام من قبل سيدنا يقول لها : إن حنفى فى الكتاب فهل تريدين أن يستمر وأن يتعلم؟ فتنفس الأم الصعداء ويطوف بذهنها ما يلاقيه حفظة القرآن العاطلون من شطف العيش وضيق الحياة ثم تنجبه إلى زاوية أخرى من التفكير وتطرق قليلا ثم تقول : نعم أريد أن يستمر وأن يتعلم وليكن ما يكون . وقد كان ما يكون حقا وكانت هذه الكلمة - لو علمت - ذات شأن كبير فى حياة الأدب المصرى وإزدهار النهضة الحديثة .

ظهر نبوغ حنفى فى الكتاب وتفتحت أول مرة مواهبه ، واشتهر بقوة الحافظة وسرعة البادرة فحفظ القرآن الكريم بينما كثير ممن سبقوه لا يزالون فى المضمار . وحينما اشتد ساعده وبلغ الخامسة عشرة أو نحوها تطلع حنفى حوله فرأى آفاق القرية أضيق من آفاق أماله ، ورأى أن نفسه الجياشه بين جنبيه تضطرب صاخبة ساخطة على حياة ضيقة كتب عليها أن تحبس فيها ولم تخلق لها . والسخط على ما يكون أول مراتب النبوغ ومعرفة النقص وأول منازل الكمال .

وبينما هو فى تفكير وآلام وتردد إذا جماعة مقبلون من ناحية المحطة يلتفون حول شاب معمم وهم فى سرور ومرح ، وإذا الشاب قادم من الأزهر وإذا شباب القرية ينظرون إليه فى إكبار ويسألونه عن أحوال مصر وأهل مصر وعن الأزهر وعلماؤه وطلبته وماذا يتعلمون فيه ، والشيخ الأزهرى يتفصيح ويتكلم بلغة أرقى من لغتهم ولسان أجرى من ألسنتهم ، وحنفى يسمع وهو مطرق ذاهل ، ولعله شعر أن هذا الشيخ يتحدث عن الدنيا التى تحن إليها نفسه دون أن يعلم ، ولعله فى ما كان يسمع رأى تلك الحياة التى كان يصورها له خياله حقيقة واقعة ليس بينه وبينها إلا أن يعقد العزم ويشمر للرحيل . وفى يوم صائف خرج حنفى من داره وتطلع يمينا وشمالا فلم يجد أحدا فولى وجهه شطر القاهرة وعزم على النزوح إلى الأزهر ، ولم يفكر وهو فى تلك الحال النفسية المضطربة وبين براثن تلك الرغبة الجائعة فى تلك الأم الروم التى تطير نفسها لفرقتها ويتمزق فؤادها لغيبته .

سار فى الطريق قدما تلفحه الشمس بهجيرها ، وتأكل الأرض من قدميه ، حتى إذا وصل إلى القاهرة سأل : أين الأزهر؟ فأرشد إليه فدخله شابا صغيرا غريبا حتى كأنه كان المعنى بيت الطغرائى :

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد كالسيف جرى منتهاء عن الخلل

أقام بالأزهر ولا ندري كيف أقام ولا كيف كان يعيش ، ولكننا نعرف أنه كان ندى الصوت جلو التنعيم رخيم الأداء ، فعرفه عشاق الفن ورجال التصوف بحسن الإنشاد وجمال الصوت والتطريب ، ووجد حنفى أمامه باب العلم مفتوحا فدخله مشغوقا ، وميدان النبوغ فسيحا فجال فيه وصال ، والعصامية أخت النبوغ والشطف سفير النعيم .

بصرت بالراحة العظمى فلم أرها تُنال إلا على جسر من التعب

أصبح بين إخوانه مضرب المثل في الذكاء وسرعة البديهة وصدق الفهم وقوة الذاكرة . وفي ذلك الحين أحس بطائف من الشعر يتلجلج في صدره ، فتتغم به وترنم ثم فاض به لسانه كلاماً ساحراً يأسر القلوب ويستهوئ النفوس ، فشاع في حلقات الأزهر ذكره ، وأقبل علماءه يستمعون إلى هذا الشاعر الناشئ الذي سيكون له شأن فوق شأن الساعاتي والليثي وأبي النصر . رأى حفي أن عبقرية الشعرية يجب أن تخرج من نطاق الأزهر قليلاً . فنظم قصيدة في مدح المغفور له محمد توفيق باشا خديو مصر . وحينما أتمها هذبها وبيضها وذهب بها إلى ساحة عابدين ، حتى إذا قرب من الباب رآه طائفة الحرس فتجهموأله وزجروه وأمروه بالانصراف فاستعطفهم وتلطف إليهم وأخبرهم بأنه نظم قصيدة في مدح الخديو وأنه يريد أن يقدمها إليه بنفسه ، فزادوا منه سخرية وبه استخفافاً وله زجراً ؛ وأوا شاباً مجاوراً تقتحمه العين لا يزينه ثوب ولا يشفع له سميت . وفي أثناء هذا المشهد الغريب مر رئيس التشريفات فاستوقفه الأمر فسأل فقيل له : شاب مجاور كما تراه خيلت له نفسه أنه يقول شعراً : ثم خيلت له أن شعره حقيق بأن يقدم للملوك ، ثم زاد وأغرق فطلب أن يقدمه إلى الخديو بنفسه . فدفعهم عنه ودعاه إليه واستجلاه طلبته ، فلما علم بها سأله أن يقرأ عليه القصيدة فما كاد يتم منها أبياتاً حتى أخذ الباشا بما فيها من بيان رائع وخيال سام وتصوير بديع فقال له قف : يا بني حيث أنت حتى أعود إليك . ثم صعد إلى الخديو مبهوراً وقال يا مولانا إن بالباب معجزة من معجزات النبوغ . شاب مجاور أنشأ قصيدة في مدح مولانا لو وزن بها كل ما قيل في مدحه لرجحته : وسيكون لهذا الشاب شأن خطير لم تتمخض عنه الأيام بعد . فأمر الخديو بدعوته إليه فجاء الشيخ حفي وأنشد قصيدته بين يديه ، فاهتز الخديو اهتزاز الكريم ، وأعجب بما فيها من جمال وروعة وأمر له بهال .

أخذ الشيخ حفي القطع الذهبية في يديه يقلبها ويحملك فيها ويستمتع إلى صليلها والدهشة تملأ جوانب نفسه . الآن صار غنياً . الآن صار مثرى . الآن يستطيع أن يشتري ما كانت تمتد إليه عيناه من طعام ولباس . الآن يستطيع أن يشتري دواوين ابن النيه وابن الفارض والبهاء وابن مطروح وابن نباتة والشاب الظريف . إنه الآن رجل منتج وإن مواهبه التي كانت خيالاً وأوهاماً يمكن أن تتحول إلى ذهب أصفر رنان ، ويمكن أن تنقله من هذه الحياة إلى حياة أخرى .

ذهب إلى زميله سلطان وساق إليه البشري ونفض إليه الخبر فسر له وسر لنفسه لأنه سيشاطره ما أفاء الله عليه من رزق . ثم مرت الأيام فإذا الدنانير قد طارت وإذا حفي وسلطان يعودان إلى ما كانا عليه بعد أن لمع لهما برق خلب من النعيم . جلسا في غرفتهما مطرقين حزينين وقد تنكر لهما الدهر وكاد يحول بينهما وبين الاستمرار في طلب العلم .

وبينما هما في تقلب كف واهتزاز رأس إذ دخل لزيارتها الشيخ محمد صالح وكان قد لحق بدار العلوم قرأوا شكلاً أثيقاً : جبة جوخ وقفطاناً قطنياً وعمامة بيضاء لم يمسسها درن ، فسألاه عن منشأ هذه النعمة الطارئة فأخبرهم بأن دار العلوم تمنح طلابها مكافأة شهرية ، ووصف لهم ما فيها من علوم

وتعلم ولم يغادرهما حتى عقدا العزم على دخول دار العلوم .

دخل حفى دار العلوم ، فأتسع أفقه وبرزت مواهبه فى الأدب ، وتفرغ للبحث والإنتاج ، فكان السباق بين أئداده ، وجال فى ميدان الشعر وطارح الشعراء وعارضهم وتصدر مجالسهم .

ثم تخرج فى دار العلوم فعين مدرسا ، ولم يمكث طويلا حتى احتاج شقيق بك منصور النائب العمومى فى ذلك الحين إلى أديب يعينه فى كتابة البحوث ومراجعة مؤلفاته . فأرشد إلى حفى وقيل له : إنك لن تجد له مثيلا فهو عالم فقيه أديب شاعر ناثر .

كانت هذه الوظيفة أول عهد لحفى بالحياة العامة ، فيها التقى بساسة مصر وكبرائها وعظماء أدبائها ، وحضر مجالس اللهو والترف واختلف إلى نوادى الشعر والأدب فالتقى بالبارودى وصبرى واللىشى وأبى النصر . وهنا ظهر حفى كاملا وتجلت خصائصه بارعة وذاع صيته فى آفاق مصر : نكتة حاضرة بعيدة الغور ، وعلم غزير بفروع العربية جميعها ، وإحاطة نادرة بغرائب الأدب وآدابه ، وشعر مصرى رقيق لا يخلو من جمال التورية وبراعة النكتة وحسن الذوق فى التصوير .

ثم نظرق قليلا فنرى حفى بك أصبح أستاذا بمدرسة الحقوق ، ثم قاضيا أهليا اشتهر بالعدل والتزاهة وسداد الرأى ، ولكن القضاء لم يستطع أن يقضى على حفى الأديب ولا على حفى الشاعر الكاتب ؛ فغطت شهرته فى الأدب أعمال وظيفته وأصبح عمله فى القضاء على هامش حياته الأدبية .

وكأن القدر كان يدخره للغاية التى أعده لها ؛ فحينما لقي الشيخ حمزة فتح الله ربه لم يكن بالبلد من يقوم مقامه فى الإشراف على لغة العرب سوى حفى بك ، فعين المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف .

وأثار حفى فى العلم والتأليف كثيرة يعرفها الناس ولشعره طابع خاص يمثل الديباجة المصرية فى رفته وحلاوته ، لم يرد فيه حفى بك أن يقلد شعراء بغداد وإنما أراد أن يتم به السلسلة الشعرية التى انقطعت بموت ابن النبيه وابن نباتة وأمثالهما من شعراء مصر .

وجدير بشعره ان يقرأ ويفهم ، وجدير بالجامعة المصرية أن تعنى بجمعه ودراسته ؛ لأنه يمثل فنا شعريا فريدا كاد يدركه الزوال .

وقد ختم حفى بك حياته بأجل ما نختتم به حياة . ذلك هو كتابة المصحف الشريف ، والإشراف على طبعه وترقيمه وهو عمل مضمّن يتطلب علما واسعا وكدا ومثابرة .

إن الأدباء بمصر قليل ، وأمثال حفى أقل .

غفر الله لحفى وجزاه عنا خير الجزاء .

نشأة الشعر الأندلسي ونظوره (*)

الشعر الأندلسي حبيب إلى النفس، قريب من القلب، له مناح في الخيال والتفكير والصياغة تجذب إليه الأسع وتستهوى القلوب، وله شخصية متميزة، وخصائص فارقة بينه وبين الشعر المشرقي لم يوفق كثير ممن كتب في تاريخ شعر الأندلس في تحديد لها واضحة خالية من اللبس والإبهام. والشعر الأندلسي جميل كله، غير أننا نعتقد أن شعر الطوائف وما بعده هو النموذج الصحيح للشعر الأندلسي بعد أن استقر العرب في شبه الجزيرة نحو أربعة قرون، وبعد أن نسوا بداوتهم الأولى ونشأت لهم أجيال في حضارة جديدة وبيئة جديدة، وبعد أن امتزجوا بالأسبانيين وأصهروا فيهم، واختلط دم أبناء الصحراء بدماء سكان السهول الخضراء، والأودية الزهر، فتكون نسل هذين العنصرين القويين، جمع إلى قوة البداوة الموروثة أناقة الحضارة المكسوة، وإلى سرعة إدراك العربي دقة نظام العقل الأوربي.

* * *

حينما نزل العرب شبه الجزيرة عاشوا في عزلة كما يعيش الفاتحون في أول أمرهم دائماً، وأضافوا إلى صلف الغالب المنتصر زهو العربي بجنسه وقوميته فجعلوا بينهم وبين القوط حداً، ونظروا إليهم وإلى مدنييتهم شزراً، ولم يستفيدوا من ثمار عقولهم ولا من خصائص اتجاههم في التفكير والنظر إلى الأشياء. والشعر العربي على قلته في هذه الفترة أراد أن يجارى الفاتحين فيكون محافظاً معتزلاً معتزلاً ببيادته وصبرائه، حتى لكان هذا الجو الأوربي الغريب وهذه المشاهد التي تختلب اللب، وتستهوى العين

(*) نشرت بمجلة الراديو المصري بالعدد ٣٩٥ في ٩ سبتمبر ١٩٤٤ م ص ٣، ولقد تناول المرحوم علي الجارم موضوع الشعر الأندلسي في سلسلة أحاديث إذاعية لم تتمكن من الحصول إلا على الأحاديث التالية (الناشر).

وتستشير الإحساس بالجمال، لم تكن في نظر الشعراء شيئاً مذكوراً، فهم دائبون على قديم أسلوبهم، لا يحيدون عن طرائقهم، يقيمون عمود الشعر في قرطبة وغرناطة وأشبيلية، كما هو مقام بدمشق والكوفة والمدينة، ولا تزال أسماء مواضع جزيرة العرب: كسلع والعقيق، وحاجر، وكاظمة، تتردد في أشعارهم، ولا يزالون كعادتهم يقفون بآثار الديار تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، أما الأنهار الدافقة، والحدائق المتألقة، والمباني الباسقة فلا تكاد في أول عهدهم تسمع لهم فيها شيئاً.

فلما خفف الحكام العرب من غلوئهم، وطمانوا من عصبيتهم، وامتزج أبناؤهم بأبناء الأسبانين، وأصبح بين الغالبين والمغلوبين شيء من الاتساق الفكري والاجتماعي، وتطورت الحياة العربية، وتطور معها الشعر والخيال، فأصبحنا نسمع له جرساً خاصاً، ونغماً متميزاً، ونستعرض منه صوراً خيالية فائقة، وصار الشعر يؤدي ما يجب عليه أداؤه، فصور البيئة التي يعيش فيها، وخفق بالآمال والآلام التي تختلج في صدور الشعراء، وكان ترجماناً صادقاً لحياتهم، وللمأزق الحرج الذي وضعهم فيه القدر بين أعدائهم من القوط وأعدائهم من أنفسهم.

وتطور الآداب كتطور كل شيء في الطبيعة، يحصل على التدرج، لا يكاد يحس، ولا يستطيع أن يحدد له مبدأ أو نهاية. وهكذا كان تطور الشعر الأندلسي لا تعرف متى بدأ، ولكنك تحس وجوده، وترى شيئاً من نموه في فترة من خلافة عبد الرحمن الداخل.

وكانت أول بارقة لتمييز الشعر الأندلسي وسموه إلى التلون بلون خاص، ونبضه بقلب جديد قول هذا الأمير في نخلة جلبها من دمشق وغرسها في بستان له بالزهراء بالأندلس، وقد أثارت فيه هذه النخلة الحنين إلى أهله ووطنه فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض النخل عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول ابتعادي عن بني وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلى

وقال يتشوق إلى معاهد الشام:

أيها السراكب الميمم أرضى	أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض	وفؤادى ومالكىه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفونى غمضى
وقضى الله بالفراق علينا	فعى باجتماعنا سوف يقضى

* * *

ثم ترى الشعر بعد ذلك نامياً مطرد النماء في عصور من جاء بعده من خلفاء بنى أمية، حتى إذا بلغ دولة ملوك الطوائف بلغ أشده وشارف اكتماله.

ازدهر الشعر والأدب والفن في هذه العهود بالأندلس ما في ذلك شك، فإن قارئ الأدب في هذه الفترة يشعر بلذة نفسانية وجدانية، قلما يجدها في ألوان الأدب بالآفاق الأخرى، وإن فيها ترقوه من مجالس الأدباء وطرائف الشعراء، مما تطرب له الأذن وتهتز العاطفة، لدليلا على ما وصلت إليه فنون الكلام عند القوم من منزلة عالية ومقام رفيع، حتى لقد كان الأدباء المطبوعون إذا سمعوا شعرا ولم يتبينوا قائله، قالوا: إنه أندلسي، وإذا انتحل أهل الشرق أبياتا منه نمت عليها أندلسيتها فافتضحوا فقد ادعى المنازى لنفسه أبيات حمدونة بنت زياد الأندلسية وهي:

وقائنا لفحة الـرمضاء واد	سقاء مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفننا على ظمأ زلالا	ألد من المدامة للتديم
يسد الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
ترور حصاه حالية العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم

فدلت رقتها، وشهد أسلوبها على أنها أندلسية. قال الرعيني: وهذه الأبيات أثبتتها مؤرخ الأندلس لحمدونة قبل أن يخرج المنازى من العدم إلى الوجود. وقال ابن التديم في تاريخ حلب: وبلغنى أن المنازى وصل إلى أبى العلاء لينشده هذه الأبيات وكلما أنشد المصراع الأول من كل بيت سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثانى.

ومن الذى يقرأ الأبيات الآتية فلا يقول إنها أندلسية وإن لم يعرف قائلها:

عاطيته والليل يسحب ذيله	صهباء كالمسك الفتيق لناشق
وضممته ضم الكمى لسيفه	وذؤابتاه هائل فى عاتقى
حتى إذا مالت به سنة الكرى	زحزحته شيئا وكان معانقى
باعدته عن أضلع تشتاقه	كيلا ينام على وساد خافق

وأى أديب مرهف الحس، موسيقى الأذن، لا يجزم بأن أندلسيا هو الذى يقول:

منى أبشك مـبابى	ياراحتى وعذابى
منى ينوب لسانى	فى شرحه عن كتابى
اللىـه يعلم أنى	أصـبحت فيك كما بى
فما يلـد منـامى	ولا يسـوغ شرابى
يافتنة المتعمزى	وحجة المتصـابى
الشمس أنت تـوارى	عن ناظرى بالـحجاب
ما النور شفت سنـاه	على رقيق السحاب
إلا كـوجهك لما	أضياء تحت النقـاب

وهل يصف الخال في خد الحسناء هذا الوصف الرائع إلا خيال أندلسي حين يقول :

ألوامى على كلفى بحب	متى من حبه أرجو سراحا
وبين الخد والشفين خصال	كزنجى أتى روضاً صباحا
تخير في جناه فليس يدري	أيجنى السورد أم يجنى الأقاحا

وهل يبدع التنسيق والتصوير إلا ابن خفاجة الأندلسي الذى يقول :

ومهفف طأوى الحشا	خنت المعاطف والنظر
ملاً العيون بصورة	تليت محاسنها سور
فإذا دننا وإذا مشى	وإذا شدا وإذا سفر
فضح الفزالة والغما	مة والحمامة والقمر

وإذا استلثت من قائل الأبيات الآتية فلم تعرفه ، فهلا يخطر ببالك أن ترجح أنه أندلسي :

كأنها الراح والراحات تحملها	بدور تم وأيدى الشرب هالات
حشاشة ما تركنا الماء يقتلها	إلا لتحيا بها منها حشاشات
قد كان من قبلها في كأسها ثقل	فخف إذ ملثت منها الزجاجات

* * *

وصل الشعر الأندلسي إذن في عهد ملوك الطوائف إلى ما وصل إليه من علو المكانة وبعد المنزلة . ونريد أن نتعرف الأسباب التى بلغت به إلى ما بلغ ؛ لأن مؤرخ الأدب الذى يريد أن يلتمس لكل شىء سبباً ، والذى يريد أن يزاحم المنطقى في رجوع النتائج إلى مقدماتها ، أو تطبيق القاعدة على جزئياتها يقف فى شىء غير قليل من الحيرة أمام هذه الظاهرة الأندلسية .

لقد رسخ في نفس هذا المؤرخ بما لا يقبل الريب أن الأدب والفنون جزء لا ينفك عن أحوال اجتماع الدولة وسياستها ، فراح في اطمئنان وهدوء بال يطبق هذه النظرية على الدول في ماضيها وحاضرها والأقطار عند نشوئها وتطورها ، فجاءت صحيحة صادقة لا تكاد تتخلف ، وهو يزعم جازماً أن الدولة الثابتة الدعائم ، المستقرة الملك ، الحكيمة السياسة العظيمة الثروة ، التى يعيش أهلها فى ظلال الأمن والسلامة ، يزدهر فيها الأدب وينمو . والدولة المهترئة الأركان ، المزعزعة الحكم ، المضطربة السياسة ، الفقيرة فى منابع الثروة التى يعيش أهلها فى ذعر وتوجس ، تبوخ فيها شعلة الأدب وتخبو .

رأى مؤرخ الأدب ذلك فى آخر حكم العباسيين بالعراق ورآه فى مصر فى معظم عصورها الخالية ،

لا يكاد سراج الأدب يلتصق بها لحظة حتى ينطفئ . حتى أن المتنبي حينما زار مصر في عهد كافور لم يجد من الشعراء من يذمه أو يصاوله ، أو يصح أن يكون له بمنزلة التلميذ من الأستاذ ، وهجا المتنبي مصر وأهلها عند رحيله بأقذع المهجاء فما سمعنا أن شاعرا انبرى له ، أو رد اللطمة إلى وجهه .

ولولا أن حروب الصليبيين في عهد الأيوبيين أيقظت عواطف الشعراء النائمة بمصر والشام ، وهاجت من شعورهم الراكدة ، ما سمعنا منهم في هذا العهد إلا المدح الممجوج ، والخيال المكرر في وصف سجادة أو سبحة أو سواك .

يضع مؤرخ الأدب قاعدته هذه أمام عينيه ، ويحاول أن يطبقها على الأدب في عهد ملوك الطوائف وما بعده ، فيرى أنها تتخلف في ظاهر الأمر بعض التخلف : حكومات ملوك الطوائف كانت مضطربة واضطراب الحكومات يستلزم اضطراب النفوس ، والفنان لا تجود نفسه بالأوحد ، ولا يتزل عليه الإلهام ، ولا تتفتح عبقريته إلا في جو هادئ كله صفاء واطمئنان ، كالطائر الغرد لا يجود بأغاريده الحلوة إلا وهو في أمن من برائن البازي ومناصب الفخاخ .

ونحن نعلم ما كانت عليه بلاد الأندلس من حروب لا يبرد وطيسها ، واضطراب لا يركد غبارها ، فكيف يستريح مؤرخ الأدب بعد هذا إلى قاعدته الذهبية التي كان يباهي باستنباطها ، والتي جعلها ميزانا لحكمه على الدول غابرها وحاضرها ، حتى إنه لشدة ثقته بها كان يكتفى بالنظر إلى إحدى ناحيتي الدولة : ينظر إلى سياستها واجتماعها فيحكم على الأدب ، أو ينظر إلى أدبها فيحكم على سياستها وأحوال الاجتماع فيها .

ولكن مؤرخ الأدب لا يريد أن يتقهقر ، ولا يريد أن يفسد نظريته التي آمن بها إيمانه بنفسه ؛ لأنه يستنكر تخلفها ويدعى أن تطبيق حال الأدب بالأندلس عليها بالوضع الذي هي عليه ، وبالألفاظ التي صورتها ، فيه جور شديد ، واشتطاط في الحكم ، وتجوز ظاهر في استعمال بعض الألفاظ ، ومخالفة للحق في أخرى ، ثم يجاهر بأن هناك أحوالا بجانب هذه القاعدة دعت إلى نهوض الأدب وازدهاره ، ويزعم أن أكبر عيب وقع فيه مؤلفوا العرب أنهم كانوا يضعون القاعدة ثم يحشرون إليها الجزئيات حشرا ، فإذا ضاقت ببعضها لم يعمدوا إلى توسيع القاعدة ، كما كان يقضى بذلك الحق والتدقيق ولكنه شد عنها ، وكثيرا ما يكثر الشاذ حتى تخجل القاعدة ، وكثيرا ما تتعدد المستثنيات حتى تحتاج إلى قاعدة جديدة .

* * *

إن تواتر الحروب واشتباكها بدويلات الطوائف لم يثب الذعر بين الأهلين ، ولم تضطرب له حياتهم إلا في أحوال قليلة نادرة ، تخرج من حساب المؤرخ ، فقد كانت هذه الحروب على أكثر وقائعها ، ثم إنها كانت مقصورة على طائفة من المحاربين من الجنود المرتزقة ، وبقيت الطوائف الأخرى التي تؤلف

النظام الاجتماعي في أمن واطمئنان، ثم إن تولى الحروب واستمرارها طبع الأندلسيين على الاستخفاف بأخطارها وعدم المبالاة بأورزارها . .

اعتاد الأندلسيون الحروب حتى ألفوها، وحتى لم تستطع في أكثر أحوالها أن تعترض نظام حياتهم وكان الأندلسيون يمتازون بروح قوية، وجلد شديد، قد يكون للبيئة الجغرافية والتاريخية أثر في تكوينها، فقد علمتهم الأيام الصبر على الحوادث والتماسك عند الكوارث، وكان لهم إيمان غريب والقدر هون عليهم كل شيء، فاستهانوا بكل شيء ومضوا في أعمالهم، واستعجلوا لذائد الحياة، وشربوا كؤوس اللهو حتى الثمالة، عابثين ساخرين .

انظر كيف ينظر إلى الحرب الوزير الكاتب أبو جعفر بن طلحة حين يقول فيخلط الجدل بالهزل :

ألفت الحرب حتى علمتني	مقارعة الحوادث والخطوب
ولم أك عالما وأبيك حربيا	بغير لوائح الرشأ الرريب
فهاننا بين تلك وبين هذا	مصاب من عدو أو حبيب

ثم انظر إلى ما يقول أبو جعفر بن عائش في اقتناص اللذات وعدم المبالاة بمشاغل الحياة :

إذا رأيت الجوى يصحو فلا	تصح - سقاك الله - من سكر
تعال فانظر لدموع الندى	ما فعلت في مبسم الزهر
ولا تقل إنك في شـاغـل	فليس هذا آخر الدهر
تخلف ما فات سوى ساعة	تقصها في لذة الخمر

وإلى ما يقول أبو مروان بن غصن :

بافتية خيرة فسدتهم	من حادثات الزمان نفسى
شربهم الخمر في بكور	ونطقهم عندهم بهمس
أما ترون الثناء يلقى	في الأرض بسطا من الدمقس
مقطبا عابسا ينادى	يوم سرور ويوم أنس

وإلى ما يقول محمد بن رشيق الغرناطى :

(سلى) عنلى أتر	ج ونـارنج ورائـ
وجنى آس وزهر	وجان لا يـيـاح
ليس إلا طـرب فيـ	ـه النـدامى والملاح

ومكان لا تنتهيك	قصد نأى عنه الفلاح
لا يرى يطلع فيه	دون أكواب صباح
فيه فتيان لهم في	لذة العيش جماع
طرحوا الدنيا يسارا	فاستراحوا واستراحوا
لا كقوم أوجعتهم	لهم فيها نباح

وإذا أردت أن تعرف مقدار استهانتهم بحوادث وصراف القدر فاقرا لهذا الشاعر أيضًا :

ليس عندي من الهموم حديث	كلما ساءنى الزمان سررت
أترانى أكون للدهر عوناً	فإذا مسنى بضر ضجرت
غمرة ثم تنجلي فكأنى	عند إقلاع همها ما ضرت

غمرة ثم تنجلي ! هذه كانت الكلمة الشائعة على الألسن في هذا الزمان بها وبأمثالها نفصوا غبار الهموم ، وبها وبأمثالها عاشوا في أمن نفسى بين هبوب العواصف وسقوط النوازل .

ثم إن مزاج أهل الأندلس كان من النوع المرح المستبشر الضحاك ، وهو مزاج النازلين على شواطئ بحر الروم عامة ! وإذا نشأ الفن في أصحاب هذا المزاج نما وازدهر ، على الرغم مما قد يصيبهم مما يكدر صفو الحياة ، ففي قتام الحوادث المتعقد وبين صليل السيوف ، ألف المظفر بن الأفتس ملك بطليوس كتاباً في فنون الأدب في نحو مائة مجلدة ، وألف المقتدر ابن هود ، صاحب سرقسطة ، كتباً كثيرة في الهيئة والهندسة .

عناية ملوك الطوائف بالشعر والشعراء (*)

بلغ ملوك الطوائف ووزراؤهم الغاية في البذخ والترف، وتقبلوا في أكناف النعيم، وأسرفوا في اللهو والعبث، وكان بعضهم ينافس بعضا في عظمة الملك ورهبة السلطان.

ثم كانوا جميعا ينافسون خلفاء بنى العباس بالمشرق فيما كانوا ينفقون من الأموال ويبيعون من الهبات والصلوات، ويقيمون من مظاهر شائعة للمجد ودلائل باهرة لقوة الدولة. فنثر ملوك الطوائف الأموال في تشييد القصور، وغرس الحدائق واقتناء التحف النادرة وإنشاء خزائن الكتب الحافلة بخير ما ألف في العلوم والآداب.

فقد شاد المأمون بن ذى النون ملك طليطلة قصرا كان آية في الفن وإبداع الصناعة، أنفق عليه أموالا تضيق بحسابها الدفاتر وصنع في وسطه قبة من الزجاج الملون المنقوش بالذهب، وبني حول القبة مجرى مستديرا يحيط بها. فكان الماء ينزل من أعلى هذه القبة إلى حافاتها متصلا ببعضه ببعض، وكان المأمون يجلس تحتها دون أن يمسه رشاش، وقد دار ستر رقيق من الماء يتألق وتتعدد ألوانه العجيبة إذا أوقدت الشموع بالقبة ويقال: إنه بينما كان فيها ليلة ينتهب اللذات بين جواريه وقياهه إذ سمع منشدًا يصيح:

أتبنى بناء الخالدين وإنما مقامك فيها لو علمت قليل

لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحيل

ويقول أبو محمد المصري في وصف هذا القصر:

قصر يقصّر عن مداه الفرقد عذبت مصادره وطاب المورد

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ٢٥/٤/١٩٤٢.

نشر الصباح عليه ثوب مكارم فعليه ألوية السعادة تعقد
وكانما المأمون في أرجائه بدر تمام قابله أسعد
وكانما الأقداح في راحاته دُرَّ جمان ذاب فيه المسجد

ويقول في وصف القبة :

شمسية الأنساب بدرية يحار في تشبيهها الخاطر
كانما المأمون بدر الدجى وهى عليه الفلك الدائر

وكانت قصور بنى عباد بأشبيلية منازل عز ومظاهر ملك وعظمة ، لم يدخر شيء في إبداعها وزخرفها وجلالة بنائها ، وكان كل ملوك الطوائف على هذا الطراز لا تستثن منهم أحدا . فقد نافسوا خلفاء العباسيين في كل شيء حتى في أعراسهم ، فنافس المستعين بن هود عرس «بوران» زوج المأمون الذى يضرب به المثل في المشرق ، فأنفق في عرسه الأموال جزافا وحشر إليه الناس أرسالا ، وفرق الهبات التى لا تعد ، وأحضر - كما يقول صاحب القلائد - من الآلات المبتدعة والأدوات المخترعة ما يهر الألباب ، وتنقطع دونه الأسباب .

وبحسبك فيما وصل إليه الملوك والأمراء من الثروة والبذخ ، والعناية بالأدب أن قرأ ما كتبه ابن حيان مؤرخ الأندلس بشأن الوزير أحمد بن عباس . قال :

كان كلنا بالأدب مؤثرا له على سائر لذاته ، جماعا للدفاتر مقتنيا للجيد منها مغاليا فيها ، نفاعا لمن خصه بها ، حتى جمع منها ما لم يكن عند ملك . وزعم بعض من عرف أمره أن ماله العين بلغ خمسمائة ألف مثقال جعفرية ، سوى الفضة ، والآنية والحلية . أما الأمتعة في المخازن ، والكسوة والطيب والفرش فبحسب ذلك . ثم يقول : وكان بقصره خمسمائة من مئتمنات القيان .

واشتهر عن أمراء الأندلس عنايتهم واحتفالهم بالشعر والشعراء والإغداق عليهم وإغراؤهم على المثول في حضرته ودفعهم إلى مدحهم . وربما كان شيء من هذا سببا في ازدهار الشعر في هذا العصر وبلوغه القمة .

وما أشبه نهضة الشعر والأدب والعلوم عند تمزق دولة الأندلس وتفرقها إلى ولايات وطوائف ، بها أصاب الشعر والآداب من نهوض عند انقسام الدولة العباسية إلى ولايات وإمارات منذ القرن الثالث الهجرى . فإن سيف الدولة بن حمدان أمير حلب المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، استطاع أن يجعل مملكته الصغيرة على ضيق مواردها وقصر مدة حكمه - كعبة يقصدها العلماء والأدباء والشعراء ، وأن ينهض بالعلوم والآداب نهضة كادت تعيد إلى الأذهان عهد الرشيد والمأمون . أخذ كل ملك بالأندلس يفاخر صاحبه وينافسه في آبهة الملك وياهى بكثرة قصاده وشعرائه ، ويعظم ما يجزل لهم من عطائه

وأن يجعل إمارته مباءة العلماء والشعراء، وأن يرسل اسمه مجلجلا في الآفاق. والشعراء ألسنة تنشر المحامد، وإعلانات متقلة، وآلات إذاعة، ووسائل دعاية، لذلك تهافت عليهم الملوك واجتهد كل أمير أن يسبق منافسيه إليهم، فراجت سوق الشعر وعظم شأنه، وأبدع الشعراء واقتنوا، واللّهي - كما يقولون - تفتح اللّها. فكان لكل ملك شعراء مختصون بحضرته، وكان يجلس لسماعهم يوما في الأسبوع، وكانوا يستقبلون كل شاعر جديد بالحفاوة وإجزال الصلة.

وبلغ تدلل الشعراء على الملوك في هذا العهد حدّا قد تدهشون له، ذلك أن بعض الشعراء كان يجذّد لقصيدته ثمنا لا يناها أحد من الملوك بأقل منه. حكوا أن المعتمد بن عباد طلب إلى أبي عليّ العبدريّ أن يمدحه بقصيدة يعارض فيها قصيدته التي مدح بها ابن حمود، فقال له العبدريّ في صراحة وفي غير خشية: أشعاري مشهورة، وبنات صدريّ كريمة، فمن أراد أن يناها فقد عرف مهرها.

وبلغ من إعزاز الملوك للشعراء أنهم كانوا يتجاوزون عن هجائهم ويقابلون سلاطتهم بالعطاء والهبات. فقد كان النحليّ الشاعر من صنائع المعتصم بن معن بن صهاح، صاحب ألمرية، فلذهب مرة إلى أشبيلية ومدح المعتضد بن عباد بشعر يعرض فيه بالمعتصم، إذ يقول:

أباد ابن عباد البربرا وأفنى ابن معن دجاج القرى

ثم نسي النحليّ تلك الزلة التي بدرت منه، وساقته أسفاره إلى ألمرية، ونزل بقصر المعتصم، فدعاه إلى منادته، وأحضر للعشاء موافد ليس فيها إلا الدجاج.

فقال النحليّ: يا مولانا، أما عندكم بالمرية غير الدجاج؟ فقال المعتصم: إنما أردنا أن نبين لك أن الدجاج لم يفن بألمرية، وأنه لا يزال كثير بها، وأن نكذبك في قولك:

وأفنى ابن معن دجاج القرى

فطار لبّ النحليّ، وجف ريقه، وتملكه الخوف. فقال له المعتصم: خفّض عن نفسك، فلا بأس عليك ولا تثريب. وأجزل له العطاء في إقامته، وواصل إحسانه إليه بعد سفره.

ليس من شك في أن تدليل الملوك للشعراء إلى هذا الحد وحفاوتهم بهم، دفعتهم إلى المنافسة في السبق والإجادة، وحفزت همهم إلى التطلع إلى صلات الملوك والتقرب إليهم بأدبهم، فنشأت في هذا العهد غيرة شعرية عنيفة، وتحاسد أدبيّ مضطرم، وتزاحم على الجوائز بغيبض.

رووا أن عمر بن الشهيد الشاعر حينما أنشد المعتمد بن صهاح قوله في مدحه:

سبط البنان كأن كل غمامة قد ركب في راحتيه أناملا

لا عيش إلا حيث كنت وإنما تمضى ليالى العمر بعدك باطلا

التفت المعتصم إلى من حوله من الشعراء وقال لهم: هل منكم من يحسن أن يجتذب القلوب بمثل هذا؟ فقال الخزاز الشاعر: نعم. وإنما هو الحظ المواتى وإن للسعادة هبات، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتا أقول فيها:

وما زلت أجنى منك والدهر محل ولا ثمر يبنى ولا الزرع يحصد
ثمأرأيادانيات قطوفها لأعصانها ظل على ممدد
يُرى جاريا ماء المكارم تحتها وأطيار شكرى فوقهن تغرد

فارتاح المعتصم وقال: أنت أنشدتني هذا؟ قال: نعم. قال: والله كأنها ما مرت بسمعي. صدقت، إنه الحظ المواتى وإن للسعادة هبات. ونحن نجيزك عليها بجائزتين: الأولى لها، والثانية لمطل راجيها.

آراء المستشرقين في الشعر الأندلسي (*)

ليس من شك في أن الشعر الأندلسي شرقى المنبت عربى الزى والسمة ، رحل مع طارق وأصحابه إلى إسبانيا ، وحل مع العرب والبربر حيث حلّوا وطوّف معهم أينما طوفوا . وما كان ينزل بواى الطلح بإشبيلية أو يخلق فوق بساتين قرطبة ، أو ينصت إلى ترانيم الطيور بمرج غرناطة ، أو يشهد جبال نيفادا التى تتألق الشمس فوق قممها الثلجية طوال العام ، أو يلمح تلك المياه المنحدرة من الصخور لها خرير ولها نثيج وصخب ، أو يمر به ذلك النسيم الأوروبى الواهن بعد أن بلل بحر الروم أذياله ، أو يملأ عينيه من الجمال الأكرى الذى تزوجت به خشونة الحسن القوطى بالسومة الرومانية . ما كاد الشعر يحس هذه الأحاسيس ، ويمتلئ من هذا الجمال الذى يفتن النفوس ويبهى العيون حتى نسي مقلبه بالصحراء وحُدهاء بالبيداء ووقوفه على الأطلال وبكاءه على هند وأسما . حقا إنه كان انتقالا أشبه بالرؤى ترى في المنام أو بتهاويل السحر تخدع لها الأبصار والأحلام . فتحت للعرب بين عشية وضحاها كنوز الدنيا ودانت لهم أجمل بقعة في أوروبا ، ورأوا جبالا وأنهارا وأودية خضرا وأرضا كثيرة الثمرات غنية المعادن ، ومدنا أمنع من عقاب السماء عزاء وملكا كبيرا . فما لبث الشعر العربى حتى تأثر بهذه البيئة ، وظهر فيه طابعها وانعكست عليه صورتها ، فباح بما يرى وبما يحس ، ورسم بريشته العربية ما تولى أمام عينيه من مشاهد وما جال في نفسه من خواطر ، وما هيا له الخيال من روائع وبدائع .

إن كل شيء في الحياة يؤثر في غيره ويتأثر به ، ويفعل وينفعل . وهذه الصفة في الأحياء وآثار الأحياء أبين وأظهر ، فليس عجبا أن يتأثر الشعر العربى بالبيئة الأوروبية كما تأثر بها رجاله في كثير من أحوالهم ومظاهر حياتهم . غير أن الشعر العربى مع قوّة التأثير الأوروبى فيه وعنفه كان محافظا شديد

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ٣/ ٥/ ١٩٤٢ .

المحافظة معتزا بخصائصه شديد الاعتزاز، فتمسك بالأسلوب العربى الصميم وتشبث طويلا بأوزانه وقوافيه وحصر المعين الذى يستقى منه فى ثقافة العرب وعلوم العرب وتاريخ العرب، وأنف أن يشذ عما تواضع عليه شعر المشاركة أو أن يتخذ غير طريقه طريقا. ولكنه مع كل هذا لم يستطع أن يفر عما تأثرت به النفس من المشاهد والأجواء والأفكار والأخيلة الغربية، ولم يستطع أن يعيش فى معزل عما تراه العين كل يوم، وتسمعه الأذن كل حين. إن العلم يعيش فى كل مكان، وليس للعلم وطن - كما يقولون - ولكن الفنون دائما موضعية محلية، تعبر عما يحيط بها من مظاهر جغرافية وسياسية واجتماعية، وإذا شذت عن ذلك فعبّرت عن بيئات أخرى كان صاحبها مقلدا محاكيا، لا يصور ما يحول فى قوارة نفسه.

وفى محافظة الشعر الأندلسى يقول نكلسون المستشرق: «إن نظرة إلى الشعر الأندلسى فى جملة ترين أنه لم يتغير عن شعر المشاركة، فقد بقى بقرطبة وإشبيلية على خصائصه ومميزاته التى لم تستطع أن تتخلص منها بغداد وحلب، غير أن الشعر العربى بالشرق كما تأثر بالثقافة الفارسية، كذلك تأثر الشعر الأندلسى بالامتزاج التدريجى بين الجنسين الآرى والسامى، فظهرت فيه طبائع هذين الجنسين وخصائصهما الأدبية. وربما كان من أبرز سمات الشعر الأندلسى فى الغزل ذلك الشعور الرقيق المرفف الذى جعل الحب قدسًا طهورًا، والمرأة ملكا كريما. وقد سبق هذا الشعور أوانه وسبق ما كان يحسه فرسان القرون الوسطى بأوروبا نحو المرأة من كرامة وتبجيل. ثم هو من ناحية أخرى لا يقل فى رفقه ونقائه عما يتغنى به شعراء العصر الحديث من جمال صور الطبيعة ومفاتها، وبسبب هذه الظاهرة فى الشعر الأندلسى مال إليه كثير من أدباء أوروبا الذين لا يستطيعون إدراك معانى المعلقات وقصائد المتنبى فى سهولة ويسر». والذى يقصده نكلسون أن شعراء الغزل بالأندلس كان أكثر شعرهم يضع المرأة فى موضع القداسة، وكان لا يند فيه لفظ عما يقتضيه الذوق السليم والأدب العفّ النزى، مثل قول ابن زيدون:

يا روضة طالما أجت لواحظنا	وردًا جناه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملأنا برزهرتها	منى ضروبا ولسادات أفانينا
ويا نعيمًا خطرنا من نصارته	فى وشى نعمى سحننا ذيله حيننا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة	فقدرك المعتلى عن ذاك يغنيننا
إذا انفردت وما شوركت فى صفة	فحسبنا الوصف إيضاحًا وتبيننا

وهذا الرأى عجيب من الأستاذ نكلسون؛ لأن إجلال المرأة وإحاطتها بسياج من الرفق والحنان والحب الظاهر قديم متوغل فى القدم قبل أن يولد أجداد شعراء الأندلس، وهو خلق العرب الأولين، والشعر الجاهلى خفاق بالغزل الشريف، زاهر بإعلاء شأن المرأة، ودعكم عما وضعه الرواة ونسبوه زورا إلى العهد الجاهلى، فهذا عنتره يقول:

حتى يوارى جارتى مأواها

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى

ويقول عمرو بن كلثوم :

نحاذر أن تفارق أو تهونا
خلطن بميسم حسبا ودينا
إذا لاقوا فوارس معلمينا
وأسرى فى الحديد مقرنينا
بعولتنا إذا لم نتمنونا
لشىء بمعهدن ولا حيننا

على آثارنا بيض حسان
ظعائن من بنى جشم بن بكر
أخذن على فوارسهن عهدا
ليستلبن أبدانا ويضنا
يفتن جيراننا ويقلن لستم
إذا لم نحمهن فلا بقينا

ثم جاء شعراء الغزل العفيف فى عهد بنى أمية ، كقيس وجميل وكثير وابن الدمينه وغيرهم ، فكان غزلهم أنقى من قطرات السحاب ، لا يجمش الذوق ولا يجمز له خد الفتاة . استمعوا إلى ابن الدمينه حين يقول :

لقد سرنى أنى خطرت ببالك
رضا لك أو مُدني لنا من وصالك
هدى منك أو ضلّة من ضلالك
فأفصح أم صيرتنى فى شمالك

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة
فلو قلت طأ فى النار . أعلم أنه
لقد مدت رجلى نحوها فوطقتها
أبينى أفى يمنى يسديك جعلتنى

ثم تمثى الفساد الخلقي فى الشعر العربى حتى أصبح المجون فيه فنا ، ولم يسلم من ذلك كثير من الشعر الأندلسى الذى وصفه نكلسون بما وصفه . ويقول الأستاذ جب فى تأثر الشعر الأوروبى بالشعر الأندلسى : «إنه فى نهاية القرن الحادى عشر للميلاد ظهر فجاءة فى جنوى فرنسا نوع جديد من الشعر ، وإن المحققين فى نهاية القرن الثامن عشر رأوا أن بين هذا الشعر الذى انبثق فى إقليم بروفانس والشعر الأندلسى وجوه شبه قوية لما تجلّى فى غزله من الحب العذرى ، ولما طرأ على أوزانه من التغيير الذى يشبه فى نظامه الموشحات الأندلسية» .

ويقول المستشرق إستانلى لين بول :

«هُرُع الكثير من الإسبان إلى اعتناق الإسلام راغبين راضين ، فامتزج الدينان وعاش الفريقان فى خلطة وصداقة وحسن معاملة ، أما النصارى فأخذوا يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة ويصدفون عن آدابها ، فتعلموا العربية واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا بها كما يكتب العرب أنفسهم ، وقد ندد القس يوجوليوس بهذه الحال ، إذ يقول : النصارى يولعون بقصائد الشعر العربى وقصصه وبما يوجب الحزن والأسى أن الجليل الناشئ لا يعرف غير العربية ، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف ، وينشئ لها الخزائن الحافلة ، فى حين أنه ييخل بنظرة إلى كتاب مسيحى . ثم يقول : لقد نسى النصارى لغتهم وهم مع

هذا يستطيعون أن ينظموا شعراً عربياً رائعاً يفوق شعر العرب أنفسهم، ثم يقول لين بول في ازدهار الأدب والشعر بالأندلس: أما الأدب العربي فإن أوروبا لم تر في عهد من عهودها حفاوة بالأدب وأهله، كما رأت في الأندلس حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر ويظن أن هذا الشعر هو الذى أوحى للشعراء بإسبانيا بأناشيدهم القصصية، وهو الذى حاكاه شعراء بروفانس بفرنسا وترسمت خطاه إيطاليا ولم تكن تعد الخطبة أو الرسالة كاملة إلا إذا تضمنت أبياتاً من الشعر الرصين، ويظهر أن كل العالم الإسلامى بالأندلس انجبه بروحانيته إلى آلهة الفنون، فمن الخليفة فى عرشه إلى النوتى فى سفينته تسمع النظم الرائق فى مشاهد الأندلس وجمال مدنها ثم فى روعة خرب الأناهار وسحر الليل الساجى، وقد هدأت النجوم ثم فى نشوة الحب والخمر ومجتمع الأوس، وقد اختلس المحب ساعة لقاء بفاتنته التى ترمى بقوس حاجبها فتصيب حبات القلوب.

إعادة النظر في قرار فيلسية فعل للتكثير والمبالغة(*)

وبعد افتتاح جلسة المجمع في السبت ٢٠ يناير ١٩٤٥ أعلن أن موضوع اليوم هو إعادة النظر فيما سبق أن أقره مؤتمر المجمع في الجلسة السابعة بتاريخ ١/٢٩/١٩٤٤ من جعل صيغة فعل قياسا للتكثير والمبالغة، وذلك بناء على معارضة في هذا القرار قدمها الأستاذ أحمد العوامري إلى مجلس المجمع في الجلسة السادسة عشرة بتاريخ ٢٠/٣/١٩٤٤، فرأى المجلس عرض الأمر على المؤتمر. وقد وزعت على الأعضاء قبل موعد الجلسة يومين مذكرة قدمها الأستاذ على الجارم في تأييد قرار المؤتمر، وهذا نصها:

أما قياسيته للتعددية فمفروغ منها لورود نص عن أئمة اللغة بها، وموضع الجدل إنما هو موضوع «فعل» من الفعل المتعدى للتكثير والمبالغة، وأدعى أن هذا كثير جدا في لغة العرب حتى لكأنه من سليقتها، وإذا جاز بناء القياس على عشرين مثالا أو دونها، فإن الوارد في معجمات اللغة من صوغ «فعل» للتكثير والمبالغة من «فعل» المتعدى أكثر من ذلك جدا، وقد كفتني لمحة خاطفة لتدوين الأفعال الآتية:

أبره	حصبه	سطره	قص الشعر
أدبه	حطمه	سقفه	قلبه
أزحه	حقره	سكر الباب	قلمه
ألبه	حلقه	شدبه	كبله
أمله	خبأه	شقّه	كتمه

(*) نشر بمجلة مجمع اللغة العربية ص ٢٢٨.

بَذَرَ الحب	خَبَلَهُ	شَهَرَهُ	كَتَرَهُ
بَكَاهُ	تَخَرَّقَهُ	طَانَهُ	كَفَّنَهُ
ثَقَبَهُ	خَصَصَهُ	عَبَّرَ الرُّوْيَا	كَلَّمَهُ
ثَلَّمَهُ	خَضَّبَهُ	عَلَّه	مَزَّقَهُ
جَزَّجَهُ	خَلَّقَهُ	عَقَّدَهُ	مَسَحَهُ
جَرَّدَهُ	دَرَسَهُ	غَلَّاهُ	مَشَطَهُ
جَمَعَهُ	ذَبَحَهُ	فَجَّرَهُ	مَلَّحَ القَدْرَ
حَبَّرَ الشَّيْءَ	رَقَعَهُ	فَلَّقَهُ	نَقَطَهُ
حَجَّبَهُ	رَاعَهُ	قَرَنَهُ فِي القَرْنِ	هَدَمَهُ
حَدَّه	سَحَّرَهُ	قَسَمَهُ	هَشَمَهُ
وَدَّعَهُ			

فهذه أمثلة لواحد وستين فعلا متعديا ضعُف للمبالغة، جئت بها للتمثيل لا للاستقصاء، وأظنها كافية للقول بقاسية تضعيف الفعل المتعدى للتكثير والمبالغة.

اقتراح وضع قواعد جديدة يستعان بها في اشتقاق الأفعال من الجامد للضرورة(*)

قرر المجمع في دوره الماضي جواز الاشتقاق من الجامد للضرورة في لغة العلوم ، ولما كان هذا الاشتقاق يحتاج إلى وضع قواعد جديدة يستعان بها في اشتقاق الأفعال ، أردت أن أضع اقتراحاً بهذا ليكون موضعاً للبحث ، وهو :

الاسم الجامد : إما أن يكون ثلاثياً مجرداً أو مزيداً فيه ، ويصاغ منه في حاله فعلٌ ثلاثي بعد حذف الزوائد في المزيد ، والفعل الثلاثي الذي يؤخذ من الجامد يكون من باب نصر ، لكثرة هذا الباب وشيوعه ، ويكون لازماً ومتعدياً على حسب ما يقصد من معناه ، فنقول مثلاً : قطنت الأرض تقطن : كثر قطنها . وقطتها : زرعها قطنا .

إلا إذا كان الفعل حلقى العين أو اللام فيكون من باب فتح لازماً ومتعدياً أيضاً ، على حسب ما يقصد منه ، مثل : قمع الأرض يقمعها .

وإذا دل على امتلاء أو خلو أو لون أو عيب أو حيلة أو مرض ، فيكون من باب فرح لازماً ، مثل : كيد فلان يكبد أي يمرض بكبده .

إلا إذا دل على صفة لها مكث ، فيكون من باب كرم لازماً ، مثل كَرَّش الرجل يكرش ، أي عظم كرشه .

وإذا كان الاسم رباعياً الأصول أو رباعياً مزيداً فيه ، مثل درهم وكبريت ، اشتق منه على وزن فعلل بعد حذف الزائد من المزيد . وإذا كان خماسياً مثل سقرجل ، اشتق منه على وزن فعلل بعد حذف خامسه .

(*) قدم في الدورة الثانية للمجمع بالجلسة رقم ٢٤ ونشر في مجلة المجمع ، ص ٣٦٣ عام ١٩٤٥ .

وتلحق الأفعال المشتقة من الجوامد حروف الزيادة للمعاني التي تقصد من زيادتها في الأفعال المشتقة من المصدر.

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - لقد سبق أن قررنا جواز الاشتقاق من الجامد، ولا فائدة من هذا القرار إلا بوضع قواعد للاشتقاق، فنقول مثلاً في درهم درهم، وفي كبريت كبرت.

ومسألة المسائل في هذه القاعدة خاصة بالفعل الثلاثي فيها. وإذا تمهينا أن نضع قواعد لهذا القرار فكأننا لم نفعل شيئاً، والأفعال الزائدة شأنها هين، أما الثلاثية فتختلف أبوابها.

وما دمنا قررنا المبدأ فلا بد أن نجرى إلى أبعد شوط فيه. والاشتقاق من الجامد الثلاثي يستدعى إيجاد فعل ثلاثي، ولا بد أن يكون من باب من أبوابه الستة. وباب نصر هو أكثر الأبواب جريانا على الألسنة، حتى قال بعض العلماء: إذا ما جهلت باب فعل ثلاثي فاجعله من باب نصر.

والذي أراه في الثلاثي هو أن نلتزم فيه أسلوب العرب، فما كانت عينه أو لامه حرف حلق مثلاً جعلناه من باب فتح، كقمح وبلح. وإذا دل على صفة دائمة مثلاً يكون من باب كرم، ككرش فلان إذا كان ذا كرش كبير، وهكذا. وإذا رأيتم حضراتكم تناقشنا في هذا الاقتراح قبل انتهاء هذه الدورة.

المعارضات في الشعر العربي ١. في العصر الجاهلي

غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيوانية ، وهي في الإنسان أبين منها في الحيوان وأظهر أثرها الإدراك يزيدها قوة ويستحثها إلى البروز والظهور . وإذا كانت في الحيوان غريزة عمياء ، تصدر دافع آلي ، ولا تتجه إلى غاية ، ولا تعمل إلا عملاً تسوقها إليه الفطرة عن غير قصد ، فإنها في الإنسان غريزة مبصرة متعمدة ، تعرف ما تأتي وما تذر ، وترمي إلى هدف منصوب ، وتركض لتناول القصب ميدان سباق الحياة .

وتظهر المنافسة في أنواع الحيوان المنحط الإدراك في التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به ، الفرخ لا يكاد ينقف البيضة ، ويتنسم نسيم الوجود ، حتى يزاحم إخوته على الطعام ، وقد يختط القطعة من منقار منافسه لينفرد بها في إحدى الزوايا الهادئة من الفضاء . وأظنك قد شعرت مراراً الدابة البليدة إذا ركبته فسارت بك منفردة نقلت الخطأ بطينة مثاقلة ، وربما زادت العصا بطناً وتثاء وحراناً . أما إذا ركبته وكان بجانبها دابة أخرى أنشط منها وأسرع ، فإنها تبذل جهد الطاقة في مجا تلك الدابة وتعطيك من النشاط فتوناً لم تكن لك ببال .

هذا شيء مشاهد في الحيوان لا مزية فيه ولا شك ، ولو أردنا أن نستطرد فيه أو أن نعدد له الأمث لا تسع نطاق البحث وطال بنا حبل الكلام .

أما غريزة المنافسة في الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظل ، وتصاحبه من لدن نشأته إلى منتهى رقدته ، وتظهر في كثير من أعماله ، وتكتب في سجل القدر ما يكون له من خطر في الحياة وما

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثاني ص ٣٨٣ عام ١٩٤٥ .

يكون. فهي فيه بمنزلة القوة الدافعة في الآلة الميكانيكية، تقدر قيمة الآلة بقدرها قوة وضعفها، لذلك عنى رجال التربية بتقوية هذه الغريزة في الأطفال بكل ما وسعهم من ضروب الإغراء، فدفعوهم إلى التغالب في كل شيء، حتى في الصراع والملاكمة. وعدوا الطفل الهادئ المستكين القانع بما لديه، الذي لا يمد عينيه إلى أفضل مما هو فيه مريضاً مرضاً نفسياً عضالاً، إذا لزمه في صغره فقد الرجولة الكاملة حينها يشب عن الطوق، وأصبح فسلاً خائراً لا رجاء فيه ولا غناء عنده.

وترتكز غريزة المنافسة على غريزة المحاكاة، أو على غريزة الإحساس بالنقص، فإن الحيوان إذا شهد عملاً حاول أول الأمر محاكاته، لما يجول بخاطرهم أو خاطر فطرتهم وجبلته من أنه لا يستطيع أن يأتي بمثله، فيأخذ في محاكاته مرة بعد أخرى، حتى إذا رأى أنه بلغ في المحاكاة منزلة لا تقل عن الأصل المحاكى دقة وإحكاماً، تضاعفت فيه الثقة بنفسه، وتلكه الإعجاب بها، وطفق يستصغر في يومه ما كان يكبره في أمسه، وأراد أن يرتفع درجة أو درجات فوق من كان أو ما كان يحاكيه ويعدو مثلاً عاليًا في الإتقان والإجادة، وهكذا ينتقل الحيوان أو الإنسان من محاكاة إلى منافسة، إلى سبق وتبريز.

هذه المنافسة وهذه المزاومة بالمنافس للسبق والوصول إلى الغايات، هما سر تدرج الحياة الإنسانية نحو الكمال، وهما سر تطور الحياة من حال إلى حال، وهما سر تنقل التاريخ البشري في سلم الارتقاء؛ لأن المنافسة كما تكون في الأفراد تكون في الأمم، وإذا تنافست الأمم سعد العالم بكثير من نتائج هذا السباق التي تهض بالإنسانية وتخفف كثيراً من ويلاتها.

ويعجبني بيت من الشعر للشاعر الإنجليزي « روبرت بروننج » Robert Browning وهو :

A mans' reach should exceed his grasp, or what is a heaven for ?

وترجمته :

غاية المرء فوق ما تصل الكفِّ فف وإلا لمن تكون السماء !

هذا تصوير من أدق ما يصوره شاعر للنفس الوثابة والأمل السباق والمنافسة التي لا ترضى بالقليل ولا الكثير، إن صاحب هذه النفس يزهد في كل ما يستطيع نياله : ويعد صغيراً كل ما تصل إليه يده، ويأنف من أن يخلد إلى الأرض ويرضى بغاياتها الدنيا، وتثب همته إلى الوصول إلى ما في السماء من خللد وبجادة. وهذا قريب من بيت « البارودي » :

هامة نفس أرخصت كل مطلبٍ فكلفت الأيام ما ليس يطلبُ

وهو أشبه جداً ببيت « شوقي » حين يخاطب الشباب :

واطلبوا المجد على الأرض فإن هي ضاقت فاطلبوه في السماء

« وللمتنبي » الطموح شعر كثير في هذا المعنى، ولعل أقربه إلى ما نحن بصدد قوله :

مَدَى يَتَهَى بى فى مُرَادٍ أُحَدُّ

ولكن قَلْبًا بين جُنُبَى ماله

وفى هذا المعنى أقول :

ويضيِّقُ عنها الكونُ وهى كَبَارُ

إنَّ النفسَ تضيِّقُ وهى صَغِيرَةٌ

وللمتنبى أيضًا فيما يحوم حول هذا الموضوع قوله :

وما تبتغى؟ ما أبتغى جَلَّ أن يُسمَى!

يقولون لى ما أنت فى كُلِّ بلدةٍ

وقوله :

شُهْبُ البُرْزَةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّحْمُ

وشرُّ ما قَنَصْتُهُ راحتي قَنَصُ

هذا استطراد مرجز دعت إليه الموازنة بين شعر الإفرنج وشعر العرب، لندلل على أن فيض الإلهام عام ينتظم الجماعات وإن اختلفت الألسنة والألوان، وأن توارد الخواطر يكون في الأفراد كما يكون في الأمم، وأن كوكب الفنون يشرق على الشرق والغرب على السواء، ولنقول للشاعر «كبلنج» الذى قال : «الشرق شرق، والغرب غرب فلن يجتمعا» إنها ياسيدى يجتمعان فى كثير : يجتمعان فى العلوم، فإن الشرق فى العصور الوسطى كان أداة الاتصال فى نقل فلسفة اليونان إلى أوروبا، ويجتمعان فى الفنون، الأندلس، وهى شرقية فى كل شىء إلا فى موقعها الجغرافى، نقلت فنون الشعر والنقش والموسيقى إلى أوروبا، ويجتمعان فى العواطف؛ إنها أدركا بعد لآى أن الإنسانية أسرة واحدة وإن تفرقت بها الأوطان وبعدت الديار.

وهذى الليالى كلها أحواث

ألا إنما الأيام أبناء واحد

نعود فنقول : إن المنافسة فى كل شىء حافز إلى الرقى، يدفع الهمم إلى السخط على كل ما يمكن أن ينال، وهى إذا سرت إلى الفنون وصلت بها إلى الأوج. والذى يعيننا فى هذا البحث أن نبين أن المنافسة الفنية فى الشعر دفعت الشعراء إلى ما يسمى بالمعارضة، والمعارضة الشعرية موضوع خطير الشأن فى الأدب العربى، أردنا أن نخصه بالبحث فى هذه اللفتات القصيرة، وأن نعرضه عرضاً قد يكون جديداً فى بابته، وأن نلم بنشأته وأسبابه وسمياته، ثم بآثاره، وبما أفاء على الأدب العربى من ثمرات، وما جدد فيه من فنون.

والأصل فى المعارضة أن تكون بين الأحياء حين يدفع الشاعر إلى معارضة شاعر آخر ما يحس به فى نفسه من قوة وما يجيش فى صدره من رغبة فى التحدى وحب الغلب، فهو رجل معتز بفنه، واثق الثقة كلها من تمام تمكنه منه وتحكمه فيه. وفى هذا ضرب من الأثرة وحب الانفراد بالكمال، فهو لا يريد أن يرى له فى شعره قريباً أو مثيلاً. وكثيراً ما كان يسير «امرؤ القيس» فى أحياء العرب، ومعه أخلاط من شذاذهم من «طيم» و «كلب» و «بكر بن وائل» وقد زهاه الشباب، وأفسده الفراغ والجدّة، وملاه

الغرور والزعيم بأنه أشعر شاعر رددت صوته جزيرة العرب . فكان يتحدى كل شاعر ، ويهائن كل قوال ، وينافر كل من توهم أنه قد يزعجه عن عرش شعر ، . يروى أن امرأ القيس لقي التوأم اليشكري فقال له : إن كنت شاعراً فأجز أنصاف ما أقول . فقال التوأم : قل ما شئت .

فقال امرؤ القيس :	أحارٍ ترى بُرَيْقًا هب وَهْنًا
فقال التوأم :	كنارٍ مجوسٍ تستمر استعمارًا
فقال امرؤ القيس :	أرقتُ له ونام أبوسُريح
فقال التوأم :	إذا ما قلتُ قد هداً استطارا
فقال امرؤ القيس :	كأن حنينه والرعْدُ فيه
فقال التوأم :	عشارٌ ولَّه لَاقَت عشارا

وهكذا يستمران حتى يعجز امرؤ القيس عن إعجاز التوأم ، فيلقى السلاح ويحلف أن لا ينازع أحداً الشعر بعده . وسواء أصبحت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تصور نازغة غلابة تحيى بنفس كل معتز بفنه . وبما يحسن التنبيه له هنا أن امرأ القيس عن قصد أو غير قصد ، أو لأنه هو البادئ بالمهاتنة ، اختص نفسه بصدور الأبيات التي تخلو من صعوبة القافية ، ثم إنه كان يعتمد وضع العقبات أمام التوأم ، إما بالإتيان بما يتطلب التشبيه على البديهة ، وإما بالإتيان بأحد طرفي التشبيه وترك التوأم يبحث عن الطرف الآخر .

ومن المعارضة في الجاهلية ما رواه أبو عبيدة قال : كان امرؤ القيس قد تزوج امرأة من طى حين كان جارا لهم ، فنزل به علقمة الفحل التميمي فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أشعر منك . وتحاكما إلى زوج امرئ القيس ، فأنشدها امرؤ القيس قصيدة طويلة أولها :

خليلٌ مرّاً بي على أمّ جندب لنقضى لباناتِ الفؤادِ المعدبِ

ثم أخذ في وصف حصانه فأطال ، وبما جاء في هذا الوصف :

فللسَّوطِ أهوبٌ وللسَّاقِ درّة وللمزجرِ منه وقع أهوجٍ متعبِ

ثم أنشدها علقمة قصيدة طويلة من البحر والقافية أولها :

ذهبت بنا في الهجر في غير مذهبٍ

ووصف فرسه أيضًا وهو يطارد الصيد حتى انتهى إلى قوله :

فأدر كهنّ ثانيًا من عنانهِ يمرر كفيثٍ رائِحٍ متحلّبٍ

فقالت زوج امرئ القيس له : علقمة أشعر منك، قال : وكيف ؟ قالت لأنك زجرت فرسك، وحركته بساقلك، وضربته بسوطك، أما فرس علقمة فقد أدرك الصيد ثانيًا عنانه، لم يضرب بسوط، ولم يزجر بساق، فغضب امرؤ القيس وقال : ليس كما قلت ولكنك هويته فحكمت له .

ويخيل إلى أن أسواق العرب في الجاهلية كان بها الشيء الكثير من هذا، وأن الشعراء والنقاد كانوا ينتحون ناحية بعيدة عن المتاجر وأماكن البيع، فيجتمعون في حلقة واسعة يتزاحم عليها الناس من كل صوب، لساع خير ما ينشد من الشعر ولإرضاء ميولهم بمشاهدة ما يقع بين الشعراء من المعارضة والمنافرة والتحدى، كما نجتمع الآن في سباق الخيل أو حفلات الملاكمة أو المباراة بالسيوف . والمعارضة الشعرية كالمبارزة في كثير من نواحيها : فكما أن المبارزين يجب أن يستعملوا سلاحًا من نوع واحد، كذلك الشاعران يجب أن يتحدا في البحر والقافية . وكما أن في المباراة محكمين، كذلك في المعارضة نقاد محكمون يقضون لمن له السبق والغلب . وكما أن المباراة قد تنتهي بقتل أحد المبارزين، كذلك المعارضة الشعرية قد تؤدي إلى موت الشاعر موتًا معنويًا لا تقوم له قيامه بعده . هذا وسيكون لنا بحول الله حديث عن المعارضة في صدر الإسلام في عدد تالٍ .

المعارضات في الشعر العربي (*)

٢- في صدر الإسلام

أشرقت الجزيرة العربية بنور الإسلام، وقام ابن عبد الله يدعو إلى الدين وحيداً أول الأمر، وفي قلة من المناصرين بعد حين، قام يصدع بأمر ربه جريئاً لا يخشى في الله ليلداً ولا تفنيداً، فدعا إلى التوحيد، فكانت هذه الدعوة فتحاً جديداً في هذه الجزيرة التي مردت على عبادة الأوثان، ثم دعا إلى المساواة وكان شعاره ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣] في قوم نفخت خياشيمهم غيبة الجاهلية، وطبعوا على التفاخر بالأنساب، ثم دعا إلى هدم كثير من عادات الجهل والعصية القبلية التي رسخت في نفوس القوم حتى أصبحت من طبائعهم، ومن أخص مميزاتهم. والجاهليون أشد الناس جفاء وعناداً، وأصعبهم قياداً، وأحرصهم على التمسك بالقديم، فثاروا على النبي الكريم، وسد كثير منهم آذانهم عن سماع الوحي الإلهي، فلما طال به المدى، وطالت أيديهم إليه بالأذى، رأى لتذليل سبيل دعوته ولإرغامهم على الحق الذي عميت أعينهم عن نوره الساطع، أن يحاربهم بسلاحهم، وأن يتحداهم بوسائلهم، ولم يكن لهم إلا وسيلتان: السيف والشعر، فحاربهم بالسيف والشعر. جند عليهم جنوداً من أصحابه يقاتلونهم بحد السنان، ورد عليهم من الشعراء جنوداً يصابونهم بعضب اللسان. روى أنه لما كان يوم الأحزاب، ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾، قال النبي ﷺ: «من يحمى أعراض المسلمين؟» فقال كعب بن مالك: أنا يا رسول الله. وقال عبد الله ابن رواحة: أنا يا رسول الله. وقال حسان بن ثابت: أنا يا رسول الله. فقال النبي ﷺ: نعم اهجمهم أنت فإنه سيُعِينكَ الله بروح القدس. وقيل إن رجلاً جاء إلى ابن عباس فقال له: جاء اللعين حسان من الشام. فقال ابن عباس: ماهو بلعين، لقد نصر رسول الله ﷺ بلسانه ونفسه.

(*) نشرت بمجلة «الكاتب» بالجزء الثاني ص ٥٥٤ عام ١٩٤٥.

وكان للمعسكر الآخر من مشركى قريش شعراء مجيدون ، منهم : عبد الله بن الزبَيْرى ، وعباس بن مرداس ، وضرار بن الخطاب ، وغيرهم . وقد كثرت المعارضات الشعرية فى هذا العهد ، وثار غبارها ، وحى وطيسها ، فإذا قال شاعر من المسلمين قصيدة فى الفريق الذى يناصره ، أو أشاد بمدىحه والمفاخرة به ، أجابته شعراء أو شعراء من الفريق الآخر بقصيدة أو قصائد من البحر والقافية ، فنهض الشعر من حيث إنه فن ، ونهض مرة أخرى من حيث إنه أصبح أداة سياسية للدفاع والهجوم ، ونهض مرة ثالثة من حيث إنه ازداد ثروة فوق ثروته بالكلمات الإسلامية الجديدة التى جاءت فى القرآن الكريم ، وفى أحاديث النبى عليه السلام .

وإنى ألتقط هذه الفرصة السانحة لأرد بكل ما فى نفسى من عنف على بعض من كتبوا فى تاريخ الأدب مدعين أن الشعر هدأ وخبث ناره عند ظهور الإسلام . وقد احتجوا لهذا الرأى القائل بتعليل شعري جذاب ، لأنهم يقولون : إن العرب بهرهم القرآن ، وأخذتهم بلاغته ، فخرست ألسنتهم وأجذبوا حيناً طويلاً . وهذا كلام يجب أن يطير فى الهواء قبل أن يستقر فى أذنين . إن ذلك الانقلاب العظيم ، وتلك الثورة الفكرية الشاملة ، وهذا الدين الجديد الذى جاء ليبدل كل شئ ، كان جديراً أن يثير النزعة الشعرية فى أمة مجذبة الخيال لا تعرف الشعر ولا فنون الكلام ، فكيف بأمة طبعت على الشعر وفطرت على البلاغة البارة التى تصوّر كل ما يمر بها من أحداث ؟ إن من يطلع على كتب السير يملكه الدهش لما يرى من كثرة ما قيل من الشعر من شعراء المسلمين وغير المسلمين على السواء ، وأكثر هذا الشعر فى المعارضات التى اتحد بحورها وقوافيها ، حتى يحارب كل خصم خصمه بسلاحه .

ويمكن أن يسمّى هذا النوع بالمعارضات السياسية ؛ لأن الشاعر لا يتجه فيها لنفسه ، وليبيان قوة فنه أولاً وبالذات ، بل أعظم ما يكون اتجاهه إلى التغلب على مذهب خصمه ، والتفوق عليه فى مجال الفخر والمحامد ، أو فى ميدان الهجاء والتنازع .

ولا نريد أن نطيل فى هذا الموضوع بلذكر كثير من الشواهد ، فإن كتب الأدب تزخر بها وتروج ، وبحسبنا أن نأتى بمثالين ، نختار أحدهما مما قاله الشعراء فى غزوة انتصر فيها المسلمون نصرًا مؤزلاً ، وهى واقعة « بدر » ، ونختار ثانيهما مما قيل فى غزوة « أحد » التى كان يومها بلاء وتمحيصًا للمسلمين .

قال ضرار بن الخطاب يوم بدر :

عجبت لفخر الأويس والحين دائر	عليهم غداً والدهر فيه بصائر
وفخر بنى النجار إن كان معشر	أصيوا بيد كلهم ثم صابرو
فإن تك قتل غودرت من رجالنا	فإن رجالاً بعدهم سنقادرو
وتردى بنا الجرذ العناجيج وسطهم	بنى الأويس حتى يشفى النفس فائرو

وهي طويلة . وقد أجابته كعب بن مالك فقال :

عجبتُ لأمر الله والله قَادِرُ	على ما أراد ، ليس الله قَاهِرُ
قضى يومَ بدر أن نلأقَى معشراً	بَقَوْا ، وسبيل البنى بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا مَنْ يليهمُ	من الناس ، حتى جمعهم متكائر
وسارت إلينا لا نحاول غيرنا	بأجمعها كعبٌ جميعاً وصامر
وفينا رسول الله والأوس حوله	له مَعْقَلٌ منهم عزيز وناصر
وجمع بنى النجَار تحت لوائه	يُمَشُّون في الماذي والنقحُ نائر
فلما لقيناهم وكلُّ مجاهد	لأصحابه ، مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا ربَّ غيره	وأن رسول الله بالحق ظاهر
وقد عرِيت بيضُ خفاف كأنها	مقاييس يُزهِمها لعينك شاهر
بهنَّ أبذلنا جمعهم فتبدوا	وكان يلاقى الحَين من هو فاجر
فكُتَّ أبو جهل صريعاً لوجهه	وعُتِبَ قد غادرته وهو عائر
وشيبةٌ والتميمُ غادرن في السوى	وما منهم إلا بلى العرش كافر
فامسوا وفودَ النار في مستقرِّها	وكلُّ كفور في جهنم صائر
وكان رسول الله قد قال أقبلوا	فولَّوْا وقالوا إنما أنت ساحر
لأمرٍ أراد الله أن يهلكوا به	وليس لأمر حَمَّه الله زاجر

وبحسب قارئ هذه القصيدة أن يرى الفرق العظيم بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام ، وأن يرى تأثير الشعراء الشديد بالفاظ القرآن ومعانيه .

أما في غزوة أحد فقد شمت المشركون بمحمد وأصحابه ، وقالوا في هزيمتهم شعراً كثيراً عارضه المسلمون بشعر كثير ، نكتفي فيه بما قالته هند بنت عتبة بعد أن بقرت عن كبد حمزة ولاكتها فلم تستطع أن تُسيغها ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سُمر
ما كان عن عتبة لي من صبر	ولا أخى وعمِّه وبكرى
شفيت نفسي وقضيت نأدرى	شفيت « وَخْشِي » غليل صدرى
فشكرُ وَخْشِي على عمري	حتى تـرِمَّ أعظمى في قبرى

فأجابتها هند بنت أئانة بن عباد بن المطلب فقالت :

يَا بَنَتْ وَقَاعَ عَظِيمِ الْكَفْرِ	خَزَيْتِ فِي بَدْرِ وَبَعْدَ بَدْرِ
مَا لِلهَاشِمِيِّينَ الطُّوَالِ الزُّهْرِ	صَبَّحَكَ اللَّهُ غَدَاةَ الْفَجْرِ
حَمْرَةً لَيْشَى وَعَلَى صَقَرِي	بِكُلِّ قَطَاعِ حَسَامٍ يَفْرِي
فَخَضَّبَا مِنْهُ ضَوَاحِي النَحْرِ	إِذَا رَامَ شَيْبٌ وَأَبْوُكَ غَدْرِي

وَنَذْرُكَ السَّوْءِ فَشَرُّ نَذْرٍ

ونعتقد أن الرواة وضعوا شعراً ومعارضات كثيرة في هذا العصر، غير أن هذا لا يمنع من كثرة الشعر الذي قيل، ولا يمنع أيضاً من أن النقاد قبلنا ميزوا بين صحيح الشعر ومنحوله. وينبغي لنا أن نسجل ما كان للنساء في هذه الفترة من الشأن العظيم في كلا الميدانين : ميدان القتال وميدان السياسة والأدب، مما يقل أن تجد له مثيلاً في عصر من عصور التاريخ أو في أمة من الأمم.

فقد قاتلت أم عمارة يوم أحد مع المسلمين : روت عنها أم سعد أنها قالت :

خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعى سقاء فيه ماء، فانتبهت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقامت بأبشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمى عن القوس، حتى خلصت الجراح إلى. ثم قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جُرْحاً أجوفاً له غورٌ، فقلت : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قميصة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ، أقبل يقول : دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عميرة وأنا من ثبوت مع رسول الله ﷺ، فضررتني هذه الضربة، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات، غير أن عدو الله كان عليه درعان. وسقط لواء المشركين يوم أحد فحملته عمرة الحارثية لقريش فاجتمعوا حوله.

وهنا نقف لتتحدث عن المعارضة في عصر بني أمية في عدد يجيء إن شاء الله.

المعارضة في الشعر العربي (*)

٣. العصر الأموي

هذا عصر الفتن والأحداث، والكوارث العظام، وتقلب القلوب، واللعب بالنفوس، وعهد الملك العضوض، وانتقال الخلافة من رفق الزهاد الناسكين، إلى سيطرة الدهاة المالكين، ثم هو عهد انطلاق العرب من ريقه الوحدة العربية التي قهرهم عليها الإسلام في عهد النبي الكريم والخلفاء الراشدين، فما كادت قبضته تنفجر عنهم أصابعها حتى عادوا قبائل وشيعة، وفرقا وأحزابا، وحنوا إلى نعمة الجاهلية الأولى، وإلى الفخر بالأنساب والتحدث بالمآثر والأيام، ونبشوا ما دفنه الإسلام من أحقاد وترات، وانقصمت تلك العروة الروحية الجميلة التي بذل الدين غاية الجهد في عقدها، وتأليف وحدة محصدة القتل من أشتات العرب تغزو العالم بقوة الإيمان، وتجيء الدنيا بعقيدة تنهزم أمامها الجحافل.

طلعت الشمس في بداية هذا العصر، محمرة حزينة، تنفث أشعتها دماء متناثرة، وأطرق الإسلام واجما وهو يرى أبناءه الذين كانوا جسما واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، يحتكمون إلى السيوف، ويحز منهم المرء رأس أخيه، جذلان مرحا، كأنه في سبيل الله يجاهد، وفي إعلاء كلمته يجالد، ولكنها الفتنة العمياء، والداهية الدهياء، والرین يغشى القلوب فلا ترى الضلال ضلالا، ولا ترضى الصواب صوابا.

بدأ هذا العهد بالخلاف بين علي ومعاوية، فسالت دماء عزيزة على المسلمين، ووثب شيطان الفرقة يفتن عن أنياب أفعى، ويحجل حجلان الغراب المشووم، ثم خرج كثير من المسلمين على علي

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثاني ص ٦٨٠ عام ١٩٤٥.

لأنه حكم في دين الله، فنشأت فرقة الخوارج التي عاشت شاذية ساخطة، لا تريد حكماً، ولا ترضى عن حاكم، حتى استأصل شأفتها المهلب بن أبي صفرة في خلافة عبد الملك بن مروان. ثم قام ابن الزبير في مكة يدعو إلى نفسه، ويطالب بالخلافة، فكان له جند مناصرون. وهكذا انتشر العقد، وانتشقت العصا، وانتفض الغزل أنكاثاً، وتفرق المسلمون شيعاً، وتبددوا أحزاباً مخلصين أو غير مخلصين، راغبين في عرض الحياة الدنيا أو غير راغبين. فإننا نعتقد أن النفس الإنسانية في هذا الزمان هي النفس الإنسانية في كل زمان، وأن اتجاه الناس إلى الزعماء في ذلك الحين، لم يكن كله خالصاً عن محض عقيدة أو اقتناع بمذهب.

والناس من يلقو خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

ومن الناس من يحتال في أيام الشغب والفتن، فيلبس ثوباً ذا لونين، ويصطاد في مائتين؛ فقد رأينا من هؤلاء من يتصل بعلى؛ لأن الصلاة خلفه أخشع، ويحوم حول مائدة معاوية، لأن الطعام على خوانه أدهم. وإنني أشك كثيراً في أن مسكينا الدارمي كان صادقاً حين كان يرفع عقيرته بالدعوة إلى مبايعة يزيد بن معاوية ويقول:

بنى خلفاء الله مهلاً فإنما
إذا المنبر الفريّ تحلاه رؤيه
يؤوها الرحمن حيث يريد
فإن أمير المؤمنين يزيد

وما أظن أن أعشى ربيعة كان يصور ذات نفسه حين قال:

وقضيت في الشعر واللب أننى
وأنى إذ فضلت مروان وابنه
أقول على علم وأعرف من أعنى
على الناس قد فضلت خير أب وابن

أغلب الظن أن شاعراً يعيش من فئات قوافيه، لا يحتاج إلى أن يقول على علم، ولا أن يعرف من يعنى. والشعر كالتناس، أو قد يكون أبعد منهم نظراً، وأسرع إلى الفرص اهتبالاً، وحاجة الزعماء إلى الشعر والشعراء كحاجتهم إلى تكتيب الكتائب وتجنيد الجنود، فكان لعل شعراء، ولعاوية شعراء، وللخوارج شعراء، ثم للزبيريين بعد ذلك شعراء، وأشهر شعراء الشيعة الكمييت، ويبرز من شعراء معاوية الأخطل وجريز وابن جعيل، ويحمل لواء شعراء الخوارج عمران بن حطان، ويشيد بآل الزبير عبيد الله بن قيس الرقيات.

وإذا كان للشعر ميزان حرارة، فإن حرارة شعر الأحزاب تنحط وتتبدل كثيراً إذا قورنت بشعر الصدام والكفاح والنار المتأججة بين شعراء النبي ﷺ وشعراء المشركين؛ ذلك لأن البون بعيد، بين من يقول عن إيمان لاصق بالقلب، أو للتفتح عن شرف قديم ممتزج بالدم، ومن يقول ليستصر لمسلم على مسلم، إما لعقيدة واهية، وإما لأجر يناله لقاء ما يقول. فقد أستطيع أن أزعج وأنا مغمض العينين أن شعراء الحزب الأموي لم يرسلوا سهام أشعارهم عن رأى صح عندهم وزنه، أو وضح لديهم برهانه،

ولكنهم كانوا في جملتهم أبراراً مأجورة تنعق هنا وهناك، وجرائد صفراً يوجهها الخليفة أو صاحب دعايته كما يشاء. وحسبك أن قائد كتيبتهم كان الأخطل، وهو هو الذى لا يعنيه من أمر الخلافة الإسلامية شئ إلا ما تدره عليه من لبن وعسل. أما شعراء الشيعة فكانوا مخلصين في غضبهم وبكائهم، ولكن قلوب بعضهم كانت تضعف أمام سيطرة الأموى، وترجف فرقا من سيفه المسلول. فإذا قالوا نظروا قبل أن يقولوا يمينة ويسرة، وإذا انزلق بهم اللسان مرة أو مرتين باتوا بليلة الملسوع، وأعدوا العدة للفرار. وإذا صح ما نسب إلى الكميث من رعبه من هشام بن عبد الملك، وهربه من السجن بعد أن لبس ثياب زوجه، وتركها خلفه تلاقى من شياطين السجن ما تلاقى، والتجائه إلى قبر معاوية بن هشام، واستنقاذ نفسه بمدح بنى أمية، ثم استمراره في مدحهم إلى آخر أيامه، علمنا ما يفعل الخوف بالعقائد، وكيف تستل الغرائز شهامة الرجال. يقولون: إنه عمل بمذهب التقية، ولكننا لا نفهم كيف تستباح هذه التقية إلى آخر أنفاس الحياة؟ وقد حدث هذا بعينه لعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر آل الزبير حين أهدر عبد الملك بن مروان دمه، فتنتقل تخفياً في الأحياء والقبائل، حتى استعاذ ذليلاً خانعاً بعبد الله بن جعفر، فسعى للعفو عنه، فلما ظفر بالعفو انطلق يهدر بمدح المروانيين كأنما أطلقت سيلا حيساً!

وكان الفرزدق شيعياً، ولكنه كان لبقاً دواراً، لا يتخذ من عقيدته حلية يعرضها على الناس، ولا يجعل من مذهبه شارة يلصقها بكم قميصه حتى يراها كل ناظر، وله شعر كثير في مدح بنى أمية، والقصيدة المنسوبة إليه في مدح على بن الحسين موضوعة في أغلب الظن.

وأريد هنا أن أنبه على حقيقة يجب ألا يغفل عنها مؤرخو الأدب، تلك هي أنه كلما اشتدت المنازعات الدينية أو السياسية كثر الوضع والانتحال، وقامت مصانع كل حزب تسبك شعراً في صور يصعب فيها كشف التزييف والتزوير، وأخذت تنسب إلى كل شاعر من أى فريق شعراً يحاكي فيه أسلوبه، وتبرز مميزات، حتى لقد يخدع فيه بعض صياغة الكلام، فيا أيها الأدباء خذوا حذرکم، وراجعوا أنفسكم مرات كلما التقيتم بشعر سياسى أو دينى، وادرسوا البيئة، والنفوس الإنسانية، وأساليب كل عصر، قبل أن تبتوا برأى أو أن تسرعوا بنفى أو إثبات.

أما شعراء الخوارج، فقد زهدوا في الدنيا وزخرفها، وسخطوا على الحكم ورجاله، وانصرفوا إلى عقيدتهم صحيحة أو فاسدة، يغلونها بأرواحهم ويذودون عنها بسيوفهم وألستهم. وسيرة عمران بن حطان رأس شعرائهم سيرة الفوضوى المجاهد الذى باع نفسه لمذهبه. والذى ينطبق عليه بيت المتنبي أصدق ما ينطبق:

تفرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً

وشعر قطري بن الفجاءة يصور الفدائية والثقة بالنفس والاستهانة بالموت في أسلوب ساذج

رصين:

وضاربة خدًا كريمًا على فتى
أصيب بدولاب ولم تك موطنًا
أغبر نجيب الأمهات كريم
له أرض دولاب وديسر حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وبخلنا
تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم
بجنات عدن عنده ونعيم

هكذا كانت حال الأحزاب، وهكذا كانت حال شعرائها، ولقد قيل شعر كثير في نصرة كل حزب، ولكنه لم يكن شعراً ملتهباً متأججاً، حتى إنه لكثيراً ما كان يفر من الحديث عن الحزبية البحتة إلى حديث المديح والهجاء. ولم تكن المعارضات في هذا الشعر السياسي شديدة أو كثيرة؛ لفتور نفوس الشعراء، أو لأنهم كانوا مشتتين في الأقطار بين الشام والعراق والحجاز، ولبعد الشقة بينهم وعسر الاتصال لم تستطع أجنحة الشعر أن تطير خفاقة بين هذه الأقطار.

والذي وعيناه من معارضات الشعر السياسي ما ذكره المبرد من أن معاوية أرسل إلى علي كتاباً كتب في آخره أبياتاً لكعب بن جعيل هي :

أرى الشام تنكر مُلك العراق
وكلاً لصاحبه مبعضاً
وإذا ما رتونا رميناهم
فقالوا على إمام لنا
وقالوا نرى أن تدبوا له
ومن دون ذلك خرط القتاد
وأهل العراق له كارهينا
يرى كل ما كان في ذاك دينا
ودناهم مثلاً يُقرضونا
فقلنا رضينا ابن هند رضينا
فقلنا ألا لا نرى أن تدبنا
وضرب وطعن يُقر العيوننا

فكتب إليه على جواب رسالته، ثم دعا النجاشي أحد بنى الحارث بن كعب، فقال له : إن ابن جعيل شاعر أهل الشام، وأنت شاعر أهل العراق، فأجب الرجل فقال : يا أمير المؤمنين أسمعني قوله، قال : إذن أسمعك شعر شاعر، فقال النجاشي يبيح :

دع يا معاوي ما لا يكونا
أناكم على بأهل العراق
فقد حقق الله ما نحدرونا
وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟

لا نجد كثيراً من المعارضات القوية السياسية في هذا العهد، ولكننا نجد نوعاً آخر طريفاً، ابتكره معاوية، وجرى الخلفاء بعده على أثره، فقد أحيوا العصبية بعد أن أهد الإسلام نارها، وأرثوا العداوة بين الشعراء، وأثاروا بينهم عاصفة من التهاجي والإقذاع، حتى يصرفوا الناس عما أحدثوه من أحداث، وحتى يبعثوا روح الجاهلية الأولى، التي كان لهم فيها مجد عريق، وشرف ورياسة، وحتى يجدوا لأنفسهم فيما يتنازع به الشعراء ملهات، كما يتسل المتفرون بمهارشة الديكة، ومناوشة الكلاب، وحتى يقفوا بينهم موقف المحكمين، ليرفعوا من تشاء السياسة رفعه.

وقد كثرت المعارضة الشعرية في هذا النوع، وطمى سيلها، وهى التى نسميها بالمعارضة الهجائية، ولا يقصد بها إلا المباراة في فنون الهجاء المقلد، والتباهى بمجد الجاهلية وأحسابها وأيامها، ونبش ما دفنه الإسلام من مثالب القبائل في عهدها الأولى.

فقد ثارت حرب الهجاء ضرورياً طاحنة بين جرير والفرزدق والبيث المجاشعي، وسبب ذلك أن ناساً من يربوع يقال لهم بنو ذهيل سرقوا إبلاً للبيث فقال جرير قصيدة طويلة يهجو بها البيث أولها:

طاف الخيال وأين منك لماما فارجع لسورك بالسلام سلاما
فثار البيث وعارضه بشعر مر الهجاء أوله:
أجرير أقصر لا نحن بك شفوّة إن الشقى نرى له أحلاما

وكان الفرزدق في ذلك الحين، قد قيد نفسه، وحلف أن لا يطلق قيده حتى يحفظ القرآن، ولكن هجاء جرير للبيث أقض مضجعه، وأثار فيه نازعة النجدة فك قيدوه، وهب ينتصر للبيث بقصيدة أولها:

ألا استهزأت منى هنيّدة أن رأت أسيراً يدانى خطوّه خلق الحجل
وتبعه البيث بأخرى يهجو جريراً:
أهاج عليك الشوق أطلال دمنة بنا صفة الجوّين أو جانب الهجل
فانبرى لها جرير بقصيدة مطلعها:
عوجى علينا واربعى ربة البعل ولا تقتلينى لا بجل لكم قتلى
فرماه الفرزدق بأخرى أولها:
ألا حتى زغبى ثم حتى المطالبا فقد كان مانوساً فأصبح خالبا

ويرى الباحث في هذه المعارضات أو التقاض أنها ابتدأت ببحر الكامل، ثم انتقلت إلى بحر الطويل، والتزمت فيه قافية واحدة، حتى نقلها الفرزدق إلى قافية أخرى، وهو ضرب يعمد إليه المعتز بفنه في المباراة للعبث بالخصم وإعجازه وتحديه.

وكان من أسباب اشتعال المهاجاة، وتأجيج المعارضة بين الفرزدق وجرير ما رواه الرواة من أن الأخطل فضل الفرزدق على جرير أمام بشر بن مروان أمير الكوفة، وأرسل قصيدة طويلة يعلن فيها هذا التفضيل أولها:

بكر العواذل يتدون ملامتى والعالمون فكلهم يلحسانى

وفيهما يقول:

لا يحفظون محارم الجيران
أيام يربوع مع الرُعيان

أعناقُه وتماحك الخصبان
رفعوا عناني فوق كل عنان

قَبَحَ الإله بنى كليب إنهم
تاج الملوك وفخرهم في دارم
فأسرع الفرزدق يعاضده في هجاء جرير:

يابن المراغة والهجاء إذا التقت
يابن المراغة إن تغلب وائل

فصال عليهما جرير يقول :

إذ لا نبيع زماننا بزمان

لمن الديار بركة الرُّوحان

وفيها يخاطب الأخطل :

ومجرَّ جِعْنَنَ ليلسة السَّيدان ؟
وتنوار حيث تصلصل الحِجْلان ا

أنسيتَ ويلَ أيبك غدرَ مجاشع
ونسيتَ أفينَ والرَّبابَ وجاركم

يقول للأخطل : أنسيت غدر مجاشع ، وهى قبيلة الفرزدق ، بالزبير بن العوام حين استجار بمجاشع بعد وقعة الجمل ، ثم يذكر بعد ذلك حادثة غريبة ، هى أن غالباً أبا الفرزدق جاور طلبة ابن قيس بالسيدان ، وكانت جعثن أخت الفرزدق صديقة لظمياء بنت طلبة تتحدث إليها كل ليلة ، وكانت إذا أرادت لقاءها صفقت لها بحجل لتجىء إليها ، فاشتتهى الفرزدق أن يلتقى بظمياء ، وحدث أن شغلت أخته ليلة بأمر نفسها ، فأخذ حجلها وحركه فجاءت ظمياء كعادتها ، فارتابت بالفرزدق وصاحت ، وعادت إلى رحلها ، فلما علم فتیان الحى من أهلها أسرعوا فأخرجوا جعثن من خبائها ، ثم سحبوها ليشهروا بها .

وكان من ضروب إثارة المنافسة والمعارضة بين الشعراء ، مارواه أهل الأدب من أن الفرزدق والأخطل وجريزاً كانوا في حضرة عبد الملك بن مروان ، فأحضر بين يديه كيساً فيه خمسمائة دينار ، ثم قال : ليقل كل منكم بيتاً في مدح نفسه ، فأيكم غلب فله الكيس ، فبدأ الفرزدق فقال :

أنا القطرانُ والشعراء جَرِيزِي وفي القطران للجريزى شفاء

وقال الأخطل :

فإن تك زقاً زاملية فإنى أنا الطاعون ليس له دواء

وقال جرير:

أنا الموت الذى أتى عليكم فليس لهارب منى نجاء

فقال عبد الملك : لعمري إن الموت يأتى على كل شيء ، وقضى له .

ويروون أن الفرزدق قال في هذا المجلس : النوار طالق إن لم أقل شعراً لا يستطيع ابن المراغة أن يتقضه أبداً ، ولا يجد في الزيادة عليه مذهباً ، فقال عبد الملك : ماهو؟ فقال :

فإني أنا الموت الذى هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله
وما أحد يابن الأتسان بوائل من الموت إن الموت لاشك نائله

فأطرق جرير ثم قال : أم حزة طالق ثلاثاً إن لم أكن نقضته ورددت عليه ، فقال عبد الملك :
هات فقد والله طلق أحذكما لا محالة ، فقال :

أنا البدر يغشى نورَ عينيك فالتمس بكفِّيك يابن القَيْن هل أنت نائله ؟
أنا الدهر يفنى الموتُ والدهرُ خالدٌ فجئنى بمثل الدهر شيئاً يطاوله

فقال عبد الملك : فَضَّلِكَ والله يا أبا فراس وطلق عليك .

تلك روايات تصدقُ أو لا تصدقُ ، ولكنها من ذخائر الأدب وطرائفه على أى حال ، وحسبنا هذا
القدر من المعارضة الشعرية في هذا العصر ، وسيتحدث عن المعارضة في العصر العباسى في عدد
يحيىء إن شاء الله .

المعارضة في الشعر العربي (٥)

٤. العصر العباسي

وهذا عصر كل ما فيه جديد، فهو جديد في اتجاهه العربي، جديد في سياسته، جديد في روحانيته وفلسفته، جديد في مدنيته. أو قل هو جديد في كل شيء، فإنك إذا وازنته بالعصر الأموي، وبخاصة الصدر الأول منه، رأيت حضارة جديدة، وأخلاقاً جديدة، وصنفاً من الناس جديداً.

انتشرت الخلافة الإسلامية من برائن الأمويين بسيف الفرس ورماحهم، فركن العباسيون إلى سياستهم، واتخذوا منهم وزراء وقواداً، وفتحوا لهم أغلاق أسرارهم، فدخلوا إليها من كل باب. ولم ينس الفرس، أو طائفة منهم، أن العرب هم الذين ثلوا عروشهم، وأذلوا تاريخهم الحربي المجيد. ثم لأنهم لم ينسوا ما مثوا به من الاضطهاد في عهد بني أمية، لذلك ناصروا بني العباس وعملوا جاهدين في بطن وحذر أن يستلوا النفوذ والسلطان من أيديهم قليلاً قليلاً.

وقد نام العباسيون وهم في سكرة الأمل، والتعطش إلى الملك، وشفاء أضغان قديمة أركدتها سماحة الإسلام في صدورهم حيناً، عن هذا الخطر واستغشوا ثيابهم دون رؤية أشباحه وتهاويله. ولم يهمس في أذهنهم ذلك الخاطر الذي جال بصدر المتنبي بعد مائتين من السنين:

ومن يجعل الضُّرغام بآزاً لصيده تصيِّده الضُّرغام فيما تصيِّدا

ولم يصيخوا إلى قول نصر بن سيار:

فليغضبوا قَبْلَ أن لاينفع الغضبُ
حرباً يُحرق في حافاتهما الخطبُ

أبلغ ربيعة في مَزْوٍ وإخوتهم
ولينصّبوا الحرب إن القوم قد نصبوا

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثاني ص ٨٤٩ عام ١٩٤٥.

مبا لكم تُلقحون الحرب مُدُنُكُمْ
وتتركون عدوًّا قد أظلكم
قَدِّمًا يدينون دينًا ما سمعت به
فمن يكن سائلًا عن أصل دينهم
كأن أهل الحجا عن رأيكم عُرِبُ
بما تأشَّب ، لا دين ولا حسب
عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فلن دينهم أن تُقتل العرب ا

وتيقظ المنصور للأمر الداهم وتوهم أنه أدركه ، واهتز منه عرش الرشيد وظن أنه استأصله ، ولكن هيهات هيهات ا

تغلغل الفرس في الدولة العباسية فأصبحت فارسية إلا في شعارها ، كسروية إلا في رايتها ، وفتنوا الناس بمدينية الفرس ، وأدب الفرس ، وبالمال ينثر هنا وهناك ، فاجتذبوا القلوب ، وأذلوا أعناق الرجال ، وكانت لهم دولة في الدولة ، وملك في الملك ، وجند وحاشية وشعراء وعزّ وسلطان . وكان الخلفاء قد مدّوا لأنفسهم في أسباب اللهو والعبث ، وسحروا بالمدينية الجديدة فاستناموا إلى اللذات ، وتفنكوا في النعيم ، وتركوا لهم شؤون الدولة ينقضون فيها ما يشاؤون ويرمون . واهتزت القصور بالموسيقى والرقص والغناء ، وثملت مجالس الشراب بما فيها من عريضة ومجون ، وكأن كل شيء في بغداد كان يردد قول أبي نواس :

إنما العيش سماعٌ
فإذا فاتك هذا
وئسّام وزئدائم
فعلى الدنيا السلام ا

وأصبح للقيان الملك والسلطان من دون الخليفة ، فسمعنا الرشيد يقول بما يزعم الرواة :

ملك الثلاث الأنسات عناني
ما لي تطيعني البرية كلُّها
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى
— وبه قوين — أعزُّ من سلطاني
ونزلن من قلبي بكل مكان
وأطيعهنّ وهنّ في عصياني

ثم سرّت الفتن في أحشاء الدولة وأوصالها كلما أطفئت فتنة تأججت أخرى . وكانت هذه الفتن تظهر أول الأمر في صورة خلاف ديني أو مذهبي ، ولكنها لم تكن في الحقيقة إلا محاولة أجنبية لانتزاع الحكم من أيدي العرب . أما هؤلاء فكانوا في نشوة من الملك والسلطان غافلين سادورين ، ولم تكن حياتهم اللاهية العابثة الماجنة إلا نذير الفناء ، وطلائع البلاء . وهذه كارثة الأمم العربية التي هيأت لابن خلدون أن يؤلف من نكباتها المتلاحقة فلسفة وكتائبًا ، فإن الاستعصام بالأجنبي والاستقواء به مصيبة لازمت ممالك الإسلام منذ هذا العهد ، فكانت أمّ قبحها ومصدر بلائها ومعلول انهبائها .

استعان بنو العباس بالفرس ثم بالأتراك فدالت دولتهم وذهبت ريحهم ، وأصبح الخليفة العربي الهاشمي كما يقول الشاعر :

خليفة في قفص
يقول ما قال له
بين وصيف وينا
كما تقول البتة

واستعان الفاطميون بالأرمن أيام خلافة المستنصر بالله فتمزق ملكهم بدداً، وجلب الصالح بن أيوب الماليك ليتناصروه فقصوا على دولة الأيوبيين. أما الأندلس فلا تزال العين تدمع من أجلها على ملك كان زينة الدنيا وحديث الدهور.

هكذا نشأت الدولة العباسية، وفي هذا الجو المائج بالخداع والدسائس والمدنية الخلابية ترعرعت، وفيها نشأ الشعر صورةً من حياتها، مشتقاً من أفئدة الناس وميولهم ونزواتهم، نشأ الشعر فيها ساخطاً على القديم، منذداً به، بعد أن بهرته حضارات الأمم المغلوبة، ولعبت بعقله تلك الإباحية التي نعم الناس في ظلالها بكل ما في الحياة من متع وفتن وإغراء. فقد رأى الشعراء في البساتين الضاحكة ما أسخطهم على الصحراء العابسة، وفي القصور الشاخبة ما أنساهم الرسوم والأطلال، وفي مجالس الخمر والقيان ما بغض إليهم ذكر هريرة وبزج، وفي ترجمة علوم الأولين ما فتح عقولهم لدنيا من الثقافة جديدة. ووجدت الشعوبية في الشعر ميداناً فسيحاً للنيل من العرب، والتهكم بهم والإزراء بمحامدهم، وتشويه مآثرهم، ولم يغضب الخلفاء لقومهم ولم يقفوا لصد هذا الاضطهاد الأدبي الذي يتخون مجدهم. أين هذا من تعصب الأمويين للعرب وإسكات كل صوت يمس بمجد غير مجد العرب؟ فإن إسماعيل بن يسار ما كاد ينشد أمام هشام بن عبد الملك قوله:

إني وبجذك ما عودي بلدى تحور	عند الحفاظ، ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم، ومجدي لا يُقاس به	إلى لسان كحدّ السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب	من كلّ قُرْم لتاج الملك معوم
من مثل كسرى وسابور الملوك معاً	والهَرُزَانِ لفخرٍ أو لتعظيم؟ أ

حتى برقت عينا هشام من الغضب وقال: أعلّى تفخر؟ وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غطوه في الماء، فغطوه حتى كادت نفسه تخرج. والحق أن ابن يسار كان موعلاً في الصفاقة وقلة الذوق، وكانت بلواه أنه لم يعرف أن لكل مقام مقالاً، هكذا كانت الحال في عهد بنى أمية. ولكن الشعر في هذا العصر نال حرية فوق ما كان يجب أن ينال، وكان أكثر الشعراء من الموالى الناقمين من العرب، وعلى رأسهم بشار وأبو نواس والخرمى، فأصبحنا نسمع بشاراً يقول:

نمت في الكرام بنى عامر	فروعى، وأصلى قريش العجم!
------------------------	--------------------------

ويقول:

من حُرَاسانَ وبيتى فى الدُّرا	ولدى المسعاة فرعى قد سَمَقَ
-------------------------------	-----------------------------

وسمعنا منهم من يقول:

فلسْتُ بتاركِ إيسوانَ كسرى	لشّوضيح أو لحومل فالذَّخُولِ
وضبّ في الفلاسِ سباعٍ وذئبٍ	بها يعوى، وليثٍ ونشط غيلٍ

ومن يقول :

بنى هاشم عودوا إلى نَحْلَاتِكُمْ فقد صار هذا التمر صاعًا بدرهم
فلان قلتُم رهطُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ فلانَ النَّصَارَى رهطُ عيسى بن مريم
أما المتوكلي، وهو من ندماء الخليفة المتوكل، فقد بلغ الغاية في النفيج :

أنا ابن الأكارم من نسل جَمٍّ وحائزُ إرث ملوك العجم (*)
فقل لبنى هاشم أجمعينَ هلموا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكُم عَنُوةً بِالرَّما ح طعنًا وضربًا بسيف خَدِمِ
وأولاكم الملكَ أَبَاؤُنَا فما إن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالجهازِ لأكل الضَّبَابِ ورعى الغنم
فإني سأعلسو سرير الملوكِ بحدَّ الحسام وحرف القلم

وهذا المذهب الشعبي إصبعٌ من أصابع الغزو الأجنبي البطيء المستور، فقد كان لأعداء العرب جماعة تشبه في عصرنا الحاضر (وزارة الدعاية) وكانت النزعة الشعبية أمضى أسلحتها، وأنفذ سهامها، فأطلقوها في صور شتى من الشعر والتأليف والقصص الدالة على بلاهة العرب وجهلهم، ثم دسوا سمومهم في التفسير والحديث .

تمرد الشعراء في هذا العصر على القديم، وسخر كثير منهم من الشعر الجاهلي، وتندروا بأغراضه، وهزؤوا بنؤيه وأطلاله . وفي الحق إن معظم الشعر نحا في هذا العصر منحىً غريبًا، ولم يكن عربيًا إلا في ألفاظه وأسلوبه، أما فنونه التصويرية فكانت بدعًا جديدًا . لذلك لم يكن ليظن، وقد وصل الشعراء إلى قمة هذا الترف الفني، وبلغوا هذه المنزلة من الاعتداد بأنفسهم، والزواية على من سواهم، أن تحدث أحدًا منهم نفسه بمعارضة الشعر الجاهلي أو الأموي، لأن المعارضة لا تكون إلا في إحدى حالين : الرغبة في تحدى القوى، أو الفلج على الخصم في الجدل الديني أو السياسي . أما في الأولى فقد عرفنا نظرتهم إلى الشعر والشعراء قبلهم، وأما في الثانية فإن استقرار صخرة الإسلام وانتهاء الأمر إلى بني العباس جملة لم يترك إلا حزبية ضئيلة . وإذا كان بالدولة أضغاث من نصراء الأموية أو العلوية فإن الخوف وقلة النصير لم يدع لهم إلا صوتًا خافتًا .

والمعارضات إنما تزدهر وتكثر بين عواصف الخلاف العنيف، ولم يكن في صدر هذه الدولة شيء مما يثير المعارضة إلا ذلك الصراع القومي بين العرب والفرس، وكان في أكثره شعورًا يتساقط من أحد الجانبين من غير أن يلتزم فيه اتحاد البحر والقافية، وكان يسلك أحيانًا سبيل المعارضة المعروفة، كما جرى بين عبد الله بن طاهر (من الفرس) ومحمد بن يزيد (من العرب) . قال عبد الله بن طاهر يتغنى بآثر أهله ويفخر بقتلهم الأمين العباسي :

(*) جم : جمشيد ملك الفرس .

فَقُوَادِي عَنْكَ مَشْغُولُ
سَلَفِي الْغُرُّ الْبَهَائِلُ
مَنْ يَسَاوِي عَجْدَهُ ؟ قَوْلُوا !

أَقْصِرِي عَمَّا لِهَجَّتِ بَسْمُهُ
أَنَا مِنْ تَدْرِينَ مَا نَسَبِي
وَأَبِي مِنْ لَا كِفَاءَ لَهُ

فعارضه محمد بن يزيد بقوله :

كُلُّ مَا بُلِّغْتَ تَضْلِيلُ
مَا لِحَاذِيْكَ سِرَاوِيلُ (*)
مُضْعَبٌ ؟ غَالَتُكُمْ غُولُ !

لَا يَرْغُوكَ الْقَالُ وَالْقِيلُ
يَا بَنِي بَيْتِ النَّارِ ، مَوْقِدُهَا
مَنْ حَسِينٌ ؟ مَنْ أَبُوكَ ؟ وَمَنْ

وهذا شعر ضعيف خائر لم يتفجر عن روية شعرية حاذقة .

وقد أثار الخلاف في أحقية بنى العباس بالخلافة دون بنى عليّ شيئاً من الشعر الجدلي ، وقامت حول ذلك معارضة بين الشعراء ، وكان من أكبر دعاة العباسيين مروان بن أبي حفصة ، فقد قال قصيدة يمدح بها المهدي حينما عقد البيعة لابنه الهادي جاء فيها :

دُونِ الْأَقَارِبِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ
قَطَعَ الْخَصَامَ فَلَاتَ حِينَ خَصَامِ
نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ
حَطَّمُ الْمَنَاقِبِ كُلَّ يَوْمٍ زَحَامِ
وَدَعَوْا وَرَاثَةَ كُلِّ أَصِيدٍ حَامِي
لَبِنَى الْبَنَاتِ وَرَاثَةَ الْأَهْمَامِ

يَا بَنِي السَّيِّدِ وَرِثَ النَّبِيُّ مُحَمَّدًا
السُّوْحَى بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَيُنْكَمِ
مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيضَةٌ
خَلُّوا الطَّرِيقَ لِمُعْشَرِ عَسَادِهِمْ
ارْضُوا بِمَا قَسَمَ الْإِلَهُ لَكُمْ بِهِ
أَتَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنِ

ورحى شبيعة أبناء فاطمة من هذه القصيدة ، وكان أشد ما غاظهم منها قوله :

لَبِنَى الْبَنَاتِ وَرَاثَةَ الْأَهْمَامِ

أَتَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنِ

روى صاحب الأغاني : أن صالح بن عطية لما سمع منه هذا البيت عاهد الله أن يغتاله ، فلم يزل يلاطفه حتى أنس به ، ثم مرض مروان بالحمى ، فخلا البيت يوماً به وبصالح ، فوثب عليه صالح حتى أخذ بحلقه ، فما فارقه حتى مات . وتابع ابن أبي حفصة الطاهر بن علي العباسي فقال :

فَتَنَازَعَا فِيهِ لَوَقْتُ خَصَامِ
فَحَوَاهُ بِالْقُرْبَى وَبِالْإِسْلَامِ
وَالْعَمُّ أَوْلَى مِنْ بَنَى الْأَهْمَامِ

لَوْ كَانَ جَدُّكُمْ هُنَاكَ وَجَدُّنَا
كَانَ التَّرَاثُ لَجَدُّنَا مِنْ دُونِهِ
حَقُّ الْبَنَاتِ فَرِيضَةٌ مَعْلُومَةٌ

وهب الشعراء يعارضون هذا الشعر بشعر كثير ، منه ما قاله محمد بن يحيى التغلبي :

(*) الحاذان : ما وقع عليه الذنب من أدبار الفخذين .

لَمْ لَا يَكُونُ ، وَإِنَّ ذَاكَ لَكَائِنٌ
لِلْبَيْتِ نَصْفٌ كَامِلٌ مِنْ مَالِهِ
لِلطَّلِيْقِ وَلِلنَّسْرَاتِ وَإِنَّمَا
لِبْنِي الْبَنَاتِ وَرَاثَةُ الْأَعْمَامِ
وَالْعَمُّ مَتْرُوكٌ بِغَيْرِ سَهَامِ
صَلَّى الطَّلِيْقِ خَافَةَ الصَّمَمِ

ويشير في البيت الأخير إلى أن العباس بن عبد المطلب كان مع المشركين يوم بدر، ثم أسر فافتدى نفسه. والمسألة كلها مغالطة سافرة، ومناظرة اختلف فيها اتجاه النظر. فالعباسيون يرون أن ابن العم، وهو علي بن أبي طالب، لا يرث النبي مع وجود عمه العباس، والعلويون لا يحتجون بعلي وإنما ينظرون إلى فاطمة الزهراء وإلى ولديها الحسن والحسين، ويرون أن البنت في الميراث أقرب من العم.

وقد استمرت هذه الحجة بيد العباسيين يلوحون بها كلما حدثت علويًا نفسه بالخلافة، حتى جاء عبد الله بن المعتز فشد من أواصرها وقوى من أركانها بقصيدته الرائعة الغاضبة التي يقول فيها:

وَنَحْنُ وَرِثْنَا ثِيَابَ النَّبِيِّ
لَكُمْ رَحِمٌ يَا بَنِي بَتْنِهِ
فَلِمَ تَجْدِبُونَ بِأَهْدَابِهَا ؟
وَلَكِنْ بَنُو الْعَمِّ أَوْلَى بِهَا

ثم يقول :

قَتَلْنَا أَمِيَّةَ فِي دَارِهَا
إِذَا مَا دَنَوْتُمْ تَلَقَّيْتُمْ
وَنَحْنُ أَحَقُّ بِأَسْمَاءِهَا
زَبُونَا أَمَرَتْ بِجَلَالِهَا

وما زالت هذه القصيدة تحتاب السنين بلا معارض، حتى جاء صفى الدين الحلبي فسأله نقيب نقباء الأشراف ببغداد أن يعارضها فقال :

أَلَا قُلْ لَشَرِّ عِيْدِ الْإِلَهِ
وَبَاغِي الْعِنَادِ وَبَاغِي الْفَسَادِ
أَأَنْتِ تَفْخَاخِرِ آلَ النَّبِيِّ
أَعَنْتُمْ نَفْيَ السَّرْجَسِ أَمْ عَنْهُمْ
وَقُلْتِ « وَرِثْنَا ثِيَابَ النَّبِيِّ »
وَعِنْدَكَ لَا تَوْرَثُ الْأَنْبِيَاءُ
وَطَاغِي قَرِيْشٍ وَكَذَّابِهَا
وَهَاجِي الْكِرَامِ وَمَغْتَابِهَا
وَتَجَحُّدِهَا فَضْلَ أَحْسَابِهَا ؟
لَطَّهَرِ النَّفُوسَ وَإِلْبَابِهَا ؟ (*)
فَلِمَ تَجْدِبُونَ بِأَهْدَابِهَا
فَكَيْفَ حَظَّيْتُمْ بِأَنْوَابِهَا ؟

ثم كان من أسباب المعارضة في صدر هذا العصر أن يهجو شاعر عظيمًا فيعارضه أحد الشعراء المنتمين إلى ذلك العظيم، ونحن نوجز هنا مارواه صاحب « الكامل » في شأن عبد الله بن محمد بن أبي عيينة وإسماعيل بن جعفر. قال : كان ابن أبي عيينة بين الرؤساء الذين أخذوا البصرة للمأمون من المخلوع، وكان معاضدًا لدى اليمينين طاهر بن الحسين في حروبه، وكان إسماعيل بن جعفر

(*) إلبابها : إخلاصها .

جليل القدر مطاعاً وكانت الحال بينه وبين ابن أبي عيينة ألطف حال ، فوصله ابن أبي عيينة بطاهر فوله البصرة ، وولى ابن أبي عيينة اليمامة والبحرين وغوص البحر ، فلما رجعا إلى البصرة تنكر لإسماعيل لابن أبي عيينة ، فاشتعلت بينهما نار البغضاء ، ثم عزل ابن أبي عيينة فأخذ يهجو لإسماعيل ويسأل طاهراً عزله ، ولكنه كان يدافعه ويضن بالرجل . وفي ذلك يقول لطاهر :

مالي رأيتك تدني كل متكئ إذا تغيب ، ملتأث إذا حضرا
إذا تنسم ريح الفسدر قابلها حتى إذا نفخت في أنفه غدرا

ويتطير ابن أبي عيينة لإسماعيل بالعزل والأسر حين يقول :

لا تعلم العزل يا أبا الحسن ولا هزالاً في دولة السمن
ولا انتقالاً من دار عافية إلى ديار البلاء والفتن
ولا خروجاً إلى القفار من الد أرض ، وترك الأحباب والوطن
كم زوحة فيك لي مهجرة وذخية في بقية الوسن

وقد وقع لإسماعيل ما تطير له به ، إذ حمل إلى دار الخلافة معزولاً مقيداً ومعه ابنه في ذل ومهانة . وفي ذلك يقول ابن أبي عيينة :

مرر لإسماعيل وابنا مفا في الأشـراء
جالساً في تحميل ضنكك على غير وطاء
يتغنى القييد في رجـا لنيه ألوان الغناء
باكياً لا رقأت عيـ سناء من طول البكاء

وقد عارض قصيدة ابن أبي عيينة النونية عمرو بن زعبل مولى بني مازن فقال أبياتاً كلها فحش صيغ في صور من الأحاجي منها :

إني أحاجيك ما حنيف على الـ سفطرة باع الرباع بالغبن
يا إذا اليمين اضرب علواته يذفع وماني في النار في قرين
قال المبرد . وكان « ماني » رأساً من رؤوس الزنادقة .

ويرد إبراهيم السواق على عمرو بن زعبل مدافعاً عن ابن أبي عيينة بقصيدة منها :

قد قيل ما قيل في أبي حسن فسائمحروا في تطاول الزمن

ولابن أبي عيينة قصائد رائعة في معاتبة ذى اليمينين ، ندعونا جمالها الفنى إلى الخروج عن جادة الموضوع قليلاً ، فإن شعراً مثل هذا لا يصح أن يمر به الأديب مرّاً . وأروع هذه القصائد قوله :

أيا ذا اليمينين إن العتسا
وكنْتُ أرى أنَّ ترك العتسا
ب يُغري صدورًا ويشفى صدورًا
ب خيرٌ وأجدرُّ أن لا يُضيرا
إلى أن ظننتُ بأن قد ظننتُ
فأضمريت النفس في وُهميها
من الهمِّ ممَّا يَكْثُر الضميرا
ولا بَسْدٌ للماء في مِرْجَل
عل النار مُوقَّدة أن يفورا
ومن أَشرب اليأس كان الغنى

وكثر في هذا العصر تحدى الشعراء أو اختبار صدق بديعهم بمطالبتهم بإجازة بعض الشعر، وهذا ضرب من المعارضة قد ندعوه « معارضة البداهة ». من ذلك ماروؤا من أن الرشيد كان ليلة بين سباه فغناه بعض المغنين قول جرير :

إنَّ الذين هَدَوْا بِلَبِّكَ ضادروا
وَسَلَّابِيعِنِكَ لا يزال مَعِينَا

فطرب الرشيد وقال لجلسائه - وكان بين يديه بدرة - إن هذه البدرة لمن يميز منكم هذا البيت . فلما لم يصنعوا شيئاً قال خادم كان على رأسه : أنا لها يأمر المؤمنين ، فقال له : شأنك . فاحتمل البدرة وأسرع إلى دار الناطقى ، فاستأذن منه على عنان ، فلما أخبرها الخبر قالت : ويحك اكتب :

هيجت بالقول الذى قد قُلْتِه
قد أينعت ثمراته في طينها
داءً بقلبي ما يزال كمينَا
وشُقَيْن من ماء الهوى فرَوِينَا
كذب الذين تَقَوَّلُوا يا سيدى
إنَّ القلوب إذا هَوَيْن هَوِينَا

فسر الرشيد ، وكان ذلك سبب شرائه عنان .

ومن ذلك مارواه بكر بن حماد ، قال : دخلت دار الناطقى ، فقال لجارته عنان : هذا بكر شاعر باهلة ، يريد مجالستك ، فقالت : لا والله إنى كسلى ، فحمل عليها بالسوط ثم قال لى : ادخل ، فدخلت ودمعها يتحدر ، فقلت :

هذى عِنَانٌ أسبلت دمعها
كالدَّرِّ إذ يُنْسَل من خيطه

ثم قلت : أجيزى ، فقالت :

قُلَيْت من يضر بها ظمالمًا
تَهْفُ كَفاه على سَوطه

ثم قلت لها : إنى وجدت بيتاً على ظهر كتاب لى لم أقدر على إجازته ، فقالت : قل ، فأنشدتها :

فما زال يشكو الحب حتى حَسِبْتُهُ
تنفَس في أحشائه فتكَلَّمَا

فأطرقت ثم قالت :

ويكى فابكى رحمةً لبكائه
إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

المعارضة في الشعر العربي (٥)

٥. عصر الفواجع العباسي

يزعم بعض مؤرخي الأدب أن اللغة والفنون تجرى في ذيل الدولة، وتتابعها في ميزان القدر، وتشاركها فيما قسم لها من رفعة وضعة، ومن قوة وضعف، فإذا قويت الدولة وعظمت شوكتها واشتد ساعد سلطانها، ازدهرت اللغة في مادتها وأسلوبها وطرائق دلالتها، وكثرة الناطقين بها، والواردين على شريعتها، والمعتزين بشرف الانتماء إليها من قومها كانوا أو من غير قومها. وربما كان من لم يصله بها نسبه أشد غيرة عليها وأكثر بحثاً عن روائعها وإذاعة لمفاخرها. وقد يكون من أسباب ذلك أن اللصيق حين ضعف باللغة سببه، أراد أن يقوى الصلة بأدبه. فإن الإحساس بالنقص كثيراً ما يحفز إلى الكمال. وقد يكون من الأسباب تلك النزعة التي تدعى اليوم بمركب النقص.

ونظرة في تاريخ لغتنا الشريفة توحى بأن الغلبة الكاثرة من الباحثين فيها، المحققين لنصوصها، المشيدين بفرائدها، كانوا من الموالى والدخلاء على أمة العرب. وحسبك أن إمام اللغة في عصره كان أبا عبيدة معمر بن المثنى، وأصله من يهود فارس، وأن ابن المقفع كان زعيم البيان، وأن بشار بن برد كان حامل لواء الشعراء، وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون.

ومن أطرف ما يحضرني ونحن نتكلم في مركب النقص ما كان من أمر شهاب الدين بن الصفي الشاعر، وكان فارسي النبعة ينتمى إلى تميم، فإنه كان يفرق في التشبه بالعرب، ويتخير في حديثه أغرب الغريب الذي لا يكاد يفهم، ويتزيا بزي العرب القحاح، فلا يرى إلا متقلداً سيفاً أو متكباً ربحاً، كل ذلك لأنه يحس أنه ليس منهم ويريد أن يراه الناس منهم. ولكن أبا القاسم بن القحطان الشاعر البغدادي كشف عن حيلته وفصح خبيثته حين قال:

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثالث ص ٤٠٤ عام ١٩٤٦.

كم تُبارى وكم تطوّل طُـرطـو
رك ! ما فيك شَعْرَةٌ من تميم
فكّل الضبّ واقْرِضَ الحنظلَ ليا
بس واشرب إن شئت بسوّل الظليم
ليس ذا وجّة من يُضيف ولا يُفـُـر
رى ولا يدفع الأذى عن حريم

ويقول ابن خلدون : إن الأمم المغلوبة مولعة دائماً بمحاكاة الغالب ؛ ولأمر ما تنتشر بعض اللغات الأجنبية الآن في أنحاء الأرض ؛ لأن اللغة تتبع الراية وتساير الأساطيل .

ومن العجيب أن العربية قويت واشتد ساعدها في مدى العصر العباسي كله ، وأن اللغة لم تبال ، والأدب لم يابه لما أصاب الدولة من تدهور سياسى مفجع في القرن الرابع الهجرى ، حينما انحلت أواصر ذلك الملك البعيد السلطان ، وانقسم إلى دويلات في الشرق والغرب ، وتمزق ميراث المسلمين بين فرس وترك وديلم .

وتفرّقوا شيعاً فكّل قبيلة
فيهـا أمير المؤمنين ومُـنـبـر

أجل ! لم تسقط اللغة ، ولم يسقط الأدب عند سقوط الدولة ، على الرغم من نظرية مؤرخى الأدب التى أشرنا إليها في صدر هذا المقال ؛ والسبب في أنها لم تسقط أن الأعاجم الذين قذفت بهم أمواج الفتوح إلى شاطئ العربية ، والذين توثبوا بعد ذلك إلى الملك ، لم تكن لهم لغة جديدة بالإحياء والإنعاش ، ولأنهم كانوا يعدون الشعر والأدب أكبر وسيلة للدعاية لدولهم الناشئة ، ولأنهم كان لهم تمكن في الأدب ومشاركة في فتونه . فقد كان بين ملوك آل بويه وغيرهم من ملوك الأوطان الطارئة أدباء وشعراء . وقد نترقى في الحكم فندعى أن الشعر والأدب كانا في القرن الرابع أقوى منهما في صدر الدولة العباسية ، ونزعم أن الشعر تم نضجه وبلغ أشده واستوى على سوقه في هذا القرن ، بعد أن هضم الثقافات الأجنبية ، وبعد أن نشأت في المدينة الجديدة من رجاله أجيال . وإن عصرًا يزهى بابن الرومى وأبى تمام والبحترى والمتنبى والشريف والمعرى لعصر جدير بالزهو والاختيال .

أحسّ الشعراء في هذه الملاوة بقوتهم ، واعتزوا بفنهم ، فلم يتطلّعوا إلى معارضة من سبقهم من المجيدين ، إلا ما نلتمع من ومضات هنا وهناك بين الحين والحين . فأغلب الظن أن بائية أبى تمام التى أولها :

لحن عوادى يوسف وصواحيبه
فمهلاً فقدماً أدرك النجح طالبيه

إنما هى معارضة لبائية يشار التى يصف فيها الجيش بقوله :

وجيش كجَنح الليل يزحف بالحصى
وبالشوك والخطيئ حُـمـرُ ثعالبه
مشينا له والشمس في خِـذْرِ أمّها
تطالعنا والطلّ لم يَجـرِ ذائبه

كما أنه بما لا يقبل الشك أن القسطلّى كان في رأيته يعارض رائية أبى نواس التى أولها :

أجارة بيتينا أبوك غيـورُ
وميسورُ ما يرجى لسديك عسير

ولا يتسع فراغنا الآن لتشتم قصائد هذا العصر واستخراج ما ينظر منها إلى معارضة ما سبقها من قصائد، فلنترك من ذلك باباً مفتوحاً لبحث الباحثين .

وقد جدّ في هذا العصر نوع من المعارضة جديد هو معارضة التلميذ أستاذه، ليبلو نفسه في السير على جادته، ومقاربة خطوه، كما كانت الحال بين مهيار وأستاذه الشريف، فإن نفس مهيار كانت تدفع به أحياناً إلى الجرى مع الشريف في طلق، وإلى ترسم مذهبه القرشي الصميم . ويمكن أن تسمى هذه المعارضة بالمعارضة الرسمية .

وإني لأجد ريع المعارضة في بائية أبي فراس لقصيدة المتنبي التي قالها سنة تسع وأربعين وثلاثمائة والتي أولها :

متى كنّ لي أن الشباب خضاب فيخفى بتبييض القرون شباب

وقد بعث أبو فراس ببائيته من الأسر إلى سيف الدولة بعد سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة وأولها :

أما لجميل عندك ثواب ولا لمساء عندك متاب ؟

وبهذه القصيدة آيات يقرب لفظها وبعض معانيها قليلاً أو كثيراً من قصيدة المتنبي مثل قوله :

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهنّ ثياب

وقوله :

إلى الله أشكو أننا بمنازل تحكم في آسادهنّ كلاب

وقوله :

ومازلت أرضي بالقليل حبة لديه ، وما دون الكثير حجاب

كذاك الوداد المحض لا يُرتجى له ثواب ولا يُخشى عليه عقاب

وقوله :

فكيف وفيما بيننا ملأ قبصر وللبحر حولى زخيرة وعباب

أما قوله :

إذا صبح منك الودّ فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

فهو بعينه بيت المتنبي :

إذا نلت منك الودّ فالمال هين وكل الذي فوق التراب تراب

ويبرز في هذا العصر ضرب من المعارضة عنيف يصح أن ندعوه بمعارضة التحدى . وأظهر ما يطالعنا من هذا النوع ما حدث بين بديع الزمان الهمداني وأبى بكر الخوارزمي . وكان البديع شاباً أشراً أظغته العبقرية، وأبطره النبوغ، فما ترك لأديب أديباً صحيحاً، وما علم بكاتب نال منزلة من الشهرة

إلا تعرض له والسوط في يده يضرب به درأكا. وكان فتى دانت له اللغة، وذلل شمسوها، فتصرف فيها كما يتصرف الطفل العاثر المدلل بلعبه وأهواته.

وقصته مع الخوارزمي مشهورة طويلة الذيل، فقد ورد نيسابور وأبو بكر بها في ذلك الحين العلم المفرد، والفارس المجلى، فكتب إليه البديع يتطلب زيارته فلم يحسن أبو بكر لقاءه، فرماه البديع بوابل من العتاب المر والكلم الممض، ثم دعاه متحدثا للمساجلة في الشعر وسرعة البديهة في مجلس يجمع كبار رجال الأدب، فحضر أبو بكر مرغما، ثم انطلقا في المصاولة في أبواب من الشعر والنثر واللغة، كان فيها الغلب للبديع. ويكفي أن نقول من هذه المباحة طرقا قصيرا يتبين منه القارئ ما كان يتسلط عليها من روح خبيث، وحقد متأجج، قال البديع:

« واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبي الطيب المتنبي:

أرق على أرق ومثل يــــأرق وجوى يزىد وعبرة تترق

وابتدر أبو بكر إلى الإجازة فقال:

وإذا ابتدعت بديهة ياسيدى فأراك عند بديتهى تتلقى
وإذا قرضت الشعر في ميدانه لاشك أنك يا أخى تشفق
إنى إذا قلت البديهة قلتهما حجابا وطبعك عند طبعى يرق
مالي أراك ولست مثل عندها متموها بالثرهات تمخرق ؟

ثم وقف يعتذر ويقول: إن هذا كما يحىء لا كما يجب. فقلت: قبل الله عذرك، لكنى أراك بين قواف مكروهة، وقافات خشنة، كل قاف كجبل قاف، منها: تتلقى وتشفق وتمخرق. فخذ الآن جزءا عن قرضك، وأداء لقرضك، وقلت:

مهلا أبا بكر فزنتك أضيق فاحرس، فإن أخاك حى يرزق
وانظر لأشنع ما أقول وأدعى ألسه إلى أعراضكم متسلق ؟
يا أحمقا ! وكفاك ذلك خزينة جرئت نار مخرق هل تحرق ؟

فلما أصابه حر الكلام، قطع علينا فقال: « يا أحمقا » لا يجوز فإن « أحمق » لا ينصرف. فقلنا: يا هذا لا تقطع، فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب، فليس بظرف ظرف. ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلا إليك. وأما « أحمق » فلا يزال يصفعك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه ! .

وهكذا ينطلقان في سباب وإقذاع بشعر ردىء وأدب ويىء. ولم يدعنا إلى ذكر نبذ من هذه القصة إلا شهرتها، ولما لها من صلة بهذا الحديث.

ومن المعارضة أن تعرض على الشاعر بيت أو أبيات ليقول من بحرهما ورويا. وقد كثر هذا النوع في هذا العصر واتخذة الأمراء ذريعة لاستجداء المديح حينما يبطىء عليهم الشعراء.

رووا أن الصاحب بن عباد لما حصل في وقعة جرجان على الفيل الذي كان بعسكر خراسان أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه على وزن قصيدة عمرو بن معديكرب التي أولها :

أعددتُ للعدوّان ساءاً بغيةً وعداءً علّنيّ

فقال عبد الصمد بن بابك :

قسماً لقد نشر الحياء بمنالك العلمين بُرداً

وقال أبو الحسن الجوهري :

قل للوزير وقد تبدّى يستعرض الكرم المقدّ

وقال أبو محمد الخازن :

حازوا سموّة ديار سُغديّ ورعوا جناب العيش رغداً

وكان سيف الدولة كلما ماطله المتنبي وتلكأ في مديحه أرسل إليه أبياتاً ليجيزها تصيداً للمديح .

بعث إليه مرة بأبيات لسهل بن محمد الكاتب منها :

يالائمي كفّ الملام عن السدي أضناه طول سقامه وشقائه

إن كنت ناصحه فداو سقامه وأعنه ملتصاً لأمر شقائه

فأجاب المتنبي بقصيدة أولها :

القلب أعلم ياعذلّ بدائه وأحقّ منك بجفنه وبمائه

ولكن المتنبي اللثيم أضاع اثني عشر بيتاً في الغزل ، وتصدق على ممدوحه ستة أبيات ليس غير ،

لذلك استزاده سيف الدولة ، فكان من أروع ما قال في المديح :

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسائه

الشمس من حسّاده ، والنصر من قرنائه ، والسيف من أسائه

وأرسل له مرة بيتين للعباس بن الأحنف ، وطلب إليه أن يجيزهما وهما :

أمتي تخاف انتشار الحديث وحظي في ستره أوفر ؟

ولو لم أضنه لبقياً عليك نظرت لنفسي كما تنظر

فقال أبو الطيب :

رضاك رضاي الذي أوتر وسرك سري فما أظهر ؟

كفتك المروءة ما تتقي وآمنك السوء ما تحذر

وسركم في الحشا ميت وإذا نشر السر لا ينشر

كأنني عصت مقلتي فيكم وكأنت القلب ما تبصر

وإفشاء ما أنا مستودع
دواليك ياسيفها دولة
أتانى رسولك مستعجلاً
ولو كان يوم وغى قائماً
فلا غفل الدهر عن أهله
من الغدر ، والحر لا يغدر
وأمرك ياخير من يأمر
فلبّاه شعري الذى أذخر
للّباه سيفى والأشقر
فإنك عين بها ينظر

وكانى بسيف الدولة يتحرق غيظاً لأنه لم ينل من شاعره الضنين كل ما كان يريد من المديح .
ومن ضروب المعارضة في هذا العصر أن يدعو الأمير الشعراء إلى القول في موضوع بذاته وتسمى
هذه بالمعارضة الموضوعية ، ولا يشترط فيها اتحاد البحر والقافية .

مات برذون كان أهدها الصباح بن عباد إلى أبى عيسى المنجم ، فأوعز إلى ندمائه وشعراء حضرته
أن يرثوه ويعزوا أبا عيسى فيه . فقال أبو القاسم الزعفراني قصيدة طويلة أولها :

كن مدى الدهر في جمى النعماء
وبدا عبد العزيز الجرجاني قصيدته بقوله :
جل والله ما دهاك وعزاً
وقال أبو القاسم بن أبى العلاء قصيدة أولها :

عزاء وإن كان المصاب جليلاً
وصبراً وإن لم يُغن عنك فتىلاً

وزاد ما قيل في هذا البرذون العزيز على عشر قصائد ، كلها من جيد الشعر ورائعه .

ومن المعارضات التى نبتت ثم كثرت في هذا العهد التراسل بالشعر ؛ بأن يبعث الشاعر إلى صديق
له أبياتاً فيجيبه عنها بأبيات من بحرهما وقافيتها .

كتب أبو إسحق الصابئي إلى أبى الحسن النقيب الموسوى يشكو زمانه ، وأنه أصبح يحمل في محفة
في قصيدة طويلة منها :

إذا ما تعدت بى وسارت محفة
وما كنت من قُرسائها غير أنها
فأجابه أبو الحسن بقصيدة أولها :

ظمائي إلى من لو أراد سقائي
ومنها :

إذا أقدمت النائبات فطالما
وإن هدمت منك الخطوب بمرها
مآثر تبقى ما رأى الشمس ناظر
سرى موقراً من فضلك الملكوان
فتم لساناً للمناقب بان
وما سمعت من سامع أذنان

ويجدر بنا بعد أن ألمنا بصنوف المعارضة في هذا العصر ألا نغفل ضرباً خفياً قد يسمى بالمعارضة
التشبيهية، وهو أن يتبع الشاعر سبيل من سبقه في معالجته غرض من أغراض الشعر ليقوقه فيه، ويفلج
عليه، ولا يشترط في هذا النوع أيضاً اتحاد البحر والقافية. ومن ذلك ما ساقه الموصلي في «المثل السائر»
من توارد البحترى وأبي الطيب المتنبي على وصف الأسد في قصيدة البحترى التي أولها:

أجَدَّكَ ما ينفك يسرى لزينا خيالٌ إذا أب الظلام تأوَّيا

وقصيدة المتنبي التي أولها:

في الخلد إن عزم الخليطُ رجلاً مطرٌ تزيد به الحدودُ محولاً

ومن أعجب العجب ما زعمه هذا الموصلي من أن البحترى جرى في وصف الأسد على سنن بشر
ابن عوانة، وأنه استرق كثيراً من معانيه في قصيدته التي أولها:

أفأطمُّ لو شهدت بطن خَبَّت وقد لاقى الهزيرُ أخاك بشراً

وهذه قاصمة الظهر، وعوراء الأبد، فقد ظن الموصلي أن بشر بن عوانة شاعر جاهلي، ولم يكن في
الواقع إلا شاعراً خيالياً خلقه بديع الزمان في مقامته البشرية. والقصيدة كلها من كلام البديع، وبديع
الزمان نفسه هذا الذي استرق معاني البحترى وبعض ألفاظه.

ولنا إن شاء الله عودة نتناول فيها المعارضات فيما تلا من عصور.

الخير فثلثهم أشعارهم(*)

١. دليل الشعر والشعراء

اتسع صدر الناس للشعر، ونظروا إليه نظرهم إلى الطفل المدلل، فابتسموا له كلما أساء، واستهانوا بسخره وإن آدمى، وضحكوا مع الضاحكين إذا تندر بهم أو جعل منهم سخرية للهو والفكاهة. وكأنما كانت محابة الفنون ومجاملتها غريزة من غرائز الفطرة، فقد اجتمعت الأمم عامة على غض الطرف عن الشاعر، وإرخاء العنان له، وترك منه يهيم به حيث شاء في أودية الخيال والتصوير، دون أن يقف في طريقه حائل؛ لأن الشعر يخلق لهم دنيا جديدة يستريحون في ظلها كلما قست عليهم رمضاء الحياة، ويفتح لهم من الخيال أبواباً كلما سدت في وجوههم أبواب الحياة، ويصور لهم أحلاماً ضاحكة كلما عبست لهم حقائق الحياة، فهم يحرصون دائماً على أن يرف الشعر طليقاً في جوه الروحي العجيب، دون أن تنتزع من جناحه ريشة تعوقه عن الطيران، أو ينصب له فخ يسكت صوته الصداح، ويقضى على تلك النغمات الفردوسية التي هي نفحة من عالم الروح، وصلية بين الأرض والسماء.

وكان كل نفس تحس بهاجس يحوم حولها ويهمس: ماذا نعمل لو عشنا يوماً واحداً من غير شعر؟ إن هذه الحياة بأرزائها وثقل أغلالها لا تحتل لحظة واحدة، ولابد من الفرار منها بشيء يحط عنا هذه الأرزاء، ويفك هاتيك الأغلال. أليس الأمل شعراً؟ أليس الأمل بارقاً وضاء يلمع في حواشي سحب الحياة القائمة؟ أليس الأمل صيحة شعرية تذود عنا ذئاب الفكر القاتلة، وصولة الحقائق الجامدة؟ أليس الأمل اليد السحرية التي تمسح عناء المكدود، وتخفف دمة الحزين؟ الأمل شعر والشعر أمل،

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثاني ص ٥٢٧ عام ١٩٤٦.

وهما مصباحا الحياة إذا انطفأ عاش الكون في ظلمة دامسة . إن الطفل الباكي يهدأ للترنيم ، والبائس الشاكي يستريح للغناء ، والإبل الناصبة تنسى نصبها بالخداء .

وكان الشعر حبيبا إلى قلوب النساء ، على شرط أن يصف بحق أو بغير حق ما هن من رشاقة وجمال . فما رأت فتاة عربية من بأس في أن يكشف شعر عن محاسنها في القبائل ، أو يصور شاعر حولها قصة خيالية لم تطل برأسها إلى الوجود . ولو أن حديثا غير الشعر خاض في هذه المجالات لاشتعلت الفتنة وسلت سيوف من أغماها . وأخبار تعرض حسان مكة لعمر بن أبي ربيعة في أيام الحج ، لكى يقول فيهن شيئا ، سائرة مشهورة ليس الحديث فيها إلا معادا . ولو صدق ابن أبي ربيعة حين يقول :

قالت لها أختها تعاتبها	لُتْسِدِنَ الطَّوَّافَ في عمر
قومي تَصَدِّي له ليصبرنا	ثم اغمز به بأخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى	ثم اسبطرت تشدُّ في أثرى

ولو صدق في هذا لعددنا غانيات مكة أبرع في الإغراء وألعب بالباب الرجال من فانات العصر الحديث !

ودلت اللغة العربية نفسها الشعر ، فأجازت فيه ما لم تجزه في غيره : أجازت فيه مد المقصور وقصر الممدود ، وتنوين ما لا ينصرف ، ومنع صرف ما ينصرف ، وتسكين المتحرك من الأبنية ، وتحريك الساكن ، إلى غير ذلك من منادح الشعراء .

ودلل الملوك الشعر ، فأباحوا للشاعر وحده أن يخاطبهم مخاطبة الند ، وأن يناديهم بأسمائهم عارية من ألقاب التمجيد والتعظيم ، وأن يجزى عليهم بالتقد والخوض في شئون الدولة صراحة وجهارة ، واستساغوا من الشاعر صورا لا يستسيغونها من الناثر ، ولم يجدوا في أنفسهم حرجا من أن يستمعوا إلى شاعر غزل يتجاوز حد الغزل العفيف ، أو شاعر يقذف بالفاظ يتوارى منها وجه الحياء ، أو شاعر معريد يصف الخمر ومجلسها ونشوتها ، ثم يقول للخليفة بعد أن لعبت برأسه سورتها :

خَرَجْتُ أَجْرُ الدِّلِّ تَيْهَا كَأَنِّي عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ

وقد جرؤ النابغة الذبياني على وصف المتجردة وصفا يندى له جبين الأدب ، ولم يبال بها للنعمان بن المنذر ملك العرب من حول وصول . وهجا كعب بن زهير رسول الله ﷺ فغضب وأهدر دمه ولو تعلق بأستار الكعبة ، ولكنه حينما جاء معتذرا متوسلا بالشعر عفا عنه وخلع عليه برده . وقد كان شيء من غزل كعب في قصيدته غزلا مكشوقا سافرا ، فهو يقول في وصف حبيبته :

هَيْفَاءَ مَقْبَلَةً ، عَجْزَاءَ مَدْبَرَةً لَا يُشْتَكَى قَصْرٌ مِنْهَا وَلَا طَوْلُ

ولكنه كان يتحصن بامتياز الفن فلم يتجه إليه ملام .

وحبس ابن الخطاب - وكان صارماً في الحق - الحطينة . بعد أن ولغ في أعراض المسلمين ، غير أنه لم يلبث أن أطلقه حينما بعث إليه بأبيات من الشعر هزت أريجته وأطفأت نار غضبه .

ولمعاوية - حليم العرب وأكبر ساستها - الكثير من الأخبار في هذه البابة . قالوا : إن عقبة الأزدى بعث إليه يوماً برقعة كان فيها :

معاويُّ إننا بشرٌ فأسجج	فلنسنا بالجبال ولا الحديد
نزلتم أرضنا فجردتموها	فهل من قائم أو من حصيد ؟
فهبنا أمةً هلكت ضياعاً	يزيدُ أميرها وأبو يزيد

فدعا به معاوية وقال له : ما جراك على ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك . فاطرق معاوية طويلاً ثم قال : ما أظنك إلا صادقاً . ثم قضى له حاجته . وروى الرواة أن عبد الرحمن بن حسان كان يتغزل في عاتكة بنت معاوية ، وقال فيها قصيدته النونية التي ذاعت في الآفاق والتي أولها :

صاح حيّا الإله أهلاً وداراً عند أصل القناة من جثرون

فدخل يزيد على معاوية مغضباً وهو يقول : أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان في ابتك ؟ قال : وما الذي قال ؟ قال : إنه يقول :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوِّ اص مبرزت من جوهر مكنون

فقال معاوية : صدق . فقال يزيد : ويقول :

وإذا ما نسبتهما لم تجدهما في سناء من المكارم دون

فقال معاوية : صدق أيضاً . فقال يزيد : ويقول :

ثم خاصرته إلى القبة الخضراء تمشي في مَرْمَرٍ مسنون

فلم يزد معاوية على أن قال : كذب . وانتهى الأمر عند هذه الكلمة !

وروى الرواة أن إبراهيم بن المهدي حينما سقطت عنه الخلافة واستخفى من المأمون ، هجاه دعبل الخزاعي ، فدخل إبراهيم على المأمون فشكا إليه حاله وقال : يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه فضلك في نفسك على ، وأهلك الألفة والعفو عني ، والنسب بيننا واحد ، وقد هجاني دعبل فانقم لي منه . فقال المأمون وماذا قال ؟ لعلك تقصد قوله :

نعر ابن شَكَلَة بالمراق وأهليه	فهفا إليه كلُّ أطلَسٍ مائقي
إن كان إبراهيم مضطلماً بها	فلتصلحن من بعده لمُخَارِق
أتى يكون وليس ذاك بكائن	يرث الخلافة فاسقٌ عن فاسق !

فقال : هذا من بعض هجائه ، وقد هجاني بما هو أقبح من هذا . فقال المأمون : لك أسوة بي ، فقد هجاني واحتملته حين قال في :

أَوْ مَا رَأَى بِالْأَمْسِ رَأْسَ عَمَدٍ؟
قَتَلْتَ أَخَاكَ وَشَرَقْتَكَ بِمَقْعَدِ
وَاسْتَقْدَوَكَ مِنَ الْخَضِيضِ الْأَوْهَدِ

أَيْسَوْنِي الْمَأْمُونُ خُطَّةً جَاهِلٍ
إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ
شَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طَوْلِ خَمُولِهِ

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : زَادَكَ اللَّهُ حِلْمًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !

ودعبل هذا شاعر هجاء بذيء اللسان مولع بالخط من أقدار الناس، وقد هجأ الخلفاء فمن
دونهم، وطال عمره ؛ وكان يقول : لى خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفى ، أدور بها على من يصلبني
عليها، فما أجد من يفعل . ودعبل فى هذه الدعوى كاذب نفاج ، فإنه كان شديد الخوف والحذر من
يهجوهم، وكان لا يجد له منجاة منهم إلا بالفرار فى أقطار الأرض ، فإنه لما هجأ المعتصم طلبه فى كل
مكان، ففر منه إلى مصر ونزل بأسوان وقال :

بِأَسْوَانَ لَمْ يَتْرَكَ مِنَ الْحَزْمِ مَعْلَمًا
وَيَعِجْزُ عَنْهُ الطَّيْفُ أَنْ يَتَجَسَّسًا

وإنَّ امرأً أضحت مطارحُ سهمه
حللت محلًّا يقصُر الطرفُ دونه

وهذا المعنى من أروع المعانى وأبدعها .

واشتهر المتنبي بالثبته على ممدوحيه ، والإدلال عليهم ، ومخاطبتهم مخاطبة النظير ، والتهجم فى شعره
على ما لا يحسن الحديث فيه . فقد هدد سيف الدولة بالرحيل عنه تلويحًا فى قوله :

ولا تعطينَّ الناسَ ما أنا قائل

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك

ثم تصرّحًا فى قوله :

لَيْخُذُنَّ لِمَنْ وَدَعْتِهِمْ نَدَمٌ

لئن تركن ضميئًا عن ميامنا

ثم تدلل عليه تدلل الأخ على أخيه فى آخر بيت من هذه القصيدة :

قد ضُمنَ الدُّرُّ إلَّا أَنَّهُ كَلِمٌ

هذا عتابك إلَّا أَنَّهُ مِقَّةٌ

لو أن شاعرًا كتب إلى صديق له يعاتبه ما تجاوز ما كتب به المتنبي إلى سيف الدولة وقد بعث إليه

كتابًا يدعوه إلى حلب :

وإنَّ الوشَاياتَ طُرُقُ الْكَذِبِ
وتقرِيبيهم بيننا والحبِّبِ
وينصرنى قلبُهم والحسبِ

وما عاقنى غيرُ قولِ الوشاةِ
وتكثيرُ قَـلـومِ وتقليلُهم
وقد كان ينصرهم سمُّه

ولم أرَ شاعرًا قبله يرى أم ملك فيقول :

على الوجهِ المكفَّنِ بالجمال

صلاةُ اللهِ خالقِنَا خنوطُ

أو أخت ملك فيقول :

يعلّمن حين تحبّا حسنَ مبسمها وليس يعلم إلا الله بالشنب

وانتهى تدلل المتنبي واعتزازه بشعره بعد أن بلغ منزلة من الشهرة إلى أنه كان يأبى أن يمدح غير الأمراء، حتى إنه لم يقبل أن يمدح أبا القاسم طاهراً العلوى إلا بعد رجاء الأمير الحسن بن طنج وطول إلحاحه. ويتحدث أبو على الكاتب فيقول: كنت حاضراً هذا المجلس فما رأيت ولا سمعت في خبر أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب، فإني رأيت طاهراً تلقاه وأجلسه في مجلسه وجلس بين يديه وهو ينشد قصيدته التي أولها:

أعيدوا صباحي فهو عند الكواكب وردّوا رقادى فهو لحظ الحبايب

والكلام في المتنبي من هذه الناحية يطول بما لا تحمله هذه العجالة.

وحينما زج الشعر بنفسه في ميدان السياسة فسد كما يفسد كل شيء، واتخذ الخلفاء والملوك ذريعة لإعلاء شأنهم ونكاية أعدائهم، حتى أصبح عدة الدول وجيشاً يساير جيوشها، وأداة لإذاعة مآثرها، وبقوة للدعاية لها، وجمع القلوب حولها. وقد غالى كثير من الملوك في دفع هذه الدعاية إلى أبعد مداها، فتملقوا الشعراء واستجدوا مديحهم، وأغروهم بالمال والمناصب، وتجاوزوا عن آثامهم.

فشاعر القصر في عهد عبد الملك بن مروان كان الأخطل. وكان المنصور العباسي على صرامته وتشدده في الدين يُغضى عن عريضة ابن هرمة وإدمانه، حتى إنه وقد أراد أن يرى نفسه أمام نفسه من تغاضيه عن مجاهرة الشاعر بشرب الخمر، أمر رئيس شرطته أن يقيم حد الخمر على ابن هرمة إذا جرى به إليه سكران، على شرط أن يضرب الذي يحضره مائة جلدة. فكان ابن هرمة يترنح في طرق بغداد فلا يتقدم أحد لأخذه إلى رئيس الشرطة، وكان يصبح متحدثاً والخمر تعبت بلسانه: أيها المسلمون: من منكم يشتري ثمانين بهاة!

وتأخر أبو دلالة الشاعر أياماً عن باب المنصور، فلما حضر أمر بالزامة القصر والزامه الصلاة في مسجده، ووكّل به من يراقبه، فمر به يوماً أبو أيوب وزير المنصور فإذا أبو دلالة يدفع إليه برقعة مختومة ويقول: هذه ظلامة لأمر المؤمنين فأوصلها إليه فلما فتحها المنصور قرأ فيها:

ألم تعلموا أن الخليفة لزنّى	بمسجده والقصر ما لى وللقصر ؟
أصلّى به الأولى مع العصر دائماً	فويل من الأولى وويل من العصر !
ووالله ما لى نية في صلاحهم	ولا البر والإحسان والخير من أمرى
وما ضرّه والله يُصلح شأنه	لو أنّ ذنوب العالمين على ظهري ؟!

فضحك المنصور طويلاً ثم أحضره وقال: ما قصتك؟ قال: دفعت إلى أبي أيوب رقعة مختومة أسأل فيها إعفائي من لزوم ما أمرتني بلزومه. فقال له المنصور: اقرأها. قال: ما أحسن أن أقرأ. وقد علم أنه إن قرأها حده الخليفة حد تارك الصلاة. فلما رآه تنصل من ذلك قال: أحببت لو كنت أقررت

لأضربك الحد. ثم قال: أعفيتك من لزوم المسجد، فقال أبو دلالة: أو كنت ضارياً يا أمير المؤمنين لو أقررت؟ قال: نعم. قال: مع قول الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٦] فضحك المنصور ووصله.

والقصة كما هي موضوعة ظاهرة الوضع، ولكنها تصور حقيقة لا نزاع فيها هي أن الملوك كانوا يصانعون الشعراء ويحاملونهم بحاملة لا يظفر بمثلها سواهم.

وقد بلغ من استظهار بنى العباس بالشعر واتخاذهم قوة متممة للملكهم أن أبا العتاهية الشاعر في إحدى لحظات نسكه طاف به طائف من الزهد، فعقد العزيمة على أن لا يقول الشعر. فلما علم الخليفة المهدي بها اعتزمه أمر بحبسه، فحبس في سجن الجرائم مع حاضر صاحب عيسى بن زيد. فلما طال حبسه أحضرهما المهدي، فسأل صاحب عيسى: أين عيسى بن زيد؟ فقال: ما يدريني أين عيسى بن زيد؟ تطلبته فهرب منك في البلاد، وحسنتي فمن أين لي أن أقف على خبره؟ قال له: أين كان متوارياً؟ ومتى كان آخر عهدك به؟ وعند من لقيته؟ قال: ما لقيته منذ توارى، ولا عرفت له خبراً. قال: والله لتدللن عليه أو لأضربن عنقك الساعة. قال: اصنع ما بدا لك، فوالله ما أدلك على ابن رسول الله، وألقى الله تعالى ورسوله بدمه! ولو كان بين ثوبى وجلدى ما كشفت لك عنه. قال: اضربوا عنقه، فضربت عنقه وأبو العتاهية واقف يرتعد فرقاً، فلما دعى قال له المهدي: أتقول الشعر أم ألحقك به؟ قال: بل أقول الشعر والله يا أمير المؤمنين!!

وكان كبار الشعراء في الأندلس يحددون للقصيد ثمناً لا يحظى بها ملك بأقل منه: حكوا أن المعتمد بن عباد ألح على أبي على العبدري أن يمدحه. فما كان من العبدري إلا أن أجابه في كبر واعتزاز قائلاً: إن أشعاري مشهورة، وبنات صدري كريمة، فمن أراد أن ينالها فعليه أن يعرف مهرها. وكانت جائزة قصيدته لا تقل عن مائة دينار.

وبلغ من إعزاز ملوك الطوائف للشعراء أنهم كانوا يتجاوزون عن هجائهم، ويقابلون سلطتهم بالإعطاء والإغداق. كان النحلي الشاعر من صنائع المعتصم بن معن بن صبادح، فلما سار إلى إشبيلية مدح المعتضد بن عباد بقصيدة قال فيها:

أبـاد ابن عبـاد البربر
وأفنى ابن معن دجاج القرى

ثم مر زمن نسي فيه النحلي ما قال، وذهب إلى المري حاضرة ملك المعتصم، فدعاه إلى منادته وأعد للعشاء موافد ليس فيها إلا الدجاج، فقال النحلي: يامولانا، أما عندكم بالمريّة غير الدجاج؟ فقال المعتصم: إنما أردنا أن نكذبك في قولك: «وأفنى ابن معن دجاج القرى» فإن الدجاج لا يزال عندنا والحمد لله كثيراً، فطار لب النحلي وطفق يعتذر ويعتذر، ولكن المعتصم أسرع إلى تهدئة روعه ووصله بأكرم صلة.

قلنا : إن الشعر فسد لأنه زج نفسه في ميدان السياسة ، فاندفع الشعراء في هذا الميدان ، وزهاهم أن يتزاحم الأمراء على أبوابهم ، ولم يعلموا أن السياسة سلاح ذو حدين ، وأن الأمراء الذين ييسمون لهم اليوم قد يعبسون غداً ، وأن الفن إذا بيع بالمال ودفع به في سوق المساومات ارتفع حيناً وكسد أحياناً ، وأن الشاعر الذي يبيع نفسه لسواه يدخل في رقه ، ويتعرض حيناً لرضاه وحيناً لسخطه ، وأن الذي يجعل من نفسه وضميره وفنه أداة لإعلاء قوم والخط من آخرين لا يفتأ أن وجد الحياة وطبيها عند هؤلاء ، أن يجد الموت وأهواله عند أولئك .

وذلك ما سنبسط الكلام فيه في حديث آخر إن شاء الله .

الذين فذلهم أشعارهم (*)

٢. ابن العشرين

أنخيل طرفة بن العبد شاباً ريان الشباب، ناضر العود، عربي الوجه والسمات متين البناء فارحاً. وأنخيله وقد أرسل شعره جشلاً أثيثاً، فانساب خلف عنقه خصللاً سوداً كأنها قطع الليل البهيم. ويصوره لي الروم وقد أطبق أجفانه في وجوم وذحول، كأنه ينظر إلى عالم آخر فيه استهواء وإغراء وفتنة، وفيه حياة هائلة بين ظل وماء ونسيم رفاف وجنة ونعيم، حتى إذا فتح عينيه أرسلهما سابحتين في مضطرب من الخيال تجاوز به حدود الصحراء وانطلق محلقاً في السماء.

وكلماً ذكرت هذا الشاعر أو مر بي طائف من سيرته، تجلت لي العبقرية الوشابة، وقد ضاقت بها ساحة العمر، وضنت عليها الحياة بالبقاء، فأخذت تملأ بأثارها أرجاء الحياة، وتتحدى حصار السنين. فترسل من خلال قضبانها آيات بينات تزاخم الخلود، وتصارع الآباد. قال ابن العبد كثيراً، وأنتج كثيراً، وكأنه أحس بأن العمر لن يتنفس له طويلاً فعاجل الموت، ونطق بالشعر صبيها. فقد قيل إنه خرج يوماً مع عمه وهو صغير فنصب فخاً لصيد الطير، فلما هم بالرحيل رفع الفخ وقال:

يالك من قبرة بمعمّر
ونقري ما شئت أن تنقري
خسلا لك الجو فيبضى واصفري
قد رفع الفخ فإذا تحذري ؟
لابد يوماً أن تصادي فاحذري

وكان الرواة أرادوا أن يكرموا بعد موته، أو عز عليهم أن تقطع الطريق على هذه العبقرية قبل اكتمالها فانتحلوا له كثيراً من الشعر؛ ولكن الأديب البصير بمعادن الكلام يستطيع أن يشم ريح طرفة في كل بيت يعرض عليه.

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثالث ص ٧٠٠ عام ١٩٤٦.

نشأ طرفة في أسرة كريمة الحسب من ذؤابة بكر بن وائل ، ومات أبوه صغيراً فكفلته أمه «وردة» ؛ ولحمت فيه عشيرته خيال النبوغ فدللته ، وبذلت له المال في سخاء وإغداق . ورأت أمه فيه كثيراً من صفات أبيه وسجاياه فشغفت به حبا ، وبذلت له كل رغبة وأغضت عن كل هفوة ، حتى نشأ طفلاً بطراً متحكماً ، يقول ما يشاء ويفعل ما يريد . وترك اليتيم في نفسه عقدة نفسية دفعته إلى السخط على العظماء والأغنياء ، والثورة على نظم الحياة وأساليبها ، والعطف على الصعاليك و « بنى غبراء » . وزادت تلك العقدة إحكاماً حينما منع أعمامه أمه من مال أبيه ؛ فقال وهو طفل :

صغر البنون ورهط «وردة» غيب	ما تنظرون بحق «وردة» فيكم
حتى تظلّ له الدماء تصب	قد يبعث الأمر العظيم صغيرة
إن الكريم إذا يجرب يغضب	أدوا الحقوق تفر لكم أعراضكم

وكانت شاعرية طرفة صدى لنوازع قوية تسيطر على نفسه ، وسيلا هداراً لأربعة يناييع تصطبخب في فؤاده : كان يتحكم فيه حب الحياة ، والميل إلى التمتع بكل ما فيها من لذائذ وعش ، كأن إحساساً روحياً أوحى إليه بأن حياته ستكون قصيرة الأمد ، فأخذ يتملأ من كل ما فيها من متع طولا وعرضاً وعمقاً ، ويسرح في تيهاء اللهو بين شباب القبيلة المترفين بعد أن أعدوا للمجون عدته من فراغ وشباب وجدة ، حتى إذا جارت به الطريق ، وأسرف في العبث خلعه بعض أهله . فهو يقول في معلقته :

وبيعى وإنفاقي طريفي ومتلدى	وما زال تشرابى الخمور ولذتى
وأفسدت أفراد البعير المقيّد	إلى أن تحامتنى العشيرة كلهـا
ولا أهل هذاك الطرف الممدد	رأيت بنى غبراء لا ينكسروننى
وأن أشهد اللذات هل أنت مغلدى؟	ألا أيهاذا الزاجرى أحضر الوضى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى	فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى

ويقول فيها :

تروح إلينا بين برد ومجسد	ندامى بيض كالنجوم وقينة
على رسلها مطروفة لم تشدد	إذا نحن قلنا أسمعنا انبرت لنا

وكان إذا صحا من نشواته ، وأفاق من صباباته ، اتجه إلى ينبوع آخر فوار هو ينبوع العقل والحكمة والتفكير في شؤون الكون وصروفه ، فقد كان على حدائشه خبيراً بالحياة ، عليماً بأسرار النفوس . فهو يقول :

إذا ذل مولى المرء فهو ذليل	وأعلم علماً ليس بالظن أنه
حصاة ، على صوراته لدليل	وأن لسان المرء ما لم تكن له

ويقول :

لا تكن كلباً على الناس يهر	خالط الناس بخلق واسع
----------------------------	----------------------

ويقول :

وعين الفتى تنبى بها في ضميره
ومن كابد الدنيا فقد زاد همه
وتعرفه باللحظ حين تناطقه
بذلته له ، فاعلم بأنى مفارقه
إذا المرء لم يبدل من السود مثلياً

أما الينبوع الثالث فهو الزهو بنفسه ، والإعجاب بمواهبه . فإنك ترى شعره فى هذه الناحية صورة صادقة لفتى غص الإهاب ، كريم المنبت ، لماع العبقريّة ، عرف قدر نفسه فحتم على الناس أن يزوّها بميزانه ، وأن ينظروا إليها بعينه . وزهاه أنه ولم يبلغ العشرين أصبح فى القبيلة فتاه المدلل وصوتها المجلل .

وأنى إلى مجد تليد وسورة
أبى أنزل الجبار عامل رجه
تكون ترائاً عند حى هالك
عن السرج حتى خر بين السنايك

ويقول فى معلقته :

فإن تبغى فى حلقة القوم تلقى
وإن يلتق الحى الجميع تلاقى
وإن تلمسنى فى الحوانيت تصطد
إلى ذروة البيت الشريف المصمد

ويقول :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى
ولقد تعلم بكر أننا
لا تبرى الآدب فىنا ينتقر
آفة الجزر مساميح يسر

ولكن ينبوعاً رابعاً كان أشدّ الينابيع غلياناً ، وأطغاه طغياناً ، ذلك هو الحقد على كل عظيم ، والثورة على كل نحام لئيم . وكأن طرفه كان يميل إلى ضرب من الاشتراكية ينال فيه الفقراء من الأغنياء ما يرد عنهم ألم الحاجة فهو يقول :

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد
ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد

ولم يمدح طرفه فيما نعلم إلا سعد بن مالك وقتادة بن سلمة ، لأنها كانتا جوادين يبذلان أموالهما فى السنين العجاف . ولكنه هجا غير قليل من سادة القبائل ، ورشق كثيراً من أبناء عمومته بالكلم الممض . هجا ابن عمه عبد عمرو بن بشر ، وكان من خاصة الملك عمرو بن هند ، فقال :

أيا عجباً من عبد عمرو وظلمه
ولا خير فيه غير أن له غنى
لقد رام ظلمى عبد عمرو فأنعم
وأن له كسحاً إذا قام أهضماً
له شربتان بالنهار ، وأربع
من الليل ، حتى صار سخداً مورماً

وهجا الملك عمرو بن هند أقذع الهجاء بأبيات منها :

فليت لنا مكان الملك عمرو
رغوثاً حول قبتنا نخشور

وهجا بنى المنذر عامة فأفحش وأساء .

وقد كان هذا الهجاء سبب قتله ، وهو فى سن العشرين ، أو فوقها قليلاً ، وقد خلط الرواة فى قصة مقتل طرفة واضطربوا ، وحاولوا أن يحسنوا الوضع فلم يحسنوا . زعموا أن طرفة بن العبد قدم مع خاله المتلمس إلى عمرو بن هند لمديحه واستجداء صلته ، فجعلها فى حاشية أخيه قابوس ، وكان قابوس شاباً ماجناً كثير اللهو ، يقضى يومه بين الصيد والشراب ، وكان يكلف طرفة والمتلمس الوقوف على بابه إذا جلس للخمر ، فضاق طرفة بالأمر ، ولم يحتمل هذه الذلة فهجا عمراً وقابوساً بالقصيدة التى منها :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئنا حول قبتنا نخور

وبعد أن أقاما قليلاً رحلا عن الحيرة ، ومر زمن نُسى فيه ما كان من هجائهما لعمرو ، واتفق أن خرج ابن هند مع بعض حاشيته للصيد وبينهم عبد عمرو بن بشر ابن عم طرفة فأصابوا طريدة فاشتروها ، وبينما كان عبد عمرو يأكل إذ بدا كشحه فقال له ابن هند : لقد أبصر طرفة حسن كشحك حين قال :

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضما

فغضب عبد عمرو وقال : لقد قال فى الملك ما هو أقيح وأشنع ، وأسمعه القصيدة التى هجاه بها فسكت عمرو وأسرها فى نفسه ، وانتوى أن يأخذ طرفة على غرة ، وكان المتلمس قد هجا الملك قبل ذلك . ومرت فترة من الزمن قدم بعدها طرفة والمتلمس على ابن هند لالتباس صلته ، فكتب لكل منهما كتاباً ليوصله إلى عامله بالبحرين وقال لهما : انطلقا إليه فاقبضا جوازكم . فخرجا فلما وردا « النجف » قال المتلمس لطرفة : إنك غلام غر ، والملك من عرفت حقه وغدره ، وكلانا قد هجاه ، فلست آمناً أن يكون قد أمر فينا بشر ، فهلم ننظر ما فى كتابينا ، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه ، وإن كان أمر بغير ذلك لم نهلك أنفسنا . فأبى طرفة أن يفض خاتم الملك ، وعدل المتلمس إلى غلام من غلمان الحيرة فأعطاه الصحيفة فقرأها وصاح : تكلمت المتلمس أمه ! فعلم المتلمس ما فيها ، وانتزع الصحيفة من الغلام وألقاها فى نهر الحيرة وقال لطرفة : إن ما فى صحيفةك مثل الذى فى صحيفةى فلنعمل بالفرار . فقال طرفة : إن كان اجترأ عليك فما كان ليجترأ على ! ففر المتلمس إلى الشام ، وذهب طرفة إلى عامل البحرين . فلما قرأ كتابه قال له : هل تعلم ما أمرت به فيك ؟ قال : نعم ، أمرت أن تجيزنى . فقال له العامل : إن بينى وبينك لخزولة ، فاهرب من ليلتك هذه فإننى قد أمرت بقتلك . فقال طرفة : اشتدت عليك جائزتى وأحببت أن أهرب وأجعل لابن هند على سبيلا . والله لا أفعل هذا أبداً . ولكن العامل تكرم عن قتله وكتب إلى ابن هند : أن ابعث إلى عملك غيرى فإننى غير قاتل الرجل . فعزله واستعمل رجلاً آخر يسمى عبد بن هند ، فلما قدم أمر بقتل طرفة فقتل .

وهذه الرواية بينة الوضع ، ظاهرة الكذب ، لأن ابن هند إذا كان يريد قتل الرجلين فقد كان من الهين عليه وهو الملك المطاع أن يأمر بقتلها وهما بحاضرة ملكه ، وإذا كان يخشى صولة قبيلتهما فإن سباً يدس في طعام ، أو رجلاً من رجاله يشب عليهما في غبش الظلام ، كفيل بأن ينيل الملك إرسته في غير جلبة أو صخب . ولم لم يمنحهما الملك جائزتهما من خزانته ، ويضطر إلى أن يبعث بهما إلى عامله بالبحرين ؟ إن أخط الناس إدراكاً - بله طرفة والمتلمس - لا يستطيع أن يصدق أن خزانة الملك تضيق بجائزة شاعرين ! وإذا أجزنا هذا فلم يعطى الملك كلا منهما رسالة ؟ وهل كانت رسالة واحدة لا تكفى لإبلاغ عامل البحرين إرادة الملك ؟ وهل من السائق في طرائق العقول أن يأبى طرفة فض كتابه بعد أن علم ما في صحيفة المتلمس من موت محقق ، وبعد أن نصح له المتلمس بالفرار ؟ وهل يصدق مأفون أن طرفة يأبى الفرار ، ويتهم العامل بما يتهم ، بعد أن قرأ له الرسالة وأعلمه بما فيها وحضه على الهرب ؟

يجب أن نرفض هذه الرواية من أولها إلى آخرها . وفي رأينا أن الذى يستسيغه العقل أن يكون عبد عمرو قد وشى للملك بأن طرفة والمتلمس يهجوانه ، فصبر الملك طويلاً ، وهو يضمّر لها الشر ، ثم بعث إلى كل منهما برسالة يدعوها فيها ويمنيه الأمانى . أما المتلمس وكان داهية مأكراً فحين بلغته الرسالة علم أنها مؤامرة لهلاكه فألقاها في مجرى ماء وقال :

وألقيتها بالثنى من جنب كافر كذلك يلقي كل قط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتهما يجول بها التيار في كل جدول

وأما طرفة فصديق ما في رسالته وذهب إلى عمرو بن هند فقتله ، بعد أن عرف أنه خدع ، وأن ابن عمه هو الذى أوغر عليه صدر الملك ، وفي ذلك يقول :

أسلمنى قوسى ولم يغضبوا لسواة حلت بهم فادحة
كل خليل كنت خاللته لا ترك الله لهم واضحة
كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة

هذا كل ما في الأمر . ولكن الرواة طغى بهم الخيال فأوقعهم في الخبال .

الذين هُتلهم أشعارهم(*)

٣. وصلح اليمن

امتزج فيه الدم الفارسي بالدم العربي العريق، فأبرزت صورة تأنق فيها الجمال، وأبدعت فيها يد القدرة ما شاءت أن تبدع. كان أبوه إسماعيل حميرًا، وكانت أمه فارسية النبعة، تعتز بكل ما في الفرس من جمال ساحر، ورشاقة فاتنة. ومات أبوه وهو لا يزال رضيعًا فكفلته أمه، وتزوجت رجلاً من أبناء الفرس، فشبَّ الغلام في ظلال حبهما قرير العين ناعماً مدللاً. وكثيراً ما كانت الهواجس تتوالت على الأم، وهي ترى ابنها يشب في فناء الدار عابثاً مرحاً، وقد تلالأ وجهه، وتفتحت عحاسنه كما تفتح أكمال الزهر لأشعة الصباح: إن عبد الرحمن زينة كل فناء، وملتقى إعجاب كل عين، وهو حقيق بأن تصونه في سويداء فؤادها، وأن تتحدى به نساء القبيلة، وأن تحرص عليه حرصها على نسمات الحياة. ولكن القدر يأبى أن يعطي كل شيء كاملاً. وهو لا يجود بالنعيم إلا لكي يملأ القلوب حزنًا على زوال النعيم، ولا ييسم إلا بمقدار ما يتألق البرق في الليلة المظلمة ليجر وراءه جيشًا من الرعود والصواعق.

تتهاد الأم الواهدة في ألم وحسرة، وتضرب بكف على كف فعل اليأس القنوط، حتى إذا سكنت عنها غشية الحزن، صاحت بعبد الرحمن فأقبل نحوها صخبًا ضحوكًا، فتمسح دموعه عرفت طريقها إلى جفنها بعد طول الاحتباس، ثم تميل برأسها على الغلام فتقبله في وله ولطفة وتهمس في أذنه والحزن 'اد يخنقها قائلة:

— أنحنى يا عبد الرحمن؟ فيشب الغلام على أصابع قدميه ليملاً خديها لثماً وتقبيلًا، ويصبح:

— ما هذا السؤال يا أمه؟ لقد ملته وضجرت به! إنني أحبك كما أحب نجم الصباح الخفاق،

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثالث ص ٨٤٠ عام ١٩٤٦.

وصمت الصحراء الهادئ، وظل السرحة في يوم قيظ. ولن يجد رأسى راحة إلا في أن يميل على ذلك الصدر الذى يموج بالرفق والحنان، فيستريح بعد كد، ويهدأ بعد اضطراب. إنى أحب الجمال وتفتننى الملاحة في كل شيء. أحب الجمال فيك يأماء، وأحبه في النخلة الفارعة وقد عبث بسعفها النسيم فهاست تيهًا واختيالًا، وأحبه في الأقحوانة الباسمة سقاها الندى فاهتزت كما يهتز الشارب الثمل، وأحبه في الشمس الغاربة وهى تأبى إلا أن تغوص في لجة من الذهب كما بزغت في لجة من الذهب، فتلتصق أمه وجهها بوجهه في شغف وتقول:

- شاعر ابنى ورب الأكاسرة ! فينحيتها عنه مترفًا ويقول:

- أتسمين الكلام شعرا ؟

- لا يابنى ! إن الشعر كلام حقًا، ولكن ليس كل كلام شعرا. ثم تنظر طويلاً في وجهه وتهمس:

- أتحب أن تفارقنى يا عبد الرحمن ؟

- أفارقك ؟ ! كيف يأماء ؟ إن غصن الدوحة إذا فارق أمه مات. وتحبب الأم بين الزفرات

والعبرات:

- إن أخشى ما أخشاه يا عبد الرحمن أن يطلبك أعمامك، وأن يغتصبوك منى. ولو فعلوا لذهبت حياتى معك. لقد قلت الآن: إن غصن الدوحة يموت إذا فارق أمه، ولكن الدوحة التى أنبتت فرعها سوف تموت ضربة لازب إذا انتزعوا منها فرعها، لأنه ينبثق من قلبها، وتتغلغل جذوره بين جوانحها. أعرقت كيف أخشى عليك يا عبد الرحمن، وكيف يزيد همى كلما زدت نمواً وجمالاً ؟

وبينما هما في الحديث إذ يدخل زوجها فتتطلق إليه باكية حزينة، تبته لواضع نفسها، وتكشف له عما يساورها من خوف وآلام. ولكن الرجل يطويها إلى صدره في حنو وإشفاق، ويهدئ نفسها القلقة الواجفة هامساً: انضحى عنك الخوف يافتناتى، فإن عبد الرحمن لم يكن ابن أحد غيرى. إنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منه منالاً؛ إنه فارسى لا عربى. ولن يكون للعرب فيه نصيب. إن كل شعرة في جسده تصبح بأنه فارسى الأرومة كسرى النسب. انظرى إلى عينيه، ثم إلى جبينه، ثم إلى أنفه، هل ترين فيه إلا ملامح الفرس وسباتهم ؟ لا ! إنه ليس من العرب، ولن يستطيع أعمامه أن يستلبوه من أيدينا، ولو أعانهم الخليفة الأموى. وتهادى الأم وتعود إلى وجهها الوسيم بشاشته ونضارته بعد أن عصفت بهما الأحزان.

ويتوثب القدر، ويضرب الدهر ضربته، وتزدحم الدار بعم عبد الرحمن وجدته لأبيه، ومعها جماعة من حير ومن آل قيغان ومن آل ذى جدن يطالبون بابنهم عبد الرحمن في شراسة وصخب. فيشتد الحزن بأمه، ويتملكها الهلع. وتحتضن الغلام في ذعر يشبه الجنون، وتأبى أن تسلمه إليهم،

ويصبح زوجها: إن هذا الغلام ابني، وهو فارسي، ولن أتركه لأحد منكم ولو لقيت الموت دونه. ويشيع الخبر في الحِلَّة فيسارع أبناء الفرس إلى نصره أخيه، وتدفع الحمية العرب إلى مظاهرة عم الغلام لاستنقاذه من أيدي أخواله الفرس ويتفاهم الشر، وتتأجج الفتنة، ويصبح الأمر نزاعاً على شرف الجنس بعد أن كان نزاعاً على غلام. ويقبل شيخ الحى فيشير بعرض الأمر على حاكم القبيلة، فتطمئن النفوس الثائرة إلى رأيه، ويرحل القوم ومعهم الغلام إلى الحاكم. ويتقدم إليه عم عبد الرحمن مدعياً أن الغلام عربى، وأنه ابن أخيه إسماعيل، وأن نسبه ينتهى إلى يعرب بن قحطان. وتؤيده البيئة، وتزكى قوله الشهود ويقبل زوج أمه فينكر أن يكون إسماعيل أبو الغلام من جد عربى، ويؤكد أن آباء الأولين كانوا من الفرس الذين قدموا لنصرة سيف بن ذى يزن على الحبشة. ثم يتجه إلى الحاكم قائلاً: « وإذا رجعت إلى نسبه أيها القاضى رأيت أنه عبد الرحمن بن عبد كلال بن داؤد، و « داؤد » اسم فارسى ما فى ذلك شك، فكيف يزعم هؤلاء أنه عربى خالص النسب ؟ » ولكن الحاكم يرد عليه بأن العرب قد تسمى أبناءها بأسماء العجم فقد سموا بأبرهة وهو اسم حبشى، وأن الأسماء علامات ودلالات لا توجب نسباً ولا تدفعه، وأن أحد أجداد الغلام يدعى بأبى جمد، وهى كنية يمانية، ولا يعلم أن أمة من الأمم تكتنى غير أمة العرب. ثم حكم بالغلام للحميريين، ويتجه إليه فيبهره جماله، فيمسح بيده على رأسه ويقول: « اذهب فأنت وضاح اليمن ».

ويخرج الحميريون من لدنه فرحين يتسابقون إلى حمل الغلام وإلى تقبيله وتدليله، وتنتحى الأم وزوجها ناحية وهى تشهق بالبكاء وتردد الحسرات.

ينشأ الغلام بين أعمامه، بعد أن نال نصيبه من مال أبيه، نشأة ناعمة مترفة، وينتقل من الطفولة إلى الشباب مرحاً تياهاً، وسياً سمحاً ناضر العود، يزهى بوجه صباحى ألقى عليه الحسن رداءه، وقامة كأنها عامل الرمح، وجسم وثيق العضل فوار ماء الشباب. وكان شديد إحساس النفس، واسع الخيال، مطبوعاً على الشعر مجيداً فيه؛ جم الشهوات والنوازع، مولعاً باللهو والعبث ولذائذ الحياة. وكأنها أطفاه حسن صورته فراح يشب بكل فتاة، وينصب شباكه لكل عذراء نفور؛ وكان يتقنع لفرط حسنه إذا ورد مواسم العرب كما كان يفعل المقنع الكندى وأبو زيد الطائى.

أولع بفتاة من بنات الفرس تدعى « روضة » فقال فيها شعراً كثيراً منه:

قلت : ألا لا تلجن دارنا	إن أبانا رجل غائر
قلت : فإنى طالب غيرة	منه ، وسيفى صارم بائر
قلت : فإن القصر من دوننا	قلت : فإنى فوقه ظاهر
قلت : فإن البحر من دوننا	قلت : فإنى سابح ماهر
قلت : فحولى إخوة سبعة	قلت : فإنى غالب قاهر

قالت : فليث رابض بيتنا
قلت : فإنى أسد عاقر
قالت : فلان الله من فوقنا
قلت : فربى راحم غافر
قالت : لقد أعييتنا حجة
فأت إذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى
ليلة لا نساء ولا زاجر

ولما شفه حبها ؛ واشتهر أمره معها، خطبها إلى أهلها فأبوا أن يزوجه إياها، فرحل عنها يائسا وهو يقول:

يأيا القلب بعض ما نجد
قد يكتسب المرء حبه حقا
قد يمشى المرء وهو يشد
وهو صمد وقلبه كمد
ماذا تريد من فتي غزل
قد شفه السقم فيك والسهد ؟
يهددوني كيما أخافهم
هيهات أنى يهدد الأسد

وكان وضاح اليمن يرحل إلى مكة في موسم الحج ليلتقى وفود الحجاج مقبلة من الشام وفيها الهودج المطرزة بالذهب، يحملن الكواعب الحسان، والجوارى الساحرات، والغيد القوانن، كما كان يفعل ابن أبي ربيعة وغيره من فتيان الشعراء. وكان النساء يتعرضن في هذا الموسم للشعراء، ويفرنهم على التشبيب بهن ؛ وينصبن لهم أشراك الفتنة وكان الشعراء في هذا العهد أشبه بالمصورين في عصرنا الحاضر تتعرض لهم الفتاة المدلة بجمالها لترى صورتها في المجلات السائرة بعد يوم أو يومين.

وحج الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي بالناس سنة إحدى وتسعين، وحجت معه زوجته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان. وكانت بارعة الحسن فاتنة الملاحظة. عرفت أنها جميلة فزادت بجمالها زهواً، وقويت فيها غريزة المرأة فأغررتها بالتبرج، ففتنت الناس وفتنت الشعراء. رآها وضاح اليمن بمكة فسحره جمالها، وكان معه كثير صاحب عزة، فرأى أن يحتفظ برأسه بين كتفيه ويكتفى بالغزل بجارياتها غاضرة، ولكن وضاحاً كان شاعراً مفتوناً مغامراً، خدعته نفسه فسوّلت له أن جماله سحر أم البنين وأوقعها في حبال حب، فأرسل الشعر في التشبيب بها طليقاً غير هياب، وكأنما غاب عنه أنه يحوم حول عريسة أسد، ويعدو إلى الموت عدواً. لقد تغزل غيره من الشعراء في أم البنين، ولكنهم كانوا أحزم منه، كانوا يرسلون أبياتهم في خفية ومكائمة، كما كان يفعل عبيد الله بن قيس الرقيات. ولما انقضى موسم الحج رحل شاعرنا إلى دمشق ليكون إلى جوار فاتنته وسالبة لبه، ومدح الوليد بقصائد منها:

فإنك لو رأيت الخيل تعدو
سراعاً يتخذن النقع ذبلاً
إذاً لرأيت فوق الخيل أسداً
تُفِيد مغاناً وتفيد نيلاً
إذا سار الوليد بنا وسرنا
إلى خيل نلف بهن خيلاً
ونسدخل بالسرور ديار قوم
ونعقب آخرين أذى وويلاً

ويذيع شعر وضاح في أم البنين، ويتهى خبره إلى الوليد فيعقد العزم على قتله. ولكن ابنه عبد العزيز يحاول أن يرد أباه عنه، فيدخل عليه راجيا ألا يقتل الرجل. ثم يتوسل إليه بقوله: لا تأبه للرجل يا أبى فإنه مائق مضطرب مسلوب العقل، وإذا قتلته يا أمير المؤمنين حققت قوله في أمى، وتركت لى سبة الأبد. ولكن افعل به ما فعل معاوية بأبى دهل، فإنه لما شبب بابتته، وشكاه إليه ابنه يزيد، وطلب إليه أن يقتله، قال له معاوية: لو قتلته لحققت قوله، ولكننا نبهه ونحسن إليه فيستحي ويكف ويكذب نفسه. ولكن الوليد يأبى أن ينصت إلى رجاء ابنه، ويصيح: ألم تسمع قوله؟

قد أصبحت أم البنين مريضة	نخشى ونشفق أن يكون حماما
يارب امتعنى بطول بقائها	واجبر بها الأرمال والأيتاما
كم راهبين وراهبين وبسوس	عصموا بقرب جناها إعصاما
بجنان طاهرة الثنا محمودة	لا يستطيع كلامها إعظاما

يكفينى أنه يصرح باسمها في شعره ليطير في الآفاق ويجمع حولها الشبهات. ثم إنه لم يكتف بذلك أم البنين حتى تعدى إلى ذكر أختي فاطمة إذ يقول:

بنت الخليفة والخليفة جدها	أخت الخليفة والخليفة بعلمها
فرحت قوابلها بها وتباشرت	وكذاك كانت في المسرة أهلها

أما لهذا الكلب مزدجر عن نساتنا وأخواتنا؟ أما له عنا مذهب؟ ويل له منى! والله لأسكتن لسانه. ثم يأمر بعض أعوانه أن يحملوا إليه وضاحا وحين يساق إليه يأمر بحفر بئر فتحفر ويدفن فيها حيا.

هذا مجمل قصة وضاح اليمن. وقد زاد فيها الرواة كثيرا من أكاذيبهم، وبدت فيها أصابع الشعوية عابثة ساخرة من العرب وخلفائهم. فقد زعموا أن أم البنين بعثت إلى وضاح وكثير وطلبت إليهما أن ينسبا بها. وادعوا أنها دعت وضاحا إلى الشيوخ إلى دمشق ومدح الخليفة، وأنها وعدته بأنها ترفده عنده، وتقوى أمره لديه. وروى أصحاب الأخبار أنه وقع بين رجل من زنادقة الشعوية ورجل من بنى الوليد فخار خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابة وذلك في دولة بنى العباس، فوضع الشعوبى كتابا زعم فيه أن أم البنين عشقت وضاحا، وأنها كانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها، فإذا خافت أن يراه أحد وارتبه في صندوق وأقفلت عليه، وأن الوليد بعث إليها مرة بجوهر ثمين مع خادم له، فدخل عليها الخادم مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرى، فأدى إليها رسالة الوليد، ثم قال: يا مولاتى هبى لى منه حجرا فأبت عليه وزجرته، فعاد إلى الوليد وأخبره الخبر، فدخل على أم البنين وهى جالسة في هذا البيت تمشط شعرها، فجلس على الصندوق ثم قال لها: هبى لى هذا الصندوق، فقالت: كل ما فى البيت لك يا أمير المؤمنين. قال: لا أريد إلا هذا الصندوق. فقالت:

خذ غيره يا أمير المؤمنين فإن لى فيه أشياء أحتاج إليها، قال: ما أريد غيره، قالت: خذه، فدعا بالخدم وأمرهم بحمله وأن يحفروا بئراً عميقة، ثم دعا بالصندوق وأخذ يشير إليه ويقول: إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك، ودفنا ذكرك، وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلاً فإننا دفنا الخشب وما أهون ذلك! ثم قذف بالصندوق فى البئر وهيل عليه التراب.

هذا هو حديث الإفك الجديد، وهو حديث لا يدخل فى عقل عاقل، ولا يقابل بمن يعرف سيرة الوليد وصرامته، ومكانة أم البنين وشدة حفاظها وتمسكها بدينها إلا بالسخرية والاستهزاء.

الخير فثالثهم أشعارهم(*)

٤. الشاعر المغامر

نشأ بالكوفة في بيت يمتنى رفيع النسب معروف المكانة، واختار له أبوه دراسة العلم والتشقيف في علوم الدين ليكون فقيهاً محدثاً. وكان الفتى عبد الرحمن بن عبد الله متوقد الذكاء، حاضر البديهة، قوى النفس، فيه مرح، وفيه عزيمة، وفيه بطولة خجوة. ولم يكن يظهر لرائيه أنه سيكون له شأن في الفقه أو الحديث، أو أنه سلك الطريق التي توائم مواهبه وطباعه. لأن لرجال الدين سماتاً يتميزون به حتى في أطوار الشباب، وسحناء يعرفون بها من قبل أن يعرف عنهم شيء. إنهم يمشون على الأرض هونا، ويجلسون في صمت وإطراق، ويتحدثون بما لا لغو فيه ولا تأثيم، وينظرون إلى الدنيا نظرة قائمة؛ لأنها خداعة غرارة، لا يدوم لها نعيم، ولا تستقر على حال؛ فهم لا يضحكون للنادرة الطريفة، ولا يبهرونهم ما أبدع الله من جمال. ولكن ماذا يصنع عبد الرحمن، وهكذا وضعه أبوه، وهكذا قدر له أن يكون، وهكذا ألبس مسوح الراهب، ونزع عنه درع الفارس، وهكذا وضع بين يديه المصحف وكتب الدين، وحجبت عنه طرائف أشعار الأولين؛ لم يكن يستطيع أن يعمل شيئاً، فطرق المساجد، وتردد على دور العلم، واختار من بين كبار الفقهاء والمحدثين زوج أخته عامراً الشعبي ليكون له شيخاً وإماماً. لزم الشعبي أو ألزم الشعبي، وتجرد لدرس الحديث أو ألزم التجرد له، وظن بعض الناس أن سيكون له شأن في الفتيا وتذليل المشكلات.

ولكنه على الرغم من انصرافه إلى علوم الدين، وما تقتضيه من تبذل، كانت تهفو نفسه إلى أن يركب جواداً، فيحضره إلى أبعد ما يكون الحضر. وكان إذا رأى فتیان العشيرة يتصارعون أو يتبارون في القوة، أو في الصفح بالسيوف، تمنى أن يزج بنفسه بينهم ليصرع أقواهم، ويطيح بسيف العبهيم بالسلاح،

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الرابع من ١٠٠٩ عام ١٩٤٦.

وكان إذا بدت له كاعب من حسان الحى امتدت إليها عيناه في نهم لا يحسن برجال الدين وحملة العمام . وكان كثيراً ما يباغت نفسه وهى تصوغ أبياتاً في الغزل، وتترنم بها في طرب ونشوة . كان يعيش حياتين، ويروح بين الناس بنفسين : نفس تقية ورعة تتجنب الخباثت ما ظهر منها وما بطن، وتنصب على دراسة القرآن والحديث زاهدة في الدنيا صادقة عنها، ونفس فوارة جياشة تموج بالحلب والغزل والشعر، وتحن إلى اعتساف المخاطر واقتحام الخطوب .

بقى عبد الرحمن حائراً بين هذين النفسين : مضطرباً بين ما يكون وما يجب أن يكون، حتى رأى فيما يرى النائم أنه دخل بيتاً فيه حنطة وشعير، وسمع قائلاً يقول له : خذ أيها شئت، فأخذ الشعير . رأى هذه الرؤيا فأسرع إلى شيخه الشعبى ليعبرها له، فأطرق الشعبى مفكراً ثم قال : إن صدقت رؤياك تركت القرآن وقراءته وقلت الشعر .

كان التعبير صحيحاً، لأنه ليس من فرق بين الشعر والشعير إلا تلك الباء الصغيرة التى قد يخطؤها أو يشوهها الكاتب، ولعل الشعبى لمح هذا عندما عبر الرؤيا، ولعله لمح أن الشعر شعير في هوانه وكساده، وأنه يبدل لمن لا يستحقه رخيصةً فيطرحه ويزدرية . وكيفيا كان الأمر، وسواء أصحت رواية المنام أم لم تصح، فإن صاحبنا هجر دراسة القرآن والحديث، واتجه إلى الشعر ظلياً إلى موارد، فنهل منها وعمل .

لم يتدرج عبد الرحمن في إجادة القريض، ولكنه وثب إليها دفعة واحدة كأنه كان يمتزج الشعر في نفسه وهو يدرس الحلال والحرام، فلما فكّ يديه عنها، انطلق كما ينطلق السيل المهدار، وسار شعره بين الناس، فبهروهم وملاً أذانهم لما فيه من قوة أسر، وبعد خيال، وروعة لغة، وسلامة أسلوب . ولكل هؤلاء لقبوه «بأعشى همدان» .

وما كاد يحتضن مزهر الشعر، حتى طوّف به في أنحاء البلاد مذاحاً هجاء، يحمل في يمينه تاجاً من الفخار لأهل اليمن، وفي شماله سوط عذاب من نار لأهل الشمال .

ورد على النعمان بن بشير وهو عامل حمص من قبل مروان بن الحكم، فشكا إليه حاله، فرأى النعمان أن لهذه الشكاية ما بعدها، وأن الشاعر يبدأ ذليلاً، وينتهى شيطاناً مردياً، فجمع اليانبة وقال لهم : هذا شاعر اليمن ولسانها، وقد دفعته إلينا حاجة، فهل من باذل؟ فنزل له كل رجل عن دينار من عطائه، وكانوا عشرين ألفاً . فمدح النعمان فقال :

ولم أر للحاجات عند التماسها	كنعمان نعمان النسيدي بن بشير
إذا قال أوفى ما يقول، ولم يكن	كمُدلي إلى الأقوام حبل غرور
فلولا أخو الأنصار كنت كنازل	ثوى ما ثوى، لم ينقلب بتغير

ورود مملقا على خالد بن عتاب فأنشده :

رأيت ثناء الناس بالقول طيبا
بنى الحارث السامين للمجد : إنكم
هنيئًا لما أعطاكم الله واعلموا
فإن يك عتاب مضى لسبيله
عليك ، وقالوا ماجد وابن ماجد
بنيتم بناء ذكره غير بائد
بأنى سأطرى خالدًا في القصائد
فما مات من يبقى له مثل خالد

فافتدى منه عتاب عرضه بخمسة آلاف درهم .

ولهذا الشاعر مواقف مع عتاب تدل على خوف عتاب من سلاطته ومزج هجائه . روى أهل الأدب أن عتابا كان في غزاة مع الشاعر ، فحينما قفل الجيش ، خرج جوارى عتاب ليتلقينه وفيهن أم ولد له أثيرة عنده حببية إلى قلبه ، فجعل الناس يمرون عليها إلى أن جاز بها الأعشى وهو على فرسه يميل يمينًا وشمالًا من النعاس ، فقالت لجوارياها : إن امرأة خالد تفاخرني بالعرب ، وترهى على أبيها وعمها وأخيها ، وهل يزيدون على أن يكونوا مثل هذا الشيخ المرتعش ؟ وسمعتها الأعشى فقال : من هذه فقيل له : هذه جارية خالد ، فضحك وقال : ويل للكساء ، ثم وقف أمامها يقول :

وما يدريك ما فرس جرور
وما يدريك ما شيخ كبير
عداه الدهر عن سنن المراح ؟
فأقسم لو ركب «الورد» يوما
وليلته إلى وضح الصباح . . .

ثم أتبع الأبيات بيت رابع كله إقذاع ونكر ، فأسرعت الجارية إلى عتاب شاكية باكية ، وأنشدته الأبيات ، ووصفت له الرجل ، فقال : ذلك أعشى همدان . ثم بعث إليه وقال له : إن هذه تزعم أنك هجوتها ، فقال الأعشى : إنها أساءت سمعًا ، وإنما قلت :

مررت بنسوة متعطرات
على شقر البغال فصدن قلبي
كضوء الصبح أو بيض الأذاحي
بحسن الدلج والحدق الملاح
فقلت من الظباء ؟ فقلن سرب
بدا لك من ظباء بنى رياح

فقال الجارية : لا والله ، ما هكذا قال ، وأعادت الأبيات ، فما كان من حلم خالد ، أو من خوفه ، إلا أن قال للأعشى : والله لولا أنها ولدت منى لوهبتها لك ، ولكنني أفتدى جنائتها بمثل ثمنها ودفعه إليه ، ثم قال له : أقسمت عليك يا أبا المصباح ألا تعيد في هذا المعنى شيئًا بعد ما فرط منك .

هذا منتهى الحلم ، أو منتهى ما يصل إليه تدليل الشعراء ، غير أن عتابا على الرغم من كل هذا لم يسلم من هجاء أبي المصباح ؛ ذلك أنه مناه مرة الأمانى ، وأكثر له من السعود الحسن إذا ولى ولاية ، حتى لقد قال له : إذا اسند إلى عمل أعطيتك خاتمي لتقضى بين الناس . فلما ولى أصبهان رحل إليه الأعشى فنسى وعوده وأهمله وجفاه ، فرجع الأعشى إلى الكوفة بعد أن أرسل في هجائه أبياتًا سارت كل مسار منها :

أتذكرنا ومرة إذ غزونا	وأنت على بغيلك ذى الشوشوم ؟
ويركب رأسه في كل وحل	ويعثر في الطريق المستقيم
وليس عليك إلا طيلسان	نصيبي ، وإلا سحق نيم
فقد أصبحت في خبز وقز	تبخر ما ترى لك من حميم
وتحسب أن تلقأها زماناً	كذبت ورب مكة والخطيم

وقد ابتدع الشاعر في هذه القصيدة فنا من الشعر يمكن أن يسمى بالشعر الرمزي، ذلك أن الأبيات حينما بلغت خالداً بحث إليه من يسأله عن «مرة» الذي ادعى أنه غزا معها، وعن «البغل» ذى الشوشوم الذي كان خالد يركبه وأين كان ذلك؟ ويسأله عن «الطيلسان» و «النيم» اللذين وصفهما ومتى رآه يلبسهما؟ فضحك الأعشى حتى بدت نواجذه وقال: هذا كلام أردت به وصفه بظاهره، أما تفسيره: فإن «مرة» مرارة ثمرة ما غرس عندي من القبيح، و «البغل» المركب الذي ارتكبه منى ولا يزال يعثر به في كل وعر وسهل، وأما الطيلسان فما ألبسه إياه من العار والدم. وإن شاء راجع الجميل فراجعته له. فلما بلغ الحديث خالداً قال: إى والله، إنى أراجع معه الجميل، وأرسل إليه من ترضاه ووصله بهال عظيم.

وعاد الأعشى إلى ما كان له من المنزلة عند خالد، ولكنه حضره مرة وهو يفرق العطابا فجعل له أقلها، وفضل عليه آل عطار، فخرج غاضباً، وأطلق لسانه في ذمه فنقد صبر خالد فحبسه ثم أطلقه بعد قليل، فقال في هجائه:

وما كنت ممن أبحاثه خصاصة	إليك ، ولا ممن تغرُّ المواسد
ولكنها الأظمار وهى مدلة	دنت بى ، وأنت النازح المتباعد
أنحسبى في غير شيء ؟ وتارة	تلاحظنى شرراً وأنفك عاقد
فإنك لا كابنى فزارة فاعلمن	خلقت ، ولم يشبهها لك والد
وإنك لو ساميت آل عطار	لبزتك أعناق لهم وسواعد

وهذا ضرب من الهجاء ممض، فقد كان مما يسبق إلى الظن أن يهجو الشاعر آل عطار، لأن خالداً فضلهم عليه، ولكنه يمدحهم ليؤكد علو منزلتهم على خالد مع ما ناله من غبن بسببهم.

ولم تكن حياة الشاعر - كما علمت من بعض ما مر بك - حياة هدوء واستقرار، فإنه كان لا يفتأ ضارباً في الأرض، غازياً محارباً، نائياً عن أهله ووطنه، وله في هذه الغزوات شعر من أروع ما سجله ديوان الشعر العربى، ورددته أفواه الرواة. جهز الحجاج بن يوسف جيشاً من رجال الكوفة بينهم أعشى همدان إلى غزو الديلم، فطال أمد هذه الحرب، وأخذ فيها الأعشى أسيراً، فقذف به في السجن مكبلاً، فبقى به حيناً، وكانت قد رآته بنت أمير الديلم، فراعها حسنه واكتمل قوته، فاهتبلت فرصة غفلة من أهلها ودلفت إليه في ظلمة الليل حذرة خائفة تبادل الغرام، ثم قالت له: أفرأيت إن

خلصتكَ اتصطفينى لنفسك ١٩ قال : نعم . فحلت قيوده ، وأخذت به طرقاً تعرفها حتى جاوزت به مدينة أبيها . وفى ذلك يقول :

أصبحت رهنًا للمعدة مكبلاً أمسى وأصبح فى الأدهم أرسف
ولقد أرانى قبل ذلك ناعماً جذلان أبى أن أضام وأنف

وضرب البعث على جيش أهل الكوفة إلى مكران ، فأخرجه الحجاج معهم وطال بمكران مقامه ومرض ، فاجتواها ، وقال فى ذلك قصيدة من عيون الشعر وقلائده منها :

ولم تك من حاجتى مكراناً ولا الغزو فيها ولا المتجر
وخبرت عنها ولم أتها فما زلت من ذكرها أذعر
فإن الكثير بها جائع وإن القليل بها مقتر
ولكن بعثت لها كارها وقيل انطلق كالذى يؤمر

وخريج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج بن يوسف سنة اثنتين وثمانين ، وحشد معه جمعا من أهل الكوفة ، فلم يبق من أقرانهم أحد له ذكر ونباهة إلا خرج معه . وقذف شاعرنا بنفسه فى أتون الثورة فكان فارسها المعلم ، وشاعرها المفرد ، وأرسل الشعر مجلجلا بمدح ابن الأشعث وذم بنى أمية والتحريض على الحجاج ، واستشارة عزائم الجنود ، فهو يقول فى ابن الأشعث :

قرم إذا سامى القروم ترى له أعراق مجد طارف وتليد
وإذا دعى لعظيمة حشدت له همدان تحت لوائها المعقود
يمشون فى حلق الحديد كأنهم أسد الأباء سمعن زار أسود

وتغلب الحجاج على الثوار سنة ثلاث وثمانين وأسر زعماءهم ، وكان منهم الأعشى فلما قدم على الحجاج أسيراً قال له : الحمد لله الذى أمكن منك ، ألسنت القاتل لابن الأشعث وفرسك يهملج بك أمامه :

لما سمونا للكفسور الفتان حين طفى بالكفر بعد الإيمان
بالسيد الخطريف عبد الرحمن سار بجمع كالقطا من قحطان
ومن معد قد أتى ابن عدنان أمكن ربى من ثقيف همدان
يومًا إلى الليل يسلى ما كان إن ثقيفًا منهم الكذابان
كذابها الماضى وكذاب ثان

ثم ألسنت القاتل :

يابن الأشج قريع كــــــــــــــــــــــنة لا أبالى فىك عتبا
أنت الرئيس ابن الرئيســــــــــــــــــــس وأنت أعلى الناس كعبا

نبئت حجاج بن يـو سف ، خرّ من زلق فتبـا
فانهض فديت لعلـه يجلو بك الرحمن كـربـا
وابعث عطية في الجنـو ديكبهن عليه كـبـا

كلا ياعدو الله بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذي خر من زلق فتب ، وحر وانكب ، وما لقي ما أحب . ورفع بها صوته واربّد وجهه ، واهتز منكباه فلم يبق أحد في المجلس إلا ارتعدت فرائصه . فتلعثم الأعشى وقال : بل أنا القاتل أيها الأمير :

أبى الله إلا أن يتمم نـوـره ويطفئ نار الفاسقين فتخمدًا
وينزل ذلا بالعراق وأهلـه كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما لبث الحجاج أن سل سيفه علينا فولى جمعنا وتبددا
وما زحف الحجاج إلا رأيته حساما ملقى في الحروب معوذا

فقال من حضر من أهل الشام : قد أحسن أيها الأمير فخل سبيله . فقال : أنظنون أنه أراد المدح ؟ لا والله ، ولكنه قال هذا أسفًا لغلبتكم إياه ، وأراد به أن يمرض أصحابه . ثم أقبل عليه فقال له : أظننت ياعدو الله أنك تحددعنى بهذا الشعر وتتفلت من يدي ؟ يا حرسى : اضرب عنقه .

الذين فذلهم أشعارهم(*)

٥ . فنيل السفينة

قيل : عرضه أكبر من طوله ، وكتلة آدمية بشعة منفرة ، وصورة لو حاول مثال أن يجمع ما تفرق من الدمامة في غمائل ما استطاع أن يأتي بأقبح منها وأشنع ؛ أو لو أراد طفل هازل أن يعبث بقلم ما وفق في عبثه وتخليطه إلى ما هو أجفى منها للعين وأصدع للقلب ؛ أو لو رأتها تلك المرأة التي أخذت بضبع الجاحظ إلى نقاش ليرسمه لتخيف به ابنها لتركت الجاحظ يذهب إلى سبيله ولرأت في تلك الصورة ما يهرب جيشاً من الصبيان الطغاة المعريدين .

لسنا من المتجنين على بشار بن برد ، ولسنا من المتندرين به بعد أن أمنا شر انتقامه بموته ، ولسنا ممن يروق لهم أن يصفوا شيئاً قبيحاً ، وقد ملأ الله - وله الحمد والمنة - الدنيا بالجمال ، وهياً لنا في هذا الكون من مظاهر الحسن ما يشرح النفس وتهفو له العين ، ومن بدائع الخلق ما يغري أقلام الكاتين ويستهوئ بدائه الشعراء . ولكننا رأينا إجماعاً من التاريخ ، لا تكاد تند عنه رواية ، على أن بشاراً كان صورة مشوهة تزحف على الأرض ، وأثارة من فصيلة القرودة والخنازير دست على البشرية دسا ، وأدخلت زوراً في بنى الإنسان !

أوصى بشار مرة أحد صناع البصرة أن يصنع له جاماً وأن ينقش به صور طير فلما أتمه ووصفه له لم يعجبه وهدده بالهجاء ، فأنذره الصانع - وكان جريئاً سليطاً - إن هو فعل أن يصوره على باب داره وأن يصور معه قروداً على حال يندى لها جبين الحياء ، فذعر بشار ، وأخذ يترضى الرجل ويقول : أنا أمازحه وهو يأبى إلا الجدل !

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الرابع ص ١١٧٢ عام ١٩٤٦ .

وأراد أبو الشمقمق أن ينال منه بعض دراهم ، ولم يكن بشار بالجواد المعطاء فزعم له أنه مَرَّ بصبيبة
ينشدون:

إن بشار بن برد تيسر أعمى في سفينة
فأخرج إليه بشار مائتي درهم ، وقال : خذ هذه ولا تكن راوية الصبيان يأبأ الشمقمق !
ورآه رجل من الكوفة منبطحاً في دهليز ، كأنه جاموس ، فقال : يأبأ معاذ من القاتل :
في حلتى جسم فتى نحاح لو هبت الريح به طاحا
والله إنى لأرى أن لو بعث الله الرياح التى أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك فبهت
بشار ولم يقل شيئاً .

ووصفه الأصمعي : بأنه كان ضخماً عظيم الخلق والوجه ، مجدوراً ، طويلاً ، جاحظ المقلتين ، قد
تغشاهما لحم أحمر فكان أقبح الناس عمى ، وأفظعهم منظرًا . ويقول فيه حماد عجرد :
فيما أقبح من قرد إذا ما مسخ القرد !

وقد نكب هذا المسخ الأدمى ينقيس أقبح من وجهه ، وبصور من الرذائل أشنع من صورته : كان
جشعاً منهاً شهنانياً فحاشاً ماجناً مستهتراً سادراً ، أفسد بغزله نساء البصرة وشبانها ، حتى لقد كان
يقول مالك بن دينار : ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ! وكان
واصل بن عطاء يقول : إن من أخدع حباثل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد ! ونهاه
الخليفة المهدي عن الغزل وعن ذكر النساء مراراً .

وقد يمر بعض شدة الأدب غير عابئين بتكرار هذه الشكاية من غزل بشار ، ولا بشدة استنكار
المهدي له ، ونرى أن الأمر حقيق بالنظر ، فإننا لم نر أوسع صدرًا من العرب وملوك العرب بالغزل على
كثرة ضروبه وأفانيه . لذلك نرجح أن غزل بشار كان من نوع سمج غير مألوف ، وأن هذا الضرب من
الغزل ضاع في جملة ما ضاع من شعره ، ولم يبق منه إلا بعض أبيات نقرأها اليوم مشتمزين كارهين ،
كقصيدة الرائية التى تتضمن حوارًا ماجنًا بينه وبين فتاة أغواها .

لقد ألف الناس في غزل جميل وكثير وعروة بن حزام وقيس بن ذريح فنا رفيعة ، لا يخرج عن تصوير
رائع للحسن يجمع بين جمال الوجوه وجمال النفوس ؛ أما غزل بشار فكان من نوع خبيث فاجر ، عرف
مواطن ضعف المرأة ، ودرس غرائزها ، فسرى إلى قلبها عالمًا كيف يتجه وكيف يسير وكيف يلمس منه
مكان الخفقان ، حتى لقد دفعت ثقة بشار بسيطرته على المرأة إلى أن يقول :

لا يوئسك من مخبأة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا
فتنت عذارى البصرة بشعره ، وفتنت به عذارى العراق ، وتطلعت كل ذات دل إلى أن يشير إليها

في شعره، أو أن يهتف باسمها في أغزاله، وأصبحت داره متفياً للحسان ومقيلاً ؛ ولم تجد فتاة من العار أن يختلس منها قبلة، أو يقذفها بإشارة. وهو إلى كل ذلك لم ينجل من دمامته، ولم يقبع بها بعيداً عن الناس في خزي وحسرة يخشى أن يؤذيهم بها، أو يصيبه رشاش من تقززهم واشمئزازهم، لأنه كان صفيقاً مغرقاً في الصفاة، حتى إنه يقول :

نَمَكْتُ في الكرام بنى عامر عروقي ، وأصلى قریش المعجم
فلنسى لأغنى مقام الفتى وأصبى الفتاة فما تعصم

ولا يقدم له أنه كان مكفوف البصر عذراً، فإن فرار الناس من رؤيته، وتواتر وصفهم إياه بالدمامة، طالما قرع سمعه فأوغر صدره على الناس، وإذا كانت «الأذن تعشق قبل العين أحياناً» كما يقول فإن الأذن يجب أن تعلم ما ينقل إليها إذا لم يكن لرؤية العين من سبيل.

كان له غزل كثير، وليس من غرضنا في هذا المقال الموجز أن ننقد غزله، أو أن ننقد شعره عامة، ولكننا نرسلها كلمة عابرة قد يعجب لها بعض الناس، هي: أن الناس بالغوا كثيراً في شعر بشار. والحق أنه دون ما وصفوا كثيراً، وأن شهرة بشار إنما جاءت من عوامل أبرزها خوف الناقد منه، ودعاية النساء والشبان له، وتقليد كل طبقة من الأدباء من فوقها. ولو أنك أخذت شعره بيتاً بيتاً لرأيت جيده قليلاً، ولظهر لك أن هذا القليل متعب مسبق. لا شأن لنا الآن بالكلام في هذا فإن ذلك حديث يطول.

كان بشار حاقداً على الناس لأنه كان يقدر مواهبه فوق قدرها، ويميل عليه غروره أنه يجب أن ينال فوق ما ينال الناس.

سمع بعض أهل البصرة قوله :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظممت، وأى الناس تصفو مشاربه؟

فقال له : كنت أظن هذا البيت لرجل كبير. فقال بشار : إنه لأكبر الجن والإنس. وسمع مغنية بالكرخ تغني من أبياته :

يامنظراً حسناً رأيت من وجه غانية فديته
بعثت إلى تسومنى برد الشباب وقد طويته
ومخضب رخص البنات ن بكى على وما بكيت
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبىته

فصاح : هذا والله أحسن من سورة الحشر ! ونحن لا ندرى، ولا بشار يدرى، لم خص سورة الحشر من سائر السور؛ ولكن إذا صحت الرواية كان الرجل مجنوناً بالعظمة والغرور، وكان له أن يعرف بما يشاء !

إننا لا ننكر ذكاء بشار، ولا قوة عارضته، ولا قدرته على ارجحال النكت اللاذعة ولكننا ننكر عليه مغالاته في تقدير هذا الذكاء، حتى لقد ظن أنه أمة وحده، وأن جميع الناس دونه، وأنه يجب أن يسيطر عليهم ويزدرهم ويتبرم بهم ويبتز أموالهم، وأن يتخذ من شعره سوطاً يسوط به كل شاعر وكل أديب وكل عظيم وكل من تحدته نفسه بالتمعالي عليه أو بالتهاون بأمره. لم نر أحداً اغتبط بعماه كما اغتبط بشار، حتى لقد جعل منه نعمة يحمد الله عليها، واتخذ أداة للسخرية من الناس، فلقد كان يقول: «الحمد لله الذي أذهب بصرى حتى لا أرى من أبغض». وقال له صاحب له يمازحه: إن الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشيء فما عوضك؟ قال: الطويل العريض! قال: وما هذا؟ قال: أن لا أراك ولا أمثالك الثقلاء!

وكان بشار في أثناء هذا الحقد على الناس، وتلك الجراءة المعريدة للنيل من ما لهم وأعراضهم، جباناً وعديداً، يجمع ذيله بين ساقيه إذا رأى خصمه لدوداً جريئاً، أو إذا أحس خطراً داهماً. فقد كان شعوبياً يكره العرب ويسخر منهم. ويمدح الفرس ويشيد بمجدهم. ولكنه إذا لمح في الأفق نذير سوء وضع عقيدته في علبة ودفنها بين أطباق الثرى، وقام يغنى بأيام العرب ومقاماتها. فهو مرة يفتخر بولاء بنى عقيل:

إننى من بنى عقيل بن كعب موضع السيف من طلى الأعناق

ومرة يستأذن ابن ثور السدوسي في هجاء أعرابي فيأذن له فيقول:

سأخبر فآخر الأعراب عني وعنه متى تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزاً ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع بنى الأحرار؟ حسبك من خسار!

وكان بشار - فيما زعموا - زنديقاً يدين بالرجعة في هذه الدنيا، ويكفر جميع الأمة، ويصوب رأى إبليس في تقديم النار على الطين، ويقول:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ولكنه كان يخفى مذهبه، ويتحدث به في همس إلى من يثق بهم، وكلما توجس شراً لبس غير ثوبه، واصطنع الإخلاص وحب الوصول إلى الحق. جادله ابن خلاد مرة في مذهبه، فلما أفحمه ذل واستكان وقال: ما أظن الأمر إلا ما تقول، وإن الذى نحن فيه نخلدان! ولذلك أقول:

طعمت على ما في غير خير هواى، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى، وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغنيا

وأكبر الظن أن يكون بشار ماجناً، وأنه لم يكن زنديقاً، ولم يكن صاحب رأى، فإن فطرته العابثة

أشغل بمجونها من أن تحقق مذهباً دينياً، أو أن تعنى برأى فلسفى، ولكن بغضه للعرب هو الذى دفعه إلى الثورة على كل ما يتصل بهم وبمعتقداتهم، وأراد على أن يكون زنديقاً.

كان بشار شاعراً مستجدياً، فكان يمدح ولكنه كان فى أكثر مديحه يترىص لهجاء ممدوحه، ويعرض لهم بما فى نفسه ويهدد، فخافه الناس، واتقى شره الأمراء والوزراء. ورد على خالد بن برمك فكان مما قال له :

فإن تعطنى أفرغ عليك مدائحي وإن تأب لم يضرب على سداد
ركابى على حرف، وقلبي مشيع ومالى بأرض الباخلين بلاد

وكان يرى أن الهجاء أجلب للبال من المديح، وأعظم لمهابة الشاعر. قيل له مرة: إنك لكثير الهجاء، فقال: «إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللثام على المديح فليستعد للفقر، وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى».

وهكذا بقى بشار مستمرّاً هجاء الناس، مستنزفاً أموالهم بالتهديد. وهو ما يسمى بالإنجليزية «Black Mailing»، فهجا جريراً وهو حدث، وكان يقول: «هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرني، ولو أجبني لكنت أشعر الناس». وهجا واصل بن عطاء والأصمعي وسيبويه وي زيد بن مزيد والعباس بن محمد، وهجا روح بن حاتم وكان من عطاء الدولة العباسية، فقال روح: «لما لى صدقة إن وقعت عيني عليه لأضربه ضربة بالسيف، ولو أنه بين يدي الخليفة»، فبلغ ذلك بشاراً فقام من فوره حتى دخل على المهدي وعاذ به، فأحضر الخليفة روحاً وطلب إليه أن يصفح عن بشار، فقال: «إننى قد حلفت يا أمير المؤمنين فاحتل ليمنى. وانتهى الأمر بأن ضربه بعرض سيفه».

وهجا الخليفة المنصور فى قصيدة يمدح بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وكان خارجاً على العباسيين، فلما قتل إبراهيم خاف، فقلب القصيدة فى هجاء أبى مسلم الخراسانى.

وهجا يعقوب بن داود وزير المهدي بقوله:

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

وهجا المهدي نفسه بقصيدة يشمثر القلم من نقل بعض أبياتها، فدخل يعقوب على المهدي وقال له: يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى الزنديق الملعون قد هجاك، فقال: بأى شيء؟ قال: بيا لا ينطق به لسانى. فحلف عليه المهدي بالآيمان التى لا فسحة فيها أن يجبره، فقال: أما لفظاً فلا، ولكنى أكتب ذلك، فكتبه ودفعه إليه فكاد ينشق غيظاً. ثم انحدر إلى البصرة يقصد بشاراً، فلما بلغ البطيحة أمر بإحضاره إليه، وكان فى حراقة، وأمر بأن يضرب سبعين سوطاً، فضرب حتى شارف الموت، ثم ألقى

في سفينة حتى مات، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة ودفن فيها .
وقد شمت الناس بموته ، وهنا بعضهم بعضاً ، وتصدقوا ، وحمدوا الله حمداً كثيراً . وقال أبو هاشم
الباہلی :

يا بؤس ميت لم ييكه أحد	أجل ، ولم يفتقده مفتقد
لا أم أولاده بكتسه ، ولم	يبك عليه لفرقة ولسد
بل زعموا أن أهله فرحوا	لما أتاهم نعيه سجدوا

الحكمة والأخلاق في شعر شوقي (١٠)

اختص الله شوقي بخصائص إذا اتفقت لشاعر كان من أفاضل الشعر وأساطين البيان، فقد طوعت له الفطرة خيالاً رائعاً سباحاً ينفذ إلى مكامن. أغلقت على كثير ممن سبقوه أقفالها، وسدت أبوابها، وهبت له الدراسة وحسن الاستعداد لغة صافية نقية كانت في يديه كالغصن الأملود يلويه كيف يشاء، ويدلله لأغراضه كما يريد. وأسلوباً قرشياً رصيناً برئ من وصمة العجمة، ونجا من ميوعة الحضارة، وركة المتأخرين. واختصه الله بعقل نافذ وحافظة واعية جمعت له من المعاني والأفكار وعقد الصلات بين الأشياء وإدراك الفروق بين المتقابلات والمتشابهات ما يعيا بمثله كثير ممن خاضوا بحار الشعر ففرقوا عند ساحله.

والكلام في شوقي وشاعريته طويل الذيل لا يتسع له مقال، وهو أمر يجب أن ننظر فيه الجامعة ونخصه بدراسات واسعة تستغرق الأعوام.

وقد طلب إلى أن أتحدث في الحكمة والأخلاق في شعر شوقي، وهذا أيضاً مجال فسيح المدى، مترامي الجنبات، ولعل أوفق فيه إلى الرأي القويم والقول المبين.

الحكمة في الشعر أثر التجربة الصادقة والإدراك الحق، وقوة البصر بحقائق الحياة، والأصل في الشعر أن يكون غنائياً يصف ما تحس به النفس ويحيش بالصدر، وقد تتسرب الحكمة في غضمون وصف الشاعر لأماله وآلامه، وقد ينطلق المثل من فيه من غير قصد عندما يعمق التفكير ويساير العقل الخيال. فقد ظهرت الحكمة في العصر الجاهلي وكان في كثير منها من الدقة وبعد النظرة ما يملوك روعة وعجباً. استمع لقول النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له
بوادر تحمي صفوه أن يكدر

(*) نشرت بمجلة الراديو المصري بالعدد ٦٥٨ في ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧ م. ص ٨.

ولقول طرفة ابن العشرين :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ولقول الهدلى :

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا تـرد إلى قليل تقنع

والتمشى في هذا الطريق يدفعنا إلى الإطالة .

وهكذا استمرت الحكمة في الشعر فطرية ساذجة ، حتى جاء العصر العباسى وترجت كتب الأوائل ، وامتزجت حضارة العرب بحضارات الأمم الأجنبية ، فأصبحت الحكمة دراسة وفناً قائماً بذاته ، ودبت الفلسفة إلى الشعر ، وكان أول من حمل هذا اللواء أبو تمام الطائي ، ثم أبو الطيب المتنبي ثم أبو العلاء المعري فأغرق وأوغل حتى كاد يفسد الشعر بالفلسفة . وجاءت فترة الركود الأدبي فمات الشعر أو كاد ، وماتت معه الحكمة والفلسفة ، ثم نقر في الناقور ، ويعثر من في القبور ، وظهر البارودي في عصر إسماعيل العظيم بشعر جمع خصائص العصور الزاهرة ، فبهر الدنيا وشغل الناس ، وكان البارودي يكثر من الحكمة وضرب المثل ، ولكنها كانت حكمة منقولة مكررة معادة أو تافهة ليس له فيها من جهد إلا النظم وتقديم الأوزان وذلك مثل قوله :

والنفس إن صلحت زكت وإذا خلت
من فطنة لعبت بها الأهماء
لو لم يكن بين الرجال تفاوت
ما كان فيهم سادة ورعاء

وقوله :

والدهر مدرجة المموم فمن يعيش
يهرم ومن يهرم يمت فيه البلى

ولو ذهبنا في إحصاء حكم البارودي ، ملأنا منها أوراقا ، على أننا لو قلنا لكل حكمة : اذهبى إلى عشك الذى منه درجت ، لم يبق في هذه الأوراق شىء .

أما شوقي ، فقد كان يرسل الحكمة مكررة أحيانا ، شأن غيره من الشعراء ، ولكنه بعد أن نضجت شاعريته واشتد بالقريض أسره ، جعل ينثر الحكمة الشاردة ، رقيقة بعيدة الغور . فهو بهذه الميزة ندى المتنبي وصاحبه المجلى ، وقد وصفت فيه هذه الناحية بقصيدة يوم تكريمه جاء فيها :

وقفت تجدد آثارها	وتنشر للعرب أشعارها
بقول له نفحات الرياض	إذا نطق الطل أزهارها
أطاعت قوافيه بعد الشباس	جرى القرية جبارها
فمن حكمة علمتها السنون	حديث النفوس وأخبارها
لها صفحة الكون منشورة	ترجم بالشعر أسفارها
أشوقى وأنت طيب النفوس	وضعت عن النفس أسارها
نصرت الفضيلة من بعد أن	طواها الزمان وأنصارها

تفتح للنور أبصارها
كأن من الوحي أسرارها
وترجع للدين هتارها

وجئت لمصر كعيسى المسيح
بآى تفصلها محكمات
تسرد الشبيبة للصالحات

ووصفت هذه الناحية أيضًا في قصيدة رثائه ، حين أقول :

في خبايا النفوس حتى أبانه
ن ، حديثًا فلم يطق كتاناه
ء بآثار فضله سبحانه
وجمال وروعة ورصانة

عالم بالنفوس ما غاب سر
أودع الدهر مسميه عن الكو
ذاك سر الإله يختص من شا
شعره حكمة وصدق خيال

أولع شوقي بإرسال الحكمة فاستمع له ، وهو يقول بعد العودة من منفاه :

كنشري في كواعبها الشبابا
وقوفا علم الصبر الذهبا
إذا التبر انجلي شكر الترابا
إذا طال الزمان عليه طابا

نشرت الدمع في الدمن البوالى
وقفت بها كما شاءت وشاءوا
ومن شكر المناجم محسنات
وإن المجد في الدنيا رحيق

وما أصدق حكمه حين يقول :

إذا تحير فيها الدمع واضطربا
إذا سددت عليك الشك والريب
أو فاحشدين رماح الخط والقضب
إن الصفائر ليست للعلا أهبا
كالحق والصبر في أمر إذا اضطجبا
وسهل الغد في الأشياء ما صعبا
لا تملثوا الشدق من تعريفها عجا
يسدًا نألفها درًا ومخضببا
من بينكم سبق الأنباء والكتببا
يسداه ترنجلان الماء واللهبا
فاحكم هنالك أن العقل قد ذهببا

لا تثبت العين شيئا أو تحققه
والصبح يظلم في عينيك ساطعه
إذا طلبت عظيمًا فاصبرن له
ولا تعد صغيرات الأمور له
ولن ترى صحبة ترضى عواقبها
كم صعب اليوم من سهل هممت به
ضموا الجهود وخلوها منكرا
خلوا الأكاليل للتاريخ إن له
أمر الرجال إليه لا إلى نفر
أملى عليه الهوى والحق فاندفعت
إذا رأيت الهوى في أمة حكما

ويقول في نصيح قومه :

إن المقص خفيف حين يقتطع

لا يعجبكم ساع بتفرقة

ويقول :

كفلن اليتيم له في الصدف

إذا أخت الجوهري الحظوظ

وإن عرضت عنه لم يحل في

ويقول :

إن السدى خلق الحقيقة علقما

ويقول :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم

ويقول :

والظن يأخذ من ضميرك مأخذا

ويقول :

إذا كان الرماة رماة سوء

وما أحكم قوله :

تقضى على المرء الليالى أوله

ما ليس يدفعه المهند مصليا

إن الفرور إذا تملك أمة

يخصى الدليل مدى مطالبه ولا

وقوله :

من يرد حقه فللحق أنصا

لا تدوم نومة الحق للبا

إن للوحش والعظام منها

وقوله :

لا يقبلون الفتى أصلى فما

نسب البدر أو الشمس إذا

وأصول الخمر ما أركى على

وقوله :

فلا يفرنك سكون الملا

ويقول :

كل دار أحق بالاهل إلا

وقد أجاد الإجابة كلها في قوله لبنى الشرق :

فمن خدع السياسة أن تغروا

عيمون الخرائد غير الخزف

لم يخل من أهل الحقيقة جيلا

لم بين ملك على جهل وإقلال

حتى يريك المستقيم محالا

أحلوا غير مرماها السهاما

فالحمد من سلطانها والذام

لا الكتب تدفعه ولا الأقلام

كالزهر يخفى الموت وهو زؤام

يحمى مدى المستقبل المقدام

ر كثير وفي الزمان كرام

غى فللحق هبة وانتقام

لنأيا أسبابا العظام

أصله مسك وأصل الناس طين

جىء بالأكبار مغموور رهين

خبت ما قد فعلت بالشارين

فالموت حول الصارم المغمدم

في خبيث من المذاهب رجس

بالقلب الأمارة وهى رق

وكم صيد بدا لك من ذليل
ولالأوطان في دم كل حر
ففى القتلى لأجيال حياة
وللحريرة الحمراء باب
كما مالت من المصلوب عنق
يسد سلفت ودين مستحق
وفى الأسرى فدى لهم وعنق
بكل يسد مضرجة يسدق

والحكم فى شعر شوقى كثيرة ، لا تخلو منها قصيدة ، وبخاصة سياسياته واجتماعياته ومراثيه ،
حتى إننا لنجدها أحيانا فى غزله ، كقوله :

لـك نصـحـى وما عـلـيـك جـدالى
آفة النصـح أن يـكـون جـدالـا
أما حديثه فى الأخلاق فكثير شائع فى ديوانه ، لأن شوقى نفسه كان صورة كاملة للخلق الكريم ،
وقد وصف نفسه بحق فى قصيدته التى يعتذر فيها لتخلفه عن فريضة الحج :

ويارب هل يغنى عن العبد حجة
وتشهد ما أذيت نفسا ولم أضـر
ولا غلبتني شقوة أو سعادة
ولا بت إلا كابن مريم مشفقا
ولا حملت نفس سوى لبلادها
وإنى ولا من عليك بطاعة
ومن تضحك الدنيا إليه فيغتر
وفى العمر ما فيه من الهنات
ولم أبغ فى جهري ولا خلواتي
على حكممة آتيتى وأناة
على حسدى مستغفرا لعداتي
كنفسى فى فعلى وفى نفثاتى
أجل وأغلى فى الفروض زكاتى
يمت كقتيل الغيد بالبسات

لذلك أشاد شوقى بالأخلاق ، وجعلها أساسا لحياة الأمم ومصدرا لإسعادها ، فهو يقول :
تخلق الصفح تسعد فى الحياة به

ويكى أحيانا ضعف الأخلاق فيقول :

فأين النبوغ وأين العلوم
وأين من الخلق حظ البلاد
وأين الفنون وإتقانها ؟
إذا قتل الشيب شبانها ؟

ويقول :

الجهل لا تحيا عليه جماعة
وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم
كيف الحياة على يدى عزريلا
فأقسم عليهم مائما وعويلا

ولم ينس أن ينوه بالأخلاق فى قصيدته الرائعة التى يصف فيها ملكة النحل :

قف سائل النحل به
يجيبك بالأخلاق وهـ
بأى عقل دبـره
سى كالعقول جوهره
ويسرف الله بهـ
من شاء حتى الحشرة

ويزعم أن الخلق عماد الحياة فيصبح :

لمشت وعحسن لمخس
لجبان ولا تسنى لجبس
وهى خلق فإنه وهى أس

رب بان لهادم وجموع
إمرة الناس هممة لا تأتسى
وإذا ما أصاب بنيان قوم

ويقول :

خطوات شعب فى القتاد تسار
سور ومن علم الزمان إطار

دون الجلاء ودون يافع ورده
وبناء أخلاق عليه من النهى

ثم يجمع كل ما فى نفسه فى بيت واحد فيقول :

إذا أخلاتهم كانت خرابا

وليس بعامر بنيان قوم

ولشوقى شعر كثير فى الحث على الإحسان، والرفق بالضعفاء، والدعوة إلى كل ما ينهض بمصر
والشرق، وشعره إلى ذلك يمجج بالحكمة والاعتصام بالخلق القويم، ولا يتسع مجالنا هنا للاستقصاء
واستيعاب الشواهد، ولكننا نرجو أن نكون قد ألمنا بما فيه كفاية وغناء .

شرح نهج البردة(*)

مدح النبي الكريم بمدائح كثيرة منذ ظهور الإسلام إلى اليوم . وجاء عصر الممالك فامتاز الشعر بكثرة المدائح النبوية والإجادة فيها . وأشهر شعراء هذا العصر شرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري المتوفى سنة خمس وتسعين وستمائة .

وشعر البوصيري في غير المدائح النبوية ضعيف خائر ، ولكنه في البردة والهمزية يخلق إلى أبعد أفق في البلاغة وجمال الروعة وسمو العاطفة ، مما يجلنا على الاعتقاد بأن الرجل كان شديد التأثير بجلال المقام الذي يقول فيه ، وأن روحه وحدها هي التي كانت تتكلم ، وأن نفحة نورانية غمرته فتلقف وحيها ونطق بلسانها .

ويحدثنا البوصيري نفسه عن سبب تسميته قصيدته بالبردة فيقول :

اتفق أنى أصبت بفالج أبطل نصفى ، ففكرت في عمل قصيدتى هذه وهى البردة ، فعملتها واستشفعت بها إلى الله في أن يعافينى ، ونمت ليلة فرأيت النبي ﷺ فمسح على وجهى بيده المباركة وألقى على برده فانتبهت فوجدتنى قادراً على النهوض فقممت بارثاً من علتى . وشاع خبر هذا المنام حتى بلغ الصباح بهاء الدين برع حنا فبعث إلى وأخذ القصيدة وحلف ألا يسمعها إلا قائماً حافياً .

وقد خلقت البردة فناً جديداً في الشعر هو فن البديعيات ، ذلك أن الشعراء أخذوا يعارضونها مع التزام نوع بديعى في كل بيت ، وأشهر هؤلاء صفى الدين الحلبي وعز الدين الموصلي وابن حجة الحموي . وعارض البردة في العصر الحديث البارودي فأحسن وأجاد كعادته . ومطلع قصيدته :

ياراقد البرق يمم دائرة العلم واحد الغمام إلى حى بذى سلم

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٦٥٨ في ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧ م ص ١٦ .

وحينما حج الخديو عباس الثانى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف نظم أمير الشعراء شوقى قصيدته التى سماها « نهج البردة » وجعلها تذكاراً لهذه الحجة ، وشعر شوقى رائع كله ولكنه فى هذه القصيدة أبدع وأروع ، فإن الذى يقرأها يشعر بأن الفن إذا اتصل بالصوفية النقية الصافية كان وحياً من الوحي وهمسا من الإلهام .

والآن نأخذ فى شرح بعض أبيات هذه القصيدة الفريدة :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم

الريم : الظبى الخالص البياض . القاع : الوادى المنبسط . البان : شجر معتدل الساق تشبه به قدود الحسان . العلم : الجبل . الأشهر الحرم : هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وكانت العرب لا تستحل فيها القتال . بدأ الشاعر قصيدته بالغزل ، فشبه حبيبته بالظبى فى رشاقته وحسنه وجمال عينيه ، ثم شكاً من أن حبيبته قتلتها بالمعجر والتجنى ، وأحلت دمه فى الوقت الذى تسكت فيه السيوف وتدفن الأحقاد .

لما رنا حداثتى النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى

رنا إليه : أطلال النظر . يقول إن الحبيبة حينما نظرت إليه فتته هذه النظرة وأصاب قلبه كما يصيب السهم المسدد مرماه .

جحدتها وكتمت السهم فى كبدي جرح الأحيبة عندي خير ذى ألم

ولكنه كتم هذه الرمية ولم يتشك منها لأن جرح المحبوب لا يؤلم « وكل الذى يأتى الحبيب حبيب » .

يا لالمنى فى هواه ، والهوى قدر لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم لقد أنلتك أذننا غير واعية ورب متتصت والقلب فى صمم

شفك : أضناك وأنحلك . متتصت : مستمع . يلوم لائمه فى الهوى ويذكره بأن الحب قضاء ليس للمرء فيه حيلة وبأنه لو عرف الحب ويرج به الغرام لكف عن لومه وتعنيفه ، ثم يقول . إني استمعت إلى عدلك مجاملة وإبقاء وكثير من الأحاديث ما يصل إلى الأذان ولا يصل إلى القلوب .

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبداً أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فتم

عاد إلى حبيبته بعد أن ذاق فيه آلام الحب فأخذ يدعو له بالسلامة من الهوى وويلاته ويطلب إليه فى رفق أن ينام هانئاً فى رعاية الحب بعد أن أرق محبه وأقضى مضجعه .

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم صلاح أمرك بالأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم والنفس من خيرها فى خير عافية والنفس من خيرها فى مرتفع وخم : حياة وبيئة سيئة العاقبة .

حسن مبتسم : حسن ابتسام . مرتفع وخم : حياة وبيئة سيئة العاقبة .

انطلق الشاعر من الغزل إلى مناجاة النفس كما فعل البوصيري، فهو يحذر نفسه من الاغترار بزخرف الدنيا لأنها تخفى وراء ابتسامها شراً مستطيراً. ثم يقول: إن النفوس لا تتجو من أوزار هذه الحياة إلا إذا تمسكت بالأخلاق الكريمة فإذا تحلت بخلال الخير عاشت في أمن وعافية وإذا تردت في مهاوى الشر عاشت في أسوأ حال.

إن جل ذنبي على الغفران لي أمل	في الله يجعلني في خير معتصم
ألقى رجائي إذا عزز المجير على	مفرج الكرب في الدارين والغم
إذا خففت جناح الذل أسأله	عز الشفاعة لم أسأل سوى أم
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة	قدمت بين يديه عبرة الندم

خير معتصم: خير ملجأ وملاذ. الغم: الهموم. لم أسأل سوى أم: لم أطلب إلا شيئاً هينا عليه. عبرة الندم: دموع الحسرة والأسف.

يقول: إن كان ذنبي عظيماً فإن آملي في غفران الله يجعلني في خير حمى وأكرم جناب، وإذا قل من يجيرني من العذاب فإن لي رجاء في سيد المرسلين الذي بعثه الله ليفرج الكرب ويكشف الهموم، وهو المؤمنين رؤوف رحيم فإذا تقدمت إليه ذليلاً خاشعاً أسأله الشفاعة في لم أسأله إلا شيئاً هيناً يسيراً، وإذا تقدم إليه الثقة الأبرار بما قدموا من خير وعمل صالح فإنني سأقدم إليه بدموع الندم والحسرة:

لزم باب أمير الأنبياء ومن	يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
محمد صفوة الباري ورحمته	وبغية الله من خلق ومن نسّم
ونودي (اقرأ) تعالى الله قائلها	لم تتصل قبل من قبلت له بغم
هناك أذن للرحمن فامتلات	أساع مكة من قدسية النغم

النسيم: النفوس. يقول إني صرفت نفسي إلى الالتجاء إلى سيد الأنبياء لأنه مفتاح رحمة الله، ومن يظفر برضاه فقد غنم في الدنيا والآخرة، فهو الذي اصطفاه ربه وأرسله ليكون رحمة لجميع خلقه، وهو الذي أنزل عليه الله: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق: ١] وهو خطاب لم ينطق به فم لسواه فصعد الرسول بالأمر ودعا إلى دين الرحمن وعز أرجاء مكة بالقرآن فملأ أسباع أهلها بالنغم القدسي والوعى الكريم.

سركت بشائر بالهادي ومولده	في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم
أتيت والناس فوضى لا تمر بهم	إلا على صنم قد هام في صنم

يقول: إن الدنيا هتفت مبشرة بمولد الرسول ﷺ، وإن هذه البشرية سرت في مشارق الأرض ومغاربها فكانت نوراً بيدد الظلم والظلام، فقد بعث النبي الكريم والناس في جهالة عمياء عكفوا على عبادة الأوثان فكانوا أصناماً تعكف على أصنام.

أُسرَى بك الله لَيْسَ إِذْ مَلَائِكَه	والرسل في مسجد الأقصى على قدم
لما خَظَرَتْ به التفوا بسيدهم	كالشهب بالبدر أو كالخند بالعلم
صلى وراءك منهم كل ذى خطر	ومن يَفْزُ بجيب الله يأتم
جبت السموات أو ما فوقهن بهم	على منورة درية اللجم
مشية الخالق البارى وصنعتة	وقدرة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سماء لا يطار لها	على جناح ولا يسمى على قدم
وقيل كل نبى عند رتبته	ويا محمد هذا العرش فاستلم

الشهب: النجوم. كل ذى خطر: كل ذى منزلة رفيعة. والمراد بالمنورة الدرية اللجم: البراق، ومعنى استلم: قبل.

يذكر هنا إسرائ النبى الكريم من مكة إلى المسجد الأقصى فيقول: إن الملائكة والرسل كانوا محتشدين للقائه، وإنهم التفوا حوله كما تلتف النجوم بالبدر والجند بالراية وإنهم اتنموا به فى الصلاة وهذا فوز لهم عظيم، ثم يصف عروجه إلى السماء وأنه ركب البراق وهو ليس من جنس الدواب ولكنه من خلق الله القدير ومشيته العالية التى هى فوق الشك وخطرات الظنون، وأنه بلغ السموات العلا التى لا يصل إليها طائر ولا ساع بقدم وأن رتبته كانت فوق رتبة الأنبياء.

يارب هبت شموع من منيتها	واستيقظت أمم من رقدة العدم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته	أكرم بوجهك من قاس ومتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا	ولا تزد قوميه خسفا ولا تسم
يارب أحسنت بدء المسلمين به	فتمم الفضل وامنح حسن مختم

هبت: نهضت من رقدتها. لا تسم: لا تكلفنا سوءا أو مشقة.

يبتهل إلى الله ويسأله اللطف بالمسلمين ويقول: إن شعوبا كثيرة يارب تيقظت بعد الموت وعادت إليها الحياة، وقد رأى قضاؤك الحكيم فينا رأيا وأنت خير قاض وأعدل منتقم، فالطف اللهم بجاه رسولك بنا، ولا تزدنا ذلا وعدا. ولقد شملت المسلمين يارب برحمتك ببعثك فيهم محمدا فاتمم عليهم النعمة وامنحهم حسن الختام.

الهجرة بطولة وعزم وإيمان (*)

احتلك الظلام قبل بعثة النبی الکریم، وخبط الناس فی عمیاء، وأصابت الکن موجة من الشر والفساد، فطمست معالم الأديان، وثبتت الشرائع، وماتت أخلاق الرجال، وأصبح الناس فوضى تقودهم الشهوات، وتسيطر عليهم غرائز الشر. فقد كانت الدنيا تعن لتاجين، وتخضع لدولتين: هما دولة الرومان ودولة الفرس. وقد بلغ هاتان الدولتان قمة عزهما، وأمد مجدهما فی ملاوة من الدهر طويلة، ثم امتد بهما الزمان ونشأت فیها أجيال فی أكناف الرفاهية والنعيم، رأوا الدنيا تحت أقدامهم، وأن ثمرات العالم تحبى إلیهم، فانصرفوا إلی الراحة وناموا فی ظل ظلیل من الأمن والثقة، وافتنوا فی صنوف اللهو الفاجر والعبث الأثیم، وقذفوا بكل ما بقى فی نفوسهم من شهامة ورجولة وخلق رصین، فاضطربت الموازين وانقلبت الأوضاع، وأصبحت الرذيلة من دلائل النبیل وكرم المنبت، والفضيلة عاراً تنفر منه النفوس وسخرية تتنادر بها المحافل.

هكذا كانت الدنيا قبل بعث النبی الأمی علیه صلوات الله ورضوانه. أما بلاد العرب فكانت وكراً للوثنية الجاهلية الغيبة، أرخى أهلها على عقولهم النافذة الوقادة غشاء من التعصب والجمود، فعكفوا على أوثان لهم صنعوها بأيديهم، ثم زعموا أنها تضرهم وأنها تنفعهم، وأن لها التصرف المطلق فی هذا الوجود. ولقد كانت هذه الوثنية قبرا لعقولهم، وقضاء على مواهبهم، وتفريقاً لوحدهم، فكانوا جميعاً وقلوبهم شتى: شقاق ونزاع بين القبائل، وإدراك كاذب لمعنى الإباء والبطولة، ونخوة فیها جموح وجهل، ووحشية يلتهم فیها القوى الضعیف، وكبر وجبرية لا یلینان لحق ولا ینضعان لحاكم، وحرية مقيدة مغلوطة لا تنال إلا بالاحتكام إلی السیوف، وتفاخر أجوف بالألقاب والأنساب. جهل وظلم وظلام! حقاً لقد فسد الکن كله، وضلت الإنسانية سبیلها، وسقطت البشرية فی هوة عميقة

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فی ۱۳/۱۱/۱۹۴۷.

الغور بعيدة المرتقى، وتطلعت الأرض إلى السماء تلتبس منها النور والهداية. إن الله أرحم من أن يترك الناس هكذا هملاً وأكرم من أن يدع العقل الإنسانى هكذا مرتكساً بين رذيلة موبقة وجهل محيق!

رأى الله أن يبعث للناس كافة رسولا اختاره واجتباها من صفوة خلقه، رأى الله أن يبعث فيهم محمداً الأمين بعد أن اصطفاه لنفسه وكماله بأكرم الصفات، وحلّاه بمكارم الأخلاق. اختار رسوله من جزيرة العرب لأنها مقر بيته العتيق، ولأن العرب - على ما كان فيهم من جفوة وخشونة - كانوا أمة أبيّة، موفورة الذكاء، متأججة العاطفة، سلمت بدواتها من مآثم المدينة، فلم تُضعِف الشهوات رجولتها، ولم تعبت رفاهية النعيم بغرائزها. وهى أمة إذا اقتنعت بحق أو اطمأنت نفوسها إلى رأى قدفت بأرواحها رخيصة في نصرته، واستعذبت العذاب في سبيله.

رأى الله جلّت حكمته هذا، فبعث في العرب رسولا من أنفسهم، استطاع بهذه الأمة الصغيرة المفككة، بعد أن وحد كلمتها الإيوان، أن يغزوا بها العالم كله، وأن يثقل بها عروش القياصرة الرومان، ويحطم تيجان الأكاسرة. وأمة العرب لم تذق في حياتها ذل الاستعمار، أحاطت بها من جانبيها إمبراطورية الرومان ودولة الفرس، وبذلت كل دولة جهوداً في أن تبسط ظلها عليها، ولكن العرب كانوا أصلب عوداً، وأحمى أنوفاً من أن ينهزموا أمام فاتح، أو أن تلين قناتهم لغازٍ كيفما كان صوله وطوله وحوله؛ فهذه الأمة العزيزة بأنفتها، القوية بأخلاقها كانت أولى بأن يكون رسول الله ﷺ منها، حتى ينشأ كما نشأت، عزيزاً من أعزاء، وحتى يستطيع أن يبعث من حرية الصحراء إلى العالم كله حرية طليقة تضع عنه إصره والأغلال.

نشأ محمد ﷺ في أرفع بيت وأشرف قبيلة، وكان في حدثائه يمتاز بصدق التفكير وقوة البيان وطهارة النزعة. وإن من يُعده الله لرسالاته العظمى ودعوته الكبرى خليق بأن تظهر فيه غايل النبوة، وأن ينماز عن الناس جميعاً بما أودع الله فيه من وقوى كامنة، وبما أمده من سجايا وشيم. رأت فيه قرين كل هذا، وتكهن عقلاؤها بما سيكون له من شأن وخطر. كان بشراً مثلهم ولكنه كان روحاً قدسياً يمشى على الأرض، وسراً سهاوياً يخالط الناس كأنه من الناس. وقد شاء الله عزّ شأنه أن ينشأ نبيه المرجى يتيماً وأن تدفعه الحياة إلى طلب الرزق، وأن يلاقى من أحداث الأيام ما يلقى الناس من خير وشر، فما كاد يبلغ العشرين حتى اتخذ التجارة سبيلاً لكسب العيش، فطلب الحياة من أسباب الحياة، وفي هذا بلاغ للناس وحكمة بالغة لأولى الأبواب. فليت شعري هل علم قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وجحاحجة الأمم جميعاً أن هناك في زاوية محجوبة من جزيرة العرب، سيقاً بتاراً يريد أن يستل من غمده ليهزم الشرك ويقضى على الطغيان؟ وهل خطر لهم وهم في غمرات شهواتهم أن كوكباً سهاوياً من الحق وصدق العزيمة سينقض من حيث لا يتوقعون فيبدد شلمهم ويفرق سمارهم؟

نشأ النبي الكريم نشأة روحية طاهرة، فيها زهد، وفيها تبذل، وفيها عزوف عن كل ما يشين.

وكان يقضى في كل عام زمنًا متحدثًا في غار حراء منصرفًا إلى التوجه إلى خالقه والتفكير في دلائل قدرته . صمته عبادة ، ونطقه تقديس وتسبيح ، ونظراته إيمان واعتبار . وقد هبط عليه الوحي الكريم في إحدى هذه المرات ، فأصابته رجة وغشيه من هول الأمر ما غشيه ، وهاله ما هاله . فما إن سمع صوت الملك هامسًا في أذنه «اقرأ» حتى صاح في فزع : «ما أقرأ» ، ثم قال : ماذا أقرأ؟ فقال : «اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» [العلق ١-٥] فكان هذا مبدأ رسالته وأول صوت انطلق في بطحاء مكة ، فهزّ العالم هزًّا ، وأطلق العقول من عقالها ، أطاع الرسول نداء ربه فأرسل صوته قويًا مجلجلًا في أنحاء مكة ، يدعو قومه إلى الدين الحق ، ويبشّر وينذر ، لا يهاب قوة ولا يخشى جبروتا ، ولقد كان العبد شاقًّا ، والجهاد مضنيًا ، ولكن صبر النبوة كان لا يخور ، وعزم الرسالة كان لا يلين ، جاء يدعو القوم إلى إله واحد وإلى نبذ آلهتهم ، وفيها مجدهم كما يزعمون ، وجاء يصرفهم عن عادتهم بعد أن امتدت فيهم جذورها ورسخت أصولها ، وجاء ينعى عليهم التفاخر بالأنساب والألقاب ، وهى غذاء غرورهم ، وجاء يسوى بين الناس جميعهم وهم أحفل الناس بنظام الطبقات ، ثم جاء يشرع لحياتهم ومعاملاتهم بعد أن استمرروا الفوضى واغتصاب الأموال .

لم يستجب لدعوة الرسول الكريم إلا فئة قليلة شرح الله صدورهم للإيمان ، ولكن الرسول أقام سنين مثابرًا يصدع بأمر ربه ، ويعرض نفسه على القبائل ، حتى رأى أن يهاجر إلى المدينة ، فهاجر . لقي النبي ﷺ كثيرًا من الإيذاء من قريش ، وتعرض لكثير من أسباب الهلاك . إن من يظن أن النبي ﷺ هاجر لإيذاء قريش إنما يقيس حياة الرسل الكرام بحياته ، ويحكم على أنفسهم بهواجس نفسه . إن أولى العزم لا يخافون وإنهم معصومون من الناس ومن شر الناس ، وإن الذي يقول لابنته فاطمة بعد أن غلبها البكاء لشدة ما يقاسى من قومه : «لا تبكى يا بنية ، فإن الله مانع أباك» . وإن الذي يقول لصاحبه إذ هما في الغار : «يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» . إن الذي يقول هذا وهذا لا يأبه لإرجاف ولا يبالى بسويد . إنما هجر الرسول عليه أركى السلام مكة لأنه رأى بعد حين ، وبعد ما ظهر له من غلظة أهلها وجفوتهم - وقد كانت فيهم الرياسة والزعامة - أن عقولهم لم تنضج بعد لفهم الدين الجديد وأنه يجب أن يترك هذه العقول الجاحدة وقت يراوضها فيه التفكير ويفادها ، فلعل طول التأمل وتكرار النظرات يهدي من شاسها ويفتح ما أغلق من أقالها . هكذا رأى النبي الكريم أن يترك قريشًا لأنفسها حينًا من الدهر ، على أن يعاودها بالدعوة إلى الإسلام بعد أن يكمل استعدادها ويتم نضجها . وهكذا كان ، فإن اعتزاز الدين إنما كان بفتح مكة حين جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا . وقد كان أهل المدينة ألين جانبًا وأشرف نفوسًا وأجدر بالإسراع إلى الدعوة لدماثة في خلقتهم ولاختلاطهم بكثير من أهل الكتاب ، ولأن بعضهم وفد عليه بمكة ، فأمن به وبايعه . لكل هذا هاجر رسول الله إلى المدينة .

والهجرة من أولها إلى نهايتها عمل كله بطوله وإقدام واستهانة بالصعاب . خرج مع صاحبه الصديق في جرة واعتزام ، ومكثا بالغار أيامًا ، وعلم فتیان قريش بخروجهما ، فاقتفوا أثرهما والسيوف تلمع في أيديهم ، والشر يصرخ باسمه في وجههم ، ولكن الله أعماهم عنه ، فنتجى رسالته وأتم نوره ، وهى رسوله من صولة المشركين .

كان الطريق وعراً طويلاً ، والقيظ لافحاً والسير مضنيًا ، ولكن محمدًا وصاحبه كانت تظليهما آمال رفاة النسيم ، ويدل مسالكهما إيمان لا يدع للكلال أو الألم إلى نفسيهما سبيلاً . سارا أيامًا وأيامًا حتى بلغا المدينة فدخلها الرسول وهو يمتطى ناقته ، وقد أرخى لها زمامها ، والمسلمون من أهل يثرب حوله يهللون ويكبرون حتى بلغت الناقة مربدًا لغلّامين يتيمين من بنى النجار ، فبركت ، فنزل الرسول الكريم وطلب أن تبني له دار بهذا المكان وأن يقام به مسجد للمسلمين . وهكذا ، رسخت صخرة الإسلام شاحخة شماء ، وهكذا ضرب النبي الكريم المثل الأعلى في الصبر والثبات لكل مجاهد وثاب . ثم جاءت الآية الكريمة تتوج هذه الهجرة المباركة ، فتقول : ﴿إِلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الدين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم﴾ .

الشعر الأندلسي (*)

يمرّ أساتذة تاريخ الأدب وكل من كتب في تاريخ الأدب بالشعر الأندلسي فيقفون به لحظات كما يمر الشاعر الجاهلي على دراسات الأطلال، فلا يلقي عليها أكثر من تحية وذكرى، وربما ودّعها، وهو يزجر ناقته للسير، بكلمة دعاء يسأل لها فيها انهال المطر وعودة الخصب وروث الحياة. يمرّون بالشعر الأندلسي فيكتفون بالقول بأن هناك فروقاً بينه وبين الشعر المشرقي، ويأثرون بكمية الوصف وتعدد ألوانه، لا يزدون على ذلك شيئاً، ولا يسمحون بأن يبينوا لنا هذه الفروق حتى ندركها ونشعر بها ونحكم معهم واثقين، وحتى نكون على أهبة لتبيينها لكل سائل، وشرحها لكل طالب، وحتى نستطيع أن نضع شعراً أندلسياً إلى جانب شعر مشرقى ثم نشير بسبابتنا إلى الفروق فرقاً فرقاً، كما يفعل كل مختص في صناعته، ماهر طَبَّ بمهنته. إن تاجر القطن يعرف أول وهلة نوع القطن الذي يعرض عليه، ويحد من النظرة الأولى الفرق بين ضرويه ومراتبه. وإن عالم التشريح إذا ألقيت إليه عظاماً بشرياً نبأك بعد قليل باسمه وموضعه من الجسم ويسن صاحبه، ويأثرون عظم رجل أو امرأة، وربما قص عليك بعض الأمراض التي اعتورت أيام حياته.

لا يذكر لنا أساتذة تاريخ الأدب شيئاً من هذه الفروق، وإنما يكتفون بكلمات غامضة عائمة، لا تروى غليلاً، ولا تشفى غليلاً. والموضوع جد خطير، وهو مبحث لا ينتهي فيه الأمر بكلمة عابرة، أو فكرة خاطرة. وهذا عيب مؤرخي الأدب من قدامى ومحدثين، لا يتركون سائحة ولا بارحة من غير أن يشيروا إليها، ولا يتركون موضوعاً من غير أن يرسلوا إليه نظرة عاجلة لا تسمن ولا تغنى من جوع. يطرقون كل باب ولا يدخلونه، ويدلون على الكنوز ويكتفون بالبحث عنها فوق الطبقة الأولى من التراب. إن برامج تاريخ الأدب ومناهجه في المدارس تموج بأدق المسائل وأجدها بالبحث، ولقد كان

(*) نشرت بمجلة « الكتاب » عدد ديسمبر ١٩٤٧.

واضعوها كرماء إلى أقصى حد، أسخياء بما لا يدخل في طرق باذل. ولكن يظهر أن عد أمهات المسائل شيء، وأن بحثها واستقصاء أطرافها شيء آخر، ويظهر أيضًا أن التفكير فيما يمكن أن يبحث ويدرس سهل حين يسير، وأن البحث نفسه والدرس نفسه من أعقد الأمور وأعصاها على غير الراسخين، وربما مَرَّ بك عنوان طريف في الأدب له بريق، وله روعة، فإذا أنعمت فيه النظر وتجذدت للبحث فيه بجدة واستيعاب لم تلق أمامك شيئًا، أو التقيت بتوافه من القول لا تغني قليلًا.

أنا واثق من أن هناك فروقًا بين الشعراء الأندلسي والمشرقي، وأنا محسّ هذه الفروق حقًا، وأنا مدرك من غير حاجة إلى تعليل أو فلسفة أنني بعد قراءة الطويلة للشعراء الأندلسي والمشرقي أستطيع أن ألمح الشعر الأندلسي، وأن أتين خصائصه غامضة من وراء ضباب. وأعتقد أن الأديب الذي لا يستطيع أن يميز على وجه من الوجوه بعد طول المعاناة والمزاولة، خصائص الشعر وسماهاته في عصوره المختلفة أديب خائب ضعيف الملكة له دماغ لا تثبت عليه الصور.

وقد بدا كان نقاد الأدب يميزون شعر شاعر من شعر شاعر آخر. قال أبو عبيدة: أنشد رجل بشارًا:

وأُنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلع

ونسب البيت إلى الأعشى، فاستنكر بشار نسبه إليه وقال: هذا بيت مصنوع، ما يشبه كلام الأعشى. فعجبت لذلك، فلما كان بعد عشر سنين كنت جالسًا عند يونس فقال: حدثني أبو عمرو ابن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى. فجعلت حينئذ أزداد عجبًا من فطنة بشار، وصحة قريحته، وجودة نقده للشعر.

إن الشعر كالماء يأخذ لون إنائه، وهو مثل كل مخلوق حتى نابض، يتأثر بالبيئة التي هو فيها، وإذا كان هناك فرق بين شعر شاعر وشاعر، فأولى أن يكون هذا الفرق آيين وأظهر بين شعر الموطن والموطن. إن الشعر الجاهلي غير الشعر الإسلامي وهذا لا يائثل الشعر العباسي في خصائصه؛ وشعر مصر غير شعر الشام؛ والشعر المصري في عهد الفاطميين غيره أيام الأيوبيين والمماليك، كل هذه حقائق ثابتة بالذوق والإحساس من غير أن تنال ما تستحق من الدراسة والتحقيق حتى تثبت على الجدل وتأخذ مكانًا قريبًا من الحقائق المنطقية التي تصمد للنقد وتعزّز بالبرهان.

أما أن الأندلسيين أكثرنا من الوصف فصحيح، ولكني لا أعد هذا من الفروق بين الشعراء، لأنني أريد الفروق في الصناعة الفنية، في الأسلوب، في الصياغة وفي تصوير الخيال، لا في أنهم أكثرنا من هذا النوع وأقلوا من ذاك. ومن ذا الذي يعيش في الأندلس، في هذه الروضة الوارفة الظلال، في هذا الفردوس الأرضي، ويكون فيه فطرة الشعر، ولا يسجع سجع الحائم؟ من ذا الذي يرى تلك الأنهار الدافقة، والأدواح الباسقة، والبساتين الباسمة، والجبال السامقة، ولا يطربّ تطريب العنادل؟ ولكن بِمَ كانوا يطربون؟ وبأي لحن كانوا يغنون؟ وعلى أي مزهر كانوا يضرّبون؟

هل تأثر شعراء الأندلس بالثقافة الإسبانية ؟ سؤال يجب أن يجاب عنه ، لأننا واثقون إلى حد لا يقبل الشك ، بأن الإسبان تأثروا بالثقافة العربية ، وأن مدارس العرب كانت مثابة ومآباً لطلاب العلم من القارة الأوروبية جميعها ، وأن الأدب الإسباني والشعر الإسباني يفيضان بالأخيلة العربية والذوق العربي ونمط العرب في التفكير ، وأن كثيراً من كتب العرب ترجمت إلى الإسبانية واللاتينية ، وكانت في أوروبا في عهود ظلامها سراجاً وهاجاً . نحن على يقين من كل هذا ، ولكن الذي نريد أن نتعرفه على نحو تطمئن إليه النفس ، هو استفادة الشعر الأندلسي من الحضارة الإسبانية . إن الشعر المشرقي تأثر بالفرس والرومان واليونان والهنود ، وظهرت آثار هذه المدينيات في معانيه وأخيلته وأساليب تفكيره ، فهل ظهرت في الشعر الأندلسي إشارة من المدينية الإسبانية ؟ الحق أن هناك تأثيراً وتأثيراً ، ولكن هذا التأثير لم يكن في قوته ووضوحه كما كانت الحال في تأثر الشعر المشرقي بالحضارات الأجنبية ، لأن عرب إسبانيا ، وهم الفاتحون المعتزون بقوميتهم وجنسهم ، كانوا في مبدأ الفتح في قمة من الكبر والصلف والتعصب لعروبتهم لا تطوع لهم التدلي إلى اقتباس شيء من شعب مستكين مغلوب ، فكانوا في ذلك أشبه ببنى أمية في المشرق ، على أن هذا التشبيه يذهب هباء إذا علمنا أن الأمويين أنفسهم هم الذين كانوا يحكمون الأندلس في ملاوة طويلة من عهود الازدهار . ويجب أن لا ننسى أن الثقافة الإسبانية أيام الفتح العربي لم يكن لها من القوة والروعة ما يغري العرب باقتباسها والعكوف على ترجمتها ، كما فعل العباسيون في عهد نهضتهم الأولى ، غير أن العرب في عهد ملوك الطوائف وبخاصة بعد أن استقروا طويلاً بالجزيرة ، وبعد أن خمدت من نفوسهم حماسة الفتح ، وبعد أن امتزجوا بالإسبان وأصبهوا فيهم ، أخذوا يحاكون الإسبان في لباسهم وسلاحهم وأعلامهم وسروجهم ، وكان كثير منهم يعرف الإسبانية وغيرها ، وكثير يحذق علومها وآدابها . قال صاحب « نفع الطيب » : « كان محمد بن أبي بكر المرسى من أعراف أهل الأندلس بالعلوم القديمة ، كالمنطق والعدد والموسيقى والطب ، وكان فيلسوفاً طبيباً ماهراً ، وآية من آيات الله في المعرفة ، وكان يعلم أبناء كل أمة بلسانها ما يرغبون في تعلمه من فنون ، ولما تغلب طاغية الإسبان على مرسية عرف له قدره ، فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمون والنصارى واليهود » .

وقد تلقى العرب من الإسبان شيئاً غير قليل من مهارتهم في الهندسة وفنون العمارة والنحت والتصوير .

وأظهر ما يبدو لنا من تأثر الشعر الأندلسي بالثقافة الإسبانية ما شاع فيه من نظم حوادث التاريخ وسير الأبطال والملوك ، فإن هذا شيء جديد في الشعر العربي من غير شك . وأول ما نقرأ هذا النوع لابن عبد ربه صاحب « العقد » ، فقد نظم سيرة أبطال الإسلام ، ثم جاء من بعده أبو طالب عبد الجبار فنظم قصيدة طويلة في ثلاثة وخمسين وأربعمئة بيت ، منها سبعة وخمسون ومائة في المقدمة والتوحيد والتصوف وبدء الخليقة وتاريخ الرسل ، ومائتان وأربعة عشر بيتاً في تاريخ الإسلام من لدن

الخلفاء الراشدين إلى خلافة المسترشد العباسي، واثان وثمانون في تاريخ الأندلس من دولة بنى أمية إلى حكم على بن يوسف بن تاشفين، وكان ذلك حوالي سنة خمسمائة من الهجرة. ولاشك أن الشعر العربي لم يكن له عهد بهذا الطول في القصيد، ولا بالتعرض لتاريخ الوقائع والأشخاص، فإننا لا نعرف شاعرًا بالشرق نحا هذا المنحى؛ ونعتقد أن شعراء الأندلس سمعوا كثيرًا من الملاحم الإسبانية الطويلة التي كان يتغنى فيها الشعراء ببطولة شجعانهم، وكان المنشدون من الإسبان ينشدونها في المجامع والمحافل العامة.

والموشحات الأندلسية قس من الشعر الإسباني، أو قل إن الشعر الإسباني هو الذي أوحى بها ووجه الشعراء إلى تلك الحرية، وأجيج فيهم هذا التمرد على الأوزان القديمة، وما يزعم الناس من أن ابن المعتز نظم موشحة لا يؤبه له كثيرًا؛ لأن للموشحات روحًا وفنًا وطعمًا، وما نظمه ابن المعتز من بعض أبيات لا يخرج في رأيه عن محض تصرف في القافية لم يكن معهودًا.

ومن الجديد الذي نلمحه في شعر الأندلس دفع بعض الشعراء الجهاد إلى الكلام، وتحريك لسانه بالحديث، وتزليل الصخر الأصم منزلة العاقل المدرك، واستنباط العبرة من وراء كل ذلك. وكانت أول محاولة لهم في هذا الاتجاه ما عقده من حوار نثرى بين بلاد الأندلس، فجعلوا كل مدينة تجادل عن نفسها، وتحدث بمحاسنها، وتفخر على بقية البلدان بما لها من شأن ومكانة، فترد عليها مدينة أخرى وهكذا، وأكبر الظن أن هذا مقتبس من الأدب الإسباني، فإذا حدث شيء من ذلك في المشرق بالمنافسة بين السيف والقلم، فإنها هو عن الأدب الأندلسي مأخوذ.

كان العرب يحبون الديار، ويلحون عليها في أن تتكلم، ولكنها كانت تمتنع أن تفوه بكلمة، حتى ليقول قائلهم:

أمن أم أوفى دمننة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتكلم

ويقول الآخر:

يأدار عبله بالجواء تكلمى وعمى صباحًا دار عبله واسلمى

ولكن ابن خفاجة الأندلسي استطاع أن ينطق الحجر، فأنشأ لنا قصيدة كاملة قصص علينا فيها حديثًا طويلًا لجبل مر به في طريق سفره. وإنى أزعج أن هذا جديد في الشعر العربي، وأن للبيئة الإسبانية شأنًا فيه. استمع له:

وأرعن طماح الذؤابة باذخ يطاول أعناق السماء بغارب
يسد مهبّ الريح من كل وجهة ويرحم ليلاً شبهه بالناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مُفكر في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عائم لها من وميض البرق حمر ذوائب

أصخت إليه وهو أخرس صامت
وقال : إلى كم كنت ملجأ قاتل
وكم مزي من مدلج ومؤوب
ولاطم من نكب الرياح معاطفى
فما كان إلا أن طسوتهم يد الردى
فما خفق أيكى غير رجفة أضلع
وما غيض السلوان دمعى وإنما
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب
وحى متى أرى الكواكب ساهراً
فرحماك ياسولاي دعوة صارخ

فحدثنى ليل السرى بالمعائب
وموطن أواء تبطل تائب
وقال بظلى من مطى وراكب
وزاحم من خضر البخار غواربى
وطاحت بهم ريع النوى والنواب
ولا نوح وُزقى غير صرخة نادب
نزفت دموعى فى فراق الصواحب
أودع منه رائحة غير آتب
فمن طالع أخرى الليالى وغارب
يمد إلى نعماك راحة راغب

هذا خيال جديد فى أسلوب جديد، وأعتقد أن قصيدة أبى الهول لشوقى إنما هى محاكاة لابن خفاجة .

وتأثر الشعر الأندلسى بالبيئة النصرانية واليهودية واضح . نعم إن هذا التأثير وجد بالشرق أيضاً منذ قال الشاعر الجاهلى :

إن من يدخل الكنيسة يوماً يلق فيها جاذراً وطلباء

ولكن شيئاً من ذلك كان قليلاً، أما فى الأندلس فكان بين الأثر لاختلاط العرب بالفرنجة واليهود اختلاط معاشرته ومخادنة، يقول ابن الزقاق :

وحبب يوم السبت عندى أنى
ومن أعجب الأشياء أنى مسلم

ينادمنى فيه الذى أنا أحب
حنيف ولكن خير أيامى السبت

وتقول نزهون الغرناطية :

لله درّ الليالى ما أحسنها وما أحسن منها ليلة الأحد

أما محمد بن الحداد الشاعر فقد فتن فى صباه بفتاة نصرانية سماها نورة، ولعل اسمها نورا «Nora» وإن زعم بعض المؤرخين أن اسمها جميلة، وقد أبدع فى التغزل بها، وقال فيها كثيراً، ومن ذلك قوله :

فإن لى بالروم رومية
أهيم فيها والهوى ضلة
أفصح وحدى يوم فصيح لهم

تكنس ما بين الكنيسات
بين صوامع وبيعات
بين الأريطى والدويحات

هذا ما نعرفه الآن من تأثر العرب بثقافة الأندلس، وربما غاب عنا أكثر منه، وربما جهلنا أكثر من هذا الأكثر، ولكننا إذا رجعنا إلى الشعر الأندلسى لا نلمح فيه ثقافة تزيد عن ثقافة العربى الصميم،

أو تزيد عن ثقافة شاعر معاصر في العهد العباسي ، وأكبر ظني أن الشعر الأندلسي ظل محافظاً في هذه الناحية وأنه كان يستورد ثقافته من المشرق ، ويستغنى عن بضائعه المحلية . لم ينس الأندلسيون المشرق ، ولم ينس شعراؤهم أن يغنوا بالمشرق ومجده وحضارته ، وكانت الرحلة للتجارة والحج بين الأندلس والمشرق يصحبها رحلات أدبية علمية مستمرة ، يحمل فيها الأدباء إلى الأندلس كل مستحدث في المشرق من شعر وعلم وأدب ، فالطريقة النادرة أو المقطوعة الشعرية كانت تقال بالمشرق فلا يمر بها أيام حتى تسمع بالأندلس ، وكم من أديب أندلسي أهدي آثاره إلى ملك مشرقى ، كما كان بعض مؤلفي المشرق يهدون مؤلفاتهم إلى ملوك الأندلس ، وحسبنا من فتنة الأدباء الأندلسيين بالمشرق أن ابن عبد ربه صاحب « العقد » لم يجمع في كتابه إلا أدب المشرق ، حتى إن الصاحب بن عباد حينما قرأه لم يزد على أن قال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . ولهذا الصلة الوثيقة بين الأديين كان يشبه الأدباء بعض شعراء الأندلس ببعض شعراء المشرق ، فقد سمي ابن هانئ بمتنبى الغرب ، وسمى ابن زيدون بالبحترى . ومع هذا لا تزال هناك فروق بين الشعرين في الصناعة الفنية وطرق تصوير الخيال .

أعلام الإسلام

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (*)

كان من عادة قدماء الفرس عند البدء بمخاطبة كبار ساستهم أن يقولوا: أيها السيد أبقاك الله! وهذا الدعاء على استحالتة يوحى إلى النفس بأنه لو تحقق لكان حلاً موفقاً لكثير من المشكلات السياسية، على شريطة أن يكون المدعو له بالخلود رجلاً يجمع كل صفات الرياسة والعبقرية. وكان معاوية بن أبي سفيان من هذا الصنف السياسى النادر، الذى لا تظفر بمثله البشرية إلا بين الحين والحين. ولم يكن حكم معاوية قصير الأمد، فإنه قضى أربعين عاماً يصرف شئون المسلمين، منها عشرون سنة كان فيها أميراً للمؤمنين غير منازع. ومع هذا، لو تنفس به العمر وامتد به الأجل لقضى على أسباب الفتنة في الدولة، ولتغير كثير من مظاهر التاريخ. فلقد كان معاوية ملكاً موهوباً، يجمع جميع آلات الرياسة والسياسة. وكان من الضرب الذى لو وجد في أى عصر قديم أو حديث لبز كبار الدهاة.

قامت دولته على أربع دعائم: البطش، والسخاء، والحلم، وحسن اختيار الرجال. وكان يداول بين هذه الصفات الأربع عقل لولبى نفاذ كادت تنكشف له محجبات الغيوب، فما عالج أمراً ساعدة منها إلا وصل إلى غايته. فهل ورث ابنه يزيد منه تلك الصفات السامية التى مهدت له نراً، وأذلت له أعناق الرجال، وأخذت بيده إلى الخلافة وقد كانت السبيل إليها أضيق من شقوق لأراقم؟ سنرى! أراد أبوه أن يمهّد له سبيل الخلافة، وأن يحمل وجوه الناس وعظماءهم على أن يعترفوا له بولاية العهد، وهذه قصة طويلة في كتب التاريخ، ظهرت فيها مواهب معاوية وتجلت عبقريته، وقد انتهت باستجابة أهل العراق والشام لدعوته، وبقي الحجاز. والحجاز كان دائماً الشوكة القاسية

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ١٦/٣/١٩٤٨.

التي تقضى مضجع معاوية ، ولكنه كان يسكت نائم الفتنة بالحلم والمال . بقى الحجاز الحرون ممتنعا عن الاعتراف بيزيد ، فماذا يفعل معاوية ؟ سار إليه فى ألف فارس ، ثم اختلى بقادته وزعمائه ، وأئذهم بالقتل إن حدثتهم أنفسهم بمخالفته ، ثم ذهب بهم إلى المسجد ، وأمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل رجل منهم رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن رد رجل منهم عليه وهو يخطب بتصديق أو بتكذيب ، ضرب عنقه بلا تردد . ثم صعد المنبر ودعا إلى مبايعة ابنه من بعده بحضورهم ، فبايعه الناس . ولقد كان يعتقد معاوية أن مثل هذا لا يكفى ، ولكن دهاءه كان يقول له : إنه يكفى إلى حين ، وإن فرصة مقبلة سوف تحسم الداء . وحينما حضرته الوفاة لم ينس مصدر بلاء الدولة ، فكان من وصاته ليزيد قوله : انظر إلى أهل الحجاز فإنهم أصلك ، وأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . ولست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة : منهم الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، أما الحسين فهو رجل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه ، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رجماً ماساً . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، فذاك ابن الزبير ، فإن وثب عليك فقطعه إرباً إرباً ، واحقن دماء قومك ما استطعت .

ولكن يزيد لم يعمل هذه الوصاة ، ولو ورث بعض صفات أبيه لرحل إلى الحجاز بنفسه وأخذ البيعة طوعاً أو كرها من الحسين وابن الزبير ، ولأطفاً بذلك فتنة أضعفت الإسلام ، وامتدت نارها حتى قضت على دولة الأمويين . لكنه ترك الحسين حتى خرج إلى العراق ، فكان ما كان من المصائب والويلات . وترك ابن الزبير حتى قوى أمره وكاد يظفر بالخلافة العامة .

إن انحدار الدولة فى عهد يزيد إنما جاء من يزيد نفسه ومن الرجال الذين اختارهم لنفسه . نعم ، إنه ورث من أبيه البطش والجرأة ، ولكنه لم يكن من نوع بطش معاوية ولا من طابعه ، بل كان بطش المغيظ المتتقم الذى لم يدرس صدور الأمور وأعقابها . وقد اختار لولاية العراق عبد الله بن يزيد ، وهو فتى فتاك أحمق ليس فيه مكان لرفق أو ذكاء ، أراد أن يحاكى أباه فضل الطريق . وولى مسلم بن عقبة جيش الحجاز ، وهو قائد مدمر قاس ينقلب بعد الانتصار شيطاناً مريداً . فتك ابن زياد بمسلم بن عقيل ، ثم قتل الحسين بكر بلاء ، وقد كان يستطيع أن يرسله إلى يزيد ليرى رأيه فيه ويخلص الدولة من عار قتل ابن بنت الرسول ﷺ . ولقد كان الشيعة بالعراق يحبون آل البيت حبا لا يدفعهم إلى الموت ، فلما قتل الحسين وسبى أهله ونساؤه انقلب هذا الحب فدائية عنيفة لا تبالى بالموت ولا تأبه بالحياة .

ارتاح يزيد لمقتل الحسين ، وارتاح لما يكون وراءه من آثار ، فأحسن بعض الإحسان إلى آل البيت ، ولكننا نراه لم يفعل شيئاً لابن زياد سوى أن يقول : لعن الله ابن مرجانة ، لقد كنت أرضى منه بدون قتل الحسين . وعلم يزيد بعد هذه النازلة أن ابن عباس امتنع عن البيعة لابن الزبير ، فأراد أن يحاكى أباه مرة فى دهائه ، فكتب إليه : أما بعد ، فقد بلغنى أن الملقح ابن الزبير دعاك إلى بيعته ، وأنتك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك لنا ، فجزاك الله من ذى رحم خير ما يميزى الواصلين لأرحامهم ، الموفين بعهودهم ،

فما أنس من الأشياء فلست بناس برك وتعجيل صلتك بالذى أنت له أهل . فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه ، فأعلمهم بحاله ، فإنهم منك أسمع الناس ولك أطوع . فكتب إليه ابن عباس : أما بعد ، فأما تركى بيعة ابن الزبير ، فوالله ما أرجو بذلك برك ولا حمدك ، ولكن الله بالذى أراه عليم ، وزعمت أنك لست بناس برى ، فاحبس أيها الإنسان برك عنى ، فإنى حابس عنك برى . وسألت أن أحب الناس إليك ، فلا ولا سروراً ولا كرامة ، كيف وقد قتلت حسيناً وفتيان عبد المطلب ، مصابيح الهدى ونجوم الظلام ؟ فليس شئ أعجب عندى من طلبك ودى ، وقد قتلت ولد أبى ، وسيفك يقطر من دمي ، ولا يعجبك أن ظفرت بنا اليوم ، فلنظفرن بك يوماً . والسلام .

كان من آثار هذه الفاجعة وغيرها أن نفرت القلوب من يزيد ، وثار أهل المدينة . فماذا فعل يزيد؟ بطش بهم بطشة الجبارين ، وأرسل عليهم مسلم بن عقبة . وكان من أمر يزيد له أن يندرهم ثلاثاً قبل أن يقاتلهم ، فإذا ظفر بهم أباح المدينة ثلاثة أيام . وقد فتك مسلم بأهل المدينة فتكا يشبه ما نقرؤه عن هولاء وتيمور لانك ، وأباح المدينة ثلاثاً بين نهب وسلب وإغراق في العدوان . ثم استخلف الحصين ابن نمير لغزو ابن الزبير بمكة ، فأغار عليها بجيشه ، وقذف البيت بالمجانيق والنبط والنار .

لم ينشئ يزيد جديدًا في نظام الحكم ، ولم يترك وراءه ذكرًا عطرًا ؛ لأن الثورات في أطراف المملكة استغرقت مدة حكمه . وفي أيامه فتح عقبة بن نافع بعض بلاد بإفريقية حتى بلغ بحر الظلمات ولكنه فقداه في النهاية وقتل . لم يستطع معاوية أن يلحق ابنه في حياته سياسة الحكم ، ولم يستطع أن يطبعه بطابعه ، فقد كان يزيد مولعًا باللهو والمجون وسباق الخيل ، وكان استعداداه غير استعداد أبيه ، وكان يعتقد أن الملك الذى أثله له لا تخشى عليه الزعاع ، وأنه يكفى أن يحكم العرب بالقوة والجبروت حكمًا عسكريًا .

على أن يزيد كان على غرار الشبان المترفين الذين كثروا في هذا العهد بالمدينة ، وكان لهم أثر بارع في الأدب والغناء ، وكانت لهم مجالس هو وطرب وفي رأى أن القدر زحزح يزيد عن مكانه وحمله عبء الخلافة وهو عبء لم تخلق له كتفاه . ولقد كان شاعرًا من الطبقة الأولى قبل أن يكون ملكًا صالحًا ، فقد قال بعض المؤرخين : بدئ الشعر بملك ، وختم بملك . يعنى امرأ القيس ويزيد بن معاوية . ومن شعره :

جاءت بوجه كأن البدر برقعته	نورًا على مائس كالغصن معتدل
إحدى يديها تماطينى مشعشة	كخدها عصفرتة صبغة الخجل
ثم استبدت وقالت وهى عالمة	بما نقول وشمس السراح لم تغل
لا ترحلن فما أبقيت فى جلى	ما أستطيع به توديع مرّحل
ولا من النوم ما ألقى الخيال به	ولا من الدفع ما أبكى على الطلل

ويقول في وصف الخمر

كـواكب درّ في سماء عقيق	إذا ما طفا فيها الحباب حسبتها
وتكسو وجوه الشرب ثوب شقيق	تـدب دبيب البرء في كل مفصل
حديثٌ صديق أو عتيق رحيق	هما ما هما لم يبق شيء سواهما
بحلو حديث أو بمرّ عتيق	ولاني من اللذات دهري لقانع

وهكذا كان يزيد، وهكذا مضت خلافته، وقد انتظر الناس منه بشغف أن يقوم بعمل عظيم، ولقد قام بهذا العمل فعلا، وقام به على أحسن وجه؛ لأنه أسرع إلى الموت، أو أسرع الموت إليه. فمات سنة أربع وستين. والله الأمر من قبل ومن بعد، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

عنتره

شاعر الحرب والحب (❖)

لم يفز شاعر جاهلي بمثل الشهرة التي فاز بها عنتره، فقد لهج باسمه خاصة الناس وعامتهم، وسار حديث بطولته مسير الأمثال. نشأ عنتره في كنف أبيه عمرو أو شداد على اختلاف الرواة، عبداً مهيناً مسكيناً، لأن أمه زبيبة كانت أمة حبشية أسرها أبوه في إحدى غاراته. وكانت العرب تستعبد أبناءها من الإماء، فإذا ظهر عنهم نبوغ أو امتازوا بصفات البطولة اعترفوا بهم وألحقوهم بنسبهم. بقى عنتره متبوذاً من أهله، يقوم في أسرته بما يقوم به العبيد من الخدمة والحلب ورعى الإبل، وكان صدره الجياش بالآمال الجسام كثيراً ما يثور على القدر، وكانت مواهبه المختبئة تحت ستار من الذلة والمهانة كثيراً ما تضطرم لتجد لها متنفساً، وكان يعقب هذا وذاك سخط على الأوضاع، وحقد على قوانين الاجتماع. لقد ولد عنتره بطلاً، وولد عبقرياً فسيح مدى العقل، بعيد غور التفكير، وولد شاعراً لم تفتتح أزهار الرياض عن مثل قوافيه. فلم كتب عليه أن يعيش عيشة الذل، وأن يطرح بين السوائم يراها كأنه إحدى السوائم؟ ولكن الفرصة لم تبطئ كثيراً على عنتره، فقد أغار بعض أحياء العرب يوماً على قبيلة عبس فاستاقوا إبلا لهم، فتبعهم العبسيون وقتلوهما عما اغتصبوه ولكنهم لم يظفروا بشيء، فقال له أبوه:

كر يا عنتره ! ولكنه أجاب في سخرية حزينة: العبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلاب والصبر، فقال له أبوه. كر وأنت حر ! فوثب على القوم فبدد شملهم وأعاد إلى قومه إبلهم، وكانت هذه الحادثة فاتحة مجده، فاعترف به أبوه، وأصبح في قبيلته الفارس المعلم. وكان كلما أحس بأنه هجين وأن أمه أمة سوداء ثارت نفسه، فأسكتها بأن المجد لا يعرف نسباً، وأن نسبه من أبيه أشرف الأنساب، وأن المرء بما هو فيه لا بأمه وأبيه، ويقول:

(*) نشرت بمجلة الراديو المصري بالعدد ٦٨٩ في ٢٩ مايو ١٩٤٨ م ص ٨.

شطرى ، وأحى سائرى بالمنصل
ألفيت خيراً من معمم مخول

إنى امرؤ من خير عبس منصبا
وإذا الكتيبة أقبلت وتلاحظت

وهذان البيتان من قصيدة من أروع قصائده منها :

أصبحت عن غرض الختوف بمعزل
لابد أن أسقى بكأس المنهل
أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل
مثلى ، إذا نزلوا بضنك المنزل
فرقت جمعهم بضربة فيصل
أشد ، وإن نزلوا بضنك أنزل
تسقى فوارسها نقيع الخنظل
حتى أنال به كريم المأكول

بكرت تخوفنى الختوف كأنى
فأجبتها إن النية منهل
فأنى حياءك لا أبالك وأعلمى
إن النية لو مثل مثلت
والخيل تعلم والفوارس أننى
إن يلحقوا أكر ، وإن يستلحموا
والخيل ساهمة الوجوه كأنها
ولقد أبيت على الطوى وأظله

أنشد النبى صلى الله عليه وسلم هذا البيت الأخير وقال : « ما وصف لى أعرابى فأحببت أن أراه إلا عنتره » .

ويروى الرواة أن عنتره لم يعرف أول أمره بالشعر ، ولكنه كان يقول البيت والبيتين فسأبه رجل من عبس وعابه بسواد لونه وبأنه لا يقول الشعر ، فأجابه عنتره بعد كلام مر : والله إنى لأحضر البأس ، وأوفى المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بها ملكك يدى وأفضل الخطة الصمعاء . وأما الشعر فتعلم نبأه ثم قال معلقته .

وشعر عنتره ككل الشعر الجاهلى بدوى البيئة ، روحانى النزعة ، سهل الخيال ، قوى الأسلوب ، جياش بالعواطف ، يصف ما يرى ، ويسجل ما يحس ، لم يفسده تكلف الصناعة ، ولم يذهب بجماله زخرف اللفظ ، ولم تثقله الحضارات الأجنبية بخيالها العميق الغور ، ومعانيها البعيدة المرتقى . وشعر عنتره يجب أن يؤخذ بحذر ويحذر شديد ، ويجب ألا يوثق فيه إلا بما رواه الرواة في العصور الأولى ، لأنه يكثر فيه الموضوع والمنحول . ذلك لأنه منذ وضعت قصة عنتره في عهد الفاطميين - وربما كان قبل ذلك العهد - زيفت أشعار كثيرة ونسبت إلى عنتره . والعالم بالأدب البصير بأفانين الكلام يستطيع أن يميز في سهولة ما كان من الشعر جاهليا ، وما كان منه لصيقا دخيلا ، ولكن هذا الموضوع واسع الجنباث وخير لنا ألا نعرض له الآن .

ومعلقة عنتره أروع شعره وأصدق وهى تطالع المستمع بقوله :

هل غادر الشعراء من متردم ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

يقول : إن الشعراء الأولين استوعبوا معانى الشعر فلم يتركوا مقالا لقائل ثم يفتل في سرعة البرق

إلى الحديث في المحبوبة فيعطيك صورة للعقلية الجاهلية في سرعة انتقالها، حتى لكأنها مثال لحياة القوم في سرعة نقلتهم وانتجاعهم من مكان إلى مكان . ثم ينادى هذه الدار في رقة تستنزل العصم، وتذيب الصخور الصم !

يادار عيلة بالجواء تكلمى ا وعمى صباحًا دار عيلة واسلمى

ثم يقف ناقته عند هذه الدار حزينا مشبوب الجوى فيقول :

علقتها عرضا ، وأقتل قومها ؟ زعما لعمر أبك ليس بمزعم

أى طمع في غير مطعم .

ولقد نزلت فلا نظنى غيره . منى بمنزلة المحب المكرم

ثم يصف رحيل المحبوبة ، ويتقل إلى وصفها بعدوبة الفم وطيب مقبله ، حتى كأن به مسكا فتية أو كأنه نسيم روضة أنف . ثم يثب من الحديث في الروضة إلى وصف ذباها :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غمدا كفعل الشارب المترنم

هزجا بحك ذراعاه بذراعاه فعل المكب على الزناد الأجدم

وهذا تشبيه لا يستطيعه شاعر محدث ثم يهزه لاجع الشوق فيتمنى لو زار حبيبته على ناقة قوية خطارة زياقة ثم يسير في وصف الناقة فيشبهها بالظليم ، ويقول : إنها تنحرف في سيرها لنشاطها ، حتى كأن بجانبها هرا تنقيه ويتقيها ، وهذا خيال بعيد وعجيب .

وكاننا تنأى بجانب دفها الوحشى من هزج العشى مؤدم

الدف الوحشى : الجانب الأيمن . هزج العشى : الهري مؤ بالليل . مؤدم : كبير الرأس قبيحه .

هـرّ جنب كلما عطفت له غضبى ، انقأها باليدى وبالفم

أثرون هذه الصورة التى لا يتخيلها إلا فنان ؟ ويعود بعد هذا إلى حبيبته وأسرة لبه فيصف لها نفسه بالشجاعة والسباحة والإباء وحب اللهو والمرح :

إن تفد في دوق القناع فلئننى طب بأخذ الفارس المستلثم

أئننى على بما علمت فلئننى سمح خالقتنى إذا لم أظلم

وإذا ظلمت فلن ظلمى بأسل مر مذاقته كطعم العلقم

ولقد شريت من المدامة بعد ما ركذ الهواجر بالمشوف المعلم

المشوف المعلم : الدينار .

فإذا شربت فلئننى مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

هذا من أروع الكلام وأسمحه . ثم يفخر بالجرأة والإقدام حتى إذا بلغ من ذلك غايته عاد إلى حديث غرامه .

هلا سألت الخيل يابنة مالك
ينبتك من شهد الواقعة أننى
إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
وأعفى عند المغنم
وهذا أعظم وصف لبطل كريم .

ومدحج كره الكفاة نزاله
لا ممن هربا ولا مستسلم
ما أدق تصوير المتردد الخائر !

فشككت بالرمح الأصم ثيابه
ليس الكريم على القنا بمحرم
ثم يفتن في وصف قرنه ويعود فيناجى هواه ويشكو صبايته :

ياشاة ما قنص لمن حلت له
تكنى العرب عن المرأة بالشاة .
حرمتم على ، وليتها لم تحرم !

فبعثت جاريتى فقلت لها اذهبي
قالت رأيت من الأعداء غرة
فتجسسى أخبارها لى واعلمى
والشاة ممكنة لمن هو مرتضى

ويطفر من هذا إلى تصوير حومة القتال في أسلوب قوى متين :

في حومة الحرب التى لا تشكى
إذ يتقون بى الأسنة لم أخم
غمراتها الأبطال غير تغمغم
عنها ولكنى تضايق مقدمى

لم أخم : لم أجبن .

لما رأيت القوم أقبل جمعهم
يدعون عترة والرماح كأنها
يتذامرون كررت غير مذمم
أشطان بشر في لبان الأدهم

الأشطان : الحبال . اللبان : الصدر .

ما زلت أرميهم بثفرة نحره
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولبانه حتى تسربل بالدم
ولكان لو علم الكلام مكلمى

ومات عترة بعد أن شاخ وكبر . كان في غزاة فسقط عن جواده ولم يستطع الركوب ، فرآه فتى من طيئ فقتله . وهكذا يموت أشجع الشجعان وأفرس الفرسان ، ولكنه يموت كما يموت كل حى ، ثم يعيش كما يعيش كل عبقرى بآثاره ، ويخلد كما يخلد كل نابغ بما ترك وراءه من مجد وذكريات .

أعلام الإسلام

صفوة فريش عبد الرحمن الداخل

حاكم جبار.. وشاعر وفيلسوف (*)

يبدو أن للعباقره سمات خاصة ، وأن لأرواحهم نفحة متميزة يشمها من وهبت له تلك الحاسة الخفية ، التي تقرأ ما وراء الغيب في لمحات الوجوه ، والتي تهديها الفراسة إلى سبر غور النفوس . فقد قالوا : إن عبد الرحمن بن معاوية دخل يوماً وهو صبي على جده هشام بن عبد الملك ، وكان يحدث أخاه في شأن ذي خطر ، فانطبق الطفل إلى جده ليجلس في حجره ، فتحاه هشام عنه فيما يشبه الغضب ، فصاح به مسلمة وكان روحاني النظر ، صادق الفراسة : دعه يا أمير المؤمنين ، فإنه صاحب بني أمية ووزرهم عند زوال ملكهم . وقد حققت الأيام ظن مسلمة ، وكتبت لهذا الطفل المدلل أن يكون سيد أبطال العالم ، وأثبتهم نفساً وأبعدهم آمالاً ، وأنفذهم ذكاء ، وأوسعهم دهاء وسياسة .

دالت دولة بني أمية ، وقام على أشلائها بنو العباس ، فأعملوا السيف في كل أمى ، وانتشر أعوانهم في البلاد يتصيدون بني أمية في غير رفق وفي غير هواة ، وسمع خلفاؤهم وأطاعوا القول لشاعرهم الذي يقول :

فضع السوط وارفع السيف حتى لا ترى فوق ظهرها أموياً

والآن نترك بطلنا بقصته من بدايتها ، فإن لبساطة لغته ، وصدق نبراته حلاوة تبرز كل حديث منمق بليغ ، قال :

(*) في سلسلة أعلام الإسلام . وأذيعت من الإذاعة المصرية في ١٩٤٨ / ٧ / ٤ .

إنى جالس يوماً بإحدى قرى الفرات، فى ظلمة بيت تواريت فيه، لرمد كان بى، وابنى سليمان يلعب فى فناء الدار، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبى إلخ فازعاً باكياً، فخرجت أنظر، فإذا بالروح قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود (رايات العباسيين) عليها منحنى، وأخلى حديث السن يشتد هارباً وهو يصيح: النجاء النجاء يا أخى، فهذه رايات المسوودة. فنجوت بنفسى وأخى معى، وخرجت فكمنيت فى موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد لى أثراً. ومضيت فأتيت رجلاً من معارف بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لى دواب وأن يعد ما يصلح لسفرى، فوشى بى عبد سؤء إلى عامل القرية، فما راعنى وراع أخى إلا جلبة الخيل تحفزنا، فاشتدنا فى الهرب، وسبقنا إلى الفرات، فرمينا بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعوا لا بأس عليكم، فسبحت حائلاً لنفسى، وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخى فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخى ودهش، فالتفت إلى لاقوى من قلبه، فإذا هو قد أصغى إليهم، وهم يتحدرون عن نفسه، فناديته: تقتل يا أخى. إلخ، إلخ. فلم يسمعنى، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشى الفرق فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات وحدى وقد همَّ بعضهم بالتجرد للسباحة فى أنثرى، فاستكفه أصحابه وتركونى. ثم قدموا الصبى الذى صار إليهم بالأمان فضرىوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ملأنى غحافة، ومضيت هائماً أحسب أننى طائر، فلجأت إلى غيضة أشبه فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت هارباً أوم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية.

بلغ بطلنا المقصد إفريقية، ولحقه بها خادمه بدر، فأقام نحو خسم سنين مستخفياً، حاول فى أثنائها أن يجمع حوله ثوار المغرب الساخطين، ولكنهم كانوا شرادم مفككة الأوصال، وما زال يضطرب بين القبائل حتى استقر به المقام بمحلة على ساحل البحر لقوم من زناقة، فكان يجلس على الساحل ويمد بصره نحو إسبانيا، والآمال تراقص حوله، والعزائم تغل فى نفسه، والطموح يكاد يطير به إلى الشاطئ البعيد. ولم لا يطمح مثل عبد الرحمن إلى هذه الغاية التى يراها غيره محالاً؟ ولم لا تدلل نفسه الوثابة فى سبيلها كل صعب جوح؟ إن الصراع الدائم بالأندلس بين البربر والمضرية واليمنية جدير بأن يمهد له السبيل، وأن يفتح أمامه كل مغلق. ألم يكن من تلك السلالة الأموية التى ملكت الدنيا وملأت راياتها الآفاق؟ ألم يكن له ذلك الطابع الذى يبيؤ للعظمة والمجد؟ وإذا لم يرم بنفسه بين أنياب الصعاب، فلنم إذا أعدت خطيرات الأمور؟

لذلك أرسل خادمه بدرًا إلى الأندلس، ليمهد له السبيل بين زعماء جند الشام النازلين بالبيرة، فذهب بدر إلى الأندلس، وحذت هؤلاء الزعماء بشأن مولاه، فأحسنوا استقباله، ووعدوه بنصرة سيده، وكانوا لا يزيدون على الأربعمائة.

وبينما كان عبد الرحمن فى ذات أصيل يصل على سيف البحر، إذ رأى السفينة التى تحمل بدرًا

وفقد الأندلس ، فنزل بعض رجالها وهو يقول : أبشر يا سيدي ! فسأله عبد الرحمن : ما اسمك ؟ قال : تمام . فقال : وما كنتك ؟ قال : أبو غالب . فصاح عبد الرحمن : الله أكبر ، تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته . ثم نزل السفينة فأبحرت به في سبتمبر سنة خمس وخمسين وسبعماية ميلادية ، وكان في الحادية والعشرين من عمره ، وما كاد يصل إلى ساحل البيرة حتى أقبل عليه مناصروه ، واثال عليه الناس انثيالاً ، فبلغ إشبيلية ، وعقد العزم على السير إلى قرطبة ، ولما لم يجد لجيشه علماً أتى بقناة وربط بها عمامته ، وقد كتب الظفر لهذا العلم الصغير ، فلم يهزم في موقعة قط . ولما أقبل عبد الرحمن على المدينة خرج له صاحب الأندلس يوسف الفهري فتغلب عليه ، ودخل قرطبة ظافراً . ولم تمض سنة على نزوله الأندلس حتى كان المسيطر على جميع أرض إسبانيا . وبإقدام هذا البطل وعبقريته وبعد همته ، قدر للدولة الأموية في الأندلس أن تبقى في الحكم نحو ثلاثة قرون .

كان عبد الرحمن الداخل شجاعاً واسع الحيلة ، استطاع أن يحتفظ بملكه بين الزعازع والعناصر المضطربة لأنه كان سريعاً عند الخطب ، قوى العزيمة إذا وثب ، غير متحرج إذا صمم ، شديد البطش إذا غلب ، سياسياً داهية ، أعد لكل مفاجأة عدتها ، وكثيراً ما عجمته الحوادث فزأت فيه بطلاً هماً .

لم يستقر بعيشه طويلاً حتى اجتاز العلاء بن مغيث ليرفع العلم العباسي بإسبانيا ، فحاصر عبد الرحمن بجيش لجب في قرمونة ولكن عبد الرحمن كان عبقرياً لا يطيش له جنان ، فجمع سبعماية من خيرة رجاله ، ثم أوقد ناراً عظيمة وصاح فيهم : إننا الآن بين حالين : نصر مؤزر أو موت محقق . ثم ألقى بقراب سيفه في اللهب ، فتأثر أصحابه وألقوا بقرهم في النار ، وأقسموا ألا يضعوا السيوف في أغمادها حتى يهزموا أعداءهم ، ووصلت أنباء هذه الهزيمة إلى المنصور العباسي ، فقال : ما في هذا الشيطان مطمع ، فالحمد لله الذي صير هذا البحر بيني وبينه .

وثار عليه البربر في الشمال فأطفأ ثورتهم ، ثم وثب على اليمنية فاستأصل شأفتهم ، وقتل منهم ثلاثين ألفاً في موقعة واحدة .

ومنذ ذلك الحين استقر الأمر للدخل ، وخضع لعزيمته كل زعيم وأثبت أنه سيد الموقف ، وتقرب إليه قارله وهو الاسم العربي لشارلمان ملك فرنسا ، ودعاه إلى السلم والمصاهرة ، فقبل السلم وأبى المصاهرة .

ظفر عبد الرحمن بإخضاع قومه ، ولكنه لم يظفر بإخلاصهم ، لأنه كان لا يحامل أحداً يقف في طريق سياسته ، ولا يصفح عن زلة من أقرب الناس إليه ، فقد قتل أكثر معاصديه عندما هبط الجزيرة بعد أن شك في وفائهم ، وقتل كثيراً من أهله وأقاربه ، ونفى خادمه بدرًا الذي ذلل له الطريق إلى الأندلس .

ويصف بعض المستشرقين عبد الرحمن بأنه جبار لطنخ عرشه بالدماء، ولكن ماذا كان يعمل منشئ دولة جديدة بين عتاة جبارين، إن لم يكن قاسيا جباراً؟ لقد كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك لتوطيد الحكم سبيلا أخرى، ولم تكن إليه من وسيلة لاجتثاث القوضى إلا أن يقابل هذه القوضى بالشدة والعسف.

ولكن عبد الرحمن الشاعر كان غير عبد الرحمن الملك السياسى، فإن شعره يدل على رقة العاطفة ولطف الإحساس، كتب إلى أخته في الشام:

أقر من يعضى السلام لبعضى	أيها السراكب الميمم أرضى
وفؤادى ومالكى به بأرض	إن جسمى كما تـراه بأرض
وطوى البين عن جفونى غمضى	قدر البين بيننا فافترقنا
فعى باجتماعنا سوف يقضى	قد قضى الدهر بالفراق علينا

ومات عبد الرحمن في ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة، وهو ابن سبع وخمسين سنة، ولا يزال ذكره حيا يدوى في الأفاق، فعلية الرحمة والرضوان.

صديقي أحمد شوقي (*)

في مدينة رشيد تلك المدينة الشاعرية الهادئة ، التي تقبل أذيالها الأمواج ، وتتوج هامتها الرمال الذهبية ، نشأت في أسرة فتنن بالأدب ، وأغرمت بفطرتها وباستعدادها الموروث بروائع الشعر على اختلاف ألوانه وفنونه . وكان أبى إذا جلس بعد العشاء التف حوله أبنائه فتنقل بهم من أدب إلى تاريخ إلى بحوث سهلة في اللغة ، ثم إلى شعر جزل رصين . ولقد كان عليه الرحمة كثير القراءة ، قوى الحافظة ، حسن العرض والأداء ، فكان متاعاً أن نستمع له ، وأن ترف نفوسنا حوله طليقة مريحة في هذا الجو العجيب . وكان أخى الأكبر مولعا بشعر شوقي ، معجبا به ، لا تكاد تظهر له ذرة حتى يلتقطها ، أو تنشر له الجرائد قصيدة حتى يحفظها في ضبط وإتقان ، كأنها من وحي السماء ، فإذا أجاد حفظها أخذ يترنم بأبياتها في غدواته وروحاته ، لا يلهيه عنها إلا أن تظهر لشوقي قصيدة أخرى . وكنت في غضاضة صباى ، وقد أكون في طفولتى ، أترسم خطأ هذا الأخ الكريم ، وأتحيل فيه المثل الأعلى الذى إليه أصبو ، وبالأمال في ظلاله أعيش . وكم كنا ننتظر الأعياد والمواسم وما يجد من صروف وأحداث ، لتطلع علينا جريدة المؤيد بفريدة من فرائد شوقي . وأذكر أنى كنت أترقب البريد في شوق وشغف ، فلا أكاد أظفر بالجريدة والمخ فيها قصيدة لشوقي حتى تأكلها عيني في شوق ونهم ، وفي الحق أن جوع الأرواح أقل صبرا على الحرمان من جوع الجسم ، ثم أعود إلى أخى وأناوله القصيدة فيسرع إلى قراءتها بصوت رنان رائع الإيقاع ساحر الأداء ، يزيد جمالها جمالا ، ويملا منها الفراغ الذى لم يستطع الشاعر ولم تستطع اللغة أن تملأه .

ولن أنسى ما حييت تلك الروعة الروحانية التي كانت تهز قلبى هذا ، حينما كنت أتعثر في قراءة قصيدته في السلطان عبد الحميد التي بعث بها من الأستانة لتنشر بمصر :

(*) ذكريات طريفة . . لم يسبق نشرها عن أمير الشعراء . نشرت بمجلة «الهلal» بالمجلد ٥٦ الجزء ٩ ص ٨٤ عام ١٩٤٨ .

هل عندكن عن الأجباب من خبر ؟
لا في الغوالي ولا في النور والزهر

بالله يانسمات النيل في السحر
عرفتكن بمعرف لا أكيفه

ومنها :

تستقبل الليل بين النوح والعبر
وغير دمع كصوب المزن منهمر
جفنا يعين أخوا الأشواق لم نعر

وما شجاني إلا صوت ساقية
لم يترك الوجد منها غير أضلعها
بخيلة بآقيها فلو سلت

ومنها وقد أبدع في التخلص :

وداع عتظ بالمهد مدكر !
وذى ثمام لم ينهض ولم يطـر
وأسلمـوني لظل الله في البشر

مصر العزيرة مالى لا أودعها
خلفت فيها القطا ما بين ذى رغب
أسلمتهم لعيسون الله تحرسهم

وتعاوننى الآن وأنا أكتب هذه الأبيات ، تلك الروعة التى هزتنى فى صباى ، وتطوف حولى
أطراف براقه من الشباب النضر والأمل الباسم ، فسقيا للشباب ولأيام الشباب !

* * *

عرفت شوقى حينما تفتحت عيناي على شعر يقرأ ، عرفته وصادفته على بعد ما كان بيننا من ديار
وأفاق ، عرفته غلاما ليس لاسمه وجود إلا فى سجل المواليـد ، وهو هو شوقى العلم الفرد فى مصر ،
وشاعر القصر الذى ملأ اسمه أسباع الزمان ، عرفته فى شعره ، ودرست خلجات نفسه فيما كان ييـوح
به لسانه أو يطويه صدره .

ثم دارت الأيام وتقلبت الصروف ، ولم يعد شوقى شاعر القصر ؛ لأن المقادير أرادته على أن يغرد
طليقاً ، وعلى ألا يكون شاعر فرد بعينه بل شاعر مصر والشرق . وكنت فى هذه الفترة أستاذاً بدار
العلوم منصرفاً عن الشعر بدروسى وكتبى وأوراقى ، ولكن شيطان الشعر لم يمهلى طويلاً ، فطاف
بى ذات ليلة وهمس فى أذنى بقصيدة أولها :

وسلوت كل مليحة إلاك
ومضلتى وهداى فى يمناك

ما لى فتنت بلحظك الفتاك
يسراك قد ملكت زمام صبابتى

ونشرت جريدة الأهرام القصيدة ، وأعجب بها الناس ، وأخذ اسمى يجد فى الأفواه مكانا ، ولم
يمض غير قليل حتى قابلنى شوقى فى أحد محافل القاهرة ، فعرفته مرة أخرى بعد أن عرفته فى شعره ،
وكان بى حفيفا فاتصلت بيننا أواصر المودة ، وتعددت المقابلات ، ففهمت نفس الرجل ، ودرست
عاطفة الشاعر وطرائق فنه .

كان شوقى جم التواضع طاهر القلب ، سخى الكف لطيف العاطفة ، خيرا . وكان قليل الكلام
كثير الإطراق ، وأغلب الظن أنه كان ينظم الشعر وهو جالس بين أصدقائه ، فكان يكفى بأن يبعث

إليهم بالكلمة أو الكلمتين ثم ينصرف إلى قصيدته التي هو بصدد نظمها . كنا نطوف يوما في سيارة حول الجزيرة فأعطاني كتفه وانصرف عني طويلاً ، حتى كدت ألوم نفسي على مرافقته ، ولكنه بعد لأي التفت إلى فجأة وسألني سؤالاً في اللغة ، وكان السؤال عجيبا ؛ لأن الجواب عنه لم يكن يخفى على مثل شوقي ، وضحكت وعلمت أنه يريد أن يجاملني بالحديث . وأستطيع أن أقول هنا : إن شوقي كان مكيئا في اللغة وفي طرائق استعمالها ، ولم يكن يأخذها من المعجمات ، وإنما كان ينهل من صحيح الشعر وجيد النثر . ولو أردنا أن نتعقب ذلك في شعره وأن ندلل عليه لطال حبل الكلام .

* * *

وحينما عاد من إسبانيا زادت مودتنا توثقا ، واتفق أن حضر أخى الأكبر إلى القاهرة وألح في أن يرى شوقي ، فذهبنا إلى داره بعين شمس ، وكان شوقي كريما في لقائه ، كريما في حفاوته . وما كاد يستقر بأخى المجلس حتى انطلق يسأل شوقي عن قصائده التي قالها منذ أزمان ، ويطلب إليه أن ينشدها له ، ولم يكن شوقي حسن الإنشاد ، ولم يكن حافظاً لشيء من قصائده ، ولكن أخى رحمه الله لم يخل على شوقي بأن يسمعه شعر شوقي ، فاندفع كما يندفع الأرتي الجارف ينشده قصائده في صوت جهوري ، ويفسر له بعض أبياتها ، وشوقي مأخوذ معجب بأن يكون له رواة هم أحرص منه على شعره وأشد كلفا !

ودارت في هذه الليلة فنون شتى من الأحاديث ، عرفت منها أن شوقي قوى الإيمان بالله ، عظيم الأمل في رحمته ، وأنه يخضع الفلسفة في الدين ويريده نقياً فطرياً كما نزل على محمد بن عبد الله ﷺ ، وأن له طبيعة دينية سمحة تنفر من التعصب والجمود وضيق الأفق ، وأنه يحب آل الرسول ﷺ حبا جما يكاد يقرب من التشيع ، وأنه يؤمن بالقضاء والقدر إيمان العجائز .

* * *

واتخذ الحديث مجرى الأدب حينما أخذنا نطوف بأبيات من سينيته الأندلسية التي عارض بها البهترى ومر بنا البيت :

أحرام على بلابله السدو ح حلال للطير من كل جنس ؟

وجاء ذكر الابتداع والتقليد ، فقال شوقي : إن الابتداع المطلق قليل نادر ، وربما فاز به الشاعر المجيد في بيت واحد من قصيدة طويلة . فقلت بصوت به رنة ذات معنى : هل غادر الشعراء من متردم ؟ فقال شوقي : « أجل يا أخى ، ولكن الشاعر الموهوب يحسن التوليد ، ويأتى بالمعنى المولد من معان قديمة فيروعك حسن مأخذه ، وتبدو لك فيه جودة مصنوعة ، لها في نفسك كل ما للمعنى الجديد من أثر . ألا ترى أن تشبيه ذوائب الحسان بالليل في السواد والطول ، وتشبيه وجه المليحة بالقمر ، تشبيهان مبذولان ملقيان في الطرق ، ولكن المتنبي حينما أخذهما صهرهما بذوقه وأخرجهما من مصنع فنه في ثوب جديد براق حين يقول :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها
واستقبلت قمر السماء بوجهها
في ليلة فأرت ليلالي أربعا
فأرتنى القمرين في أن معا

فقلت : وربما كانت إجابة فن الأخذ والتوليد من أكبر ميزات شعراء الأندلس ، فإن كل معانيهم
مشرقية ولكنهم بالتطعيم والتوليد أعادوها جديدة رائعة .

* * *

ولما أزمع أدباء مصر وشعراؤها إقامة حفل لتأبين إسماعيل صبرى نظم شوقى في رثائه قصيدته
التي أولها :

أجل وإن طال الزمان موافى
أخلى يدك من الخليل السوافى
وسألنى في تردد وحياء أن ألقى له قصيدته في الحفل . . فقبلت مسرورا ، وحرص شوقى بعد ذلك
على أن أكون منشد قصائده ، فما ترددت مرة في إجابة طلبه .
واحتفلت العروبة بزعامته وإمارته للشعر ، وقد أنفق شوقى في هذه الحفلات كثيرا وأغدق على
كثير ، فبعثت إليه بقصيدة لتكون هدية له في عرس إمارته أولها :

وقفت تمجدد آثارها
وتبعث بغداد بعد الما
وتنشر للمرب أشعارها
ت تحدث للناس أخبارها

* * *

وكنت أعرف أن شوقى كثير القراءة ، ولكننى لم أكن أظن أنه يعنى بقراءة الشعر في عصور
تراجعه ، حتى زرتة يوما وكان مريضاً ، وكانت حجرة نومه صغيرة قليلة الأثاث . دخلت عليه فإذا
هو في سرير صغير ، وقد بعثت الكتب حوله عن يمين وشمال ، فمددت يدي إلى أحدها فإذا هو
«خزانة الأدب» لابن حجة الحموى ، فسألته في استنكار : « أتقرأ أمثال هذه الكتب ؟ إن أكثر ما
فيها شعر صناعى ليس به إلا زخرف لفظى وبراعة في التزييق » . فابتسم وقال : « إن الشاعر يأخى
يجب أن يقرأ كل شعر ، وإن هذا الكتاب كاسمه خزانة أدب ، وخير ما فيه شعر العصر المملوكى » .
ثم اتجه نحوى يقول : « أتستهين بشعر الممالك ؟ » فقلت : « إنه لا يعدو أن يكون لعباً بالفاظ على
حساب المعانى ، وعناية بالنكتة والتورية » فابتسم وقال : « إن شيئاً من ذلك لو عرض لى في شعرى
لعددت غنيا فنيا ، إننا يا أخى فتننا بشعر بغداد فأضعنا كثيرا من مقومات بيتنا المصرية ، وشعر
الممالك شعر مصرى صميم ، وإن في ديوان ابن نباتة الذى نبذناه كبرا وتعاطيا العجب العجيب من
روائع الفن وحلاوة الروح المصرية المرحمة » .

* * *

وكان هذا آخر العهد بصاحبي عليه الرحمة والرضوان ، ولست أجد الآن في توديعه أبلغ مما قاله في
توديع حافظ :

اليوم هادنت الحوادث فاطرح	عبء السنين وألق عبء الداء
خلفت في الدنيا يائئاً خالداً	وتركت أجيالاً من الأبناء
وغداً سيدرك الزمان ولم يزل	للدهر إنصاف وحسن جزاء

أعلام الإسلام طوائف من زياد (*)

للدول في أول نشأتها عزم الشباب، وإقدام الشباب، وآمال الشباب. وهى في بدايتها الأولى تمثل خشونة القوة، وبعد الهمة، وجرأة العزيمة التى لا تبالى بالموت، ولا تأبه للحياة هكذا كانت دولة العرب في صدرها الأول، فقد انطلقت من جزيرتها التى ربضت فيها قروناً، منعزلة عن العالم، لاتتصل به إلّا لماماً في بعض مشارفها ونحومها. انطلقت أمة العرب من عرينها فتية وثابة كأنها الأنتى الزخار، فعصفت بأمة الفرس، وثّلت عروش دولة الرومان، وكانت قلوبها أصلب من رماحها، وعزائمها أمضى من سيوفها. وقارئ التاريخ في هذه العهود يملكه الدهش، وتستبد به الحيرة، كيف استطاعت هذه الأمة الصحراوية التى لا تتسلح إلّا بالحق أن تحطم بضربة سيف، أو وخزة رمح، أعرق دول العالم في ذلك الحين مدنية وعمراناً، وأعظمها قوة وسلطاناً؟ ولكنه الإيمان الراسخ في الصدر والفناء في العقيدة، وبيع النفس رخيصة في سبيل الله، كل أولئك خلق فيهم من الضعف قوة، ومن التردد إقداماً، ومن الرهبة جرأة وصلابة وعناداً. لقد كانت هذه الصفات تقيم جيشاً لا يقف في وجهه جيش، وعتاداً يهزم أمامه كل عتاد.

فتح الله على المسلمين بلاد الشرق والغرب، وأمكنهم من دهاقنة الفرس وبطارقة الرومان، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، فجعلت منهم الفتوح قواداً وأبطالاً، لم تظفر البشرية بكثير من أمثالهم وأغراهم الظفر بالظفر، والغزو بالغزو وتوسيع رقعة الإسلام، فكثرت فيهم المغامرون الذين حملوا أرواحهم بأيديهم فاتحين غارين، لا يسألون ما أمامهم ولا يخافون عاقبة ما وراءهم، من كل ضرغامه وثّاب.

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ١٩/١٠/١٩٤٨.

ونكب عن ذكر العواقب جانباً

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه

لكن أصلب هؤلاء المغامرين عوداً، وأقواهم عزماً، طارق بن زياد فاتح الأندلس. نشأ طارق بنفرة وهي حلة صغيرة بإفريقية. ولا يقص علينا الرواة كمعادتهم شيئاً من نشأة طارق الأولى، ولكننا نستطيع أن نعرف أوله من آخره، وأن نقرأ من رجولته ما كان عليه في صباه. ويكفى أن نتخيله غلاماً موثق الخلق، قوى العضل، كبير الهامة ضيق العينين، يجلس إلى جانب أبيه ذاهلاً مبهوراً كلما قص عليه بعض أنباء إسبانيا بما فيها من جمال وثروة وخصب، وما للملكها من قوة وسلطان. ويكبر الغلام وتكبر معه آماله. لا يجد أشفى لنفسه وأدنى لمطامحه من أن يكون جندياً في جيوش الإسلام. فلم يكده يصل إلى مسمعه أن الوليد بن عبد الملك ولّى موسى بن نصير على إفريقية وما خلفها، حتى يأخذ طريقه إليه لينضم إلى جيشه، ويظهر فيه من الشجاعة وحسن التدبير ما يقربه إلى نفس موسى، فيجعله في مقدمة جيشه. وينطلق طارق القائد فيخضع البربر، ويستولى على معاقلهم، ويفتح مدينة طنجة التي هي قصبة بلادهم، وأم مدائنهم. ونتخيله بين الحين والحين وهو يقف على سيف البحر، ويطرح بصره نحو إسبانيا، وغريزة الغزو والغلب تضطرم في نفسه، فيهرز رأسه في عزم وإصرار، ساخراً من العقبات، مستهيناً بالموج الغاضب المتوثب. وتمر الأيام وتحجى سنة اثنتين وتسعين للهجرة، فإذا موسى بن نصير يدعو إلى غزو الأندلس، نعم يدعو إلى أحب شيء إلى نفسه، يدعو إلى تحقيق غاية كانت مسرى أحلامه بالليل، ومسبح آماله بالنهاري. أنصت طارق إلى قائده فإذا هو يقول: لقد أعددنا أربع سفن، واثنى عشر ألفاً من الجنود بين فارس وراجل، فاذهب يا طارق إلى عدوة الأندلس، وبدّد جموعهم، وامتلئ بلادهم وحطّم تاج لذريق. يا للجرأة! ويا لعظمة الثقة بالنفس! اثنا عشر ألفاً من الجند لا يتسلح أكثرهم إلا بهراوة أو حجر يقذفون بأنفسهم لغزو دولة من أقوى ممالك الأرض جندا وأعظمها عدة وعديداً؟ ولكنه الإيمان الحق الذي يعصف بالجيوش ويزلزل العزائم.

اقتحم طارق البحر بهذه الفئة القليلة تحت ستار الليل، حتى بلغ جبل الفتح الذي يسمى باسمه. وما كاد ينزل بجنده حتى علم لذريق بقدمه، فأقبل عليه في جيش خضم، تحيط به الفرسان وهو محمول على سريه وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت، ولما لمح طارق سواد الجيش الإسباني حاجت نفسه وجاشت، وخاف أن يهول جنده عظيم جيش أعدائه، فأسرع إلى السفن وأحرقها حتى يمحو كل أمل في الفرار، ثم وقف بين جنده خطيباً يصيح: «أيها الناس، أين المفر! البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفوره، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا قوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. ولم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، وإنني عند ملتقى الجمعين لحامل بنفسى على طاعة القوم فقاتله إن شاء الله، فاحملوا معي». فثارت حماسة الجند عاتية صاخبة، ووثبوا على جيش الإسبان

أسودًا ضاربة، ثم لمح طارق لذريق فصاح: هذا طاغية القوم، هذا هو بعينه. ثم حمل عليه وحمل أصحابه معه فتفرقت المقاتلة بين يدي لذريق وأدركهم الوهل من جرأة العرب وصدق حملتهم، فخلص إليه طارق فضربه بالسيف فقتله على سريريه، فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم ثارت حميتهم، ولكن النصر كان حليف المسلمين، فكروا على أعدائهم فتكنا وتقتيلا. وكتب ابن نصير إلى الخليفة يقول: إنما ليست الفتوح يا أمير المؤمنين ولكنها الحشر ويومه. وحينما جدل طارق لذريق وأعمل سيفه في أصحابه فر الإسبان إلى الحصون والقلاع فأقبل نحوهم والنصر جنيبه حتى انتهى إلى طليطلة دار مملكة القوط فألفاها خاليه فدخلها، ثم دفعته عزيمته إلى اختراق أرض جليقية إلى أقصى الشمال. ولحق به موسى بن نصير وجعله في مقدمته، وكانا لا يمران بموضع إلا فتح عليهما، حتى بلغا وادي ردونة، وخاف الخليفة الوليد من توغل المسلمين في بلاد الفرنجة، فبعث رسولاً إلى ابن نصير يستعجله في القفول، فعاد طارق إلى الشرق بعد أن أقام بالأندلس أكثر من ثلاث سنوات، ثم تنازع القائدان وتقاضيا إلى سليمان بن عبد الملك، فحكم لطارق وأعادته إلى القيادة بإسبانيا.

طيف حبيب (*)

في أيام الصيف القافظ ومنذ خمسين سنة كنت بمدينة الفيوم . نعم طوحت بى المقادير إلى هذه المدينة وأنا طالب أزهرى حدث السن ، نشأ فى أقصى الشمال ودرج بين البحار والرمال وفى ظلال النخيل ، لا يعرف للشمس لفحا ، ولا يشكو من حرها ضبحا :

وقد تلجئى الحاجات يا أم مالك إلى هجر دار ، أو فراق صديق
كان أبى قاضيا للمديرية ، فكنت إذا حمى وطيس القيظ بالقاهرة ، وأظلتنى عطلة الأزهر ،
حملت خرجى أو حقيبتى - وأظن أنه لم يكن لى حقيبة فى ذلك الزمان البعيد - ويممت شطر البلد
الذى يقيم به أبى .

وكانت مدينة الفيوم فى هذا العهد من أجمل مدن مصر منظراً وأخفها روحاً ، يمر بوسطها بحر
يوسف هادئاً وثيد الخطى ، ويقوم على أحد شاطئيه قصور العظماء وسراة المدينة رحيبة فخمة متباعدة
فى طراز البناء ، تنطق بما لقطانها من المنزلة ويسطه الرزق . ولى فيها فى تلك الأيام قصيدة منها :

ساكنى الفيوم إنى ذاكر	عهدكم ، والذكر فى البعد وفاء
كم شدا شعرى على دوحكم	أى شعر غرد؟ أى غناء ١٢
بلد كالزهر حسنا وشدا	بين أظلال وأنسام وماء
مثل خد البكر فى تلوينه	ترتدى فى كل حين برداء
فهى بالأمس سواها فى غد	وهى فى الصبح سواها فى المساء

(*) نشرت « بمجلة الهلال » بالمجلد ٥٦ الجزء ١٢ ، ديسمبر ١٩٤٨ ص ٩٣ .

وكننت في ذلك الحين شاديا في الأدب ، مولعا بالشعر . وللأدب إيتنا حل نفحة تجتذب إليه الأدباء ، كما تجتذب النحل الرياض . والأدب ماسونية تذهب بالكلفة ، وتمحو الفروق بين الأشخاص . وأخوة متينة العرى وثيقة الأواصر ، وقديا قالوا : « صلة الأدب فوق صلة النسب » فما كدت أحل بالمدينة حتى سعى إلى أدباؤها ، أو سعيت إليهم ، وكانت لنا مجالس في ناد صغير كان يزين لنا الغرور أنها تفوق مجالس عكاظ وحلقات المريد . أدب وشعر وفكاهة ، ثم دعابات ومجون تصور هو الصبا وعبث الشباب . فسقيا للشباب ولأيام الشباب !

وكان عصر الأدب في طليعة هذا القرن بمصر زاهرا ، وكان للأدب فتنة وله في نفوس الشباب روعة ، وإيتنا تروج سوقه حيث تميل إليه الأسباع ، وحيث تقدر جهود الأديب . كنا في النادي ذات ليلة نتناشد قصيدة للشيخ عثمان زقاني^(١) مطلعها :

لا أنت واصلت ولا أنا سالى
صدق الهوى وكذبت في آمالى

والشيخ عثمان شاعر مقل ، جرى في غبار البارودى وحاكاه في أسلوبه العربى الرصين وفي التشبه بشعراء الجاهلية . وبيننا نحن في جدال عنيف إذ دخل مهدي أحمد خليل^(٢) وكان وقتئذ مدرسا للعربية بالمدرسة الابتدائية ، وهو شيخ فارغ مبسوط الجسم ، مفرط في الطول ، رمى الله عينيه بالعمش ، وخديه بالنمش ، كان يزعم أنه يقول الشعر ولكنه في الحق إنما كان ينحت من الصخور ، يجمع من ألفاظ القاموس المحيط كل غريب نفور متعاضل ليملا به تفاعيله ، دخل مهدي خليل وقال : « أتعلمون من سيزورنا في النادي هذه الليلة ؟ » ، قلنا : « لا » ، قال : « أحزروا » ، قلنا : « لا نحز ، اجلس فما عهدناك مرة بشير خير » ، فقال : « إني والله في هذه المرة بشير خير ! » . ثم وضع يديه على ركبتي وقال : « سيزورنا الليلة السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، فقد حضر من القاهرة بالأمس لزيارة أبيه القاضى الشرعى بمركز الفيوم » .

كلنا كان يعرف السيد مصطفى في أدبه قبل أن يلتقى به ، فقد كانت له شهرة ذائعة على حداثة سنه وقرب قيد اسمه في سجل الأدباء . وأذكر أنى عثرت مرة على أوراق مطبوعة بها قصيدة قافية تربي على مائة بيت نسبت للسيد مصطفى ، كلها تشهير بالاحتلال ، ونسبت إليه قصيدة أخرى حكم عليه بالحبس بسببها كان لها ضجة بمصر ودوى يثقب الأذان . ويظهر أن السيد مصطفى حينما رحل من منفوط إلى القاهرة أول ما رحل ، كان موفور المواهب كامل العدة في الأدب ، التف به قوم جعلوه لسائهم الناطق ، فرمى عن قوسهم جريئا غير هباب ، على حين كان هؤلاء السادة يختفون خلف كرامة مصنوعة ووقار مخلق .

كانت الساعة التاسعة حينما دخل السيد مصطفى النادي ، فرأينا شابا في نحو الثانية والعشرين ،

(١) كان أحد خريجي دار العلوم ، ومكث مدة أستاذًا بمدرسة البوليس .

(٢) تخرج في دار العلوم عام ١٨٩٨ م .

معتدل الطول ، ناضر العود ، وسيا في غاية الوسامة ، قسيا في منتهى القسامة . وجه عربى يميل إلى الاستدارة ، وعينان سوداوان ذابلتان فيهما خيال وفيهما فن ، وأنف مستقيم لا ترى فيه عوجا ولا أمّا . وكان السيد جميل الزى أنيقا في ملبسه دون أن يشعر أنه يعتمد الأناقة أو يتكلف حسن الشارة .

حينما السيد تحية المشوقين إلى رؤيته المعجيين بأدبه ، وسلك بنا الحديث شعبا شتى نال فيها السيد قسطا يسيرا ؛ لأن الحياء كان من أبرز صفاته ، فلم تكن تفتح نفسه وتبدو على سجيته إلا بعد معاشرته ومخالطة .

رأيت السيد فهتت إليه روحى ، وسكنت نفسى ، وتوالت الاجتماعات بالفيوم فنفض عنه الكلفة ، ورأيت كما هو وكما كنت أحب أن أراه : جم الأدب ، كثير الحفظ والرواية ، حسن الاختيار لما يحفظ ، فلا يروى لشاعر إلا الجيد المختار والرائع المتخّل . وتمكنت بيننا الصلة فلم أكن أغادر مجلسه إلا حيث نفترق للنوم . وكان معه بالفيوم أخوه أبو بكر ، وكان أديبا قارئا ولكن أدبه كان من صنف آخر . وأذكر أنى أنشدتها مرة قصيدة لى فى الفخر منها :

إذا كان عيبى بينهم أنى فتى	صغير، وشعرى بالشبيبة مسود
فمهلاً أنا النجم الذى يبصره	صغيراً، ويخفى قدره عنهم البعد

ويظهر أن أبا بكر حفظ بعض أبيات من القصيدة ، وأتفق أن تنازع مع بعض أخوته يوماً أمام أبيه وصاح فيهم : « صدق والله الشيخ على الجارم ! » . فقال أبوه : « وما شأن الشيخ على الجارم يا ولد؟ » فقال : « لأنه يقول :

سئمت حياتى بين قوم فضائل	لديهم يغطيها التعصب والحقد
إذا ما بدت ترنو إليهم فضيلة	تصدى لها نذل وكسر لها وشد

وكان جزاء أبى بكر المسكين أن لاقى من أبيه على هذه الصراحة شر ما يلاقى مولود من والد ! وقد أخبرنى السيد بهذه القصة وهو لا يكاد يمسك نفسه من الضحك .

أقمنا بالفيوم نحو شهرين عرفت فيهما عن كثر فضل السيد وخلقه وأدبه ، فقد كان سريع الخاطر ، حلو النادرة ، لا ينطق المهجر ، ولا يجب أن يسمعه ، دقيق الحس نبيل العاطفة ، جذابا إلى أقصى حدود الجاذبية ، سخيا إلى أبعد مطارج السخاء . ثم هو محدث لبق يحسن اختيار لفظه ، ويحميد تصوير معناه . وكان بصوته الهادئ صحل خفيف له حلالة وعذوبة ، وكان من عادته إذا بدا الحديث أن يزم شفثيه قليلاً فتبدو في خده الأيمن فحصة خفيفة تزيد وجهه حسنا وملاحة .

عدنا إلى القاهرة ممّا وكنا سئمنا دروس الأزهر . واحتوينا متونه وشروحه وحواشيه ، ورمينا الطرف إلى منتهاه وغايته قرأنا أننا لا ننال الشهادة إلا إذا قضينا فى الدرس اثنى عشر عامّا وكنا من كبار

النايفين ، وكم كان مرتب الشهادة ياترى في ذلك الحين بعد الكد الطويل والعيش الممض ؟ أربعة ريلات صحيحة كاملة نقدًا وعدا في كل شهر ! رأينا هذا فانصرفنا عن الأزهر وجعلنا مجلسنا في الصباح « بقهوة أفندية » وهى قهوة لا تنزال أمام المشهد الحسينى إلى الآن . ألا ليت شعرى هل كانت تعلم جدران هذه القهوة ، أو كان يعلم صاحبها أن طائفة البؤساء المفلوكين الذين يجلسون في أحد أركانها وهم بين إنشاد وشعر وتنادر وضحك وصخب ، سيكونون أعلام الأدب في مصر ، وزعماء النهضة في الشعر والكتابة ؟

كنت ترى في هذا المجلس حافظ إبراهيم ، وإمام العبد ، وعبد الرحمن البرقوقي ، وأحمد نسيم ، وأحمد فؤاد . وكان من عادتنا أن نجلس كل يوم إلى كتاب أدب أو ديوان شاعر نقرأ طرائفه ونتخذ منه مادة للنقد والجهر بالرأى الحر الجرىء ، فإذا جاء موعد الغداء ذهب أكثرنا مع السيد إلى داره ، وكان رحمه الله يزيد وجهه تهللاً وبشرا كلما زاد عدد الطاعمين .

ثم دخلت دار العلوم فأنحرف بى الاشتغال بها عن طريق السيد ، وكان قد زاد اتصاله بالشيخ على يوسف فنشر بالمؤيد « النظرات » التى رفعتة إلى القمة ، وطارت باسمه كل مطار ، وهى مقالات تصور عاطفته وتكشف عن ذات نفسه التى تفيض بالرحمة والحنان ، ثم هى إلى ذلك فن جديد فى الكتابة الجزلة السهلة الرائعة التى كانت فتحةً مينا فى النثر العربى ، ومثلاً عالياً لناشئة المتأدين .

وحينما عدت من انجلترا كان السيد كما تركته لا يزال يمتلك ناصية المجد ، ذلك المجد الهادئ الرصين الذى بلغه بسنان قلبه العف ، وبروعة فنه الرفيع ، والذى لم يصل إليه بسلطة لسان ، أو غرابة مذهب ، أو إثارة جدل حول اسمه ليدفع الناس إلى ذكره والتحدث عنه .

وثمكنت صلته فى ذلك العهد بالزعيم الراحل سعد زغلول باشا ، واتفق أن مات السيد عليه الرحمة يوم جرح الرئيس بميدان محطة القاهرة ، فشغل الناس خطب الرئيس عن خطبه ، وصرفتهم فجميعتهم الكبرى فى سعد عن أن يؤدوا ما عليهم للكاتب المجيد يوم رحيله من حفاوة وتكريم ، وفى ذلك يقول شوقى :

ونعاك فى عصف الرياح الناعى
جرح الرئيس منافذ الأسع
قدمما تشيع أو حفاوة ساع
كيف الوقوف إذا أهاب الداعى ؟
ليس الغرور لميت بمساع
شتى المواكب فيه والاتباع
واظهر بفضل كالتنهار مذاع
لبق بوشى الممتعات صناع

اخترت يوم الهول يوم وداع
هتف النعاة ضحى فأوصد دونهم
من مات فى فزع القيامة لم يجد
ما ضر لو صبرت ركابك ساعة
خل الجنائز عنك لا تحفل بها
سر فى لواء العبقرية وانتظم
واصعد ساء الذكر من أسبابها
فجع اليان وأهله بمصور

الجملة الفعلية أساس التعبير في اللغة العربية (١٠)

تقتضى العقلية العربية أن تكون الجملة الفعلية الأصل والغالب الكثير في التعبير ، لأن العربي جرت سليقته ودفعته فطرته إلى الاهتمام بالحدث في الأحوال العادية الكثيرة ، وهي التي لا يريد فيها أن ينيه السامع إلى الاهتمام بمن وقع منه الحدث ، أو التي لا يهتم هو فيها بمن وقع منه الحدث ، فالأساس عنده في الإخبار أن يبدأ بالفعل فيقول : عدا الفرس ، ورعت الماشية ، وعاد المسافر . وقد يلتجئ العربي إلى الجملة الاسمية إذا كان القصد إلى الفاعل وإلى الإسراع بإزالة الشك فيمن صدر منه الفعل ، فيبدأ بذكره أولاً قبل أن يذكر الفعل لكي يخصصه به ، أو لكي يبعد الشبهة عن السامع ويمنعه أن يظن به الغلط أو التزيد . قال صاحب دلائل الإعجاز : « . . . فإذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت : زيد قد فعل وأنا فعلت وأنت فعلت ، اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل . إلا أن المعنى في هذا القصد ينقسم قسمين : أحدهما جلي لا يشكل وهو أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر أو دون كل أحد . ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت في معنى فلان وأنا شفعت في بابه ، تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به وتزيل الاشتباه فيه وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتبت . ومن البين في ذلك قولهم في المثل : أتعلمني بضرب أنا حرشته ؟

(*) ألقى هذا البحث في مؤتمر المجمع السنوي في ١ يناير ١٩٤٩ ونشر بمجلة المجمع بالجزء السابع ص ٣٤٧ .

« والقسم الثانى ألا يكون القصد إلى الفاعل على هذا المعنى ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل وتمنعه من الشك ، فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولاً ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه ، لكى تباعده بذلك من الشبهة وتمنعه من الإنكار ، أو من أن يظن بك الغلط أو التزديد ، ومثاله قولك : هو يعطى الجزيل وهو يحب الثناء : لا تريد أن تزعم أنه ليس ههنا من يعطى الجزيل ويحب الثناء غيره ، ولا أن تعرض بإنسان وتخطه عنه وتجعله لا يعطى كما يعطى ولا يرغب كما يرغب ، ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه ، وأن تمكن ذلك في نفسه . . . » قال عبد القاهر : وما يحسن ذلك فيه ويكثر ، الوعد والضمان كقول الرجل : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر . . . وكذلك يكثر في المدح والفخر نحو :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا يتقرر

(دلائل الإعجاز ص ٩٩)

ثم انتقل عبد القاهر إلى الحديث في عادة العربى بالتعبير بالجملة الفعلية إذا لم يوجد مقتضى للاهتمام بالفاعل فقال : « ويزيدك بياناً أنه إذا كان الفعل ما لا يشك فيه ولا ينكر بحال لم يكذبىء على هذا الوجه ، ولكن يؤتى به غير مبنى على اسم ، فإذا أخبرت بالخروج مثلاً عن رجل من عادته أن يخرج في كل غداة قلت : قد خرج ، ولم تحتج إلى أن تقول : هو قد خرج . ذلك لأنه ليس بشيء يشك فيه السامع فتححتاج أن تحققه وإلى أن تقدم فيه ذكر المحدث عنه . وكذلك إذا علم السامع من حال رجل أنه على نية الركوب والمضى إلى موضع ولم يكن شك وتردد أنه يركب أو لا يركب ، كان خبرك فيه أن تقول : قد ركب ، ولا تقول : هو قد ركب » .

يتضح من هذا أن من طبيعة العربى تقديم ما يهتم به ، فهو مطبوع بشعوره الخاص على أن يبدأ الكلام بما يرى أن السامع في حاجة إلى تقديمه ، فإذا قال : « سبقت فرسى » فإنه يرى أن السامع يتطلع أولاً إلى وقوع الحدث وهو السبق ، ثم يأتى صدور السبق من الفرس ثانياً . وعلى هذا النمط يجرى في أكثر أخباره . ولكن إذا كانت الفرس معروفة بالبلادة والبطء وكان السامع لا يتوقع سبقها عدل عن الجملة الفعلية وقال : « فرسى سبقت » للإسراع بما يقتضى الدهشة والعجب .

وما يستأنس به في هذا الباب ما جاء في دلائل الإعجاز من الكلام عن التقديم والتأخير بين الفاعل والمفعول به :

« واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه (في التقديم والتأخير) شيئاً يجرى مجرى الأمر غير العناية والاهتمام . قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول : كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهتمانهم ويعنيانهم . ولم يذكر في ذلك مثلاً : وقال النحويون : إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من

أوقعه ، كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجى يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى ، أنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه ولا يعينهم منه شيء ، فإذا قتل وأراد مريد الإخبار به بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجى فيقول : قتل الخارجى جئاً زيداً ولا يقول : قتل زيد الخارجى ، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل زيد جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم ، ويعلم من حالهم أن هم متوقعون له ومتطلعون إليه متى يعلمون وقوع القتل بالخارجى المفسد وأنهم قد تجنبوا شره وتخلصوا منه .

« ثم قالوا : فإن كان رجل ليس له بأس ولا يقدر فيه أنه يقتل ، فقتل رجلاً وأراد أن يخبر بذلك ، فإنه يقدم ذكر القاتل فيقول : قتل زيد رجلاً : ذلك لأن الذى يعنيه ويهم الناس من شأن هذا القتل طرافته وموقع الندرة فيه وبعده كان من الظن . ومعلوم أنه لم يكن نادراً وبعيداً من حيث كان بالذى وقع به ، ولكن من حيث كان واقعاً الذى وقع منه . فهذا جيد بالغ إلا أن الشأن في أنه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى ، ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير . » انتهى كلام عبد القاهر .

ومما يؤكد طبيعة العربى في تقديم ما يهتم به ما جرى عليه في الاستفهام . فإن هناك فرقاً بين أن يقول العربى « أفعلت ؟ » وبين أن يقول « أنت فعلت ؟ » فهو يسأل في الصورة الأولى عن صدور الفعل لأنه يشك في صدوره ولذلك قدمه . أما في الصورة الثانية فهو لا يشك في الفعل ولكنه يشك فيمن فعله . ويأتى النفى على هذا النحو فقولك : « ما كتبت » غير أن تقول : « ما أنا كتبت » لأنك في الأولى نفيت عنك كتابة لم يثبت وقوعها أما في الثانية فقد صدرت الكتابة ، ولكنك تنفى صدورها منك . وإذا قلت « ما أكلت الطعام » فإن هذا لا يحتم أن يكون الطعام أكل ، ويجوز أن يكون أكل وأن آكله غيرك .

وتقديم الفعل على الفاعل هو الأصل ، فالمرء يهتم بالحدث أولاً ، ثم يتجه إلى محدثه ؛ لأن الحدث هو الأمر الجديده الذى يعنيه شأنه ، ولذلك يمكن أن ندعى أن الأسلوب العربى هو الأسلوب الجارى على الأصل ، كلما خطر بذهن متكلم وقوع حدث من فاعله فهو يندفع أولاً إلى ذكر الحدث ثم ينسبه إلى من صدر منه .

ودليل أهمية الحدث في طبيعة المتكلمين أن اللغات تكتفى كثيراً ببناء الفعل للمجهول وتهمل فاعله ، لأن لحصول الفعل عندها المرتبة الأولى ، نعم . لأنهم ذكروا لإهمال الفاعل أسباباً كثيرة ولكن من أكثر أسباب البناء للمجهول عدم الاهتمام بالفاعل نفسه ، وحصر الإخبار في وقوع الفعل من شخص ما .

وقد يحتج علينا محتج بأن منطق الأشياء كان يقتضى العكس ، وهو أن يقدم الفاعل على الفعل ؛ .

لأن ذكر الفعل قبل فاعله ذكر للأثر قبل المؤثر . وعلى ذلك جرت لغات أهل الغرب ، وعلى ذلك جرى العامة في مصر وغيرها من الأقطار العربية ، ولكننا نجيب بأن المسألة ليست مسألة منطقي ، وإنما هي مسألة شعور العربي بما يرى نفسه مندفعاً إلى الإسراع بالتعبير عنه .

ولعل أساس ميل العرب إلى البداءة بالفعل أنهم كانوا يعيشون عيشة بداءة تحيط بها المخاوف ويكتنفها التوجس ، وتكثر فيها المفاجآت فكان يهمهم أن يسرع المتكلم بذكر الحدث قبل من وقع منه الحدث ، فتقول مثلاً : سطا الذئب ، وأغارت قبيلة بني فلان ونفضت البئر ، إلى غير ذلك .

ثم إن الفعل في نظر العربي يتضمن فوق الحدث الذي يفيد نوع الفاعل على شيء ما من الإجمال . فإذا قيل مثلاً : « عدا » فإنه يفهم قبل أن يذكر فاعل العدو أن الفاعل لابد أن يكون حيواناً ، وأن يكون حيواناً خاصاً مما يصح أن يعدو . ويتضح الأمر أكثر من هذا إذا قيل : « اجترة » مثلاً ، فإن الفاعل ينحصر في أنواع قليلة من الحيوان . فهو إذا قدم الفاعل استفاد أمرين : معنى الحدث ، ثم نوع الفاعل على الإجمال . وقد يدل الفعل على فاعل بعينه نحو : نقت الضفادع وماء القط الخ . . .

والفعل يتضمن حدثاً وزماً ، أو بعبارة أخرى يتضمن معنيين في آن ، فالعربي يسرع بتقديمه بدل أن يقدم من صدر منه الفعل لأنه لا يفيد إلا معنى واحداً .

ثم إن العربي ميال بفطرته إلى الإيجاز وتجنب الفضول . فهو يقول : جاء الرجل ولا يقول الرجل جاء ؛ لأن الثانية تتضمن تكرار الإسناد لا محالة . وهو لا يلجأ إلى تكرار الإسناد إلا لغرض بلاغي . حقاً إن الكوفيين أجازوا تقديم الفاعل على الفعل ، وأن مثل قولك : « الرجل قام » لا يتضمن الفعل فيه ضميراً على رأيهم وإنه كقولك « قام الرجل » تماماً . ولكني أرى أن نحيزة العربي ألا يخل فاعلاً من فاعله ، سواء أكان هذا الفاعل ظاهراً أم ضميراً بارزاً أم مستتراً ، وأن ذوقه العام يقتضيه أن يقدم الفعل على الفاعل كما نراه في الكلام الكثير من لغة العرب . ولو كان العربي يميز تقديم الفاعل على الفعل لقال « أنا قام » و « أنت قام » ، ولكنه يقول : « أنا قمت » و « أنت قمت » ولو ادعى مدّح ، أن التاء في قمت وقمت حرف للتكلم أو الخطاب في هذه الأمثلة ، فماذا يقول في قول القائل : « قمت فلان » ؟ أي دعى أن الجملة بلا فاعل ، أم ماذا يقول ؟

أما إذا أراد العربي أن يخبر عن اسم باسم ، فقد يكون الخبر اسماً جامداً وقد يكون وصفاً أي اسماً مشتقاً يدل على ذات متصفة بحدث وهذا هو الكثير الغالب ، وهو في هذه الحالة يقدم المخبر عنه على الخبر إذا لم تدفعه لفظة بلاغية .

ذلك لأنه يعد الخبر صفة للاسم الأول ومن طبيعته أن يقدم الموصوف على الصفة فهو يقول : الرجل قائم ، كما يقول : رأيت رجلاً قائماً . وليس من عادة العربي أن يعدل عن هذا النمط إلا لأغراض تقتضي العناية بالخبر فيقدمه .

أعلام الإسلام العربي الذي هز أياوان كسرى أسد قريش سعد بن أبي وقاص (*)

هذا قائد من أعظم قواد المسلمين وبطل من أكبر أبطال التاريخ ! وعجيب حقًا أمر هؤلاء العرب ، فإنهم في حياتهم الأولى ، حياتهم في الجاهلية ، كانوا أمة جاهلة بدوية تعيش في صحراء جافية منعزلة عن العالم إلا في بعض مشارق الشام وفارس . لم ينلهم شيء من حضارة ، ولم يمر بهم طيف من تثقيف ، فما كاد يسطع بينهم فجر الإسلام ، وما كاد ينشر بينهم محمد ابن عبد الله رسالته ، حتى تفتحت قلوبهم ، وتخلصت من الأسر عقولهم ومشوا في نور الله حكما مبصرين وساسة مديرين . كأنهم خلقوا خلقًا جديدًا ، أو كأنما استبدل بهم قوم آخرون . هذه كيمياء الإسلام التي حولت النحاس ذهبًا نضارًا ، وأصارت الجهل والاعتزاز بالقوة الوحشية والفخر الأجوف بالأنساب علمًا وسياسة وتواضعًا ، فكان منهم بعد قليل من الزمن علماء مفكرون ، وحكام عادلون ، وقواد مدبرون . وهذا شأن لو أطلنا الحديث فيه لخرج بنا عن جادة ما أردنا .

كان بطلنا سعد بن أبي وقاص شابًا قرشيًا ، يعتز بشرف في الجاهلية عريق ، وثروة واسعة ، وهمة تزاحم الثريا ، وشجاعة وعزم وقوة جنان . وكانت الهوة هذا الشاب أن يقضى ساعات في برى السهام ، ولعله ما كان يظن وهو يبريها أن هذه السهام التي يعبث بها سيرسلها يومًا إلى صدور أعدائه ، وسيفتح بها يوما ملكا كبيرا ، لم تكن تحلم به جزيرة العرب ، ولم تكن تستطيع أن يخطر لها ببال . قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوة العرب إلى الإسلام ، فلقى من جفوة كفار قريش

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة في ٣٠ / ١١ / ١٩٤٨ . ونشر بمجلة (الراديو المصري) في ٢٩ يناير ١٩٤٩ م . ص ٨ .

وصناديدهم ما لقي ، وتناقل شباب مكة وشيوخها هذه الدعوة في سخرية واستنكار ، ونام الشاب سعد ذات ليلة ، فرأى في نومه كأنه في ظلمة دامسة لا يكاد يبصر فيها شيئاً ، وبينما هو في حيرة ، إذ بزغ له قمر في وسط الظلام فتبعه ثم تبعه ، وما كاد يبلغه حتى رأى أن زيد بن حارثة ، وعلى بن أبي طالب ، وأبا بكر بن قحافة قد سبقوه إليه . فسألهم قائلاً : متى انتهيتم إلى هاهنا ؟ فأجابوا : جئنا الساعة . تيقظ الشاب وأخذ يسأل عن مكان النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى علم أنه يدعو إلى الإسلام مستخفياً ، ومازال يقتص أثر الرسول الكريم حتى لقيه بشعب أجياد وقد صلى العصر ، فأسلم وهو في السابعة عشرة من سنه .

دخل سعد الإسلام بقوة اقتناعه بالحق ، ورسخ الدين في نفسه على صخرة من اليقين ، فما كانت تزعزعه رغبة ، ولا يتخونه إرهاب . استمع له وهو يحدثنا عن نفسه قال :

كنت شاباً باراً بأمي حفياء ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الدين الجديد الذي أحدثته؟ لتدعنه وإلا فأني لست بأكلة ولا شاربة حتى أموت فتعزبي في القبائل . فقلت : لا تفعل يا أُمي ، فأني لن أدع ديني . فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب حتى جهدت . فقلت : والله يا أُمي لو كان لي ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني لشيء . فلما رأيت شدة عزمي أكلت وشربت . وفي نزلت الآية الكريمة : ﴿ وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ [لقمان : ١٥] .

دخل سعد الإسلام مقتنعاً بخلصا ، مجاهداً مقدماً ، مستميتاً في نصرته . وهو أول من رمى سهماً في الذيادة عن الدين : ذهب في أول عهده بالإسلام في سرية إلى ماء بالحجاز ، فلقيهم جمع من قريش على رأسهم أبو سفيان ، فاعتكوا فكان أول من رماهم ابن أبي وقاص . وقد كان هذا السهم موضع فخره واعتزازه فكان يقول : إني لأول رجل رمى بسهم في سبيل الله . شهد مع النبي الكريم ﷺ غزواته كلها ، وكان في فتح مكة يحمل إحدى رايات المهاجرين الثلاث ، وثبت مع الرسول ﷺ يوم أحد بينما زلزل المسلمون فدافع عنه ونافع دونه ، وكفاه مجداً أن النبي ﷺ يقول له في هذه الموقعة : « ارم فداك أبي وأُمي » !!

قد يكون له في هذه الشجاعة ، وفي تلك الفدائية ، أمثال ، وأنداد ، ولكن القدر كان يخبيء له مجداً يهر العيون ، وتقصر دونه يد المتناول وذكر خالداً في الآخرين سيبقى أنشودة الدنيا ، وحديثاً عجباً في فم الزمان . ذلك حينما تحفز الفرس لقتال العرب ، وحينما عقد عمر بن الخطاب عزمته وصاح صبيحته : والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! وحينما صمم على إعداد جيش لفتح فارس يقود رجاله بنفسه فاستشار عمر أصحاب المشورة ، فأجمعوا رأيهم على ألا يذهب على رأس الجيش مخاطراً ، وأن يندب رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأن يبقى هو بالمدينة ليمده بالجنود

والعتاد، فإن كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد ويريدون ، وإلا ندب جنوداً آخرين يغيظ بهم العدو حتى يحىء نصر الله . وبينما القوم يتشاورون فيمن يختارونه لقيادة الجيش ، إذ جاء إلى عمر كتاب من سعد ، وكان على بغض صدقات نجد يخبره فيه بأنه تخير الف فارس من ذوى النجدة والرأى لقتال الفرس ، وما سمع القوم اسم سعد حتى صاحوا : لقد وجدت الرجل ! قال : فمن ؟ قالوا : الأسد فى برائته ! سعد بن مالك ! فوافقهم عمر . وكتب له كتاباً يدل على صلابة عمر وشدة مع قواد جيوشه . ثم على ساحة مبادئ الإسلام جاء فى كتابه :

ياسعد بن وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحبه ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر .

خرج سعد من المدينة إلى العراق فى أربعة آلاف من الجند ، وكان جيشه يجمع خيرة العرب من الأبطال الشجعان ، والشعراء والخطباء . وذوى الرياسة والمكانة وأخذ الجنود ينضمون إليه فى طريقه حتى بلغ عددهم ستة وثلاثين ألفاً وكان الاتصال وثيقاً بين الجيش والخليفة . فما كان سعد ينزل منزلاً أو يتبوأ متبواً حتى يخبر عمر بأمره . وصل سعد من شراف يريد القادسية بعد أن نظم جيشه وقسمه فرقاً . ووضع على كل فرقة بطلاً من أهل السابقة فى الإسلام . ثم أخذ يشن الغارات متفرقة ليغنم لجيشه ما يقوم بمثوته . حتى بلغ القادسية وهى باب مملكة الفرس فأقام بها شهراً وذعر الفرس لقدومه وطار صواب ملكهم فأرسل إلى قائده الأعظم رستم يأمره بالمسير إلى العرب ، وصد سيلهم ، فاعتذر أول الأمر ولكنه أرغم على القبول كارهاً ، فسار يجيش لجب إلى ساباط فى مائة وعشرين ألفاً يتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلاً .

وبعث سعد إلى يزيد جرد وفداً من أهل الرأى والشجاعة والسياسة وبلغ الوفد المدائن فعجب أهلها حين رأوا رجاله عجافاً ، وجعلوا ينظرون إلى أشكالهم وإلى أرديتهم على عواتقهم ، والسياط فى أيديهم والنعال فى أرجلهم ، وإلى خيولهم الضعيفة الهزيلة ، ويتساءلون بينهم كيف يقدم هؤلاء على غزونا ؟ وكيف يطعمون فى الظفر بنا واقتحام عاصمتنا ؟ ودخل الوفد على يزيد جرد الملك فقال لهم : ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أتراكم اجتراً تم علينا لما تشاغلنا بأنفسنا ؟ وبعد حوار طويل قال له المغيرة بن شعبه : اختر إحدى خلال ثلاث : فإما الجزية ، وإما السيف ، وإما أن تسلم فتتجو بنفسك . فغضب الملك وأمر برد الوفد إلى قائده .

وكان دهاقنة الفرس وكبراؤهم أشد عداً للعرب حينما علموا أن دينهم يسرى بين الطبقات فى ديمقراطية واسعة الأفق ويجعل الناس سواء لا يمتازون إلا بما قدموا من عمل صالح .

وبدأ القتال بين الفريقين عندما كبر سعد تكبيرته الرابعة والتقى الجيشان ، وكانت الحرب زبونا ضروسا مشتعلة الأوار ، استمرت أياما وقتل كبار قواد الفرس ، وهبت ريح دبور فأطارت طيارة رستم عن سريره ، فأسرع إليه القعقاع بن عمرو فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ، ثم صعد سريره يصيح : قتلت رستم ! قتلتها ورب الكعبة ! إلى إلى ! فأطاف به الجند يهللون ويكبرون . وانهمزت جيوش يزدجرد وولت الأدبار .

واهتبل سعد الفرصة فسار بجيشه لفتح المدائن فاقتحم جنوده نهر دجلة بخيولهم ، وبلغوا إيوان كسرى وفر الملك ، وغنم المسلمون مغانم كثيرة وكان فتحا ميسرا . ثم أقام سعد بالكوفة قليلا حتى عزل عنها .

وجاءت فتنة على ومعاوية فاعتزل الفريقين ودعاه ابن أخيه هاشم أن يدعو لنفسه وأن ينهض لطلب الخلافة وكان مما قاله له : إن هاهنا مائة ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمر ، فأجابه سعد في غضب : أبالفتنة تأمرني ؟ لو كان لي بدل ما ذكرته سيف واحد إذا ضريت به المؤمن نبا ، وإذا ضريت به الكافر قطع ، لأجبتك : « لن أجرد سيفي في وجه مسلم » !

ولما حضرت سعدا الوفاة طلب جبة له بالية وقال لأهله : كفنوني فيها لأنى لقيت المشركين بها يوم بدر.

رضى الله عن سعد وجزاه خير ما يجزى به المجاهدين .

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عني

الموشح من خزانة الأدب الموسيقي (*)

أول ظهوره بالأندلس ، والسابق إلى ابتداعه مقدم بن معافى من شعراء الأمير عبد الله المروانى ، ثم تبعه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . وبزهما فيه عبادة القزاز شاعر المعتصم صاحب المريه ، وهو من ملوك الطوائف وكان الموشح مظهرًا للإبداع والافتنان ، ومن أشهر الوشاحين الأعمى التطيلي ، والطبيب ابن باجة سنة ٣٣٥ هـ وإليه تنسب أكثر لحون الأصوات التى كان يتغنى بها فى الأندلس ، وابن اللبانة سنة ٥٠٧ هـ ، وابن سهل الإسرائيلي ، ولسان الدين بن الخطيب .

وانتقل الموشح إلى المشرق فحاول نظمه جماعة من الشعراء ولكنهم لم يبلغوا شأن الأندلسيين ، فكانت موشحاتهم لا تخلو من تكلف وعجز عن اختيار الكلمات الموسيقية المرنّة .

ومن أول المحسنين فى هذا الفن من المشاركة ابن سناء الملك ، وله الموشحة المشهورة التى لا يزال ننى بها إلى اليوم :

تللى ياسحب تيجان الربا بالخلى واجعلى سوارها منعطف الجدول

يجاء بعده كثير من شعراء مصر والشام ومن أشهرهم الشاعر الموسيقى الملحن . . شمس الدين هان سنة ٧٢١ هـ ، قال ابن شاعر الكتبى : « كان ينظم الشعر الرقيق ويدرى الموسيقى ويعمل شعر ويلحنه ويغنى به المغنون وكان يلعب بالقانون » .

(*) نشرت بمجلة الموسيقى العربية التى تصدرها اللجنة الموسيقية العليا بالقاهرة عدد سبتمبر ١٩٨٧ ص ١٤ عن نشر سابق .

والذى دعا الأندلسيين إلى ابتكار الموشح أنهم رأوا أن الشعر كيفما بولغ في شطر أبحره أو جزئها أو نهكها ربما لا يجرى مع النغم الذى يريدونه ، ورأوا أن المشاركة كانوا يقولون الشعر ثم يلحنونه ، وأن التلحين لذلك لم يكن حرًا طليقًا بل كان الوزن الشعرى يقيده ويحول بينه وبين تصوير العاطفة تصويرًا صادقًا ، ومثل ذلك مثل من يشتري الثوب مخيطًا ثم يعمل على أن يطوله من ناحية ويقصره من أخرى حتى يتقارب مع ملاءمة جسمه . ورأوا ذلك فأرادوا أن يخضعوا الشعر للنغم ، لا كما فعل المشاركة من إخضاع النغم للشعر . لذلك خرجوا من الموازين الشعرية المعروفة ولم يتقيدوا بها ، والذى ساعدهم على ذلك أن الشعراء في العصر العباسى الأول تصرف بعضهم في الأوزان كمسلم ابن الوليد ، ثم تصرفوا في القوافى كما تراه في بعض أشعار بشار. وابن المعتز ، فكان هذا التصرف تمهيدًا لإبتكار الموشح الذى تصرف في الوزن والقافية معا ، فهو مرة يجرى على أبحر الشعر المعروفة كموشح ابن سهل الإسرائيلي وابن الخطيب فكلاهما من بحر الرمل ، وكثيرًا ما يبتكر له الأوزان ، حتى لقد قيل إن بعض الألحان الموسيقية كانت تنجىء إلى مصر من بلاد الروم على أوزان ساذجة تضرب على آلات الموسيقى خالية من الكلام ، فكان المغنون يأخذون اللحن منها ، ويتأملون توقيعه مراعين متحركاته وسواكته ، وينظمون الكلام على هواه ، وعلى قدر ما فيه من الأغصان والسلاسل حتى يكمل توشيحًا موزونًا .

ولم يسبق الأندلسيون المشاركة إلى الموشح لسبقهم إياهم في الموسيقى والغناء ، فإن المشاركة من غير شك كانوا أساطين هذا الفن وعماده غير مزاحمين ، وقد برعوا فيه وأبدعوا وكان منهم الأعلام المبتكرون الذين يموج بذكرهم كتاب الأغاني ، والأندلسيون عيال على المشاركة في هذا الفن ، فلم يزدهر بينهم إلا حينما اجتاز زرياب الفارسى إلى عدوة الأندلس أيام خلافة عبد الرحمن الثانى ، فقد كان في خدمة المهدي العباسى ، وكان تلميذًا لإسحاق الموصلى ، ويزعمون ، فيما يزعمون ، أن إسحاق رأى من دلائل نبوغه ما أوجس منه خيفة أن يكون له شأن في أعين الخلفاء ، فأغراه بمغادرة بغداد إلى الأندلس .

والموشحات تغنى بمصر من زمن بعيد غير أن اختيارها لم يكن موفقًا ، فلم ينتخب أرقها لفظًا ولا أغزرها معنى ، ولا أبعداها في الاقتنان اللفظى وزنًا . وجرت عادة المغنين أن ينشدوها معا فلم تظهر ألفاظها ، ولم تتضح معانيها ، وكل الذى يبقى لك منها أصوات تجرى على نغم موسيقى خاص . والتزم المغنون أيضًا أن يجعلوا التوشحات مدخلًا للأدوار ، فهو عندهم كالحتم أن يغنى التوشيح ثم يتلوه الدور ، وفي العصور المتأخرة دخلت اللغة العامة الموشحات .

شعراء النهضة من دواوينهم

محمود سامي البارودي (*)

لو وضع أمامك ديوان البارودي، وحي من غلافه اسم الشاعر، وكنت أبصر الناس بالشعر، وأعرفهم بخصائصه، وأقدرهم على ترسم ميزاته في كل عصر من عصور الأدب، ما شككت في أن أمامك مجموعة مختارة من بدائع شعر الجاهليين، وروائع العباسيين. ذلك لأن البارودي كان بارعا في المحاكاة والتقليد، وكانت الصلة بين حافظته وقوته البيانية تشبه الصلة بين عيني الرسام البارع ومشاهد الطبيعة، فكما أن الفنان العبقري لا يخطئ الألوان والظلال والنسب بين الأشياء، كذلك كان البارودي لا يخطئ في وضع الصور الكلامية في جزالتها أو رقتها، وفي تقديمها أو تأخيرها مطابقة للأسلوب العربي الصميم الذي يحاكيه. وتلك هبة فطرية قبل أن تكون ثقافة أو علما. وهي نفحة ربانية يختص بها الله أعلام الفنانين بين الحين والحين. إن البارودي نشأ في بيئة شركسية من أبوين شركسيين، والعربية أبعد ما تكون من هذا الجوار. والبارودي لم يتلق أصول اللغة عن أستاذ، ولم يجلس مجلسا لدرس مسائل النحو والصرف. والبارودي نشأ في عصر راكد ذميم ماتت فيه اللغة، ومات الأدب، وأصبح الشعر القليل فيه إذا سلم من الخطأ والكسر، لم يسلم من الغثاء والسخف، فمن الذي أطلع تلك الزهرة الناضرة في هذه الصحراء المقفرة...؟ ومن الذي بعث هذا النجم المتلألئ في هذه الليلة الليلاء...؟ أطلع هذه الزهرة النبوغ الموهوب، وبعث هذا النجم النبوغ الموهوب. كأن الله عز شأنه حينما أراد أن يبعث مصر بعثا سياسيا، وأن ينهضها بعد طول السبات لتأخذ مكانها بين الأمم الناشطة العاملة، أراد أن يتم عليها نعمته يبعث أدبي شعري يعيد إلى اللغة

(*) نشرت هذه المقالة في مجلة المستمع العربي وكذلك في كتاب « في السياسة والأدب والفن » الناشر: مودي جرافيك.

نضارتها، وإلى لسان القرآن مجده القديم جديدا، وأن يجعل مصر زعيمة الشرق، وحاملة لواء العربية والشعر بين الأمم. البارودي درس الشعر من الشعر، وتعلم النحو والصرف من الشعر، وعرف دقائق اللغة وغرائبها من الشعر، فإنه أبى أن يسلك طريق أهل عصره، الذين انكبوا على دواوين صغار الشعراء المهزولين، فتجرد لدراسة الشعر الجاهلي، والعباسي في أزهى عصوره حتى تملأ منها، ثم طلع على الناس بشعر لا عهد لهم به، فبههم وأطار صوابهم، وأخذوا يترسمون خطواته، ويقفون آثاره، فهو زعيم النهضة الشعرية في الشرق غير منازع، وهو مجدد؛ لأنه بعث القديم وأثار التراب عن الكثر الدفين :

ملكمت مقاليد الكلام وحكمة	لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى	لباء بفضل جبرول وجريير
ولو كنت أدركت النواصي لم يقل	«أجارة بيتينا أبوك غيور»

وهكذا تشور شاعرية البارودي حتى تصل إلى ذروتها، فتتحدى السابقين من الشعراء المبرزين، وهكذا ينتقل المحاكى القانع بالمحاكاة إلى الاعتداد بنفسه، والثورة على أصنامة التي كان يومي إليها بالدلة والخشوع، فقد عارض النابغة وأبا نواس والمتنبى وأبا فراس والشريف الرضي ولم يكن دونهم إن لم يكن قد بزهم. ومن أين للشريف أن يقول :

إذا أنال لم أعط المكارم حقها	فلا عزنى خال ولا ضمنى أب
ولا حملت درعى كميث طمرة	ولا دار في كفى سنان مذرّب
خلقت عيولاً لا أرى لابن حرة	على يسدا أغضى لها حين يغضب
فلست لأمر لم يكن، متوقعا	ولست على شيء مضى، أنتعب
أسير على نهج يرى الناس غيره	لكل امسرى فيما يحاول مذهب
ولنى، إذا ما الشك أظلم ليله	وأمت به الأحلام حيرى تشعب
صدعت حفاقي طرثيه بكوكب	من السراى لا يخفى عليه المغيب

وإذا سمينا هذا البعث لروائع العربية تمجيديدا، فإننا لا نغفل عن أن البارودي كان مجددا حقا بالمعنى الذى يفهمه الناس، فقد كان الشعر قبله مقصورا على المدح والتهنئة والرثاء، ولا يخرج عن هذه الأغراض. أما البارودي فأول شاعر جعل من شعره صورة لما يحسه ويصره، فكان شعره يمثل نفسه ويصور عصره، شاهد الوقائع فوصفها حين يقول :

ولما تداعى القوم، واشتبك القنا
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا
صبرت لها حتى تجلت سهاؤها
وإنى صبـور إن ألم بى الخطب
ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
سقينـا بكأس لا يفيق لها شرب

واصطخبت في أيامه أحداث السياسة فخاض غمارها، وقال فيها الشعر الرائع الرصين، ووصف الآثار المصرية وروضة المقياس والجزيرة :

فبادر لميقات الصلاة ومل بنا
إذا ما قضينا واجب الدين حقه
ترى كل ميلاء الخمار من الصبا
إذا انفتلت في حاجة خلعت جوذرا
لوى قدها سكر الخلاعة والصبا
إلى القصف، ما بين الجزيرة والنهر
فليس علينا في الخلاعة من وزر
هزيمة مجرى البند، ناهدة الصدر
أحس بصياد فأتلع من ذعر
فمالت بشطر واستقامت على شطر

وقال في الاجتماع والأخلاق وطرائق الإصلاح ، واستثار قومه إلى النهوض والثوب، ونفى إلى سرنديب، فكان حنينه إلى وطنه زفرة تذيب القلوب وتستنزف ماء الشئون :

لا في سرنديب لى خل ألوذ به
أبيت أرعى نجوم الليل مرتفقا
ياروضة النيل، لا مستك باثقة
إذا تذكرت أياما بها سلفت
ويا بريد الصبا بلغ ذوى رحى
ولا أنيس سوى همى وإطراقى
في قنة عز مرقاها على الراقى
ولا عـدتك ساء ذات إغـداق
تحدرت بغروب الدمع آمـاقى
أنى مقيم على عهدى وميثاقى

نشأ في بيت عريق، وكان لأبائه سالفه في الشرف، ومراس في معامع القتال، وانتبأ إلى بعض سلاطين الممالك، فانضمت هذه الورثة النبيلة، إلى النزعة الشعرية الملتهبة فأججت نارها، ودفعتها إلى التغنى بذلك المجده، وإلى التشوف إلى ما ينتظرها من آمال جسام :

أبت لى حمل الضيم نفس أبيـة
نمانى إلى العلياء فرع تأملت
وحسب الفتى مجدا إذا طلب العلا
إذا ولد المولود، منفا فدره
فإن عاش فالبيد الدياميم داره
وقلب إذا سيم الأذى شب وقـده
أرومته في المجـد واقتـر سعـده
بما كان أوصاه أبوه وجـده
دم الصيد، والجرد العناجيج مهـده
وإن مات فالطير الأضاميم لحده

أصدّ عن المرمى البعيد ترفعا وأطلب أمرا يعجز الطير بمده

* * *

وإني امرؤ لولا العوائق أذعنت لسلطانته اليد المغيرة والحضر
من النفر البيض، الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
إذا استلّ مناسيد غرب سيفه تفرزت الأفلاك والتفت الدهر
ومن هذا كان أضخم شعر البارودي وأقواه ، ما كان في الحفاصة ووصف الوقائع والفخر، فإذا
تغزل أو وصف مجالس لهوه حاول الرقة فظفر بها :

غلب الوجد عليه فبكى وتولى الصبر عنه فشكا
وتمنى نظيرة يشفى بها غلة الشوق فكانت مهلكا
نظرة ضم عليها هدبه ثم أغراها فكانت شركا

* * *

هل من فتى ، ينشد قلبي معى بين خدور العين بالأجرع
كان معى ثم دعاه الهوى فمر بالحي ولم يرجع
فهل إذا ناديته باسمه يفيق من سكرته أو يعى

والبارودي شاعر أسلوب فحسب، يكتفى بجرس الألفاظ وموسيقاها وزينها، أما المعاني والأخيلة فليس له فيها من جديد، وكأنه حينما حاول محاكاة أسلوب الأولين، أغرق في محاكاتهم فحاكاهم في معانيهم وأخيلتهم، فلم يخلص له من المعاني المبتدعة إلا النزر القليل، والشأن في معانيه وأخيلته شأن الحكم التي كان يثرها في غضون قصائده، فإنها مسبوقة معادة، فالبارودي أشبه بمقلد الآثار الماهر، يصنع التمثال ويدسه في التراب ليظهر عليه القدم، وهو يرى، أنه إذا زاد فيه شيئا أو نقص فيه شيئا جاوز حدود الفن، وظهر للناس زيفه وخداعه. ويكفى مصر والشرق، أنهما ظفرا منه بعودة الشعر العربي الصميم إلى حياته الأولى، وبالقضاء على تلك الزخارف اللفظية السمجة التي قضت على جماله الفطري قرابة ثمانية قرون .

المرحوم أحمد شوقي بك

وهذا روض فسيح الجنبات ، وسيم القسيات ، ظليل الأدواح كريم النفحات ، لن نستطيع إلا أن
نقتطف منه زهرات قليلة ، تنم عن كريم منبته وطيب ثراه .

نشأ شوقي وفيه كل أدوات النبوغ والعبقرية . فطرة شعرية تتحدى الشبيه والنظير ، وذكاء لامع نفاذ
وأدب جم ، ودرج في بيت شريف الأرومة ، يعيش في ظل الأسرة الخديوية . . .

أخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولدت يساب إسماعيل
ولبست نعمته ، ونعمة بينه فلبست جزلا وارثديت جملا

ثم إنه نال القسط الأوفى من الثقافة في مصر وفرنسا ، وأكثر من القراءة ، وأكثر من الرحلة إلى
بلدان أوروبا وبلدان الشرق ، يلتقط منها خير ما فيها من ثمر ، وبعد أن اكتمل ، وجاوز العشرين
من عمره اتصل بالقصر ، وأصبح شاعر القصر . وقصر قصائده في أول الأمر على المناسبات كتهنئة
الخديوي بالعيد أو بمرمضان أو بالقدوم من سفر ، فإذا تجاوز هذا ، تجاوزه إلى الغزل والإخوانيات ، أو
تمجيد دولة الأتراك . وكان شعره الغزلي في طليعة شبابه بديعا رائعا . استمع له وهو يقول :

روصوه ، فتولى مغضبا أعلمتم كيف ترعاع الظبا ؟
خلقت لاهية ناعمة ربا روعها مر الصبا
لي حبيب كلما قيل لــــه صدق القول وزكى الريا
كذب العذال فيما زعموا أمل في فاتنى ما كذبا
لو رأونا والهوى ثالشا والدجى يرخى علينا الحجبا
في جوار الليل في ذمتــــه نذكر الصبح بأن لا يقربا

ملء برديننا عفاف وهوى حفظ الحسن وصنت الأدب

* * *

الله في الخلق من صب ومن عانى تفنى القلوب ويبقى قلبك الجانى
صمونى جالك عنا إننا بشر من الزاب وهذا الحسن روحانى

وعلى الرغم من اختصاص شوقى بالقصر، فإن جمهرة الأدياء والمثقفين كانوا ينتظرون شعره في تشوف وشوق. ويتخطفون الجرائد حينما تنشر قصائده فيتناولونها بالدرس والحفظ، ويتناشدونها في مجالس سمرهم. نعم إن شعر المناسبات ممجوج مملول، ولكن شوقى استطاع مع تكرار الموضوع أن يجعل من كل قصيدة باقة مختلفة الأزهار، متعددة الألوان، فيها غزل وفيها وصف وفيها دعوة إلى المجد، وفيها أدب جديد وحكمة رائعة.

وبقى شوقى مقيدا بهذه الأغراض القليلة مدة اتصاله بالقصر؛ لأن منصبه الرسمى كان يمنعه من أن يجول فيما يجول فيه الناس، وأن يهتف بما يهتف به حافظ وأمثال حافظ. وفي الحق، إن قوته الشعرية كانت معطلة، ونبوغه الفنى كان مكبوتا، فلم يجد له متنفسا إلا في الإشادة بانتصار الترك على اليونان، وفي مثل القصيدة التى قالها في مؤتمر جنيف، وهى ملحمة تاريخية ألم فيها بتاريخ مصر منذ القدم إلى عهدنا الحاضر وهى فى نحو ثلاثمائة بيت. فلما انقطعت صلاته بالقصر، وأصبح حرا، غرد فوق كل فنن، وحام حول كل روض، وعبر عما يجول فى كل نفس، وكان شعره - كما يقول هو عن نفسه :

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق وكان العزاء فى أحزانه

غرد شوقى طليقا فبهر مصر، وبهر الشرق، وأصبح اسمه ملء الأفواه والمسامع. فقد منصبه، فأولاه الشعر منصبا خالدا على الدهر، وفقد الاتصال بالأمير، فأصبح أميرا على الشعر والبيان، وارتحل شوقى إلى الأندلس فى أثناء الحرب الماضية، فأثارت مشاهد الحضارة العربية شاعريته، وأهبت وجدانه، وأيقظت شيطان شعره، فغنى بأثار العرب، وعجد العرب، ثم أكثر من الحنين إلى مصر وأهلها، فهو يقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لسوايك أم نأسى لسوادينا؟
ماذا تقص علينا غير أن يدا قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا الين أيكما غير سامرنا أخا الغريب : وظلا غير نادينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم فمن لروحك بالنطس المداوينا؟
أها لنا! نازحى أيك بأنسدلس وإن حللنا ريفنا من رواينا

رسم وقفنا على رسم الوفاء له
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
لوم يسودوا بدين فيه منبهة
لناس كانت لهم أخلاقهم ديننا
نجيش بالدمع ، والإجلال يثينا
ولا مفارقهم إلا مصلينا

وعاد من الأندلس إلى مصر، واندمج في غيار الأمة، وزادت السن شعره قوة ونضجا . وكان شوقي
أول أمره متعصبا للترك، كثير التفاخر بهم فلما ألغوا الخلافة، انصرف عنهم وقال يرثيها :

صادت أغاني العرس رجع نواح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه
شيعت من هلع بعبرة ضاحك
ضجت عليك مآذن ومنابر
ونعيت بين معالم الأفراح
ودفنت عند تبلج الإصباح
في كل ناحية وسكرة صاحي
وبكت عليك ممالك ونواحي

ثم اتجه بعد هذا إلى التمسك بالمصرية، فأكثر من القصائد في مجد قدماء مصر، والإشادة
بمدنيتهم :

خليلى اهبطا الوادى وميلا
وسيرا فى محاجرهم رويدا
وخصا بالعمار وبالتحايا
وقبرا كساد من حسن وطيب
إلى غرف الشموس الغاريننا
وطوفا بالمضاجع خاشعيننا
رفات المجد من توتنخميننا
يضىء حجارة ويضوع طيننا

وبعد حين رأى أن هذه النزعة قد تفرق بين مصر والأمم العربية، فولى وجهه نحو الشرق، وأخذ
يغنى بمجد العرب، ويحفز أمهم إلى النهوض، فيقول في دمشق :

سلام من صبا بردى أرق
دخلتك والأصيل له اتلاف
وتحت جنناحك الأنهار تجري
وحولى فتية غر صباح
ودمع لا يكفكف يسا دمشق
ووجهك ضاحك القسرات طلق
وملء ريبك أوراق وورق
لهم فى الفضل غايات وسبق
وفى أعطافهم خطباء شفق

على أن شوقي كان رجلا واسع الأفق، متدفق العاطفة، لا تنحصر عواطفه في بلد أو أمة، بل
تفيض فتشمل الناس جميعا .

بكى بارييس في محتتها أيام الحرب الماضية ، وطوكيو حينها أصابها الزلزال ، وأشاد بمجد روما ،
ورثى نابليون وكارنارفون (Carnarvon) وكثشرو فيه يقول :

أنتم القسوم حمى الماء لكم	يسرجع السورد اليكم والصدر
لجج الدماء أوطان لكم	ومن الأوطان دور وحفر
لست في البحر وحيدا فاستضف	فيه آباءك تنزل بالدر
ورسوا فيه كراما وطفنا	طائف النصر عليهم والظفر

ثم إنه أعلى ذكر هول كين (Hall Caine) وتلستوى وفردى وهوجو وشكسبير، وفيه يقول :

أعلى الممالك ما كرسيه الماء	وما دعامتة بالحق شماء
يا جيرة (المنش) حلاكم أبوتكم	مالم يطوق به الأبناء آباء
ملك تطاول ملك الشمس ، عزته	في الغرب باذخة في الشرق قمساء
أعلاه بالنظر العالى ونطقه	بحائط الرأى أشياخ أجلاء
وحاطه بالقنا فتيان مملكة	في السلم زهر ربي في السروع أرزاء

أما أسلوب شوقى فمتين بطبعه ، لا يتكلف فيه الصقل والإجادة فيأتى مصقولا جيدا ، وإن
خفيت مراميه أحيانا لتزاحم معانيه وبعد خياله . وكان شوقى دقيق الحس في اختيار أوزان شعره
مطابقة للغرض الذى يقول فيه ، ألم تر إلى قصائده الثلاث التى قالها في وصف الليالى الراقصة
بعابدين ، فإن كل وزن فيها أشبه بالإيقاع الموسيقى المرقص .

حف كأسها الحبيب	فهى فضضة ذهب
-----------------	--------------

والتى يقول فيها في وصف الراقصات :

والقصور مسرحها	لا السرممال والعشب
يستف زهها نغم	لا صمدى ولا لجب
يستمد مرقصه	تارة ويقتضب
فالقدود بان ربي	بيد أنها تثب
يلعب العنساك بها	وهو مشفق حذب
فهى مبرة صمد	وهى مبرة صبيب
وهى ههنا وههنا	تلتقى وتتصطحب

أو تعـانقت قـضب	مثلما التقت أسـل
في الصـدور تحجب	الـرؤوس مـائلة
والحدود تلتـهـب	والنـهود هـامـدة
بـالبنات تنجـذب	والخصـور واهيـة

وانجبه شوقي في أخريات أيامه إلى نظم القصص التمثيلية ، فسما وحلق ، وفتح بابًا بهذه القصص لأفكاره وثقافته العالية الواسعة ، ووجه الشعر العربي إلى الطريق التي كان يجب أن يسلكها من أكثر من ألف عام .

حافظ إبراهيم

يعد حافظ إبراهيم ، أول شاعر بمصر تحدث إلى الجماهير فاستثارها ، واستحث عاطفتها وعبر عن آمالها ، فلقد كان الشعر بالبارودي ، وصبري ، وشوقي ، في أول أمره أرسقراطيا ، لا يتناقله إلا خاصة المتأدين ، حتى ظهر حافظ ، وهو من غمار الشعب ، ومن بين طبقاته المعوزة ذريح ونشأ ، فنقل الشعر من مجالس الخاصة إلى محافل الشعب وسوامره ، وقد وجد حافظ من توثب مصر إلى النهوض ، ومن إطلاق الحرية للناس والجرائد ، وجد من كل هذا فرصة سانحة لأن يرفع صوته مجلجلا ، وأن يتخذ من شعره أداة للإصلاح الاجتماعي ولحفز الهمم :

أيتها الشرقى شمـــــر لا تنم	وانفض العجز ، فإن الجدد قاما
وامتط العزم جوادا للعلا	واجعل الحكمة للعزم زماما
وإذا حاولت في الأفق منى	فاركب البرق ، ولا تعرض الغماما
سابق الغربى واسبق ، واعتصم	بالمروءات وباليأس اعتصاما

وهو في هذا يقتفى آثار البارودي ، الذى فتح الطريق لمن جاء بعده من الشعراء ، ونقل الشعر إلى ذلك الميدان الفسيح ، ثم هو من ناحية أخرى ، رجل ديمقراطى النشأة والمربى والمتزلة ، فهو يريد أن يجعل شعره مثله ديمقراطيا . وكان في أول أمره يلتزم أغراض الشعر القليلة المعروفة ، ولكنه بعد قليل ضاق بها صدره ، فصاح يخاطب الشعر :

ضمت بين النهى وبين الخيال	يا حكيم النفوس يابن المعال
ضمت في الشرق ، بين قوم هجود	لم يفقهوا ، وأمة مكسال
قد أذلوك بين أنس وكأس	وغرام بظبيبة أو غزال

ونسيب، ومدحمة، وهجاء
وحاس أراه في غير شـىء
عشت ما بينهم مزالا مضاعا
حملوك العناء من حب ليلي
آن يا شمر أن نفك قيودا
فأرفعوا هذه الكرائم عنا
ورثاء وفتنة وضلال
وصغار يجرد ذيل اختيال
وكذا كنت في العصور الخوالي
وسلمي ووقفنة الأطلال
قيدتنا بها دعاة المحال
ودعوننا نشم ريح الشمال

خرج حافظ من هذه الربة الضيقة القاتلة، التي كانت تقصر الشعر على المدائح والمراني والتنهاني، وانطلق يقول في السياسة والاجتماع والأخلاق، فهو يقول . . .

إن فينا لولا التخاذل أبطا
وعقولا لولا الخمول تولا
قد مللنا وقوفنا وبكنا
وسئمنا مقالهم كان زيد
لا إذا ما هموا استقلوا البراعا
ها لفاضت غرابية وإبتداعا
حسبا زائلا، وبجدا مضاعا
عقريا وكان عمرو شجاعا

ثم يقول :

شمر، وكافح في الحياة فهذه
وانظر إلى الغربي كيف سمت به
والله ما بلغت بنى الغرب المنى
ركبوا البحار وقد تجمد ماؤها
يلقى فتيهم الزمان بهمة
ويشق أجواز الفضاء منامرا
دنياك دار تناحر وكفاح
بين الشعوب طيعة الكداح
إلا بنيات هنالك صحاح
والجو بين تناسل الأرواح
عجب ووجه في الخطوب وقاح
وعر الطريق لديه كالصحاح

على أنه لم يترك المديح والرثاء مرة واحدة، وكان له نفس طويل في الرثاء، كقوله يرثي الملكة فكتوريا :

أشمس الملك أم شمس النهار
فطرف الغرب بالعبرات جارى
بنظرة واجد قلق الرجاء
ملأت الأرض أعلاما وجندا
هوت، أم تلك مالكة البحار
وعين اليم تنظر للبخار
وشدت لأمة السكسون مجدا
وكننت لفأها يمنا وسعدا
ترى في نور وجهك إن تبدى
سعود البدر في برج الهناء

درج حافظ ، كما قلنا ، في بيثة رقيقة الحال ، ومات أبوه وهو في الرابعة من عمره فكفله خاله ثم تخلى عنه ، فنشأ بائسا يطرق أبواب الرزق فتضيق به ، حتى لحق بالمدرسة الحربية ثم عين ضابطا بالجيش فلم ينجح فيه وفصل من الخدمة ، فعاد إلى بؤسه يعيش من الاتصال بالأغنياء وأبناء الأغنياء ، ويتخذ من شعره وسيلة لحياته ، لهذا ترى قدرا كبيرا من شعره يفيض بشكوى البؤس والشقاء :

ويا نوحا جنيت على البرايا	ولم تمنحهم الودود الصحيحـا
علام حملتهم في الفلك هـلا	تـركتهم فكنت لهم مـرجـا
أصاب رفاقي القـدح المـلـى	وصادف سهمى القـدح المـنـيـحـا

* * *

ويا قدمى إن سرت بى للمـلـة	ولم تـرتـقى إلـا إلـى المـز سـلـمـا
فـلا تـبـطـئ سـيـرا إلـى المـوت واعـلـمـى	بأن كـرـيـم القـوم مـن مـات مـكـرمـا

وطالما أنشأ القصائد الطوال في الحث على معاونة الفقراء ومساعدة الأيتام وعلى إنشاء الملاجئ والمستشفيات ، على أن عهد البؤس هذا ، كان عهد شبابه أيضا ، حين كان يغشى مجالس أبناء الأثرياء ، ويتمتع بها فيها من هو وعبت وبجون ، فهو يقول :

فتية الصهباء خير الشارين	جددوا بالله عهد الغائبين
واذكرونى عند كاسات الطلا	إننى كنت إمام المدمنين
وإذا ما استنهضتكم ليلة	دعوة الخمر فتسوروا أجمعين
رب ليل قد تماهـدنا على	ما تماهـدنا ، وكنا فاعلين
ففضينـا و لم نحفل بها	سـطـرت أـيـدى الكـرام الكـائـين

قضى الشاعر في عهد البؤس نحو ثمانى عشرة سنة ، وهو في الحقيقة عهد ازدهار شعره ، أطلق فيه حافظ سراح نفسه ، فحلقت في سماء البيان حرة طليقة ، تغرد بأعذب الألحان ، فكان من نعم الله على الشعر ، أن يكون حافظ بائسا ، وكان من مننه على العربية والأدب أن يكون شاعرنا مكـدودا مستجديا ، حتى إذا ذهب عنه البؤس ، وعاد إلى الوظائف في سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف سكت ، وأجبل إلا قليلا وطار غريد الشعر من قفص صدره ، وغادره شيطانه حزينا محسورا .

كان طبعه الخوف وكأنه بعد أن ذاق مرارة الفاقة ، وظفر آخر الأمر بوظيفة ضخمة المرتب بدار الكتب ، خاف إن هو نطق أن تطير الوظيفة من يديه ، وأن يعود إلى بؤسه كرة أخرى وقد مكث بالوظيفة نحو إحدى وعشرين سنة ، حتى أحيل إلى المعاش وعادت إليه حريته طلب الشعر فلم

يجده، وحاول أن يقول في بعض الإغراض الاجتماعية، كما كان يقول ويبدع في قديم الزمان، فلم تطاوعه إلهة الشعر، وجاء شعره غثا سقيما، سمعه الناس مستنكرين آسفين، يترحمون على شعر حافظ وعلى أيام حافظ، ومن الشعر ما يجود بالهرم وتقدم السن، كشعر شوقي، ومنه ما ينحط ويضعف، كشعر حافظ والبارودي.

أما شعر حافظ، فكان شعر ديباجة وأسلوب، عنى فيه باللفظ والزين الموسيقى فوق عنايته بابتكار المعاني والغوص وراء الأفكار البعيدة المثال، ولا عجب، فهو شاعر الجماهير كما أسلفنا، والجماهير لا تريد إلا النغم الرائع، والتعبير الذي يهز النفوس، ويستثير الوجدان، وقد اتخذ حافظ البارودي إماما له في هذه الناحية، ألسنت تراه يخاطبه فيقول :

بمـلح ومن لى فيك أن أبلغ المدى	إمام القوافي إن لى مستهامة
تخط وأقرضنى القريض المسددا	أعزنى لمديحك اليراع الذى به
وكل نفور منه أن يتوددا	ومر كل معنى فارسى بطاعتي

وكانت ثقافة حافظ الأولى محدودة جدا، فلم ينل منها إلا ما يعطيه التعليم الابتدائي، ولكن هبته الفطرية، وكثرة مطالعته، ومجالسته العلماء والأدباء، جعلت منه شاعرا عربيا. على أنه لم يصل في التمكن من اللغة وأصولها إلى ما يقارب المنزل التي وصل إليها البارودي بثقافته العصبامية، لذلك لم يسلم شعره من الخطأ، وكان حافظا كان يحس هذا، فكان لا ينشر قصيدة، إلا إذا عرضها مرات على الأدباء ورجال اللغة، هذا يصلح له كلمة، وهذا يصحح أسلوبا، على أن شيئا ليس بالقليل من ذلك فر من نظرات الناقد.

وثقافة حافظ في اللغة محدودة أيضا، فهو إذا قورن بشوقي في هذه الناحية، لا يعد شيئا، ومن هذا كانت معانيه مألوفة وتخيل ضيق النطاق، وكان شعره في جملة، أشبه بدروس الوعظ والإرشاد، منه بابتكار رأى أو دعوة إلى فكر جديد.

إسماعيل صبرى باشا

لو استطاع رسام ماهر أن يرسم لشاعر صورة بارعة، تتجلى فيها دقة الخيال وإرهااف الحس، وحدة الذوق، إلى لطف العاطفة وسرعة إدراك معانى الجبال، ما كانت هذه الصورة لغير إسماعيل صبرى.

فإنه جمع هذه الصفات جميعا، وهى التى جعلت من شعره مثالا للفن الرفيع، والأدب العالى. . . نعم، إنه مدح ورثى، كما كان الناس يمدحون ويرثون، وكان شعره فى هذا الضرب لا يصور نفسه، ولا يعطى إلا لمحة خاطفة من الشاعر، ولكنه بعد أن تجاوز طور الشباب، نظم الشعر خالصا لوجه الشعر؛ لأن إلهة الشعر وحدها هى التى دفعته إلى الشعر، فغنى به ليضطرب حيناً، وليكفى على نغماته الحزينة أحيانا. فهو كالطائر الغرد فوق الغصون، قد يكون ما يصدع به مرة غناء، وقد يكون عويلا ونواحا.

أبكت تلکم الحمامة أم غنت
على فرع غصنها المياد. . ؟

وإذا استطعنا أن نشبه الشعر بالفنون المادية، رأينا أن شعر صبرى من الفن الدقيق النقى، الذى تألق فيه صناعه، وقضى الساعات الطوال فى اختيار أجزائه، وإجادة صقله، وإمالة أى عيب أو شبهة من عيب عنه. أليس هو الذى يقول :

شعر الفتى عرضه الثانى فأحر به
ألا يشوه بالأقذار والوضر
فانقد كلامك قبل الناقدین، نخط
ثانى النفيسين من لغو ومن هذر

ولعلى لم أخطئ، حينما قلت فى وصف شعره فى حفل رثاء :

أين ذاك الشعر الذى كنت تزجيه
قد سمعناه فى المزهـر لـحـنا
وسمـعناـه فى الحـمام هـديـلا
وشـمـعناـه فى الكـثـمـوس شـمـولا
ويسرى فى الأرض عـرضـا وـطـولا

وكان صبرى مقلا جدا، أكثر شعره مقطوعات قصيرة، وكان شديد التحفظ فى إذاعة شعره، لا يتناقله إلا طائفة قليلة من خلصائه، فهو شاعر أرسقراطى لا يتحدث إلى العامة ولا ينظم فى الشئون العامة إلا قليلا. ولعله كان يرى أن الشعر نوع من الترف الأدبى، وأنه مرآة لا تنقل إلا صورة من ينظر فيها، وقد كان كثير النظر فيها لنفسه وأحاسيسها، وحينما خرج عن هذا المنهج فى بعض شعره السياسى القليل، لم يجد، ولم يخلق، وأبطأ عن غايته ونحانه شيطانه. وربما كان فى قصيدته التى قالها عند خلع السلطان عبد الحميد بعض الحسن:

قل للبراكين كفى نحن فى شغل
هل الجبال الرواسى، عندها خبر
وهل رأى النسر شيئا فى السماء حكى
قالوا لقد خر من صرح الملا وهوى
أهول بها صيحة فى الكون قاصفة
ذا اليوم عنك ببركان البراكين
بما تصدع من شم العـمرانين
ماهر يلـدز من بأس الشـواهين
ذو السلطين، ورب الكاف والنون
تزلزل الأرض من حين إلى حين

وله قصيدة على لسان فرعون، يتناقلها الناس، لأنها تغذى فيهم غريزة الكبرياء القومية، على أنها إذا قورنت بشعر صبرى الشخصى، لم ترجع لها كفة:

لا القوم قومى، ولا الأعوان أعوانى
ولست إن لم تؤيدنى فراعنة
ولست جبار ذا الوادى، إذا سلمت
لا تقربوا النيل، إن لم تعملوا عملا
ردوا المجرة كـدا دون مـورده
وابنوا، كما بنت الأجيال قبلكم
إذا ونى يوم تحصيل العـلا وانى
منكم، بفرعون على العرش والشان
جباله تلك من غارات أعوانى
فماؤه العذب لم يخلق لكـسلان
أو فاطلبوا غيره ريسا لظلمـان
لا تتركوا بعدكم فخرا لإنسان

أما جيد شعره وأرقه وأملحه، فهو كما قلنا الذى يعبر فيه عن نزعات نفسية، وهو شعر غنائى كله، رقيق النسج جيد الرصف، وكان يتحكم فى شاعرنا عاطفتان عنيفتان. عاطفة الحب وعاطفة التبرم بالحياة والحنين إلى الموت. استمع له حين يغنى على وتر الحب، نجد شعره شعلة متأججة من الغرام وزفرة طويلة الأنين من الوجد:

يا آسر الحى ، هل فتشت فى كبدى ، وهل تبينت داء فى زواياها
أواه من حرق ، أودت بأكثرها ولم تزل تتمشى فى بقاياها
ياشوق رفقا ، بأضلاع ، عصفت بها فالقلب يخفق ذعرا فى حناياها

حتى إذا أدركه ياس العاشق المعمود صاح فى حسرة وألم وهو يقول :

أقصر فؤادى ، فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ماكانا
ملا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حل الصباة فاخفق وحدك الآنا
لهفى عليك ، قضيت العمر مقتحما فى الوصل نارا وفى الهجران نيرانا

وقد غدّت ثقافته الأوروبية شعره بكثير من المعانى الجديدة ، فاندجت فيه دون أن تجنى على الخيال العربى ، ودون أن تمس جمال الأسلوب العربى ، وهذا هو التجديد الذى نحبه وندعو إليه ، فإننا نعتقد أنه من المستطاع تطعيم الأدب العربى بالخيال والفكر الغربيين ، دون أن يقضيا على مميزاته وخصائصه . استمع لصبرى فى قصيدته الغزلية الرائعة التى أدخل فيها كثيرا من المعانى الجديدة ، دون أن يذهب بروعة العربية أو يحيد عن مذاهبها :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى
فرقت أهواءهم ثاراتهم
إن هذا الحسن كالماء الذى
لا تذودى بعضنا عن ورده
أنت يم الحسن فيه ازدحت
يقذف الشوق بها فى مائج
شدة تمضى وتأتى شدة
ساعفى آمال أنضاء الهوى
وتجلى ، واجمل قسوم الهوى
أقبل ، نستقبل الدنيا ، وما
واسفرى ، تلك حل ما خلقت
واخطرى ، بين الندامى يحلفوا
وانطقى يثشر إذا حدثنا
وابسمى ، من كان هذا ثغره

أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فاجمى الأمر وصونى الأبرياء
فيه للأنفس رى ، وشفاء
دون بعض واعلى بين الظماء
سفن الآمال يزجيهما الرجاء
بين لجين ، عناء ، وشقاء
تقتفيها شدة هل من رخاء
بقبول من سجايك رخاء
تحت عرش الشمس فى الحكم سواء
ضمته من معيدات الهناء
لتوارى بلثام أو خباء
أن روضا راح فى النادى وجاء
نائر الدر علينا ما نشاء
يملا الدنيا ابتساما وازدهاء

لا تخافى شططــــا من أنفـــس
راضت النخوة من أخلاقنا
فلو امتدت أمانينا إلى
أنت روحانية لا تدعى
وانزعى، عن جسمك الثوب بين
وأرى السدينا جناحي ملك

تعثر الصبوة فيها بالحياء
وارتضى آدابنا صدق الولاء
ملك ، ما كدرت ذاك الصفاء
أن هذا الحسن من طين وماء
للملا تكيون سكان السماء
خلف ثمال مصوغ عن ضياء

هذا غزل عربى جديد النزعة، لو حاولت ترجمته إلى لغة أوروبية، وجدت الأمر سهلا هينا،
لتقارب معانيه وأخيلته من اتجاه الفكر الأوروبى .

وقد يتجه صبرى فى شعره إلى نقد ما وصلت إليه أخلاق الناس من رياء وملق، وهذا أثر نفسه
الحساسة التى تكره الشر وتبغض الأشرار، فهو يقول :

غاض ماء الحياء من كل وجه
وتفشى العقوق فى الناس حتى
أوجه، مثلما نشرت على الأجداث

فندا كالح الجوانب قفرا
كاد رد السلام يحسب برا
وردا، إن هن أبــــــدين بشرا

وليس بعجيب أن يعنى صبرى على الناس هذا وغيره، فقد كانت له نفس صافية كريمة وفية :

إذا خاننى خل قديم وعقنى
تمرض طيف السود بينى وبينه

وفوقت يوما فى مقاتله سهمى
فكتر سهمى، فـانثنت ولم أرم

أما عاطفة الحنين إلى الموت، فكثيرا ما ثارت فى نفسه فنطق بها شعرا يهز النفوس ويكيى العيون . .

يا موت ها أنذا فخذ
بينى وبينك خطوة

ما أبقت الأيسام منى
إن نخطها فـرجت عنى

* * *

إن سئمت الحياة فارجع إلىــــى الأرض تنم أمانا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك ، من الأم التى خلفتك لـلا تمـاب

لا تخف فـالمات ليس يباح
وحياة المرء اغتراب فإن مات

منك إلا، ما تشكى من عذاب
فقد عاد سالا للتراب

ويقول في موت الحياة :

مقابر من ماتوا مواطن راحة
وإن تبك ميتا، ضمه القبر فادخر
فلا تك إثرا الهالكين جزوعا
لميت على قيد الحياة دموعا

ومن أروع شعره الصوفي تلك المناجاة البديعة التي كلها أمل في رحمة الله وطمع في عفوه :

يارب ، أين ترى مقام جهنم
لم يبق عفوك في السموات العلا
يارب ، أتهلنى لفضلك واكفنى
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى
يا عالم الأسرار حسبى محنة
للمظالمين غدا وللأسرار
والأرض شبرا خاليا للنار
شطط العقول، وفتنة الأفكار
غضب اللطيف ورحمة الجبار
علمى بأنك عالم الأسرار

الشيخ محمد عبدالمطلب

شاعر عربى صميم العروبة ، لم يخالط نسبه دخيل . فهو من قبيلة جهينة التى نزلت بالصعيد الأوسط أيام الفتح الإسلامى ، ثم انتقلت فى عهد الفاطميين إلى سوهاج . وقد كان عبد المطلب يفاخر بهذه النسبة ويعتز بها ويقول :

أنا ابن الذين إذا ما انضموا فجاه رفيع ومجد تليد
بنوا المجد والجود فى كل جيل إذا أعوز الناس مجد وجود

وكأنه بعد أن شب وأحس بدبيب الشاعرية فى نفسه ، اعتقد أنها أثر ذلك الإرث العربى الكريم فزاد تمسكا بالعربية وتعصبا لها ، وصمم على أن يكون شعره صورة للحياة البدوية ، وإن عاش فى ظلال المدنية وبين مبتدعيها . ولهذا عكف على الشعر الجاهلى يقرأه ويفهمه ويستعير أساليبه ومناحيه ، وهو فى هذه الناحية الشاعر الفذ الذى يشبه البارودى فى بدايته ، وإن لم يشبهه فى نهايته لأن عبقرية البارودى كانت فوق عبقرية عبد المطلب ، ولأن البارودى طرق أغراضا لم يتيسر بعضها لعبد المطلب . وقد أغرق شاعرنا فى محاكاة الأقدمين حتى أنك إذا سمعت بعض شعره تخيلته أعرابيا فى شملته يتتبع منابت العشب خلف ناقته وأنه لم يمر به من طيوف الحضارة خيال . استمع له وهو يتحسر لفراق حبيب :

جد المسير بها فشط مزارها ونأت فأين من المحب ديارها
كيف السبيل لمن تسرع أهلها بيداء تعمى الناجيات قفارها
فقف المطى على معاهدتها التى كانت لغيرك لا يطيب قرارها
يا دارها إن أنجحت أصحابها فالأرض تحسد نجدها أغوارها
فلأرمن لها الفججاج بجسرة يطوى الفيافي والربا تسيارها

لهذا اشتهر بين الناس بشاعر البادية وكان يزهى بهذا اللقب ، وكان حماة الشعر في مصر يرون من الخير أن يظهر بين الشعراء من يتعصب للمذهب القديم وينحى منحى العرب كعبد المطلب ، بعد أن كادت تطفئ المدينيات على خصائص الشعر العربى وأخيلته ، وبعد أن قام فريق هذام من المجددين يعيث ويسخط على كل قديم . فكان لشعر عبد المطلب أثر يشبه أثر جبهة المعارضة في البرلمان .

ولد شاعرنا سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وألف بقرية بصونة ، إحدى قرى مديرية جرجا من أسرة رقيقة الحال وكان أبوه تقياً متصوفاً فوثر منه نزعة الدينية القوية ، وزادها نمواً وصلابة أنه تربى بالقاهرة بدار شيخ الطريقة الخلوتية ودرس بالأزهر نحو سبع سنين . وتظهر هذه الغيرة الدينية في كثير من شعره :

فيأبها الباكي وقد ظن أنه	أسأل عيونا أو أذاب قلوبا
بكيت بوايد ما به اليوم راحم	نراه إلى ما ترحميه مجيها
كأنك دين الله في مصر باكيا	وقد صار بين المسلمين غريبا
تضعض أهلوه وصوح نبتة	وأحل ما قد كان منه خصيبا

ولقد راعته دعوة المرأة إلى السفور. ونبذ الحجاب ، وهاله ما صحب هذه الدعوة أول أمرها من تبرج النساء وتقتصير ثيابهن واتخاذهن النقاب الشفاف فقال :

ما لابنة الخدر المصون	ورببة المجد الأثيل
أودى شفيف نقابها	بكرامة الأم البنول
وعلا زين حجـولها	أسفا على الذيل الطويل
فإذا مشت هتك النقاب	محاسن الوجوه الجميل
وجلا المقـور تحتـه	رخصا من الصدر الصقيل
تهتز عجباً بالقوام	اللسـدن والخصر النحيل
ولقد ينم غيرهما	فتشمه من نحو ميل
يسرى فتعترك الصبـبا	سبقا إليه مع الشمول
أهى التى فرض الحجا	ب لصونها شرع الرسـول
جعل الحجاب معاذها	من ذلك الداء السويل
يـا منـزل القـرآ	ن نور للبصائر والعقول
عميت بصـائر أهل وادى	النيل عن وضـح السـيل

هكذا كان عبد المطلب المتحرج المتزمت يسخط ويصخب على قصر ثياب الفتيات ورقة نقابهن ،

ولكن القدر الساخر أملى لشاعرنا في العمر حتى رأى هذا النقاب الشفاف وقد نبذ مرة واحدة ، ورأى الفتاة وهى تشارك الفتى فى كثير من شئون الحياة . وكان تعصبه للدين لا يقل عن تعصبه للعربية ، فهو يريد لها صفية نقية من كل لون من ألوان المدنية يحاول أن يطفى على بعض ألفاظها أو أن يغير على البديع من أساليبها ، أو يحيد شعرها عن سبيله العربى القويم . فكان يحمل على المجددين فى اللغة الذين يسخطون على القديم ويحاولون إنشاء أدب جديد ويقول :

نزعوا إلى دنس الإباحة فأنجلي
لنناس ذاك المنزع المذول
مازوا الجديد من القديم وما دروا
أن الجديد من القديم سليل

وتخرج عبد المطلب من دار العلوم وعين مدرسا بالمدارس الأميرية بمرتب ضئيل ، لهذا استطاع أن يصف ما يلاقيه المدرس من الكد والعنت ، ومن الفقر وشدة الحاجة :

بنى مصر ما بال المعلم كاسفا
سبيل النبيين الكرام سبيله
سلوا عنه جنت الليل كم بات متعبا
سلوا عنه جسما بات بالسقم ناحلا
سلوا عنه أسفارا قضى الليل بينها
سلوا عنه قلبا بات يخفق رحمة
سلوا عنه إخوانا قضى العمر بينهم
يرى الناس فيها يكبرون ويصغر
يعم به الدنيا الصلاح فتعمر
تنام حواليه النجوم ويسهر
فلا البرء مأمول ولا هو يعذر
غريبا عن الدنيا وأهلوه حضر
على فتية من حوله تتضور
غدا في ثراء وهو بالفقر أخبر

وكان لنشأته الأولى وقد قضاها فى بؤس وحاجة ، ولحياته الأخرى ، وكانت عيشته فيها تقرب من عيشة الكفاف ، أثر فى عطفه على كل بائس مسكين ، يخفى فقره بالتعفف ويصون وجهه من ذل السؤال :

وارحمنا للكريم يشكو
إذا دعا الصبر لم يجبه
هذاك يشكو الطوى لأخرى
وصاحب البيت بين هذى
يقول يارب عيل صبرى
هيهات هيهات وفولاه
نوائب العيش أم يدارى
وحولته جائع وعارى
الصقها البرد بالجدار
وذاك فى لوعة ونار
فهل درى ما لقيت جارى
بنعمة العيش واليسار

وطائفة كبيرة من شعره فى المذائح والمزائى والتهانى ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يكن غافلا عن وصف ماحوله من الحوادث أو ما كان يجيش بصدرة من آلام وآمال ، فقال كثيرا من الشعر السياسى

ونظم قصيدة في سيرة على بن أبى طالب تربو على مائتي بيت ، وقصيدة في وصف الحرب الماضية
طويلة الذبول ، وكان شديد الزهو بمصر وبمدنيتها القديمة ، يتخذ من ذلك ذريعة للاعتزاز بأمته
والمباهاة بها بين الأمم وإقامة الحججة على من يفرق بين عناصرها ، فهو يقول :

رويدك إننا في الملا يوم نتمى	كلانا أبو النيل أو أمه مصر
لنا ذروة المجد الذى تحت ظله	تناسلت الأحقاب واعتصم الدهر
لنا آية الأهرام يتلو قديمها	حديث الليالى فهى في فمها ذكر
ملأنا بلوح للوجود مناقبا	إذا ما خلا عصر تلامها به عصر

ثم يتسع له الأفق فيفخر بالشرق العربى كله حيث يقول :

هو الشرق مجلى النيرات ولم يزل	ضياء على الدنيا من الشرق يبلج
ومبعث رسل الله للناس رحمة	تسن الهدى للمهتدين وتنهج
ومهبط أملاك السماء عليهم	تنزل بالذكر الحكيم وتعرج
وما زال منا كل أروع سابق	بسيرته الأيام تشدو وتلهج

وقليلا ما كان الشيخ يحيد وصف مبتدعات الحضارة لضيق مدى خياله في هذه الناحية ثم لضيق
ذات يده من الثقافة العلمية ، فهو إذا وصفها لم يبعد عن خياله العربى ، استمع له في وصف طيارة :

يا أخت سابعحة النجو	م وبنت سابعحة الضمير
من عهد آدم لم تزل	عذراء مسيلة السطور
بكرا تكلبها أكف الغيو	ب في كف السطور
حتى جلتهما للعبو	ن منصة العهد الأخير
أفأنت وافدة البخا	ر على الأجساد والنسور؟
ما هذه السورق التى	في الجو تعلو في الهدير
غيرى من الأطياف	أحشائها لهب السعير
تورد السحاب الغمر إن	ورد الحمام إلى الغمديـر
خشعت لها هوج العوا	صف في السورواح وفي البكور

وآين هذا من قصائد شوقي في الطيران التى لم تترك معنى لقائل أو مستزاد لمستزيد . . . ؟

ولم يطرق الحب قلب الشيخ فيما نعلم ، لذلك كان غزله صناعيا تقليديا ، ولكنه قد يجيء في بعض الأحيان رقيقا حلوا على الرغم من بدوية عبد المطلب وخشونته :

صـب بـه ذهبت شـجـونـه	يـكـى فـتـسـعـده جـفـونـه
مـسـتـهـدـف لـفـنـونـه	جـهـلا فـحـاق بـه فـتـونـه
يـمـسـى و يـصـبـح فـي الحـنـين	و لـيـس يـنـفـمـه حـنـنـه
لـو شـاء كـتـان الصـبـا	بـة أـعـرـبت عـنـها عـيـونـه
يـا قـلب صـن عـهـد الـهـوى	لـا كـان قـلب لـا يـصـونـه

وشعر عبد المطلب كما تلى عليكم ، عربى الديباجة يتعصب للأسلوب العربى أشد التعصب ، ويميل إلى اللفظ الجزل والرزين البدوى ، وأخيلته ومعانيه كلها منقولة لم يولد منها عبد المطلب خيالا جديدا أو معنى جديدا ، فهو صورة شمسية للشعر القديم ، وضعت في إطار من الأغراض الحديثة لم يذهب بشيء من قدمها ، ولم يغير من جمالها الصحراوى إلا قليلا .

ولم الحيين يكن بك

نفس قوية الإحساس رقيقة العاطفة، دهيت في أول نشأتها ببعض الكوارث فانصرفت عما في الحياة من جمال وروعة، وعما في الكون من مظاهر تبعث السرور وتفيض بألوان البهجة والمرح، إلى النظر في جوانب الحياة القائمة التي لا يكاد ينفذ إليها شعاع من أمل حتى تعصف به رياحها العاتية. فهي نفس متشائمة متطيرة لا ترى في الغمامة السوداء حافتها الفضية، ولا في الشر العابس ما قد يتضمنه من خير. نامت بأعباء الحياة ونامت بها أعباء الحياة، ونظرت إلى الشاطئ البعيد فهو يقول:

تف على قوم هنالك هجد
ولو أستطيع اليوم لاخترت مرقدي
يكون بعيدا عن أعاد وحسد
تمر لأحرار وتحملو لأحبـد

سقى الله داراً بالقرافة ديمة
أحن إلى تلك المراقـد في الشرى
فأنزلت جسمي منزلا لا يملـه
وما يتمنى الحر من ظل عيشة
ويقول:

ويأبى أن يجود به الزمان
وجد حاربوه منذ كانوا
وأحـداث تكذبها سمان
يسوفيهـا الشكـاة ولا لسان
إذا دان العـدا وجب الأمان
لقد هانت رغائبهم وهانوا
ألا كذبوا على بعض وهانوا
ولا للخير في الأخــرى أو أن

يريد الناس في الدنيا هـناء
حياة حاربهم منذ كانت
وآمال تغرهم عـجاف
تكاثرت الخطوب فلا يـراع
أمانا أيها الخصم المعادى
لأن رغبـوا إليك رغبـت عنهم
يمنى الناس بعضهم بخير
فما للخير في الدنيا أو أن

وهكذا يشور به مزاجه العصبى ، وما منى به من آلام فيسخط على الحياة ، وينفى وجود الخير فى الدنيا والآخرة . وهو فى هذه الناحية يشبه أبا العلاء المعرى فى بعض ثوراته على الناس والزمان ، وهذه الحال فطرية زادها ما أصاب شاعرنا من أحداث وصروف قوة وتمكنا . فقد ولد بإستامبول سنة ثلاثة وسبعين وثمانائة وألف ، وقدم به أبوه مصر ، ولم تمض على الشاعر الصغير ست سنوات حتى فقد أباه فكفله عمه . واليتيم إذا كان قوى الإحساس مرهف العواطف وجد فى فقد الوالد ألما لا يجده سواه ، ورأى الدنيا وهى خالية من ذلك الحنو الطبيعى الحلو صحراء مقفرة كلها شمس محرقة وأرض جرداء إلا من الشوك والقتاد . يضاف إلى هذا ما حل بشاعرنا من الاضطهاد أيام حكم السلطان العثمانى عبد الحميد ، فقد نفى إلى سيواس وأقام بالنفى سبع سنوات . ثم ما أصابه من الداء العضال الذى كدر عليه الحياة وجعلها جحيماً أرضيا لا تنتهى له آلام ، والذى كان سيفاً مصلتاً فوق رأسه ، كما أخبرنى بعض أصدقائه - يوشك أن يطيح - استمع لما يقوله من منفاه :

يرعى النجوم وقومه هجعوا
أشكوا له ما بى فيستمع
وإذا همومى ليس تنفذ
فأنا فؤادى بات يدمع
واليوم أنظر كيف ينقطع
أدري حقيقته وأنخدع

وعين مله وهما عبر
وجسم مسه الكبر
ووقت كله هدر
لمن سهروا فينتظروا
وجفنى ضايقه السهر
عننى أقبلت صرور
يكاد يخوننى الحذر
إذا ما ساقنى السمر
وقد نظموا وقد ثروا
كأنى صارم ذكر
سأصدأ ما جرى العمر

يا ليل هذا ساهر قلق
هل فيك ذو شجن يشاركنى
سرت الهموم فبت أدفعها
من بات تدمع عينه أسفا
أشفقت من دهرى على أملى
ويلى عليه وهو يخدعنى
ويقول :

فؤاد دأبه الذاكر
ونفس فى شبيبته
وأمال مضيعه
أما يبال ليل من صبح
جفون الناس هاجمه
إذا صرور تولت منك
وحيدا فيك ذا حذر
فلا كتب أسامرها
ولا نظم ولا نشر
أرى « سيواس » تغمدنى
صدئت بها وأحبنى

ويقول في وصف مرضه الذى مات فيه :

وضنى لبست ثيابـه زمنا
حول تكامل فى مراراته
فأشـل نصف الجسم حين مضى

قلبت لا أقضى ولا أشفى
قد خلته من طولـه ألفا
ورمى إلى عـواده النصفـا

* * *

يا مسـغب الأجنـاد قد
إن الثـلاثين التى
وهبتك تجر بـة الأمـو
من كان يدعوك الخـير

أشـبت ساغبـة النسـور
مرت بنا مرالعصـور
ر فعشت فى جهـل الأمـور
ر فلست عنـدى بـالخـير

أما الشطر الذى قضاه بمصر فصرفه فى شبه عزلة عن الناس ، وشغله بنظم الشعر فى الحين إلى إستمبول والتغنى بمصر ، وفى الغزل الرقيق والثناء ، وفى شكوى الداء .

وأسلوب ولى الدين أسلوب جديد ، يعنى فيه بالمعانى أكثر من عنايته باللفظ ، وكان لثقافته العالية وإتقانه اللغتين التركية والفرنسية وإلمامه بالإنجليزية أثر واضح فى غزارة معانيه وحدة أخيلته . ومن معانيه الرائعة فى الغزل :

إن تكن قد خلقت للتيه أهـلا
لك عنـدى عقـدان دمعـى وشـعرى
كدت أنـمو الحـال ظـلك فى الأر

فأنـا قد خلقت للصبر أهـلا
فتخـير والسـدمع لا ريب أهـل
ض ولكن لا يطـبع النـور ظـلا

ورقة عاطفته جعلته فى الرثاء مجيدا سابقا ، قال يرثى إدوارد السابع ملك الانجليز :

بكى (التايـمز) صاحـبه المـفدى
وبـات البـحر جـف لـه عـباب
هناك السـابـحات لها زفـير
قضى إدوارد عـن مجد أثـيل
فإن ثـكـلـه أمتـه لـحـين
وإن طـال الحـام إلى عـلاه

فجـاوبـه هنا هـرم ونـيل
وبـات البر سـلن بـه سـهـول
وثم السـابـقات لها صـهـيل
ويبقى بـعـده المـجد الأثـيل
فإن بـمـثـله الدنـيا ثـكـول
فثم المـضـب تـغـمـرها السـيـول

ومات ولى الدين من جراء دائه القاتل سنة إحدى وعشرين وتسعمائة وألف ، وقد وجدت ورقة قرب سريره كتب فيها :

يا جسـداً قد ذاب حتـى انحـى
أهـانك اللـه بـصـر عـلى

إلا قـليـلا عـالقـا بـالشـقاء
ما سـتـعـانـى من قـلـيل البـقاء

الثراث الشعرى والنثرى واللغوى للأستاذ على الجارم

الشعر

١- ديوان على الجارم : طبعة حديثة فى جزئين فى مجلد واحد .

نشر دار الشروق . الطبعة الثانية ١٩٩٠ .

٢- مختارات من شعر على الجارم : إعداد دكتور أحمد على الجارم .

الطبعة الأولى ١٩٩٥ .

* * *

القصص النثرى الأدبى والبحوث والمقالات الأدبية

١- سلاسل الذهب : القصص الأدبى التاريخى الكامل .

نشر دار الشروق ١٩٨٩ . ويشتمل على روايات :

١- فارس بنى حمدان

٢- الشاعر الطموح

٣- خاتمة المطاف

٤- قصة العرب فى إسبانيا . (مترجم عن الكاتب الإنجليزى ستانلى لين بول) .

٥- شاعر ملك

٦- هاتف من الأندلس

٧- الفارس المثلث

٨- مرجع الوليد

٩- سيدة القصر

١٠- غادة رشيد

٢- جارميات : يحتوى على بحوثه ومقالاته الأدبية . دار الشروق الطبعة الثانية ٢٠٠٠م .

* * *

كتب علمية بالاشتراك مع الأستاذ مصطفى أمين

١- علم النفس وآثاره في التربية والتعليم : دار المعارف للطباعة والنشر.

٢- النحو الواضح (ابتدائي) أجزاء ١ - ٣ : دار المعارف للطباعة والنشر .

٣- النحو الواضح (ثانوي) أجزاء ١ - ٣ : دار المعارف للطباعة والنشر.

٤- البلاغة الواضحة : دار المعارف للطباعة والنشر .

٥- دليل البلاغة الواضحة : دار المعارف للطباعة والنشر .

* * *

شرح كتب التراث

١- شرح كتب البخلاء للجاحظ : بالاشتراك مع الأستاذ أحمد العوامى . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨ .

٢- شرح كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمؤلفه محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى : بالاشتراك مع الأستاذ محمد عوض إبراهيم . نشر دار المعارف للطباعة والنشر .

٣- شرح كتاب المكافأة لمؤلفه أبى جعفر أحمد بن يوسف الكاتب : بالاشتراك مع الأستاذ أحمد أمين . المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤١ .

٤- شرح ديوان البارودى جزء ١ ، جزء ٢ : بالاشتراك مع الأستاذ محمد شفيق معروف . نشر دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٧١ .

* * *

مراجعة ترجمة قصص عالمية

- ١ - قصة ترويض النمرة : تأليف وليم شكسبير ترجمة الأستاذ إبراهيم رمزي . راجعها بالاشتراك مع محمد فهيم بك والأستاذ محمد مظهر سعيد . نشرتها دار المعارف العمومية ١٩٣٣ .
طباعة دار الطباعة الأهلية شارع الفجالة . الرقم في دار الكتب : ز ١٢٧٦٩ .
- ٢ - قصة البخيل لموليير : ترجمة الأستاذ محمد مسعود . وقام بمراجعتها بالاشتراك مع الأستاذ على عبدالواحد . نشرتها وزارة المعارف العمومية ١٩٣٣ . طبع دار الطباعة الأهلية . الرقم في دار الكتب : ز ١٢٧٨٠ .



كتب دراسية اشترك في تأليفها

- ١ - كتاب تاريخ الأدب العربي : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد الإسكندراني ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشري ، أحمد ضيف .
في أربعة أجزاء للمدارس الثانوية . نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر . مطبعة دار المعارف ١٩٤٢ .
الرقم في دار الكتب : ز ١٤٥٧ .
- ٢ - كتاب المجمل في تاريخ الأدب العربي : مقرر للسنة الثالثة بالمدارس الثانوية . بالاشتراك مع الأساتذة : طه حسين ، أحمد الإسكندري ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشري ، أحمد ضيف .
نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر . طباعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢ . الرقم في دار الكتب : أدب ٨٣٣١ .
- ٣ - كتاب المفصل في تاريخ الأدب العربي : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد الإسكندري ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشري ، أحمد ضيف . نشر وزارة المعارف العمومية . طبع مطبعة مصر ١٩٣٤ .
- ٤ - كتاب المنتخب من أدب العرب : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد الإسكندري ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشري ، دكتور أحمد ضيف ، نشر دار المعارف بمصر .
- ٥ - كتاب المطالعة التوجيهية : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد أمين ، محمد أحمد جاد المولى ، السباعي السباعي بيومي ، أحمد زكي صفوت . نشر دار المعارف بمصر .
- ٦ - كتاب التوجيه في الأدب العربي : للسنة الخامسة التوجيهية بأقسامها الثلاثة . بالاشتراك مع الأساتذة : محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو بكر إبراهيم ، محمد السيد عمر ، عبده زيادة عبده ، حسنين حسن مخلوف . الطبعة الأولى ١٩٣٨ . نشر مطبعة المعارف ومكتبتها . الرقم في دار

الكتب : زمن ١٢٨٦٢ إلى ١٢٨٦٦ و ١٢٩٨٠ .

٧ - كتاب تاريخ الأدب العربي : لتلاميذ الستين الأولى والثانية للمدارس الثانوية . بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد أمين ، أحمد ضيف ، أحمد الإسكندري ، عبد العزيز البشري . وزارة المعارف العمومية . طبع المطبعة الأميرية . الرقم في دار الكتب : ز ١٩٩٠ .

* * *

كتب دراسية اشترك في تأليفها وراجعها

١ - كتاب أدب الإسلام للمدارس الثانوية : تأليف محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجي ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك في تأليفه وراجعته : على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . مطبعة المعارف ومكتبتها في مصر ١٩٣٨ . الرقم في دار الكتب : ب ٢٠٤١٨ .

٢ - كتاب أدب الإسلام للمدارس الثانوية بنات : تأليف محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجي ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك في تأليفه وراجعته . على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . نشر مطبعة دار الكتب المصرية لوزارة المعارف العمومية ١٩٣٨ . الرقم في دار الكتب : ب ٢٦٧٢٥ .

٤ - كتاب أدب الإسلام للمدارس الزراعية المتوسطة - الجزء الأول والثاني : تأليف محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجي ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك في تأليفه وراجعته : على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . طبع وزارة المعارف العمومية . الرقم في دار الكتب : ب ٣٥٣٩٩ .

٥ - كتاب تهذيب الأخلاق لمدارس الصناعات الأولية : تأليف : محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجي ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك في تأليفه وراجعته . على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٩٣٨ . الرقم في دار الكتب : ب ٢١١٥٥ .

٦ - كتاب تهذيب الأخلاق لمدارس الصناعات الابتدائية : تأليف : محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجي ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك في تأليفه وراجعته : على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . المطبعة الأميرية ١٩٥٣ . الرقم في دار الكتب : ب ٢٥٦٩٠ .

الفهرس

٥	تقديم : بقلم الأستاذ الدكتور أحمد على الجارم
٩	مقدمة : بقلم الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام
١٤	تقديم الطبعة الثانية : بقلم الدكتور أحمد على الجارم
		مرسوم بتعيين الأعضاء العاملين بمجمع اللغة العربية
١٦	منذ إنشائه عام ١٩٣٢ م
		براءة وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى الذى منحه السيد رئيس الجمهورية
١٨	إلى اسم المرحوم على الجارم فى نوفمبر ١٩٩١ م

أبحاث ومقالات الأستاذ على الجارم

١٩	التشظير العصرى ١٩٠٥
٢٠	العادة ١٩١٥ م
٣١	مرثية الأستاذ الشيخ حمزة فتح الله ١٩١٧ م
٣٥	مقدمة كتاب البلاغة الواضحة ١٩٣٢ م
		رأى الأستاذ على الجارم فى الشعر والشعراء
٤٥	بمناسبة وفاة الشاعرين شوقى وحافظ ١٩٣٣ م
٥٢	دراسات فى الشعر المصرى - البوصيرى - ١٩٣٣ م
٥٨	بحث الترادف ١٩٣٤ م
		تاريخ الأدب العربى . العصر التركى إلى بدء النهضة الحديثة -
٧٨	عصر المماليك ١٩٣٤ م
١٣٨	العصر العثمانى
١٤٤	على باشا مبارك ١٩٣٥ م
١٤٩	الشاعر أبو الطيب ١٩٣٥ م
١٥٥	مصطلحات الشئون العامة ١٩٣٦ م
١٦٤	طريق تكميل المواد اللغوية ١٩٣٦ م

١٩٠	طموح المتنبي ١٩٣٦ م
١٩٨	الفاروق الأديب الناقد ١٩٣٧ م
٢٠٣	اقتراح في مراتب وضع الألفاظ ١٩٣٥ م
٢٠٧	مقدمة ديوان الجارم ١٩٣٧ م
٢١٢	المصادر التي لا أفعال لها ١٩٣٧ م
٢٢٤	صوم رمضان في اللغة ١٩٣٨ م
٢٢٧	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (١) ١٩٣٨ م
٢٣٠	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٢) ١٩٣٨ م
٢٣٤	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٣) ١٩٣٨ م
٢٣٧	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٤) ١٩٣٨ م
٢٤١	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٥) ١٩٣٨ م
٢٤٤	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٦) ١٩٣٨ م
٢٤٧	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٧) ١٩٣٨ م
٢٥٠	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٨) ١٩٣٨ م
٢٥٤	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٩) ١٩٣٨ م
٢٥٧	إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (١٠) ١٩٣٨ م
٢٦٠	نهضة الشعر في العصر الحديث ١٩٤٢ م
٢٦٢	في ذكرى المغفور له حفنى بك ناصف ١٩٤٢ م
٢٦٧	نشأة الشعر الأندلسى وتطوره ١٩٤٤ م
٢٧٤	عناية ملوك الطوائف بالشعر والشعراء ١٩٤٤ م
٢٧٨	آراء المستشرقين في الشعر الأندلسى ١٩٤٢ م
٢٨٢	إعادة النظر في قرار قياسية فَعْل للتكثير والمبالغة ١٩٤٥ م
		اقتراح وضع قواعد جديدة يستعان بها في اشتقاق الأفعال من الجامد
٢٨٤	للضرورة ١٩٤٥ م
٢٨٦	المعارضات في الشعر العربى (١) في العصر الجاهلى ١٩٤٥ م
٢٩١	المعارضات في الشعر العربى (٢) في صدر الإسلام ١٩٤٥ م
٢٩٥	المعارضات في الشعر العربى (٣) في العصر الأموى ١٩٤٥ م
٣٠٢	المعارضات في الشعر العربى (٤) في العصر العباسى ١٩٤٥ م
٣١١	المعارضات في الشعر العربى (٥) عصر التراجع العباسى ١٩٤٦ م

٣١٨	الذين قتلهم أشعارهم (١) تدليل الشعر والشعراء ١٩٤٦ م
٣٢٥	الذين قتلهم أشعارهم (٢) ابن العشرين ١٩٤٦ م
٣٣٠	الذين قتلهم أشعارهم (٣) وضاح اليمن ١٩٤٦ م
٣٣٦	الذين قتلهم أشعارهم (٤) الشاعر المغامر ١٩٤٦ م
٣٤٢	الذين قتلهم أشعارهم (٥) قتيل السفينة ١٩٤٦ م
٣٤٨	الحكمة والأخلاق في شعر شوقي ١٩٤٧ م
٣٥٤	شرح نهج البردة ١٩٤٧ م
٣٥٨	الهجرة بطولة وعزم وإيمان ١٩٤٧ م
٣٦٢	الشعر الأندلسي ١٩٤٧ م
٣٦٨	أعلام الإسلام : يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ١٩٤٨ م
٣٧٢	عنترة شاعر الحرب والحب ١٩٤٨ م
	أعلام الإسلام : صقر قريش : عبد الرحمن الداخل حاكم جبار
٣٧٦	وشاعر رقيق ١٩٤٨ م
٣٨٠	صديقي أحمد شوقي ١٩٤٨ م
٣٨٥	أعلام الإسلام : طارق بن زياد ١٩٤٨ م
٣٨٨	طيف حبيب : مصطفى لطفى المنفلوطي ١٩٤٨ م
٣٩٢	الجملة الفعلية أساس التعبير في اللغة العربية ١٩٤٩ م
	أعلام الإسلام : العربي الذي هز إيوان كسرى
٣٩٦	أسد قريش : سعد بن أبي وقاص ١٩٤٩ م
٤٠٠	الموشح من تراثنا الأدبي والموسيقى ١٩٨٧ م (عن نشر سابق)
٤٠٢	شعراء النهضة من دواوينهم ١٩٩١ م (عن نشر سابق)
٤٢٨	التراث الشعري والنثري واللغوي للأستاذ على الجارم
٤٣٢	فهرس المحتويات

رقم الإيداع ٢٠٠١ / ٢٦٨٥

الترقيم الدولي 8 - 0694 - 09 - 977 I.S.B.N.

مطابع الشروحة

القاهرة : ٨ شارع ميسويه المصري - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هَذَا الْكِتَابُ

... وكما أن أثر الأدب والشاعرية قد جُمِّلَ العبارات العلمية في أسلوب الجرام ، لاحظت أن تخصصه الأول ، وهو علم النفس لم ينحزل عن طبيعته الأدبية حين يكتب في موضع علمي أدبي : كما نرى في أحد بحوثه المنشورة في هذه المجموعة تحت عنوان : « المعارضات الشعرية » ؛ فإنه يمهّد لهذا البحث بدراسة سيكولوجية عن المنافسة التي هي منشأ الشعور بالرغبة في المعارضات . يقول صاحب الفصل الذي كتب في كتاب علم النفس عن « الغرائز » : « غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيوانية ، وهي في الإنسان أبين منها في الحيوان وأظهر أثراً ، لأن الإدراك يزيد بها قوة ، ويستحثها إلى البروز والظهور . وإذا كانت في الحيوان غريزة عمياء ، تصدر عن دافع آتٍ ، ولا تتجه إلى غاية ، ولا تعمل إلا عملاً تسوقها إليه الفطرة من غير قصد ، فإنها في الإنسان غريزة مبصرة متعمدة ، تعرف ما تأتى وما تذر ، وترمى إلى هدف منصوب ، وتركض لتناول القصب في ميدان سباق الحياة » . وتظهر المنافسة في أنواع الحيوان المنحط الإدراك في التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به ... هذا شيء مشاهد في الحيوان لا مرية فيه ولا شك ... أما غريزة المنافسة في الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظل ...

ويستمر عالم النفس الأديب إلى أن يصل إلى ربط غريزة المنافسة بغريزة المحاكاة ، وبغريزة الإحساس بالنقص ... حتى ينتقل إلى موضوعه الأدبي العلمي . وليس هذا إلا مثلاً واحداً مما نجده في بحوثه التي يحتضنها علم النفس .

دكتور محمد مهدي علام